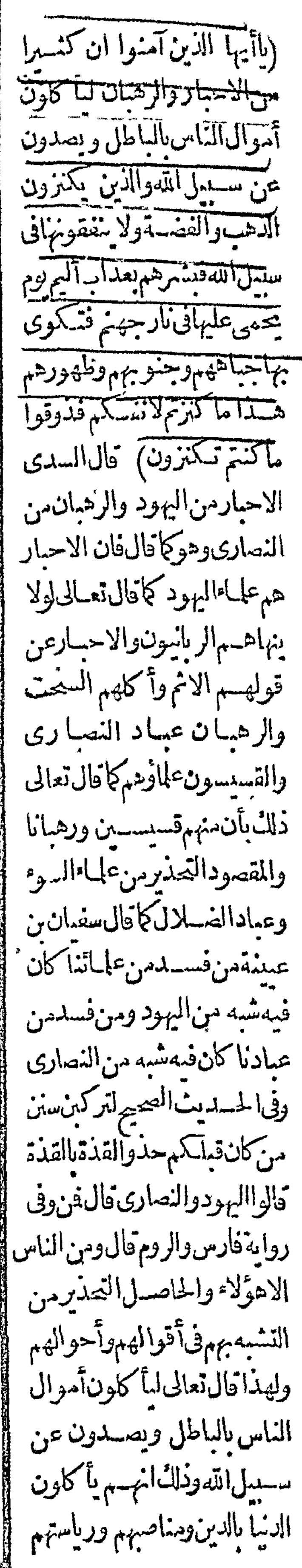
بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة يوسف عليه السلام)

قيل هي مائة وإحدى عشرة آية وهي مكية كلها وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة وقال ابن عباس وقتادة الا أربع آيات قال القرطبي قال العلماء ذكر الله أقاصيص الانبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ولا على معارضة ما لم يتكرر

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس (تلك آيات الكتاب المبين) أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في اعجاز العرب وتبكيتهم والمبين من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله وفي اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب او الواضح معانيه للعرب بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أي المبين لما فيه من الاحكام والشرائع وخفاء الملك والملكوت واسرار النشأتين في الدارين او المبين فيه قصص الاولين وشرح أحوال المتقدمين او قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف قال قتادة مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان أي ظهر وقال الزجاج مبين للحق من الباطل والحلال من



(يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) قال السدى الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فان الاحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى وفي الحديث الصحيح لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة قالوا اليهود والنصارى قال فمن وفي رواية فارس والروم قال ومن الناس الا هؤلاء والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وذلك انهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم

في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لاحبار اليهود على اهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء اليهم فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم ان تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم اياها وعوضهم الذل والصغار وباؤا بغضب من الله تعالى وقوله تعالى ويصدون عن سبيل الله أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة انهم يدعون الى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وقوله والذين يكنزون (٣) الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله الآية هؤلاء هم القسم الثالث من رؤس الناس فان الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الاموال فاذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين الا الملوك
وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدى زكاته وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال ما أدى زكاته فليس بكنز وان كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفا ومرفوعا وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا في الارض وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وان كان على وجه الارض وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبد الله ابن عمر فقال هذا قبل ان تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للاموال وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى خذ من اموالهم صدقة الآية وقال سعيد عن محمد بن زياد عن أبي أمامة انه قال حلية السيوف من الكنز ما أحدثكم الا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه قال أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقي قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن

الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر قال مجاهد بين الله حلاله وحرامه وعن معاذ قال بين الله الحروف التي سقطت عن ألسن الاعاجم وهي ستة أحرف (انا أنزلناه) أى الكتاب المبين حال كونه (قرآنا) فعلى تقدير أن الكتاب السورة يكون تسميتها قرآنا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض وعلى تقدير أن المراد به كل القرآن فتكون تسميته قرآنا واضحة و (عربيا) صفة لقرآن أى على لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وأنكرها أبو عبيدة محتجا بهذه الآية والجمع انها لما تكلمت بها العرب نسبت اليهم وصارت لهم لغة (لعلكم تعقلون) أى لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لانه نازل بلغتكم أخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا قرآنا عربيا ثم قال ألهم اسمعيل هذا اللسان العربي الهاما وعن مجاهد قال نزل القرآن بلسان قريش وهو كلامهم (نحن نقص عليك أحسن القصص) هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى وقالت لأخته قصيه أى تتبعي أثره وهو مصدر وسميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والتقدير نقص عليك قصصا أحسن القصص فيكون بمعنى الاقتصاص أو هو بمعنى المفعول أى المقصوص والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه قال ابن عباس قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه الآية وعن ابن مسعود مثله وقال قتادة نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وأمور الله السابقة في الامم أحسن البيان واختلف في وجه كون هذه السورة او القرآن هو أحسن القصص فقيل لان ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم وقيل لان فيها ذكر الانبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والانعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن وقيل لان فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما وقيل ان أحسن هنا بمعنى أعجب وقيل ان كل من ذكر فيها كان مآله السعادة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها (بما أوحينا) بإيحائنا

من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا الاوزاعى عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالسفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت الا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم انى أسألك الثبات فى الامر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما (٥) وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم انك أنت علام الغيوب وقوله تعالى يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما كما فى قوله ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك أنت العزيز الكريم اى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لانفسكم ولهذا يقال من أحب شيأ وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الاموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وامرأته تعينه فى ذلك كانت يوم القيامة عونا على عذابه أيضا فى جيدها أى عنقها حبل من مسد أى تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ فى عذابه كما ان هذه الاموال لما كانت أعز الاشياء على أربابها كانت أضر الاشياء عليهم فى الدار الآخرة فيحمى عليها فى نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الاعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود والله الذى لا اله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا ولا يصح رفعه والله أعلم وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغنى ان الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول أنا كنزك لا يدرك منه شيأ الا أخذه وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن

أولى والمراد حقيقة السجود لانه كان التحية فيما بينهم السجود وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره والاول أولى ولم تظهر رؤية يوسف الابعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة حين اجتمع عليه أبواه واخوته وخروا له ساجدين (قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك) الرؤيا مصدر رأى فى المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف نهى يعقوب ابنه يوسف عن ان يقص رؤياه على اخوته لانه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال (فيكيدوا لك كيدا) وهذا جواب النهى أى فيفعلوا لاجلك كيدا مثبتا راسخا لا تقدر على الخلوص منه أو كيدا خفيا عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من ان يقال فيكيدوا كيدا وقيل انما جىء باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدى باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعا الكيد والاحتيال كما هو القاعدة فى التضمين ان يقدر أحدهما أصلا والآخر حالا (ان الشيطان للانسان عدو مبين) مستأنفة كأن يوسف قال كيف يقع ذلك منهم فنبه بأن الشيطان يحملهم على ذلك لانه عدو للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت أحاديث صحيحة فى بيان الرؤيا الصالحة وأنها من الله والسوء وأنها من الشيطان وفى ان رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزأ من النبوة وليس لها تعلق بهذه الآية بل هى تعم (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى رأيته فى المنام وشاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك الدال على شرف وعز وكمال نفس ويجتبيه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا فيجعلك نبيا ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما سخرت لك تلك الاجرام التى رأيتها فى منامك فصارت ساجدة لك قال النحاس الاجتباء أصله من جبيت الشىء اذا حصلته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض جمعته ومعنى الاجتباء الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه اياه بفيض الهى تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعى من العبد وذلك مختص بالانبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ومنها (ويعلمك من تأويل الاحاديث) أى تأويل الرؤيا قال مجاهد عبارة الرؤيا وقال ابن زيد تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس وسمى الرؤيا أحاديث

أبي طلحة عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه يقول ويلك ما أنت فيقول أنا كنزك الذي تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله الا جعل له يوم القيامة صفائح (٦) من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار وذكر تمام الحديث وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال مررت على أبي ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض قال كنا بالشام فقرأت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه الا في أهل الكتاب قال قلت انها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب الى عثمان يشكوني فكتب الي عثمان أن أقبل اليه قال فأقبلت اليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ فشكوت ذلك الى عثمان فقال لي تنح قريبا قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشي أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه الى أمير المؤمنين عثمان وان يأخذه اليه فاستقدمه عثمان الى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث اليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث اليه الذي أتاه بها فقال ان معاوية انما بعثني الى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك انها خرجت ولكن اذا جاء مالي حاسبناك به وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس انها عامة وقال السدي هي في أهل القبلة وقال الاحنف

لانها أحاديث الملك ان كانت صادقة وأحاديث الشيطان ان كانت كاذبة قال القرطبي وأجمعوا ان ذلك في تأويل الرؤيا وقد كان يوسف أعلم الناس بتأويلها وقيل المراد تأويل أحاديث الامم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به احواج اخوته اليه وقيل انجاؤه من كل مكروه وقيل انجاؤه من القتل خاصة والاحاديث جمع تكسير فقيل لواحد ملفوظ به وهو حديث ولكنه شذ جمعه على أحاديث وله نظائر في الشذوذ كأباطيل وأفاظيع وأعاريض في باطل وفظيع وعريض وزعم أبو زيد أن لها واحدا مقدرا وهو أحدوثة ونحوه وليس باسم جمع لان هذه الصيغة مختصة بالتكسير واذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لم يصرح له بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وأبابيل ففي أحاديث أولى قاله السمين (ويتم نعمته عليك) فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة (وعلى آل يعقوب) وهم قرابته من اخوته وأولاده ومن بعدهم وذلك ان الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد أن يكون اشارة الى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء وبه قال أكثر المفسرين (كما أتمها على أبويك) أي اتماما مثل اتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون ابراهيم اتخذه الله خليلا ومع كون اسحق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لهما الذرية الطيبة وهم يعقوب ويوسف وسائر الاسباط (من قبل) أي من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه أو من قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك أو بدل منه أو على اضمار أعني وعبر عنهما بالابوين مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام (ان ربك عليم) بمصالح خلقه (حكيم) في أفعاله والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلا له أي فعل ذلك لانه عليم حكيم اشارة الى قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته وانه لا يضع النبوة الا في نفس قدسية وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبير الرؤياه على طريق الاجمال أو علم ذلك من طريق الوحي أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية (لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين) أي لقد كان في قصتهم علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس عنها وغيرهم ففيه اكتفاء وقرأ أهل مكة آية على التوحيد قال النحاس وآية ههنا قراءة

حسنة

ابن قيس قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش اذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيأ قال وأدبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم فقال ان هؤلاء لا يعلمون شيأ وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي ذر ما يسرني ان عندي مثل أحد ذهبا يمر علي ثلاثة أيام وعندي (٧) منه شئ الا دينارا أرصده لدين فهذا والله أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه انه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها ان تشتري به فلوسا قال قلت لو ادخرته لحاجة ينوبك وللضيف ينزل بك قال ان خليلي عهد الى أن أيما ذهب أو فضة أوكي عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل ورواه عن يزيد عن همام به وزاد افراغا وقال الحافظ ابن عساكر بسنده الى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن صدقة بن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الرهاوي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا قال يا رسول الله كيف لي بذلك قال ما سئلت فلا تمنع وما رزقت فلا تخبأ قال يا رسول الله كيف لي بذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ذاك والا فالنار اسناده ضعيف وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيتان صلوا على صاحبكم وقد روى هذا من طرق أخر وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدى ابن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كية ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيتان وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر اسحق بن ابراهيم

حسنة وقيل المعنى لقد كان في يوسف واخوته آيات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للسائلين له من اليهود فانه روى انه قال جماعة منهم وهو بمكة اخبرنا عن رجل من الانبياء كان بالشام أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الانبياء وانما وجهوا اليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة وقيل معنى آيات للسائلين عجب لهم وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل اليه أمره من الملك ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات قال القرطبي وأسماؤهم يعني اخوة يوسف وهم أحد عشر روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين زلفة وبلهه أربعة وهم دان ونفتونا وجاد وأوشير ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا وقال السهيلي ان أم يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحق قال انما قص الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم خبر يوسف وبغي اخوته عليه وحسدهم اياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم اياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسي به

(اذ) أي وقت ان (قالوا ليوسف وأخوه) هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو أصغر من يوسف وخصوه بكونه أخاه مع انهم جميعا اخوته لانه أخوه لابويه كما تقدم واللام لام القسم أي والله ليوسف ووحد الخبر فقال (أحب الى أبينا منا) مع تعدد المبتدا لان أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه اذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياسا فصيح استعمالا لوروده في أفصح الفصيح واذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى الى الفاعل المعنوي بالى والى المفعول المعنوي باللام أو بفي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة وانما قالوا هذا لانه بلغهم

الفراديسي حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلسي حدثني أرطاة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض الا جعل الله بكل قيراط صفيحة من نار يكوى بها من قدمه الى ذقنه وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يوضع الدينار على الدينار ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم (٨) فذوقوا ما كنتم تكنزون سيف هذا كذاب متروك (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ثم قال أي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى ثم قال أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى ثم قال أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليست البلدة قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأحسبه قال وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ورواه البخاري في التفسير وغيره ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض

خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده (ونحن عصبة) الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة الى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة الى الاربعين قاله قتادة والمادة تدل على الاحاطة من العصابة لاحاطتها بالرأس وقيل الاصل فيه ان كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط وقد كانوا عشرة (ان أبانا لفي ضلال مبين) أي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وايثارهما دوننا مع استوائنا في الانتساب اليه ولا يصح ان يكون مرادهم انه في دينه في ضلال اذ لو أرادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد أي لفي خطا من رأيه (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أي في أرض واليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري أي أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها من الناس ولانها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل انها مفعول ثان والمعنى انزلوه أرضا والطرح الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا افعلوا به أحد الامرين اما القتل أو الطرح في أرض أو المشير بالقتل بعضهم والمشير بالطرح البعض الآخر أو كان المتكلم بذلك واحدا منهم فوافقه الباقون فكانوا كالقائل في نسبة هذا المقول اليهم وجواب الامر (يخل لكم وجه أبيكم) أي يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملا لأن الرجل اذا أقبل على الشئ أقبل بوجهه (وتكونوا من بعده) أي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه وقيل من بعد الذنب الذي اقترفتموه في يوسف (قوما صالحين) في أمور دينكم وطاعة أبيكم أو صالحين في أمور دنياكم بذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه أو المراد بالصالحين التائبون من الذنب في المستقبل (قال قائل منهم) أي من الاخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والاول أولى قيل وجه الاظهار في (لا تقتلوا يوسف) استجلاب شفقتهم عليه فلم ير هذا القائل القتل ولا طرحه في أرض خالية قفراء بل قال (وألقوه في غيابت الجب) أي في بئر يشرب منها الماء فانه أقرب لخلاصه فحصل ذلك انه اختار خصلة ثالثة هي أرفق بيوسف من تينك الخصلتين قرأ جماعة غيابة بالافراد وغيرهم بالجمع وأنكر ابو

أبو عبيد الجمع لان الموضع الذي ألقوه فيه واحد قال النحاس وهذا تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شئ غيب عنك شيأ وقيل للقبر غيابة والمراد به اهنا غور البئر الذي لا يقع عليه البصر أو طاقة فيه قال الهروي الغيابة سد أو طاق في البئر قريب الماء يغيب ما فيه من العيون وقال الكلبي الغيابة تكون في قعر الجب لان أسفله واسع ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري هي غوره وما غاب منه من عين الناظر وأظلم من أسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فاذا طويت قيل لها بئر وسميت جبا لأنها قطعت في الارض قطعا أو لكونه محفورا في جبوب الارض أي ما غلظ منها وجمع الجب جبب وجباب وأجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في ان يلقوه في مكان أسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر ببيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايلياء وقيل بالاردن قاله وهب وقيل بالشام وعن ابن زيد قال بحذاء طبرية بينه وبينها أميال وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وجواب الامر (يلتقطه بعض السيارة) قرئ بالتحتية والفوقية ووجهه ان بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار أي المبالغ في السير والالتقاط هو أخذ شئ مشرف على الضياع من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كأنهم أرادوا ان بعض السيارة اذا التقطه حمله الى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه ومن يعرفه ولا يحتاجون الى الحركة بأنفسهم الى المكان البعيد فربما ان والدهم لا يأذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفا يرد عليه كثير من المسافرين (ان كنتم فاعلين) أي عاملين بما أشرت به عليكم في أمره كأنه لم يجزم بالامر بل وكله الى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره وفي هذا دليل على ان اخوة يوسف ما كانوا أنبياء فان الانبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلما وبغيا وقيل كانوا أنبياء وكان ذلك منهم زلة قدم أوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم ورد بان الانبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد قيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وقيل انهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من

وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ورواه البزار عن محمد بن معمر به ثم قال لا يروى عن أبي هريرة الا من هذا الوجه وقد رواه ابن عون وقرة عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى بن عبد الرحمن المروقي حدثنا زيد بن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال أيها الناس ان الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته (٩) يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله منها أربعة حرم قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه وتثبيت للامر على ما جعله الله في أول الامر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله تعالى الى يوم القيامة وهكذا قال ههنا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض أي الامر اليوم شرعا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق الله السموات والارض وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث ان المراد بقوله قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض انه اتفق ان حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك

بعد وكان كل ذلك قبل ان نبأهم الله ولما أجمع رأيهم على ان يلقوه في غيابات الجب جاؤا
الى أبيهم وخاطبوه بلفظ الابوة استعطافا له وتحريكا للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء
للابناء وتوسلا بذلك الى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام
المنكر لأمر ينبغي ان يكون الواقع على خلافه (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف) أي
أي شئ لك لا تجعلنا أمناء عليه وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك ان يخرج معهم يوسف
فأبى قرئ تأمنا بالاظهار وبالادغام من غير اشمام واتفق الجمهور على الاخفاء أو الاشمام
(وانا له لناصحون) في حفظه وحيطته عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده اليك
(أرسله معنا غدا) أي في غد الى الصحراء التي أرادوا الخروج اليها وغدا ظرف والاصل
عند سيبويه غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا
يقال له بكرة والغد اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه (يرتع) هذا جواب الامر قرئ
بالنون واسكان العين وبها وكسر العين اسناد اللكل والاولى مأخوذة من قول العرب
رتع الانسان أو البعير اذا أكل كيف شاء والمعنى يتسع في الخصب وكل مخصب راتع
والرتع التمتع في أكل الفواكه ونحوها والثانية مأخوذة من رعي الغنم وقرئ بالتحتية فيهما
ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف وقال القتيبي معنى نرتع نتحارس ونتحافظ
ويرعى بعضنا بعضا من قولهم رعاك الله أي حفظك (ويلعب) من اللعب قيل لابي
عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء وقيل المراد به اللعب
المباح وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعاونون به الحرب
ويتقوون به عليه وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الاعداء كما في قولهم
انا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق وسماه لعبا لشبهه به ولذلك لم ينكر
عليهم يعقوب لما قالوا ونلعب ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لجابر فهلا بكرا تلاعبها
وتلاعبك وقال ابن عباس نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهوا (و) الحال (انا له لحافظون)
من ان يناله مكروه (قال) أي فأجابهم يعقوب بقوله (اني ليحزنني أن تذهبوا به) أي
ذهابكم به واللام لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال أخبرهم بأنه يحزن لغيبة
يوسف عنه لفرط محبته له وحنوه عليه والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب (و) مع ذلك
(أخاف أن يأكله الذئب) قال هذا يعقوب تخوفا عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب وقيل

السنة في ذي الحجة وان العرب قد كانت نسئت النسيء يحجون في كثير من السنين بل ا[illegible] في غير ذي الحجة وان حجة الصديق
في سنة تسع كانت في ذي القعدة وفي هذا نظر كما سنبينه اذا تكلمنا على النسيء وأغرب منه مارواه الطبراني عن بعض السلف في جملة
حديث انه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم * (فصل) ذكر الشيخ علم الدين
السخاوي في جزء جمعه سماه المشهور في أسماء الايام والشهور ان المحرم سمي لكونه شهرا محرما وعندي انه سمي بذلك تأكيدا
لتحريمه لان العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم وصفر سمي بذلك
لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والاسفار يقال صفر المكان اذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال شهر ربيع الاول سمي بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الاقامة من عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء وعلى أربعة كرغيف وأرغفة ربيع الآخر كالاول جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه قال وكانت الشهور في حسابهم لا تدور وفي هذا نظر اذا كانت شهورهم منوطة بالاهلة ولا بد من دورانها فلعلهم سموه بذلك وسمي عند جمود الماء في البرد كما قال الشاعر

وليلة من جمادى ذات أندية … لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة … حتى يلف على خرطومه الذنبا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الاولى وجمادى الآخرة رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع
على شعابين وشعبانات من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت النصال اذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين انه
وأرمضة قال وقول من قال انه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت اليه قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته
في أول كتاب الصيام شوال من شالت الابل بأذنابها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات القعدة بفتح القاف وكسرها
لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة الحجة بكسر الحاء وفتحها سمي بذلك لايقاعهم الحج فيه ويجمع على
ذوات الحجة أسماء الايام أولها الاحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين الثلاثاء فيمد ويذكر

ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ثم الاربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرابيع والخميس يجمع على أخمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم واسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجماعات السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الايام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين

أرجى ان أعيش وان يومى * باول أو باهون أو جبار
أو التالى دبار فان أفته * فمؤنس أو عروبة او شيار

وقوله تعالى منها أربعة حرم فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه (١١) وهو الذى كان عليه جمهورهم الا طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا وأما قوله ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان وانما أضافه الى مضر لصحة قولهم فى رجب انه الذى بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من ان رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين صلى الله عليه وسلم انه رجب مضر لا رجب ربيعة وانما كانت الاشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد لاجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لانهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لانهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعون فيه الى أقصى بلادهم آمنين وحرم رجب فى وسط الحول لاجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم اليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود الى وطنه فيه آمنا وقوله ذلك الدين القيم أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الاشهر الحرم والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الاول قال تعالى فلا تظلموا فيهن أنفسكم أى فى هذه الاشهر المحرمة لانها آكد وأبلغ فى الاثم من غيرها كما ان المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس فى قوله فلا تظلموا فيهن أنفسكم قال فى الشهور كلها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ان عدة الشهور عند الله

انه خاف ان يأكله الذئب حقيقة لان ذلك المكان كان كثير الذئاب ولو خاف منهم عليه ان يقتلوه لارسل معهم من يحفظه قال ثعلب الذئب مأخوذ من تذأبت الريح اذا هاجت من كل وجه قال والذئب مهموز لانه يجئ من كل وجه (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لكونكم غير مهتمين بحفظه أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تلقنوا الناس فيكذبون فان بنى يعقوب لم يعلموا ان الذئب يأكل الناس فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب (قالوا) جوابا عن عذره الثانى وهو قوله أخاف ان يأكله الذئب وأما عذره الاول وهو قوله انى ليحزننى فلم يجيبوا عنه اما لكون الحزن زمنه قصيرا لانقضائه برجوعهم واما لانه ليس غرضهم ازالة الحزن عنه بل ايقاعه فيه والثانى هو المتعين (لئن أكله الذئب) اللام هى الموطئة للقسم والمعنى والله لئن أكله الذئب (و) الحال انا (نحن عصبة) جماعة كثيرة عشرة رجال (انا اذا) أى فى ذلك الوقت وهو أكل الذئب له (لخاسرون) لهالكون ضعفا وعجزا أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة عن أيسر شئ وأقله أو مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر فى الجملة التى قبلها (فلما ذهبوا به) من عند يعقوب (وأجمعوا) أمرهم أى عزموا لان أصل معنى الاجماع العزم المصمم (أن يجعلوه فى غيابت الجب) قد تقدم تفسيرهما قريبا وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه أى فعلوا به مافعلوا من الاذى وقيل جوابه قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا والواو مقحمة ومثله قوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أى ناديناه قال ابن عباس كان يوسف فى الجب ثلاثة أيام (وأوحينا اليه) أى الى يوسف تبشيرا له وتأنيسا لوحشته مع كونه صغيرا اجتمع على انزال الضرر به عشرة رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة وسلبت منها الرأفة فان الطبع البشرى دع عنك الدين يتجاوز عن ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شئ يراد منه فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو أخ لهم ولهم أب مثل يعقوب فلقد أبعد من قال انهم كانوا أنبياء فى ذلك الوقت فما هكذا عمل الانبياء ولا فعل الصالحين وفى هذا دليل على انه يجوز أن يوحى الله الى من كان صغيرا ويعطيه النبوة

الآية فلا تظلموا فيهن في كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة في قوله فلا تظلموا فيهن أنفسكم ان الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها وان كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء وقال ان الله اصطفى صفايا من خلقه اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكره واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة (١٢) القدر فعظموا ما عظم الله فانما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية بان لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد ابن اسحق فلا تظلموا فيهن أنفسكم أي لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فانما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر وهذا القول اختيار ابن جرير وقوله وقاتلوا المشركين كافة أي جميعكم كما يقاتلونكم كافة أي جميعهم واعلموا أن الله مع المتقين وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين أحدهما وهو الأشهر انه منسوخ لانه تعالى قال ههنا فلا تظلموا فيهن أنفسكم وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بانه أمر بذلك أمرا عاما ولو كان محرما في الشهر الحرام لأوشك ان يقيده بانسلاخها ولان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين انه خرج الى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم فلجؤا الى الطائف فعمد الى الطائف فحاصرهم أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر ان ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وانه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام وقال الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم الآية وقال فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين وقد تقدم انها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين وأما قوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة

حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الالهام كقوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأوحينا الى أم موسى والأول أولى وقد قيل انه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجل وهو بعيد جدا فان من كان قد بلغ مبالغهم لا يخاف عليه ان يأكله الذئب (لتنبئنهم) أي لتخبرن اخوتك (بامرهم هذا) الذي فعلوه معك بعد خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر (و) الحال أن (هم لا يشعرون) بانك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بالقائهم لك في غيابة الجب ولبعد عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار اليه ملك مصر وقال مجاهد وهم لا يشعرون بذلك الوحي وقال قتادة فهون ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال وهم لم يعلموا بوحي الله اليه (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) وهو آخر النهار وقيل في الليل ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب أي جاؤا باكين أو متباكين لانهم لم يبكوا حقيقة بل فعلوا فعل من يبكي ترويجا لكذبهم وتنفيقا لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا الى أبيهم (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في الرمي وقيل ننتضل بالسهام ويؤيده قراءة ابن مسعود ننتضل قال الزجاج وهو نوع من المسابقة وقال الأزهري النضال في السهام والرهان في الخيل والمسابقة تجمعهما قال القشيري نستبق أي في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام والغرض من المسابقة التدرب بذلك في القتال وقال السدي يعني نشتد ونعدو * وقال مقاتل نتصيد أي نستبق الى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ثيابنا ليحرسها (فأكله الذئب) الفاء للتعقيب أي أكله عقب ذلك وقد اعتذروا اليه بما خافه سابقا عليه ورب كلمة تقول لصاحبها دعني (وما أنت بمؤمن) أي بمصدق (لنا) في هذا العذر الذي أبدينا والكلمة التي قلناها وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق (ولو كنا) عندك أو في الواقع (صادقين) لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له قال الزجاج والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف وكذا ذكره ابن جرير وغيره (وجاؤا على قميصه بدم كذب) وصف الدم بانه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكأنه نفسه صار كذبا أو قيل المعنى بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه قال ابن

عباس

فيحتمل انه منقطع عما قبله وانه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم اذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم اذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ويحتمل انه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام اذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص وقال تعالى ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم الآية وهكذا الجواب عن حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف واستصحابه الحصار الى أن دخل الشهر الحرام فانه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف (١٣) فانهم هم الذين ابتدؤا القتال وجمعوا الرجال ودعوا الى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب اليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما وكان ابتداؤه فى شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لانه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم ولنذكر الاحاديث الواردة فى ذلك وقد حررنا ذلك فى السيرة والله أعلم

(انما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله فانهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الاشهر الثلاثة وما فيها من التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال اعدائهم فكانوا قد أحدثوا قبل الاسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه الى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة الاشهر الاربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان

لقد علمت معد بان قومى * كرام الناس ان لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما
فاى الناس لم ندرك بوتر * وأى الناس لم يعلك لجاما

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله انما النسئ زيادة فى الكفر

عباس ومجاهد كانه دم سخلة وقرأ الحسن وعائشة بدم كدب بالدال المهملة أى بدم طرى يقال للدم الطرى كدب وقال الشعبى انه المتغير والكدب أيضا البياض الذى يخرج فى اظفار الاحداث فيجوز ان يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة اللونين وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليه السلام فقال (قال بل سولت) أى زينت وسهلت وأمرت (لكم أنفسكم أمرا) قال النيسابورى التسويل تقرير معنى فى النفس مع الطمع فى اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الامنية قال الازهرى وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة وفى الشهاب من السول بفتحتين وهو استرخاء العصب ونحوه فكأن المسول بذله فيما حرص عليه (فصبر جميل) قال الزجاج اى فشأنى أو الذى أعتقده صبر جميل وقال قطرب أى فصبرى صبر جميل وقيل فصبر جميل أولى بى قيل الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه لأحد غير الله وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لا شكوى فيه من بث لم يصبر أخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد ليس فيه جزع وقرئ فصبرا جميلا وكذا فى مصحف أنس قال المبرد بالرفع أولى من النصب لأن المعنى رب عندى صبر جميل وانما النصب على المصدر أى فلأصبرن صبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبارية (على) أى على اظهار حال أو على احتمال (ما تصفون) أى تذكرون من أمر يوسف عليه السلام وقال قتادة على ما تكذبون (وجاءت سيارة فأرسلوا) ذكر على المعنى مكان أرسلت (واردهم) هذا شروع فى حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره وقد تقدم تفسير السيارة أى جماعة مسافرون سموا سيارة لسيرهم فى الارض والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام أو من مدين الى مصر فأخطؤا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب وكان فى قفرة بعيدة من العمران ترده المارة والرعاة وكان ماؤه ملحا والوارد الذى يرد الماء ليستقى للقوم وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك بن ذعر الخزاعى من العرب العاربة (فأدلى دلوه) يقال أدلى دلوه اذا أرسلها ليملأها ودلاها اذا أخرجها قاله الاصمعى والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذى يستقى به فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد (قال يا بشرى) ومعنى مناداته للبشرى

قال النسىء ابن جنادة بن عمرو بن أمية الكنانى كان يوافى الموسم فى كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا ان أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وان صفر العام الاول حلال فيحله للناس فيحرم صفرا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله انما النسىء زيادة فى الكفر يقول يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه وروى العوفى عن ابن عباس نحوه وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان رجلا من بنى كنانة يأتى كل عام الى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس انى لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما أقول انا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته (١٤) ويقول انا قد حرمنا صفرا وأخرنا المحرم فهو قوله ليواطئوا عدة ما حرم الله قال يعنى الاربعة فيحلوا ما حرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام وروى عن أبى وائل والضحاك وقتادة نحو هذا وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله انما النسىء زيادة فى الكفر الآية قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد اليه يده فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم فقال ننسيه العام هما العام صفران فاذا كان العام القابل جعلناهما محرمين قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان فهذه صفة غريبة فى النسىء وفيها نظر لانهم فى عام انما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وقد روى عن مجاهد صفة غريبة أيضا فقال عبد الرزاق انا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى انما النسىء زيادة فى الكفر الآية قال فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة قال وكان المشركون يسمون ذى الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع سببا وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذى القعدة وذى الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرا ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ثم يسمون شوال رمضان ثم يسمون ذا القعدة شوالا ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذا الحجة ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون فى كل شهر عامين حتى اذا وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى القعدة ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم حجته التى حج فوافق

انه أراد حضورها فى ذلك الوقت فكأنه قال هذا أوقت مجيئك وأوان حضورك وقيل انه نادى رجلا اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم الا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرئ يا بشراى أى وعليه أهل المدينة وأهل مصر وأهل البصرة وأهل الشام قرؤا باضافة البشرى الى الضمير فالاول أولى قال النحاس والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجبا أى يا عجب هذا من أيامك فاحضر قال وهذا مذهب سيبويه (هذا غلام) وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان وقد أعطى شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن فكان حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا ابتسم ظهر النور من ضواحكه واذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه قال الضحاك فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاما لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه وقال قتادة تباشروا به حين استخرجوه من البئر وهى ببيت المقدس معلوم مكانها (وأسروه) أى أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن أخفوا وجدانهم له فى الجب وزعموا انه دفعه اليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر وقال مجاهد أسره التجار بعضهم من بعض وقيل ضمير الفاعل فى أسروه لاخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك انه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يأخذوه فيقتلوه وعن ابن عباس يعنى اخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا ان يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة ان يقتله اخوته واختار البيع فباعه اخوته بثمن بخس والاول أولى (بضاعة) أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال أى يقطع منه لانها قطعة من المال الذى يتجر به قيل قاله لهم الوارد وأصحابه انه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة ان يشاركوهم فيه (والله عليم بما يعملون) أى بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه فان هذا البلاء الذى فعلوه به كان سببا لوصوله الى مصر وتنقله فى أطوار حتى صار ملكها فرحم الله به العباد والبلاد خصوصا فى سنى القحط الذى وقع بها كما سيأتى قيل وفيه وعيد شديد لمن كان فعله

سببا لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال بجرى البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم كما قال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في وصفه بذلك (وشروه) يقال شراه بمعنى اشتراه وشراه بمعنى باعه والمراد هنا الثاني أي باعه الوارد وأصحابه أو اشتراه السيارة من اخوته (بثمن بخس) ناقص أو زيف وقيل ظلم وقيل حرام لان ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخسا لانه مبخوس البركة أي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل (دراهم) بدل من ثمن أي لا دنانير (معدودة) قيل باعوه بعشرين درهما وقيل بأربعين درهما وفيه اشارة الى انها قليلة تعد ولا توزن لانهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهما أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال انما اشترى يوسف بعشرين درهما وكان أهله حين أرسل اليهم بمصر ثلثمائة وتسعين انسانا رجالهم أنبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرج مع موسى حتى كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا وقد روى في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة الى التطويل بذكره (وكانوا) الضمير يرجع الى ما قبله على حسب اختلاف الاقوال (فيه) أي في يوسف (من الزاهدين) أصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها قال سيبويه والكسائي قال أهل اللغة زهد فيه أي رغب عنه وزهد عنه أي رغب فيه والمعنى انهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس لان غرضهم ابعاده عنهم لا تحصيل ثمنه وقيل ذلك لانهم التقطوه والملتقط للشئ متهاون به ولما دخلوا مصر وعرضوه للبيع ترافع الناس في ثمنه. (وقال الذي اشتراه من مصر) هو العزيز الذي كان على خزائن مصر وكان وزيرا لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل ان الملك هو فرعون موسى وقال ابن عباس كان اسم المشترى قطفير وعن محمد بن اسحق اطفير بن روحب وكان اسم امرأته راعيل بنت رعاييل واسم الذي باعه من العزيز مالك ابن ذعر قيل اشتراه بعشرين دينارا وقيل ترايدوا في ثمنه فبلغ اضعاف وزنه مسكا وعنبرا وحريرا وورقا وذهبا ولآلئ وجواهر وكان وزنه أربعمائة رطل روى انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة

ذا القعدة فذلك حين يقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وهذا الذي قال مجاهد فيه نظر أيضا وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة وأنى هذا وقد قال الله تعالى وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله الآية وانما نودي به في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى يوم الحج الأكبر ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين فان النسيء حاصل بدون هذا فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا (١٥) والسنة على نظامها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه ليواطئوا عدة ما حرم الله أي في تحريم أربعة أشهر من السنة الا انهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسؤونه الى صفر أي يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار الحديث أي ان الامر في هذه الاشهر وتحريم ما هو محرم منها على ما ثبت في كتاب الله من العدد والتوالي لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني حدثنا مكي بن ابراهيم حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أنه قال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة فاجتمع اليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال وانما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسيء وقد تكلم الامام محمد بن اسحق على هذا في كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم ابنه قلع ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الاسلام فكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعني ويحرم

ثم أحل الله والله أعلم (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير) هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمرة القيظ فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أي تكاسلتم (١٦) وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة أي ما لكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ورغب في الآخرة فقال فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسمعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخي بني فهر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم وروى ابن أبي حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال قلت يا أبا هريرة سمعت اخواني بالبصرة أنك تقول سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة ثم تلا هذه الآية فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل وقال الثوري عن الأعمش في الآية إلا قليل قال كزاد الراكب وقال جل عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل وإن كان قليلك لقصير وإن كنا منك لفي غرور ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما قال ابن عباس استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ويستبدل قوما غيركم أي لنصرة

فلما اشتراه العزيز قال (لامرأته) عن شعيب الجبائي أن اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام والمد كما في القاموس أو بضم الزاي وفتح اللام على هيئة المصغر كما قال الشهاب وقيل اسمها راعيل بوزن هابيل وقيل أحدهما لقبها والآخر اسمها (أكرمي مثواه) أي منزله الذي يثوي فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن يعني أحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا ويقال للرجل كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد هل تطيب نفسه بثوائك عنده وهل يراعي حق نزولك وقال ابن عباس وقتادة أكرمي منزلته والمثوى محل الثوي وهو الإقامة وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة واتخاذ الفراش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به أو المقام مقحم كما يقال المجلس العالي والمقام السامي ومنه قول آزاد

قلبي الذي يهواك طال نواه * آت إليك فأكرمي مثواه

وعن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه الآية والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر (عسى أن ينفعنا) أي يكفينا بعض المهمات مما نحتاج فيه إلى مثله أو إن أردنا بيعه بعناه بربح (أو نتخذه ولدا) أي نتبناه فنجعله ولدا لنا قيل كان العزيز حصورا لا يأتي النساء أو كان عقيما لا يولد له كما جرى عليه القاضي والأصفهاني تبعا للكشاف وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة (وكذلك) إشارة إلى ما تقدم من انجائه من إخوته وإخراجه من الجب وعطف قلب العزيز عليه أي مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف) يقال مكنه فيه أي أثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكانا ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يعني أعطيناه مكانة ورتبة عالية (في الأرض) أي في أرض مصر حتى صار متمكنا من الأمر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة (ولنعلمه) هو علة معلل محذوف كأنه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة أو معطوف على مقدر وهو أن يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه (من تأويل الأحاديث) أي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتأويل قيل فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من

حمل ذلك على الجميع (والله غالب على أمره) أى على أمر نفسه لا يمتنع منه شئ ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيده ذلك اضافة اسم الجنس الى الضمير ما يتعلق بيوسف من الامور التى أرادها الله سبحانه فى شأنه وقيل المعنى انه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤياه على اخوته فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جدا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يطلعون على غيب الله وما فى طيه من الاسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالاكثر الجميع لانه لا يعلم الغيب الا الله وقيل ان الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما فى قوله فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول وقيل المعنى لا يعلمون ان الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ أشده) قال سيبويه الاشد جمع واحده شدة نحو نعمة وأنعم وقال الكسائى واحده شد بزنة قفل وقال أبو عبيد انه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب وخالفه الناس فى ذلك وهو من الشد وهو الربط على الشئ والعقد عليه والاشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان قيل هو ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثمانى عشرة سنة قاله سعيد بن جبير وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل أربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلاثون سنة قاله السدى وقيل بلوغ الحلم وبه قال ربيعة والشعبى وقيل عشرون سنة قاله الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمنا فى النساء والانعام قال الراغب وفيه تنبيه على ان الانسان اذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذى هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال فى شأن موسى فى سورة القصص لان موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهى مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن اذ ذاك بلغ هذا السن (آتيناه حكما) هو ما كان يقع منه من الاحكام فى سلطان ملك مصر (وعلما) هو العلم بالحكم الذى كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقه قاله مجاهد وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن قال انه أوتى النبوة صبيا قال المراد بهذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله هو الزيادة فيهما (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين)

نبيه واقامته كما قال تعالى وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ولا تضروه شيأ أى ولا تضروا الله شيأ بتوليكم عن الجهاد ونكولكم وتثاقلكم عنه والله على كل شئ قدير أى قادر على الانتصار من الاعداء بدونكم وقد قيل ان هذه الآية وقوله انفروا خفافا وثقالا وقوله ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله انهن منسوخات بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال انما هذا فيمن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب (الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) يقول تعالى الا تنصروه أى تنصروا رسوله فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا بصحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ الى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضى الله عنه يجزع ان يطلع عليهم أحد فيخلص الى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما كما قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام انبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار لو أن أحدهم نظر الى قدميه لابصرنا تحت قدميه قال فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما أخرجاه فى الصحيحين ولهذا قال تعالى فأنزل الله سكينته عليه أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول صلى الله عليه وسلم فى أشهر القولين وقيل على أبى بكر وروى عن ابن عباس وغيره قالوا لان الرسول صلى الله عليه وسلم لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال وأيده بجنود لم تروها أى الملائكة وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا

الشرك وكلمة الله هي لا اله الا الله وفي الصحيحين عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقوله والله عزيز أي في انتقامه وانتصاره منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه واحتمى بالتمثل بخطابه حكيم في أقواله وأفعاله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) قال سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح هذه الآية انفروا خفافا وثقالا (١٨) أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال زعم حضرمي انه ذكر له ان ناسا كانوا عسى ان يكون أحدهم عليلا وكبيرا فيقول اني لا آثم فانزل الله انفروا خفافا وثقالا الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال انفروا خفافا وثقالا وقال علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة كهولا وشبانا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج الى الشام فقاتل حتى قتل وفي رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا جهزوني يا بني فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها الا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم انهم قالوا في تفسير هذه الآية انفروا خفافا وثقالا كهولا وشبانا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد وقال مجاهد شبابا وشيوخا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة مشاغيل وغير مشاغيل وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يقول انفروا نشاطا وغير نشاط وكذا قال قتادة وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انفروا خفافا وثقالا قالوا فان فينا الثقيل وذا الحاجة والصنعة والشغل والمتيسر به أمره

فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه وجعل عاقبته الخير من جملة ما يجزيه به وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولا أوليا قال الطبري هذا وان كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الارض والاولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري قيل معنى المحسنين المؤمنين وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين (وراودته) أي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته باكرام مثواه وقوله وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر ان ما لقيه يوسف من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وانه محسن في جميع أحواله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى ان مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز والمراودة الارادة والطلب برفق ولين وقيل هي مأخوذة من الرود أي الرفق والتأني يقال أرودني أي أمهلني وقيل مأخوذة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء كأن المعنى انها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه اذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وهي عبارة عن التمحل في مواقعته اياها وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه ان سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء أطلق عليه اسمه لكونه سببا للجزاء وهذه قاعدة مطردة مستمرة فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن والجمال سببا لمراودة امرأة العزيز له مراودا والمراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى انها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك وانما قال (التي هو في بيتها عن نفسه) ولم يقل امرأة العزيز أو زليخا قصدا الى زيادة

التقرير

فأنزل الله وأبى ان يعذرهم دون ان ينفروا خفافا وثقالا أى على ما كان منهم وقال الحسن بن ابى الحسن البصرى ايضا فى العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية وهذا اختيار ابن جرير وقال الامام أبو عمرو الاوزاعى اذا كان النفير الى دروب الروم نفر الناس اليها خفافا وركبانا واذا كان النفير الى هذه السواحل نفروا اليها خفافا وثقالا وركبانا ومشاة وهذا تفصيل فى المسئلة وقد روى عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله وقال السدى (١٩) قوله انفروا خفافا وثقالا يقول غنيا وفقيرا وقويا وضعيفا فجاءه رجل وكان عظيما سمينا فشكى اليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ انفروا خفافا وثقالا فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين الا عاما واحدا وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا فلا أجدنى الا خفيفا أو ثقيلا وقال ابن جرير حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا جرير حدثنى عبد الرحمن ابن ميسرة حدثنى أبو راشد الحرانى قال وافيت المقداد بن الاسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله اليك فقال أتت علينا سورة البعوث انفروا خفافا وثقالا وقال ابن جرير حدثنى حيان بن زيد الشرعبى قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قبل الافسوس الى الجراجمة فرأيت شيخا كبيرا هما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت اليه فقلت يا عم لقد أعذر الله اليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه وانما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد الا الله عز وجل ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله فقال وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون أى هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة لانكم تغرمون فى النفقة قليلا

التشريف فان سكونه فى بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه فى أعلا معارج العفة والنزاهة والعدول عن اسمها للمحافظة على الستر أو للاستهجان بذكرها قال قتادة هى امرأة العزيز (وغلقت الابواب) أى أطبقتها قيل فى هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال وهى الابواب فيقال غلق الابواب ولا يقال غلق الباب بل يقال أغلق الباب وقد يقال أغلق الابواب قيل وكانت الابواب سبعة كما فى البيضاوى وغيره وانما أغلقتها لشدة خوفها (وقالت هيت لك) قرأ أبو عمرو وعاصم والاعمش والكسائى بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء وبها قرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة ككيف وليت قال ابن مسعود لا تنطعوا فى القراءة فانما هو مثل قول أحدكم هلم وتعال وقرأ أبو اسحق النحوى بكسر التاء وقرأ ابن كثير وغيره بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه القراآت سبعية وقرأ على وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء وهذه كلها لغات فى هذه الكلمة وهى فى كلها اسم فعل بمعنى هلم وتعال أى أقبل الا فى قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فانها بمعنى تهيأت لك وأنكرها أبو عمرو وقال باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى الى اليمن هل تعرف أحدا يقول هكذا وأنكرها أيضا الكسائى وقال النحاس هى جيدة عند البصريين لانه يقال هاء الرجل يهيء هيأة ورجح الزجاج القراءة الاولى وتكون اللام فى لك على القراءة الاولى التى هى فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك قال النحويون هيت جاء بالحركات الثلاث فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيها بحيث واذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له أى لك أقول هذا وان لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل اما خبر أى تهيأت واما امر أى أقبل وقال فى الصحاح يقال هوت به وهيت به اذا صاح به ودعاه وقد روى عن ابن عباس والحسن انها كلمة سريانية معناها انها تدعوه الى نفسها وقال الكسائى هى لغة لاهل حوران وقعت الى

فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تكفل الله للمجاهد في سبيله ان توفاه ان يدخله الجنة أو يرده الى منزله بما نال من أجر أو غنيمة ولهذا قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ومن هذا القبيل ما رواه الامام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل أسلم قال أجدني كارها قال أسلم وان كنت كارها (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون) (٢٠) يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين انهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال لو كان عرضا قريبا قال ابن عباس غنيمة قريبة وسفرا قاصدا أي قريبا أيضا لاتبعوك أي لكانوا جاؤا معك كذلك ولكن بعدت عليهم الشقة أي المسافة الى الشام وسيحلفون بالله أي لكم اذا رجعتم اليهم لو استطعنا لخرجنا معكم أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا قال الله تعالى يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال عفا الله عنك لم أذنت لهم وكذا قال مورق العجلي وغيره وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم ان شاء فقال فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم الآية وكذا روى عن عطاء الخراساني وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس قالوا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أذن لكم فاقعدوا وان لم يأذن لكم فاقعدوا ولهذا قال تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا أي في ابداء الاعذار وتعلم الكاذبين يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم

أهل الحجاز معناها تعال قال أبو عبيدة فسألت شيخا عالما من حوران فذكر انها لغتهم وعن ابن عباس معناه هلم لك بالقبطية وقال الحسن أي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال انها بغير لغة العرب يقول ان العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد انها لغة عربية تدعوه بها الى نفسها (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذا مما دعوتني اليه يقال عاذ يعوذ عياذا ومعاذا وعوذا مصدر بمعنى الفعل (انه) أي الذي اشتراني (ربي) تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الاسباب التي هي أقرب الى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي الذي رباني العزيز (أحسن مثواي) حيث أمرك بقوله أكرمي مثواه فكيف أخونه في أهله وأجيبك الى ما تريدين من ذلك وقال الزجاج ان الضمير لله سبحانه أي ان الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه قال مجاهد والسدي وابن اسحق يبعد جدا ان يطلق نبي كريم على مخلوق انه ربه ولو بمعنى السيد لانه ليس مملوكا في الحقيقة والاول فيه ارشادها الى رعاية حق العزيز بالطف وجه (انه لا يفلح الظالمون) تعليل آخر للامتناع منه عن اجابتها والفلاح الظفر والمعنى انه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف وقيل معناه انه لا يسعد الزناة (ولقد) لام قسم (همت به وهم بها) يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه والمعنى انه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه الصلاة والسلام القصد الى ذلك اختيارا كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله وان ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا ولا عزم ولا تصميم والقصد على هذا الوجه لا مؤاخذة فيه فلا خلاف في ان يوسف لم يأت بفاحشة وانما الخلاف في وقوع الهم ولما كان الانبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد اليها أيضا تكلم أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن فلما أتيت على قوله ولقد همت به وهم بها قال هذا على التقديم والتأخير كأنه قال ولقد

في اظهار طاعتك من الكاذب فانهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو ولهذا أخبر تعالى انه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال لا يستأذنك أي في القعود عن الغزو الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لانهم يرون الجهاد قربة فلما ندبهم اليه بادروا وامتثلوا والله عليم بالمتقين انما يستأذنك أي في القعود ممن لا عذر له الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم وارتابت قلوبهم أي شكت في صحة ما جئتهم به فهم في ريبهم يترددون أي يتحيرون يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم (٢١) قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكى لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) يقول تعالى ولو أرادوا الخروج أي معك في الغزو لأعدوا له عدة أي لتأهبوا له ولكن كره الله انبعاثهم أي أبغض ان يخرجوا معك قدرا فثبطهم أي أخرهم وقيل اقعدوا مع القاعدين أي قدرا ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا أي لأنهم جبناء مخذولون ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة وفيكم سماعون لهم أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وان كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي الى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير وفيكم سماعون لهم أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها اليهم وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق واليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين وقال محمد بن اسحق كان استأذن فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافا في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم ان يخرجوا فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم اليه لشرفهم فيهم فقال وفيكم سماعون لهم ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال والله عليم بالظالمين فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ولهذا قال

همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها وقال أحمد بن يحيى ثعلب أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق ومن هذا قول الشاعر

هممت بهم من ثنية لؤلؤ * شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا انما هو حديث نفس من غير عزم وقيل هم بها أي هم بضربها وقيل هم بمعنى تمنى أن يتزوجها وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف الى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي ويدل على هذا قوله الآتي ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وقوله وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء ومجرد الهم لا ينافي العصمة فانها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب قال الشهاب قال الامام المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل اليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وكالمرأة الفائقة حسنا وجمالا تتهيأ للشاب النامي القوي فتقع بين الشهوة والعفة وبين النفس والعقل مجاذبة ومنازعة فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان جواذب الحكمة وهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كان هذه الحال أشد كانت القوة على لوازم العبودية أكمل انتهى ويؤيده ما في البيضاوي المراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله انتهى وقيل انه هم بالفاحشة وأتى ببعض مقدماتها وقد أفرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم أيضا وقد أطنب الرازي في هذا المقام فليراجعه وقيل معنى الهم انها اشتهته واشتهاها قال الخفاجي وانه أحسن الوجوه وجواب لو في (لولا أن رأى برهان ربه) محذوف أي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو فقيل ان زليخا قامت عند ان همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين قالت استحي من الهي هذا ان يراني على هذه الصورة فقال يوسف أنا أولى ان استحي من الله تعالى روي معنى هذا عن علي بن أبي طالب وفي رواية عن علي بن الحسين وقيل انه رأى في سقف البيت مكتوبا ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وقيل رأى كفا مكتوبا عليها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وقيل ان البرهان

تعالى لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون وقال تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون وقال تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما والآيات في هذا كثيرة (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) (٢٢) يقول تعالى محرضا لنبيه عليه السلام على المنافقين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك واخماده مدة طويلة وذلك أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس واحدة وحاربته يهود المدينة ومنافقوها فلما نصره الله يوم بدر وأعلا كلمته قال ابن أبي وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا في الاسلام ظاهرا ثم كلما أعز الله الاسلام وأهله أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم قال الله تعالى ألا في الفتنة سقطوا أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن اسحق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة هل لك يا جد العام في اجلاء بني الاصفر فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبا بالنساء مني واني أخشى ان رأيت نساء بني الاصفر أن لا أصبر عنهن فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك ففي الجد بن قيس نزلت هذه ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني الآية أي ان كان انما يخشى من نساء بني الاصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد انها نزلت في الجد بن قيس وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف

هو تذكره عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء وقيل رأى صورة يعقوب على الجدار عاضا على أنملته يتوعده وبه قال قتادة وأكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل رأى جبريل قاله البيضاوي قال الخفاجي هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وانه لا يمكن الهم فضلا عن الوقوع فيه هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه انتهى وعلى الجملة ان كل ذلك الاخرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها والحاصل انه رأى شيأ حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافا كثيرا (كذلك) اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه أو الى التثبيت المفهوم من ذلك أي مثل تلك الاراءة أريناه أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) أي كل ما يسوءه (والفحشاء) هو كل أمر مفرط القبح وقيل السوء الخيانة للعزيز في أهله والفحشاء الزنا وقيل السوء الشهوة والفحشاء المباشرة وقيل السوء الثناء القبيح والاولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولا أوليا قال أبو السعود وفيه آية بينة وحجة قاطعة على انه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما قبله قرئ بكسر اللام وفتحها وهي سبعية والمعنى على الاولى ان يوسف كان ممن أخلص طاعته لله وعلى الثانية انه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد كان عليه السلام مخلصا مستخلصا وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا ان ذلك حدث له بعد ان لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية قال الخفاجي قيل فيه ان كل من له دخل في هذه القصة

بني سلمة وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم من سيدكم يا بني سلمة قالوا الجد بن قيس على أنا نبخله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم الفتى الجعد الابيض بشر بن البراء بن معرور وقوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين أي لا محيد لهم عنها ولا مهرب (ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعلم تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أي فتح ونصر وظفر على الاعداء (٢٣) مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ويتولوا وهم فرحون فارشد الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال قل أي لهم لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا أي نحن تحت مشيئته وقدره وهو مولانا وسيدنا وملجؤنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا انا معكم متربصون قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون) يقول تعالى قل لهم يا محمد هل تربصون بنا أي تنتظرون بنا الا احدى الحسنيين شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ونحن نتربص بكم أي ننتظر بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا أي ننتظر بكم هذا أو هذا اما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا بسبي أو بقتل فتربصوا انا معكم متربصون وقوله تعالى قل أنفقوا طوعا أو كرها أي مهما أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو انهم لا يتقبل منهم لانهم كفروا بالله وبرسوله أي والاعمال انما تصح بالايمان ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ولا ينفقون نفقة الا وهم كارهون وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ان الله لا يمل حتى تملوا وان الله طيب لا يقبل الا طيبا فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا

شهد ببراءته وشهد الله بقوله لنصرف الخ وشهد هو على نفسه بقوله هي راودتني ونحوه وشهدت زليخا بقولها ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وسيدها بقوله انك كنت من الخاطئين وابليس بقوله لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فتضمن اخباره بانه لم يغوه ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص كما قيل

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بي الحال حتى صار ابليس من جندي

(واستبقا الباب) أي تسابقا اليه وهذا كلام متصل بقوله ولقد همت به وهم بها الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام ووجه تسابقهما ان يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد ان تسبقه اليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم لان تسابقهما كان الى الباب البراني الذي يخلص منه الى خارج الدار قال السيوطي بادرا اليه يوسف للفرار وهي للتشبث به فامسكت ثوبه (وقدت) أي جذبت (قميصه من دبر) من ورائه فانشق الى أسفله والقد القطع وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا قال الشهاب في الريحانة القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لان القد قطع الشيء من نصفه أو قطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكأنه لكونه قليلا من القطع نقص منه العين انتهى واسناد القد اليها خاصة مع ان لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح (وألفيا سيدها لدى الباب) أي وجدا العزيز هنالك وعني بالسيد الزوج لان القبط يسمون الزوج سيدا وانما لم يقل سيدهما لان ملكه ليوسف لم يكن صحيحا فلم يكن سيده (قالت ما جزاء من أراد باهلك سوأ) من الزنا ونحوه والجملة مستأنفة كأنه قيل فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلبا منها للحيلة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها الى يوسف أي أي جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم أجابت عن استفهامها بقولها (الا أن يسجن) أي ما جزاؤه الا ان يسجن ويحتمل ان تكون ما نافية أي ليس جزاؤه الا السجن وانما بدأت بذكر السجن لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما أرادت ان يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل قال الخازن وهذه

عملا لانه انما يتقبل من المتقين (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم كما قال تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وقال أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقوله انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا قال الحسن البصري بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله وقال قتادة هذا من المقدم والمؤخر تقديره فلا تعجبك أموالهم (٢٤) ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا واختار ابن جرير قول الحسن وهو القول الاول القوى الحسن وقوله وتزهق أنفسهم وهم كافرون يريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم عياذا بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون) يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم انهم يحلفون بالله انهم لمنكم يمينا مؤكدة وما هم منكم أى فى نفس الامر ولكنهم قوم يفرقون أى فهو الذى حملهم على الحلف لو يجدون ملجأ أى حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به أو مغارات وهى التى فى الجبال أو مدخلا وهو السرب فى الارض والنفق قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة لولوا اليه وهم يجمحون أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لانهم انما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا انهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن لان الاسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون ان لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) يقول تعالى ومنهم أى المنافقين من يلمزك أى يعيب عليك فى قسم الصدقات اذا فرقتها ويتهمك فى ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وانما ينكرون حظ أنفسهم ولهذا ان أعطوا من الزكاة رضوا وان لم

لطيفة فافهمها وقال ابن الخطيب وأما الحبس الدائم فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لاجعلنك من المسجونين ذكره الكرخى (أو عذاب أليم) قيل هو الضرب بالسياط والظاهر انه ما يصدق عليه العذاب الاليم من ضرب أو غيره وفى الابهام للعذاب زيادة تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية قاله أبو السعود ولم تقل ان يوسف يجب ان يقابل باحد هذين الامرين بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالشر فلما سمع يوسف مقالتها أراد ان يبرهن عن نفسه (قال هى راودتنى عن نفسى) يعنى طلبت منى الفحشاء فابيت وفررت والجملة مستأنفة كالجملة الاولى وقد تقدم بيان معنى المراودة أى هى التى طلبت منى ذلك ولم أرد بها سوأ ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو أدب حسن حيث أتى بلفظ الغيبة دون الحضور ولم يكن يريدان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال ما قال (وشهد شاهد من أهلها) أى من قرابتها وسمى الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل قيل لما التبس الامر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفا مع العزيز فى الباب وقيل ابن خال لها وقيل انه طفل فى المهد تكلم قال السهيلى وهو الصحيح للحديث الوارد فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى ذكر من تكلم فى المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف وقيل انه رجل حكيم كان العزيز يستشيره فى أموره وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس ظبى أنطقه الله كان فى الدار وعنه قال كان رجل ذا لحية من خاصة الملك وعن الحسن قال هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال انه ليس بانسى ولا جنى هو خلق من خلق الله قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من أهلها وانما كان الشاهد من أهل المرأة وقرابتها ليكون أقوى فى نفى التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدقه (ان كان قميصه قد من قبل) أى من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلا على بيان صدق الصادق منهما وكذب الكاذب بان قميص يوسف ان كان مقطوعا من قبل أى من جهة القبل (فصدقت) أى فقد صدقت بانه أراد بها سوأ (وهو من الكاذبين)

يعطوا منها اذا هم يسخطون أي يغضبون لانفسهم قال ابن جرير أخبرني داود بن أبي عاصم قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسمها ههنا وههنا حتى ذهبت قال ورآه رجل من الانصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية وقال قتادة في قوله ومنهم من يلمزك في الصدقات يقول ومنهم من يطعن عليك في الصدقات وذكر لنا ان رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك ان تعدل ما عدلت فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل عليك بعدي ثم قال نبي الله احذروا هذا وأشباهه (٢٥) فان في أمتي أشباه هذا يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم فاذا خرجوا فاقتلوهم وذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيأ ولا أمنعكموه انما أنا خازن وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فانك لم تعدل فقال لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفيا انه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فانهم شر قتلى تحت أديم السماء وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير من ذلك لهم فقال ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله وقالوا حسبنا الله وكذلك الرغبة الى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتداء بآثاره (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي صلى الله عليه وسلم ولمزهم اياه في قسم الصدقات بين تعالى انه هو الذي قسمها وبين حكمها

في قوله انه راودته عن نفسه وقرئ من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلاهما غايتين (وان كان قميصه قد من دبر) أي من ورائه (فكذبت) في دعواها عليه (وهو من الصادقين) في دعواه عليها ولا يخفى ان هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميهما وتاليهما لا عقلا ولا عادة وليستا من الشهادة في شيء وانما ذكرتا توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى ان يحتمله الحال في الجملة مجرى الظاهر الغالب الوقوع فليس ههنا الا مجرد امارة غير مطردة اذ من الجائز ان يجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وان تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل (فلما رأى) العزيز (قميصه) أي قميص يوسف (قد من دبر) كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام (قال) أي العزيز وقيل هذا من قول الشاهد والاول أولى (انه) أي الامر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما أو ان قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ (من) جنس (كيدكن) ومكركن وحيلكن يا معشر النساء (ان كيدكن عظيم) خاطب الجنس لان الحيل والمكايد لا تختص بها وانما وصف الكيد بالعظيم لان كيدهن أعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال وفي حاشية الخفاجي وقيل عليه ان ضعف كيد الشيطان في مقابلة كيد الله وعظم كيدهن بالنسبة للرجال وهو ليس بشئ لانه استدل بظاهر اطلاقهما ومثله مما تنقبض له النفس وتنبسط يكفي فيه ذلك القدر انتهى قال الحفناوي هذا فيما يتعلق بامر الجماع والشهوة لا عظيم على الاطلاق اذ الرجال أعظم منهن في الحيل والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله (يوسف أعرض عن هذا) الامر الذي جرى واكتمه ولا تحدث به حتى لا ينتشر ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكترث به ولا تهتم به فقد بان عذرك ثم أقبل عليها بالخطاب فقال (واستغفري) يا زليخا (لذنبك) الذي وقع منك قال الكرخي كان العزيز قليل الغيرة بل قال في البحر ان تربة مصر تقتضي هذا

ويتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها الى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الامام أبوداود في سننه من حديث عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحرث الصدائي رضي الله عنه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتى رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فان كنت من تلك الاجزاء أعطيتك وقد اختلف العلماء في هذه الاصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع اليها أو الى ما أمكن منها على قولين أحدهما انه يجب ذلك (٢٦) وهو قول الشافعي وجماعة والثاني أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع الى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم وعلى هذا فانما ذكرت الاصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها ولوجوه الحجاج والمؤاخذة مكان غير هذا والله أعلم وانما قدم الفقراء على البقية لانهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم وعند أبي حنيفة ان المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال قال عمر رضي الله عنه الفقير ليس بالذي لا مال له ولكن الفقير الاخلق الكسب قال ابن علية الاخلق المحارف عندنا والجمهور على خلافه وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيأ والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثوري عن منصور عن ابراهيم هم فقراء المهاجرين قال سفيان الثوري يعني ولا يعطى الاعراب منها شيأ وكذا روي عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى وقال عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين انما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الاصناف الثمانية فأما الفقراء فعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي رواه أحمد وأبو داود والترمذي ولاحمد أيضا والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن

ولهذا لا ينشأ فيها الاسد ولو دخل فيها لا يبقى (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) أي من جنسهم يرمي يوسف بالخطيئة والجملة تعليل لما قبلها من الامر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث كما في قوله وكانت من القانتين ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ اذا أذنب متعمدا وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما (وقال نسوة) قرئ نسوة بضم النون قاله أبو البقاء وبكسرها والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند اليهن كما يجوز التأنيث ولا واحد له من لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة أيضا ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمسا وهن امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه (في المدينة) هي مصر وقيل مدينة الشمس (امرأة العزيز) يعني زليخا (تراود فتاها) الفتى في كلام العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيها على ان المراودة صارت سجية لها وديدنا دون الماضي فلم يقلن راودت (عن نفسه) وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أي غلبها حبه وقيل دخل حبه في شغافها قال أبو عبيدة شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه وقيل هو وسط القلب وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه الى شغافها فغلب عليه وقرئ شعفها بالعين المهملة قال ابن الاعرابي معناه أجرى حبه عليها قال الجوهري شعفه الحب أحرق قلبه وقال أبو زيد أمرضه وقال النحاس معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لان شعاف الجبال أعاليها وقد شغف بذلك شغفا باسكان الغين المعجمة اذا ولع به وقرأ الحسن قد شغفها بضم الغين وحكي بكسرها قال النحاس ولا يعرف ذلك في كلام العرب الا شغفا بفتح الغين ويقال ان الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد وقيل المعنى ان حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل ان حبه قد أحاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى صارت لا تعقل شيأ سواه وقال السمين خرق شغاف قلبها أي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب وقيل داء يصل الى القلب من أجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليست محيطة به والمعنى خرق حجابه وأصابه فأحرقه

عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه انهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال ان شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب رواه أحمد وأبو داود والنسائي باسناد جيد قوي وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك قلت وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الاسناد فان أبا بكر هذا وان لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان (٢٧) والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يارسول الله قال الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيأ رواه الشيخان وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث انه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعملهما على الصدقة فقال ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد انما هي أوساخ الناس وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صفوان ابن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركا قال فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس الي بعد أن كان أبغض الناس الي كما قال الامام أحمد حدثنا زكريا بن عدي أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وانه لأبغض الناس الي فما زال يعطيني حتى انه لأحب الناس الي رواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به ومنهم من يعطى ليحسن اسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الابل مائة من الابل وقال اني لأعطي الرجل وغيره أحب الي منه خشية ان يكبه الله على وجهه في نار جهنم وفي الصحيحين عن أبي سعيد ان عليا بعث الى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر الاقرع بن حابس وعيينة بن بدر وعلقمة بن علاثة وزيد الخير وقال أتألفهم ومنهم من يعطى لما يرجى من اسلام نظرائه ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه

فاحرقه بحرارة الحب يقال شغف الهوى قلبه شغفا وشغفه المال زين له فاحبه فهو مشغوف به وعن ابن عباس شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف وقال قد علقها قال آزاد في سبحة المرجان ولا استبعاد في اظهار العشق من جانب المرأة أما ترى في القرآن الكريم غرام امرأة العزيز بيوسف عليه السلام والاهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة الى الرجل خلاف العرب وسببه ان المرأة في دينهم لا تنكح الا زوجا واحدا فخط عيشتها منوط بحياة الزوج واذا مات تحرق نفسها معه والعشق بين الرجل والمرأة وضع الهي فتارة يكون من الطرفين وتارة يكون من أحدهما واذا لوحظ الوضع الالهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق معشوق وأهل الهند وافقوا العرب في التغزل بالنساء بخلاف الفرس والترك فان تغزلهم بالامارد فقط ولا ذكر من المرأة في اغزالهم ولعمر المحبة انهم لظالمون حيث يضعون الشئ في غير موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد والعرب في التغزل بالامارد مقلدون لهم والاصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن وأما الاهاند فلا يعرفون التغزل بالامارد قطعا انتهى هذا وقد عقد رحمه الله الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان أقسام المعشوقات والعشاق وأورد لكل قسم منهما أشعارا عجيبة وأبياتا غريبة باعتبار الجهات المتنوعة والحيثيات المتلونة ان رآها السالي تذوب طبيعته الجامدة أو العاذل تشتعل ناره الخامدة (انا لنراها) جملة مقررة لمضمون ما قبلها أي نعلمها في فعلها هذا وهو المراودة لفتاها (في ضلال) عن طريق الرشد والصواب (مبين) واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب على امثالها من العفاف والستر (فلما سمعت) امرأة العزيز (بمكرهن) أي بغيبتهن اياها سميت الغيبة مكرا لاشتراكهما في الاخفاء وقيل أردن ان يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا سمي قولهن مكرا وقيل انها أسرت اليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكرا عن سفيان قال أي بعملهن وكل مكر في القرآن فهو العمل (أرسلت اليهن) أي تدعوهن اليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن الى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها (واعتدت لهن متكأ) أي أعدت وأحضرت وهيأت لهن مجالس يتكئن عليها من نمارق

أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم وهل تعطى المؤلفة على
الاسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم فيه خلاف فروى عن عمر وعامر الشعبي وجماعة انهم لا يعطون بعده لان الله قد أعز
الاسلام وأهله ومكن لهم في البلاد وأذل لهم رقاب العباد وقال آخرون بل يعطون لانه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح
مكة وكسر هوازن وهذا أمر قد يحتاج اليه فيصرف اليهم وأما الرقاب فروى عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن
عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد (٢٨) أنهم المكاتبون وروى عن أبي موسى الاشعري نحوه وهو قول
الشافعي والليث رضي الله عنهما
وقال ابن عباس والحسن لا بأس
ان تعتق الرقبة من الزكاة وهو
مذهب أحمد ومالك واسحق أي ان
الرقاب أعم من ان يعطى المكاتب
أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالا
وقد ورد في ثواب الاعتاق وفك
الرقبة أحاديث كثيرة وان الله يعتق
بكل عضو منها عضوا من معتقها
حتى الفرج بالفرج وما ذاك الا لان
الجزاء من جنس العمل وما تجزون
الا ما كنتم تعملون وعن أبي هريرة
رضي الله عنه أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال ثلاثة حق على الله
عونهم الغازي في سبيل الله
والمكاتب والمدين يريد الاداء
أو الناكح الذي يريد العفاف رواه
الامام احمد واهل السنن الا أبا داود
وفي المسند عن البراء بن عازب قال
جاء رجل فقال يا رسول الله دلني
على عمل يقربني من الجنة ويباعدني
من النار فقال اعتق النسمة وفك
الرقبة فقال يا رسول الله أوليسا
واحدا قال لا عتق النسمة ان تفرد
بعتقها وفك الرقبة ان تعين في ثمنها
وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم من
تحمل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فاجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع اليهم
وعندي
والاصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال أقم
حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها قال ثم قال يا قبيصة ان المسألة لا تحل الا لأحد ثلاثة رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها
ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش ورجل أصابته
فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال

ومسانيد وأعتدت من الاعتداد وهو كل ما جعلته عدة لشيء وقرئ متكا مخففا غير مهموز
والمتك هو الاترج بلغة القبط قاله مجاهد وعن عكرمة قال هو كل شيء يقطع بالسكين
وعن الضحاك مثله وقيل ان ذلك هو لغة أزد شنوءة وقيل حكى ذلك عن الاخفش قال
الفراء انه ماء الورد وقرأ الجمهور متكأ بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه انه المجلس
وقيل هو الطعام وبه قال ابن جبير والحسن وقتادة وسمي متكأ على الاستعارة قاله
الخازن أي للاتكاء عنده على عادة المتكبرين في أكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته
المجاورة وقيل المتكأ كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث وحكى القتيبي
انه يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا ويؤيد هذا قوله (وآتت كل واحدة منهن سكينا)
فان ذلك انما يكون لشيء يأكلنه بعد ان يقطعنه والسكين تذكر وتؤنث قاله الكسائي
والفراء قال الجوهري والغالب عليه التذكير والمراد من اعطائهن الكل واحدة سكينا
ان يقطعن ما يحتاج الى التقطيع من الاطعمة قيل وكان من عادتهن ان يأكلن اللحم
والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن انها أرادت بذلك ما سيقع منهن
من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف (اخرج عليهن) أي في تلك الحالة التي هن
عليها من الاتكاء والاكل وتقطيع ما يحتاج الى التقطيع من الطعام (فلما رأينه أكبرنه)
أي أعظمنه قال مجاهد واحترمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله وقيل أمنين
وقيل أمذين ومنه قول الشاعر

اذا ما رأين الفحل من فوق قلة * صهلن وأكبرن المني المقطرا

وقال الازهري أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة أي دخلت
في الكبر بالحيض وقال ابن عباس حضن من الفرح ووقع منهن ذلك دهشا وفزعا لما
شاهدنه من جماله الفائق وحسنه الرائق وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا ليس ذلك
في كلام العرب قال الزجاج يقال أكبرنه ولا يقال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض
وأجاب الازهري فقال يجوز أن يكون هاء الوقف لا هاء الكناية وقد زيف هذا بان هاء
الوقف تسقط في الوصل قال ابن الانباري ان الهاء كناية عن مصدر الفعل أي أكبرن
اكبارا بمعنى حضن حيضا وسمي الحيض اكبارا لكون البلوغ يعرف به كأنه يدخلهم من
الكبر فيكون في الاصل كناية أو مجازا وهذا منقول عن قتادة والسدي وقال الرازي

سدادا من عيش فما سواهن من المسئلة سحت يأكلها صاحبها سحتا رواه مسلم وعن ابي سعيد قال اصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثر دينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه خذوا ما وجدتم وليس لكم الا ذلك رواه مسلم وقال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد أنبأنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن زيد عن قاضي المصرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس فيقول يارب انك تعلم (٢٩) انى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي اما حرق واما سرق واما وضيعة فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم فيدعو الله بشئ فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيآته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان وعند الامام أحمد والحسن واسحق والحج من سبيل الله للحديث وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شئ يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه الى بلده وان كان له مال وهكذا الحكم فيمن أراد انشاء سفر من بلده وليس معه شئ فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وايابه والدليل على ذلك الآية وما رواه الامام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغني الا لخمسة العامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فاهدى لغني وقد رواه السفيانان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلا ولابي داود عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغني الا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك وقوله فريضة من الله أي حكما مقدرا بتقدير الله وفرضه وقسمه والله عليم حكيم أي عليم بظواهر الامور وبواطنها وبمصالح عباده حكيم فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا اله الا هو ولا رب سواه (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) يقول تعالى ومن

وعندي انه يحتمل وجها آخر هو انهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه وحمل الآية على هذا أولى انتهى (وقطعن أيديهن) أي جرحنها حتى سال الدم وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس يقال قطع يد صاحبه اذا خدشها وقيل المراد بالايدي هنا أناملهن وقيل أكمامهن والمعنى أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الاحلام وتضطرب له الابدان وتزول العقول قال مجاهد فما أحسسن الا بالدم وقال قتادة أبن أيديهن حتى ألقينها والاصح أنه كان قطعا من غير ابانة وعن منبه عن ابيه قال مات من النسوة اللاتي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمدا (وقلن حاش لله) قرئ باثبات الالف وبحذفها وباسكان الشين حاش لله وقرئ حاش الاله وحاشا الله قلت اثبات الالف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق وأما رسم المصحف فلا تكتب فيه ألف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان أي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا أي تباعد منه وقال أبو علي هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف ومعناها هنا التنزيه كما تقول أسى القوم حاشا زيدا فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيه له أي عن صفة العجز عن خلق هذا أو أمثاله قال مجاهد حاشا لله معاذ الله (ماهذا بشرا) اعمال ما عمل ليس هي لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن كهذه الآية وكقوله سبحانه ماهن أمهاتهم وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال الكوفيون أصله ماهذا ببشر فلما حذفت الباء انتصب قال أحمد بن يحيى ثعلب اذا قلت ما زيد بمنطلق فموضع الباء موضع نصب وهكذا سائر حروف الخفض وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد اعملوها عمل ليس وبه قال البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهده وحججه وقرأ الحسن ماهذا بشرا على أن الباء حرف جر والشين مكسورة أي ماهذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله ان هذا الا ملك كريم قال الخفاجي ورد بأنها صحيحة رواية ودراية أما الاول فلأنها

المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون هو أذن أي من قال له شيأ صدقه فينا ومن حدثه صدقه فاذا جئناه وحلفنا له صدقنا روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة قال الله تعالى قل أذن خير لكم أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين أي يصدق المؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له (٣٠) نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم) قال قتادة في قوله تعالى يحلفون بالله لكم ليرضوكم الآية قال ذكر لنا ان رجلا من المنافقين قال والله ان هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وان كان ما يقول محمد لحقا لهم شر من الحمير قال فسمعها رجل من المسلمين فقال والله ان ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار قال فسعى بها الرجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل الى الرجل فدعاه فقال ما حملك على الذي قلت فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله الآية وقوله تعالى ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله الآية أي ألم يتحققوا ويعلموا انه من حاد الله عز وجل أي شاقه وحاربه وخالفه وكان في حد والله ورسوله في حد فان له نار جهنم خالدا فيها أي مهانا معذبا ذلك الخزي العظيم أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير (يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون) قال مجاهد يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله ان لا يفشي علينا سرنا هذا وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير وقال في هذه الآية قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون أي ان الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم الى قوله ولتعرفنهم في لحن القول الآية ولهذا قال قتادة كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب

رواها في المنهج عن عبد الوارث بسند صحيح وأما الثاني فلان من قرأ هذه قرأ ملك بكسر اللام فتصح المقابلة أي ما هذا عبد لئيم بل سيد كريم مالك انتهى وانما نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري ولانه قد برز في صورة قد لبست من الحسن البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع النسمة البشرية ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وان كن لا يعرفن الملائكة وقلن (ان هذا الا ملك كريم) على الله لانه قد تقرر في الطباع وركز في النفوس انهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وان لا شيء أحسن من الملك وانهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها ان الشياطين على العكس من ذلك ولا أقبح منهم والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف واعلم انه لا يلزم من قول النسوة هذا ان الملائكة صورهم احسن من صور بني آدم فانهن لم يقلنه لدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع فان الله سبحانه يقول لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة على ان هذه المسئلة أعني مسئلة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم الى غيرها من مسائل التكاليف قال قتادة قلن ملك من الملائكة من حسنه وغرابة جماله وأخرج أحمد وغيره عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أعطي يوسف وأمه شطر الحسن وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها انه أعطي نصف الحسن وفي بعضها ثلثه وفي بعضها ثلثيه (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) الاشارة الى يوسف والخطاب للنسوة أي عيرتنني فيه قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف اظهارا لعذر نفسها ومعنى فيه في حبه وقيل الاشارة الى الحب فالضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب والاول أولى ورجحه ابن جرير ويجوز ان يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه قال الزمخشري قالت فذلكن ولم تقل هذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق ان يحب ويفتتن به فلام البعد

طائفة بانهم كانوا مجرمين) قال أبو معشر المديني عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء الا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء فرفع ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله انما كنا نخوض ونلعب فقال أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن الى قوله كانوا مجرمين وان رجليه ليسفعان الحجارة وما يلتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر (٣١) قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المسجد كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمر وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله انما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن الآية وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا وقال ابن اسحق وكان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخش بن حمير يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك فقال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بني الاصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال ارجافا وترهيبا للمؤمنين فقال مخش بن حمير والله لوددت اني أقاضي على ان يضرب كل رجل منا مائة جلدة وانا ننقلب ان ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني لعمار بن ياسر أدرك القوم فانهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فان أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا فانطلق اليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها يا رسول الله انما كنا نخوض ونلعب فقال مخش بن حمير يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخش بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله ان يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة

هنا لتعظيم رتبته أو لبعد رتبته وحالته عن رتبة البشر وأصل اللوم الوصف بالقبيح وما أحسن اقتباس السيد غلام على آزاد رحمه الله تعالى من هذه الآية في قوله

ايا صواحب ا كباد مقطعة * فذلكن الذي لمتنني فيه

ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدنه مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له فقالت (ولقد) اللام لام قسم (راودته عن نفسه فاستعصم) أي استعف وامتنع واستعصى مما أريده طالبا العصمة لنفسه عن ذلك وانما صرحت بذلك لانها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم توعدته ان لم يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت (ولئن) لام قسم (لم يفعل ما آمره) أي ما قد أمرته فيما تقدم ذكره عند أن اغلقت الابواب وقالت هيت لك (ليسجنن) أي ليعتقل في السجن (وليكونا من الصاغرين) من صغر بكسر الغين يصغر صغرا وصغارا والصغير من صغر بالضم صغرا أي من الاذلاء لما يناله من الاهانة ويسلب عنه من النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز (قال) مناجيا لربه سبحانه يا (رب السجن) أي دخوله الذي أوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه سجنا (أحب الي) أي آثر عندي لانه مشقة قليلة نافذة اثرها راحات جليلة أبدية (مما يدعونني اليه) من مؤاتاتها التي تؤدي الى الشقاء والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن وان كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة قال بعضهم لو لم يقل هذا لم يبتل به فالاولى للعبد أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من كان يسأل الصبر والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل

ولم يوجد له أثر قال قتادة ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قال فبينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا يظن هذا ان يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ما قالوا فقال علي بهؤلاء النفر فدعاهم فقال قلتم كذا وكذا فحلفوا ما كنا الا نخوض ونلعب وقال عكرمة في تفسير هذه الآية كان رجل ممن ان شاء الله عفا عنه يقول اللهم اني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجل منها القلوب اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت قال فأصيب يوم اليمامة (٣٢) فما من أحد من المسلمين الا وقد وجد غيره وقوله لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم أي عن الانفاق في سبيل الله نسوا الله أي نسوا ذكر الله فنسيهم أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ان المنافقين هم الفاسقون أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة وقوله وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم أي على هذا الصنيع الا

الذي ذكر عنهم خالدين فيها أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار هي حسبهم أي كفايتهم في العذاب ولعنهم الله أي طردهم وأبعدهم ولهم عذاب مقيم (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقوله بخلاقهم قال الحسن بدينهم وقوله وخضتم

انهن جميعا دعونه الى أنفسهن أولا به كان بحضرتهن والاول أولى ثم جرى على هذا في نسبة الكيد اليهن جميعا فقال (وان لا تصرف عني كيدهن) في تحبيب ذلك الى وتحسينه لدي بأن تثبتني على ما أنا عليه من العصمة والعفة أما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة وقيل انها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز وقيل انه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيما لها أو عدولا عن التصريح الى التعريض والكيد الاحتيال وجزم (أصب اليهن) على أنه جواب الشرط أي أمل اليهن وأتبعهن وأطاوعهن من صبا يصبو اذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر

الى هند صبا قلبي * وهند مثلها يصبي

والصبوة الميل الى الهوى ومنه ريح الصبا لان النفس تستطيبها وتميل اليها الطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) أي ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه أو ممن يعمل عمل الجهال أو ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه أن من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة قال أبو السعود وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء الى الطاف الله جريا على سنن الانبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن باظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني والا هلكت لا انه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه الى هواهن (فاستجاب له ربه) لما قال وان لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرضا للدعاء وكأنه قال اللهم اصرف عني كيدهن فالاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لانه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه والمعنى أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لانه اذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه منه ووجه اسناد الكيد قد تقدم (انه هو السميع العليم) تعليل لما قبلها من صرف الكيد أي انه هو السميع لدعوات الداعين له العليم بأحوال الملتجئين اليه وفيه أنه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية

الابعصمة الله ولطفه به وهومعنى قوله لاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم (ثم بدالهم) أى ظهر للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الامر معه ويشيرون عليه فى الرأى وأمافاعل بدا فقال سيبويه هوليسجننه أى ظهرلهم ان يسجنوه قال المبرد وهذا غلط لان الفاعل لايكون جملة ولكن الفاعل مادل عليه بدا وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأى أى وظهرلهم رأى لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه (من بعدمارأوا الآيات) قيل هى القميص وشهادة الشاهد وقطع الايدى وقيل هى البركات التى فتحها الله عليهم بعدوصول يوسف اليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هى الغالبة على رأيه الفاعلة له لما يطابق هواها فى يوسف وانفاذ ماتقدم منها من الوعيدله بقولها وائن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس الآيات قد القميص وأثرها فى جسده وأثر السكين وقالت امرأة العزيز ان أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس وعن ابن زيد قال من الآيات كلام الصبى وقال قتادة الآيات حزهن أيديهن وقد القميص وأقول ان كان المراد بالآيات الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدى النسوة منها لانه وقع منهن ذلك لماحصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن مع ماألبسه الله سبحانه من الجمال الذى ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عندرؤيته قوى التجلد وان كان المراد الآيات الدالة على انه قد أعطى من الحسن مايسلب عقول المبصرين ويذهب بادراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الايدى من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هى المرادة هنا (ليسجننه) اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول أى قائلين والله ليسجننه وقرئ بالفوقية على الخطاب اما للعزيز ومن معه أوله وحده على طريق التعظيم وفى الخطط للمقريزى قال القضاعى سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن به المدة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بنى على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى انتهى ثم أطال فى بيان حال ذلك السجن وموضعه ومايصنع هنالك قيل وسبب ظهورهذا الرأى لهم فى سجن يوسف انهم أرادوا استرالقالة وكتم ماشاع فى الناس من قصة امرأة العزيز معه وقيل ان العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم انها قد صارت بمكان من حبه لاتبالى

كالذى خاضوا أى فى الكذب والباطل أولئك حبطت أعمالهم أى بطلت مساعيهم فلاثواب لهم عليها لانها فاسدة فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون لانهم لم يحصل لهم عليها ثواب قال ابن جريج عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله كالذين من قبلكم الآية قال ابن عباس ماأشبه الليلة بالبارحة كالذين من قبلكم هؤلاء بنو اسرائيل شبهنابهم لاأعلم الاانه قال والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لودخل الرجل جحرضب لدخلتموه قال ابن جريج وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله (٣٣) صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا بباع حتى لو دخلوا جحرضب لدخلتموه قالوا ومن هم يارسول الله أهل الكتاب قال فمن وهكذا رواه أبو معشر عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره وزاد قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم القرآن كالذين من قبلكم الآية قال أبو هريرة الخلاق الدين وخضتم كالذى خاضوا قالوا يارسول الله كماصنعت فارس والروم قال فهل الناس الاهم وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم اى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الامم المكذبة للرسل قوم نوح وماأصابهم من الغرق العام لجميع أهل الارض الامن آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام وعاد كيف أهلكوا بالريح العقيم لماكذبوا هودا عليه السلام وثمود

 كيف اخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة وقوم ابراهيم كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله واصحاب مدين وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف اصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة والمؤتفكات قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن وقال فى الآية الاخرى والمؤتفكة أهوى أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم وهى سدوم والغرض ان الله تعالى اهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطا عليه السلام واتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها احد من العالمين أتتهم رسلهم بالبينات أى بالحجج والدلائل القاطعات فما كان الله ليظلمهم أى باهلاكه اياهم لانه أقام عليهم الحجة بارسال الرسل وازاحة العلل ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا

الى ما صاروا اليه من العذاب والدمار (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم) لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه وفى الصحيح ايضا مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد (٣٤) بالحمى والسهر وقوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كقوله تعالى ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الآية وقوله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة اى يطيعون الله ويحسنون الى خلقه ويطيعون الله ورسوله اى فيما أمر وترك ما عنه زجر أولئك سيرحمهم الله اى سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ان الله عزيز اى يعز من أطاعه فان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين حكيم فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فانه له الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) يخبر تعالى بما اعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها اى ماكثين فيها ابدا ومساكن طيبة اى حسنة البناء طيبة القرار كما جاء فى الصحيحين من حديث ابى عمران الجونى عن ابى بكر بن ابى موسى عبد الله بن قيس الاشعرى عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن وبه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا اخرجاه فى الصحيحين وفيهما ايضا عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله ورسوله واقام الصلاة وصام رمضان فان حقا على الله ان يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله او جلس

معه تحمل نفسها عليه على أى صفة كانت (حتى حين) أى الى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين وقيل الى انقطاع ما شاع فى المدينة وقال سعيد بن جبير الى سبع سنين وقيل الى خمس وقيل الى ستة أشهر وقد تقدم فى البقرة الكلام فى تفسير الحين وحتى بمعنى الى قال السدى جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة وعن ابن عباس قال عوقب يوسف ثلاث مرات أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها والثانية لقوله اذكرنى عند ربك فلبث فى السجن بضع سنين عوقب بطول الحبس والثالثة حيث قال أيتها العير انكم لسارقون فاستقبل فى وجهه ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل (ودخل معه السجن فتيان) التقدير فسجنوه ودخل معه ومع للمصاحبة وفتيان تثنية فتى وذلك يدل على انهما عبدان له ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وان لم يكن مملوكا قال ابن عباس أحدهما خازن الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سما لما ضمن لهما أهل مصر مالا فى مقابلة ذلك ثم ان الساقى رجع من ذلك وقال للملك لا تأكل الطعام فانه مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل فأبى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل بعده قال ابن جرير انهما سألا يوسف عن علمه فقال انى أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه (قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا) اى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى انى أرانى اعصر عنبا فسماه باسم ما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود انى أعصر عنبا لا تدل على الترادف قال الاصمعى اخبرنى المعتمر بن سليمان انه لقى اعرابيا ومعه عنب فقال له ما معك قال خمر وقيل معناه اعصر عنب خمر فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذى رأى هذه الرؤيا هو الساقى وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال وكذلك الجملة التى بعدها وهى (وقال الآخر) اى الخباز (انى ارانى احمل فوق رأسى خبزا) ثم وصف الخبز هذا بقوله (تأكل) اى تنهس (الطير منه) ثم قالا ليوسف جميعا بعد أن قصا رؤياهما عليه (نبئنا بتأويله) اى بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين او بتأويل المذكور لك من كلامنا وقيل ان كل واحد منهما قال له

في أرضه التي ولد فيها قالوا يارسول الله افلا نخبر الناس قال ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه من رواية زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر مثله وللترمذي عن عبادة بن الصامت مثله وعن ابي حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما ترون (٣٥) الكوكب الدري في السماء اخرجاه في الصحيحين ثم ليعلم ان اعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة كما قال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق اخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا صليتم على فسلوا الله لي الوسيلة قيل يارسول الله وما الوسيلة قال اعلى درجة في الجنة لا ينالها الا رجل واحد وارجو ان اكون أنا هو وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الى الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وأرجو أن اكون هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة وقال الحافظ ابو القاسم الطبراني حدثنا احمد بن علي الابار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني حدثنا موسى بن اعين عن ابن ابي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله لي الوسيلة فانه لم يسألها لي عبد في الدنيا الا كنت له شهيدا او شفيعا يوم القيامة رواه الطبراني وفي مسند الامام احمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن ابي المدله عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه وروى عن ابن عمر مرفوعا نحوه وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن اسحق عن النعمان بن سعد عن علي

عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعا الى ما رآه كل واحد منهما وقيل ان الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الاشارة بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد والتقدير بتأويل ذلك (انا نراك من المحسنين) أي من الذين يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء ان معناه من العاملين الذين أحسنوا العلم وقال ابن اسحق من المحسنين الينا ان فسرت ذلك أو من المحسنين الى أهل السجن فقد روى انه كان كذلك قال قتادة كان يعزي حزينهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهادا فأحبوه وعن الضحاك قال كان احسانه اذا مرض انسان في السجن قام عليه واذا ضاق عليه المكان أوسع له واذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال دعا يوسف لأهل السجن فقال اللهم لا تعم عليهم الاخبار وهون عليهم مر الايام (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) من جهة الله أو الملك والجملة صفة لطعام (الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما) مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى ذلك انه يعلم شيأ من الغيب بالهام الله تعالى وانه لا يأتيهما الى السجن طعام في اليقظة الا اخبرهما بماهيته قبل ان يأتيهما وقيل أراد به في النوم والاول هو الاظهر وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بيانا لعلو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين فهو كقول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم وانما قال يوسف لهما بهذا ليحصل الانقياد له منهما فيما يدعوهما اليه بعد ذلك من الايمان بالله والخروج من الكفر والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا يأتيكما في حال من الاحوال الا حال ما نبأتكما أي بينت لكما ماهيته وكيفيته وسماه تأويلا بطريق المشاكلة لان الكلام في تأويل الرؤيا أو المعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه الكلام من مطابقة ما اخبركما به للواقع (ذلكما) اى التأويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما (مما علمني ربي) مما أوحاه الى وألهمني اياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ ثم بين لهما ان ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم الجمة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن اهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الانبياء من آبائه فقال (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) وهو كلام مستأنف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الاصل وعدم الالتفات اليه بالكلية لانه قد كان تلبس به

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة اغرفا يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها فقام اعرابى فقال يارسول الله لمن هى فقال لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام ثم قال حديث غريب ورواه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الاشعرى كل منهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وكل من الاسنادين جيد حسن وعنده ان السائل هو أبو مالك الاشعرى فالله أعلم وعن اسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هل من مشمر الى الجنة فان الجنة لاحصر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز (٣٦) وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام فى ابد فى دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة فى محلة عالية بهية قالوا نعم يارسول الله نحن المشمرون لها قال قولوا ان شاء الله فقال القوم ان شاء الله رواه ابن ماجه وقوله تعالى ورضوان من الله أكبر أى رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال الامام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يارب وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجاه من حديث مالك وقال أبو عبد الله الحسين بن اسمعيل المحاملى حدثنا الفضل الرجائى حدثنا الفريابى عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيأ فأزيدكم قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا قال رضوانى أكبر ورواه البزار فى مسنده من حديث الثورى وقال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه صفة الجنة هذا عندى على شرط الصحيح والله أعلم (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الارض من

ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا ان نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم فى الكفر وتهالكهم عليه فقال (وهم بالآخرة هم كافرون) اى هم يختصون بذلك دون غيرهم لافراطهم فى الكفر بالله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) وسماهم آباء جميعا لان الاجداد آباء وقدم الجد الاعلى ثم الجد الاقرب ثم الاب لكون ابراهيم هو أصل هذه الملة التى كان عليها اولاده ثم تلقاها عنه اسحق ثم يعقوب وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية (ما كان) أى ماصح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شئ) أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر قال الواحدى لفظة من زائدة مؤكدة كقولك ماجاءنى من أحد (ذلك) أى الايمان والتوحيد وعدم الاشراك والعلم الذى رزقنا (من فضل الله) أى ناشئ من تفضلاته (علينا) ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه (و) من فضل الله (على الناس) كافة ببعثة الانبياء اليهم وهدايتهم الى ربهم وتبيين طرائق الحق لهم (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لايشكرون) الله سبحانه على نعمه التى أنعم بها عليهم فيؤمنون به و يوحدون و يعملون بما شرعه لهم أولا يستدلون بما نصب لهم من الدلائل وانزال الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها أولا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية قال قتادة ان المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله و يشكر ما بالناس من نعمة ذكر لنا ان أبا الدرداء كان يقول يارب شاكر نعمة غير منعم عليه لايدرى ويارب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم الى الاسلام صريحا فقال (ياصاحبى السجن) جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد ياصاحبى فى السجن لان السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وان ذلك من باب ياسارق الليلة وعلى الاول يكون من باب الاضافة الى الشبيه بالمفعول به والمعنى ياساكنى السجن كقوله أصحاب الجنة وأصحاب النار قال قتادة لما عرف يوسف ان أحدهما مقتول دعاهما الى حظهما من ربهما والى نصيبهما من آخرتهما فقال (أأرباب متفرقون) الاستفهام للانكار

ولي ولا نصير) أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره ان مصير الكفار والمنافقين الى النار في الدار الآخرة وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب انه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف سيف للمشركين فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين وسيف لكفار أهل الكتاب قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وسيف للمنافقين (٣٧) جاهد الكفار والمنافقين وسيف للبغاة فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله وهذا يقتضي انهم يجاهدون بالسيوف اذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير وقال ابن مسعود في قوله تعالى جاهد الكفار والمنافقين قال بيده فان لم يستطع فليكفهر في وجهه وقال ابن عباس أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهب الرفق عنهم وقال الضحاك جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم وعن مقاتل والربيع مثله وقال الحسن وقتادة ومجاهد مجاهدتهم اقامة الحدود عليهم وقد يقال انه لا منافاة بين هذه الاقوال لانه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الاحوال والله أعلم وقوله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم قال قتادة نزلت في عبد الله بن أبي وذلك انه اقتتل رجلان جهني وانصاري فعلا الجهني على الانصاري فقال عبد الله للانصار ألا تنصروا أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فانزل الله فيه هذه الآية وروى اسمعيل بن ابراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال فحدثني عبد الله بن الفضل انه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول حزنت على من أصيب بالحرة من قومي فكتب الى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اغفر للانصار ولأبناء الانصار وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الانصار قال ابن الفضل فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال هو الذي يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أوفى الله له بأذنه قال وذلك حين سمع رجلا

للانكار مع التوبيخ والتقريع ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي هل الارباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم (خير) لكما ياصاحبي السجن (أم الله الواحد) أي المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك (القهار) الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند وقيل استفهام تقرير أي طلب الاقرار بجواب الاستفهام أي أقروا واعلموا أن الله هو الخير والاول أولى أورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لانهما كانا ممن يعبد الاصنام وقد قيل انه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ولهذا قال لهما (ما تعبدون من دونه الا أسماء) فارغة لا مسميات لها وان كنتم تزعمون أن لها مسميات وهي الآلهة التي تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الاسماء كأنها لا مسميات لها وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله الا مسميات أسماء وقيل خطاب لاهل السجن جميعا لا لخصوص الصاحبين وهذا هو الاظهر وكذلك ما بعده من الضمائر لانه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم (سميتموها أنتم وآباؤكم) من تلقاء أنفسكم بمحض جهلكم وضلالتكم وليس لها من الالهية شئ الا مجرد الاسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها آلهة من عند أنفسكم (ما أنزل الله بها) أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (ان) أي ما (الحكم) في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (الا لله) عز سلطانه لانه المستحق لها بالذات اذ هو الذي خلقكم وخالق هذه الاصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان (أمر أن لا) أي بان لا (تعبدوا الا اياه) حسبما تقضي به قضية العقل أيضا والجملة مستأنفة أو حالية والاول هو الظاهر والمعنى انه أمركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون انه معبود ثم بين لهم ان عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال (ذلك) أي تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) أي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق أو لا يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه ثم بعد

تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ورتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يا صاحبي السجن أما أحدكما) أي الساقي وانما أبهمه لكونه مفهوما أو لكراهة التصريح للخباز بانه الذي سيصلب (فيسقي ربه) أي مالكه (خمرا) وهي عهدته التي كان قائما بها في خدمة الملك فكأنه قال أما أنت أيها الساقي فستعود بعد ثلاث من الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك ويطلقك من الحبس (وأما الآخر) وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) تعبير لما رآه من انه يحمل فوق رأسه خبزا فتأكل الطير منه (قضي الامر الذي فيه تستفتيان) وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه اذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالامر ما يؤول اليه أمرهما ولذلك وحده قاله البيضاوي وقال الزمخشري المراد بالامر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من أجله عن ابن مسعود قال ما رأى صاحبا يوسف شيأ انما تحالما ليجربا علمه فلما أول رؤياهما قالا انما كنا نلعب ولم نر شيأ فقال قضي الامر الآية يعني وقعت العبارة فصار الامر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة وعن أبي مجلز قال كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذبا وكان هذا التعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله قضي الامر وقيل هو بالاجتهاد (وقال للذي ظن أنه ناج منهما) أي قال يوسف والظان هو أيضا يوسف والمراد بالظن العلم لانه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخباز هكذا قال جمهور المفسرين وقيل الظاهر أنه على معناه لان عابر الرؤيا انما يظن ظنا والاول أولى وأنسب بحال الانبياء ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما تقدم (اذكرني عند ربك) هي مقول القول أمره بان يذكره عند سيده ويقول له ان في السجن غلاما محبوسا ظلما منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب فخرج (فأنساه الشيطان ذكر ربه) وكانت هذه المقالة منه صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان فيكون ضمير المفعول في أنساه عائدا الى يوسف هكذا قال أكثر المفسرين ويكون المراد بربه في قوله ذكر ربه هو الله سبحانه أي أنسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال فقال للذي ظن انه ناج منهما اذكره عند سيده ليكون ذلك سببا

لانتباهه

من المنافقين يقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب لئن كان هذا صادقا فنحن شر من الحمير فقال زيد بن أرقم فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ثم رفع ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجحده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد يعني قوله يحلفون بالله ما قالوا الآية رواه البخاري في صحيحه عن اسمعيل بن أبي أويس عن اسمعيل بن ابراهيم بن عقبة الى قوله هذا الذي أوفى الله له باذنه ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة باسناده ثم قال قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب والمشهور في (٣٨) هذه القصة انها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وهم في ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم قال الأموي في مغازيه حدثنا محمد بن اسحق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذني قومي فقالوا انك امرؤ شاعر فان شئت ان تعتذر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله الى ان قال وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير فسمعها عمير ابن سعد فقال والله يا جلاس انك لأحب الناس الي وأحسنهم عندي بلاء وأعزهم علي ان يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة فان ذكرتها لتفضحني ولئن كتمتها لتهلكني ولاحداهما أهون علي من الأخرى فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب علي فأنزل الله عز وجل فيه يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم الى آخر الآية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فزعموا ان الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع هكذا جاء هذا مدرجا من الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن اسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك وقال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته

مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ماجاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم عما قلت فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وخفت ان ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو ان أخلط بخطيئته فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة ان أخلط بخطيئته أو تصيبني قارعة ما أخبرتك قال فدعا الجلاس فقال يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب فحلف فأنزل الله يحلفون بالله ما قالوا الآية وقال محمد بن اسحق كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت (٣٩) فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها الجلاس فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع حسنت توبته فيما بلغني وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثني أيوب بن اسحق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا اسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعيني الشيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل ازرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمني أنت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوزعنهم فأنزل الله عزوجل يحلفون بالله ما قالوا الآية وقوله وهموا بما لم ينالوا قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك انه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل في عبد الله بن أبي هم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال السدي نزلت في أناس أرادوا ان يتوجوا عبد الله بن أبي وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك ففيهم نزلت هذه الآية وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن اسحق عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم اقوده وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى اذا كنا بالعقبة فاذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله

لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر وان كانت جائزة الا انه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أعلى الرتب وهي منصب النبوة والرسالة لاجرم صار مؤاخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيئات المقربين وذهب جماعة من المفسرين الى ان الذي انساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين وهو الشرابي والمعنى أنسى الشرابي الشيطان ذكر سيده أي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما أوصاه به يوسف من ذكره عند سيده ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر اخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك وقد رجح هذا بكون الشيطان لاسبيل له على الانبياء وأجيب بان النسيان وقع من يوسف ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز والانبياء غير معصومين عن النسيان الا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فاذا نسيت فذكروني ورجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين وأجيب بان النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف ما بعده من قوله فلبث في السجن بضع سنين ويؤيد رجوعه الى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي الذي نجا منهما واذكر بعد أمة (فلبث) يوسف (في السجن) بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين أو بسبب ذلك الانساء أخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لولم يقل يوسف الكلمة التي قال مالبث في السجن طول مالبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله وعن عكرمة مرفوعا نحوه وهو مرسل (بضع سنين) البضع ما بين الثلاث الى التسع كما يحكاه الهروي عن العرب وبه قال قتادة وحكى عن أبي عبيدة ان البضع ما دون نصف العقد يعني ما بين واحد الى أربعة وقيل ما بين ثلاث الى سبع قاله مجاهد وقيل هو ما دون العشرة وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس وقد اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف في السجن فقيل سبع سنين قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبه وقيل ثنتي عشرة سنة قاله ابن عباس وقيل أربع عشرة سنة قاله الضحاك وقيل خمس سنين

وعن أنس قال أوحى الى يوسف من استنقذك من القتل حين هم اخوتك ان يقتلوك قال أنت يا رب قال فمن استنقذك من الجب اذ ألقوك فيه قال أنت يا رب قال فمن استنقذك من المرأة اذ همت بك قال أنت يا رب قال فما لك نسيتني وذكرت آدميا قال جزعا وكلمة تكلم بها لساني قال فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين فلبث فيه سبع سنين أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله (و) لما دنا فرج يوسف (قال الملك) أي الملك الاكبر وهو الريان بن الوليد الذي كان العزيز وزيراله (اني أرى) أي رأيت في منامي (سبع بقرات سمان) خرجن من نهر يابس (يأكلهن سبع عجاف) أي مهازيل في غاية الضعف والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة والسمان جمع سمين وسمينة يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس جمعه عجف لان فعلى وأفعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملا على السمان لانه نقيضه (و) رأيت (سبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (و) رأيت سبعا (أخر يابسات) وهي التي قد بلغت حد الحصاد وانما حذف اسم العدد لان التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان قد رأى أن السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر والتوت عليها حتى غلبتها ولم يبق من خضرتها شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ولما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره أراد أن يعرف ذلك فقال (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي) الخطاب للاشراف من قومه وقيل هم السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا والمعنى اخبروني بحكم هذه الرؤيا (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أي تعلمون عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول اليه امرها قال الزجاج اللام في للرؤيا للبيان وقيل هو لتقوية العامل وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل (قالوا) هذه (أضغاث أحلام) أي تخاليطها وهي جمع ضغث وهو في الاصل كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما فاستعير

للرؤيا

صلى الله عليه وسلم هل عرفتم القوم قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال هؤلاء المنافقون الى يوم القيامة قال وهل تدرون ما أرادوا قلنا لا قال أرادوا أن يزحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة فيلقوه منها قلنا يا رسول الله أولا نبعث الى عشائرهم حتى يبعث اليك كل قوم برأس صاحبهم قال لا أكره أن تتحدث العرب بينها ان محمدا قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ثم قال اللهم ارمهم بالدبيلة قلنا يا رسول الله وما الدبيلة قال شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك

وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا (٤٠) الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوقه عمار اذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قد قد حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار هل عرفت القوم فقال قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال هل تدري ما أرادوا قال الله ورسوله أعلم قال أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيطرحوه قال فسار عمار رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال نشدتك بالله كم تعلم كانوا أصحاب العقبة قال أربعة عشر رجلا فقال ان كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الاسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الارذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله على مرادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر حذيفة فرجع اليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مفتوحين وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من

الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما ان يكتما عليهم وكذا روى يونس بن بكير عن ابن اسحق الا أنه سمى جماعة منهم فالله أعلم وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي ويشهد لهذه القصة بالصحة مارواه مسلم حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة فقال له القوم أخبره اذ سألك فقال كنا نخبر أنهم أربعة عشر فان كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله ان الاثنى عشر منهم حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا (٤١) ويوم يقوم الاشهاد وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان في حرة يمشي فقال ان الماء قليل فلا يسبقني اليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال أخبرني حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في أصحابي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره والله أعلم وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار انه قال هم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبيل بن الحرث من بني عمرو بن عوف والحرث بن يزيد الطائي وأوس بن قيظي والحرث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهر وسويد وداعس من بني الحبلي وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهروا الاسلام وقوله تعالى وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله أي وما للرسول عندهم ذنب الا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاءهم به كما قال صلى الله عليه وسلم للانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله الآية

للرؤيا الكاذبة والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان والاضافة بمعنى من أي هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل ويجوز أن يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا قال ابن عباس أضغاث أحلام يقول مشتبهة وعنه قال الكاذبة وعن الضحاك مثله (وما نحن بتأويل الاحلام) المختلطة (بعالمين) يريدون بالاحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر بجهلهم بتأويله نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له لا مطلق العلم بالتأويل وقيل انهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل مطلقا ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا وقيل انهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة (وقال الذي نجا منهما) أي من الغلامين وهو الساقي الذي قال له يوسف اذكرني عند ربك (وادكر) بالدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة وقرئ بالمعجمة أي تذكر الساقي يوسف وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا (بعد أمة) مدة طويلة وحين بعيد ومنه الى أمة معدودة الى وقت قال ابن درستويه والامة لا تكون على الحين الا على حذف مضاف واقامة المضاف اليه مقامه كأنه قال والله أعلم وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة قيل وسمي الحين من الزمان أمة لانه جماعة أيام والامة الجماعة الكثيرة من الناس قال الاخفش هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع وكل جنس من الحيوان أمة وقرئ بعد أمة أي بعد نسيان وامة بكسر الهمزة أي بعد نعمة وهي نعمة النجاة وعن الحسن بعد أمة من الناس وقال ابن عباس بعد سبع سنين وقيل تسع سنين وقيل سنتين (أنا أنبئكم بتأويله) أي أخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله وهو يوسف أو أدلكم عليه أو أخبركم عمن عنده تأويله (فأرسلون) خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم أو خاطبه ومن كان معه من الملا طلب منهم ان يرسلوه الى يوسف ليقص عليه رؤيا الملك

وقوله عليه السلام ما ينقم ابن جميل الا ان كان فقيرا فأغناه الله ثم دعاهم الله تبارك وتعالى الى التوبة فقال فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة أي وان يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا أي بالقتل والهم والغم والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار وما لهم في الارض من ولي ولا نصير أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب) يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم الى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عياذا بالله من ذلك وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري ان سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الانصاري وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد ابن معاوية عن أبي امامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الانصاري انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله ان يرزقني مالا قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه قال ثم قال مرة أخرى فقال أما ترضى ان تكون مثل نبي الله فوالذي نفسي بيده لو شئت ان تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت قال والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات الا الجمعة وهي تنمو كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الاخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل ثعلبة فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بامره فقال يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة

خارجة

حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك الى الملك أو الى السجن فأتى السجن فقال يا (يوسف أيها الصديق) انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل لانه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن وجملة مجيء الرسول ليوسف في السجن أربع مرات هذه أولاها (أفتنا) أي أخبرنا وبين لنا (في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) وترك ذكر الرؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف بان ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها ولما عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفي قوله أفتنا مع انه المستفتي وحده اشعار بان الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وانه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلي ارجع الى الناس) أي الى الملك ومن عنده من الملا بتأويل هذه الرؤيا أو الى أهل البلد اذ قيل ان السجن لم يكن فيه (لعلهم يعلمون) ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا أو يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك لفن الرؤيا وانما لم يبت الكلام فيهما لانه لم يكن جازما بالرجوع فربما اخترمته المنية دونه ولا يعلمهم (قال تزرعون) مستأنفة كغيرها مما يرد بهذا المورد (سبع سنين دأبا) أي متوالية متتابعة قرئ بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر دأب في العمل اذا جد فيه وتعب قال الفراء حرك لان فيه حرفا من حروف الحلق وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة وأصل معنى الدأب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لانها تنشأ عن مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر أي تدأبون دأبا قاله سيبويه أو على انه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الاوجه المعروفة اما المبالغة واما وقوعه موقع الصفة واما على حذف مضاف أي دائبين أو ذوي دأب أو جعلهم نفس الداب مبالغة فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب وأول ابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله (فما حصدتم) في كل سنة من السنين المخصبة (فذروه) أي ذلك المحصود (في سنبله) وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنه لئلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها قيل وهذه نصيحة منه لهم

وأنزل الله جل ثناؤه خذ من أموالهم صدقة الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما مرا بثعلبة وبفلان رجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية ماهذه الا اخت الجزية ما أدري ماهذا انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد ان (٤٣) نأخذ هذا منك فقال بلى فخذوها فان نفسي بها طيبة وانما هي له فأخذوها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه فقال ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال ياويح ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للسلمي بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي فأنزل الله عز وجل ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية قال وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ان يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى ان يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع الى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيأ ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الانصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى ان يقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك فقبض ولم يقبلها فلما ولي عثمان رضي الله عنه أتاه فقال اقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك فلم يقبلها منه فهلك في خلافة عثمان وقوله تعالى بما أخلفوا الله ما وعدوه الآية أي أعقبهم النفاق في قلوبهم

خارجة عن التعبير وما شرطية أو موصولة وسنبل فنعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة يقال سنبل الزرع أي أخرج سنبله (الا قليلا مما تأكلون) في هذه السنين المخصبة فانه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم لانه قد علم من قوله تزرعون (ثم يأتي من بعد ذلك) السبع السنين المخصبة (سبع شداد) أي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة يصعب أمرها على الناس وهي تأويل السبع العجاف والسبع اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها في السنين المخصبات واسناد الاكل الى السنين مجازي تطبيقا بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل الاكل العجاف السمان واللام في لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر لهن في السنابل من الحبوب شيء قد هيئ وقدم لهن كالذي يقدم للنازل والا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدمتم أي ما ادخرتم لهن (الا قليلا مما تحصنون) أي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لان في استبقاء البذر تحصين الاقوات وقال أبو عبيدة معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل تخزنون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط عليهم ان يخرجوني ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد ان يكون له العذر (ثم يأتي من بعد ذلك) السنين المجدبات (عام) سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا ولعله علم ذلك بالوحي أو بان انتهاء الجدب بالخصب على العادة الالهية حيث يوسع على عباده بعد تضييقه عليهم (فيه يغاث الناس) من الاغاثة أو الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث المطر وقد غاث الغيث الارض أي أصابها وغاث الله البلاد يغيثها غوثا أمطرها فمعنى يغاث الناس يمطرون (وفيه يعصرون) الاشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون وقيل أراد حلب الالبان وقيل معناه ينجون مأخوذ من العصرة وهي المنجاة قال أبو عبيدة والعصر بالتحريك الملجأ

بسبب اخلافهم الوعد وكذبهم كما في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان قوله ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم الآية يخبر تعالى انه يعلم السر وأخفى وانه أعلم بضمائرهم وله شواهد كثيرة والله اعلم وان أظهروا انه ان حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فان الله أعلم بهم من أنفسهم لانه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ماظهر ومابطن (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون الاجهدهم فيسخرون منهم (٤٤) سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) وهذه أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الاحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ان جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء وان جاء بشئ يسير قالوا ان الله لغني عن صدقة هذا كما روى البخاري حدثنا عبيد الله بن سعد حدثنا أبو النعمان البصري حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مرائي وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا ان الله لغني عن صدقة هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين الآية وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه من حديث شعبة به وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا الجريري عن أبي السليل قال وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال حدثني أبي أو عمي انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع وهو يقول من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة قال فحللت من عمامتي لوثا أو لوثين وانا أريد أن أتصدق بهما فادركني مايدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يارسول الله صدقة قال نعم قال دونك هذه الناقة قال فلمزه رجل فقال هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه قال فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبت بل هو خير منك ومنها ثلاث مرات ثم قال ويل لاصحاب المئين من الابل ثلاثا قالوا الا من يارسول الله قال الا من قال بالمال هكذا وهكذا وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال قد أفلح المزهد المجهد ثلاثا المزهد في العيش المجهد في العبادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب الى رسول الله صلى الله

والمنجي واعتصرت بفلان التجأت به وقرئ بتاء الخطاب ويعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه يمطرون ومنه قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا قال ابن عباس يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب ومن كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال أخبرهم بشئ لم يسألوه عنه كان الله قد علمه اياه وفيه يعصرون السمسم دهنا والعنب خمرا والزيتون زيتا والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار (وقال الملك) في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فاخبره بما أخبره به يوسف من تعبير تلك الرؤيا وقال الملك لمن بحضرته (ائتوني به) أي بيوسف رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم بفضله ماعلمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه (فلما جاءه) أي الى يوسف (الرسول) واستدعاه الى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن وهذه هي المرة الثانية من مجئ الرسول اليه في السجن (قال) يوسف للرسول قاصدا اظهار براءته (ارجع الى ربك) أي سيدك (فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أمره بان يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى اجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلما بينا قال ابن عباس أراد يوسف العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والاناة ماتضيق الاذهان عن تصوره ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لاجبت الداعي يعني الرسول الذي جاء يدعوه الى الملك قال ابن عطية كان هذا الفعل من يوسف اناة وصبرا وطلبا للبراءة ساحته وذلك انه خشى ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وانما قال فاسأله مابال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز أو خوفا منه من كيدها وعظم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الايدي ولم يذكر مراودتهن له تنزيها منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز الا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله (ان ربي بكيدهن عليم) فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنيا عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله ربا لنفسه

لكونه

عليه وسلم وجاءه رجل من الانصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به الا رياء وقالوا ان الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع وقال العوفي عن ابن عباس ان رسول الله خرج الى الناس يوما فنادى فيهم ان اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يارسول الله هذا صاع من تمر فامسكت احداهما وأتيتك بالآخر فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا ان الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شئ ثم ان عبد الرحمن بن عوف قال عندي مائة (٤٥) أوقية من ذهب في الصدقات فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمجنون أنت قال ليس بي جنون قال فعلت ما فعلت قال مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فاقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أبقيت ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته الا رياء وهم كاذبون انما كان به متطوعا فانزل الله عزوجل وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات الآية وكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن اسحق كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق باربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رغب في الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق باربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا ما هذا الا رياء وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخو بني انيف الاراشي حليف بني عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فافرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا ان الله لغني عن صاع أبي عقيل وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا طالوت بن عباد حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدقوا فاني أريد ان أبعث بعثا قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يارسول الله عندي أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت وبات رجل من الانصار فاصاب صاعين من تمر فقال يارسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي قال فلمزه المنافقون وقالوا

لكونه مربيا له والاول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن (قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه) مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الملك بعد ان ابلغه الرسول ما قال يوسف والخطب الشأن العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه صاحبه خاصة وانما يخطب في الامور العظام قال الازهري تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شأنكن وكانت النسوة أربعين كما تقدم وقد تقدم معنى المراودة وانما نسب اليهن المراودة لان كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز أو أراد بنسبة ذلك اليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشيا عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز فاجبن عليه بقولهن (قلن حاش لله) أي معاذ الله تنزيها له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف مثل هذا (ما علمنا عليه من سوء) أي من أمر سيئ ينسب اليه من خيانة في شئ من الاشياء وغير ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات انما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء وصرحت بما هو الواقع و(قالت امرأة العزيز) منزهة لجانبه مقرة على نفسها بالمراودة له (الآن حصحص الحق) أي تبين وظهر بعد خفائه وأصله حص فقيل حصحص كما قيل في كبوا كبكبوا قاله الزجاج وأصل الحص استئصال الشئ يقال حص شعره اذا استأصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل بظهوره و بيانه وقيل هو مشتق من الحصة والمعنى بانت حصة الباطل قال الخليل معناه ظهر الحق بعد خفائه وقال ابن عباس تبين وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله ثم لما علمت ان يوسف راعى جانبها حيث قال ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها انما نشأت من جهتها كافأته على ذلك باعترافها بان الذنب منها وأوضحت ذلك بقولها (أنا راودته عن نفسه) ولم تقع منه المراودة لي أصلا (وانه لمن الصادقين) فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المراودة اليها وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فاخبر الرسول يوسف بجواب النسوة المذكورة فقال (ذلك) أي الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنيه ذهب أكثر المفسرين الى ان هذا الكلام من كلام يوسف قال الفراء ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما الى ما يليق به وهذه هي المرة الثالثة من مرات مجئ الرسول ليوسف في السجن والمعنى فعلت ذلك (ليعلم)

ما أعطى الذي أعطى بن عوف الا رياء وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا فأنزل الله الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم الآية ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه مرسلا قال ولم يسنده أحد الا طالوت وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر فانقلبت بأحدهما الى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب الى رسول الله صلى الله (٤٦) عليه وسلم فأتيته فأخبرته فقال انثره في الصدقة قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين فأنزل الله الذين يلمزون المطوعين الآيتين وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب به وقال اسم عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة وقوله فيسخرون منهم وقوله سخر الله منهم هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لان الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارا للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما لان الجزاء من جنس العمل (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وانه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل ان السبعين انما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم لان العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليهم سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم الآية وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك قال الحباب بن عبد الله قال بل أنت عبد الله بن عبد الله ان الحباب اسم شيطان فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له أتصلي عليه فقال ان الله

العزيز (اني لم أخنه) في أهله (بالغيب) والمعنى بظهر الغيب أي وهو غائب عني أو وأنا غائب عنه قال الزمخشري أي بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الابواب السبعة المغلقة قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان أخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته امرأة العزيز وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والاول أولى وذهب الاقلون من المفسرين الى ان هذا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمراودة ليعلم يوسف اني لم أخنه فأنسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني أو وأنا غائبة عنه (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) أي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له ما يثبت به ويدوم واذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد ان علم براءته ونزاهته ولعل المراد منه اني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريئا مما نسبوني اليه ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال (وما أبرئ نفسي) وهذا ان كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة لانها قد أقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف وقد قيل ان هذا من قول العزيز وهو بعيد جدا ومعناه وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف والمساعدة على حبسه بعد ان علمت براءته (ان النفس لأمارة بالسوء) أي ان هذا الجنس من الانفس البشرية شأنه الامر بالسوء لميله الى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك (الا ما رحم ربي) أي الا من رحم من النفوس فعصمها عن ان تكون أمارة بالسوء أو الا وقت رحمة ربي وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن ان تكون أمارة بالسوء (ان ربي غفور رحيم) تعليل لما قبلها أي ان من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم والمعنى أجعله خالصا لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصا للعزيز والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة قال ذلك لما كان

قال ان تستغفر لهم سبعين مرة ولا ستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير باسانيده (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون) يقول تعالى ذاما للمنافقين المخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه وكرهوا ان يجاهدوا معه باموالهم وأنفسهم في سبيل الله (٤٧) وقالوا أي بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر وذلك ان الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا لا تنفروا في الحر قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهم نار جهنم التي تصيرون اليها بمخالفتكم أشد حرا مما فررتم منه من الحر بل لا اشد حرا من النار كما قال الامام مالك عن ابي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزأ أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به وقال الامام احمد حدثنا سفيان عن ابي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم فضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد وهذا أيضا مع اسناده صحيح وقد روى الامام ابو عيسى الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس الدوري عن يحيى ابن ابي بكير عن شريك عن عاصم عن ابي صالح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقد الله على النار الف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم ثم قال الترمذي لا اعلم احدا رفعه غير يحيى كذا قال وقد رواه الحافظ ابو بكر بن مردويه عن ابراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي به وروى ايضا ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم نارا وقودها الناس والحجارة قال أوقد عليها الف عام حتى ابيضت والف عام حتى احمرت والف عام حتى اسودت فهي سوداء كالليل لا يضيء لهبها وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيح وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه

يوسف نفيسا وعادة الملوك ان يجعلوا الاشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم قال ابن عباس فأتاه الرسول فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة فلما أتاه رآه غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه وقال لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف خليفة الملك وعنه قال قال الملك ليوسف اني احب ان تخالطني في كل شيء الا في أهلي وأنا آنف ان تأكل معي فغضب يوسف فقال أنا أحق ان آنف انا ابن ابراهيم خليل الله وأنا ابن اسحق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبي الله وهذه هي المرة الرابعة من مجيء الرسول ليوسف في السجن (فلما كلمه) في الكلام حذف وتقديره فأتوه به فلما كلمه أي الملك يوسف ويحتمل ان يكون المعنى فلما كلم يوسف الملك قيل والاول أولى لان مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء الا هم دون من يدخل عليهم وقيل الثاني اولى لقول الملك (قال انك اليوم لدينا مكين أمين) فان هذا يفيد انه لما تكلم يوسف في مقام الملك جاء بما حببه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة ومعنى مكين أمين ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره أو على ما يكله اليه من ذلك وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليك ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين قيل انه لما وصل الى الملك أجلسه على سريره وقال له اني أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك فعبرها له باكمل بيان وأتم عبارة فلما سمع الملك منه ذلك قال له انك اليوم لدينا مكين أمين فلما سمع يوسف منه ذلك (قال اجعلني على خزائن الارض) أي ولني أمر الارض التي أمرها اليك وهي أرض مصر أو اجعلني على حفظ خزائن الارض وهي الامكنة التي تخزن فيها الاموال والطعام جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ورفع الظلم ويتوصل به الى دعاء أهل مصر الى الايمان بالله وترك عبادة الاوثان وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في أمر من أمور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم

لو ان شرارة من نار جهنم بالمشرق لوجد حرها من المغرب وروى الحافظ ابو يعلى عن اسحق بن ابى اسرائيل عن ابى عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن ابى وحشية عن سعيد بن جبير عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان فى هذا المسجد مائة الف أو يزيدون وفيهم رجل من اهل النار فتنفس فاصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه غريب وقال الاعمش عن ابى اسحق عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهون اهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل (٤٨) لا يرى ان احدا من اهل النار اشد عذابا منه وانه اهونهم عذابا اخرجاه فى الصحيحين من حديث الاعمش وقال مسلم ايضا حدثنا ابو بكر بن ابى شيبة حدثنا يحيى ابن ابى كثير حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن ابى صالح عن النعمان بن ابى عياش عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أدنى اهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه وقال الامام احمد حدثنا يحيى عن ابن عجلان سمعت ابى عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أدنى اهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه وهو اسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله اعلم والاحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة وقال الله تعالى فى كتابه العزيز كلا انها لظى نزاعة للشوى وقال تعالى يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق وقال تعالى ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وقال تعالى فى هذه الآية اى الكريمة قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون اى لو انهم يفقهون و يفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر * كالمستجير من الرمضاء بالنار وقال الآخر

عمرك بالحمية افنيته * خوفا من البارد والحار وكان اولى لك ان تتقى * من المعاصى حذر النار * ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين فى صنيعهم هذا فليضحكوا قليلا الآية قال ابن ابى طلحة عن ابن عباس الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤا فاذا

ما أمكنه من الباطل ان يطلب ذلك لنفسه و يجوز له ان يصف نفسه بالاوصاف التى لها ترغيبا فيما يرومه وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بالقاء مقاليد الامور اليه وجعلها منوطة به ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من النهى عن طلب الولاية والمنع من توليه من طلبها أو حرص عليها وكان يوسف طلبه ابتغاء لوجه الله لا لحب الملك والدنيا وبهذا يجمع بينهما (انى حفيظ) وهو الذى يحفظ الشئ أى انى حفيظ لما جعلته الى من حفظ الاموال لا أخرجها فى غير مخارجها ولا أصرفها فى غير مصارفها (عليم) بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها ومصالحها عن شيبة بن نعامة الضبى قال يقول اجعلنى على جميع الطعام انى حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم لما وليتنى وقيل حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتينى (وكذلك) أى مثل ذلك التمكين العجيب (مكنا ليوسف) أى جعلنا له مكانا (فى الارض) أى أرض مصر روى انها كانت أربعين فرسخا فى أربعين والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فى كل ما رآى وكان فى حكم التابع وصار الناس يعملون على أمره ونهيه (يتبوأ منها حيث يشاء) أى ينزل منها حيث أراد بعد الضيق والحبس ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكأنه يتصرف فى الارض التى أمرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل فى منزله وفى القصة ان الملك توجه وختمه وولاه مكان العزيز وعزله فمات بعد فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين وأقام العدل بمصر ودانت له الرقاب قاله السيوطى وعن ابن زيد ان يوسف تزوج امرأة العزيز فوجدها بكرا وكان زوجها عنينا وقد استدل بهذه الآية على انه يجوز تولى الاعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا فى قوله سبحانه ولا تركنوا الى الذين ظلموا قال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله وكذلك مكنا الخ (نصيب برحمتنا من نشاء) من العباد فنرحمه فى الدنيا بالاحسان اليه والانعام عليه وفى الآخرة بادخاله الجنة وانجائه من النار (ولا نضيع أجر المحسنين) فى أعمالهم الحسنة التى هى مطلوبنا منهم أى لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها (ولاجر الآخرة)

انقطعت الدنيا وصاروا الى الله عزوجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خيثم وعون العقيلي وزيد بن أسلم وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن زيد حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو ان سفنا ارخيت فيها لجرت ورواه ابن ماجه من (٤٩) حديث الاعمش عن يزيد الرقاشي به وقال الحافظ أبو بكر ابن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن العباس حدثنا حماد الجزري عن زيد بن رفيع رفعه قال ان أهل النار اذا دخلوا النار بكوا الدموع زمانا ثم بكوا القيح زمانا قال فتقول لهم الخزنة يا معشر الاشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يا معشر الآباء والامهات والاولاد خرجنا من القبور عطاشا وكنا طول الموقف عطاشا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ثم يجيبهم بأنكم ماكثون فييأسون من كل خير (فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) يقول تعالى آمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام فان رجعك الله أي ردك الله من غزوتك هذه الى طائفة منهم قال قتادة ذكر لنا انهم كانوا اثني عشر رجلا فاستأذنوك للخروج أي معك الى غزوة أخرى فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا أي تعزيرا لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله انكم رضيتم بالقعود أول مرة وهذا كقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية فان جزاء السيئة السيئة بعدها كما ان ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله في عمرة الحديبية سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها الآية وقوله تعالى فاقعدوا مع الخالفين قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة وقال قتادة فاقعدوا مع الخالفين أي مع النساء قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لان جمع

أي أجرهم في الآخرة واضيف الاجر الى الآخرة للملابسة واللام للقسم وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفد نعيمها ولا ينقضي مدتها (خير للذين آمنوا) بالله (وكانوا يتقون) الوقوع فيما حرمه عليهم والمراد بهم المحسنون الذين تقدم ذكرهم وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الايمان والتقوى وفي الكلام اظهار في مقام الاضمار للتوصل الى وصفهم بالايمان والتقوى بعد وصفهم بالاحسان (وجاء اخوة يوسف) أي جاؤا الى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وشياه (فدخلوا عليه) أي على يوسف وهو في مجلس ولايته (فعرفهم) لقوة فهمه وعدم مباينة احوالهم السابقة لحالهم يومئذ لانه فارقهم رجالا وقيل بأول نظرة نظر اليهم عرفهم وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه قاله الحسن والاول أولى وهو ظاهر النظم القرآني وبه قال ابن عباس ومجاهد (وهم له منكرون) لم يعرفوه لانهم فارقوه صبيا يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد ان أخرجوه من الجب ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم وقيل انهم أنكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه وقيل كانوا بعيدي العهد منه فلم يعرفوه وقيل كان بين ان قذفوه بالجب و بين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقيل غير ذلك وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه ولما كان انكارهم له مستمرا في حالتي المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام (ولما جهزهم بجهازهم) المراد به هنا انه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم بجهاز السفر قال الازهري القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة وقيل بالعكس وفي الآية تضمين ضمن جهز معنى أكرم أي ولما أكرمهم بجهازهم أي بتحصيله لهم قيل حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام وأكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم و بجميع ما فعله يوسف معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين (قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) يعني أخاه بنيامين الذي تقدم ذكره وهو أخو يوسف لابيه وامه ولم يقل بأخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك

النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم اذا مات وان لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لانهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وان كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري حدثنا عبيد بن اسمعيل عن ابي اسامة (٥٠) عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله ابن عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فاعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فاخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك ان تصلي عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيده على السبعين قال انه منافق قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل آية ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي اسامة حماد بن اسامة به ثم رواه البخاري عن ابراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به وقال فصلينا عليه وصلينا معه وأنزل الله ولا تصل على أحد منهم مات أبدا الآية وهكذا رواه الامام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا فقال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن اسحق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما توفي عبد الله [illegible] دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا كذا وكذا يعدد أيامه قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم حتى اذا أكثرت عليه قال أخر عني يا عمر اني خيرت فاخترت قد قيل لي استغفر لهم الآية لو أعلم اني لو زدت على السبعين غفر له لزدت [illegible]

وبغلام لك فان الاول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي أو أتى باللام لانه كان أخاهم لابيهم لا لامهم وهذا أحسن من الاول ولعله عليه السلام انما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فاعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به لا لما قيل من انه لما رآهم وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فاني أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الانبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك وكان أحبنا الى أبينا فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فاين الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينا وأتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فاصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الامر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال ثم قال لهم (ألا ترون اني أوفي الكيل) أي أتمه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة اخرى ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقا به وتصديقا لقوله فقال (وأنا خير المنزلين) أي والحال أنا خير من نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الانزال قال الزجاج قال يوسف ذلك حين أنزلهم وأحسن ضيافتهم وقال ابن عباس أنا خير من يضيف بمصر قال الرازي وهذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون الخ وأيضا يبعد من يوسف مع كونه صديقا ان يقول لهم ذلك مع انه يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا يليق بالصديق ثم توعدهم اذا لم يأتوه به فقال (فان لم تأتوني) اذا عدتم مرة اخرى (به) أي

صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم قال
فوالله ما كان الا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان ولا تصل على أحد منهم مات أبدا الآية فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده
على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن اسحق عن الزهري به وقال
حسن صحيح ورواه البخاري عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهري به فذكر مثله وقال أخر عني يا عمر فلما أكثرت عليه قال
خيرت فاخترت ولو أعلم اني ان زدت على السبعين لغفر له لزدت عليها (٥١) قال فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا
حتى نزلت الآيتان من براءة ولا
تصل على احد منهم مات أبدا ولا
تقم على قبره الآية فعجبت بعد من
جرأتي على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورسول الله صلى الله
عليه وسلم أعلم وقال الامام أحمد
حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبد
الملك عن ابن الزبير عن جابر قال
لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه
النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله انك ان لم تأته لم نزل
نعير به فأتاه النبي صلى الله عليه
وسلم فوجده قد أدخل في حفرته
فقال أفلا قبل ان تدخلوه فأخرج
من حفرته ونفل عليه من ريقه
من قرنه الى قدمه وألبسه قميصه
ورواه النسائي عن أبي داود الحراني
عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو
ابن أبي سليمان به وقال البخاري
حدثنا عبد الله بن عثمان أخبرنا
ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن
عبد الله قال أتى النبي صلى الله
عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد
ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج
ووضع على ركبتيه ونفث عليه من
ريقه وألبسه قميصه والله أعلم
وقد رواه أيضا في غير موضع مع مسلم والنسائي من غير وجه عن سفيان بن عيينة به وقال الامام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق
البزار في مسنده حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى حدثنا مجالد حدثنا عامر حدثنا جابر ح وحدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد
الرحمن بن مغراء الدوسي حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى ان يصلي
عليه النبي صلى الله عليه وسلم فجاء ابنه الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أبي أوصى ان يكفن بقميصك وهذا الكلام في حديث
عبد الرحمن بن مغراء قال يحيى في حديثه فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره

بأخ لكم من أبيكم (فلا كيل لكم عندي) أي فلا أبيعكم شيأ فما بعد فضلا
عن ايفائه وأما في الحال فقد أوفاهم كيلهم وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا محتاجين
الى تحصيل الطعام ولا يمكن الا من عنده فاذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم
(ولا تقربون) أي لا تدخلوا بلادي فضلا ان أحسن اليكم وقيل معناه لا أنزلكم عندي كما
أنزلتكم هذه المرة ولم يرد انهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوم على
ان لا ناهية أو على انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال فان لم
تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم (قالوا سنراود عنه
أباه) أي سنطلبه منه ونجتهد في ذلك بما نقدر عليه وقيل معنى المراودة هنا المخادعة
منهم لابيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه (وانا لفاعلون) هذه المراودة غير
مقصرين فيها وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه (وقال) يوسف
(لفتيته) أي لغلمانه وأتباعه قرأه أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن
عامر واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه
واختار هذه القراءة أبو عبيد وبه قرأ ابن مسعود قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد
الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع وأيضا فان فتية أشبه من
فتيان لان فتية عند العرب لاقل العدد وأمر القليل بان يجعلوا البضاعة في الرحال
أشبه والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف بعد وعدهم له بذلك فأجيب
بانه قال لفتيته قال الزجاج الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك وقال الثعلبي هما
لغتان جيدتان مثل الصبية والصبيان قال الكرخي وكلاهما جمع فتى كأخوة واخوان
جمع أخ الاول للقلة والثاني للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون (اجعلوا بضاعتهم)
المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما
وقال ابن عباس أوراقا (في رحالهم) وكل لكل رحل واحدا من غلمانه يدس فيه
البضاعة التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل والرحال جمع رحل وهي الاوعية التي
يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الاثاث قال الواحدي
الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى والمراد
هنا الاوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام قال ابن الانباري يقال للوعاء رحل
وللبيت رحل فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلا عليهم وقيل ليستعينوا بها على

وزاد عبد الرحمن وخلع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه فاعطاه اياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره فاتاه جبريل عليه السلام لما
ولى قال ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره واسناده لا بأس به وماقبله شاهد له وقال الامام أبو جعفر الطبري حدثنا أبو
أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد ان يصلى على عبد الله بن أبي فاخذ جبريل
بثوبه وقال ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف
وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه
وسلم له أهلكك حب يهود قال
يارسول الله انما أرسلت اليك
لتستغفر لي ولم أرسل اليك لتؤنبني
ثم سأله ان يعطيه قميصه يكفن فيه
فاعطاه اياه وصلى عليه وقام على قبره
فانزل الله عز وجل ولا تصل على
أحد منهم مات أبدا الآية وقد ذكر
بعض السلف انه انما كساه قميصه
لان عبد الله بن أبي لما قدم العباس
طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله
الا ثوب عبد الله بن أبي لانه كان
ضخما طويلا ففعل ذلك به رسول
الله صلى الله عليه وسلم مكافأة له
فالله أعلم ولهذا كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه
الآية الكريمة عليه لا يصلى على
أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره
كما قال الامام أحمد حدثنا يعقوب
حدثنا أبي عن أبيه حدثني عبد الله
ابن أبي قتادة عن أبيه قال كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا
دعى الى جنازة سأل عنها فان اثنى
عليها خير قام فصلى عليها وان كان
غير ذلك قال لاهلها شأنكم بها
ولم يصل عليها وكان عمر بن الخطاب
لا يصلى على جنازة من جهل حاله
حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لانه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترضه
ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر انه أراد ان يصلى
على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد ان يصده عن الصلاة عليها ثم حكى عن بعضهم ان المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص
باطراف الاصابع ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر
القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك وفي فعله الاجر الجزيل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان

الرجوع اليه سريعا لشراء الطعام وقيل ليرجعوا اليه مرة أخرى لعلمه انهم لا يقبلون
الطعام الا بثمن قاله الفراء وجرى عليه الجلال وقيل انه خاف ان لا يكون عند أبيه شئ
آخر من المال لان الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل أراد ان يحسن اليهم على وجه
لا يلحقهم فيه منة ولا عيب وقيل أراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم وقيل أراد ان
يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته على شدة الزمان وقيل غير ذلك وقيل انه استقبح ان يأخذ
من أبيه واخوته ثمن الطعام ثم علل يوسف ما أمر به من جعل البضاعة في الرحال وهي
معرفتهم لها فقال (لعلهم يعرفونها) أي بضاعتهم (اذا انقلبوا) رجعوا (الى
أهلهم) لانهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام
وهم لا يفرغونها الا عند الوصول الى أهلهم ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة اليهم
المجعولة في رحالهم بقوله (لعلهم يرجعون) الينا فانهم اذا عرفوا ذلك وعلموا انهم
أخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضا عنه قد رجع اليهم وتفضل به من وصلوا اليه
عليهم نشطوا الى العود ولا سيما مع ماهم فيه من الجدب الشديد والحاجة الى الطعام
وعدم وجوده لديهم فان ذلك من أعظم ما يدعوهم الى الرجوع وبهذا يظهر ان يوسف
عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصود وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل ردها
بغير ذلك (فلما رجعوا الى أبيهم) قبل ان يشتغلوا بفتح المتاع (قالوا يا أبانا) قدمنا
على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر
فاقرؤا عليه مني السلام وقولوا ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا فقالوا (منع منا الكيل)
وأرادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف لهم فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي أي منع
الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل على ان الامتيار مرة بعد مرة معهود فيما
بينهم وبينه ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل ان يفتحوا امتاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما
يفيد ذلك قوله فيما بعد فلما فتحوا امتاعهم الآية ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف فقالوا
(فارسل معنا أخانا) بنيامين الى مصر (نكتل) بسبب ارساله معنا ما نريده من الطعام
وهو مجزوم في جواب الامر وأصله نكتيل بوزن نفتعل ووزنه الآن نفتل وبحسب الاصل
نفتعل قرأ سائر الكوفيين بالتحتية واختار أبو عبيدة قراءة النون قال ليكونوا كلهم
داخلين فيمن يكتال وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده أي يكتال أخونا بنيامين

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان قيل وما القيراطان قال أصغرهما مثل أحد وأما القيام عند قبر المؤمن اذا مات فروى أبوداود حدثنا ابراهيم بن موسى الرازى أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هانئ وهو أبو سعيد البربرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل انفرد باخراجه أبوداود رحمه الله وقوله ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم الآية تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد (٥٣) (واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) يقول تعالى منكرا وذاما للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ورضوا لانفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس واذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما كما قال تعالى عنهم فى الآية الاخرى فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أى علت ألسنتهم بالكلام الحد القوى فى الامن وفى الحرب أجبن شئ وكما قال الشاعر

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة
وفى الحرب أشباه النساء العوارك

وقال تعالى فى الآية الاخرى ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم الآية وقوله وطبع على قلوبهم أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله فهم لا يفقهون أى لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) لما ذكر تعالى ذم المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم فى آخرتهم فقال لكن الرسول والذين

واعترضه النحاس بما حاصله ان اسناد الكيل الى الاخ لا ينافى كونه للجمع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعا والقراءتان سبعيتان قال الزجاج أى ان أرسلته اكتلنا والا منعنا الكيل (وانا له) أى لبنيامين (لحافظون) من ان يصيبه سوء أو مكروه (قال) يعقوب لما قالوا له هذه المقالة (هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك فى مواضع كثيرة والمعنى انه لا يأمنهم على بنيامين الا كما أمنهم على أخيه يوسف وقد قالوا له فى يوسف وانا له لحافظون كما قالوا هنا ثم خانوه فى يوسف فهو ان آمنهم فى بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه فى يوسف (فالله خير حافظا) منصوب على الحالية وقرئ حفظا على التمييز ولعل هنا اضمارا والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظا والمعنى ان حفظ الله اياه خير من حفظهم له وانما أرسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف أو ان شدة القحط وضيق الوقت أحوجه الى ذلك (وهو أرحم الراحمين) فأرجو ان ينعم على بحفظه ولا يجمع على مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وأرجعه اليه ولما قال فى يوسف وأخاف ان يأكله الذئب وقع له من الامتحان ما وقع قال كعب لما قال ذلك قال الله تعالى وعزتى وجلالى لاردن عليك كليهما (ولما فتحوا) بحضرة أبيهم (متاعهم) أى أوعية الطعام أو ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذى فيه طعاما أو غير طعام (وجدوا بضاعتهم) التى حملوها الى مصر امتيارا بها وهى ثمن الطعام وقد تقدم بيانها (ردت اليهم) وجملة (قالوا يا أبانا) مستأنفة كما تقدم (ما نبغى) ما للاستفهام الانكارى والمعنى أى شئ نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان برد البضاعة والاكرام عند القدوم اليه وتوفير ما أردناه من الميرة وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم وقال قتادة ما نبغى وراء هذا وقيل ان ما نافية أى ما نبغى فى القول وما نزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا واكرامه لنا وقرئ بالفوقية خطابا ليعقوب أى أى شئ تطلب وراء هذا الاحسان أو أى شئ تطلب من الدليل على صدقنا ثم برهنوا على ما نفوه من التزيد فى وصف الملك بقولهم (هذه بضاعتنا ردت الينا) فان من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم مستحق لما وصفوه به وهى جملة مقررة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شئ مع كونها قد

آمنوا معه جاهدوا الى آخر الآيتين من بيان حالهم وما لهم وقوله وأولئك لهم الخيرات أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) ثم بين تعالى حال ذوى الاعذار فى ترك الجهاد الذين جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة قال الضحاك عن ابن عباس انه كان يقرأ وجاء المعذرون بالتخفيف ويقول هم أهل العذر وكذا روى (٥٤) عن ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء قال ابن اسحق وبلغنى انهم نفر من بنى غفار خفاف بن ايماء بن رحضة وهذا القول هو الاظهر فى معنى الآية لانه قال بعد هذا وقعد الذين كذبوا الله ورسوله أى لم يأتوا فيعتذروا وقال ابن جريج عن مجاهد وجاء المعذرون من الاعراب قال نفر من بنى غفار جاؤا فاعتذروا فلم يعذرهم الله وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن اسحق والقول الاول أظهر والله أعلم لما قدمنا من قوله بعده وقعد الذين كذبوا الله ورسوله أى وقعد آخرون من الاعراب عن المجئ للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الاليم فقال سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) ثم بين تعالى الاعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب فليس على هؤلاء حرج اذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا ولهذا قال ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة

ردت اليهم (ونمير أهلنا) نجلب اليهم الميرة وهى الطعام يقال مار أهله يميرهم اذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمائر الذى يأتى بالطعام وقرأ السلمى بضم النون (ونحفظ أخانا) بنيامين مما تخافه عليه (ونزداد) بسبب ارساله معنا (كيل) حمل (بعير) زائد على ما جئنا به هذه المرة لانه كان يكال لكل رجل وقر بعير قال مجاهد حمل بعير حمار وهى لغة قال أبو عبيدة يعنى ان الحمار يقال له فى بعض اللغات بعير (ذلك) أى زيادة كيل بعير لاخينا (كيل يسير) يسهل على الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيرا لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه وقيل ان المعنى ذلك المكيل لاجلنا قليل نريد ان ينضاف اليه حمل بعير لاخينا واختار الزجاج الاول وقيل ان هذا من كلام يعقوب جوابا على ما نزله أولاده ونزداد كيل بعير يعنى ان حمل بعير شئ يسير لا يخاطر لاجله بالولد وهو ضعيف لان جواب يعقوب هو (قال ان أرسله معكم حتى تؤتون) أى تعطونى (موثقا) ما أثق به وأركن اليه (من) جهة (الله) سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه واللام فى (لتأتننى به) جواب القسم أى تحلفوا بالله لتردن بنيامين أى لتأتنى به والاستثناء بقوله (الا أن يحاط بكم) مفرغ من أعم الاحوال لان لتأتننى به وان كان كلاما مثبتا فهو فى معنى النفى فكأنه قال لا تمنعون من اتيانى به على حال الاحوال الا حال الاحاطة بكم أو من أعم العلل أى لعلة من العلل الا لعلة الاحاطة بكم والاحاطة مأخوذة من أحاطه العدو ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك تقول العرب أحيط بفلان اذا هلك أو قارب هلاكه فأخذ يعقوب عليهم العهد بان يأتوه بنيامين الا ان يغلبوا عليه أو يهلكوا دونه جميعا فيكون ذلك عذرا لهم عنده (فلما آتوه موثقهم) أى أعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد (قال الله على ما نقول وكيل) أى قال يعقوب الله على ما قلناه من طلبى الموثق منكم واعطائكم لى ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس فى عهده وفجر فى الحلف به أو موكول اليه القيام بما شهد عليه منا (وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لما تجهز أولاد يعقوب للمسير الى مصر خاف عليهم أبوهم ان تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوى جمال ظاهر وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد فنهاهم ان يدخلوا مجتمعين من باب واحد لان فى ذلك مظنة لاصابة العين لهم والعين

رضى الله عنه قال قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس واذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا وقال الاوزاعى خرج الناس الى الاستسقاء فقام فيهم بلال ابن سعد فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر ألستم مقرين بالاساءة قالوا اللهم نعم فقال اللهم انا نسمعك تقول ما على المحسنين من سبيل اللهم وقد أقررنا بالاساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى حدثنا ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن (٥٥) عبيد الله الرازى حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت أكتب براءة فانى لواضع القلم على أذنى اذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه اذ جاء أعمى فقال كيف بى يا رسول الله وانا أعمى فنزلت ليس على الضعفاء الآية وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس ان ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزنى فقالوا يا رسول الله احملنا فقال لهم والله لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون وعز عليهم ان يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال ليس على الضعفاء الى قوله فهم لا يعلمون وقال مجاهد فى قوله ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم نزلت فى بنى مقرن من مزينة وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمرو ابن عوف سالم بن عوف ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى فضل الله ومن بنى سلمة عمرو بن عتمة وعبد الله بن عمرو المزنى وقال محمد بن اسحق فى سياق غزوة تبوك ثم ان رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الانصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة وعبد الله بن المغفل المزنى و بعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزنى وحرمى بن عبد الله أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى فاستحملوا رسول الله

والعين حق فامرهم ان يدخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدى أراد الطرق لا الابواب ولم يأمرهم بالتفرق فى الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين فى الكرة الاولى ولم يكتف بقوله لا تدخلوا من باب واحد من قوله وادخلوا من أبواب متفرقة لانهم لو دخلوا من بابين مثلا كانوا اقد امتثلوا النهى عن الدخول من باب واحد ولكنه لما كان فى الدخول من بابين مثلا نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة قال النخعى أحب يعقوب ان يلقى أخاه فى خلوة قيل وكان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف الا ان الله لم يأذن له فى اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم ذلك القول والاول أولى أعنى انه خاف عليهم العين وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين وقد أنكر بعض المعتزلة كابى على الجبائى واتباعه ان للعين تأثيرا انكارا بليغا ولم يذكروا فى انكاره شبهة فضلا عن حجة وليس هذا بمستنكر من هؤلاء فقد صار ردفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم وأى مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك وقد وردت الاحاديث الصحيحة بان العين حق وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة ومنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلى والتنطع فى العبارات كالزمخشرى فى تفسيره فانه فى كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذى يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة فى العبارة على وجه يوقع المقصرين فى الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالادلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الامة سلفا وخلفا وبما هو مشاهد فى الوجود فكم من شخص من هذا النوع الانسانى وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالاصابة بالعين فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعا لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته وقيل ينفى وأبعد من قال انه يقتل الا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فانه اذا قتل كان له حكم القاتل ثم قال يعقوب لاولاده (وما أغنى عنكم من الله من شئ) أى لا أدفع عنكم ضررا ولا أجلب اليكم نفعا بتدبيرى هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الانبارى لو سبق فى علم الله ان العين تهلكهم

مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم وقال آخرون ما كان يغني عنهم يعقوب شيأ قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم قال أبو السعود ولم يرد عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة وقال تعالى خذوا حذركم بل أراد بيان ان ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه ثم صرح يعقوب بانه لا حكم الا لله سبحانه فقال (ان الحكم الا لله) وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك (عليه) لا على غيره (توكلت) أي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار (وعليه) لا على غيره (فليتوكل المتوكلون) على العموم ويدخل فيه أولاده دخولا أوليا (ولما دخلوا) المدينة (من حيث أمرهم أبوهم) أى من الابواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد وجواب لما (ما كان يغني عنهم) ذلك الدخول أو رأى يعقوب واتباعهم له (من الله) أى من جهته (من شئ) من الاشياء مما قدره الله عليهم أى الذى أراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة وأخذ منهم بنيامين وتضاعفت المصيبة على يعقوب لان الحذر لا يدفع القدر والاستثناء بقوله (الا حاجة في نفس يعقوب قضاها) منقطع والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهى شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذى دبره لهم تأثيرا في دفع ما قضاه الله عليهم وقيل انه خطر ببال يعقوب ان الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة أوقع بهم حسدا وحقدا وخوفا منهم فامرهم بالتفرق لهذه العلة وقد اختار هذا النحاس وقال لا معنى للعين هنا وفيه ان هذا لو كان السبب لامرهم بالتفرق لم يخص النهى عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من باب واحد لان هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد وقيل ان الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول لا الى يعقوب والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيأ ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته (وانه) أى وان يعقوب (لذو علم) جليل (لما علمناه) أى لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل

صلى الله عليه وسلم وكانوا أهل حاجة فيقال لا أجد ما أحملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن الاودى حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتم من عدو نيلا الا وقد شركوكم في الاجر ثم قرأ ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه الآية وأصل الحديث في الصحيحين من حديث (١) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتم سيرا الا وهم (٥٦) معكم قالوا وهم بالمدينة قال نعم حبسهم العذر وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الاعمش عن أبي سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا الا أشركوكم في الاجر حبسهم المرض ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الاعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وانبهم في رضاهم بان يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون

(يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

أخبر تعالى عن المنافقين بانهم اذا رجعوا الى المدينة انهم يعتذرون اليهم قل لن نؤمن لكم أى لن نصدقكم قد نبأنا الله من أخباركم أى قد أعلمنا الله أحوالكم وسيرى الله عملكم ورسوله أى سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون أى فيخبركم باعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها ثم أخبر عنهم انهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فاعرضوا عنهم احتقارا لهم انهم رجس أى خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أى من الآثام والخطايا وأخبر انهم ان رضوا عنهم بحلفهم لهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فان في رأيه

(١) بياض بالاصل

- التفسيق هو الخروج ومنه سميت الفارة فويسقة لخروجها من جحرها للافساد ويقال فسقت الرطبة اذا خرجت من اكمامها

(الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم) أخبر تعالى ان فى الاعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين وان كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر (٥٧) أى أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الاعمش عن ابراهيم قال جلس اعرابى الى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الاعرابى والله ان حديثك ليعجبنى وان يدك لتريبنى فقال زيد ما يريبك من يدى انها الشمال فقال الاعرابى والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال فقال زيد بن صوحان صدق الله الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن سفيان الثورى به وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه الا من حديث الثورى ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا وانما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى ولما أهدى ذلك الاعرابى تلك الهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه أضعافها حتى رضى قال لقد هممت ان لا أقبل هدية الا من قرشى أو ثقفى أو انصارى أو دوسى لان هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن فهم ألطف اخلاقا من الاعراب لما فى طباع الاعراب من الجفاء وقوله والله عليم حكيم أى عليم بمن يستحق ان يعلمه الايمان والعلم حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والايمان والكفر والنفاق لا يسئل عما يفعل لعلمه وحكمته وأخبر تعالى ان منهم من يتخذ ما ينفق أى فى سبيل الله مغرما أى غرامة وخسارة ويتربص بكم الدوائر أى ينتظر بكم الحوادث

فى رأيه عند تخلف الأثر وعلم ان ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة وقيل غير ذلك وهذا أولى وفى تأكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بذلك كما ينبغى وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وان كان لا يغنى من القدر شيأ أو السياق يدفعه وقيل المراد باكثر الناس المشركون (ولما دخلوا على يوسف) أى فى محل حكمه (آوى) ضم (اليه أخاه) بنيامين قيل انه أمر بانزال كل اثنين فى منزل فبقى أخوه منفردا فضمه اليه و (قال انى أنا أخوك) يوسف قال له ذلك سرا من دون ان يطلع عليه اخوته (فلا تبتئس) أى فلا تحزن والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة (بما كانوا يعملون) اخوتك من الاعمال الماضية التى عملوها وقيل انه لم يخبره بانه يوسف بل قال له انى أنا أخوك مكان أخيك يوسف فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسدا وبغيا وقيل انه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية فى رحله فقال لا أبالى فدس الصاع فى رحله وهو المراد بالسقاية فى قوله (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) وأصلها المشربة التى كان الملك يشرب بها جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب وقيل كانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من زبرجد وقيل مرصعة بالجوهر وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل وعبر بالفاء هنا اشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لان الغرض منه قد حصل وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الاولى كان المطلوب طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم والمعنى انه جعل السقاية التى هى الصواع (فى رحل أخيه) الذى هو الوعاء الذى يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر (ثم) بعد ذلك (أذن) نادى (مؤذن) مناد وأعلم معلم والاذان فى اللغة الاعلام وكان ذلك النداء مع رفع الصوت مرارا كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم عن مجلس يوسف حتى انطلقوا وخرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بثم التى للتراخى بل قيل انهم وصلوا الى بلبيس وردوا من عندها (أيتها العير) قال الزجاج معناه يا أصحاب العير أى الابل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين وفى المصباح العير بالكسر اسم للابل التى تحمل الميرة فى الاصل ثم غلب على كل قافلة انتهى وكل ما امتير عليه من

والآفات عليهم دائرة السوء أى هى منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم والله سميع عليم أى سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر عمن يستحق الخذلان وقوله ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول هذا هو القسم الممدوح من الاعراب وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ألا انها قربة لهم أى ألا ان ذلك حاصل لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان (٥٨) رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم قال الشعبى السابقون الاولون من المهاجرين والانصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية وقال أبو موسى الاشعرى وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة هم الذين صلوا الى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظى مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار فاخذ عمر بيده فقال من أقرأك هذا فقال أبى بن كعب فقال لا تفارقنى حتى أذهب بك اليه فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا قال نعم قال وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال لقد كنت أرى انا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبى تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم وفى سورة الحشر والذين جاؤا من بعدهم الآية وفى الانفال والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم الآية ورواه ابن جرير قال وذكر عن الحسن انه كان يقرؤها برفع الانصار عطفا على والسابقون الاولون فقد أخبر الله العظيم انه قد رضى عن السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الاكبر والخليفة الاعظم أبا بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه فان الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياذا بالله من ذلك وهذا يدل على ان عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة

الابل والحمير والبغال فهو عير قاله الهيثم وقيل قافلة الحمير وقال أبو عبيدة العير الابل المرحولة المركوبة ثم كثر ذلك فى الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير لانه يعير أى يذهب ويجىء (انكم لسارقون) نسبة السرق اليهم على حقيقتها لان المنادى غير عالم بما دبره يوسف وقيل ان المعنى ان حالكم حال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضا من الملك وليس فى القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بامر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم وقيل غير ذلك وهذا أولى (قالوا) أى اخوة يوسف (وأقبلوا عليهم) أى حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادى من أصحاب الملك أى التفتوا اليهم وخاطبوهم بقولهم (ماذا تفقدون) أى ما الذى فقدتموه والفقد غيبة الشئ عن الحس بحيث لا يعرف مكانه يقال فقدت الشئ اذا عدمته بضياع أو نحوه فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) وقرئ بالغين المعجمة وقرئ صوع وصياع وصاع وقال الزجاج الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية قال ابن عباس كل شئ شربت منه فهو صواع وقيل الصواع الذى يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قراآت كثيرة وهى ثمانية كلها لغات فى هذا الحرف والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذ هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت (ولمن جاء به حمل بعير) من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله وهذا قول المؤذن وحده فهو الذى كفل وضمن والبعير الجمل وفى لغة بعض العرب انه الحمار والمراد بالحمل ههنا ما يحمله البعير من الطعام ثم قال المنادى (وأنا به) أى بجعل البعير الذى جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للاوعية (زعيم) كفيل قاله ابن عباس أى بلسان أهل اليمن وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ولعل القائل بفقد صواع الملك هو المنادى وانما نسب القول الى الجماعة لكونه واحدا منهم ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادى وحده لانه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم فى ذلك الزمان (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض)

فأين هؤلاء من الايمان بالقرآن اذ يسبون من رضي الله عنهم وأما أهل السنة فانهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ان في احياء العرب ممن حول المدينة منافقون وفي أهل المدينة أيضا منافقون مردوا على النفاق أي مرنوا واستمروا عليه (٥٩) ومنه يقال شيطان مريد ومارد ويقال تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر وقوله لا تعلمهم نحن نعلمهم لا ينافي قوله تعالى ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول لان هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين وقد كان يعلم ان في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا وان كان يراه صباحا ومساء وشاهد هذا بالصحة ما رواه الامام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان ابن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال قلت يارسول الله انهم يزعمون انه ليس لنا أجر بمكة فقال لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب وأصغى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال ان في أصحابي منافقين ومعناه انه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم وتقدم في تفسير قوله وهموا بما لم ينالوا انه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة باعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا وهذا تخصيص لا يقتضي انه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر حدثني شيخ ببيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثني عن أبي الدرداء ان رجلا يقال له حرملة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الايمان ههنا وأشار بيده الى لسانه والنفاق ههنا وأشار بيده الى قلبه ولم يذكر الله الا قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل له لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره الى خير فقال يارسول الله انه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم أفلا آتيك بهم

التاء بدل من واو القسم عند الجمهور وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياما كان ففيه التعجب ولا تدخل الا على هذا الاسم الشريف دون سائر أسمائه سبحانه وقد دخلت نادرا على الرب وعلى الرحمن والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف وأصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد في الارض الذي من أعظم أنواعه السرقة لانهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الاولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بانهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ولو لم يكن من ذلك الا ردهم لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم لكفى والمراد بالارض هنا أرض مصر ثم أكدوا هذه الجملة التي أقسموا بالله عليها بقولهم (وما كنا سارقين) لزيادة التبري مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة الرذيلة الشنعاء (قالوا فما جزاؤه) هذه جملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها والقائلون هم أصحاب يوسف أو المنادى منهم وحده كما مر والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم أو الضمير للسارق (ان كنتم كاذبين) فيما تدعونه لانفسكم من البراءة عن السرقة وذلك بان يوجد الصواع معكم فاجاب اخوة يوسف (قالوا جزاؤه) أي جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع أخذ (من وجد في رحله) واسترقاقه وتكون جملة (فهو جزاؤه) لتأكيد الجملة الاولى وتقريرها وقال الزجاج هو زيادة في البيان أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير قال المفسرون وكان حكم السارق في آل يعقوب ان يسترق سنة ثم يخلي سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء الكامل (نجزي الظالمين) لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها اذا كانت من كلام اخوة يوسف ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق ثم لما ذكروا جزاء السارق أرادوا ان يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الامر فاقبل يوسف على ذلك (فبدأ بأوعيتهم) يعني بتفتيش أوعية اخوته العشرة وقيل ان المنادى وأصحابه هم الذين تولوا التفتيش وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين دفعا للتهمة ورفعا لما دبره من الحيلة (ثم استخرجها) أي السقاية أو الصواع لانه يذكر

قال من أتانا استغفرنا له ومن أصر على دينه فالله أولى به ولا تخرقن على أحد سترا قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية انه قال ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار فاذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الانبياء قبلك قال نبي الله نوح عليه السلام وما علمي بما كانوا يعملون وقال نبي الله شعيب عليه السلام بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم لا تعلمهم نحن نعلمهم وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق واخرج يا فلان فانك منافق فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء انه لم يشهد الجمعة وظن ان الناس قد انصرفوا واختبؤا هم من عمر ظنوا انه قد علم بأمرهم فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا فقال له رجل من المسلمين ابشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم قال ابن عباس فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد والعذاب الثاني عذاب القبر وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا وقال مجاهد في قوله سنعذبهم مرتين يعني القتل والسبي وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر ثم يردون الى عذاب عظيم وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون الى عذاب عظيم النار وقال الحسن البصري عذاب في الدنيا وعذاب في القبر وقال عبد الرحمن بن زيد أما عذاب في الدنيا فالاموال والاولاد وقرأ قوله تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر وعذاب في الآخرة في النار ثم يردون الى عذاب عظيم قال النار وقال محمد بن اسحق سنعذبهم مرتين قال هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الاسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ثم عذابهم في القبور اذا صاروا اليها ثم العذاب العظيم الذي يردون اليه عذاب الآخرة والخلد فيه وقال سعيد عن قتادة في قوله سنعذبهم مرتين عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون الى عذاب عظيم وذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم أسر الى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين فقال ستة منهم

ويؤنث (من وعاء أخيه) فنكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء ولاموا بنيامين فأخذوه وردوه الى يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العجيب (كدنا) أي دبرنا قاله القتيبي أو أردنا قاله ابن الانباري (ليوسف) يعني علمناه اياه وأوحينا اليه واللام زائدة واليه نحا السيوطي وفي أبي السعود ما يقتضي ان اللام للتعليل أي صنعناه ودبرنا لاجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدؤه السعي في الحيلة والخديعة ونهايته القاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل الى دفعه وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية وقال ابن الاعرابي الكيد التدبير بالباطل وبالحق وقيل الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والاول أولى وفي الآية دليل على جواز التوصل الى الاغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة اذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (في دين الملك) أي ملك مصر وفي شريعته التي كان عليها بل كان دينه وقضاؤه ان يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته وحاصله ان يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفا لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل اليه وهو ما اجراه على ألسن اخوته من قولهم ان جزاء السارق الاسترقاق فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره وهذه الجملة تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف أو تفسير له يعني ان ذلك الامر كله كان الهاما من أمر الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد وهو معنى قوله (الا أن يشاء الله) أي الا حال مشيئته واذنه بذلك وارادته له والاستثناء منقطع اذ الاخذ بدين الملك لا يشمل المراد به فالمعنى ولكن أخذه بشريعة يعقوب (نرفع درجات من نشاء) بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف بذلك والآية تدل على ان العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم قرئ درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان (وفوق كل ذي علم) ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين (عليم) أرفع رتبة منه وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه وقيل معنى ذلك ان فوق كل أهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى الله وهو سبحانه فوق كل عالم عن سعيد بن جبير قال كنا

تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ فى كتف أحدهم حتى يفضى الى صدره وستة يموتون موتا وذكر لنا ان عمر بن الخطاب
رضى الله عنه كان اذا مات رجل ممن يرى انه منهم نظر الى حذيفة فان صلى عليه والا تركه وذكر لنا ان عمر قال لحذيفة أنشدك الله
أمنهم انا قال لا ولا أومن منها أحدا بعدك (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ عسى الله ان يتوب عليهم ان الله
غفور رحيم) لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبا وشكا شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا
عن الجهاد كسلا وميلا الى الراحة مع ايمانهم وتصديقهم بالحق فقال (٦١) وآخرون اعترفوا بذنوبهم أى أقروا بها واعترفوا
فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه وهذه الآية وان كانت نزلت فى أناس معينين الا انها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوثين وقد قال مجاهد انها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة انه الذبح وأشار بيده الى حلقه وقال ابن عباس وآخرون نزلت فى أبى لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه وقيل وسبعة معه وقيل تسعة معه فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يحلهم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أنزل الله هذه الآية وآخرون اعترفوا بذنوبهم أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم وقال البخارى حدثنا مؤمل ابن هشام حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا أتانى الليلة
آتيان فابتعثانى فانتهينا الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح
ما أنت راء قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالا لى
هذه جنة عدن وهذا منزلك قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ تجاوز الله
عنهم هكذا رواه البخارى مختصرا فى تفسير هذه الآية (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن
لهم والله سميع عليم ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم) أمر تعالى رسوله

عند ابن عباس فحدث بحديث فقال رجل عنده وفوق كل ذى علم عليم فقال ابن عباس
بئس ما قلت الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم وعن محمد بن كعب قال سأل رجل عليا عن
مسئلة فقال فيها فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا فقال على أصبت وأخطأت
وفوق كل ذى علم عليم وعن عكرمة قال علم الله فوق كل عالم قال ابن الانبارى يجب ان
يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه بالغلبة لانه لا يخلو عالم عن
عالم فوقه وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم (قالوا ان
يسرق) أى بنيامين الصواع (فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف وكان غرضهم
من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة
لانهما من أم أخرى غير أمنا وقال الخفاجى أتوا بكلمة ان لعدم تحققهم له بمجرد خروج
السقاية من رحله وأما قولهم ان ابنك سرق فبناء على الظاهر ويسرق لحكاية الحال
الماضية والمعنى ان كان سرق فليس ببدع لسبق مثله من أخيه والعرق نزاع وقيل انهم
جزموا بذلك وان لمجرد الشرط انتهى وقد اختلف المفسرون فى هذه السرقة التى نسبوها
الى يوسف ما هى فقيل انه كان ليوسف عمة هى أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة
اسحق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الاكبر سنا من ذكر أو أنثى وكانت
قد حضنت يوسف وأحبته حبا شديدا فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمى يوسف الى
فأشفقت من فراقه واحتالت فى بقائه لديها فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ثم
قالت قد سرقت منطقة اسحق فانظروا من سرقها فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف
فأخذته عندها كما هو شرع الانبياء فى ذلك الوقت من آل ابراهيم ذكره محمد بن اسحق وقد
سبق بيان شريعتهم فى السرقة وقيل ان يوسف أخذ صنما كان لجده أبى أمه فكسره
وألقاه على الطريق تغييرا للمنكر فعيره بذلك اخوته وقد روى معناه عن ابن عباس مرفوعا
وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع وقد روى نحوه عن جماعة من التابعين وحكى
عن الزجاج انه كان صنما من ذهب وقيل من فضة وقال عطية سرق فى صباه ميلين من
ذهب وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته وقيل كان فى المنزل دجاجة فأعطاها السائل
قاله سفيان بن عيينة وقيل كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء قال ابن الانبارى وليس فى
هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب وحكى

صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وهذا عام وان أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم الى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من احياء العرب ان دفع الزكاة الى الامام لا يكون وانه خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم واحتجوا بقوله تعالى خذ من أموالهم صدقة الآية وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة الى الخليفة كما كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق والله لو منعونى عناقا وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه وقوله وصل عليهم أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن أبى اوفى قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا اتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه ابى بصدقته فقال اللهم صل على آل ابى اوفى وفى الحديث الآخر ان امراة قالت يارسول الله صل علىّ وعلى زوجى فقال صلى الله عليك وعلى زوجك وقوله ان صلاتك سكن لهم قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرؤا ان صلاتك على الافراد سكن لهم قال ابن عباس رحمة لهم وقال قتادة وقار وقوله والله سميع اى لدعائك عليم اى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له قال الامام احمد حدثنا وكيع حدثنا أبو العميس عن أبى بكر بن عمرو عن عتبة عن ابن الحذيفة عن ابيه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دعا الرجل اصابته واصابت ولده وولد ولده ثم رواه عن ابى نعيم عن مسعر عن ابى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة قال مسعر وقد ذكره مرة عن حذيفة ان صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لتدرك الرجل وولده وولد ولده وقوله ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات هذا تهييج الى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها واخبر تعالى ان كل من تاب اليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل احد كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الترمذى ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد انه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى احدكم مهره حتى ان التمرة لتكون مثل احد وتصديق

الواحدى عن الزجاج انه قال الله أعلم أسرق أخ له أم لا وحكى القرطبى فى تفسيره عنه انه قال كذبوا عليه فيما نسبوه اليه قلت وهذا أولى فما هذه الكذبة باول كذباتهم وقد قدمنا مايدفع قول من قال انهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الامور منهم وفى الجمل لابن المنير ان ماذكر فى تفسير السرقة تكلف لايسوغ نسبة مثله الى بيت النبوة ولا الى أحد من الاشراف فالواجب تركه واليه ذهب مكى وفسره بعضهم بان يسرق فقد سرق مثله من بنى آدم وذكر له نظائر فى الحديث قال الخفاجى وهو كلام حقيق بالقبول قال الزجاج وغيره الضمير فى (فأسرها) يعود الى الكلمة أو الجملة كأنه قيل فأسر الجملة (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) ثم فسرها بقوله (قال أنتم شر مكانا) وقد رد أبو على الفارسى هذا فقال ان هذا النوع من الاضمار على شريطة التفسير غير مستعمل وعلى هذا يكون فى الكلام رجوع الضمير على متأخر لفظا ورتبة وفيه أيضا اطلاق الكلمة على الكلام والاول سائغ فى مقام التفسير كما هنا والثانى سائغ فى اللغة وقيل الضمير عائد الى الاجابة أى أسر يوسف اجابتهم فى ذلك الوقت الى وقت آخر وقيل أسر فى نفسه قولهم ان يسرق الخ وهذا هو الاولى ويكون معنى ولم يبدها لهم انه لم يبد لهم هذه المقالة التى أسرها فى نفسه بان يذكر لهم صحتها وبطلانها وجملة قال انتم شر مكانا مفسرة على القول الاول ومستأنفة على القولين الاخيرين كأنه قيل فماذا قال يوسف لما قالوا هذه المقالة اى انتم شر موضعا ومنزلا ممن نسبتموه الى السرقة ورميتموه بها وهو برئ فانكم قد فعلتم مافعلتم من القاء يوسف فى الجب والكذب على أبيكم وغير ذلك من أفاعيلكم ولم يكن من يوسف سرقة حقيقة ثم قال (والله أعلم بما تصفون) من الباطل بنسبة السرقة الى يوسف وانه لا حقيقة لذلك ثم أرادوا ان يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بان يردوه اليه (قالوا يا أيها العزيز ان له) أى لبنيامين هذا (أبا) متصفا بكونه (شيخا كبيرا) فى السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه وقيل كبيرا فى القدر لانه نبى من أولاد الانبياء وفيه بعد ظاهر والاول أولى (فخذ أحدنا مكانه) يبقى لديك فان له منزلة فى قلب أبيه ليست لواحد منا فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين ثم عللوا ذلك بقولهم (انا نراك من المحسنين) الى الناس كافة والينا خاصة فاتمم احسانك الينا باجابتنا الى هذا المطلب فاجاب عليهم يوسف و (قال معاذ الله)

ذلك فى كتاب الله عزوجل ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وقوله يمحق الله الربا ويربى الصدقات وقال الثورى والاعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن ابى قتادة قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ان الصدقة تقع فى يد الله عزوجل قبل ان تقع فى يد السائل ثم قرأ هذه الآية ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وقد روى ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى وأصله حمصى وكان احد الفقهاء روى عن معاوية وغيره وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال غزا الناس (٦٣) فى زمن معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية فلما قفل الجيش ندم وأتى الامير فابى ان يقبلها منه وقال قد تفرق الناس ولن اقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يأتى الصحابة فيقولون له مثل ذلك فلما قدم دمشق ذهب الى معاوية ليقبلها منه فابى عليه فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له ما يبكيك فذكر له امره فقال له اومطيعى انت فقال نعم فقال اذهب الى معاوية فقل له اقبل منى خمسك فادفع اليه عشرين دينارا وانظر الى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش فان الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ففعل الرجل فقال معاوية رضى الله لان اكون افتيته بها احب الى من كل شئ املكه احسن الرجل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) قال مجاهد هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين اوامره بأن اعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية وقال تعالى يوم تبلى السرائر وقال وحصل ما فى الصدور وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا كما قال الامام احمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن ابى الهيثم عن ابى سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو أن احدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لاخرج الله عمله للناس كائنا ما كان وقد ورد أن اعمال الاحياء تعرض على الاموات من الاقرباء والعشائر فى البرزخ كما قال ابو داود الطيالسى حدثنا

أى نعوذ بالله معاذا فهو مصدر والمستعيذ بالله هو المستعصم به (أن) أى من أن (نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) وهو بنيامين لانه الذى وجد الصواع فى رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التى أفتيتمونا بقولكم جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ولم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان أخاه ليس بسارق وفيه جواز التوصل الى الاغراض بالحيل اذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلا ولعل الله أمر يوسف بذلك تشديدا للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر صاحب موسى بقتل من لو بقى اطغى وكفر قاله ابن عادل فى اللباب فى علوم الكتاب وجزم صاحب الكشاف بان هذه الواقعة كانت بوحى كما مر مرارا (انا اذا) أى اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده (لظالمون) فى دينكم وما تقتضيه فتواكم (فلما استيأسوا منه) أى يئسوا من يوسف واجابته اياهم واسعافهم منه الى مطلبهم الذى طلبوه والسين والتاء للمبالغة قاله الزمخشرى والبيضاوى قال ابن اسحق أى أيسوا منه ورأوا شدته فى أمره قال أبو عبيدة استيأسوا أى استيقنوا ان الاخ لا يرد عليهم وقيل أيسوا من أخيهم ان يرد اليهم والاول أولى (خلصوا نجيا) أى انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على حدة حال كونهم متناجين متحدثين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم فى التشاور فى أمر هذه القضية وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله وقربناه نجيا قال الزجاج معناه انفردوا وليس معهم أخوهم متناجين فيما يعملون به فى ذهابهم الى أبيهم من غير أخيهم وقال قتادة وحدهم (قال كبيرهم) قيل هو روبيل لانه الاسن وهو الذى كان نهاهم عن قتله وكان أكبر القوم فى الميلاد قاله قتادة وقيل كبيرهم فى العقل والعلم لا فى السن وقيل يهوذا لانه الاوفر عقلا وقيل شمعون لانه رئيسهم (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا) أى عهدا (من الله) فى حفظ ابنه ورده اليه ومعنى كونه من الله انه باذنه ذكره النحاس وغيره (ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) أى وألم تعلموا ان تفريطكم فى أمر يوسف كائن من قبل تفريطكم فى بنيامين أو من قبل أخذكم العهد فى شأنه على ان ما مصدرية ويجوز أن تكون زائدة والاول أولى والمعنى قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه (فلن أبرح الارض) يقال برح براحا وبروحا أى زال فاذا دخله النفى صار مثبتا أى لن أبرح من أرض مصر بل ألزمها ولا أفارقها ولا أزال مقيما فيها على ان أبرح هنا تامة (حتى يأذن لى أبى)

الصلت بن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم فان كان خيرا استبشروا به وان كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم ان يعملوا بطاعتك وقال الامام أحمد انبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع انسا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ان اعمالكم تعرض على اقاربكم وعشائركم من الاموات فان كان خيرا استبشروا به وان كان غير ذلك قالوا اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا وقال البخاري قالت عائشة رضي الله عنها اذا اعجبك حسن عمل امرئ (٦٤) فقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وقد ورد في الحديث شبيه بهذا قال الامام احمد حدثنا يزيد حدثنا حميد عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاعليكم ان تعجبوا باحد حتى تنظروا بم يختم له فان العامل يعمل زمانا من عمره او برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيأ وان العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحا واذا اراد الله بعبده خيرا استعمله قبل موته قالوا يارسول الله وكيف يستعمله قال يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه تفرد به الامام احمد من هذا الوجه (وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد هم الثلاثة الذين خلفوا اي عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن امية قعدوا في غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا الى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكا ونفاقا فكانت منهم طائفة ربطوا انفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة واصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة اولئك قبل هؤلاء وأرجأ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت قال الآية الآتية وهي قوله لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الآية وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت الآية كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك وقوله اما يعذبهم واما يتوب عليهم اي هم تحت عفو الله ان شاء فعل بهم هذا وان شاء فعل بهم ذا ولكن رحمته تغلب غضبه وهو عليم حكيم اي عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو حكيم في افعاله واقواله لا اله الا هو ولا رب سواه (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من

في مفارقتها او الخروج منها بالعود اليه وانما قال ذلك لانه يستحي من أبيه ان يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الميثاق بارجاعه اليه الا ان يحاط بهم كما تقدم (أو يحكم الله لي) بمفارقتها والخروج منها وقيل المعنى أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الاسر حتى يعود الى أبي وأعود معه وقيل المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فاجازبه وآخذ أخي منه أو أعجز فانصرف بعد ذلك قال مجاهد أقاتل بسيفي حتى أقتل وعن أبي صالح نحوه (وهو خير الحاكمين) لان أحكامه لاتجري الا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده يعقوب ثم قال كبيرهم مخاطبا لهم (ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق) على البناء للفاعل وذلك لانهم قد شاهدوا استخراج الصواع من وعائه وقرئ على البناء للمفعول قال الزجاج ان سرق يحتمل معنيين أحدهما علم منه السرق والآخر اتهم بالسرق أمرهم بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لانهم كانوا اتهموا من عنده بسبب وقعة يوسف (وما شهدنا الا بما علمنا) من استخراج الصواع من وعائه وقيل المعنى ما شهدنا عند يوسف بان السارق يسترق الا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك (وما كنا للغيب حافظين) حتى يتضح لنا هل الامر على ما شاهدناه أو على خلافه فان الغيب لايعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لانعلم بذلك وقيل المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا الى مصر للغيب حافظين بانه سيقع منه السرق الذي افتضحنا به وقيل الغيب هو الليل ومرادهم انه سرق وهم نيام وقيل مرادهم انه فعل ذلك وهو غائب عنهم فخفي عليهم فعله قال عكرمة ما كنا نعلم ان ابنك يسرق وعن قتادة نحوه وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين (واسأل القرية التي كنا فيها) أي قولوا لابيكم اسأل القرية أي مصر قاله قتادة وابن عباس وقيل هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فيها حديث السرقة والتفتيش قال المفسرون المراد أهلها وقيل المعنى واسأل القرية نفسها وان كانت جمادا فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك ومما يؤيد هذا انه قال سيبويه لايجوز كلم هندا وأنت تريد غلام هند قيل والاول أولى لان مثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب وتعقبه الحافظ ابن القيم في البدائع وقال انما يضمر المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام الا بتقديره للضرورة كما اذا قيل أكلت الشاة

قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين) سبب نزول هذه الآيات الكريمات انه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا الى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين (٦٥) أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارا الى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في احداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه وتقدم أبو عامر في أول المبارزة الى قومه من الانصار فخاطبهم واستمالهم الى نصره وموافقته فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول والله لقد أصاب قومي بعدي شر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه الى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى ان يسلم وتمرد فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة وذلك انه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم

في ارتفاع وظهور ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ويكون مرصدا له اذا قدم عليهم بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك وجاؤا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي اليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره

فان المفهوم من ذلك أكلت لحمها لحذف المضاف لا يلبس ونظائره كثيرة وليس منه قوله تعالى واسئل القرية وان كان أكثر الاصوليين يمثلون به فان القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع فانما تطلق القرية باعتبار الامرين كالكاس لما فيه الشراب والذنوب للدلو الملآن ماء والخوان للمائدة اذا كان عليها طعام ونظائره ثم لكثرة استعمالهم هذه اللفظة ودورانها في كلامهم اطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وسباقه وانما يفعلون هذا حيث لا لبس فلا اضمار في ذلك ولا حذف فتأمل هذا الموضع الذي خفي على القوم مع وضوحه انتهى (والعير التي أقبلنا فيها) أي أصحابها وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب من كنعان حمل العير هنا على الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج الى تقدير المضاف وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس أصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف (وانا الصادقون) فيما قلنا جاؤا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لان ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع وهذا آخر الكلام الذي علمه لهم أخوهم الكبير فلما قالوا هذا ليعقوب (قال بل سولت) زينت أو خيلت (لكم أنفسكم أمرا) لا أصل له والامر هنا قولهم ان ابنك سرق وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالامر اخراجهم بنيامين والمضي به الى مصر طلبا للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة وقيل هذا الامر فتياهم بان السارق يؤخذ بسرقته والاضراب هنا هو باعتبار ما أثبتوه من البراءة لانفسهم لا باعتبار أصل الكلام فانه صحيح والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها (فصبر جميل) أي فامري صبر أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره الى الله ويسترجع وقد ورد ان الصبر عند أول الصدمة (عسى الله ان يأتيني بهم جميعا) أي بيوسف وأخيه بنيامين والاخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم وانما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لانه قد كان عنده ان يوسف لم يمت وانه باق على الحياة وان غاب عنه خبره واذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج قال تعالى سيجعل الله بعد عسر يسرا (انه هو العليم) بحالي (الحكيم) فيما يقضي به (وتولى) أي أعرض (عنهم) وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر بنيامين (و) لما ساء حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه (قال يا أسفا على يوسف) قال

وانباته وذكروا انهم انما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال انا على سفر ولكن اذا
رجعنا ان شاء الله فلما قفل عليه السلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها الا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد
الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية
هم أناس من الانصار بنوا مسجدا فقال لهم (٦٦) أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فاني ذاهب
الى قيصر ملك الروم فآتي بجند
من الروم وأخرج محمدا وأصحابه
فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي
صلى الله عليه وسلم فقالوا قد
فرغنا من بناء مسجدنا فنحب ان
تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فانزل
الله عز وجل لا تقم فيه أبدا
الى قوله الظالمين وكذا روى عن
سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن
الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء
وقال محمد بن اسحق بن يسار عن
الزهري ويزيد بن رومان وعبد
الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن
قتادة وغيرهم قالوا أقبل رسول
الله صلى الله عليه وسلم يعني من
تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه
وبين المدينة ساعة من نهار وكان
أصحاب مسجد الضرار قد كانوا
أتوه وهو يتجهز الى تبوك فقالوا
يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذي
العلة والحاجة والليلة المطيرة
والليلة الشاتية وانا نحب ان تأتينا
فتصلي لنا فيه فقال اني على جناح
سفر وحال شغل او كما قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولو قد قدمنا
ان شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا
لكم فيه فلما نزل بذي أوان أتاه
خبر المسجد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عامر وعن
ابن عدي أخا بني العجلان فقال انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط
مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن انظرني حتى أخرج اليك بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا
يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل والذين اتخذوا مسجدا ضرارا
وكفرا الى آخر القصة وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج

الزجاج الاصل يا أسفي فابدل من الياء ألفا لخفة الفتحة والاسف شدة الجزع وقيل شدة
الحزن عن ابن عباس أي يا حزنا وعن قتادة مثله وعن مجاهد يا جزعا قال يعقوب هذه
المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغه بسبب فراقه ليوسف وانضمام فراقه لاخيه بنيامين
وبلوغ ما بلغه من كونه أسيرا عند ملك مصر فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم
بما أثاره من الخبر الاخير وقد روى عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في
شرعنا من الاسترجاع والصبر على المصائب ولو كان عنده ذلك لما قال يا أسفا على
يوسف يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الامة ومعنى المناداة للاسف طلب حضوره كأنه
قال تعال يا أسفي وأقبل علي وفيه شكوى الى الله لا منه (وابيضت عيناه من الحزن)
أي انقلب سواد عينه بياضا من كثرة البكاء قيل انه زال ادراكه بحاسة البصر بالمرة قال
مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا على الانبياء بعد
التبليغ وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا قال بعض أهل اللغة الحزن بالضم والسكون
البكاء وبفتحتين ضد الفرح وقال أكثر أهل اللغة هما لغتان بمعنى والبكاء بالمد رفع الصوت
وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو أحد قولين والذي جرى عليه
المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في ان كلا يستعمل في كليهما وقد قيل في توجيه
ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي الى ذهاب بصره كلا
أو بعضا انه انما وقع منه ذلك لانه علم ان يوسف حي فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر
وأهلها حينئذ كفار وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وانما المحرم ما يفضي منه الى الوله
وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي قال أبو السعود وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء
عند النوائب فان الكف من ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند
الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ولده ابراهيم وقال تدمع العين
ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون انتهى ويؤيد هذا
قوله (فهو كظيم) أي مكظوم فان معناه انه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ومنه كظم
الغيظ وهو اخفاؤه وقال المكظوم المسدود عليه طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على
ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس يقال أخذ بأكظامه وقيل الكظيم بمعنى الكاظم أي
المشتمل على حزنه الممسك له ومنه والكاظمين الغيظ وقال الزجاج معنى كظيم محزون

مسجد الشقاق وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وموالى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر وقوله وليحلفن أي الذين بنوه ان أردنا
الا الحسنى أي ما أردنا ببنيانه الا خيرا ورفقا بالناس قال الله تعالى والله يشهد انهم لكاذبون اى فيما قصدوا وفيما نووا وانما بنوه ضرارا
لمسجد قباء وكفرا بالله وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب
لعنه الله وقوله لا تقم فيه أبدا نهي له صلى الله عليه وسلم والامة تبع له في ذلك عن ان يقوم فيه اى يصلي أبدا ثم حثه على الصلاة
بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهي طاعة الله (٦٧) وطاعة رسوله وجمعا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموئلا
للاسلام وأهله ولهذا قال تعالى لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه والسياق انما هو في معرض مسجد قباء ولهذا جاء في الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكبا وماشيا وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة فالله أعلم وقال أبو داود حدثنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحرث عن ابراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث يونس بن الحرث وهو ضعيف وقال الترمذي غريب من هذا الوجه وقال الطبراني حدثنا الحسن بن علي العمري حدثنا محمد بن حميد الرازي حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق
عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية فيه رجال يحبون ان يتطهروا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى
عويم بن ساعدة فقال ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم فقال يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط الا غسل فرجه
أو قال مقعدته فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو هذا وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن محمد حدثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن
عويم بن ساعدة الانصاري انه حدثه ان النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال ان الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في
الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به فقالوا والله يا رسول الله ما نعلم شيأ الا انه كان لنا جيران من اليهود فكانوا

وعن ابن عباس قال كظيم حزين وعن قتادة قال كظم على الحزن وحزنه في جوفه فلم يقل
الا خيرا وعن عطاء الخراساني قال مكروب وعن عكرمة مثله وعن الضحاك الكظيم
الكمد وعن مجاهد نحوه قال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر أبيه الى يوم التقيا
ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه
والله أعلم (قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف) أي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس
قال الفراء ان لا مضمرة قال النحاس والذي قال صحيح وعن الخليل وسيبويه مثل قول
الفراء قال الكسائي فتأت وفتيت أفعل كذا أي مازلت وعن ابن عباس تفتأ أي لا تزال
تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه (حتى تكون حرضا) أي دنفا من المرض قاله ابن عباس
وقال قتادة هرما والحرض مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة
المشبهة حرض بكسر الراء كدنف ودنف وأصل الحرض الفساد في الجسم أو العقل من
الحزن أو العشق أو الهرم حكى ذلك عن أبي عبيدة وغيره وقيل الحرض ما دون الموت وقيل
الحارض البالي الداثر وقال الفراء الحارض الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض وقال
المؤرج هو الذائب من الهم ويقال رجل محرض قال النحاس وحكى أهل اللغة أحرضه
الهم اذا أسقمه ورجل حارض أي أحمق وقال الاخفش الحارض الذاهب وقال ابن
الانباري هو الهالك وفي المصباح حرض حرضا من باب تعب أشرف على الهلاك والاولى
تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله (أو تكون من
الهالكين) أي من الميتين قاله مجاهد وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والاسف
شفقة عليه وان كانوا هم سبب احزانه ومنشأ همومه وغمومه (قال انما أشكو بثي
وحزني) بضم الحاء وسكون الزاي وقرئ بفتحهما (الى الله) هذه الجملة مستأنفة
كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا والبث ما يرد على الانسان من الاشياء التي
تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته
أي فرقته فسميت المصيبة بثا مجازا قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وقد ذكر المفسرون
أن الانسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا وهما وان لم يقدر على
كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثا فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه وقيل البث الهم
وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى وأما على تفسير البث

يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ورواه ابن خزيمة في صحيحه وقال هشيم عن عبد الحميد المدني عن ابراهيم بن المعلى الانصاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعويم بن ساعدة ما هذا الذي أثنى الله عليكم فيه رجال يحبون ان يتطهروا الآية قالوا يا رسول الله انا نغسل الادبار بالماء وقال ابن جرير حدثني محمد بن عمارة الاسدي حدثنا محمد بن سعد عن ابراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال سمعت خزيمة بن ثابت يقول نزلت هذه الآية فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط حديث آخر (٦٨) قال الامام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك يعني ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال لقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني قباء فقال ان الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيرا أفلا تخبروني يعني قوله فيه رجال يحبون ان يتطهروا فقالوا يا رسول الله انا نجده مكتوبا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء وقد صرح بانه مسجد قباء جماعة من السلف رواه علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير وقاله عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة وقد ورد في الحديث الصحيح ان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى وهذا صحيح ولا منافاة بين الآية وبين هذا لانه اذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الاولى والاحرى ولهذا قال الامام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن عامر الاسلمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا تفرد به أحمد حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد الساعدي قال اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الآخر هو مسجد قباء فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال هو مسجدي هذا تفرد به أحمد أيضا حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد

بالحزن العظيم فكأنه قال انما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل الى الله لا الى غيره من الناس ولا اليكم وعن مسلم بن يسار يرفعه قال من بث لم يصبر ثم قرأ هذه الآية أخرجه ابن جرير وعبد الرزاق قال ابن عباس بثي همي (وأعلم من الله) أي من لطفه واحسانه وثوابه على المصيبة (ما لا تعلمون) أنتم وانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب وقيل أراد علمه بان يوسف حي لكنه لم يعرف أين هو وقيل أراد علمه بان رؤياه صادقة واني لاسجد له قاله ابن عباس وقيل اعلم من اجابة المضطرين الى الله (يا بني اذهبوا فتحسسوا) التحسس بمهملات طلب الشيء بالحواس مأخوذ من الحس أو من الاحساس أي اذهبوا فتعرفوا (من) خبر (يوسف وأخيه) بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه وقرئ بالجيم وهو أيضا التطلب وقيل بالحاء في الخير وبالجيم في الشر ومنه الجاسوس ومن هنا بمعنى عن لانه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان أو هي للتبعيض أي تحسسوا خبرا من اخبارهما ولم يقل وأخويه لانه كان يعلم ان الثالث مقيم بمصر فليس حاله مجهولا عنده بخلافهما (ولا تيأسوا من روح الله) أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته قال الاصمعي الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه والتركيب يدل على الحركة والهزة فكل ما يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح وحكى الواحدي عنه أيضا الروح الاستراحة من غم القلب وقال أبو عمرو الروح الفرج وعن ابن زيد قال من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه وقال ابن عباس الروح الرحمة يعني انه استعير الروح للرحمة وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفي ألطافه والمؤمن يصبر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيرا ويحمد الله عند الرخاء والكافر بضد ذلك (فلما دخلوا عليه) أي على يوسف والتقدير فذهبوا كما أمرهم أبوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه فلما دخلوا على يوسف (قالوا يا أيها العزيز) أي الملك الممتنع القادر وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) أي الجوع والحاجة قال قتادة الضر في المعيشة وعدلوا الى الشكوى لان المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا لنختبره بهذه الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا المقصود والا سكتنا وفيه دليل على انه

يجوز

ابن أبي سعيد الخدري قال تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال أحدهما هو مسجد قباء وقال الآخر
هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مسجدي هذا تفرد به أحمد طريق أخرى قال الامام
أحمد حدثنا اسحق بن عيسى حدثنا الليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه انه قال تمارى رجلان في المسجد الذي
أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم هو مسجدي وكذا رواه الترمذي والنسائي عن (٦٩) قتيبة عن الليث وصححه الترمذي ورواه مسلم كما سيأتي
طريق أخرى قال الامام أحمد
حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى
حدثني أبي قال سمعت أبا سعيد
الخدري قال اختلف رجلان رجل
من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن
عوف في المسجد الذي أسس على
التقوى فقال الخدري هو مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
العمري هو مسجد قباء فأتيا
رسول الله صلى الله عليه وسلم
فسألاه عن ذلك فقال هو هذا
المسجد لمسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقال في ذلك يعني مسجد
قباء طريق أخرى قال الامام أحمد
حدثنا يحيى عن أنيس قال أبو
جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار
حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حميد
الخراط المدني سألت أبا سلمة بن عبد
الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف
سمعت أباك يقول في المسجد الذي
أسس على التقوى فقال اني أتيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم
فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه
فقلت يا رسول الله أين المسجد الذي
أسس على التقوى قال فأخذ كفا
من حصباء فضرب به الارض ثم قال
هو مسجدكم هذا ثم قال سمعت
أباك يذكره رواه مسلم منفردا به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن اسمعيل عن
حميد الخراط به وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه
عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب واختاره ابن جرير وقوله لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق أن تقوم فيه فيه
رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة
الله وحده لاشريك له وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على اسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة

يجوز الشكوى عند الضرورة اذا خاف من اصابته على نفسه كما يجوز للعليل ان يشكو الى
الطبيب ما يجده من العلة وعبارة أبي السعود وانما لم يبدؤا بما أمروا به استجلابا للرأفة
والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهى وهذه المرة التي
دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز (وجئنا
ببضاعة مزجاة) البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شئ يقال ابضعت الشئ
واستبضعته اذا جعلته بضاعة وفي المثل كمستبضع التمر الى هجر والازجاء السوق بدفع
وقال الواحدي في اللغة السوق والدفع قليلا قليلا ومنه قوله تعالى ألم تر أن الله يزجي
سحابا والمعنى انها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار قال ثعلب البضاعة المزجاة الناقصة غير
التامة قال أبو عبيد انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة
قال ابن عباس دراهم مزجاة أي كاسدة وعنه أيضا مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة
والشئ وأيضا الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها وفي القاموس زجاه ساقه ودفعه
ومزجاة قليلة أو لا يتم صلاحها وفي المصباح زجيته بالتثقيل دفعته برفق واختلف في
هذه البضاعة ماهي فقيل كانت قديدا وحيسا وقيل صوف وسمن وقيل الحبة الخضراء
والصنوبر وقيل دراهم رديئة زيوف وقيل النعال والأدم ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه
بالبضاعة التي معهم ان يوفي لهم الكيل أي يجعله تاما لانقص فيه وان يتصدق عليهم
فقالوا (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) اما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم
أو بالاغماض عن رداءة البضاعة التي جاؤا بها وان يجعلها كالبضاعة الجيدة في ايفاء
الكيل لهم بها وبهذا قال أكثر المفسرين وقد قيل كيف يطلبون التصدق عليهم وهم
أنبياء والصدقة محرمة عليهم واجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
وقال ابن جريج معنى قولهم اردد علينا أخانا وبه قال الضحاك وقال ابن الانباري وكان
الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة لانفس الصدقة (ان الله يجزي المتصدقين)
بما يجعله لهم من الثواب الاخروي أو التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك ولم يقولوا
ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا انه مؤمن ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف ان عرفهم نفسه
حيث (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) الاستفهام للتوبيخ والتقريع وقد
كانوا عالمين بذلك ولكنه أراد ماذكرناه ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة ما أعظم

القاذورات وقد قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف فقال انه يلبس علينا القرآن ان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبي روح من ذي الكلاع انه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكره فدل هذا على ان اكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على اتمامها (٧٠) واكمالها والقيام بمشروعاتها وقال أبو العالية في قوله تعالى والله يحب المطهرين ان الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب وقال الاعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء قد أثنى الله عليكم في الطهور فماذا تصنعون فقالوا نستنجي بالماء وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا أحمد ابن محمد بن عبد العزيز قال وجدته في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انا نتبع الحجارة بالماء رواه البزار ثم قال تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يروعنه سوى ابنه قلت وانما ذكرته بهذا اللفظ لانه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم والله أعلم (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) يقول تعالى لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فانما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أي طرف حفيرة مثاله في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين أي لا يصلح عمل المفسدين قال جابر بن عبد الله رأيت المسجد الذي بني ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن جرير ذكر لنا ان رجالا حفروا

الامر الذي ارتكبتم من يوسف وأخيه وما أقبح ما أقدمتم عليه كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت والذي فعلوه بيوسف هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة وأما ما فعلوا بأخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما ادخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف وما كان يناله منهم من الاحتقار والاهانة ولم يستفهمهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع انه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الاذى قال الواحدي ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيما له ورفعا من قدره وعلما بان ذلك كان بلاء من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى (اذ أنتم جاهلون) نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل لانهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الامر عليهم فكأنه قال انما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الاثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه أو أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر اعتذارا لهم ودفعا لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بانهم كانوا في ذلك الوقت كبارا وهذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون (قالوا أئنك لانت يوسف) قرئ بالاستفهام التقريري وبدونه وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ما فعلتم بيوسف وأخيه انهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا انه لا يخاطبهم بمثل هذا الا هو وقيل انه لما قال لهم هذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه وقيل انه تبسم فعرفوا ثناياه (قال أنا يوسف) أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه قال ابن الانباري أظهر الاسم فقال انا يوسف ولم يقل انا هو تعظيما لما وقع له من ظلم اخوته كأنه قال انا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعاني وقال (وهذا أخي) مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لان قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي (قد من الله علينا) بالخلاص عما ابتلينا به وقيل من الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق وقيل بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من ارادة جميع ذلك (انه من يتق ويصبر) قرئ بالجزم على ان من شرطية وقرئ باثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل التقوى أو يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة وقيل يتقي المعصية ويصبر على السجن وقيل

فوجدوا الدخان يخرج منه وكذا قال قتادة وقال خلف بن ياسين الكوفي رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة رواه ابن جرير رحمه الله وقوله تعالى لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم أي شكا ونفاقا بسبب اقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقا في قلوبهم كما أشرب عابدوا العجل حبه وقوله الا ان تقطع قلوبهم اي بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغير واحد من علماء السلف والله عليم اي باعمال خلقه حكيم (٧١) في مجازاتهم عنها من خير وشر (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) يخبر تعالى انه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم اذ بذلوها في سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه واحسانه فانه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فاغلى ثمنهم وقال شمر بن عطية ما من مسلم الا ولله عز وجل في عنقه بيعة وفى بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بايع الله أي قبل هذا العقد ووفى به وقال محمد بن كعب القرظي وغيره قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ليلة العقبة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال اشترط لربي ان تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسي ان تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فما لنا اذا فعلنا ذلك قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم الآية وقوله يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون اي سواء قتلوا او قتلوا او اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة ولهذا جاء في الصحيحين وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بان توفاه ان يدخله الجنة او يرجعه الى منزله الذي خرج منه نائلا ما نال من اجر او غنيمة وقوله وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن تأكيد لهذا الوعد واخبار بانه قد كتبه على نفسه الكريمة وانزله على رسله في كتبه الكبار وهي التوراة المنزلة على موسى والانجيل المنزل على عيسى والقرآن المنزل

يتق الله باداء فرائضه و يصبر عما حرم الله وقيل يتقي الفحشاء و يصبر على الطاعة والعموم أولى ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) على العموم فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولا أوليا وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمر أي أجرهم للدلالة على ان الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) بما خصك به من صفات الكمال أو بالعلم والعقل أو بالملك قاله الضحاك أو بالصبر قاله أبو صالح أو بالحلم والصفح أو بالحسن وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي أعطاها الله له دون اخوته واللفظ أوسع من ذلك و يدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء فان درج الانبياء متفاوتة قال الله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض و يستعار آثر للفضل والايثار للتفضيل (وان كنا لخاطئين) أي وان الشأن كذلك قال أبو عبيد خطئ وأخطأ واحد وقال الازهري المخطئ من أراد الصواب فصار الى غيره ومنه قولهم المجتهد يخطئ و يصيب والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والذنب استجلابا للعفو واستجذابا للصفح وقيل آثر لفظ خاطئين على مخطئين موافقة لرؤس الآي (قال لا تثريب) التثريب التعيير والتوبيخ أي لا لوم (عليكم اليوم) قال الاصمعي ثربت عليه قبحت عليه فعله وقال الزجاج المعنى لا افساد لما بيني و بينكم من الحرمة وحق الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو وأصل التثريب الافساد وهي لغة أهل الحجاز وقال ابن الانباري معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب قال ثعلب ثرب فلان على فلان اذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ومعناه ازالة التثريب كما ان التجليد والتقريع ازالة الجلد والقرع أي لا تثريب مستقرا و ثابت عليكم وقد جوز الاخفش الوقف على عليكم فيكون اليوم متعلقا بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الانباري عن عكرمة قال لا تثريب لا تعيير وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة التفت الى الناس فقال ماذا تقولون وماذا تظنون فقالوا ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ثم دعا لهم بقوله (يغفر الله لكم) على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التعليل أو أخبرهم بان الله قد غفر لهم ذلك

على محمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وقوله ومن اوفى بعهده من الله فانه لا يخلف الميعاد هذا كقوله ومن اصدق من الله حديثا ومن اصدق من الله قيلا ولهذا قال فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم اى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم انفسهم واموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال (٧٢) الجليلة التائبون من الذنوب كلها التاركون للفواحش العابدون اى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهى الاقوال والافعال فمن أخص الاقوال الحمد فلهذا قال الحامدون ومن افضل الاعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال السائحون كما وصف ازواج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله تعالى سائحات اى صائمات وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال الراكعون الساجدون وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم الى طاعة الله بامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ولهذا قال وبشر المؤمنين لان الايمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به بيان ان المراد بالسياحة الصيام قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال السائحون الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس وقال على بن ابي طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون وكذا قال الضحاك رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا احمد بن اسحق حدثنا ابو احمد حدثنا ابراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها قالت سياحة هذه الامة الصيام وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم ان المراد بالسائحين الصائمون وقال الحسن البصري السائحون الصائمون شهر رمضان وقال ابو عمرو العبدى السائحون الذين يديمون الصيام من المؤمنين وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع

كان

اليوم على تقدير الوقف على عليكم (وهو أرحم الراحمين) يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم قال عطاء الخراساني طلب الحوائج الى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ألم تر الى قول يوسف لا تثريب عليكم اليوم وقال يعقوب سوف استغفر لكم ربي أقول وفي هذا الكلام نظر فانهم طلبوا من يوسف ان يعفو عنهم لقولهم لقد آثرك الله علينا فقال لا تثريب عليكم اليوم لان مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا من أبيهم يعقوب ان يستغفر الله لهم وهو لا يكون الا بطلب ذلك منه الى الله عز وجل وبين المقامين فرق فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلا عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما اذا صح ما تقدم من انه أخر ذلك الى وقت الاجابة فانه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول وأخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال لما كان من أمر اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب الى يوسف وهو لا يعلم انه يوسف بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الى عزيز آل فرعون سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو أما بعد فانا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله ألقي في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه بردا وسلاما وأمر الله جدي ان يذبح له أبي ففداه الله بما فداه وكان لي ابن وكان أحب الناس الي ففقدته فأذهب حزني عليه نور بصري وكان له أخ من أمه كنت اذا ذكرته ضممته الى صدري فأذهب عني بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة واني أخبرك اني لم أسرق ولم ألد سارقا فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصاح وقال (اذهبوا بقميصي) الباء للتعدية أو اذهبوا معكم قميصي و(هذا) نعت له أو بيان أو بدل قيل هو القميص الذي ألبسه الله ابراهيم لما ألقي في النار وكساه ابراهيم اسحق وكساه اسحق يعقوب وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين فاخبر جبريل يوسف ان يرسل به الى يعقوب ليعود عليه بصره لان فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم الا شفي ولا مبتلى الا عوفي قال ابن عباس ولو علم اخوته اذ ألقوه في الجب لاخذوه فلما أراد الله ان يرد يوسف على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا الا أبرأها باذن الله (فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا) المعنى يصير بصيرا على ان يأت هي التي من اخوات

حدثنا حكيم بن حزام حدثنا سليمان عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السائحون هم الصائمون وهذا الموقوف أصح وقال أيضا حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحرث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال هم الصائمون وهذا مرسل جيد وهذا أصح الاقوال وأشهرها وجاء ما يدل على ان السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود في سننه من حديث أبي امامة ان رجلا قال يارسول الله ائذن لي في السياحة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة (٧٣) أخبرني عمارة بن غزية ان السياحة ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف وعن عكرمة انه قال هم طلبة العلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المهاجرون رواهما ابن أبي حاتم وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الارض والتفرج في شواهق الجبال والكهوف والبراري فان هذا ليس بمشروع الا في أيام الفتن والزلازل في الدين كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوشك ان يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله والحافظون لحدود الله قال القائمون بطاعة الله وكذا قال الحسن البصري وعنه رواية الحافظون لحدود الله قال لفرائض الله وفي رواية القائمون على أمر الله

(ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال أي عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك بها عند الله عز وجل فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فقال أنا على ملة عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم انه عنك فنزلت

كان قال الفراء رجع بصيرا وقال السدي يعود بصيرا او يشم دله فارتد بصيرا قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه ليزول بكاؤه وينشرح صدره قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا وقيل معناه يأت الي الى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى ويؤيده قوله (وأتوني بأهلكم أجمعين) أي بجميع من شمله لفظ الاهل من النساء والذراري قيل كانوا نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين (ولما فصلت العير) أي خرجت منطلقة من عريش مصر أو من مصر الى الشام يقال فصل فصولا وفصلته فصلا لازم ومتعد ويقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل عنه وخرج منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله (اني لأجد ريح يوسف) أي أدركها بحاسة الشم أي أشمها أي ريح الجنة من قميص يوسف فالاضافة لأدنى ملابسة قيل انها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص الى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد قال ابن عباس وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام وقيل من مسيرة عشرة أيام وقيل من مسيرة ثمانين فرسخا ثم قال (لولا أن تفندون) أي لولا ان تنسبوني الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم يقال أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد وقال أبو عبيدة لولا ان تسفهون فجعل الفند السفه وقال الزجاج وابن عباس لولا ان تجهلون فجعل الفند الجهل وقال أبو عمرو الشيباني التفنيد التقبيح وقيل هو الكذب قاله ابن عباس وقال ابن الاعرابي لولا ان تضعفوا رأيي وروي مثله عن أبي عبيدة وقال الاخفش التفنيد اللوم وضعف الرأي وكل هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الرأي يقال فنده تفنيدا اذا أعجزه وأفند اذا تكلم بالخطا والفند الخطا من الكلام وعن الربيع قال لولا ان تحمقون أخبرهم يعقوب بان الصبا قد حملت اليه ريح حبيبه وانه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك

فان الصبا ريح اذا ما تنفست * على نفس مهموم تجلت همومها
اذا قلت هذا حين أسلو يهيجني * نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها * فيلذ مس هبوبها ويطيب

قيل ان ريح الصبا استأذنت ربها في ان تأتي يعقوب بريح يوسف قبل ان يأتيه البشير

ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم قال ونزلت فيه انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء اخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن آدم أخبرنا سفيان عن أبي اسحق عن أبي الخليل عن على رضى الله عنه قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت ايستغفر الرجل لابويه وهما مشركان فقال أولم يستغفر ابراهيم لابيه فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية قال لما مات فلا أدرى قاله سفيان أو قاله اسرائيل أو هو فى الحديث لما مات قلت هذا ثابت عن مجاهد انه قال لما مات

وقال الامام أحمد حدثنا الحسن ابن موسى حدثنا زهير حدثنا زبيد بن الحرث اليامى عن محارب ابن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فى سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام اليه عمر بن الخطاب وفداه بالاب والام وقال يا رسول الله مالك قال انى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لامى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار وانى كنت نهيتكم عن ثلاث نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيرا ونهيتكم عن لحوم الاضاحى بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ونهيتكم عن الاشربة فى الاوعية فاشربوا فى أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكرا وروى ابن جرير من حديث علقمة ابن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس اليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يا رسول الله انا رأينا ما صنعت قال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر امى فاذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فما رئى باكيا أكثر من يومئذ وقال ابن أبي حاتم فى تفسيره حدثنا أبي حدثنا خالد بن خداش حدثنا عبد الله ابن وهب عن ابن جريج عن أيوب ابن هانئ عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس الى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا ثم قام فقام اليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال ما أبكاكم فقلنا بكينا لبكائك قال ان القبر الذى جلست عنده قبر آمنة وانى استأذنت ربى فى زيارتها فاذن لى ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود

يستغفر

قال أهل المعانى ان الله أوصل اليه ريح يوسف عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو فى مدة المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل (قالوا) أى قال الحاضرون عنده من أهله (تالله انك) يا يعقوب (لفى ضلالك) ذهابك (القديم) عن طريق الصواب الذى كنت عليه قديما من افراط حبك ليوسف ورجاء لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه ولسان حال يعقوب يقول لهم

لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها
لا تعذل المشتاق فى اشواقه * حتى تكون حشاك فى أحشائه

وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير وقيل انك فى محبتك القديمة قاله مجاهد وقال ابن عباس فى خطئك القديم قالوا له ذلك لانه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم ان يوسف قد مات وهلك (فلما ان جاء البشير) بين يدى العير قال ابن عباس البشير البريد وعن الضحاك مثله قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لاخيه أنا جئته بالقميص ملطخا بالدم فأعطنى اليوم قميصك لاخبره انك حى فافرحه كما أحزنته وبه قال سفيان (ألقاه على وجهه) أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) الارتداد انقلاب الشئ الى حال قد كان عليها والمعنى عاد (بصيرا) ورجع الى حالته الاولى من صحة بصره وقوته وسروره عن الحسن قال لما ان جاء البشير الى يعقوب فالقى عليه القميص قال على أى دين خلفت يوسف قال على الاسلام قال الآن تمت النعمة (قال) يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم انى لاجد ريح يوسف (ألم أقل لكم) هذا القول فقلتم ما قلتم ويكون قوله (انى أعلم من الله ما لا تعلمون) كلاما مبتدأ لا يتعلق بالقول ويجوز ان تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك اخبارهم بما قاله لهم سابقا انما أشكو بثى وحزنى الى الله والمعنى أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) طلبوا منه ان يستغفر لهم واعترفوا بالذنب وفى الكلام حذف والتقدير لما رجعوا من مصر ووصلوا الى أبيهم قالوا هذا القول اعتذارا عما حصل منهم فوعدهم بما طلبوه منه و (قال سوف أستغفر لكم ربى) قال الزجاج أراد يعقوب ان

قريبا منه وفيه وانى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل على ما كان للنبى والذين آمنوا الآية فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكر الآخرة حديث آخر فى معناه قال الطبرانى حدثنا محمد بن على المروزى حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن شبط حدثنا اسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه استندوا الى العقبة حتى ارجع اليكم فذهب فنزل على قبر امه فناجى ربه طويلا ثم انه بكى فاشتد بكاؤه (٧٥) وبكى هؤلاء لبكائه وقالوا ما بكى نبى الله بهذا المكان الا وقد أحدث فى أمته شئ لا تطيقه فلما بكى هؤلاء قام فرجع اليهم فقال ما يبكيكم قالوا يا نبى الله بكينا لبكائك فقلنا لعله أحدث فى أمتك شئ لا تطيقه قال لا وقد كان بعضه ولكن نزلت على قبر أمى فسألت الله ان يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة فأبى الله ان يأذن لى فرحمتها وهى أمى فبكيت ثم جاءنى جبريل فقال وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ ابراهيم من أبيه فرحمتها وهى أمى ودعوت ربى ان يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين دعوت ربى ان يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الارض وان لا يلبسهم شيعا وان لا يذيق بعضهم بأس بعض فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الارض وأبى الله ان يرفع عنهم القتل والهرج وانما عدل الى قبر امه لانها كانت مدفونة تحت كدا وكانت عسفان لهم وهذا حديث غريب وسياق عجيب وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى فى كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة ان الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت وكذلك ما رواه السهيلى فى الروض بسنده فيه جماعة مجهولون ان الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به وقد قال الحافظ ابن دحية فى هذا الاستدلال بما حاصله ان هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها وصلى على العصر قال الطحاوى وهو حديث ثابت يعنى حديث الشمس قال القرطبى فليس احياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا قال وقد سمعت ان الله أحيا عمه أبا طالب فآمن به قلت وهذا كله متوقف على صحة الحديث فاذا صح فلا مانع منه

يستغفر لهم فى وقت السحر لانه أخلق باجابة الدعاء لا انه بخل عليهم بالاستغفار قاله ابن مسعود وقال ابن عباس أخرهم الى السحر وكان يصلى بالسحر لان دعاء السحر مستجاب وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا قال قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قصة هو قول أخى يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربى يقول حتى تأتى ليلة الجمعة قيل أخره الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات وقيل أخره الى ان يستحل لهم من يوسف ولم يعلم انه قد عفا عنهم أو ليعرف حالهم فى صدق التوبة وجملة (انه هو الغفور الرحيم) تعليل لما قبلها (فلما دخلوا على يوسف) لعل فى الكلام محذوفا مقدرا وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله الى مصر فلما دخلوا على يوسف وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف قاله القرطبى فقد بورك فيهم كثيرا حتى بلغوا هذا العدد فى مدة موسى مع ان بينه وبين يوسف أربعمائة سنة كما فى التحبير قال أبو هريرة دخل يعقوب مصر فى ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش فى ملكه ثلاثين سنة ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة قال أبو هريرة وبلغنى انه كان عمر ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة (آوى اليه ابويه) اى ضمهما وأنزلهما عنده قال المفسرون المراد بالابوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف لان أمه قد كانت ماتت فى ولادتها لاخيه بنيامين وقيل أحيى الله له أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة قال الخازن والاول هو المعتمد وهذا مبنى على انه تزوج راحيل فى حياة اختها ليا قال الحفناوى وهذا قول ضعيف وان الراجح ان ليا ماتت قبل ان يتزوج راحيل وعلى هذا فلعله كانت لهما أخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدهما وأدركت هذه القضية انتهى وقيل كانت أمه باقية فلا حاجة الى التأويل وهو الاولى بظاهر النظم القرآنى (وقال ادخلوا مصر) أى للاقامة بها (ان شاء الله آمنين) على أنفسكم وأهليكم مما تكرهونه من القحط وأصناف المكاره وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها الا بجوار منهم قيل والتقييد بالمشيئة عائد الى الدخول مع الامن ولا مانع من عوده الى الجميع لان دخولهم لا يكون الا بمشيئة الله سبحانه كما أنهم لا يكونون آمنين الا بمشيئته وقيل ان

والله أعلم وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية ان النبي صلى الله عليه وسلم أراد ان يستغفر لامه فنهاه الله عزوجل عن ذلك فقال ان ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لابيه فانزل الله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الآية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فامسكوا عن الاستغفار لامواتهم ولم ينهوا ان يستغفروا للاحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الآية وقال قتادة في الآية ذكر لنا ان رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الارحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله اني لاستغفر لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين حتى بلغ قوله الجحيم ثم عذر الله تعالى ابراهيم عليه السلام فقال وما كان استغفار ابراهيم لابيه الآية قال وذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال قد أوحى الله الي كلمات فدخلن في اذني ووقرن في قلبي أمرت ان لا أستغفر لمن مات مشركا ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه فذكر ذلك لابن عباس فقال فكان ينبغي له ان يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح مادام حيا فاذا مات وكله الى شأنه ثم قال وما كان استغفار ابراهيم لابيه الى قوله تبرأ منه لم يدع ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه قال لما مات أبو طالب قلت يارسول الله ان عمك الشيخ الضال قد مات قال اذهب فواره ولا تحدثن شيأ حتى تأتيني فذكر تمام الحديث وروى انه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال وصلتك رحم ياعم وقال عطاء بن أبي رباح ما كنت لادع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لاني لم أسمع الله يحجب الصلاة الا عن المشركين يقول الله عزوجل ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين الآية وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه

التقيد بالمشيئة راجع الى قوله سوف استغفر لكم ربي وهو بعيد جدا وظاهر النظم القرآني ان يوسف قال لهم هذه المقالة أعني ادخلوا مصر قبل دخولهم وقد قيل في توجيه ذلك انه تلقاهم الى خارج مصر فوقف منتظرا لهم في مكان أو خيمة فدخلوا عليه فآوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر فلما دخلوا مصر دخلوا عليه دخولا آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الاول ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط منها ان الله عزوجل ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء وقال ابن عباس سميت مصر بالارض كلها في عشرة مواضع من القرآن وقد جاء في فضل مصر أحاديث أوردها المقريزي في تاريخه ومن أراد ان يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء ان يطلع على مواقع مصر وماجرياتها فعليه ان ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي (ورفع أبويه على العرش) أي أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس العرش السرير والرفع النقل الى العلو (وخروا) أي الابوان والاخوة (له) أي ليوسف (سجدا) وكان ذلك جائزا في شريعتهم منزلا منزل التحية وقيل لم يكن ذلك سجودا بل هو مجرد ايماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجدا فان الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون الا بوضع الوجه على الارض وقيل الضمير في له راجع الى الله سبحانه أي وخروا لله سجدا وهو بعيد جدا وقيل ان الضمير ليوسف واللام للتعليل أي وخروا لاجله وفيه أيضا بعد قال عدي بن حاتم في الآية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فاعطاكم الله السلام مكانها وعن قتادة نحوه وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفة كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بامر الله لتحقيق رؤياه (وقال) يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياي) التي تقدم ذكرها (من قبل) أي من قبل هذا الوقت في حال الصغر (قد جعلها ربي حقا) أي صدقا بوقوع تأويلها في اليقظة على مادلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتأويل أربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون وقيل خمس وثلاثون وقيل سبعون حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزي والله أعلم كم كان بينهما (وقد أحسن بي) الاصل ان يتعدى فعل الاحسان بالى وقد يتعدى بالباء كما في قوله وبالوالدين احسانا ويقال بي والي بمعنى واحد وقيل انه

عن عصمة بن راشد عن أبيه قال سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلا استغفر لابى هريرة ولامه قلت ولابيه قال لا قال ان ابى مات مشركا وقوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه قال ابن عباس مازال ابراهيم يستغفر لابيه حتى مات فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه وفى رواية لما مات تبين له انه عدو لله وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله وقال عبيد بن عمير وسعيد ابن جبير انه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة فيقول يا ابراهيم انى كنت أعصيك وانى اليوم لا أعصيك فيقول أى رب ألم تعدنى ان لا تخزنى يوم يبعثون (٧٧) فأى خزى أخزى من أبى الابعد فيقال انظر الى ماوراءك فاذا هو بذيخ متلطخ أى قد مسخ ضبعا ثم يسحب بقوائمه و يلقى فى النار وقوله ان ابراهيم لاواه حليم قال سفيان الثورى وغير واحد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله ابن مسعود انه قال الاواه الدعاء وكذا روى من غير وجه عن ابن مسعود وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا الحجاج بن منهال حدثنى عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس قال يارسول الله ما الاواه قال المتضرع قال ان ابراهيم لاواه حليم ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد ابن بهرام به ولفظه قال الاواه المتضرع الدعاء وقال الثورى عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبى الغدير انه سئل ابن مسعود عن الاواه فقال هو الرحيم وبه قال مجاهد وأبى ميسرة عمر بن شرحبيل والحسن البصرى وقتادة وغيرهما اى الرحيم بعباد الله وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال الاواه الموقن بلسان الحبشة وكذا قال العوفى عن ابن عباس انه الموقن وكذا قال مجاهد والضحاك وقال على بن أبى طلحة ومجاهد عن ابن عباس الاواه المؤمن زاد على بن أبى طلحة عنه هو المؤمن التواب وقال العوفى عنه هو المؤمن بلسان الحبشة وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة وقال الامام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن على بن رباح عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين انه أواه وذلك انه رجل كان اذا ذكر الله فى القرآن رفع صوته بالدعاء ورواه ابن جرير وقال سعيد بن جبير والشعبى الاواه

ضمن أحسن معنى لطف أى لطف بى محسنا (اذ أخرجنى من السجن) بعدما ابتليت به ولم يذكر اخراجه من الجب لان فى ذكره نوع تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال لا تثريب عليكم اليوم وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه وقد قيل ان وجه عدم ذكر اخراجه من الجب ان المنة كانت فى اخراجه من السجن أكبر من المنة فى اخراجه من الجب لان دخوله الجب كان بحسد اخوته ودخوله السجن بسبب تهمة المرأة فاخراجه من السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف وقيل لان اخراجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك أو لان مصيبة السجن عنده كانت أعظم لطول مدتها ولمصاحبة الاوباش وأعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة (وجاء بكم من البدو) أى البادية وهى أرض كنعان بالشام وكانوا أهل مواشى وبرية فسكنوا البادية وقيل ان يعقوب عليه السلام تحول الى البادية بعد النبوة لأن الله لم يبعث نبيا من البادية وان المكان الذى كان فيه يعقوب يقال له بدا وفيه نظر والبدو هو البسط من الارض والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة قال الخفاجى البادية والبدو والبدا بمعنى قيل سميت به لان مافيها يبدو للناظر لعدم مايواريه (من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) أى بعد ان أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزغه اذا نخسه وأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرما منه وتادبا (ان ربى لطيف) قال الازهرى هو من اسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان يلطف اذا رفق به وقال عمرو بن ابى عمرو اللطيف الذى يوصل اليك أربك فى لطف قال الخطابى اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقيل اللطيف العالم بدقائق الامور قال قتادة لطف بيوسف وصنع له حين اخرجه من السجن وجاء باهله من البدو ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على اخوته (لما يشاء) اى لاجل ما يشاء حتى يجئ على وجه الصواب (انه هو العليم) باموره (الحكيم) فى افعاله ولما اتم الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة وبما خوله من الملك وعلمه من العلم تاقت نفسه الى الخير الاخروى الدائم الذى لا ينقطع فقال (رب قد آتيتنى من الملك) من للتبعيض اى بعض الملك لأنه

المسبح وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال لا يحافظ
على سبحة الضحى الاواه وقال شفي بن ماتع عن أبي أيوب الاواه الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها وعن مجاهد الاواه الحفيظ
الوجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا
المحاربي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن بيان ان رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبي صلى الله
عليه وسلم فقال انه أواه وقال أيضا (٧٨) حدثنا أبو كريب حدثنا ابن هانئ حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن
أرطاة عن عطاء عن ابن عباس ان
النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا
فقال رحمك الله ان كنت لأواها
يعني تلاء للقرآن وقال شعبة عن
أبي يونس الباهلي قال سمعت
رجلا بمكة وكان أصله روميا وكان
قاصا يحدث عن أبي ذر قال كان
رجل يطوف بالبيت الحرام
ويقول في دعائه أوه أوه فذكر ذلك
للنبي صلى الله عليه وسلم فقال انه
أواه قال فخرجت ذات ليلة فاذا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن
ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح
هذا حديث غريب رواه ابن جرير
وروي عن كعب الاحبار
انه قال سمعت ان ابراهيم لأواه قال
كان اذا ذكر النار قال أوه من النار
وقال ابن جريج عن ابن عباس
ان ابراهيم لأواه قال فقيه
قال الامام أبو جعفر بن جرير
وأولى الاقوال قول من قال انه
الدعاء وهو المناسب للسياق وذلك
ان الله تعالى لما ذكر ان ابراهيم
انما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها
اياه وقد كان ابراهيم كثير الدعاء
حليما عمن ظلمه وأناله مكروها
ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني
مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ولهذا قال تعالى ان ابراهيم لأواه
حليم (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ان الله بكل شيء عليم ان الله له ملك السموات والارض يحيي
ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل انه لا يضل قوما الا بعد ابلاغ
الرسالة اليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى وأما ثمود فهديناهم الآية وقال مجاهد في قوله تعالى وما كان الله ليضل

لم يؤت كل الملك انما أوتي ملكا خاصا وهو ملك مصر في زمن خاص وقيل زائدة وقيل لبيان
الجنس والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع
أقطار الارض الاربعة اثنان مسلمان اسكندر وسليمان واثنان كافران بختنصر وشداد
ابن عاد قلت وسيملكها خامس وهو عيسى بن مريم حين ينزل من السماء الى الارض كما وردت
به الاحاديث الصحيحة (وعلمتني من تأويل الاحاديث) اي بعضها لانه لم يعط جميع علم
التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم او مجرد تأويل الرؤيا وقيل من للجنس كما في قوله
تعالى فاجتنبوا الرجس من الاوثان وقيل زائدة كما تقدم (فاطر السموات والارض)
اي يا فاطرهما او منتصب باضمار اعني او على انه صفة لرب او بدل او بيان والفاطر الخالق
والمنشئ والمخترع والمبدع (انت وليي) اي ناصري ومتولي اموري (في الدنيا
والآخرة) تتولاني فيهما (توفني مسلما) اي على الاسلام لا يفارقني حتى أموت قيل
انه دعا بذلك مع علمه بان كل نبي لا يموت الا مسلما اظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة
في طلب سعادة الخاتمة وتعليما لغيره وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر
والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى قاله الرازي والخطيب والكرخي قال ابن عباس
ما سأل نبي الوفاة غير يوسف اشتاق الى لقاء الله وأحب ان يلحق به وبآبائه فدعا الله ان
يتوفاه (و) قال (الحقني بالصالحين) من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم
منك ودرجاتهم عندك قال الضحاك يعني ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وقال
عكرمة يعني اهل الجنة قيل انه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يأت عليه أسبوع
بعد هذا الدعاء قيل كان عمره عندان ألقي في الجب سبع عشرة سنة وكان في العبودية
والسجن والملك ثمانين سنة الى قدوم أبيه يعقوب ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل
عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة في الحال
ولهذا ذهب الجمهور الى انه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وانما دعا ربه ان يتوفاه على
دين الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة
وولد له من امرأة العزيز ثلاثة أولاد افرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب ولما مات دفنوه
في أعلى النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه فسبحان من
لا انقضاء لملكه فبقي اربعمائة سنة الى ان أخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه
بالشام

قوما بعد اذ هداهم الآية قال بيان الله عز وجل للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وفى بيانه لهم فى معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا وقال ابن جرير يقول الله تعالى وما كان الله ليقضى عليكم فى استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد اذ رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به وبرسوله حتى يتقدم اليكم بالنهى عنه فتتركوا فاما قبل ان يبين لكم كراهة ذلك بالنهى عنه فلم تضيعوا نهيه الى ما نهاكم عنه فانه لا يحكم عليكم بالضلال فان الطاعة والمعصية انما يكونان من المأمور والمنهى واما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعا أو عاصيا فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه (٧٩) وقوله تعالى ان الله له ملك السموات والارض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير قال ابن جرير هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين فى قتال المشركين وملوك الكفر وانهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والارض ولم يرهبوا من أعدائه فانه لا ولى لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن أبى دلامة البغدادى حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه اذ قال لهم هل تسمعون ما أسمع قالوا ما نسمع من شئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأسمع أطيط السماء وما تلام ان تئط وما فيها من موضع شبر الا وعليه ملك ساجد أو قائم وقال كعب الاحبار ما من موضع خرمة ابرة من الارض الا وملك موكل بها يرفع علم ذلك الى الله وان ملائكة السماء لاكثر من عدد التراب وان حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى مخه مسيرة مائة عام (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم) قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك وذلك انهم خرجوا اليها فى شدة من الامر فى سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء قال قتادة خرجوا الى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا ان الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الاعلى اخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث عن سعيد

بالشام فى الارض المقدسة فهو الآن هنالك (ذلك) المذكور من امر يوسف اى قصته وما جرى له مع اخوته وما صار اليه من الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) أخباره (نوحيه اليك) خبر ثان قال الزجاج ويجوز ان يكون ذلك بمعنى الذى اى الذى من انباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بان هذا الذى قصه عليه من امر يوسف واخوته من الاخبار التى كانت غائبة عنه فاوحاه الله اليه وأعلمه به ولم يكن عنده قبل الوحى شئ من ذلك وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لانهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وآله وسلم بما جاء به تمردا وعنادا وحسدا مع كونهم يعلمون حقيقة الحال ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم لانه كان أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى غير بلده الذى نشأ فيه ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بالوحى من الله سبحانه وتعالى (وما كنت لديهم) أى لدى اخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين (اذ أجمعوا امرهم) اجماع الامر العزم عليه أى اذ عزموا جميعا على القائه فى الجب (وهم) أى بنو يعقوب فى تلك الحالة (يمكرون) بيوسف فى هذا الفعل الذى فعلوه به ويبغونه الغوائل أو يمكرون بيعقوب حين جاؤه بقميص ملطخا بالدم وقالوا أكله الذئب واذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند ان فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم باحوال الامم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير فلم يبق بعلمه بذلك طريق الا مجرد الوحى من الله سبحانه فهذا يستلزم الايمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكرا لهذا (وما أكثر الناس ولو حرصت) على هدايتهم وبالغت فى ذلك (بمؤمنين) بالله لتصميمهم على الكفر الذى هو دين آبائهم يقال حرص يحرص مثل ضرب يضرب وفى لغة ضعيفة مثل حمد يحمد والحرص طلب الشئ باجتهاد والاسم الحرص بالكسر وحرص حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة وقال الزجاج معناه ما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم لانك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء قال ابن الانبارى ان قريشا واليهود سألوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة يوسف واخوته فشرحها شرحا شافيا وأتى بها على رفق ما عندهم فى التوراة وهو يأمل

ابن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس انه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فاصابنا فيه عطش حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه و يجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر الصديق يارسول الله ان الله عزوجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا فقال تحب ذلك قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فاهطلت ثم سكنت فملؤا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت (٨٠) العسكر وقال ابن جرير فى قوله لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة أى من النفقة والظهر والزاد والماء من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم أى عن الحق ويشك فى دين الرسول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم ثم تاب عليهم يقول ثم رزقهم الانابة الى ربهم والرجوع الى الثبات على دينه انه بهم رؤف رحيم (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال الامام أحمد حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن مسلم الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة غزاها قط الا فى غزاة تبوك غير انى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها وانما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الاسلام وما أحب ان لى بها مشهد بدر وان كانت بدر اذكر فى الناس منها وأشهر وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك انى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما

أن يكون ذلك سببا لاسلامهم فخالفوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لذلك فعزاه الله بقوله وما أكثر الناس الآية (وما تسألهم عليه) أى على القرآن وما تتلوه عليهم منه أو على الايمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث (من أجر) من مال يعطونك اياه و يجعلونه لك كما يفعله أحبارهم (ان هو) أى القرآن أو الحديث الذى حدثتهم به (الا ذكر للعالمين) كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لان الوعظ العام ينافى أخذ الاجر من البعض (وكأين من آية) قال الخليل وسيبويه ان كأين أصلها أى دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الافرادى وصار المجموع باسم واحد بمعنى كم الخبرية التكثيرية والاكثر ادخال من فى مميزه وهو تمييز عن الكاف لا عن أى كما فى مثلك رجلا والمعنى كم من آية كائنة (فى السموات) من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت (والارض) من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه وانه الخالق لذلك والرازق له المحى المميت قال الضحاك كم من آية فى السماء يعنى شمسها وقمرها ونجومها وسحابها وفى الارض ما فيها من الخلق والانهار والجبال والمدائن والقصور ولكن أكثر الناس (يمرون عليها) أى على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين الى ما تدل عليه من وجود خالقها وانه المتفرد بالالوهية مع كونهم مشاهدين لها وفى مصحف عبد الله يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من الآثار والعبر (وهم عنها معرضون) وان نظروا اليها باعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهى التفكر والاعتبار والاستدلال (وما يؤمن) أى ما يصدق (أكثرهم) أى أكثر الناس (بالله) من كونه الخالق الرازق المحى المميت (الا وهم مشركون) بالله يعبدون معه غيره أقول ان ايضاح ما تضمنه هذه الآية يتوقف على ايضاح ما ذكره أهل التفاسير المعتبرة وينحصر ذلك فى وجوه اثنى عشر و ينضم الى ذلك ما ذكرته انا فيكون الوجوه ثلاثة عشر الاول ان أهل الجاهلية كانوا يقرون بان الله سبحانه خالقهم ورازقهم و يعبدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم الى الله كما قالوا ما نعبدهم

الا

فى تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها الاورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومغاوز واستقبل عدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فاخبرهم وجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب الاظن ان ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وانا اليها أصغر فتجهز اليها رسول الله (٨١) صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فارجع ولم أقض من جهازى شيأ فاقول لنفسى أنا قادر على ذلك اذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيأ وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم الحقه فغدوت بعد ماصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت ان ارتحل فالحقهم وليتنى انى فعلت ثم لم يقدر ذلك لى فطفقت اذا خرجت فى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى انى لا أرى الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك مافعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة حبسه يارسول الله برداه والنظر فى عطفيه فقال معاذ بن جبل بئسما قلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب بن مالك فلما بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى وطفقت أتذكر الكذب وأقول بما أخرج من سخطته غدا وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت انى لم أنج منه بشئ أبدا فاجمعت صدقه فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ويستغفر

الا ليقربونا الى الله زلفى ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله والمعتقدون فى الاموات بانهم يقدرون على مالا يقدر عليه الا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور فهذا الاقرار الصادر منهم بان الله عز وجل خالقهم ورازقهم هو يصدق عليه انه ايمان بالمعنى الاعم أى تصديق لا بالمعنى الاخص أعنى ايمان المؤمنين فهذا الايمان الصادر منهم واقع فى حال الشرك فقد آمنوا حال كونهم مشركين والى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين ولكنهم لم يذكروا ماذكرناه ههنا من تقريره بكونه ايمانا بالمعنى الاعم ولابد من ذلك حتى يستقيم الكلام ويصدق عليه مسمى الايمان الوجه الثانى ان المراد بالآية المنافقون لانهم كانوا يظهرون الايمان ويبطنون الشرك فما كانوا يؤمنون ظاهرا الا وهم مشركون باطنا وروى هذا عن الحسن البصرى الوجه الثالث انهم أهل الكتاب يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم فى الكفر بغيره ويقولون المسيح ابن الله وعزير ابن الله فهم يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حال كونهم مشركين الوجه الرابع ان المقصود بذلك ما كان يقع فى تلبية العرب من قولهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك فقد كانوا فى هذه التلبية يؤمنون بالله وهم مشركون روى نحو ذلك عن ابن عباس الوجه الخامس ان المراد بهذه الآية المراؤن من هذه الامة لان الرياء هو الشرك المشار اليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل فالمراؤن آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء وأخرج أحمد فى المسند من حديث محمود بن لبيد ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يارسول الله قال الرياء يقول الله يوم القيامة اذا جزى الناس باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء الوجه السادس ان المراد بالآية من نسى ربه فى الرخاء وذكره عند الشدائد روى ذلك عن عطاء وفيه انه لا يصدق على ذلك انه آمن بالله حال كونه مشركا الا ان يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركا مجازا كأنه بنسيانه وتركه للدعاء قد عبد الها آخر وهو بعيد على انه لا يمكن اجتماع الامرين لانه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر وقد تقرر ان الحال قيد فى عاملها الا ان يعتبر بما كان عليه الشئ فان ذلك أحد العلاقات المصححة للتجوز ويدل عليه قوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم

لهم ويكل سرائرهم الى الله تعالى حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه
فقال لي ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا فقلت يا رسول الله اني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت ان أخرج من
سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك
علي ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه اني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر
مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله (٨٢) صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت
وقام الى رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت الآن تكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت ان أرجع فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي فقال ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت
أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالاسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه حديث
وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت
على صلاتي نظر الي فاذا التفت نحوه أعرض عني حتى اذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن
عمي وأحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله قال فسكت
قال فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فسكت فقال الله ورسوله أعلم قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار

يشركون الوجه السابع ان المراد من أسلم من المشركين فانه كان مشركا قبل ايمانه حكم
بذلك الحاكم في تفسيره وتقريره انه ما يؤمن أحدهم بالله الا وقد كان مشركا قبل ايمانه
والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله والجواب الجواب الوجه الثامن ان المراد
بالشرك ههنا ما يعرض من الخواطر والاحوال حال الايمان قاله الواسطي كما حكاه عنه
البقاعي وفيه ان هذه الخواطر والاحوال ان كانت مما يصدق عليه الشرك الاكبر
أو الاصغر فذاك وان كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد الوجه التاسع انهم الذين يشبهون
الله بخلقه رواه الكشاف عن ابن عباس وتقريره انهم آمنوا بالله حال تشبيههم وهما
يكون شركا أو يؤل الى الشرك الوجه العاشر هو ما تقوله القدرية من اثبات القدرة
للعبد حكاه النسفي في مدارك التنزيل وتقريره انهم آمنوا بالله حال اثباتهم ما هو مختص
به لغيره وهو شرك أو منزل منزلة الشرك الوجه الحادي عشر ما قاله محيي الدين بن عربي
في تفسيره ان أكثر الناس انما يؤمنون بغير الله و يكفرون بالله دائما في بعض الاحيان
يشركون الله سبحانه مع ذلك الاله الذي هم مؤمنون به فلا يؤمن أكثرهم بالله الا حال
كونه مشركا وفيه ان ظاهر النظم القرآني ان الايمان بالله والشرك بتشريك غيره معه
لا يكون الا بتشريكه مع غيره و بين المعنيين فرق الوجه الثاني عشر ذكره ابن كثير في
تفسيره وهو ان ثمة شركا خفيا لا يشعر به غالب الناس ممن يفعله كما روي عن حذيفة انه
دخل على مريض يزوره فرأى في عضده سيرا فقطعه وانتزعه ثم قال وما يؤمن أكثرهم
بالله الا وهم مشركون وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عمر مرفوعا من
حلف بغير الله فقد أشرك وأخرج أحمد وأبو داود من حديث ابن مسعود قال قال رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الرقى والتمائم والتولة شرك وفي لفظ لهما الطيرة شرك وما
منا الا ولكن الله يذهبه بالتوكل وروى أحمد في المسند عن عيسى بن عبد الرحمن قال
دخلت على عبد الله بن حكيم وهو مريض فقيل له لو تعلقت فقال أتعلق شيأ وقد قال رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم من تعلق شيأ وكل اليه ورواه النسائي عن أبي هريرة وفي المسند
عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علق تميمة فقد أشرك وفي
صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله أنا أغنى
الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه وروى أحمد وغيره من

حديث غيره وفي المسند أيضا من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا يارسول الله ما كفارة ذلك قال ان يقول أحدهم اللهم لاخير الاخيرك ولاطير الاطيرك ولا اله غيرك وأخرج أحمد من حديث أبي موسى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل ثم قالوا وكيف نجتنبه وهو أخفى من دبيب النمل قال قولوا اللهم انا نعوذ بك ان نشرك بك شيأ نعلمه ونستغفرك لما لانعلمه وقد روي من حديث غيره اذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه فاعلم ان هذه الاقوال انما هي اختلاف في سبب النزول وأما النظم القرآني فهو صالح لحمله على كل مايصدق عليه مسمى الايمان مع وجود مسمى الشرك والاعتبار بما يفيده اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في مواطنه فيقال مثلا في أهل الشرك انه مايؤمن أكثرهم بان الله هو الخالق الرازق الا وهو مشرك بالله بما يعبده من الاصنام ويقال فيمن كان واقعا في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين انه مايؤمن بالله الا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي ويقال مثلا في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقا وهذا يصلح ان يكون وجها مستقلا وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب وان لم يذكره أحد من المفسرين فما قيل من انه يشكل وجود اتصافهم بالايمان في حال تلبسهم بالشرك استشكال واقع موقعه وسؤال حال محله وجوابه قد ظهر مما سبق فانه يقال مثلا ان أهل الجاهلية كان ايمانهم الجامع للشرك هو مجرد الاقرار بان الله هو الخالق الرازق وهو لا ينافي ماهم عليه من الشرك وكذلك يقال ان أهل الاسلام كان شرك من وقع منهم في شئ من الشرك الخفي الاصغر غير مناف لوجود الايمان منهم لان الشرك الاصغر لا يخرج به فاعله عن مسمى الايمان ولهذا كانت كفارته ان يتعوذ بالله من ان يشرك وان يقول في الطيرة اللهم لاطير الاطيرك ولا اله غيرك فقد صح بهذا انه اجتمع الايمان الحقيقي والشرك الخفي في بعض المؤمنين واجتمع الايمان بالمعنى الاعم والشرك الحقيقي في أهل الجاهلية وكذا يقال في أهل الكتاب انه اجتمع فيهم الايمان بما أنزل الله على أنبيائهم والاشراك بجعل بعض المخلوقين أبناء الله عز وجل وهكذا في بقية الوجوه (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) الاستفهام للانكار والغاشية مايغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله يوم يغشاهم

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة اذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له الي حتى جاء فدفع الي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فاذا فيه أما بعد فقد بلغنا ان صاحبك قد جفاك وان الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال فتيممت به التنور فسجرته به حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين اذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني يقول يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل فقال بل اعتزلها (٨٣) ولا تقربها قال وأرسل الى صاحبي بمثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر ماشاء قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره ان أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت وانه والله مابه من حركة الى شئ وانه والله مازال يبكي منذ كان من أمره ماكان الى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية ان تخدمه قال فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدري مايقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته وأنا رجل شاب قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسي وضاقت على الارض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول باعلى صوته أبشر يا كعب بن مالك قال فخررت ساجدا وعرفت ان قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض الى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما اياه ببشارته له والله ماأملك يومئذ غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بتوبة الله يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد والناس حوله فقام الى طلحة

العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هي الساعة وقيل الصواعق والقوارع وقيل وقيعة تغشاهم قاله قتادة وقيل نقمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي فجأة من غير سابقة علامة والنصب على الحال قال المبرد جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قولهم وقع أمر بغتة يقال بغتهم الامر بغتا و بغتة اذا فاجأهم (وهم لا يشعرون) باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم غير مستعدين لها (قل) يا محمد للمشركين (هذه) الدعوة التي أدعو اليها والطريقة التي أنا عليها (سبيلي) طريقي وسنتي وفسر ذلك بقوله (ادعو الى الله على بصيرة) أي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي تميز بها الحق من الباطل (أنا ومن اتبعني) أي ويدعو اليها من اتبعني واهتدى بهديي قال الفراء والمعنى ومن اتبعني يدعو الى الله كما أدعو وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق عليه ان يقتدي به في الدعاء الى الله أي الدعاء الى الايمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده قال ابن الانباري ويجوز ان يتم الكلام عند قوله أدعو الى الله ثم ابتدأ فقال على بصيرة أنا ومن اتبعني قال قتادة على بصيرة أي على هدى (و) أسبح (سبحان الله) أي وأنزهه تنزيها له عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين) بالله الذين يتخذون من دونه أندادا (وما أرسلنا من قبلك) هذا رد على من قال لولا أنزل عليه ملك أي لم نبعث من الانبياء الى من قبلهم (الا رجالا) لا ملائكة أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم قاله ابن عباس فكيف ينكرون ارسالنا اياك وتدل الآية على ان الله سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن وهذا رد على من قال ان في النساء أربع نبيات حواء وآسية وام موسى ومريم وقد كان بعثة الانبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة

أضحت نبيتنا انثى فطيف بها * وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
فلعنة الله والاقوام كلهم * على سجاح ومن باللوم اغرانا

(نوحي اليهم) كما نوحي اليك وقرئ بالياء مبنيا للمفعول (من أهل القرى) أي المدائن والامصار دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو ولكون أهل الامصار أتم عقلا وأكمل حلما وأحسن علما وأجل فضلا قال قتادة ما نعلم ان الله أرسل رسولا قط

فقام الى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ان من توبتي ان أنخلع من مالي صدقة الى الله والى رسوله قال أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فاني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت يا رسول الله انما نجاني الله بالصدق وان من توبتي ان لا أحدث الا صدقا ما بقيت قال فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا واني لأرجو ان يحفظني الله عز وجل فيما بقي قال وأنزل الله تعالى لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين الى آخر الآيات قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أن لا أكون كذبته فاهلك كما هلك الذين كذبوه فان الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لاحد فقال الله تعالى سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس تخليفه ايانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر بما خلفنا بتخلفنا عن الغزو وانما هو عمن حلف له واعتذر

اليه فقبل منه هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة وفي رواية عن سعيد ابن جبير ربيع بن مرارة وقال الحسن البصري ربيع بن مرارة أو مرار بن ربيع وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب وقوله فسموا رجلين شهدا بدرا قيل انه خطأ من الزهري فانه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا والله أعلم ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين اياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تخلفهم وانه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ولهذا قال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من اموركم ومخرجا وقد قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوعا عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا أخرجاه في الصحيحين وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل اقرؤا ان شئتم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون

الا من أهل القرى لانهم كانوا أعلم وأحلم من أهل المعمور وقال الحسن لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فينظروا الى مصارع الامم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب قال الحسن أي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والامم التي عذبها (ولدار) الساعة (الآخرة) أو الحالة الآخرة أو الحياة الآخرة على حذف الموصوف وقال الفراء ان الدار هي الآخرة وأضيف الشيء الى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الاولى ومسجد الجامع والكلام في ذلك مبين في كتب الاعراب والمراد بهذه الدار الجنة وقرئ للدار الآخرة (خير) من دار الدنيا (للذين اتقوا أفلا تعقلون) على الخطاب وقرئ بالتحتية أي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا (حتى) غاية لمحذوف دل عليه الكلام وتقديره وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاؤا به بالعقوبة حتى (اذا استيأس الرسل) عن النصر بعقوبة قومهم أو حتى اذا استيأسوا من ايمان قومهم لانهماكهم في الكفر وقدره القرطبي الا رجالا ثم لم نعاقب أممهم حتى اذا وقدره ابن الجوزي الا رجالا فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى اذا وقدره الزمخشري الا رجالا فتراخى نصرهم حتى وأحسنها ما قدمته وقال الواحدي حتى هنا من حروف الابتداء يستأنف بعدها (وظنوا انهم قد كذبوا) قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسائي والفراء بالتخفيف مبنيا للمفعول أي ظن القوم ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا وقيل المعنى ظن القوم ان الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر وقيل المعنى وظن الرسل انها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم النصر وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد والمعنى عليها واضح أي ظن الرسل بان قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ويجوز في هذا ان يكون فاعل ظن القوم المرسل اليهم على معنى انهم ظنوا ان الرسل قد كذبوا فيما جاؤا به من الوعد والوعيد وقرأ مجاهد وحميد قد كذبوا بالتخفيف معروفا على معنى وظن قوم الرسل ان الرسل قد كذبوا وقد قيل ان الظن في هذه الآية بمعنى اليقين لان الرسل قد تيقنوا ان قومهم كذبوهم وليس ذلك مجرد ظن منهم

لاحد فيه رخصة وعن عبد الله بن عمر في قوله اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال الضحاك
مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وقال الحسن البصري ان أردت ان تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة
(ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا
نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر
المحسنين) يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن (٨٦) رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها
من أحياء العرب ورغبتهم بانفسهم
عن مواساته فيما حصل له من
المشقة فانهم نقصوا أنفسهم من
الاجر لانهم لا يصيبهم ظمأ وهو
العطش ولا نصب وهو التعب ولا
مخمصة وهي المجاعة ولا يطؤن
موطئا يغيظ الكفار أي ينزلون
منزلا يرهب عدوهم ولا ينالون منه
ظفرا وغلبة عليه الا كتب لهم
بهذه الاعمال التي ليست داخلة
تحت قدرهم وانما هي ناشئة عن
أفعالهم أعمالا صالحة وثوابا جزيلا
ان الله لا يضيع أجر المحسنين
كقوله انا لا نضيع أجر من أحسن
عملا (ولا ينفقون نفقة صغيرة
ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا
كتب لهم ليجزيهم الله أحسن
ما كانوا يعملون) يقول تعالى
ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل
الله نفقة صغيرة ولا كبيرة أي
قليلا ولا كثيرا ولا يقطعون واديا
أي في السير الى الاعداء الا كتب
لهم ولم يقل ههنا به لان هذه أفعال
صادرة عنهم ولهذا قال ليجزيهم
الله أحسن ما كانوا يعملون وقد
حصل لامير المؤمنين عثمان بن
عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم وذلك انه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة
والاموال الجزيلة كما قال عبد الله ابن الامام أحمد حدثنا أبو موسى العنزي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني سليمان بن المغيرة
حدثني الوليد بن أبي هشام عن فرقد بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث
على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه على مائة بعير باحلاسها وأقتابها قال ثم حث فقال عثمان على مائة بعير
اخرى باحلاسها وأقتابها قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان على مائة أخرى باحلاسها وأقتابها قال فرأيت

والذي ينبغي ان يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة و يفسر بمعناه الاصلي فيما يحصل
فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة وقد أطال الخازن والخفاجي في بيان معنى هذه
الآية بما ليس في ذكره كثير فائدة وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ (جاءهم نصرنا) أي فجاء الرسل
نصر الله سبحانه فجأة أو جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بايقاع العذاب على
المكذبين وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة انه سأل عائشة عن قول الله سبحانه حتى
اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا قال قلت أكذبوا ام كذبوا يعني هل هذه الكلمة
مخففة أو مشددة فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد قلت والله لقد استيقنوا ان قومهم
كذبوهم فما هو بالظن قالت أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها وظنوا انهم قد
كذبوا المخففة قالت معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم
اتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا
استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر
الله عند ذلك وقال ابن عباس كذبوا المخففة يقول أخلفوا وكانوا بشرا حتى يقول الرسول
والذين آمنوا معه متى نصر الله قال عروة عن عائشة انها خالفت ذلك وأبته وقالت والله
ما وعد الله رسوله من شئ الا علم انه سيكون قبل ان يموت ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى
ظنوا ان من معهم من المؤمنين قد كذبوهم وكانت تقرأها مثقلة وعن عائشة ان النبي صلى
الله عليه وآله وسلم قرأ وظنوا انهم قد كذبوا المخففة أخرجه ابن مردويه من طريق
عكرمة وعن ابن عباس ايضا أنه كان يقرأ قد كذبوا المخففة وقال يئس الرسل من قومهم ان
يستجيبوا لهم وظن قومهم ان الرسل قد كذبوهم بما جاؤهم به جاءهم نصرنا أي الرسل وبها
قرأ ابن مسعود وقال استيأس الرسل من ايمان قومهم ان يؤمنوا بهم وظن قومهم حين ابطاء
النصر انهم قد كذبوا وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سورة يوسف
انهم قد كذبوا المخففة وللسلف في هذا كلام يرجع الى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة
(فنجي من نشاء) من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن
آمن معهم وهلك المكذبون (ولا يرد بأسنا) أي عذابنا عند نزوله (عن القوم المجرمين)
المشركين قال ابن عباس وذلك ان الله بعث الرسل يدعون قومهم فاخبروهم ان من أطاع
الله نجا ومن أعرض عذب وغوى وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من

عدا

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بيده هكذا يحركها فاخرج عبد الله مديده كالمتعجب ما على عثمان ما عمل بعد هذا وقال عبد الله أيضا حدثنا هارون بن معروف حدثنا ضمرة حدثنا عبد الله بن شوذب عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان رضي الله عنه الى النبي صلى الله عليه وسلم بالف دينار في ثوبه حتى جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها بيده ويقول ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم يرددها مرارا وقال قتادة في قوله تعالى ولا يقطعون واديا الا كتب لهم (٨٧) الآية ما ازداد قوم في سبيل الله بعدا من أهليهم الا ازدادوا قربا من الله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الاحياء مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فانه قد ذهبت طائفة من السلف الى انه كان يجب النفير على كل مسلم اذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى انفروا خفافا وثقالا وقال ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب الآية قال فنسخ ذلك بهذه الآية وقد يقال ان هذا بيان لمراده تعالى من نفير الاحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة ان لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الامران في هذا النفير المعين وبعده صلى الله عليه وسلم تكون الطائفة النافرة من الحي اما للتفقه واما للجهاد فانه فرض كفاية على الاحياء وقال علي

عدا هؤلاء المجرمين (لقد كان في قصصهم) أي قصص الرسل ومن بعثوا اليهم من الامم أو في قصص يوسف واخوته وأبيه قاله مجاهد (عبرة) هي الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول (لأولي الالباب) هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون مافيه مصالح دينهم وانما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف واخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على اخبارهم ولا اتصل باحبارهم وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم انه قال في أول السورة نحن نقص عليك أحسن القصص ثم قال ههنا لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب وذلك تنبيه على ان حسن هذه القصة انما هو لاجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة (ما كان) هذا المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص أو القرآن المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله انا أنزلناه قرآنا عربيا (حديثا يفترى) قال قتادة الفرية الكذب (ولكن تصديق الذي بين يديه) من الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه ان جميعه حق من عند الله (وتفصيل كل شئ) من الشرائع المجملة المحتاجة الى تفصيلها لان الله سبحانه لم يفرط في الكتاب من شئ من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك وقيل تفصيل كل شئ من قصة يوسف مع اخوته وأبيه وقيل وليس المراد به مايقتضيه من العموم بل المراد به الاصول والقوانين ومايؤول اليها قال قتادة فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته وقيل مامن شئ من أمر ديني الا وله مستند في القرآن بواسطة أو بغير واسطة (وهدى) في الدنيا يهتدي به كل من أراد هدايته (ورحمة) في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال (لقوم يؤمنون) أي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق مايستحقونه

(سورة الرعد وهي ثلاث وقيل أربع أو خمس أو ست وأربعون آية)

ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيروا الا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآنا تعلمه القاعدون مع النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا اخرى فذلك قوله ليتفقهوا في الدين يقول ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا اذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون وقال مجاهد نزلت هذه الآية في اناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فاصابوا من الناس

وقد وقع الخلاف هل هي مكية أو مدنية وممن ذهب الى الاول سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر وابن زيد والى الثاني ابن الزبير والكلبي ومقاتل والقول الثالث انها مدنية الا آيتين فانهما نزلتا بمكة وهما قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وقيل قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة وقيل هو الذي يريكم البرق الى قوله له دعوة الحق وعن جابر بن زيد كان يستحب اذا حضر الميت ان يقرأ عنده سورة الرعد فان ذلك يخفف عن الميت وانه أهون لقبضه وأيسر لشأنه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر) قد تقدم الكلام في الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الاعادة قال ابن عباس المعنى انا الله أرى وقال مجاهد فواتح يفتتح بها كلامه والحق ان الله تعالى أعلم بمراده أو هو اسم للسورة والتقدير هذه السورة اسمها هذا (تلك) أي آيات هذه السورة وقيل اشارة الى ما قص عليه من أنباء الرسل وقيل الى آيات القرآن وعليه جرى الزمخشري وجمهور المفسرين (آيات الكتاب) والمراد بالكتاب السورة أي تلك آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن والاضافة بمعنى من وقال مجاهد الكتاب التوراة والانجيل (والذي أنزل اليك من ربك) المراد به القرآن كله قاله قتادة وغيره أي هو (الحق) البالغ في اتصافه بهذه الصفة لا شك فيه (ولكن أكثر الناس) يعني مشركي مكة (لا يؤمنون) بهذا الحق الذي أنزل الله اليك قال الزجاج لما ذكر انهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال (الله الذي رفع السموات بغير عمد) العمد الاساطين والدعائم جمع عماد أي على غير قياس والقياس ان يجمع على عمد بضم العين والميم وقيل ان عمدا جمع عماد في المعنى أي انه اسم جمع لا جمع صناعي وهو صادق بان لا عماد أصلا وهذا هو أصح القولين أي قائمات بغير عمد تعتمد عليها وقيل لها عمد ولكن لا نراها وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الزجاج العمد قدرته التي يمسك بها السموات وهي غير مرئية لنا وقرئ عمد على انه جمع عمود يعمد به أي يسند اليه وجملة (ترونها) مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك وقيل هي صفة لعمد وهو أقرب مذكور ورجحه الزمخشري وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير رفع السموات ترونها بغير عمد ولا ملجئ الى مثل هذا

التكلف

المعروف ومن الخصب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس انهم ما نراكم الا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا وأقبلوا من البادية حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يبغون الخير ليتفقهوا في الدين وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ولينذروا قومهم الناس كلهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وقال قتادة في الآية هذا اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش أمرهم الله ان يغزوا بنبيه صلى الله عليه وسلم وتقيم طائفة مع (٨٨) رسول الله تتفقه في الدين وتنطلق طائفة تدعوا قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا بنفسه لم يحل لاحد من المسلمين ان يتخلف عنه الا أهل الاعذار وكان اذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم ان ينطلقوا الا باذنه وكان الرجل اذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه فاذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا فيقرؤنهم ويفقهونهم في الدين وهو قوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة يقول اذا أقام رسول الله فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني بذلك انه لا ينبغي للمسلمين ان ينفروا جميعا ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ولكن اذا قعد نبي الله فسرت السرايا وقعد معه عظم الناس وقال علي بن أبي طلحة أيضا عن ابن عباس في الآية قوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة انها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل باسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله يخبر رسوله انهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عشائرهم وحذر قومهم ان يفعلوا فعلهم فذلك قوله ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم الآية وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا ان نفعله وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا اذا قدمنا عليهم قال فيأمرهم

نبي الله صلى الله عليه وسلم بطاعته وطاعة رسوله ويبعثهم الى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا اذا أتوا قومهم قالوا ان من اسلم فهو منا وينذرونهم حتى ان الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم فاذا رجعوا اليهم يدعونهم الى الاسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما وما كان لاهل المدينة الآية قال المنافقون هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البدو الى قومهم يفقهونهم فانزل الله عز وجل وما كان المؤمنون (٨٩) لينفروا كافة الآية ونزلت والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وقال الحسن البصري في الآية ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين) أمر الله تعالى المؤمنين ان يقاتلوا الكفار أولا فأولا الاقرب فالاقرب الى حوزة الاسلام ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس الى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة الى الاسلام لانهم أهل كتاب فبلغ تبوك فرجع لاجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته باحدى وثمانين يوما فاختاره الله لما عنده وقام بالامر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد ان ينجفل فثبته الله تعالى به فاطر القواعد وثبت الدعائم ورد شارد الدين وهو راغم ورد أهل الردة الى الاسلام وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام وبين الحق لمن جهله وأدى عن الرسول ما حمله ثم شرع في تجهيز الجيوش الاسلامية الى الروم عبدة الصلبان والى الفرس عبدة النيران ففتح الله ببركة سفارته البلاد وأرغم أنف كسرى

التكاثف قال ابن عباس وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها وقال يقول لها عمد ولكن لا ترونها يعني الاعماد قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة وبه قال الحسن وقتادة وجمهور المفسرين وعن ابن عباس قال السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك قال السمين في هذا الكلام وجهان أحدهما انتفاء العمد والرؤية جميعا أي لا عمد فلا رؤية يعني لا عمد لها فلا ترى واليه ذهب الجمهور والثاني ان لها عمدا ولكن غير مرئية (ثم) هنا لمجرد العطف لا للترتيب لان الاستواء عليه غير مترتب على رفع السموات (استوى على العرش) استواء يليق به هذا مذهب السلف وقال المعتزلة استولى عليه بالحفظ والتدبير أو استوى أمره أو أقبل على خلق العرش وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى والحق ان الاستواء على العرش صفة لله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام (وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد فالحركة المستمرة على حد من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها (كل) من الشمس والقمر (يجري لاجل مسمى) أي الى وقت معلوم معين وهو فناء الدنيا وزوالها وقيام الساعة التي تتكور عندها الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر وقيل المراد بالاجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان اليها لا يجاوزانها وهي سنة للشمس وشهر للقمر لا يختلف جري واحد منهما قيل وهذا هو الحق في تفسير الآية (يدبر الامر) أي أمر العالم العلوي والسفلي يعني يقضيه ويمضيه وحده قاله مجاهد والمعنى يصرفه على ما يريد وهو أمر ملكوته وربوبيته يدبره على أكمل الاحوال وأتم الافعال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ولا وجه للتخصيص بشيء دون شيء فان اللفظ أوسع من ذلك قال الكرخي وحمل التدبير على العموم أولى من حمله على نوع من أحوال العالم كما يجري عليه جمع من المفسرين وهذا التدبير والانفاذ والامضاء هو من فوق العرش وهو ظاهر نظم القرآن الكريم (يفصل) أي يبين (الآيات) الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لاجل مسمى والمراد بهذا تنبيه العباد على ان من قدر على هذه الاشياء فهو قادر على البعث والاعادة ولهذا قال (لعلكم) عند مشاهدة هذه الآيات (بلقاء ربكم توقنون) لا تشكون

وقيصر ومن أطاعهما من العباد وأنفق كنوزهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله وكان تمام الامر على يدى وصيه من بعده وولى عهده الفاروق الاواب شهيد المحراب أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه فارغم الله به أنوف الكفرة الملحدين وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقا وغربا وحملت اليه خزائن الاموال من سائر الاقاليم بعدا وقربا ففرقها على الوجه الشرعى والسبيل المرضى ثم لما مات شهيدا وقد عاش حميدا أجمع الصحابة من المهاجرين والانصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه (٩٠) شهيد الدار فكسى الاسلام رياسة حلة سابغة وامتدت الدعوة فى سائر الاقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها وعلت كلمة الله وظهر دينه وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مأربها وكلما علوا أمة انتقلوا الى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالا لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقوله تعالى وليجدوا فيكم غلظة أى غلظة عليهم فى قتالكم لهم فان المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لاخيه المؤمن غليظا على عدوه الكافر كقوله تعالى فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقوله تعالى محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا الضحوك القتال يعنى أنه ضحوك فى وجه وليه قتال لهامة عدوه وقوله واعلموا ان الله مع المتقين أى قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا ان الله معكم اذا اتقيتموه وأطعتموه وهكذا الامر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الامة فى غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الاعداء فى سفال وخسار ثم لما وقعت الفتنة والاهواء والاختلافات بين الملوك طمعت الاعداء فى اطراف البلاد وتقدموا اليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا الى حوزة الاسلام فاخذوا من الاطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الاسلام ولله سبحانه الامر من قبل ومن بعد فكلما قام ملك من ملوك الاسلام

فيه ولا تمترون فى صدقه ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال (وهو الذى مد الارض) على وجه الماء قال الفراء بسطها طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان وقال الاصم ان المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه زاد الكرخى فقوله مد الارض يشعر بأنه تعالى جعل الارض حجما عظيما لا يقع البصر على منتهاه انتهى قيل وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافى كريتها فى نفسها لتباعد أطرافها وبه قال أهل الهيئة والله أخبر أنه مد الارض وانه دحاها وبسطها وانه جعلها فراشا وكل ذلك يدل على كونها مسطحة كالاكف وهو أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة وفى الجامع الصغير حديث رواه البيهقى عن ابن عباس ولفظه أول بقعة وضعت من الارض موضع البيت ثم مدت منها الارض وان أول جبل وضعه الله على وجه الارض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال وعن ابن عمرو قال الدنيا مسيرة خمسمائة عام أربعمائة عام خراب ومائة عمران فى ايدى المسلمين من ذلك مسيرة سنة وقد روى عن جماعة من السلف فى ذلك تقريرات لم يأت عليها دليل يصح وعن على بن أبى طالب قال لما خلق الله الارض قمصت وقالت أى رب تجعل على بنى آدم يعملون على الخطايا ويجعلون على الخبث فارسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون فكان اقرارها كاللحم ترجرج (وجعل فيها) جبالا (رواسى) اى ثوابت تمسكها عن الاضطراب واحدها راسية لان الارض ترسو بها أى تثبت والرسو الثبوت (وأنهارا) أى مياها جارية فى الارض فيها منافع الخلق أو المراد جعل فيها مجارى الماء (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل فى قوله (جعل فيها زوجين اثنين) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكده بالزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين اما فى اللونية كالبياض والسواد ونحوهما أو فى الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما أو فى القدر كالصغر والكبر أو فى الكيفية كالحر والبرد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الاول ويكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل قاله أبو السعود قال الفراء يعنى بالزوجين هنا الذكر والانثى من كل صنف ومثله عن مجاهد والاول أولى (يغشى الليل النهار) أى يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما بعدما كان أبيض منيرا شبه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية

وأطاع أوامر الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله والله المسئول المأمول ان يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وان يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم انه كريم جواد (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون) يقول تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمن المنافقين من يقول أيكم زادته هذه ايمانا أي يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة ايمانا قال الله تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم (٩١) ايمانا وهم يستبشرون وهذه الآية من أكبر الدلائل على ان الايمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء بل قد حكى غير واحد الاجماع على ذلك وقد بسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخاري رحمه الله وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم أي شكا الى شكهم وريبا الى ريبهم لقوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء الآية وقوله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد وهذا من جملة شقائهم ان ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم كما ان سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده الا خبالا ونقصا (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) يقول تعالى أولا يرى هؤلاء المنافقون انهم يفتنون أي يختبرون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين وقال شريك عن جابر عن الجعفي عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين قال كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير وفي الحديث عن أنس لا يزداد الأمر الا شدة ولا يزداد الناس الا شحا وما من عام الا والذي بعده شر منه سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم وقوله وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون هذا أيضا اخبار عن

الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها أي يستر النهار الليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا ان الأنسب بالليل ان يكون هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار ظهوره في الأرض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرئ يغشي من التغشية وقد سبق تفسير هذا في الأعراف (ان في ذلك) المذكور من مد الأرض واثباتها بالجبال وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة وتعاقب النور والظلمة (لآيات) بينة (لقوم يتفكرون) أي للناظرين المتفكرين المعتبرين فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يكون له صورة في القلب ولهذا روي تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله اذ الله منزه عن ان يوصف بصورة (وفي الأرض قطع متجاورات) أي بقاع مختلفة وهذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات قيل وفي الكلام حذف أي قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله سرابيل تقيكم الحر أي والبرد وقيل المتجاورات المدن وما كان عامرا وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير معمور وقيل معنى متجاورات متدانيات ترابها واحد وماؤها واحد وفيها زرع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلوا والبعض حامضا والبعض طيبا والبعض غير طيب والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر وعن ابن عباس قال يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها باذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا يخرج منها انباتها وهما أرض واحدة وماؤها شيء واحد ملح أو عذب ففضلت احداهما على الأخرى قال قتادة قرى متجاورات قريب بعضها من بعض وقال ابن عباس الأرض تنبت حلوا والأرض تنبت حامضا وهي متجاورات تسقى بماء واحد وقيل متلاصقات فمنها طيب وسبخ وقليل الريع وكثيره وهو من دلائل قدرته تعالى سبحانه (و) في الأرض (جنات) أي بساتين وعلى النصب تقديره جعل فيها جنات والجنة كل بستان ذي شجر

المنافقين أنهم اذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر بعضهم الى بعض أى تلفتوا هل يراكم من أحد ثم انصرفوا أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة وقوله تعالى فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين أى ما لهؤلاء القوم يتقلبون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا الى الباطل وقوله ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم كقوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (٩٢) أى لا يفهمون عن الله خطابا ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا الى ما صاروا اليه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال ابراهيم عليه السلام ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى ان الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم قال لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية وقال صلى الله عليه وسلم خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال أشهد على أبى لحدثنى عن أبيه عن جده عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم الى ان ولدنى أبى وأمى لم يمسنى من سفاح الجاهلية شئ وقوله تعالى عزيز عليه ما عنتم أى يعز عليه الشئ الذى يعنت امته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه انه قال بعثت بالحنيفية السمحة وفى الصحيح ان هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى

من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لانه يستتر بأشجاره الارض واليه الاشارة بقوله (من أعناب) جمع عنب (وزرع ونخيل) ذكر سبحانه الزرع بين الاعناب والنخيل لانه يكون فى الخارج كثيرا كذلك ومثله فى قوله سبحانه جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا والنخل والنخيل بمعنى والواحد نخلة لكن النخل يذكر ويؤنث والنخيل مؤنث لا غير (صنوان وغير صنوان) قرئ بالرفع فى الاربعة عطفا على جنات وبالجر عطفا على أعناب وبضم الصاد وكسرها وهما لغتان والاولى لغة قيس وتميم والثانية لغة العامة وقرئ بفتحها وهو اسم جمع لا جمع تكسير لانه ليس من ابنية فعلان بالفتح ونظيره صنوان بالفتح سعدان قال أبو عبيدة جمع صنو وهو أن يكون الاصل واحدا ثم يتفرع فيصير نخيلا ثم يحمل وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير فالصنوان جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد تتشعب فروعها فالصنو المفرد واحد هذه النخلات قال ابن الاعرابى الصنو المثل ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم عم الرجل صنو أبيه فمعنى الآية على هذا ان أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون قال فى الكشاف جمع صنو وهى النخلة لها رأسان وأصلها واحد وقيل الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق قال النحاس وهو كذلك فى اللغة يقال للنخلة اذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان والصنو المثل ولا فرق بين التثنية والجمع الا بكسر النون فى المثنى وبما يقتضيه الاعراب فى الجمع عن البراء بن عازب قال الصنوان ما كان أصله واحدا وهو متفرق وغير الصنوان التى تنبت وحدها وفى لفظ الصنوان النخلة فى النخلة ملتصقة وغير الصنوان النخل المتفرق وعن ابن عباس هى مجتمع النخل فى أصل واحد وغيرها المتفرق وفى السمين والصنو الفرع يجمعه وفرعا آخر أصل واحد والمثل وفى المختار اذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو والاثنتان صنوان بكسر النون والجمع صنوان برفعها (يسقى) بالتحتية أى يسقى ذلك كله يعنى أشجار الجنة وزروعها (بماء واحد) والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده هو جوهر سيال به قوام الارواح وقرئ تسقى بالفوقية بارجاع الضمير الى جنات وقال أبو عمرو والتأنيث أحسن لقوله (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) أى فى الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام ولم يقل بعضه قرئ بالنون على تقدير ونحن

تفضل

عليه حريص عليكم أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والاخروي اليكم وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبي الطفيل عن أبي ذر قال تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء الا وهو يذكرلنا منه علما قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار الا وقد بين لكم وقال الامام أحمد حدثنا قطن حدثنا المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدة الهزلي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يحرم حرمة (٩٣) الا وقد علم انه سيطلعها منكم مطلع الا واني آخذ بحجزكم ان تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد ابن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال ان مثله ومثل أمته كمثل قوم سفراء انتهوا الى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك اذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال أرأيتم ان وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعوني قالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي ان وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء ان تتبعوني فقالوا بلى فقال فان بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا ابراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال في دم فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ ثم قال أحسنت اليك قال الاعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا ان يقوموا اليه فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ان كفوا فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ الى منزله دعا الاعرابي الى البيت فقال انك انما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت فزاده رسول الله صلى الله

نفضل وقرئ بالياء ومتى قرئ الاول بالتاء جاز في الثاني الياء والنون ومتى قرئ الاول بالياء تعين في الثاني النون لا غير فالقراآت ثلاثة لا أربعة كما توهم وكلها سبعية قال الكرخي قرئ بالتحتية ليطابق قوله يدبر وقرئ بنون العظمة وأنت خبير بان القراء يتبعون فيما اختاروه من القراآت الاثر لا الرأي فانه لا مدخل له فيها أخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال الدقل والفارسي والحلو والحامض وقال مجاهد هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وعن ابن عباس قال هذا حامض وهذا حلو وهذا دقل وهذا فارسي والاكل بضمتين واسكان الثاني للتخفيف المأكول والمراد به ما يؤكل منها وهو الثمر والحب فالثمر من النخيل والاعناب والحب من الزرع كأنه قال ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعما وشكلا ورائحة وقدرا وحلاوة وحموضة وغضاضة وغير ذلك من الطعوم وفضلها أيضا في غير ذلك كاللون والنفع والضر وانما اقتصر على الاكل لانه أعظم المنافع (ان في ذلك) المذكور (لآيات) دلالات على بديع صنعه وعظيم قدرته فان القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الاكل فيكون طعم بعضها حلوا والآخر حامضا وهذا في غاية الجودة وهذا ليس بجيد وهذا فائق في حسنه وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء ان السبب المقتضي لاختلافها ليس الا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه لان تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء الا لسببين اما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقى به فاذا كان المكان متجاورا وقطع الارض متلاصقة والماء الذي تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل الا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب (لقوم يعقلون) أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات أي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها خص هذا بالعقل والاول بالتفكر لان الاستدلال باختلاف النهار أسهل ولان التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب فناسب تقديم التفكر على التعقل قال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم فالناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع

عليه وسلم شيأ وقال أحسنت اليك فقال الاعرابي نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا قال النبي صلى الله عليه وسلم انك جئتنا فسألتنا فاعطيناك فقلت ماقلت وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فاذا جئت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم قال نعم فلما جاء الاعرابي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان صاحبكم كان جاءنا فسألنا فاعطيناه فقال ماقال وانا قد دعوناه فاعطيناه فزعم انه قد رضي كذلك يا اعرابي قال الاعرابي نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فقال لهم صاحب (٩٤)

الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فانا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه اليها وأخذ لها من قشام الارض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واني لو أطعتكم حيث قال ما قال لادخل النار رواه البزار ثم قال لانعلمه يروى الامن هذا الوجه قلت وهو ضعيف بحال ابراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم وقوله بالمؤمنين رؤف رحيم كقوله واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى فان تولوا أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة فقل حسبي الله لا اله الا هو أي الله كافي لا اله الا هو عليه توكلت كما قال تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وهو رب العرش العظيم أي هو مالك كل شيء وخالقه لانه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والارضين ومافيهما وما

وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال أيضا والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا (وان تعجب) يامحمد من تكذيبهم لك بعد ماكنت عندهم من الصادقين (فعجب) أي فأعجب منه (قولهم) أي تكذيبهم بالبعث والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لانه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه وذلك في حق الله تعالى محال قاله القرطبي وقيل التعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وانما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله وأتباعه قال الزجاج أي هذا موضع عجب أيضا انهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والارض مايدل على ان البعث أسهل في القدرة وقد تقرر في النفوس ان الاعادة أهون من الابداء فهذا موضع التعجب وقيل الآية في منكري الصانع مع الادلة الواضحة بان المتغير لابد له من مغير فهو محل التعجب والاول أولى لقوله (أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) والجملة في محل الرفع أو النصب والعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك أولا يرون انه خلقهم من نطفة فالخلق منها أشد من الخلق من تراب وعظام والعامل في اذا نبعث أو نعاد والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال الاستبعاد وفي هذا الاستفهام المكرر اختلاف القراء اختلافا منتشرا وهو في أحد عشر موضعا في تسع سور من القرآن ولابد من تعيينها فأولها هنا والثاني والثالث في الاسراء بلفظ واحد أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا والرابع في المؤمنون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون والخامس في النمل أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون والسادس في العنكبوت أئنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال والسابع في الم السجدة أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد والثامن والتاسع في الصافات أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وأئنا لمدينون والعاشر في الواقعة مثل الصافات والحادي عشر في النازعات أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة فهذه هي المواضع المختلف فيها ثم الوجه في قراءة من استفهم في الاول والثاني المبالغة في الانكار فأتى به في الجملة الاولى وأعاده في الثانية تأكيدا له والوجه في قراءة من أتى به مرة واحدة حصول المقصود لأن كل جملة مرتبطة بالاخرى فاذا أنكر في احداهما حصل الانكار في الاخرى ذكره السمين وتقديم الظرف في قوله أئنا لفي خلق انما كان لان الانكار بالبعث وكذلك

بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل قال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال آخر آية نزلت في القرآن هذه الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة وقال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه انهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون

تكرير

وتلى عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم الآية فظنوا ان هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأني بعدها آيتين لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذي لا اله الا هو وهو قول الله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وهذا غريب أيضا وقال أحمد حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن اسحق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحرث بن خزيمة (٩٥) بهاتين الآيتين من آخر براءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا قال لا أدري والله اني لاشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها في آخر براءة وقد تقدم الكلام ان عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن فامر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك وفي الصحيح ان زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة وقدمنا ان جماعة من الصحابة تذاكروا ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر وقال كان من ثقات المسلمين من المتعمدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال من قال اذا أصبح واذا أمسى حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات الا كفاه الله ما أهمه وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبي زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول ما من عبد يقول حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقا كان بها أو كاذبا الا كفاه الله ما أهمه وهذه زيادة غريبة ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا

تكرير الهمزة في قوله أئنا والمعنى أي نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة الاول (أولئك الذين كفروا بربهم) أي أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه وفيه دليل على كفر منكري البعث (و) الثاني (أولئك الاغلال في أعناقهم) الاغلال جمع غل بالضم وهو طوق من حديد يجعل في العنق أو تشد به اليد الى العنق أي يغلون بها يوم القيامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل وقيل الاغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الاطواق للاعناق (و) الثالث (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها بحال من الاحوال وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) نزل في استعجالهم العذاب استهزاء والسيئة العقوبة المهلكة والحسنة العافية والسلامة قالوا هذه المقالة لفرط انكارهم وشدة تصميمهم (وقد خلت من قبلهم المثلات) جمع مثلة كسمرة وهي العقوبة الفاضحة سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه وهو الذنب من المماثلة في ان كلا منهما مذموم قال ابن الانباري المثلة العقوبة التي تبقي في المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان اذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه وقرئ بفتح الميم واسكان الثاء تخفيفا لثقل الضمة قيل وهي لغة الحجاز وفي لغة تميم بضم الميم والثاء جميعا واحدتها على لغتهم مثلة مثل غرفة وغرفات وقرئ بفتحهما وقيل المثلة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالا يرتدع غيره به قال قتادة المثلات العقوبات يعني وقائع الله في الامم فيمن خلا قبلكم وقال ابن عباس المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب والمعنى ان هؤلاء يستعجلونك بانزال العقوبة بهم وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حل بهم وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية (وان ربك لذو مغفرة) أي لذو تجاوز عظيم والمراد به الامهال وتأخير العذاب (للناس على) أي مع (ظلمهم) باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي ان تابوا عن ذلك ورجعوا الى الله سبحانه والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي حال كونهم ظالمين وفي الآية بشارة

منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة ولله الحمد والمنة *

(تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية) ** (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الر تلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون ان هذا لساحر مبين) أما الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها فى أوائل سورة البقرة وقال أبو الضحى عن ابن عباس فى قوله تعالى الر أى أنا الله أرى وكذا قال الضحاك وغيره تلك آيات الكتاب الحكيم أى هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد (٩٦) الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١) وقال الحسن التوراة والزبور وقال قتادة تلك آيات الكتاب قال الكتب التى كانت قبل القرآن وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه وقوله أكان للناس عجبا الآية يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من ارسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم أبشر يهدوننا وقال هود وصالح لقومهما أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش انهم قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وقال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا مثل محمد قال فانزل الله عز وجل اكان للناس عجبا الآية وقوله أن لهم قدم صدق عند ربهم اختلفوا فيه فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق يقول سبقت لهم السعادة فى الذكر الاول وقال العوفى عن ابن عباس ان لهم قدم صدق عند ربهم يقول أجرا حسنا بما قدموا وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فانه وهذا كقوله تعالى لينذر بأسا شديدا الآية وقال مجاهد أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم قال ومحمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ربهم واختار ابن جرير قول مجاهد انها الاعمال الصالحة التى قدموها كما يقال له قدم فى الاسلام كقول حسان

لنا القدم العليا اليك وخلفنا * لاولنا فى طاعة الله تابع

وقول ذى الرمة

(١) بياض بالاصل

عظيمة ورجاء كبير لان من المعلوم ان الانسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبا فيجوز العفو قبل التوبة ولهذا قيل انها فى عصاة الموحدين خاصة وقيل المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب الى الآخرة كما تقدم ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة وكما يفيده قوله تعالى (وان ربك لشديد العقاب) فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا على ما تقتضيه مشيئته فى الدار الآخرة فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد (ويقول الذين كفروا) من أهل مكة (لولا) هلا (أنزل عليه) أى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم (آية من ربه) غير ما قد جاء به من الآيات كالعصا واليد والناقة وهؤلاء القائلون هم المستعجلون للعذاب وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم بكفرهم بآيات الله التى تخر لها الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وهذا مكابرة من الكفار وعناد والا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغنى البعض منه قال الزجاج طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى فقال الله تعالى (انما أنت منذر) تنذرهم بالنار وليس اليك من الآيات من شئ وفيه ازالة لرغبته صلى الله عليه وآله وسلم فى حصول مقترحهم فانه كان شديد الرغبة فى ايجاب مقترحاتهم لشدة التفاته الى ايمانهم قاله الخطيب وجاء فى انما أنت بصيغة الحصر لبيان انه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل لانذار العباد وبيان ما يحذرون عاقبته وليس عليه غير ذلك وقد فعل ما هو عليه وانذر أبلغ انذار ولم يدع شيأ مما يحصل به ذلك الا أتى به وأوضحه وكرره فجزاه الله عن أمته خيرا (ولكل قوم هاد) أى نبى يدعوهم الى ما فيه هدايتهم ورشادهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وان لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها وآيات الرسل مختلفة هذا يأتى بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ فى التعنت الى مكان عظيم فليس المراد من الآيات الا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة قال الرازى فهذا هو الوجه الذى قرره القاضى وهو الوجه الصحيح الذى يبقى الكلام معه منتظما انتهى وقيل ان المعنى ولكل قوم هاد هو الله سبحانه عز وجل

لكم قدم لا ينكر الناس انها * مع الحسب العادي طمت على البحر وقوله تعالى قال الكافرون ان هذا الساحر مبين أى مع انا بعثنا اليهم رسولا منهم رجلا من جنسهم بشيرا ونذيرا قال الكافرون ان هذا الساحر مبين أى ظاهر وهم الكاذبون فى ذلك (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) يخبر تعالى انه رب العالم جميعه وانه خلق السموات والارض فى ستة أيام قيل كهذه الايام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون كما سيأتى بيانه ثم استوى على العرش والعرش (٩٧) أعظم المخلوقات وسقفها قال ابن أبى حاتم حدثنا حجاج ابن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا اسمعيل بن أبى خالد قال سمعت سعدا الطائى يقول العرش ياقوتة حمراء وقال وهب بن منبه خلقه الله من نوره وهذا غريب وقوله يدبر الامر أى يدبر أمر الخلائق لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير فى الجبال والبحار والعمران والقفار وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها الآية وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين وقال الدراوردى عن سعد بن اسحق بن كعب بن عجرة انه قال حين نزلت هذه الآية ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض الآية لقيهم ركب عظيم لا يرون الا أنهم من العرب فقالوا لهم من أنتم قالوا من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه ابن أبى حاتم وقوله ما من شفيع الا من بعد اذنه كقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وكقوله تعالى وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيأ الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له وقوله ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون أى أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له أفلا تذكرون أى أيها المشركون فى أمركم تعبدون مع الله غيره وأنتم تعلمون انه المنفرد بالخلق كقوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقوله قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل أفلا تتقون وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها

(اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب

فانه القادر على ذلك وليس على أنبيائه الا مجرد الانذار قال ابن عباس هاد أى داع وقال مجاهد المنذر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكل قوم هاد نبى يدعوهم الى الله وعن سعيد ابن جبير ومجاهد وابن عباس نحوه وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المنذر وهو الهادى أخرجه ابن مردويه وعن عكرمة وأبى الضحى نحوه وقيل الهادى هو العمل الصالح وقيل الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر وهو يعم الرسل وأتباعهم الى آخر الدهر وعن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره فقال أنا المنذر وأومأ بيده الى منكب على فقال أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى أخرجه ابن جرير وأبو نعيم فى المعرفة والديلمى وابن عساكر وابن النجار قال ابن كثير فى تفسيره وهذا الحديث فيه نكارة شديدة وجملة (الله يعلم ما تحمل كل انثى) مستأنفة مسوقة لبيان احاطته سبحانه بالعلم وعلمه بالغيب الذى هذه الامور منه وقيل الاسم الشريف خبر أى لكل قوم هاد هو الله وجملة يعلم ما تحمل كل انثى تفسير لهاد وهذا بعيد جدا والعلم هنا متعد لواحد بمعنى العرفان وما موصولة أى يعلم الذى تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة أو مضغة أو ذكرا وانثى أو صبيح أو قبيح أو سعيد أو شقى أو طويل أو قصير أو تام أو ناقص أو استفهامية أى يعلم أى شئ فى بطنها وعلى أى حال هو أو مصدرية أى يعلم حملها (وما تغيض الارحام وما تزداد) وما فى الموضعين محتملة للاوجه المتقدمة وغاض وازداد سمع تعديهما ولزومهما ولك ان تدعى حذف العائد على القول بتعديهما وان تجعل ما مصدرية على القول بلزومهما والغيض النقص وعليه أكثر المفسرين أى يعلم الذى تغيضه الارحام أى تنقصه ويعلم ما تزداده لا يخفى عليه شئ من ذلك ولا من أوقاته وأحواله فقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص أصبع أو زيادتها وقيل ان المراد نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر أو زيادتها وقيل اذا حاضت المرأة فى حال حملها كان ذلك نقصا فى ولدها قاله ابن عباس واذا لم تحض يزداد الولد وينمو فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقال سعيد بن جبير الغيض ما تنقصه الارحام من الدم والزيادة ما تزداده منه وقال الضحاك ما تغيض السقط وما تزداد ما زادت فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما وذلك ان من النساء من تحمل عشرة أشهر ومنهن من تحمل تسعة

من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يخبر تعالى أن اليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه ثم ذكر تعالى انه كما بدأ الخلق كذلك يعيده وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط أي بالعدل والجزاء الأوفى والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب من سموم وحميم وظل من يحموم هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن (٩٨) (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون) يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وانه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا هذا فن وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل ابداره ثم يشرع في النقص حتى يرجع الى حالته الاولى في تمام شهر كقوله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وقوله تعالى والشمس والقمر حسبانا الآية وقوله في هذه الآية الكريمة وقدره أي القمر منازل لتعلموا عدد السنين والحساب فبالشمس تعرف الايام وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام ما خلق الله ذلك الا بالحق أي لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار وقال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم وقوله نفصل الآيات أي نبين الحجج والادلة لقوم يعلمون وقوله ان في اختلاف الليل والنهار أي تعاقبهما اذا جاء هذا ذهب هذا واذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيأ كقوله تعالى يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا وقال لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر الآية وقال تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا الآية وقوله وما خلق الله في السموات والارض أي من الآيات الدالة على

أشهر ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله وكل ذلك يعلمه الله وقال مجاهد الغيض خروج الدم والزيادة استمساكه ومدة الحمل أكثرها عند قوم سنتان وبه قالت عائشة وأبو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقيل أكثرها أربع سنين واليه ذهب الشافعي وقيل خمس سنين وبه قال مالك وأقلها ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش (وكل شيء) من الاشياء التي من جملتها الاشياء المذكورة (عنده) سبحانه (بمقدار) هو القدر الذي قدره الله وهو معنى قوله سبحانه انا كل شيء خلقناه بقدر أي كل الاشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه لا يخرج عن ذلك شيء وهذا مذهب السلف وقال الكرخي هذه عندية علم أي يعلم كيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين ويحتمل ان يكون المراد بالعندية انه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الازلية وارادته السرمدية ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وهي من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة (عالم الغيب والشهادة) أي عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر أو كل معدوم وموجود وقال الضحاك عالم السر والعلانية ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك (الكبير المتعال) أي العظيم الذي كل شيء دونه المتعالي عما يقوله المشركون أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره أو المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومباينته عن خلقه وهو الاولى ثم لما ذكر سبحانه انه يعلم تلك المغيبات لا يغادر شيئا منها بين انه عالم بما يسرونه في انفسهم وما يجهرون به لغيره تعالى وان ذلك لا يتفاوت عنده فقال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) فهو يعلم ما أسره الانسان كعلمه بما جهر به من خير أو شر أي سواء ما أضمرته القلوب أو نطقت به الالسن وسر من أسر وجهر من جهر (ومن هو مستخف بالليل) أي مستتر في الظلمة الكائنة في الليل المتواري عن الاعين يقال خفي الشيء واستخفى أي استتر وتوارى (وسارب بالنهار) قال الكسائي سرب يسرب سربا وسروبا اذا ذهب وقال القتيبي أي متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم أسرب الماء قال الاصمعي خل سربه أي طريقه والسرب بالكسر النفس يقال هو واسع السرب أي رخي البال والسرب بفتحتين بيت في الارض لا منفذ له وهو الوكر وقال الزجاج معنى الآية الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه والظاهر في الطرقات والمستخفي

عظمته تعالى كما قال وكأين من آية في السموات والارض الآية وقوله قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وقال أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض وقال ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب أي العقول وقال ههنا الآيات لقوم يتقون أي عقاب الله وسخطه وعذابه (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يقول تعالى مخبرا عن حال الاشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه (٩٩) شيأ ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت اليها أنفسهم قال الحسن والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا يأتمرون بها فان مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والاجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا اخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بايمانهم يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية فتقديره أي بسبب ايمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا الى الجنة ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله يهديهم ربهم بايمانهم قال

في الظلمات علم الله فيهم جميعا سواء وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب فالمستخفي المستتر والسارب البارز الظاهر ولنعم ما قال بعضهم

يا من ترى مد البعوض جناحها * في ظلمة الليل البهيم الأليل
وترى عروق نياطها في نحرها * والمخ في ذاك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته * ما كان منه في الزمان الأول

وقيل مستخف راكب رأسه في المعاصي وسارب ظاهر بالنهار بالمعاصي وعن ابن عباس قال هو صاحب ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار أرى الناس انه بريء من الاثم (له) الضمير راجع الى من في قوله من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف أي لكل من هؤلاء (معقبات) هي المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة تعتقبه في قول عامة المفسرين قال الزجاج المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض قيل هم خمسة بالليل وخمسة بالنهار وفي الخطيب انهم عشرون لكل انسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار وهو الذي في شرح الجوهرة وانما قال معقبات مع كون الملائكة ذكورا لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ثم جمع معقبة على معقبات ذكر معناه الفراء كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر وقيل أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة قال الجوهري والتعقب العود بعد البدء قال الله تعالى ولى مدبرا ولم يعقب وقرئ معاقيب جمع معقب وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر الحديث بطوله أخرجه الشيخان وقال ابن عباس هذا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة قلت العموم أولى ويدخل فيه سبب النزول دخولا أوليا (من بين يديه ومن خلفه) أي من بين يدي من له المعقبات والمراد أن الحفظة من الملائكة يتعاقبون من جميع جوانبه وقيل المراد بالمعقبات الاعمال ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر (يحفظونه من) أجل (أمر الله) وقيل يحفظونه من بأس الله اذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب وقيل يحفظون عليه الحسنات والسيآت وقيل من شر طوارق الليل والنهار قال الفراء في هذا قولان أحدهما انه على التقديم والتأخير أي له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه والثاني ان كون الحفظة يحفظونه

يكون لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة اذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيجعل له نورا من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى يهديهم ربهم بايمانهم والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلازه حتى يقذفه في النار وروى نحوه عن قتادة مرسلا فالله أعلم وقوله دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أي هذا حال أهل الجنة قال ابن جريج أخبرت ان قوله دعواهم فيها سبحانك اللهم قال اذا مر بهم الطير يشتهونه قال وذلك دعواهم فيها سبحانك اللهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم

فيردون عليه فذلك قوله وتحيتهم فيها سلام قال فاذا آكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين
مقاتل بن حيان اذا أراد أهل الجنة ان يدعوا أحدهم بالطعام قال أحدهم سبحانك اللهم قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع
كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الاخرى قال فيأكل منهن كلهن وقال سفيان الثوري اذا أراد أحدهم ان يدعو بشئ قال
سبحانك اللهم وهذه الآية فيها شبه من قوله تحيتهم يوم يلقونه سلام الآية وقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما
وقوله سلام قولا من رب رحيم وقوله والملائكة (١٠٠) يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم الآية وقوله وآخر دعواهم أن الحمد
لله رب العالمين هذا فيه دلالة على انه تعالى هو المحمود أبدا المعبود على طول المدا ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب الى غير ذلك من الاحوال التي يطول بسطها وانه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الاحوال ولهذا جاء في الحديث ان أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وانما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا اله الا هو ولا رب سواه (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون) يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده انه لا يستجيب لهم اذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم وانه يعلم منهم عدم القصد بالشر الى ارادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه
لطفا ورحمة كما يستجيب لهم اذا دعوا لانفسهم أو لاموالهم أو لاولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال امرهم
ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم الآية أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ولكن
لا ينبغي الاكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد
حدثنا حاتم بن اسمعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حزرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها اجابة فيستجيب لكم ورواه

هو مما أمر الله به قال الزجاج المعنى حفظهم اياه من أمر الله أي مما أمرهم به لا أنهم يقدرون ان يدفعوا أمر الله قال ابن الانباري وفي هذا قول آخر وهو أن من بمعنى الباء أي يحفظونه بامر الله واعانته واستظهره السفاقسي وقيل ان من بمعنى عن أي يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله أطعمهم من جوع أي عن جوع وقيل يحفظونه عن ملائكة العذاب وقيل يحفظونه من الجن والانس فهي على بابها واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب والحراس والجلاوزة بين أيدي الامراء في حول السلطان على معنى ان ذلك لا يدفع عنه القضاء وقال ابن عباس ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله وباذن الله لانه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق ان يحفظ أحدا من أمر الله ومما قضاه الله عليه الا بأمره واذنه وعن قتادة مثله وعنه أيضا قال ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه يقول يحفظونه من أمري فاني اذا أردت بقوم سوأ فلا مرد له وقال أيضا الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم وعن خلفهم وعن شمالهم يحفظونهم من القتل ألم تسمع ان الله يقول اذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له أي اذا أراد سوأ لم تغن الحرس عنه شيأ وعن عكرمة قال هؤلاء الامراء وعن ابن عباس قال هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه وعن علي قال ليس من عبد الا ومعه ملائكة يحفظونه من ان يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يغرق أو يحرق فاذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالانسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث (ان الله لا يغير ما بقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من طاعة الله والحالة الجميلة بالحالة القبيحة والمعنى انه لا يسلب قوما نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والاعمال الصالحة أو يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها قيل وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما في الحديث انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائل فقال أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث (واذا أراد الله بقوم سوأ) أي هلاكا وعذابا (فلا مرد) أي فلا راد (له) وقيل المعنى اذا أراد بقوم سوأ أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء (وما لهم من دونه من وال) يلي

أبو داود من حديث حاتم بن اسمعيل به قال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الانصاري لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير الآية وقال مجاهد في تفسير هذه الآية ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير الآية وهو قول الانسان لولده أو ماله اذا غضب عليه اللهم لا تبارك فيه والعنه فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يخبر تعالى عن الانسان (١٠١) وضجره وقلقه كقوله واذا مسه الشر فذو دعاء عريض أي كثير وهما في معنى واحد وذلك لانه اذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله فاذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فانه مستثنى من ذلك كقوله تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء الا كان خيرا له ان اصابته ضراء فصبر كان خيرا له وان اصابته سراء فشكر كان خيرا له وليس ذلك لأحد الا للمؤمنين (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون) أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤهم به من البينات والحجج الواضحات ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل اليهم رسولا لينظر طاعتهم له واتباعهم رسوله وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت من النساء وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد أنبأنا حماد عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ان عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى

أمرهم ويلتجئون اليه فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقوبات أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله والمعنى انه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه ولما خوف سبحانه عباده بانزال ما لا مرد له أتبعه بامور ترجى من بعض الوجوه وتخاف من بعضها وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الالفاظ وأسبابها فقال (هو الذي يريكم البرق) هو لمعان يظهر من خلال السحاب وعن علي ابن أبي طالب قال البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه (خوفا وطمعا) أي لتخافوا خوفا ولتطمعوا طمعا وقيل النصب على العلة بتقدير ارادة الخوف والطمع أو على الحالية من البرق أو من المخاطبين بتقدير ذوي خوف وقيل غير ذلك مما لا حاجة اليه قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق وبالطمع هو الحاصل بالمطر وقال الزجاج الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر والطمع للحاضر لانه اذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب قال قتادة خوفا للمسافر يخاف أذاه ومشقته وطمعا للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته وعن الحسن خوفا لاهل البحر وطمعا لاهل البر وعن الضحاك قال الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع الغيث (وينشئ السحاب الثقال) التعريف للجنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة والسحاب الغيم المنسحب في الهواء والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالا بما يجعله فيها من الماء (ويسبح الرعد) نفسه متلبسا (بحمده) وليس هذا بمستبعد ولا مانع من ان ينطقه الله بذلك وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد بذلك ويكون ذكره على الانفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به والمسموع لنا منه هو نفس صوته اذا سبح التسبيح المذكور وقيل هو صوت الآلة التي يضرب بها السحاب أي الصوت الذي يتولد عند الضرب وقيل المراد ويسبح سامعو الرعد أي يقولون سبحان الله وبحمده والاول أولى أخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك وقيل والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق وقد ثبت عند أحمد والترمذي

النائم كأن سببا دلي من السماء فانتشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أعيد فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر فقال عمر دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال يا عوف رؤياك قال وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهرني قال ويحك اني كرهت ان تنعي لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فقص عليه الرؤيا حتى اذا بلغ ذرع الناس الى المنبر بهذه الثلاث الاذرع قال أما احداهن فانه كان خليفة وأما الثانية فانه لا يخاف في الله لومة لائم وأما الثالثة فانه شهيد قال فقال يقول الله تعالى ثم جعلناكم (١٠٢) خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل وأما قوله فاني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله وأما قوله شهيد فأنى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه انهم اذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله الى وضع آخر قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي أي ليس هذا الي انما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ان أتبع الا ما يوحى الي اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به أي هذا انما جئتكم به عن اذن الله لي في ذلك ومشيئته وارادته والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته انكم عاجزون عن معارضته وانكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم الى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون علي شيأ تغمصوني به ولهذا قال فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي صلى الله عليه وسلم قال هرقل لابي سفيان هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال قال أبو سفيان فقلت لا وكان أبو سفيان اذ ذاك رأس

والنسائي في اليوم والليلة والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وأخرج العقيلي وضعفه وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينشئ الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شئ أحسن من ضحكه ولا شئ أحسن من نطقه ومنطقه الرعد وضحكه البرق وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ان خزيمة بن ثابت وليس بالانصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن منشأ السحاب فقال ان ملكا موكلا يلم القاصية ويلحم الدانية بيده مخراق فاذا رفع برقت واذا زجر رعدت واذا ضرب صعقت وعن ابن عباس قال أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا اخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من ملائكة الله سبحانه موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال صوته قالوا صدقت أخرجه الترمذي وغيره وأخرج البخاري في الادب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر وابن جرير عن ابن عباس انه كان اذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له وقال ان الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه وقد روى نحو هذا عنه من طرق وعن أبي هريرة ان الرعد صوت الملك وعن ابن عمر نحوه وعن ابن عباس قال الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه فاذا اشتد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه وعن أبي عمران الجوني قال ان بحورا من نار دون العرش تكون منها الصواعق وعن السدي قال الصواعق نار (و) يسبح (الملائكة من خيفته) سبحانه أي هيبته وجلاله وقيل من خيفة الرعد وقد ذكر جماعة من المفسرين ان هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد وأن الله سبحانه جعل له أعوانا (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) من خلقه فيهلكه وسياق هذه الامور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها وهو الدلالة على كمال قدرته والصواعق جمع صاعقة وهي العذاب النازل من البرق وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شئ واحد وهذه الاشياء تنشأ منها قال الكرخي وأمر الصاعقة عجيب جدا لانها نار تتولد في السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان قال محمد بن علي الباقر الصاعقة تصيب

المسلم

الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ما شهدت به الاعداء * فقال له هرقل فقد أعرف انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة وعن سعيد بن المسيب ثلاثا وأربعين سنة والصحيح المشهور الاول (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون) يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد اجراما ممن افترى على الله كذبا وتقول على الله وزعم ان الله أرسله ولم يكن (١٠٣) كذلك فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا ومثل هذا لا يخفى أمره على الاغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالانبياء فان من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلا بد أن الله ينصب عليه من الادلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس فان الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء فمن شيم كل منهما وافعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والاسود العنسي قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل منه فلما رأيته عرفت ان وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال فكان أول ما سمعته يقول يا أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلون الجنة بسلام ولما قدم وفد ضمام ابن ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء قال الله قال ومن نصب هذه الجبال قال الله قال ومن سطح هذه الارض قال الله قال فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الارض آلله أرسلك الى الناس كلهم قال اللهم نعم ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له صدقت والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه وقال حسان بن ثابت

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي

المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم) أي الكفار المخاطبون في قوله وهو الذي يريكم البرق (يجادلون في) شأن (الله) فينكرون البعث تارة ويستعجلون بالعذاب اخرى ويكذبون الرسل ويعصون الله وقيل الضمير راجع الى من واعاد عليها الضمير جمعا باعتبار معناها ثم المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اذا أحكمت فتله والجملة مستأنفة (وهو شديد المحال) أي المماحلة والمكايدة لاعدائه من محل بفلان اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيلة ولعل أصله المحل بمعنى القحط والجملة حالية من الجلالة الكريمة ويضعف استئنافها قال ابن الاعرابي المحال المكر والمكر من الله التدبير بالحق وقال النحاس المكر من الله ايصال المكروه الى من يستحقه من حيث لا يشعر وقال الازهري المحال فعال من المحل بمعنى القوة والشدة والميم أصلية وماحلت فلانا محالا أينا أشد وقال أبو عبيدة المحال العقوبة والمكروه وقال الزجاج يقال ماحلته محالا اذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد والمحل في اللغة الشدة قال ابن قتيبة أي شديد الكيد وأصله مفعل من الحول أو الحيلة جعل الميم كميم المكان وأصله من الكون ثم يقال تمكنت فاعل على غير قياس ويعضده انه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال قال الازهري غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي أصلية واذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف وفي القاموس المحال ككتاب الكيد وروم الامر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعادلة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والاهلاك ومحل به مثلث الحاء محلا ومحالا كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة ومحالا قاواه حتى يتبين أيهما أشد انتهى وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية الاول العداوة الثاني الحول الثالث الاخذ وبه قال ابن عباس الرابع الحقد الخامس القوة السادس الغضب السابع الهلاك الثامن الحيلة (له دعوة الحق) الاضافة للملابسة أي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق والمعنى انها دعوة مجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه وقيل الحق هو الله سبحانه والمعنى ان لله سبحانه دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب وقيل المراد بدعوة الحق ههنا كلمة التوحيد والاخلاص والمعنى لله من خلقه

البصائر على أنه لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بصحيحة وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم
الحسرة والفضيحة وكم من فرق بين قوله تعالى الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم إلى آخرها وبين قول مسيلمة قبحه الله
ولعنه يا ضفدع بنت ضفدعين نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين وقوله قبحه الله لقد أنعم الله على الحبلى
إذ أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى وقوله حشره الله في نار جهنم وقوله الفيل وما أدراك ما الفيل له خرطوم طويل
وقوله أبعده الله عن رحمته والعاجنات عجنا (١٠٤) والخابزات خبزا واللاقمات لقما إهالة وسمنا إن قريشا قوم يعتدون إلى
غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ولهذا أرغم الله أنفه وشرب يوم الحديقة حتفه ومزق شمله ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين وجاؤا في دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرؤا عليه شيأ من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرؤا شيأ منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرؤا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه ويحكم أين كان يذهب بعقولكم والله إن هذا لم يخرج من إل وذكر أن عمرو ابن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقا له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المدة فقال لقد سمعت أصحابه يقرؤن سورة عظيمة قصيرة فقال وما هي
فقال والعصر إن الإنسان لفي خسر إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال وأنا قد أنزل علي مثله فقال وما هو فقال
يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو والله إنك لتعلم أني أعلم أنك لكذاب فإذا كان
هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه فكيف بأولي البصائر
والنهى وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ولهذا قال الله تعالى فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه
شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وقال في هذه الآية الكريمة فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون

أن يوحدوه ويخلصوا له وقيل معنى كونها لله تعالى أنه شرعها وأمر بها وجعلها افتتاح
الإسلام بحيث لا يقبل بدونها وقيل دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه
سواه كما قال تعالى ضل من تدعون إلا إياه وقيل الدعوة العبادة فإن عبادة الله هي الحق
والصدق (و) الآلهة (الذين يدعون) بالياء متواترة وبالتاء شاذة لا من السبعة
ولا من العشرة وعليها قرأ كباسط بالتنوين ويكون في قوله الآتي لا يستجيبون التفات
(من دونه) أي غير الله عز وجل وهم الأصنام (لا يستجيبون) أي لا يجيبون (لهم بشيء)
مما يطلبونه منهم كائنا ما كان (إلا كباسط كفيه إلى الماء) أي استجابة كاستجابة الماء
لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ولا يقدر أن يجيب
دعاءه ولا يدري أنه طلب منه (ليبلغ فاه) بارتفاعه من البئر إليه ولهذا قال (وما هو)
أي الماء (ببالغه) أي ببالغ فيه وقيل وما الفم ببالغ الماء إذ كل واحد منهما لا يبلغ
الآخر على هذه الحال وقيل وما باسط كفيه إلى الماء ببالغ الماء ذكره السمين والأول أولى
أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فيه وما الماء
ببالغه وقيل إنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه وقد ضربت
العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء وقال الفراء إن المراد بالماء ههنا ماء البئر
لأنها معدن للماء وأنه شبهه بمن مد يديه إلى البئر بغير رشاء ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن
يدعو غيره من الأصنام عن علي قال كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء
إليه وما هو ببالغه وعن ابن عباس قال هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره فمثله كمثل
الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه
(وما دعاء الكافرين) أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء والأول هو الظاهر والثاني
قول ابن عباس (إلا في ضلال) أي يضل عنهم ذلك الدعاء إذا احتاجوا إليه لأن
أصواتهم محجوبة عن الله تعالى فلا يجدون منه شيأ ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو
ضائع ذاهب (ولله يسجد من في السموات والأرض) إن كان المراد بالسجود معناه
الحقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل فذلك ظاهر في
المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن وأما في الكفار فلا يصح تأويل السجود بهذا في حقهم
فلا بد أن يحمل السجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يتناول
السجود

وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين ان تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فاخبر تعالى انها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيأ ولا يقع شئ مما يزعمون فيها (١٠٥) ولا يكون هذا أبدا ولهذا قال قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض وقال ابن جرير معناه أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الارض ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال سبحانه وتعالى عما يشركون ثم أخبر تعالى ان هذا الشرك حادث فى الناس كائن بعد ان لم يكن وانهم كلهم كانوا على دين واحد وهو الاسلام قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الاصنام والانداد والاوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وقوله ولولا كلمة سبقت من ربك الآية أى لولا ما تقدم من الله تعالى انه لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه وانه قد أجل الخلق الى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين) أى ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون لولا أنزل على محمد [آ]ية من ربه يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو ان يحول لهم الصفا ذهبا أو يزيح جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا أو نحو [ذ]لك مما الله عليه قادر ولكنه حكيم فى أفعاله وأقواله كما قال تعالى تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وكقوله وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون الآية يقول تعالى ان سنتى فى خلقى انى اذا آتيتهم ما سألوا فان آمنوا والا عاجلتهم بالعقوبة ولهذا لما خير رسول الله صلى الله

السجود بالفعل وغيره أو يفسر السجود بالانقياد لان الكفار وان لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى وجاء بمن تغليبا للعقلاء على غيرهم ولكون سجود غيرهم تبعا لسجودهم ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص فان سجود الكفار لاصنامهم معلوم ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله فى الامور التى يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت وغير ذلك وأيضا يدل على ارادة هذا المعنى قوله (طوعا وكرها) فان الكفار ينقادون كرها كما ينقاد المؤمنون طوعا وهما منتصبان على المصدرية أى انقياد طوع وانقياد كره أو على الحال أى طائعين وراضين وكارهين غير راضين وقال الفراء الآية خاصة بالمؤمنين فانهم يسجدون طوعا وبعض الكفار يسجدون اكراها بالسيف وخوفا كالمنافقين فالآية محمولة على هؤلاء وقيل الآية فى المؤمنين فمنهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود ومنهم من يثقل عليه لان التزام التكليف مشقة ولكنهم يتحملون المشقة ايمانا بالله واخلاصا له أو المراد بالسجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فيهما من ملك وأنس وجن فانهم يقرون له بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والاول أولى (وظلالهم) جمع ظل والمراد به من له ظل منهم كالانسان لا الجن ولا الملك اذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعا لصاحبه حيث صار لازما لا ينفك عنه قال الزجاج جاء فى التفسيران الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله وقال ابن الانبارى ولا يبعد ان يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيحه فظل المؤمن يسجد لله طوعا وظل الكافر يسجد لله كرها وقيل المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب الى جانب آخر وطولها تارة وقصرها أخرى بسبب ارتفاع الشمس ونزولها والاول أولى (بالغدو والآصال) أى البكر والعشايا وخصهما بالذكر لانه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر أى ويسجد ظلالهم فى هذين الوقتين وقيل لانهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والغدوة والغداة أول النهار وقيل الى نصف النهار والآصال جمع أصيل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهى ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وقد تقدم تفسير الغدو والآصال فى

عليه وسلم بين اعطائهم ماسألوا فان آمنوا والا عذبوا وبين انظارهم اختار انظارهم كما حلم عنهم غير مرة صلى الله عليه وسلم
واهذا قال تعالى ارشاد النبيه صلى الله عليه وسلم الى الجواب عما سألوا فقل انما الغيب لله أى الامر كله لله وهو يعلم العواقب
فى الامور فانتظروا انى معكم من المنتظرين أى ان كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ماسألتم فانتظروا حكم الله فى وفيكم هذا
مع انهم قد شاهدوا من آياته صلى الله عليه وسلم أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم الى القمر ليلة ابداره فانشق اثنتين فرقة من
وراء الجبل وفرقة من دونه وهذا أعظم من سائر الآيات الارضية عما سألوا ومالم يسألوا ولو علم الله منهم انهم سألوا ذلك
استرشادا وتثبتا لأجابهم ولكن
علم انهم انما يسألون عنادا وتعنتا
فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم
لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى ان
الذين حقت عليهم كلمة ربك
لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية الآية
وقوله تعالى ولو اننا نزلنا اليهم
الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا
عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا
الا ان يشاء الله الآية ولما فيهم من
المكابرة كقوله تعالى ولو فتحنا
عليهم بابا من السماء الآية وقوله
تعالى وان يروا كسفا من السماء
ساقطا الآية وقال تعالى ولو نزلنا
عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه
بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا
الا سحر مبين فمثل هؤلاء أقل من
ان يجابوا الى ماسألوا لانه لا فائدة
فى جوابهم لانه دائر على تعنتهم
وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم
ولهذا قال فانتظروا انى معكم
من المنتظرين (واذا أذقنا الناس
رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم
مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكرا
ان رسلنا يكتبون ما تمكرون هو
الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا
كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا
انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير
الحق يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) يخبر تعالى انه اذا أذاق
الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب والمطر بعد القحط ونحوه اذا لهم مكر فى آياتنا قال

الاعراف أيضا وفى معنى هذه الآية قوله سبحانه أولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيأ ظلاله
عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون قيل وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة
فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة (قل من رب
السموات والارض) أى خالقهما ومتولى أمورهما أمر الله سبحانه رسوله ان يسأل
الكفار من ربهم ما سؤال تقرير ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه فى
قوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم وقوله ولئن
سألتهم من خلقهم ليقولن الله أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يجيب فقال (قل
الله) فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه لانهم ربما (١) تلعثموا فى الجواب حذرا مما
يلزمهم ثم أمره بان يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال (قل أفاتخذتم) الاستفهام للانكار
أى اذا كان رب السموات والارض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه
عنكم بقوله قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله فما بالكم
اتخذتم لانفسكم بعد اقراركم هذا (من دونه أولياء) عاجزين (لا يملكون لانفسهم
نفعا ولا ضرا) يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع
والضر وهم لا يملكونهما لانفسهم ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلا وأمر رسوله صلى الله
عليه وآله وسلم ان يقوله لهم فقال (قل هل يستوى الاعمى) فى دينه وهو الكافر
(والبصير) فيه وهو الموحد فان الاول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه والثانى عالم بذلك
قال ابن عباس يعنى المؤمن والكافر (أم هل) أم هذه هى المنقطعة فتقدر ببل
والهمزة عند الجمهور وببل وحدها عند بعضهم وقد يتقوى بهذه الآية من يرى تقديرها
ببل فقط لوقوع هل بعدها وأجيب بان هل هنا بمعنى قد واليه ذهب جماعة وقيل
استفهامية للتقريع والتوبيخ وهو الظاهر (تستوى) قرئ بالتاء والياء والوجهان
واضحان (الظلمات) أى الكفر (والنور) أى الايمان أى كيف يكونان مستويين
وبينهما من التفاوت ما بين الاعمى والبصير وما بين الظلمات والنور ووحد النور وجمع
الظلمات لان طريق الحق واحدة لا تختلف وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة (أم) هى
المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة أى بل أ (جعلوا لله شركاء) والاستفهام لانكار الوقوع
قال ابن الانبارى معناه أجعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) أى مثل خلق الله يعنى سموات
وارضا

(١) لعثم فيه لعثمة وتلعثم تمكث وتوقف وتأنى أو نكص عنه وتبصره اه قاموس

مجاهد أستهزاء أو تكذيب كقوله واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما الآية وفى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على اثر سماء كانت من الليل أى مطر ثم قال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب وقوله قل الله أسرع مكرا أى أشد استدراجا وامهالا حتى يظن الظان من المجرمين انه ليس بمعذب وانما هو فى مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون (١٠٧) الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير ثم أخبر تعالى انه الذى يسيركم فى البر والبحر أى يحفظكم ويكلأكم بحراسته حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها أى بسرعة سيرهم رافقين فبينماهم كذلك اذ جاءتها أى تلك السفن ريح عاصف أى شديدة وجاءهم الموج من كل مكان أى اغتلم البحر عليهم وظنوا انهم أحيط بهم أى هلكوا دعوا الله مخلصين له الدين أى لا يدعون معه صنما ولا وثنا بل يفردونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا وقال هنا دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه أى هذه الحال لنكونن من الشاكرين أى لا نشرك بك أحدا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا قال الله تعالى فلما أنجاهم أى من تلك الورطة اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق أى كأن لم يكن من ذلك شئ كأن لم يدعنا الى ضر مسه ثم قال تعالى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم أى انما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم كما فى الحديث ما من ذنب أجدر من ان يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم وقوله متاع الحياة الدنيا أى انما لكم متاع الحياة الدنيا الحقيرة ثم الينا مرجعكم أى مصيركم ومآلكم فننبئكم أى فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض

وأرضا وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (وتشابه الخلق عليهم) أى فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا كله فى حيز النفى كما علمت أى ليس الامر كذلك حتى يشتبه الامر عليهم بل اذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق وسائر الشركاء لا يخلقون شيأ والمعنى انهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بانهم خلقوا كخلقه فتشابه بهذا السبب الخلق عليهم حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم بل انما جعلوا له شركاء الاصنام ونحوها بمحض سفه وجهل وهى بمعزل ان تكون كذلك لانه لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا أثر البتة ثم أمره الله سبحانه وتعالى بان يوضح لهم الحق ويرشدهم الى الصواب فقال (قل الله خالق كل شئ) كائنا ما كان ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه فلا شريك له فى العبادة قال الزجاج والمعنى انه خالق كل شئ مما يصح ان يكون مخلوقا الا ترى انه تعالى شئ وهو غير مخلوق (وهو الواحد) أى المتفرد بالربوبية مقول القول أو مستأنفة (القهار) لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب ثم ضرب سبحانه مثلا آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه فقال (أنزل من السماء ماء) مطرا يعنى من جهتها والتنكير للتكثير أو للنوعية (فسالت أودية) جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه وتنكيرها لان المطر يأتى على تناوب بين البقاع واذا نزل لا يعم جميع الارض ولا يسيل فى كل الاودية بل ينزل فى أرض دون أرض ويسيل فى واد دون واد قال أبو على الفارسى لا نعلم فاعلا جمع على أفعلة الا هذا وكأنه حمل على فعيل مثل جريب وأجربة كما ان فعيلا حمل على فاعل فجمع على افعال مثل يتيم وايتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار فى صاحب وناصر قال وفى قوله أودية توسع أى سال ماؤها قال ومعنى (بقدرها) بقدر مائها لان الاودية ما سالت بقدر أنفسها قال الواحدى والقدر مبلغ الشئ والمعنى بقدرها من الماء فان صغر الوادى قل الماء وان اتسع كثر قال ابن عباس الصغير قدر صغره والكبير قدر كبره ونحوه قال ابن جريج وقال فى الكشاف بمقدارها الذى يعرف الله انه نافع للممطور عليهم غير ضار وقيل بمقدار ملئها أى ما يملؤها كل واحد بحسبه صغرا أو كبرا والباء للملابسة قال ابن الانبارى شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر اذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر وشبه الاودية بالقلوب اذ الاودية يستكن فيها الماء كما يستكن

زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الارض بما أنزل من السماء من ماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الانعام من أب وقضب وغير ذلك حتى اذا أخذت الارض زخرفها أى زينتها الفانية وازينت أى حسنت بما خرج (١٠٨) فى رباها من زهور نضرة مختلفة الاشكال والالوان فظن أهلها الذين زرعوها وغرسوها انهم قادرون عليها أى على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك اذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا أى يابسا بعد الخضرة والنضارة كأن لم تغن بالامس أى كأنها ما كانت حسنا قبل ذلك وقال قتادة كأن لم تغن كأن لم تنعم وهكذا الامور بعد زوالها كأنها لم تكن ولهذا جاء فى الحديث يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول لا وقال تعالى كأن لم يغنوا فيها ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات أى نبين الحجج والادلة لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ونقلتها عنهم فان من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الارض فى غير ما آية من كتابه العزيز فقال فى سورة الكهف واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا وكذا فى سورة الزمر والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا وقال ابن جرير حدثنى الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام قال سمعت مروان يعنى ابن الحكم يقرأ على المنبر وظن أهلها انهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكهم الا بذنوب أهلها قال قد قرأتها وليست فى المصحف فقال عباس

القرآن والايمان فى قلوب المؤمنين (فاحتمل السيل) احتمل بمعنى حمل فافتعل بمعنى المجرد وانما نكر الاودية وعرف السيل لان المطر ينزل على المناوبة والسيل قد فهم من الفعل قبله وهو فسالت (زبدا رابيا) الزبد هو الابيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له الغثاء والرغوة وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها وقيل الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وسخ الدسم ونحوه وهو مجاز عما يعلو الماء من الغثاء والرابى العالى المرتفع فوق الماء قال الزجاج هو الطافى فوق الماء وقال غيره هو الزائد بسبب انتفاخه من ربا يربو اذا زاد والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء فانه يضمحل ويعلق بجنبات الوادى وتدفعه الرياح فكذلك يذهب الكفر ويضمحل وعن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به أخرجه البخارى ومسلم وقد تم هنا المثل الاول ثم شرع سبحانه فى ذكر المثل الثانى فقال (ومما يوقدون عليه فى النار) من لابتداء الغاية أى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبد مثله والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره هذا على قراءة التحتية واختاره أبو عبيد وقرئ بالفوقية على الخطاب والمعنى ومما توقدون عليه فى النار فيذوب من الاجسام المتطرقة الذائبة وفى المصباح وقدت النار وقدا من باب وعد ووقودا والوقود بالفتح الحطب وأوقدتها ايقادا ومنه على الاستعارة كلما أوقدوا نارا للحرب والوقد بفتحتين النار نفسها والموقد موضع الوقود (ابتغاء) أى لطلب اتخاذ (حلية) يتزينون بها ويتجملون كالذهب والفضة (أو) لطلب (متاع) آخر يتمتعون به من الاوانى والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص (زبد مثله) المراد بالزبد هنا الخبث فانه يعلو فوق ما أذيب من تلك الاجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير فى مثله يعود الى زبدا رابيا وزبد مبتدأ وخبره مما توقدون ووجه المماثلة ان كلا منهما ناش من الاكدار (كذلك) الضرب البديع (يضرب) أى يبين (الله)

ابن عبد الله بن عباس هكذا يقرأها ابن عباس فأرسلوا الى ابن عباس فقال هكذا أقرأني ابي بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير وقوله تعالى والله يدعو الى دار السلام الآية لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا اليها وسماها دار السلام أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم قال أيوب عن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قيل لي لتنم عينك وليعقل قلبك ولتسمع اذنك فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت اذني ثم قيل لي (١) سيد بنى دارا ثم صنع مأدبة (١٠٩) وأرسل داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد والله السيد والدار الاسلام والمأدبة الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلا من حديث الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال اني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال اسمع سمعت اذنك واعقل عقل قلبك انما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس الى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها رواه ابن جرير وقال قتادة حدثني خليد العصري عن أبي الدرداء مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه الشمس الا وبجنبيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم الا الثقلين يا أيها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى قال وأنزل في قوله يا أيها الناس هلموا الى ربكم والله يدعو الى دار السلام الآية رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يخبر تعالى ان لمن أحسن العمل في الدنيا بالايمان والعمل الصالح الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان وقوله وزيادة هي تضعيف ثواب الاعمال بالحسنة

(الله) المثل (الحق) أي الايمان (و) المثل (الباطل) أي الكفر فالحق هو الماء والجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به ثم شرع في تتميم المثل فقال (فاما الزبد) بقسميه (فيذهب جفاء) باطلا مرميا به يقال جفأ الوادي غثاء جفأ اذا رمى به أي يرميه الماء الى الساحل ويرميه الكير فلا ينتفع به والجفاء بمنزلة الغثاء وكذا قال أبو عمرو بن العلاء وحكى أبو عبيدة انه سمع رؤبة يقرأ جفالا قال أبو عبيدة أجفلت القدر اذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب اذا قطعته قال أبو حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لانه كان يأكل الفار والمعنى يذهب باطلا ضائعا أي ان الباطل وان علا في وقت فانه يضمحل ويذهب وقيل الجفاء المتفرق قاله ابن الانباري يقال جفأت الريح السحاب أي قطعته وفرقته ووجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الاجسام المتطرقة ان تراب الارض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدا رابيا فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الاجسام المتطرقة فان أصله من المعادن التي تنبت في الارض فيخالطها التراب فاذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثا مرتفعا فوقها (وأما ما ينفع الناس) منهما وهو الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الاجسام المذابة والذائب الخالص من الخبث (فيمكث في الارض) أي يثبت فيها ويبقى ولا يذهب أما الماء فانه يسلك في عروق الارض فينتفع الناس به وأما ما أذيب من تلك الاجسام فانه يصاغ حلية وأمتعة وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول ان الباطل وان ظهر على الحق في بعض الاحوال وعلاه فان الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الاجسام فانه وان علا عليها فان الكير يقذفه ويدفعه فهذا مثل الباطل وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الارض وكذلك الصفو من هذه الاجسام فانه يبقى خالصا لا شوب فيه وهو مثل الحق قال الزجاج فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الارض وحياة كل شيء وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لانها كلها تبقى منتفعا بها ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به وقد حكينا عن ابن الانباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن الى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلا ضربه الله

---

(١) بياض بالاصل

عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر الى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونه بعملهم بل بفضله ورحمته وقد روى تفسير الزيادة بالنظر الى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وغيرهم من السلف والخلف وقد وردت فيه (١١٠) أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن ذلك ما رواه الامام أحمد حدثنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقال اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيأ أحب اليهم من النظر اليه ولا أقر لاعينهم وهكذا رواه مسلم وجماعة من الائمة من حديث حماد بن سلمة به وقال ابن جرير أنبأنا ابن وهب أنبأنا شبيب وأبان بن أبي تميمة الهجيمي انه سمع أبا موسى الاشعري يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادي يا أهل الجنة (٣) بصوت يسمع أولهم وآخرهم ان الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الرحمن عز وجل ورواه أيضا ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي عن أبي تميمة الهجيمي به وقال ابن جرير وان أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا ابراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر الى وجه الرحمن عز وجل وقال أيضا حدثنا ابن عبد الرحيم حدثنا عمر بن أبي سلمة سمعت زهيرا عمن سمع أبا العالية حدثنا أبي بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله عز وجل ورواه ابن أبي حاتم أيضا من حديث زهير به وقوله تعالى ولا يرهق

القرآن (كذلك) الضرب العجيب (يضرب الله الامثال) في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم في الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا ثم بين سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده فقال فيمن ضرب له مثل الحق (للذين استجابوا لربهم) خبر مقدم أي أجابوا دعوته اذ دعاهم الى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه (الحسنى) مبتدأ مؤخر أي المثوبة الحسنى وهي الجنة وبه قال جمهور المفسرين وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع والاول أولى وهو قول ابن عباس وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل (والذين لم يستجيبوا له) أي لدعوته الى ما دعاهم اليه وهم الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه والموصول مبتدأ أخبر عنه بثلاثة أخبار الاول الجملة الشرطية وهي (لو أن لهم ما في الارض جميعا) من أصناف الاموال التي تملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شئ (ومثله معه) أي مثل ما في الارض جميعا كائنا معه ومنضما اليه (لافتدوا به) أي بمجموع ما ذكر وهو ما في الارض ومثله والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ثم بين سبحانه ما أعد لهم فقال (أولئك) يعني الذين لم يستجيبوا وهو خبر ثان للموصول (لهم سوء الحساب) من اضافة الصفة للموصوف أي الحساب السئ وهو ان يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شئ قال الزجاج لان كفرهم أحبط أعمالهم وقال غيره هو المناقشة فيه وفي الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) أي مرجعهم اليها (وبئس المهاد) أي المستقر الذي يستقرون فيه أو الفراش الذي يفرش لهم في جهنم والمخصوص بالذم محذوف وهو خبر ثالث للموصول المتقدم (أفمن يعلم) الهمزة للانكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ولا يؤمن به (انما أنزل اليك من ربك الحق) أي ما أنزل الله سبحانه الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن (كمن هو أعمى) فان الحال بينهما متباعد جدا كالتباعد الذي بين الماء والزبد وبين الخبيث والخالص من تلك الاجسام قيل نزلت في حمزة وأبي جهل ومع هذا فالاولى حمل الآية على العموم

(٣) قوله يا أهل الجنة بصوت الخ كذا في النسخ وحرر الرواية اهـ مصححه

وجوههم قتر أي قتار وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ولا ذلة أي هوان وصغار أي لا يحصل لهم اهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا أي نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين (والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال (١١١) الاشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وانه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك وترهقهم أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل الآية وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم الآيات وقوله ما لهم من الله من عاصم أي مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى يقول الانسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقر وقوله كأنما أغشيت وجوههم الآية اخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون وقوله تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة الآية (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) يقول تعالى ويوم نحشرهم أي أهل الارض كلهم من جن وانس وبر وفاجر كقوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ثم نقول للذين أشركوا الآية أي الزموا أنتم وهم مكانا معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى وامتازوا اليوم أيها المجرمون وقوله ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون وفي الآية الأخرى يومئذ يصدعون أي يصيرون صدعين وهذا يكون اذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك (١)

(١) بياض بالاصل

(١) يستشفع المؤمنون الى

وان كان السبب خاصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه وعن قتادة قال هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله (انما يتذكر أولوا الالباب) أي انما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أو يتعظ أهل العقول الصحيحة ثم وصفهم بالاوصاف المادحة فقال (الذين يوفون بعهد الله) أي بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم وبين العباد (ولا ينقضون الميثاق) الذي وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالايمان ونحوها وهذا تعميم بعد التخصيص لانه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها ويجوز ان يكون الامر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على ان يراد بالعهد جميع عهود الله وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده على ألسنة الرسل في الكتب الالهية ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه واذ أخذ ربك من بني آدم الآية بان يؤمنوا اذا وجدوا في الخارج ولا يكفروا قال قتادة ان الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن (والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل) ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ومنه الايمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرق بين أحد منهم ويدخل تحت ذلك صلة الارحام دخولا أوليا ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصل قرابة المؤمنين الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وافشاء السلام وعيادة المرضى ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر الى غير ذلك وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم واللفظ أوسع من ذلك أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذين يصلون الى سوء الحساب وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة (ويخشون ربهم) خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل والخشية خوف يشوبه تعظيم واجلال وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه (ويخافون

الله تعالى ان يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا وفى الحديث الآخر نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس وقال الله تعالى مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم الآية أنهم أنكروا فى هذه الآية الكريمة اخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة عبادتهم وتبرؤا منهم كقوله كلا سيكفرون بعبادتهم الآية وقوله اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وقوله ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهو عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء الآية وقوله فى هذه الآية اخبارا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند (١١٢) ادعائهم عبادتهم فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم الآية أى ما كنا نشعر بها ولا علم بها وانما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم انا ما دعوناكم الى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيأ ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون اليه وقد تركوا عبادة الحى القيوم السميع البصير القادر العليم بكل شئ وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرا بعبادته وحده لا شريك له ناهيا عن عبادة ما سواه كما قال تعالى ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله فى كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد وقوله تعالى هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت اى فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى يوم تبلى السرائر وقال تعالى ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر وقال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وقد قرأ بعضهم هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت وفسرها بعضهم بالقراءة وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم بحديث لتتبع كل امة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت الحديث وقوله وردوا الى

سوء الحساب) وهو الاستقصاء فيه والمناقشة للعبد فمن نوقش الحساب عذب ومن حق هذه الخيفة ان يحاسبوا أنفسهم قبل ان يحاسبوا (والذين صبروا) قيل مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ الماضى للتنبيه على انه ينبغى تحققه والمراد بالصبر الصبر على الاتيان بما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه وقيل على الرزايا والمصائب وقيل عن الشهوات والمعاصى والاولى حمله على العموم (ابتغاء وجه ربهم) أى ثوابه ورضاه معناه ان يكون خالصا له لا شائبة فيه لغيره كأن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل أو لاجل ان لا يعاب على الجزع أو لاجل ان لا يشمت به الاعداء (وأقاموا الصلاة) أى فعلوها فى أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه فى أذكارها وأركانها مع الخشوع والاخلاص والمراد بها الصلوات المفروضة وقيل أعم من ذلك (وأنفقوا) فى الطاعة (مما رزقناهم) أى بعضه (سرا وعلانية) المراد بالسر صدقة النفل وبالعلانية صدقة الفرض وقيل السر لمن لم يعرف بالمال ولا يتهم بترك الزكاة والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة والحمل على العموم أولى (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أى يدفعون سيئة من أساء اليهم بالاحسان اليه كما فى قوله تعالى ادفع بالتى هى أحسن أو يدفعون بالعمل الصالح السيئ فيمحوه أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف أو الظلم بالعفو أو الذنب بالتوبة أو الحرمان بالاعطاء أو القطع بالوصل أو الهرب بالانابة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور (أولئك) الموصوفون بالصفات المتقدمة (لهم عقبى الدار) العقبى مصدر كالعاقبة والاضافة على معنى فى أى العقبى المحمودة فيها قال الخطيب العقبى الانتهاء الذى يؤدى اليه الابتداء من خير أو شر والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة وقيل المراد دار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين والنار للعصاة (جنات عدن يدخلونها) أى لهم جنات عدن والعدن أصله الاقامة ثم صار علما للجنة من الجنان واسم المكان معدن مثال مجلس لان أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء أو لان الجوهر الذى خلقه الله فيه عدن به قال القشيرى وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ولكن فى صحيح البخارى وغيره اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وعن ابن مسعود قال جنات عدن بطنان الجنة أى وسطها وعن الحسن ان عمر قال لكعب ما عدن قال هو

الله مولاهم الحق أي ورجعت الامور كلها الى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وضل عنهم أي ذهب عن المشركين ما كانوا يفترون أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه (قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الآلهة فقال تعالى قل من يرزقكم (١١٣) من السماء والارض أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الارض شقا بقدرته ومشيئته فيخرج منها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا أإله مع الله فسيقولون الله أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه وقوله أمن يملك السمع والابصار أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ولو شاء لذهب بها ولسلبكم اياها كقوله تعالى قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار الآية وقال قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم الآية وقوله ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وان الآية عامة لذلك كله وقوله ومن يدبر الامر أي من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وانس وجان فقيرون اليه عبيد له خاضعون لديه فسيقولون الله اى هم يعلمون ذلك ويعترفون به فقل أفلا تتقون أي أفلا تخافون منه ان تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم وقوله فذلكم الله ربكم الحق الآية أي فهذا الذي اعترفتم بانه فاعل ذلك كله هو ربكم والهكم الحق الذي يستحق ان يفرد بالعبادة فماذا بعد الحق الا الضلال أي فكل معبود سواه باطل لا اله الا هو واحد لا شريك له فأنى تصرفون أي فكيف تصرفون عن عبادته الى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون انه الرب الذي خلق كل شئ والمتصرف في كل شئ وقوله كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا

قصر في الجنة لا يدخله الا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وأخرج ابن مردويه عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان (ومن صلح) أي آمن في الدنيا قاله مجاهد (من آبائهم) أي أصولهم وهي تشمل الآباء والامهات ومن لبيان الجنس (وأزواجهم) اللاتي متن في عصمتهم (وذرياتهم) أي ويدخلها هؤلاء الفرق الثلاث وان لم تعمل بأعمالهم تكرمة لهم قاله ابن عباس ورجحه الواحدي قال الرازي وليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وذكر الصلاح دليل على انه لا يدخل الجنة الا من كان كذلك من قرابات أولئك ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الازواج أو الذرية بدون صلاح (والملائكة يدخلون عليهم) في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات للتهنئة وقيل بل هو في أول دخولهم قاله السيوطي قال في الجمل والتقييد بهذا لم نره لغيره من المفسرين بل في كلام غيره ما يدل على عدمه (من كل باب) أي من جميع أبواب القصور والمنازل التي يسكنونها أو من كل باب من أبواب الجنة أو من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه (سلام عليكم) أي قائلين سلام عليكم فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه أي سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة وقيل دعاء لهم من الملائكة أي سلمكم الله تعالى (بما صبرتم) أي بسبب صبركم في الدنيا على الآفات وهو متعلق بالسلام أي انما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة بسبب صبركم وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر (فنعم عقبى الدار) أي نعم ما أعقبكم الله من الدنيا الجنة أخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الايمان عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم قال الله ان هؤلاء عبادي كانوا يعبدونني ولا يشركون بي شيأ وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة

الآية أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف
في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار كقوله قالوا بلى ولكن
حقت كلمة العذاب على الكافرين (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل
من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف
تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن (١١٤) لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون) وهذا إبطال لدعواهم
فيما أشركوا بالله غيره وعبدوا من الأصنام والأنداد قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقا جديدا قل الله هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له فأنى تؤفكون أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى أي أفيتبع أن يهدي لعماه وبكمه كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم أنه قال يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا وقال لقومه أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون إلى غير ذلك من الآيات وقوله فما لكم كيف
تحكمون أي ما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا وهلا عليهم
أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون
دليلا ولا برهانا وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل وذلك لا يغني عنهم شيئا إن الله عليم بما يفعلون تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى
أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب
لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا

عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وفي
القرطبي عن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل
الصبر فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فتقول إلى
أين فيقولون إلى الجنة قالوا وقبل الحساب قالوا نعم فيقولون من أنتم فيقولون نحن أهل
الصبر قالوا وما كان صبركم قالوا صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصي الله
وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا قال علي بن الحسين فتقول لهم الملائكة سلام عليكم
بما صبرتم فنعم عقبى الدار أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها وعملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي
أنتم فيه فالعقبى على هذا اسم والدار هي الدنيا وقال أبو عمران الجوني أي الجنة عن النار
بضم الجيم وعنه الجنة عن الدنيا وبالجملة فقد جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح
ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق ثم أتبع أحوال السعداء
بأحوال الأشقياء فقال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه
به من الاعتراف والقبول بقولهم بلى (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان
والرحم وغير ذلك وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض
والقطع ولم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة
لدخولها في النقض والقطع (ويفسدون في الأرض) بالكفر وارتكاب المعاصي
والإضرار بالأنفس والأموال (أولئك) الموصوفون بهذه الصفات الذميمة (لهم)
بسبب ذلك (اللعنة) أي الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه (ولهم سوء الدار) أي
سوء عاقبة دار الدنيا وهي النار أو عذاب جهنم فإنها دارهم (الله يبسط الرزق) أي
يوسعه (لمن يشاء) أي لمن كان كافرا استدراجا (ويقدر) أي ويقتره على من كان
مؤمنا ابتلاء وامتحانا وتكفيرا لذنوبه ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على
الإهانة ومعنى يقدر يضيق ومنه ومن قدر عليه رزقه أي ضيق وقيل معنى يقدر يعطي
بقدر الكفاية وقرأ السبعة يقدر بكسر الدال وهو أفصح واستعمل بالضم أيضا على ما في
المصباح ومعنى الآية أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره (وفرحوا) أي
مشركو مكة (بالحياة الدنيا) فرح بطر لا فرح سرور والفرح لذة تحصل في القلب
عند حصول المشتهى وجهلوا ما عند الله والجملة مستأنفة لبيان قبح أفعالهم مع ما وسعه

بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين) هذا بيان لاعجاز القرآن وانه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لانه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون الا من عند الله الذي لا يشبهه شئ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله أي مثل هذا القرآن لا يكون الا من عند الله ولا يشبه

هذا كلام البشر ولكن تصديق الذي بين يديه اي من الكتب المتقدمة ومهيمنا عليه ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أي وبيانا الاحكام والحلال والحرام بيانا شافيا كافيا حقا لا مرية فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحرث الاعور عن علي بن أبي طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم أي خبر عما سلف وعما يأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه وقوله أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين أي ان ادعيتم وافتريتم وشككتم في ان هذا من عند الله وقلتم كذبا وميناً ان هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله أي من جنس القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من انس وجان وهذا هو المقام الثالث في التحدي فانه تعالى تحداهم ودعاهم ان كانوا صادقين في دعواهم انه من عند محمد فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم وأخبرهم انهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم اليه فقال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثم تقاصر معهم الى عشر سور منه فقال في أول سورة هود أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ثم تنازل الى سورة فقال في هذه السورة أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبرهم انهم لا يستطيعون ذلك ابدا فقال فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار الآية

عليهم وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام قيل وفي هذه الآية تقديم وتأخير والتقدير ويفسدون في الارض وفرحوا بالحياة الدنيا والاول أولى لانه ماض وما قبله مستقبل وقيل العطف على ينقضون ولا يصح لانه يستلزم تخلل الفاصل بين أبعاض الصلة (وما الحياة الدنيا في الآخرة) أي بالنسبة اليها وفي جنبها فني هنا للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وليست ظرفا للحياة ولا للدنيا لانهما لا يكونان في الآخرة (الامتاع) أي ما هي الا شئ يستمتع به وقيل المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما وقيل المعنى شئ قليل ذاهب من متع النهار اذا ارتفع فلا بد من زوال وقيل زاد كزاد الراكب يتزودونه منها الى الآخرة وقال عبد الرحمن بن سابط كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشئ من الدقيق أو الشئ يشرب عليه اللبن وعن ابن عباس قال كان الرجل يخرج في الزمان الاول في ابله أو غنمه فيقول لاهله متعوني فيمتعونه فلقة الخبز أو التمر فهذا مثل ضربه الله للدنيا وأخرج الترمذي وصححه عن ابن مسعود قال نام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك فقال مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن المستورد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع وأشار بالسبابة (ويقول الذين كفروا) أي المشركون من أهل مكة (لولا) هلا (أنزل عليه) أي على محمد (آية) أي معجزة مثل معجزة موسى وعيسى عليهما السلام (من ربه) كالعصا واليد والناقة وقد تقدم تفسير هذا قريبا وتكرر في مواضع (قل ان الله يضل من يشاء) أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه من شاء أن يضله ضل كما ضل هؤلاء القائلون لولا أنزل عليه آية من ربه ولا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وان أنزلت كل آية فان ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء (ويهدي اليه) اى الى الحق أو الى الاسلام أو الى جنابه عز وجل (من أناب) أي رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه وأصل الانابة الدخول في نوبة الخير كذا قال النيسابوري (الذين آمنوا) منصوب على البدل من أناب

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم اليها المنتهى فى هذا الباب ولكن جاءهم من الله مالاقبل لاحد به ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأرشدهم له انقيادا كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر ان هذا الذى فعله موسى عليه السلام لا يصدر من مؤيد مسدد الا عن مرسل من الله وان هذا لا يستطاع لبشر الا باذن الله وكذلك عيسى عليه السلام بعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى باذن الله ومثل هذا لامدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف منهم انه عبد الله ورسوله ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال مامن نبي من الانبياء الا وقد أوتي من الآيات ماامن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا وقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ولما يأتهم تأويله أى ولم يحصلوا مافيه من الهدى ودين الحق الى حين تكذيبهم به جهلا وسفها كذلك كذب الذين من قبلهم أى من الامم السالفة فانظر كيف كان عاقبة الظالمين أى فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون ان يصيبكم ما أصابهم وقوله ومنهم من يؤمن به الآية أى ومن هؤلاء الذين بعثت اليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ومنهم من لا يؤمن به بل يموت على ذلك ويبعث عليه وربك أعلم بالمفسدين أى وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلالة فيضله وهو العادل الذى لا يجور بل يعطى كلا مايستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا اله الا هو

وتاو يلها

(وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وان كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم فقل لى عملى ولكم عملكم كقوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الى آخرها وقال ابراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين انا برآء منكم ومما تعبدون

والمعنى انهم هم الذين هداهم الله وأنابوا اليه أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى تسكن عن القلق والاضطراب وتستأنس بذكره سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد أو بسماع ذلك من غيرهم عبر بالمضارع لان الطمأنينة تتجدد بعد الايمان حينا بعد حين قاله الشهاب وقال الكرخي المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال فيدل اذ ذاك على الاستمرار ومنه الآية انتهى قال فى الجمل وهذا ينفع فى مواضع كثيرة وقد سمى الله سبحانه القرآن ذكرا قال وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقال انا نحن نزلنا الذكر قال الزجاج أى اذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وقيل الذكر هنا الطاعة وقيل بوعد الله وقيل بالحلف بالله فاذا حلف خصمه بالله سكن قلبه قاله السدى وقيل بذكر رحمته وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده وقال قتادة هشت اليه واستأنست به وقال مجاهد بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ولا مانع من حمل الآية على جميعها (ألا بذكر الله) وحده دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنيويات (تطمئن القلوب) والنظر فى مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وان كان يفيد طمأنينة فى الجملة لكن ليست كهذه الطمأنينة وكذلك النظر فى المعجزات من الامور التى لا يطيقها البشر فليس افادتها للطمأنينة كافادة ذكر الله فهذا وجه مايفيده هذا التركيب من القصر وأما قوله تعالى فى الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمئنان فالمعنى انهم اذا ذكروا العقوبات وجلوا واذا ذكروا المثوبات سكنوا أخرج أبو الشيخ عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه حين نزلت هذه الآية هل تدرون ما معنى ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال من أحب الله ورسوله وأحب أصحابى وأخرج ابن مردويه عن على ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت هذه الآية قال ذلك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيتى صادقا غير كاذب وأحب المؤمنين شاهدا وغائبا ألا بذكر الله يتحابون (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ خبره جملة (طوبى لهم) وجاز الابتداء بطوبى اما لانها علم لشئ بعينه واما لانها نكرة فى معنى الدعاء كسلام عليك وويل له قال أبو عبيدة والزجاج وأهل اللغة طوبى فعلى من الطيب فهو يائى وأصلها طيبى قال ابن الانبارى

من دون الله الآية وقوله ومنهم من يستمعون اليك أى يستمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والاحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والاديان والابدان وفى هذا كناية عظيمة ولكن ليس ذلك اليك ولا اليهم فانك لا تقدر على اسماع الاصم وهو الاطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء الا ان يشاء الله ومنهم من ينظر اليك أى ينظرون اليك والى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولى البصائر والنهى وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شئ كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون اليك بعين الوقار وهؤلاء (١١٧) الكفار ينظرون اليك بعين الاحتقار واذا رأوك ان يتخذونك الاهزوا الآية ثم أخبر تعالى انه لا يظلم أحدا شيأ وان كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وأضل به عن الايمان آخرين فهو الحاكم المتصرف فى حكمه بما يشاء الذى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس انفسهم يظلمون وفى الحديث عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا الى ان قال فى آخره يا عبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه رواه مسلم بطوله (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم الى عرصات القيامة ويوم يحشرهم الآية كقوله كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار وكقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وقال تعالى يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما وقال تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة الآيتين وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا فى الدار الآخرة كقوله كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون الآيتين وقوله يتعارفون بينهم أى يعرف الابناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا فى الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه فاذا نفخ

وتأويلها الحال المستطابة وقيل طوبى شجرة فى الجنة وقيل هى الجنة وقيل هى البستان بلغة الهند وقيل هى اسم الجنة بالحبشية وقيل معناه حسنى لهم وقيل خير لهم وقيل كرامة لهم وقيل غبطة لهم قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة واللام فى لهم للبيان مثل سقيا لك ورعيا لك قال الازهرى تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقيل هو مصدر من طاب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجئ على وزن فعلى ومعناه أصبت خيرا وطيبا وقيل هى شجرة فى جنة عدن تظلل الجنان كلها وقال ابن عباس طوبى لهم فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقد روى عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الاقوال والارجح تفسير الآية بما روى مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى عن عتبة بن عبد قال جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله فى الجنة فاكهة قال نعم فيها شجرة تدعى طوبى الحديث وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والخطيب فى تاريخه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان رجلا قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن آمن بى ورآنى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى فقال رجل وما طوبى قال شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وفى الباب أحاديث وآثار عن السلف وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وفى بعض الالفاظ انها شجرة الخلد وفى بعضها شجرة غرسها الله بيده (وحسن مآب) من آب اذا رجع أى ولهم حسن مرجع وهو الدار الآخرة وهى الجنة قال السدى حسن منقلب وعن الضحاك مثله (كذلك) أى مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة (أرسلناك) يا محمد ارسالا له شأن وقيل شبه الانعام على من أرسل اليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالانعام على من أرسل اليه الانبياء قبله وقيل كما هدى الله من أناب كذلك أرسلناك وقال ابن عطية الذى يظهر لى ان المعنى كما أجرينا العادة بان الله يضل ويهدى لا بالآيات المقترحة فكذلك أيضا فعلنا فى هذه الامة أرسلناك اليها بوحى لا بالآيات المقترحة وقال أبو البقاء كذلك الامر كذلك وقال الحوفى

في الصور فلا انساب بينهم الآية وقال تعالى ولا يسأل حميم حميما الآيات وقوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين
كقوله تعالى ويل للمكذبين لانهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من
فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة (واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون
ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) يقول تعالى مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم واما نرينك
بعض الذي نعدهم اي ننتقم منهم في حياتك (١١٨) لتقر عينك منهم او نتوفينك فالينا مرجعهم اي مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد
على أفعالهم بعدك وقد قال الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة ابن مكرم حدثنا ابو بكر الحنفي حدثنا داود بن الجارود عن ابي السليل عن حذيفة بن أسيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال عرضت على امتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها فقال رجل يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق فقال صوروا لي في الطين حتى اني لاعرف بالانسان منهم من أحدكم بصاحبه ورواه عن محمد بن عثمان بن ابي شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن ابي الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه وقوله ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قال مجاهد يعني يوم القيامة قضي بينهم بالقسط الآية كقوله تعالى وأشرقت الارض بنور ربها الآية فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب اعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة وهذه الامة الشريفة وان كانت آخر الامم في الخلق الا أنها أول الامم يوم القيامة يفصل بينهم
ويقضى بينهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة حتى
المقضي لهم قبل الخلائق فامته انما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه الى يوم الدين (ويقولون متى
هذا الوعد ان كنتم صادقين قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون أثم اذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به
تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين

أي كفعلنا الهداية والاضلال والاشارة بذلك الى ما وصف به نفسه من ان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وكل ذلك فيه تكلف وبعد والاول أظهر وأولى (في أمة) أي قرن (قد خلت) مضت (من قبلها) أي قبل الامة (أمم) قرون أو في جماعة من الناس كثيرة قد مضت من قبلها جماعات (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذي أوحينا اليك) أي القرآن (و) الحال ان (هم يكفرون) أو استئناف وهم عائد على أمة من حيث المعنى ولو عاد على لفظها لقيل وهي تكفر وقيل على أمة وعلى امم وقيل على الذين قالوا لولا أنزل (بالرحمن) أي بالكثير الرحمة لعباده ومن رحمته لهم ارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه وما أرسلناك الا رحمة للعالمين عن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب في الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فقال أصحابه دعنا نقاتلهم فقال لا ولكن اكتبوا كما يريدون وعن ابن جريج في هذه الآية نحوه وقيل حيث قالوا لما أمروا بالسجود له وما الرحمن كما ذكر في سورة الفرقان بقوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهذه الآية متقدمة على ما هنا في النزول وان تأخرت عنها في المصحف والتلاوة وقيل غير ذلك (قل هو ربي) مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا وما الرحمن فقال سبحانه قل يا محمد هو ربي اي الرحمن الذي أنكرتم معرفته ربي وخالقي (لا اله الا هو) اي لا يستحق العبادة له والايمان به سواه (عليه توكلت) في جميع اموري (واليه) لا الى غيره (متاب) أي توبتي قاله مجاهد وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول في الاسلام (ولو أن قرآنا سيرت به) أي بانزاله وقراءته (الجبال) عن محل استقرارها او نقلت عن أماكنها او ذهبت عن وجه الارض قيل هذا متصل بقوله لولا أنزل عليه آية من ربه وان جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يسير لهم جبال مكة حتى تتفسح فانها أرض ضيقة فأمره الله سبحانه بان يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الالهية من عدم انزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد (أو قطعت به الارض) أي صدعت وشققت

في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق اى كائنة لا محالة و واقعة وان لم تعلموا وقتها عينا ولهذا ارشد تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الى جوابهم فقال قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا الآية أي لا أقول الا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به الا ان يطلعني عليه فأنا عبده ورسوله اليكم وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وانها كائنة ولم يطلعني على وقتها ولكن لكل أمة أجل أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فاذا انقضى أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (١١٩) كقوله ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها الآية

ثم أخبر ان عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا أي ليلا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون أثم اذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون يعني انهم اذا جاءهم العذاب قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا الآية وقال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتا وتقريعا كقوله يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون

(ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق وما أنتم بمعجزين ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) يقول تعالى ويستخبرونك أحق هو أي المعاد

امة من الاجداث بعد صيرورة الاجسام ترابا قل اى و ربي انه لحق وما أنتم بمعجزين أي ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن
كم كما بدأكم من العدم فانما قوله اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن الا آيتان اخريان يأمر
الى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم وفي التغابن
ين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ثم أخبر تعالى أنه اذا قامت القيامة يود الكافر
ى من عذاب الله بملء الارض ذهبا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط أي بالحق وهم لا يظلمون (ألا ان لله

حتى صارت قطعا متفرقة من خشية الله عند قراءته وجعلت أنهارا أو عيونا (أو كلم
به الموتى) أي صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه
الاحياء وقد اختلف في جواب لو فقيل لكان هذا القرآن وقيل لكفروا بالرحمن أي لو فعل
بهم هذا وقيل لما آمنوا كما سبق في قوله وما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله وقيل التقدير
وهم يكفرون بالرحمن لو ان قرآنا الخ وكثيرا ما تحذف العرب جواب لو اذا دل عليه سياق
الكلام وتذكير كلم خاصة دون الفعلين قيل لان الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي
التغليب له فكان حذف التاء أحسن والجبال والارض ليستا كذلك قاله الكرخي
ال ابن عباس قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان كان كما تقول فأرنا أشياخنا الاول
ن الموتى نكلمهم وافسح لنا هذه الجبال فنزلت هذه الآية وعن عطية العوفي قال قالوا
مد صلى الله عليه وآله وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا
لارض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح او احييت لنا الموتى كما كان
يي عيسى الموتى لقومه فانزل الله هذه الآية (بل لله الامر جميعا) اى لو ان قرآنا
ل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء ان
منوا لآمنوا واذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات
لاضراب متوجه الى ما يؤدي اليه كون الامر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الامر
ى ما تقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على ان هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله
لم ييأس الذين آمنوا) قال الكلبي يعني ألم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح وقيل هي
هوازن وبهذا قال جماعة من السلف قال ابو عبيدة افلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج
ومجاز لان اليائس من الشيء عالم بانه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف
نسيان في الترك لتضمنهما اياهما وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين أفلم يتبين بطريق
سير فمعنى الآية على هذا أفلم يعلموا (ان) اى انه (لو يشاء الله لهدى الناس
عا) من غير ان يشاهدوا الآيات ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم
لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والمعنى انه تعالى لم يهد جميع الناس لعدم مشيئته
وقيل ان الايآس على معناه الحقيقي اى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء
فار لعلمهم ان الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لان المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي

مافي السموات والارض ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيي ويميت واليه ترجعون) يخبر تعالى انه مالك السموات والارض وان وعده حق كائن لامحالة وانه يحيي ويميت واليه مرجعهم وان القادر على ذلك العليم بما تفرق من الاجسام وتمزق في سائر أقطار الارض والبحار والقفار (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم يا أيها الناس (١٢٠) قد جاءتكم موعظة من ربكم أي زاجر عن الفواحش وشفاء لما في الصدور اى من الشبه والشكوك وهو ازالة مافيها من رجس ودنس وهدى ورحمة أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى وانما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا وقوله قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الآية وقوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فانه أولى ما يفرحون به هو خير مما يجمعون أى من حطام الدنيا ومافيها من الزهرة الفانية الذاهبة لامحالة كما قال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو سمعت أيفع ابن عبد الكلاعي يقول لما قدم خراج العراق الى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الابل فاذا هي أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى قل بفضل الله وبرحمته ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى قل بفضل الله وبرحمته الآية وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني فرواه عن أبي زرعة الدمشقي عن حيوة بن شريح عن بقية فذكره (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نزلت انكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل كقوله تعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام

اقترحها الكفار طمعا في ايمانهم قال ابن عباس لا يصنع من ذلك الاما يشاء ولم يكن ليفعل وقال ييأس يعلم وعن ابن زيد نحوه وعن ابى العالية قد يئس الذين آمنوا ان يهدوا ولو شاء لهدى الناس جميعا وفيه دلالة على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) هذا وعيد للكفار على العموم وللكفار مكة على الخصوص اى لايزال تصيبهم بسبب ماصنعوا من الكفر والتكذيب للرسل والاعمال الخبيثة داهية تفجؤهم وتهلكهم وتستأصلهم يقال قرعه الامر اذا اصابه والجمع قوارع والاصل في القرع الضرب والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية والمعنى ان الكفار لايزالون كذلك حتى تصيبهم نازلة وداهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو حرب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل ان القارعة النكبة وقيل الطلائع والسرايا قاله ابن عباس ولا يخفى ان القارعة تطلق على ماهو اعم من ذلك (أو تحل) القارعة (قريبا من دارهم) فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ماترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم وقيل ان الضمير في تحل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى أو تحل أنت يا محمد مكانا قريبا من دارهم محاصرا لهم آخذا بمخانقهم كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم لاهل الطائف والاول أبين وأظهر (حتى يأتي وعد الله) وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم فانه اذا جاء وعد الله المحتوم وحل بهم من عذابه ماهو الغاية في الشدة وقيل المراد بوعد الله هنا الاذن منه بقتال الكفار والنصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه وقال ابن عباس فتح مكة وكان في الثامنة وحج في العاشرة ولم يحج غيرها والاول أولى (ان الله لايخلف الميعاد) فما جرى به وعده فهو كائن لامحالة (ولقد استهزئ برسل) التنكير للتكثير اى برسل كثيرة (من قبلك) كما استهزئ بك وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (فامليت للذين كفروا) الاملاء الامهال مدة طويلة من الزمان في دعة وأمن وقد مر تحقيقه في آل عمران (ثم أخذتهم) في الدنيا بالعذاب الذي انزلته بهم من القحط والقتل والاسر وفي الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) الاستفهام للتقريع والتهديد اى فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤا بالرسل فامليت لهم ثم اخذتهم هل كان ظالما لهم او كان عدلا اى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك ثم استفهم سبحانه استفهاما آخر للتوبيخ والتقريع يجرى

مجرى

نصيبا الآيات وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي اسحق سمعت أبا الاحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا رث الهيئة فقال هل لك مال قلت نعم قال من أي المال قال قلت من كل المال من الابل والرقيق والخيل والغنم فقال اذا آتاك الله مالا فليرعليك وقال هل تنتج ابلك صحاحا آذانها فتعمد الى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك قال نعم قال فانما آتاك الله لك حل ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك وذكر تمام الحديث (١٢١) ثم رواه عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الاحوص وعن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير عن أبي الاحوص به وهذا حديث جيد قوي الاسناد وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والاهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة أي ماظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم الينا يوم القيامة وقوله ان الله لذو فضل على الناس قال ابن جرير في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا قلت ويحتمل ان يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم الا ماهو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ولكن أكثرهم لا يشكرون بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لانفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم وقال ابن أبي

يجري الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والازراء عليهم فقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) القائم الحفيظ والمتولي للامور وأراد سبحانه نفسه فانه المتولي لامور خلقه المدبر لاحوالهم بالآجال والارزاق واحصاء الاعمال على كل نفس من الانفس كائنة ما كانت والجواب محذوف أي أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر قال الفراء كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله والمراد من الآية انكار المماثلة بينهما وقيل المراد بالقائم الملائكة الموكلون ببني آدم والاول أولى وبه قال ابن عباس وقال عطاء الله قائم بالقسط والعدل على كل نفس (و) قد (جعلوا لله شركاء) استئناف وهو الظاهر جيء به للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم وقيل الواو للحال واقيم الظاهر مقام المضمر تقريرا للالهية وتصريحا بها وقيل عطف على استهزئ أي ولقد استهزؤا وجعلوا وقال أبو البقاء معطوف على كسبت أي وجعلهم لله شركاء والاول أولى (قل سموهم) أي عينوا حقيقتهم من أي جنس ومن أي نوع أي وما أسماؤهم وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ لانه انما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت اليه فيقال سمه ان شئت يعني انه أحقر من ان يسمى وقيل ان المعنى صفوهم وبينوا أوصافهم بما يستحقون ويستأهلون به ثم انظروا هل هي أهل لان تعبد وقيل المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون فيكون ذلك تهديدا لهم (أم تنبئونه) أي بل أتنبئون الله (بما لا يعلم في الارض) من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والارض وانما خص الارض بنفي الشريك عنها وان لم يكن له شريك في غير الارض أيضا لانهم ادعوا له شركاء في الارض (أم) أي بل أتسمونهم شركاء (بظاهر من القول) من غير ان يكون له حقيقة كتسمية الزنجي كافورا وقيل المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه فان قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاؤا بدعوى باطلة وان قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم فاذا سموا اللات والعزى ونحوهما فقل لهم ان الله لا يعلم لنفسه شريكا وقيل المعنى أم بزائل من القول باطل قاله مجاهد وقيل بكذب من القول وقيل بظن باطل لا حقيقة له في الباطن وقيل المعنى بحجة من القول ظاهرة على زعمهم قال الطيبي في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان أولها أفمن هو قائم الخ احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس

حاتم في تفسير هذه الآية حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا رباح حدثنا عبد الله ابن سليمان حدثنا موسى بن الصباح في قوله عز وجل ان الله لذو فضل على الناس قال اذا كان يوم القيامة يؤتى باهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف فيؤتى برجل من الصنف الاول فيقول عبدي لماذا عملت فيقول يارب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لاهل طاعتك فيها فاسهرت ليلي واظمأت نهاري شوقا اليها قال فيقول الله تعالى عبدي انما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك أن

أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة قال ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني فيقول عبدي لماذا عملت فيقول يارب خلقت نارا وخلقت اغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها وما أعددت لاعدائك وأهل معصيتك فيها فاسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفا منها فيقول عبدي انما عملت ذلك خوفا من ناري فاني قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك ان أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول عبدي لماذا عملت فيقول رب حبا لك وشوقا اليك وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا اليك وحبا لك فيقول (١٢٢) تبارك وتعالى عبدي انما عملت حبا لي وشوقا الي فيتجلى له الرب جل جلاله ويقول ها أنا ذا فانظر الي ثم يقول من فضلي عليك ان أعتقك من النار وأبيحك جنتي وازيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم انه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة وانه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الارض ولا أصغر منها ولا أكبر الا في كتاب مبين كقوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين فاخبر تعالى انه يعلم حركة الاشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم الآية وقال تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها الآية واذا كان هذا علمه بحركات هذه الاشياء فكيف بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ولهذا قال تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه أي اذ تأخذون في ذلك الشئ نحن مشاهدون لكم راؤن سامعون ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

الفاسد لفقد الجهة الجامعة لها ثانيها وجعلوا لله شركاء وفيه وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على انهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه ثالثها قل سموهم أي عينوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو انكار لوجودها على وجه برهاني كما تقول ان كان الذي تدعيه موجودا فسمه لان المراد بالاسم العلم رابعها أم تنبئونه بما لا يعلم احتجاج من باب نفي الشئ أعني المعلوم بنفي لازمه وهو العلم وهو كناية خامسها أم بظاهر من القول احتجاج من باب الاستدراج والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكر المعنى أتقولون بافواهكم من غير روية وأنتم ألباء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه سادسها التدريج في كل من الاضرابات على ألطف وجه وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الاساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالاعجاز وانه ليس من كلام البشر انتهى (بل) اضراب عن محاجتهم بالكلية فكأنه قيل دع ذا فانه لا فائدة فيه لانه (زين للذين كفروا) قرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على ان الذي زين لهم ذلك هو (مكرهم) وقرأ غيره على البناء للمفعول والمزين هو الله سبحانه أو الشيطان بالقاء الوسوسة ويجوز أن يسمى المكر كفرا لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان كفرا وأما معناه الحقيقي فهو الكيد أو التمويه بالاباطيل أي كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) أي صدهم الله أو صدهم الشيطان وقرئ بالبناء للفاعل أي صدوا غيرهم عن الايمان قراءتان سبعيتان وقد يستعمل صد لازما بمعنى أعرض (ومن يضلل الله) أي يجعله ضالا ويقتضي مشيئته اضلاله (فماله من هاد) يهديه الى الخير وقرأ الجمهور هاد من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة وقرئ باثباتها على اللغة القليلة وهما سبعيتان ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال (لهم عذاب في الحياة الدنيا) بما يصابون به من القتل والاسر وأنواع المحن (ولعذاب الآخرة أشق) عليهم من عذاب الحياة الدنيا وأشد واغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع (وما لهم من الله من واق) يقيهم عذابه ولا عاصم يعصمهم منه ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الاولى والاخرى ذكر ما أعده للمؤمنين فقال (مثل الجنة) أي صفتها العجيبة الشان التي هي في الغرابة كالمثل قال ابن قتيبة المثل الشبه في أصل اللغة ثم قد

الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) يخبر تعالى
ان أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم فكل من كان تقيا كان لله وليا فلا خوف عليهم أى فيما يستقبلونه من
الآخرة ولاهم يحزنون على ماوراءهم فى الدنيا وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين اذا رأوا
ذكر الله وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البزار حدثنا على بن حرب الرازى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن
عبد الله الاشعرى وهو القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير (١٢٣) عن ابن عباس قال قال رجل يارسول الله
من أولياء الله قال الذين اذا رأوا ذكر الله ثم قال البزار وقد روى عن سعيد مرسلا وقال ابن جرير حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا ابو فضيل حدثنا أبى عن عمارة ابن القعقاع عن أبى زرعة بن عمرو ابن جرير البجلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله عبادا يغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يارسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ثم رواه أيضا أبو داود من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا أيضا اسناد جيد الا انه منقطع بين أبى زرعة وعمر بن الخطاب والله أعلم وفى حديث الامام أحمد عن أبى النضر عن
عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم يتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافوا فى الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر
من نور فيجلسهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون والحديث مطول وقال الامام
أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن الاعمش عن ذكوان بن أبى صالح عن رجل عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى
صلى الله عليه وسلم فى قوله لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة قال الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وقال ابن جرير

بصير بمعنى صورة الشئ وصفته يقال مثلت لك كذا أى صورته ووصفته فاراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها وجريان الانهار من تحتها كالتفسير للمثل قال سيبويه وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقال الفراء المثل مقحم للتأكيد والمعنى الجنة (التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار) والعرب تفعل ذلك كثيرا وقال الخليل وغيره ان مثل الجنة مبتدأ والخبر تجرى وقال الزجاج انه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الانهار وقال عكرمة نعت الجنة ليس للجنة مثل وقيل ان فائدة الخبر ترجع الى قوله (أكلها) أى مايؤكل فيها (دائم) أى لاينقطع أبدا ولا يفنى ومثله قوله تعالى لامقطوعة ولاممنوعة قال ابراهيم التيمى لذاتها دائمة فى أفواههم وقيل دائم بحسب نوعه فكل شئ أكل يتجدد غيره لابحسب شخصه اذ عين المأكول لاترجع (وظلها) كذلك دائم لايتقلص ولا ينسخه الشمس لانه ليس فى الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لاينقطع ولا يزول وفى الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع وفيها دليل على ان حركات أهل الجنة لاتنتهى الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل واستدل عبد الجبار المعتزلى بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد ويرده قوله تعالى اعدت للمتقين الى غير ذلك من الآيات والاخبار الصحيحة (تلك) الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة وهو مبتدأ خبره (عقبى) أى عاقبة (الذين اتقوا) المعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) ليس لهم عاقبة ولا منتهى الا ذلك (والذين آتيناهم الكتاب) أى التوراة والانجيل (يفرحون بما أنزل اليك) يامحمد وهم أهل الكتابين مطلقا أو من أسلم منهم لكون ذلك موافقا لما فى كتبهم مصدقا له وعلى الاخير يكون المراد بقوله (ومن الاحزاب من ينكر بعضه) من لم يسلم من اليهود والنصارى وعلى الاول يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم أو يكون المراد به بعض أهل الكتابين أى من أحزابهما فانهم أنكروه لما اشتمل عليه من كونه ناسخا لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ماهو موافق لما فى الكتابين وانكار من أنكر منهم الى ماخالفهما وقيل المراد بالكتاب القرآن والمراد بمن يفرح به المسلمون والمراد بالاحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين واليهود والنصارى والمراد بالبعض الذى أنكروه ماخالف مايعتقدونه على

حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة ثم رواه ابن جرير عن سفيان عن ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر انه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما تقدم ثم قال ابن جرير حدثني المثنى (١٢٤) حدثني الحجاج بن منهال حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال سمعت أبا الدرداء سئل عن الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فذكر نحوه سواء وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي أو أحد قبلك تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن عمران القطان عن يحيى بن أبي كثير ورواه الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير به فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى عن أبي سلمة قال نبئنا عن عبادة بن الصامت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فذكره وقال ابن جرير حدثني أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الاحموسي (١) عن حميد بن عبد الله المزني قال اتى رجل عبادة بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال عبادة ما سألني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك ما سألني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن عبادة بن الصامت انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا قال الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي جزء من أربعة وأربعين جزأ أو سبعين جزأ من النبوة وقال الامام أحمد أيضا حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله

اختلاف اعتقادهم واعترض على هذا بان فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره واجيب عنه بان المراد زيادة الفرح والاستبشار بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت وقال كثير من المفسرين ان عبد الله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فانزل الله قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ففرحوا بذلك قال قتادة الذين يفرحون أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فرحوا بكتاب الله وصدقوا به وبرسله والاحزاب اليهود والنصارى والمجوس وقال ابن زيد هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب يفرحون بذلك ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والانكار للبعض صرح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره ان يقول لهم ذلك فقال (قل انما أمرت أن أعبد الله) وحده (ولا أشرك به) بوجه من الوجوه أي قل لهم يا محمد ذلك الزاما للحجة وردا للانكار انما أمرت فيما أنزل الي بعبادة الله وتوحيده وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم انكاره جميع الملل المقتدية بالرسل (اليه) أي الى الله لا الى غيره (أدعو) أو الى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده والاول أولى لقوله (واليه مآب) فان الضمير لله سبحانه أي اليه وحده لا الى غيره مرجعي يوم القيامة للجزاء قال قتادة اليه مصير كل عبد ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الاعراض عن اتباعه مع التعريض لرد ما أنكروه من اشتماله على نسخ بعض شرائعهم فقال (وكذلك) الانزال البديع (أنزلناه) أي القرآن مشتملا على اصول الشرائع وفروعها وقيل المعنى وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ولسانهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب (حكما عربيا) يريد بالحكم ما فيه من الاحكام والنقض والابرام أو أنزلناه حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ولغته ليسهل عليها فهمها وحفظها وتحكم بها بين الناس فيما يقع لهم من الحوادث الفرعية وان خالفت ما في الكتب القديمة اذ لا يجب عليك توافق الشرائع (ولئن) اللام هي الموطئة للقسم (اتبعت أهواءهم) التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه الى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه (بعد ما جاءك من العلم) الذي علمك الله اياه (مالك) ساد مسد جواب القسم والشرط (من الله) أي

(١) قوله الاحموسي كذا بالاصل الذي بأيدينا وحرر اهـ

أى من جنابه (من ولى) يلى أمرك وينصرك (ولا واق) يقيك من عذابه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريض لامته لان من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى رتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى ان الرسل الذين أرسلناهم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تزوجه بالنساء أى ان هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه فانه قد كان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فلم يقدح ذلك فى نبوته وكان لابيه داود مائة امرأة وكانوا ينكحون ويأكلون ويشربون فكيف يجعل هذا قادحا فى نبوتك وعن الحسن عن سمرة قال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن التبتل أخرجه ابن ماجه والطبرانى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وعن سعد بن هشام قال دخلت على عائشة وقلت انى أريد أن أتبتل قالت لا تفعل أما سمعت الله يقول ولقد أرسلنا رسلا الآية أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه وقد ورد فى النهى عن التبتل والترغيب فى النكاح ما هو معروف وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعة أولاد أربع اناث وثلاثة ذكور وكانوا فى الترتيب فى الولادة هكذا القاسم فزينب فرقية ففاطمة فام كلثوم فعبد الله ويلقب بالطيب والطاهر فابراهيم وكلهم من خديجة الا ابراهيم فمن مارية القبطية وماتوا جميعا فى حياته الا فاطمة فعاشت بعده ستة أشهر (وما كان) أى لم يكن (لرسول) من الرسل (ان يأتى باية) من الآيات (الا باذن الله) سبحانه فان شاء أظهر وان شاء لم يظهرها وليس ذلك الى الرسول لان الرسل مربوبون ومقهورون ومغلوبون محكوم عليهم متصرف فيهم بتدبير أمرهم (لكل أجل كتاب) اى لكل أمر مما قضاه الله أو لكل وقت من الاوقات التى قضى الله بوقوع امر فيها كتاب الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم وقال الفراء فيه تقديم وتأخير والمعنى لكل كتاب اجل اى لكل امر كتبه الله اجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه لكل نبأ مستقر وليس الامر على ارادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاؤه الله ويختاره وفيه رد لاستعجالهم الآجال والاعمار واتيان المعجزات والعذاب فقد كان

الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك عاجل بشرى المؤمن رواه مسلم وقال أحمد أيضا حدثنا حسن يعنى الاشيب حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة قال الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن من تسعة وأربعين جزأ من النبوة فمن رأى فليخبر بها ومن رأى سوى ذلك فانما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا لم يخرجوه وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب حدثنى عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لهم البشرى فى الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وقال أيضا ابن جرير حدثنى محمد ابن حاتم المؤدب حدثنا عمار بن محمد حدثنا الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم لهم البشرى فى الحياة الدنيا وهى فى الآخرة قال فى الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهى فى الآخرة الجنة ثم رواه عن أبى كريب عن أبى بكر ابن عياش عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة انه قال الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهى من المبشرات هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الحسنة هى البشرى يراها المسلم أو ترى له وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن حماد الدولابى حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وهكذا روى عن ابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة ابن الزبير ويحيى بن أبى كثير وابراهيم النخعى وعطاء بن أبى رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى

انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم وفي حديث البراء رضي الله عنه ان المؤمن اذا حضره الموت جاءه ملائكة
بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروح الطيبة الى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة
من فم السقاء وأما بشراهم في الآخرة كما قال تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون
وقال تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين
فيها ذلك هو الفوز العظيم وقوله لا تبديل (١٢٦) لكلمات الله أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت
كائن لا محالة ذلك هو الفوز العظيم
(ولا يحزنك قولهم ان العزة لله
جميعا هو السميع العليم ألا ان لله
من في السموات ومن في الارض
وما يتبع الذين يدعون من دون
الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان
هم الا يخرصون هو الذي جعل
لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار
مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم
يسمعون) يقول تعالى لرسوله
صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك قول
هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم
وتوكل عليه فان العزة لله جميعا أي
جميعها له ولرسوله وللمؤمنين هو
السميع العليم أي السميع لاقوال
عباده العليم باحوالهم ثم أخبر
تعالى ان له ملك السموات والارض
وان المشركين يعبدون الاصنام
وهي لا تملك شيأ لا ضرا ولا نفعا ولا
دليل لهم على عبادتها بل انما يتبعون
في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم
وافكهم ثم أخبر انه الذي جعل
لعباده الليل ليسكنوا فيه أي
يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم
وحركاتهم والنهار مبصرا أي
مضيئا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون أي يسمعون هذه
الحجج والادلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في
السموات وما في الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون
متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يقول تعالى منكرا على من ادعى ان له
ولدا سبحانه هو الغني أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شئ فقير اليه له ما في السموات وما في الارض أي فكيف

يخوفهم بذلك فاستعجلوه عنادا فرد الله عليهم ذلك بأن المراد بالاجل هنا ازمنة الموجودات
فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص والمراد بالكتاب صحف
الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ أو اللوح نفسه (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أي يمحو
من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه يقال محوت الكتاب محوا اذا اذهبت أثره قرئ مخففا
ومشددا وعن مجاهد قال قالت قريش حين انزل هذه الآية ما نراك يا محمد تملك من شئ
ولقد فرغ الامر فانزلت هذه الآية تخويفا لهم ووعيدا لهم اي انا ان شئنا احدثنا له من
امرنا ما شئنا ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من ارزاق الناس ومصائبهم
وما يعطيهم وما يقسم لهم وقال ابن عباس ينزل الله في كل شهر رمضان الى سماء الدنيا فيدبر
أمر السنة الى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والموت وعنه
قال هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي
يمحو والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله وقال
أيضا هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت وظاهر النظم القرآني العموم في كل
شئ مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر ويبدل
هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون والى هذا ذهب عمر بن
الخطاب وابن مسعود وابن عباس وابو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم وقيل
الآية خاصة بالسعادة والشقاوة وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة وهو ما ليس فيه ثواب
ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب وقيل يمحو ما يشاء من الرزق وقيل من الاجل
وقيل من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده
ويترك ما يشاء وقيل يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة
وقيل يمحو الآباء ويثبت الابناء وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله فمحونا آية الليل
وجعلنا آية النهار مبصرة وقيل يمحو ما يشاء من الارواح التي يقبضها حال النوم فيميت
صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده الى صاحبه وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء
منها وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة وقيل غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره والاول اولى كما
يفيده ما في قوله ما يشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله لكل اجل كتاب ومع
قوله (وعنده ام الكتاب) اي جملة الكتاب قاله ابن عباس والمعنى اصله وهو اللوح
المحفوظ

يكون له ولد مما خلق وكل شئ مملوك له عبد له ان عندكم من سلطان بهذا أي ليس عندكم دليل على ما تقولون من الكذب والبهتان أتقولون على الله ما لا تعلمون انكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم انه له ولدا بانهم لا يفلحون في الدنيا (١٢٧) ولا في الآخرة فأما في الدنيا فانهم اذا استدرجهم واملى لهم متعهم قليلا ثم يضطرهم الى عذاب غليظ ثم قال تعالى ههنا متاع في الدنيا اى مدة قريبة ثم الينا مرجعهم اى يوم القيامة ثم نذيقهم العذاب الشديد اى الموجع المؤلم بما كانوا يكفرون اى بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الافك والزور (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجرى الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه واتل عليهم اى اخبرهم واقصص عليهم اى على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك نبأ نوح اى خبره مع قومه الذين كذبوه كيف اهلكهم الله ودمرهم بالغرق اجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء ان يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم اى عظم عليكم مقامي أي فيكم بين أظهركم وتذكيري اياكم بآيات الله أي بحججه وبراهينه فعلى الله توكلت أي فاني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولا فاجمعوا أمركم وشركاءكم أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم والذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أي ولا تجعلوا امركم عليكم ملتبسا بل افصلوا حالكم معي فان كنتم تزعمون انكم محقون فاقضوا الى ولا تنظرون اى ولا تأخرون ساعة واحدة اى مهما قدرتم فافعلوا فاني

المحفوظ والام اصل الشئ والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الاصل للشئ اماله ومنه ام الرأس للدماغ وأم القرى لمكة فالمراد من الآية انه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما يقتضيه مشيئته وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله جف القلم بما هو كائن وذلك لان المحو والاثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه وقيل ان ام الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق قال ابن عباس ان لله لوحا محفوظا مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة والدفتان لوحان لله فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وعن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله ينزل في ثلاث ساعات تبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الاولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت الحديث اخرجه الطبراني وابن ابى حاتم وغيرهما واخرج الطبراني باسناد قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الشقاوة والسعادة والحياة والممات وعن ابن عباس قال لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر وقال قيس بن عباد العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء وعن عمر بن الخطاب انه قال وهو يطوف بالبيت اللهم ان كنت كتبت على شقوة أو ذنبا فامحه فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب واجعله سعادة ومغفرة وعن ابن مسعود نحوه وقيل أم الكتاب الذكر قاله ابن عباس وقد استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية وهو أن يعتقد شيأ ثم يظهر له ان الامر بخلاف ما اعتقده وقالوا انه جائز على الله وهو ظاهر الفساد لان علمه سبحانه صفة قديمة أزلية لا يتطرق اليه التغيير والتبديل والمحو والاثبات من معلوماته الازلية وليس من البداء في شئ وقد علم ما هو خالق وما خلقه وما هم يعملون (واما نرينك) ما زائدة واصله وان نرك (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك كما وعدناهم بذلك بقولنا لهم عذاب في الحياة الدنيا وبقولنا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والمراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك وجواب الشرط محذوف أي فذلك شافيك من أعدائك ودليل على صدقك (أو نتوفينك) أي أو توفيناك قبل اراءتك لذلك وجوابه أيضا محذوف أي فلا تقصير منك ولا لوم عليك وقوله (فانما عليك البلاغ)

لا ابالكم ولا اخاف منكم انكم لستم على شئ كما قال هود لقومه انى اشهد الله واشهدوا انى برئ مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم الآية وقوله فان توليتم اى كذبتم وادبرتم عن الطاعة فما سألتكم من اجر اى لم اطلب منكم على نصحى اياكم شيأ ان اجرى الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين اى وانا ممتثل ما امرت به من الاسلام لله عز وجل والاسلام هو دين الانبياء جميعا من اولهم الى آخرهم وان تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (١٢٨) قال ابن عباس سبيلا وسنة فهذا نوح يقول وامرت ان اكون من المسلمين وقال تعالى عن ابراهيم الخليل اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون وقال يوسف رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين وقالت السحرة ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وقالت بلقيس رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا وقال تعالى واذا وحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين اى من هذه الامة ولهذا قال فى الحديث الثابت عنه نحن معاشر الانبياء اولاد علات وديننا واحد اى وهو عبادة الله وحده لا شريك والمعقب له وان تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله اولاد علات وهم الاخوة من امهات شتى والاب واحد وقوله تعالى فكذبوه فنجيناه ومن معه اى على دينه فى الفلك وهى السفينة وجعلناهم خلائف اى فى الارض واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا وقوله فانظر كيف كان عاقبة المنذرين اى يا محمد كيف انجينا المؤمنين واهلكنا المكذبين (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يقول تعالى ثم بعثنا من بعد قوم نوح رسلا الى قومهم فجاؤهم

تعليل لهذا المحذوف والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ أى ليس عليك الا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الاجابة منهم لما بلغته اليهم (وعلينا الحساب) أى محاسبتهم اذا صاروا الينا يوم القيامة باعمالهم ومجازاتهم عليها وليس ذلك عليك وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم واخبار له انه قد فعل ما امره الله به وليس عليه غيره وان من لم يجب دعوته ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترى عليه من ذلك (أولم يروا) يعنى أهل مكة والاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا وفى ذلك لم يروا (انا نأتى الارض) أى أرض الكفر كمكة (ننقصها من أطرافها) بالفتوح على المسلمين منها شيأ فشيأ بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد فى أطراف المؤمنين قال الزجاج اعلم الله ان بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر يقول اولم يروا انا فتحنا على المسلمين من الارض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون وهذا قول قتادة وجماعة من المفسرين وقيل ان معنى الآية ننقصها بموت العلماء والصلحاء وقال ابن عباس موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار اهلها وعن مجاهد نحوه قال القشيرى وعلى هذا فالاطراف الاشراف وقد قال ابن الاعرابى الطرف الرجل الكريم قال القرطبى وهذا القول بعيد لان مقصود الآية انا اريناهم النقصان فى أمرهم ليعلموا ان تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز الا ان يحمل على موت احبار اليهود والنصارى قال الواحدى التفسير الاول اولى لان هذا القول وان صح فلا يليق بهذا الموضع وبه قال الرازى وقيل المراد خراب الارض المعمورة حتى يكون العمران فى ناحية منها قاله ابن عباس وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبى وعطاء وجماعة من المفسرين اى نخربها ونهلك اهلها أفلا تخافون ان يفعل بكم ذلك وقيل المراد بالآية هلاك من هلك من الامم وقيل المراد جور ولاتها حتى تنقص وقال ابن عباس نقصان أهلها وبركتها وعنه انما تنقص الانفس والثمرات واما الارض فلا تنقص (والله يحكم) ما يشاء فى خلقه فيرفع هذا ويضع هذا ويحيى هذا ويميت هذا ويغنى هذا ويفقر هذا وفى الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الشريف والعلم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى على ذى بصيرة (لا معقب لحكمه) اى لا راد لقضائه

بالبينات أي بالحجج والادلة والبراهين على صدق ماجاؤهم به فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل أي فما كانت الامم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم اياهم أول ما أرسلوا اليهم كقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم الآية وقوله كذلك نطبع على قلوب المعتدين أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم والمراد أن الله تعالى أهلك الامم المكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام فان الناس كانوا من قبله من زمان آدم (١٢٩) عليه السلام الى ان أحدث الناس عبادة الاصنام فبعث الله اليهم نوحا عليه السلام ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة أنت أول رسول بعثه الله الى أهل الارض وقال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وقال الله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح الآية وفي هذا انذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الانبياء والمرسلين فانه اذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين) يقول تعالى ثم بعثنا من بعد تلك الرسل موسى وهرون الى فرعون وملئه أي قومه بآياتنا أي بحججنا وبراهيننا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين أي استكبروا عن اتباع الحق وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون ان ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا الآية قال لهم موسى منكرا عليهم أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا أي تثنينا عما وجدنا عليه آباءنا أي الذي كانوا عليه وتكون لكما أي لك ولهارون الكبرياء أي العظمة والرياسة في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى مع فرعون

والمعقب الذي يكر على الشئ فيبطله وحقيقته الذي يقفيه بالرد والابطال قال الفراء معناه لاراد لحكمه قال والمعقب الذي يتبع الشئ فيستدركه ولا يستدرك أحد عليه ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يتعقب غريمه بالطلب يعني انه حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره ومحل لا مع المنفي النصب على الحال أي يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب أحد حكمه سبحانه بنقض ولا تغيير قال ابن زيد ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده (وهو سريع الحساب) أي الانتقام فيحاسبهم بعد زمن قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل وأخرجهم من ديارهم في الدنيا فلا تستبطئ عقابهم فانه آت لا محالة وكل آت قريب وقد تقدم الكلام في معناه قبل هذا والمعنى فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته على السرعة (وقد مكر الذين من قبلهم) أي قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله اليهم من الرسل فكادوهم وكفروا بهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان الممكور به من حيث لا يشعر مثل مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى ويهود بعيسى وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أخبره ان هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ولا تأثير له وأن المكر كله لله لا اعتداد بمكر غيره فقال (فلله المكر جميعا) يعني عند الله جزاء مكرهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمان له من مكرهم وقال الواحدي يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى أن المكر لا يضر الا باذنه وارادته فاثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال (يعلم ما تكسب كل نفس) من خير وشر فيجازيها على ذلك ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له لانه يأتيهم من حيث لا يشعرون (وسيعلم الكفار) جميعهم وقرئ الكافر على التوحيد أي جنس الكافر وقيل المراد بالكافر أبو جهل (لمن عقبى الدار) أي العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا أو في دار الآخرة أو فيهما (ويقول الذين كفروا) أي المشركون أو جميع الكفار خطابا وشفاها لك (لست يا محمد (مرسلا) الى الناس من عند الله فامره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال (قل

فى كتابه العزيز لانها من أعجب القصص فانه حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربى الذى يحذره على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بينهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه اليه ليدعوه الى الله تعالى ليعبده ويرجع اليه هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هرون عليه السلام فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية والنفس الخبيثة الابية وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ماليس له وتجرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الايمان (١٣٠) من بنى اسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هرون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التى لا تنام ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يد موسى شيأ بعد شئ أو مرة بعد مرة مما يبهر العقول ويدهش الالباب مما لا يقوم له شئ ولا يأتى به الا من هو مؤيد من الله وما تأتيهم من آية الا هى أكبر من أختها وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد وأغرقهم فى صبيحة واحدة فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ذكر سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام فى سورة الاعراف وقد تقدم الكلام عليها هنالك وفى هذه السورة وفى سورة طه وفى الشعراء وذلك ان فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين بزخارف السحرة والمشعبذين فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك المرام وظهرت البراهين الالهية فى ذلك المحفل العام وأتى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون فظن فرعون انه ينتصر بالسحار على رسول عالم الاسرار فخاب وخسر الجنة واستوجب النار وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون وانما قال لهم ذلك لانهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فأراد موسى ان تكون البداءة منهم ليرى الناس

كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) فهو يعلم صحة رسالتى وصدق دعواى ويعلم كذبكم (و) كذا يعلم ذلك (من عنده علم الكتاب) أى علم جنس الكتاب السماوى كالتوراة والانجيل فان أهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وكعب الاحبار وتميم الدارى ونحوهم وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون اليهم فأرشدهم الله سبحانه فى هذه الآية الى ان أهل الكتاب يعلمون ذلك وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون فانهم يشهدون أيضا على نبوته أو المراد من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه قاله مجاهد وبه قال الحسن ومثله عن ابن عمر بسند ضعيف واختار هذا الزجاج وقال لان الاشبه ان الله لا يستشهد على خلقه بغيره عن جندب قال جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتى باب المسجد ثم قال أنشدكم بالله أتعلمون انى الذى أنزلت فيه ومن عنده علم الكتاب قالوا اللهم نعم وعن ابن عباس هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشهدون بالحق ويعرفونه منهم ابن سلام والجارود وعن الشعبى ما نزل فى ابن سلام شئ من القرآن وعن سعيد بن جبير أنه سئل عن الآية أهو ابن سلام فقال كيف وهذه السورة مكية وعبد الله أسلم بالمدينة وعنه قال هو جبريل وهذه السورة مدارها كما فى الكشف على حقية الكتاب المجيد واشتماله على ما فيه صلاح الدارين وأن السعيد من تمسك بحبله والشقى من أعرض عنه الى آخر ما فصله وهنا أقول ما قاله الخفاجى اللهم اجعلنا ممن تمسك بعروته الوثقى واهتدى بهداه حتى لا يضل ولا يشقى ببركة من أنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقول يا بركة النبى تعالى وانزلى ثم لا ترتحلى

(سورة ابراهيم عليه السلام)

هى مكية قاله ابن عباس والزبير والحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة الا آيتين منها وقيل الا ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى قوله فان مصيركم الى النار وعن ابن عباس قال هى مكية سوى آيتين منها نزلتا فى قتلى بدر من المشركين وهى اثنتان وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) قد تقدم الكلام فى امثال هذا وبيان قول من قال انه متشابه وبيان قول من قال

ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فعند ذلك قال موسى لما ألقوا ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون وقال ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن عمار بن الحرث حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث وهو ابن أبي سليم قال بلغني ان هؤلاء الآيات شفاء من السحر (١٣١) باذن الله تعالى تقرأ في اناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون والآية الاخرى فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون الى آخر أربع آيات وقوله انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى رواه ابن أبي حاتم (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين) يخبر تعالى انه لم يؤمن مع موسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات الا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه وملئه أن يردوهم الى ما كانوا عليه من الكفر لان فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا قال العوفي عن ابن عباس فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم قال فان الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني اسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله فما آمن لموسى الا ذرية من قومه يقول بني اسرائيل وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل وقال مجاهد في قوله الا ذرية من قومه قال هم أولاد الذين أرسل اليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية انها من بني اسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين وفي هذا نظر لانه أراد بالذرية الاحداث والشباب

انه غير متشابه (كتاب) خبر مبتدأ محذوف أي هذا القرآن (أنزلناه اليك) يا محمد (لتخرج الناس) بدعائك اياهم الى اتباع ما تضمنه الكتاب من التوحيد وغيره واللام في لتخرج للغرض والغاية والتعريف في الناس للجنس والمعنى انه صلى الله عليه وآله وسلم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه (من الظلمات) أي من ظلمات الكفر والجهل والضلالة (الى) ما صاروا اليه من (النور) أي نور الايمان والعلم والهداية قال الرازي فيه دليل على ان طريق الكفر والبدعة كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه عبر عنها بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الحق بالنور وهو لفظ مفرد جعل الكفر بمنزلة الظلمات والايمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة وقيل ان الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة وقيل من الشك الى اليقين ولا مانع من ارادة جميع هذه الامور وأسند الفعل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانه الداعي والهادي والمنذر (باذن ربهم) أي بأمره وعلمه وتيسيره وتسهيله قال الزجاج أي بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم الى الايمان (الى صراط العزيز الحميد) بدل من قوله الى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيرا أي لتخرج الناس من الظلمات الى صراط العزيز الحميد وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بالمصير اليها والدخول فيها ويجوز أن يكون مستأنفا كأنه قيل ما هذا النور الذي أخرجهم اليه فقيل صراط العزيز الحميد لانه نور في نفسه طريق للخلود في الجنة المؤبد واضافة الصراط الى الله تعالى لانه المظهر له وأفهم بتخصيص الوصفين انه لا يزل سالكه ولا يخيب قاصده والعزيز هو القادر الغالب الغني عن جميع الحاجات والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد (الله الذي له ما في السموات وما في الارض) قرأ الجمهور بالجر على انه عطف بيان لكونه من الاعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لان العلم لا يوصف به وقيل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أي هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقا وملكا وعبيدا وكان يعقوب اذا وقف على الحميد رفع واذا وصل خفض قال ابن الانباري من خفض وقف على وما في الارض ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) معذ لهم في الآخرة وقد تقدم بيان معنى الويل

وانهم من بني اسرائيل فالمعروف ان بني اسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وان الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيأ ولما جاءهم موسى آذاهم فرعون أشد الأذى وقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون واذا تقرر هذا فكيف يكون المراد الاذرية من قوم موسى وهم بنو اسرائيل على خوف من فرعون وملئهم (١٣٢) أي واشراف قومه أن يفتنهم ولم يكن في بني اسرائيل من يخاف منه أن يفتتن عن الايمان سوى قارون فانه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاويا الى فرعون متصلا به متعلقا بحباله ومن قال ان الضمير في قوله وملئهم عائد الى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه اوبحذف آل فرعون واقامة المضاف اليه مقامه فقد أبعد وان كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة ومما يدل على انه لم يكن في بني اسرائيل الا مؤمن قوله تعالى (وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يقول تعالى مخبرا عن موسى انه قال لبني اسرائيل يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين أي فان الله كاف من توكل عليه أليس الله بكاف عبده ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى فاعبده وتوكل عليه قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وأمر الله تعالى المؤمنين ان يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة من

اياك نعبد واياك نستعين وقد امتثل بنو اسرائيل ذلك فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا انهم انما سلطوا لانهم على الحق ونحن على الباطل فيفتتنوا بذلك هكذا روى عن أبي مجلز وأبي الضحى وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتتنوا بنا وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين

وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع للدلالة على الثبات قال الزجاج هي كلمة تقال للعذاب والهلكة فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور الايمان قيل والويل هو نقيض الوأل أي النجاة وقيل الويل واد في جهنم ومن بيانية وقيل الويل بمعنى التأوه وفي للتعدية أي يولولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه قائلين ياويلاه ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا) أي يؤثرونها لمحبتهم لها (على الآخرة) الدائمة والنعيم الابدي (ويصدون) أي يصرفون الناس (عن سبيل الله) أي عن دينه الذي شرعه لعباده (ويبغونها) أي السبيل (عوجا) أي يطلبون لها زيغا وميلا وعدولا وانحرافا عن الحق لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم واغراضهم وقيل الهاء راجعة الى الدنيا أي يطلبونها على سبيل الميل عن الحق والميل الى الحرام والعوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الاعيان وقد سبق تحقيقه واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال (أولئك) يعني من هذه صفته (في ضلال بعيد) عن طريق الحق أي بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية أو ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال قد يضل ويبعد عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا والبعد وان كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازا لقصد المبالغة كجد جده وداهية دهياء ثم لما من على المكلفين بانزال الكتاب وارسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة ان ذلك المرسل بلسان قومه فقال (وما أرسلنا من رسول الا) متلبسا (بلسان قومه) متكلما بلغتهم لانه اذا كان كذلك فهم عنه المرسل اليهم ما يقوله لهم ويدعوهم اليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فانهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرا طويلا ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله (ليبين) أي ليوضح (لهم) ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لان المراد بها اللغة عن ابن عباس ان الله فضل محمدا على أهل السماء وعلى الانبياء قيل ما فضله على أهل السماء قال ان الله قال لاهل السماء ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فكتب له براءة

لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله ونجنا أي خلصنا برحمة منك وإحسان من القوم الكافرين أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) يذكر تعالى سبب انجائه بني اسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك ان الله تعالى أمر موسى وأخاه هرون عليهما السلام ان يتبوآ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتا واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فقال الثوري وغيره عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (١٣٣) واجعلوا بيوتكم قبلة قال أمروا ان يتخذوها مساجد وقال الثوري أيضا عن ابن منصور عن ابراهيم واجعلوا بيوتكم قبلة قال كانوا خائفين فأمروا ان يصلوا في بيوتهم وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد ابن أسلم وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى أخرجه أبو داود ولهذا قال تعالى في هذه الآية واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين أي بالثواب والنصر القريب وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع ان نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم ان يصلوا في بيوتهم وأمروا ان يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقال مجاهد واجعلوا بيوتكم قبلة قال لما خاف بنو اسرائيل من فرعون ان يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا ان يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير واجعلوا بيوتكم قبلة أي يقابل بعضها بعضا (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) هذا اخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا

من النار قيل فما فضله على الانبياء قال ان الله يقول وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أرسلناك الا كافة للناس فأرسله الى الانس والجن وقال عثمان بن عفان نزل القرآن بلسان قريش وعن مجاهد مثله وقد قيل في هذه الآية اشكال لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل الى الناس جميعا بل الى الجن والانس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بانه صلى الله عليه وآله وسلم وان كان مرسلا الى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب اليه كان ارساله بلسانهم أولى من ارساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهما له كفهمهم اياه ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل قوم بلسانه لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها وربما كان ذلك أيضا مفضيا الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون قال في الجمل والاولى ان يحمل القوم على من أرسل اليهم الرسول أيا كان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة اليه كل من أرسل اليه من سائر القبائل وأصناف الخلق وهو صلى الله عليه وآله وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم وان لم يثبت انه تكلم باللغة التركية لانه لم يتفق انه خاطب أحدا من أهلها ولو خاطبه لكلمه بها تأمل انتهى (فيضل الله من يشاء) اضلاله فيه التفات عن التكلم الى الغيبة (ويهدي من يشاء) هدايته والجملة مستأنفة قال الفراء اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فان لم يكن النسق مشاكلا للاول فالرفع على الاستئناف هو الوجه يعني لا يجوز نصبه عطفا على ما قبله لان المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى والرسل أرسلت للبيان لا للاضلال وقال الزجاج لو قرئ بنصبه على ان اللام لام العاقبة جاز والمعنى على الاول وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها ومع ذلك فان المضل والهادي هو الله عز وجل والبيان لا يوجب حصول الهداية الا اذا جعله الله سبحانه واسطة وسببا وتقديم الاضلال على الهداية لانه متقدم عليها اذ هو ابقاء على الاصل والهداية انشاء ما لم يكن (وهو العزيز) الذي لا يغالبه مغالب في ملكه (الحكيم) الذي تجري أفعاله على مقتضى الحكمة في صنعه ثم لما بين ان المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم هو

وتكبروا وعتوا قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة أى من أثاث الدنيا ومتاعها وأموالا أى جزيلة كثيرة فى هذه الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك بفتح الياء أى أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتنى به اليهم استدراجا منك لهم كقوله تعالى لنفتنهم فيه وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته انك انما أعطيتهم هذا لحبك اياهم واعتنائك بهم ربنا اطمس على أموالهم قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة بلغنا ان زروعهم تحولت حجارة وقال محمد بن كعب القرظى جعل سكرهم حجارة وقال ابن أبى حاتم حدثنا اسمعيل بن أبى الحرث حدثنا يحيى بن أبى بكير عن أبى معشر حدثنى محمد بن قيس ان محمد ابن كعب قرأ سورة يونس على عمر ابن عبد العزيز وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا الى قوله ربنا اطمس على أموالهم الآية فقال عمر يا أبا حمزة أى شئ الطمس قال عادت أموالهم كلها حجارة فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له ائتنى بكيس فاذا فيه حمص وبيض قد قطع قد حول حجارة وقوله واشدد على قلوبهم قال ابن عباس أى اطبع عليها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له انه لا خير فيهم ولا يجئ منهم شئ كما دعا نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه سامه الدعوة التى أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى قد أجيبت دعوتكما قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هرون أى قد أجبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون وقد يحتج بهذه الآية من يقول ان تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمن وقال تعالى قد أجيبت دعوتكما فاستقيما أى على أمرى قال ابن جريج عن ابن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى وهى الاستقامة قال ابن جريج يقولون ان فرعون مكث

اخراج الناس من الظلمات الى النور أراد أن يبين ان الغرض من ارسال الانبياء لم يكن الا ذلك وخص موسى بالذكر لان أمته أكثر الامم المتقدمة على هذه الامة المحمدية فقال (ولقد أرسلنا موسى) متلبسا (بآياتنا) التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات قاله مجاهد وعطاء وعبيد ابن عمير (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) المعنى قلنا لموسى اخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج بنى اسرائيل بعد ملك فرعون من الكفر أو الجهل الذى قالوا بسببه اجعل لنا الها كما لهم آلهة الى الايمان أو العلم (وذكرهم بأيام الله) أى بوقائعه قال ابن السكيت العرب تقول الايام فى معنى الوقائع يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعها وقال الزجاج بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وأخرج النسائى والبيهقى وغيرهما عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ذكرهم بنعم الله وآلائه وبه قال ابن عباس وقال الربيع بوقائع فى القرون الاولى ويترجح تفسير أيام الله ببلائه ونعمه وفى تفسير ابن جرير بأيام الله أى بأنواع عقوباته الفائضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وفى القاموس وأيام الله نعمه ويوم أيوم شديد وآخر يوم فى الشهر وفى المختار وربما عبروا عن الشدة باليوم (ان فى ذلك) التذكير بأيام الله أو فى نفس أيام الله (لآيات) أى لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة (لكل صبار) كثير الصبر على المحن والمنح (شكور) كثير الشكر للنعم التى أنعم الله بها عليه لانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر وقيل المراد بذلك كل مؤمن وعبر عنه بالوصفين لانهما ملاك الايمان وعنوان المؤمن وقدم الصبار على الشكور لكون الشكر عاقبة الصبر قال قتادة فى الآية نعم العبد عبد اذا ابتلى صبر واذا أعطى شكر وانما خص الصبار والشكور وان كان فيها عبرة للكافة لانهم المنتفعون بها دون غيرهم (واذ قال موسى) أى اذكر وقت قول موسى (لقومه) والمعنى اذكر يا محمد لقومك ما ذكر لعلهم يعتبرون (اذكروا نعمة الله) أى انعامه (عليكم اذ أنجاكم) أى وقت انجائه لكم (من آل فرعون يسومونكم) أى يبغونكم يقال

بعد هذه الدعوة أربعين سنة وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين أربعين يوما (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا الغافلون) يذكر تعالى كيفية اغراقه فرعون وجنوده فان بني اسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا فخرجوا به (١٣٥) معهم فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون وذلك انهم انتهوا الى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق الا ان يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف الخلاص مما نحن فيه فيقول اني أمرت ان أسلك ههنا كلا ان معي ربي سيهدين فعند ما ضاق الامر اتسع فأمره الله تعالى ان يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقا لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا وجاوزت بنو اسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده الى حافته من الناحية الاخرى وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الالوان فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيهات ولات حين مناص نفذ القدر واستجيب الدعوة وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل فمر الى جانب حصان فرعون فحمحم اليها واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيأ فتجلد لأمرائه وقال لهم ليس بنو اسرائيل بأحق بالبحر منا فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدا الا ألحقه بهم فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد

سامه ظلما أي أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب في طلب الشئ (سوء العذاب) مصدر ساء يسوء والمراد جنس العذاب السيئ وهو استعبادهم واستعمالهم في الاعمال الشاقة (ويذبحون أبناءكم) المولودين لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون وعطف يذبحون على يسومونكم سوء العذاب وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ومع طرح الواو كما في الآية الاخرى يكون التذبيح تفسيرا لسوء العذاب (ويستحيون نساءكم) أي يتركونهن في الحياة لاهانتهن واذلالهن ولذلك عد من جملة البلاء وزاد الكرخي كانوا يستخدمونهن بالاستعباد ويفردونهن عن الازواج وذلك من أعظم المضار (وفي ذلكم) أي في انجائكم أو في أفعالهم المذكورة (بلاء) أي ابتلاء لكم بالتنعم أو بالعذاب فالله تعالى يختبر عباده تارة بالنعم وتارة بالشدائد كما قال وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (من ربكم عظيم) وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة مستوفى (واذ تأذن) بمعنى اذن قاله الفراء قال في الكشاف ولابد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل واذ آذن (ربكم) ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم وأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول انتهى وهذا من قول موسى لقومه أي واذكروا حين تأذن ربكم وقيل هو من قول الله سبحانه أي اذكر يا محمد اذ تأذن ربكم وقرئ واذ قال ربكم والمعنى واحد كما تقدم واللام في (لئن شكرتم) هي الموطئة للقسم والخطاب لبني اسرائيل وقوله (لأزيدنكم) ساد مسد جوابي الشرط والقسم والمعنى لئن شكرتم انعامي عليكم بما ذكر وما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح لأزيدنكم نعمة الى نعمة تفضلا مني وقيل من طاعتي قاله الحسن وقيل من الثواب والاول أظهر فالشكر سبب المزيد قال الربيع أخبرهم موسى عن ربه انهم ان شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم وقال سفيان الثوري في الآية لا تذهب أنفسكم الى الدنيا فانها أهون عند الله من ذلك ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي (ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) لمن كفر نعمتي فلابد ان يصيبكم منه ما يصيب وهو ساد مسد الجوابين أيضا وقيل الجواب محذوف أي ولئن

وجعلت الامواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت الامواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين فآمن حيث لا ينفعه الايمان فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال الآن وقد عصيت قبل أي أهذا الوقت تقول وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه وكنت من المفسدين أي في الارض الذين أضلوا الناس (١٣٦) وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال فرعون آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل قال قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة ان تناله الرحمة ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به وقال الترمذي حديث حسن وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضا وابن جرير أيضا من غير وجه عن شعبة به فذكر مثله وقال الترمذي حسن غريب صحيح ووقع في رواية عند ابن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدي عن سعيد عن ابن عباس رفعه أحدهما وكأن الآخر لم يرفع فالله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل قال فخاف جبريل ان تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه وكذا رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن ابن أبي خالد به موقوفا وقد روي من

كفرتم ذلك وجحدتموه ولأعذبنكم دل عليه ان عذابي لشديد وانما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد لان من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الاكرمين (وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا) أي وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها وجواب الشرط محذوف أي فما أضررتم بالكفر الا أنفسكم حيث حرمتموها من مزيد الانعام وعرضتموها للعذاب الشديد (فان الله) سبحانه (لغني) عن شكركم لا يحتاج اليه ولا يلحقه بذلك نقص (حميد) أي مستوجب للحمد لذاته لكثرة انعامه وان لم تشكروه أو يحمده غيركم من الملائكة وتنطق بنعمه ذرات الكائنات ولعله عليه السلام انما قال هذا عندما عاين منهم دلائل العناد ومخائل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن انه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب، أخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختارة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ألهم خمسة لم يحرم خمسة وفيها من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة وعن أبي هريرة مرفوعا من أعطي الشكر لم يمنع الزيادة أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء الشكر فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه ومن شكر الله على ما أقدره عليه من طاعته زاد من طاعته ومن شكره على ما أنعم عليه من الصحة زاده الله صحة الى غير ذلك (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) استفهام تقرير يحتمل ان يكون هذا خطابا من موسى لقومه فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطابا لقوم موسى وتذكيرا لهم بالقرون الاولى واخبارهم ومجيء رسل الله اليهم ويحتمل انه ابتداء خطاب من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم تحذيرا لهم عن مخالفته والنبأ الخبر والجمع الانباء (قوم نوح وعاد وثمود) بدل من الموصول أو عطف بيان (والذين من بعدهم) أي من بعد هؤلاء الامم الماضية الثلاثة (لا يعلمهم) أي لا يحصي عددهم ومقاديرهم ولا يحيط بهم علما (الا الله) سبحانه والجملة معترضة وعدم العلم من غير الله اما ان يكون راجعا الى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي هذه الامور لا يعلمها الا الله ولا يعلمها غيره أو يكون راجعا الى ذواتهم أي انه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم الا الله سبحانه ولم يبلغنا خبرهم أصلا وعن ابن

حديث أبي هريرة أيضا فقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام عن عنبسة هو ابن أبي سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة ان تدركه رحمة الله فيغفر له يعني فرعون كثير بن زاذان هذا قال ابن معين لا أعرفه وقال أبو زرعة وأبو حاتم مجهول وباقي رجاله ثقات وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قتادة وابراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الضحاك بن قيس انه خطب بهذا الناس فالله أعلم وقوله فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية (١٣٧) قال ابن عباس وغيره من السلف ان بعض بني اسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الارض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى فاليوم ننجيك أي نرفعك على نشز من الارض ببدنك قال مجاهد بجسدك وقال الحسن بجسم لا روح فيه وقال عبد الله ابن شداد سويا صحيحا أي لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه وقال أبو صخر بدرعك وكل هذه الاقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم وقوله لتكون لمن خلفك آية أي لتكون لبني اسرائيل دليلا على موتك وهلاكك وان الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وانه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم لتكون لمن خلقك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها وقد كان اهلاكهم يوم عاشوراء كما قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه أنتم أحق بموسى منهم فصوموه (ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يخبر تعالى عما أنعم به على بني اسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله مبوأ صدق قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فان الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال الله

مسعود أنه كان يقرأ والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ويقول كذب النسابون وعن عمرو ابن ميمون مثله وعن أبي مجلز قال قال رجل لعلي بن أبي طالب أنا أنسب الناس قال انك لا تنسب الناس فقال بلى فقال له علي أرأيت قوله عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا قال أنا أنسب ذلك الكثير قال أرأيت قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله فسكت وعن عروة بن الزبير قال ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معد بن عدنان وعن ابن عباس قال ما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي المعجزات الظاهرة والدلالات الباهرة والشرائع الواضحة مستأنف وهذا في المعنى تفسير لنبأ الذين من قبلهم (فردوا أيديهم) أي جعلوا أيدي أنفسهم (في أفواههم) ليعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى عضوا عليكم الأنامل من الغيظ لان الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم وقيل ان المعنى انهم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي اسكتوا واتركوا هذا الذي جئتم به تكذيبا لهم وردا لقولهم وقيل المعنى انهم أشاروا الى ألسنتهم وما يصدر عنها من قولهم انا كفرنا بما أرسلتم به أي لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بألسنتنا هذه قيل وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجبا كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه وقيل المعنى ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم فالضمير الاول للرسل والثاني للكفار وقيل جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردا لقولهم فالضمير الاول على هذا للكفار والثاني للرسل وقيل معناه أومؤا الى الرسل أن اسكتوا وقيل أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم والمراد بهما على هذا هاتان الجارحتان المعلومتان وقيل ان الايدي هنا النعم أي ردوا نعم الرسل بأفواههم أي بالنطق والتكذيب والمراد بالنعم هنا ما جاؤهم به من الشرائع وقال أبو عبيدة ونعم ما قال هو ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا والعرب تقول للرجل اذا أمسك عن الجواب وسكت قد رد يده في فيه وهكذا قال الاخفش واعترض على ذلك القتيبي فقال لم يسمع أحد من العرب يقول رد يده في فيه اذا ترك ما أمر به وانما المعنى عضوا على الايدي حنقا وغيظا وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الاقوال وبه قال ابن مسعود وهو أقرب التفاسير للآية ان لم يصح عن العرب ما ذكره الاخفش وأبو عبيدة فان صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب (وقالوا)

أي الكفار للرسل (انا كفرنا بما أرسلتم به) من البينات على زعمكم (وانا لفي شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله وحده وترك ما سواه (مريب) أي موجب للريب يقال أربته اذا فعلت أمرا أوجب ريبة وشكا والريب قلق النفس وعدم سكونها وأن لا تطمئن الى شيء وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا أمرهم على الشك وأجيب بانهم أرادوا انا كافرون برسالتكم وان نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوتكم ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم وقيل كانوا فرقتين احداهما جزمت بالكفر والاخرى شكت وقيل ان كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد فلا تخالف (قالت رسلهم) جملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت لهم الرسل فأجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أفي الله شك) والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار أي أفي وحدانيته سبحانه شك وهي في غاية الوضوح والجلاء ثم ان الرسل ذكروا بعد انكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الانكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا (فاطر السموات والارض) أي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما وما فيهما بعد العدم (يدعوكم) الى الايمان به وتوحيده أو الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء انفسنا كما توهمه قولكم مما تدعوننا اليه (ليغفر لكم من ذنوبكم) أي لاجل غفران ذنوبكم اذا آمنتم وصدقتم أو اللام للتعدية كقولك دعوتك لزيد قال أبو عبيدة من صلة زائدة في الايجاب ووجه ذلك قوله في موضع آخر ان الله يغفر الذنوب جميعا وأجازه الاخفش وقال سيبويه هي للتبعيض ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لامة محمد صلى الله عليه وآله وسلم غفران جميعها لغيرهم وبهذه الآية احتج من جوز زيادة من في الاثبات وجمهور البصريين لا يجوزون زيادتها الا في النفي اذا جرت نكرة ومن ثم جعلها بعضهم للبدل وقال ليست بزائدة ولا تبعيضية أي لتكون المغفرة بدلا من عقوبة الذنوب ويحتمل ان يضمن يغفر معنى يخلص أي يخلصكم من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب وهو أولى من دعوى زيادتها (ويؤخركم) بلا عذاب (الى أجل) أي وقت (مسمى) عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا (قالوا ان) أي ما (أنتم

تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقال في الآية الاخرى فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل وقال كم تركوا من جنات وعيون الآيات ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين الى بلاد بيت المقدس بلاد الخليل عليه السلام وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو اسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه اربعين سنة ومات فيه هرون (١٣٨) ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها الى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر ثم عادت اليهم ثم اخذها ملوك اليونان وكانت تحت احكامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا اليهم ان هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله اليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فاخذوه فصلبوه واعتقدوا انه هو وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقية وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الاساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من الا تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم الا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبنى هذا المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناآت هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا الى الشرق وصوروا الكنائس وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم

والاصول ووضعوا له الامانة الكبيرة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة وصنفوا له القوانين وبسط هذا والغرض ان يدهم لم تزل على هذه البلاد الى ان انتزعها منهم الصحابة رضى الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولله الحمد والمنة وقوله ورزقناهم من الطيبات أى الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا وقوله فما اختلفوا حتى جاءهم العلم أى ما اختلفوا فى شئ من المسائل الا من بعد ما جاءهم العلم أى ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس وقد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة (١٣٩) وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار قيل من هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ وهو فى السنن والمسانيد ولهذا قال الله تعالى ان ربك يقضى بينهم أى يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا أشك ولا أسأل وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصرى وهذا فيه تثبيت للامة واعلام لهم ان صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة فى الكتب المتقدمة التى بايدى أهل الكتاب كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل الآية ثم مع هذا العلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم أى لا يؤمنون ايمانا ينفعهم بل حين لا ينفع نفسا ايمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم كما قال تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء

(الا بشر مثلنا) فى الهيئة والصورة تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب فلا فضل لكم علينا ولستم ملائكة (تريدون أن تصدونا) وصفوهم بالبشر أولا ثم بارادة الصد لهم (عما كان يعبد آباؤنا) أى آباؤهم ثانيا أى تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الاصنام ونحوها (فأتونا) ان كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله (بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة واضحة تدل على صحة ما تدعونه من المزية أو النبوة وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ولكن هذا نوع من تعنتاتهم ولون من تلوناتهم (قالت لهم رسلهم) مسلمين مشاركتهم فى الجنس (ان نحن الا بشر مثلكم) أى فى الصورة والهيئة كما قلتم لا ننكر ذلك (ولكن الله يمن) ويتفضل (على من يشاء من عباده) بالنبوة والرسالة وقيل بالتوفيق والهداية جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى وفيه دليل على ان النبوة أمر وهبى لا كسبى كما يزعمه جهلة المتفلسفة والحكماء (وما كان) أى ما صح (لنا) ولا استقام (أن نأتيكم بسلطان) أى بحجة من الحجج وقيل المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت وقيل أعم من ذلك فان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (الا باذن الله) أى بمشيئته وارادته وليس ذلك فى قدرتنا وقيل بامره لنا بالاتيان أى اذنه لنا فيه والاول أولى (وعلى الله) وحده (فليتوكل المؤمنون) فى دفع شرور أعدائهم عنهم وفى الصبر على معاداتهم وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه وكأن الرسل قصدوا بهذا الامر للمؤمنين الامر لهم أنفسهم قصدا أوليا ولهذا قالوا (وما لنا) أى وأى مانع وعذر لنا فى (أن لا نتوكل على الله) سبحانه فى دفع شروركم عنا فيه التفات عن الغيبة الى التكلم والاستفهام للانكار (وقد هدانا سبلنا) بضم الباء وسكونها سبعيتان أى والحال انه قد فعل بنا ما يوجب التوكل عليه ويستدعيه من هدايتنا الى الطريق الموصل الى رحمته وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه وعرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة (و) الله (لنصبرن على ما آذيتمونا) من وقوع التكذيب لنا منكم والعناد والاقتراحات الباطلة وغير ذلك مما لا خير فيه وما مصدرية أو موصولة اسمية (وعلى الله) وحده دون من عداه (فليتوكل المتوكلون)

الله ولكن أكثرهم يجهلون ثم قال تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الامم السالفة الذين بعثنا اليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول الا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون (١٤٠) وفى الحديث الصحيح عرض على الانبياء فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس والنبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد ثم ذكر كثرة اتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين والشرق والغرب والغرض انه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى الا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان ايمانهم الا تخوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا الى الله واستغاثوا به وتضرعوا لديه واستكانوا واحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الاخروى مع الدنيوى أو انما كشف عنهم فى الدنيا فقط على قولين أحدهما انما كان ذلك فى الحياة الدنيا كما هو مقيد فى هذه الآية والقول الثانى فيهما لقوله تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين فاطلق عليهم الايمان والايمان منقذ من العذاب الاخروى وهذا هو الظاهر والله أعلم وقال قتادة فى تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت الا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله فى قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا الى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم قال قتادة

قيل المراد بالتوكل الاول استحداثه وانشاؤه وبهذا السعى فى بقائه وثبوته فالتوكلان مختلفان وقيل معنى الاول ان الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم ان يتوكلوا فى حصولها على الله سبحانه لا علينا فان شاء سبحانه أظهرها وان شاء لم يظهرها ومعنى الثانى ابداء التوكل على الله فى دفع شر الكفار وسفاهتهم (وقال الذين كفروا) هم طائفة من المتمردين عن اجابة الرسل (لرسلهم) واللام فى (لنخرجنكم) هى الموطئة للقسم أى والله لنخرجنكم (من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم اليه حتى اجترؤا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من أرضهم أو العود فى ملتهم الكفرية وقد قيل ان أو بمعنى حتى أو بمعنى الا ان كما قاله بعض المفسرين ورد بانه لا حاجة الى ذلك بل أو على بابها للتخيير بين أحد الامرين قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة أى لتصيرن داخلين فى ديننا أى فى الشرك لعصمة الانبياء عن ان يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها وقيل ان الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على اتباعهم وقد تقدم تفسير الآية فى سورة الاعراف (فأوحى اليهم) أى الى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات (ربهم لنهلكن الظالمين) الكافرين (ولنسكننكم الارض) أى أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوكم من الاخراج أو العود (من بعدهم) أى بعد هلاكهم ومثل هذه الآية قوله سبحانه وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقال وأورثكم أرضهم وديارهم عن ابن عباس قال كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم الى ان يعودوا فى ملتهم فابى الله لرسله والمؤمنين ان يعودوا فى ملة الكفر وأمرهم أن يتوكلوا على الله وأمرهم ان يستفتحوا على الجبابرة ووعدهم ان يسكنهم الارض من بعدهم فأنجز لهم ما وعدهم واستفتحوا كما أمرهم الله ان يستفتحوا وعن قتادة قال وعدهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة فبين الله من يسكنها من عباده فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان وان لله مقاما هو قائمه وان أهل الايمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار (ذلك) أى ما تقدم من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين فى مساكنهم (لمن خاف مقامى) أى موقفى وذلك يوم الحساب فانه موقف الله سبحانه والمقام بفتح الميم مكان الاقامة وبالضم فعل الاقامة وقيل ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام أى لمن خاف قيامى

عليه

وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها فهلا كانت قرية آمنت وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤسهم كقطع الليل المظلم فمشوا الى رجل من علمائهم فقالوا علمنا دعاء ندعو به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا ياحي حين لاحي ياحي محيي الموتى ياحي لا اله الا أنت قال فكشف عنهم العذاب وتمام القصة سيأتي مفصلا في سورة والصافات ان شاء الله (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (١٤١) وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) يقول تعالى ولو شاء ربك يا محمد لاذن لاهل الارض كلهم في الايمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولهذا قال تعالى أفأنت تكره الناس أي تلزمهم حتى يكونوا مؤمنين أي ليس ذلك عليك ولا اليك بل الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين انك لا تهدى من أحببت وانما عليك البلاغ وعلينا الحساب فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر الى غير ذلك من الآيات الدالة على ان الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادى من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس وهو الخبال والضلال على الذين لا يعقلون أي حجج الله وأدلته وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى واضلال من ضل (قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون هل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) يرشد تعالى عباده الى التفكر في آلائه وما خلق الله في السموات والارض من الآيات الباهرة لذوي الالباب مما في السموات من كواكب نيرات ثوابت وسيارات والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وايلاج أحدهما

عليه ومراقبتي له كقوله تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال الاخفش مقامي بمعنى عذابي (وخاف وعيد) أي خشي وعيدي بالعذاب وقيل بالقرآن وزواجره وقيل هو نفس العذاب الموعود للكفار والوعيد اسم من الوعد وهذه الآية تدل على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضي التغاير قاله الكرخي (واستفتحوا) أي استنصروا بالله على أعدائهم أو سألوا الله القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة بين الخصمين ومن الاول قوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ومن الثاني قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا أي احكم والضمير في استفتحوا للرسل وقيل للكفار وقيل للفريقين وقيل لقريش لانهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا وهو على هذا مستأنف والاول أولى وقرئ استفتحوا بكسر التاء الثانية على لفظ الامر أمر للرسل بطلب النصرة فنصروا وسعدوا وربحوا (وخاب) أي خسر وقيل هلك (كل جبار) هو المتكبر الذي لا يرى لاحد عليه حقا هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة وقيل من تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل الذي لا يرى فوقه أحدا وقيل المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والمعاني متقاربة (عنيد) هو المعاند للحق والمجانب له قاله مجاهد وهو مأخوذ من العند وهو الناحية أي آخذ في ناحية معرضا قال الزجاج العنيد الذي يعدل عن القصد وبمثله قال الهروي وقال أبو عبيد هو الذي عند وبغى وقال ابن كيسان هو الشامخ بأنفه وقيل المراد به العاصي وقيل الذي أبى ان يقول لا اله الا الله قاله قتادة وقيل العنيد الناكب عن الحق قاله ابراهيم النخعي وقال مقاتل المتكبر وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقيل هو المعجب بما عنده وقيل هو الذي يعاند ويخالف ومعنى الآية انه خسر وهلك من كان متصفا بهذه الصفة (من ورائه) أي من بعده (جهنم) والمراد بعد هلاكه على ان وراء هنا بمعنى بعد ومثله قوله تعالى ومن ورائه عذاب غليظ أي من بعده كذا قال الفراء وقيل من ورائه أي من امامه قال أبو عبيدة هو من أسماء الاضداد لان أحدهما ينقلب الى الآخر ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا أي أمامهم وبه قال قطرب وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك أي سوف يأتيك وأنا من وراء فلان أي في طلبه وقال النحاس من ورائه أي من امامه وليس من الاضداد ولكنه من توارى أي استتر فصارت

في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ثم يقصر هذا ويطول هذا وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهر وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية (١٤٢) والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية وقوله فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا أي ونهلك المكذبين بالرسل كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين أي حقا أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله كتب ربكم على نفسه الرحمة وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي (قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله وأن

جهنم من ورائه لأنه الأثرى وحكى مثله ابن الأنباري وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أو قدامك (ويسقى من ماء صديد) أي يلقى فيها ويسقى والصديد ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم واشتقاقه من الصد لأنه يصد الناظرين عن رؤيته وهو دم مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه وقال عكرمة هو القيح والدم وقال محمد بن كعب القرظي هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر والصديد صفة لماء أو بدل منه وقيل عطف بيان له (يتجرعه) التجرع التحسي أي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته وقيل يكلف تجرعه ويقهر عليه ولم يذكر الزمخشري غيره وقيل إنه دال على المهلة أي يتناوله شيئا فشيئا وقيل إنه بمعنى جرعه المجرد (ولا يكاد يسيغه) يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغا إذا كان سهلا والمعنى لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فكيف يكون الإساغة بل يغص به بعد التيا واللتي فيشربه جرعة بعد جرعة فيطول عذابه بالحرارة والعطش تارة وبشربه على هذه الحالة أخرى فإن السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله في جوفه وعبر عنه بالإساغة لما أنها المعهودة في الأشربة وقيل إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء كقوله وما كادوا يفعلون أي يفعلون بعد إبطاء كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى يصهر به ما في بطونهم قيل كاد صلة وقال الزمخشري للمبالغة وقيل معناه لا يجيزه أخرج أحمد والترمذي واستغربه والنسائي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم في الحلية وصححه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب به قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا (ويأتيه الموت) أي أسبابه (من كل مكان) أي من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله أو من كل موضع من مواضع بدنه وقال الأخفش المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتا لشدتها قال ابن عباس يعني أنواع العذاب وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ولكنه لا يموت لأن الله يقول لا يقضى عليهم فيموتوا وقال ميمون بن مهران المعنى من كل عظم وعرق وعصب

أقم وجهك للدين حنيفا الآية أي أخلص العبادة لله وحده حنيفا أي منحرفا عن الشرك ولهذا قال ولا تكونن من المشركين وهو معطوف على قوله وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله وان يمسسك الله بضر الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر انما هو راجع الى الله تعالى وحده لا يشاركه فيما ذكر أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اطلبوا (١٤٣) الخير دهركم كله وتعرضوا النفحات ربكم فان لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه ان يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم ثم رواه من طريق الليث عن عيسى ابن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعا بمثله سواء وقوله وهو الغفور الرحيم أي لمن تاب اليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فانه يتوب عليه (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) يقول تعالى آمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ان يخبر الناس ان الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه فمن اهتدى به واتبعه فانما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ومن ضل عنه فانما يرجع وبال ذلك عليه وما أنا عليكم بوكيل أي وما أنا موكل بكم حتى تؤمنوا به انما أنا نذير لكم والهداية على الله تعالى وقوله واتبع ما يوحى اليك واصبر أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه واصبر على مخالفة من خالفك من الناس حتى يحكم الله أي يفتح بينك وبينهم وهو خير الحاكمين أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

(تفسير سورة هود عليه السلام وهي مكية) قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الاحوص عن أبي اسحق عن عكرمة قال قال أبو بكر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شيبك قال شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وقال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي اسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال قال أبو بكر يا رسول

وعصب وعن محمد بن كعب نحوه وعن ابراهيم التيمي قال من موضع كل شعرة في جسده (وما هو بميت) أي والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح وقيل تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فيحيا ومثله قوله لا يموت فيها ولا يحيى وقيل المعنى وما هو بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه والاولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه لا يموت فيها ولا يحيى وقوله لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها (ومن ورائه) أي من امامه أو من بعده أو من بين يديه قاله البيضاوي وقيل الضمير عائد على كل جبار كما في السمين (عذاب غليظ) أي شديد يستقبل في كل وقت عذابا أشد مما هو عليه قيل هو الخلود في النار قاله ابراهيم التيمي وقيل حبس الانفاس قاله فضيل بن عياض (مثل الذين كفروا بربهم) كلام مستأنف منقطع عما قبله قال سيبويه تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين والمثل مستعار للقصة التي فيها اغرابة وقال الزجاج والفراء التقدير مثل أعمال الذين وروى عنه انه قال بالغاء مثل وقيل مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل (أعمالهم) الصالحة كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير واقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك أو عبادتهم الاصنام في عدم الانتفاع بها أو الاعمال التي أشركوا فيها غير الله تعالى (كرماد) أي باطلة غير مقبولة والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احتراقه بالنار وجمعه في الكثرة على رمد وفي القلة على أرمدة (اشتدت به الريح) حملته بشدة وسرعة فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيأ (في يوم عاصف) العصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيهما لا منهما والاسناد فيه تجوز ووجه الشبه ان الريح العاصفة تطير الرماد وتفرق اجزاءه بحيث لا يبقى له أثر فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر وقد بين محصله بقوله (لا يقدرون مما كسبوا) من تلك الاعمال الباطلة (على شيء) منها ولا يرون له أثرا في الآخرة يجازون به ويثابون عليه بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها وهو فذلكة التمثيل وعن ابن عباس لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد اذا أرسل في يوم عاصف (ذلك) أي ما دل عليه التمثيل من هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها (هو الضلال) الهلاك

الله قد شبت قال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وفي رواية هود واخواتها وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتني هود وأخواتها الواقعة والحاقة واذا الشمس كورت وفي رواية هود واخواتها وقد روي من حديث ابن مسعود فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرابشي حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي اسحق (١٤٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ان أبا بكر قال يا رسول الله ما شيبك قال هود والواقعة عمرو بن ثابت متروك وأبو اسحق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن اعادته هنا وبالله التوفيق وأما قوله أحكمت آياته ثم فصلت أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها فهو كامل صورة ومعنى هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير وقوله من لدن حكيم خبير أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه خبير بعواقب الامور ألا تعبدوا الا الله أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقوله انني لكم منه نذير وبشير أي اني لكم نذير من العذاب ان خالفتموه وبشير بالثواب ان أطعتموه كما جاء في الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا فدعا بطون قريش الاقرب ثم الاقرب فاجتمعوا فقال يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا تصبحكم ألستم مصدقي فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وقوله وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها الى الله عز وجل فيما

(من)

(البعيد) عن طريق الحق المخالف لمنهج الصواب أو عن فعل الصواب ولما كان هذا خسرانا لا يمكن تداركه ولا يرجى عوده سماه بعيدا (ألم تر أن الله خلق السموات والارض) الرؤية هنا هي القلبية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريضا لأمته أو الخطاب لكل من يصلح له (بالحق) أي بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته لا باطلا ولا عبثا والباء للمصاحبة ثم بين كمال قدرته سبحانه واستغنائه عن كل أحد من خلقه فقال (ان يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت بخلق جديد) سواكم فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ويهلك العصاة ويأتي بمن يطيعه من خلقه لان القادر لا يصعب عليه شيء وانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور والمقام يحتمل ان يكون هذا الخلق الجديد من نوع الانسان ويحتمل ان يكون من نوع آخر (وما ذلك) أي الاذهاب والاتيان باعدام الموجود وايجاد المعدوم (على الله بعزيز) أي بممتنع ومتعذر لانه سبحانه قادر على كل شيء وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال (وبرزوا لله جميعا) أي الخلائق من قبورهم يوم القيامة والبروز الظهور والبراز بالفتح المكان الواسع لظهوره ومنه امرأة برزة أي تظهر للرجال وبرز حصل في البراز أي الفضاء وذلك بان يظهر بدانه كلها فمعنى برزوا ظهروا من قبورهم وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني وانما قال وبرزوا لله مع كونه سبحانه عالما بهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا لانهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون ان ذلك يخفى على الله تعالى فالكلام خارج على ما يعتقدونه (فقال الضعفاء للذين استكبروا) أي قال الاتباع الضعفاء في الرأي للرؤساء الاقوياء المتكبرين بما هم فيه من الرياسة (انا كنا لكم تبعا) في الدنيا في الدين والاعتقاد فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم والتبع جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير ذوي تبع قال الزجاج جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم وقادتهم عن عبادة الله انا كنا لكم تبعا (فهل أنتم) في هذا اليوم والاستفهام للتوبيخ (مغنون) أي دافعون (عنا) يقال أغنى عنه اذا دفع عنه الأذى وأغناه اذا أوصل اليه النفع

(من عذاب الله من شيء) أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله فمن الاولى للبيان والثانية للتبعيض قاله الزمخشري وقيل هما للتبعيض معا قاله في الكشاف أيضا وقيل الاولى تتعلق بمحذوف والثانية مزيدة (قالوا) اي قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين (لو هدانا الله) الى الايمان في الدنيا (لهديناكم) اليه ولكن لما أضلنا وضللنا دعوناكم الى الضلالة وأضللناكم واخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا والجملة مستأنفة كأنه قيل كيف أجابوا وقيل المعنى لو هدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها وقيل لو نجانا الله من العذاب لانجيناكم منه (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) أي مستو علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه والهمزة وام لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم (ما لنا من محيص) أي منجاة ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار يقال حاص فلان عن كذا اى فر وزاغ يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا والمعنى ما لنا وجه نتباعد به عن النار ويجوز ان يكون هذا من كلام الفريقين وان كان الظاهر انه من كلام المستكبرين وفي مجيء كل جملة مستقلة من غير عاطف دلالة على ان كلا من المعاني مستقل بنفسه كاف في الاخبار وقال زيد بن أسلم جزعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا فلنجزع فبكوا خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص والظاهر ان هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد (وقال الشيطان) للفريقين (لما قضي الامر) أي دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما سيأتي بيانه في سورة مريم (ان الله وعدكم وعد الحق) فصدق في وعده وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب ومجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال الفراء وعد الحق هو من اضافة الشيء الى نفسه كقولهم مسجد الجامع وقال البصريون وعدكم وعد اليوم الحق (ووعدتكم) وعدا باطلا بانه لا بعث ولا حساب

تستقبلونه وان تستمروا على ذلك يمتعكم متاعا حسنا أي في الدنيا الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله أي في الدار الآخرة قاله قتادة كقوله من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة الآية وقد جاء في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك وقال ابن جرير حدثني المسيب بن شريك عن أبي بكر عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ويؤت كل ذي فضل فضله قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده على اعشاره وقوله وان تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فان العذاب يناله يوم القيامة لا محالة الى الله مرجعكم أي معادكم ومرجعكم يوم القيامة وهو على كل شيء قدير أي وهو القادر على ما يشاء من احسانه الى أوليائه وانتقامه من أعدائه واعادة الخلائق يوم القيامة وهذا مقام الترهيب كما ان الاول مقام ترغيب (الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور) قال ابن عباس كانوا يكرهون ان يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية روى البخاري من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر ان ابن عباس قرأ ألا انهم تثنوني صدورهم الآية فقلت يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم قال الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي فنزلت الا انهم تثنوني صدورهم وفي لفظ آخر له قال ابن عباس اناس كانوا يستحيون ان يتخلوا فيفضوا الى السماء وان يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم ثم قال حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم قال البخاري وقال غيره عن ابن عباس يستغشون يغطون رؤسهم وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم أي انهم كانوا يثنون صدورهم اذا قالوا شيأ أو عملوه فيظنون

انهم يستخفون من الله بذلك فاخبرهم الله تعالى انهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم ما يسرون من القول وما يعلنون انه عليم بذات الصدور أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم * ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر * ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع (١٤٦) وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الاعمال في الصحف ليوم القيامة وقال عبد الله بن شداد كان أحدهم اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وغطى رأسه فانزل الله ذلك وعود الضمير الى الله أولى لقوله الا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون وقرأ ابن عباس ألا انهم تثنوني صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) أخبر تعالى انه متكفل بارزاق المخلوقات من سائر دواب الارض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وانه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين منتهى سيرها في الارض وأين تأوي اليه من وكرها وهو مستودعها وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ويعلم مستقرها أي حيث تأوي ومستودعها حيث تموت وعن مجاهد مستقرها في الرحم ومستودعها في الصلب كالتي في الانعام وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم وان جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون وقوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين

(وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس

ولا جنة ولا نار (فأخلفتكم) ما وعدتكم به من ذلك (وما كان لي عليكم من سلطان) أي تسلط عليكم باظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم (الا أن دعوتكم) أي مجرد دعائي لكم الى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ودعوته اياهم ليست من جنس السلطان حتى يستثنى منه بل الاستثناء منقطع أي لكن دعوتكم وقيل المراد بالسلطان هنا القهر أي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم الى اجابتي وقيل هذا الاستثناء هو من باب تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لي عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من سلطان وليس منه قطعا (فاستجبتم لي) أي فسارعتم الى اجابتي (فلا تلوموني) بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل واخلافي هذا الموعد فان من صرح بالعداوة لا يلام بامثال ذلك (ولوموا أنفسكم) باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة فان من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ولمارنه قطع ولا سيما دعوتي هذه الباطلة وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وهو الحق ودعوته لكم الى دار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس الا على مخذول وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويؤثرها على ما فيهما فانه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ولا دل عليه برهان وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المقلدين لهم المتنكبين عن طريق الحق بسوء اختيارهم اللهم غفرا (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخا وصرخا واصطرخ بمعنى صرخ والمصرخ المغيث والمستصرخ المستغيث يقال استصرخني فاصرخته والصريخ صوت المستصرخ والصريخ أيضا الصارخ وهو المغيث والمستغيث وهو من أسماء الاضداد كما في الصحاح قال ابن الاعرابي الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث ومعنى الآية ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من العذاب وما أنتم بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه وفيه ارشاد لهم الى ان الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب محتاج الى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه فكيف يطمعون في اغاثة من هو محتاج الى من يغيثه قال ابن عباس المعنى ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي وقال الشعبي في هذه الآية خطيبان يقومان يوم القيامة ابليس وعيسى فاما

ابليس

مصر وفاعنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) يخبر تعالى عن قدرته على كل شئ وأنه خلق السموات والارض فى ستة أيام وان عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبلوا البشرى يابنى تميم قالوا قد بشرتنا فاعطنا قال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا قد قبلنا فاخبرنا عن أول هذا الامر كيف كان قال كان الله قبل كل شئ وكان عرشه على الماء وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شئ قال فاتانى آت فقال يا عمران انحلت ناقتك من عقالها قال فخرجت (١٤٧) فى اثرها فلا أدرى ما كان بعدى وهذا الحديث مخرج فى صحيحى البخارى ومسلم بالفاظ كثيرة فمنها قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الامر فقال كان الله ولم يكن شئ قبله وفى رواية غيره وفى رواية معه وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ ثم خلق السموات والارض وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وقال البخارى فى تفسير هذه الآية حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك وقال يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وقال أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما فى يمينه وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبى رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلى قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق العرش بعد ذلك وقد رواه الترمذى فى التفسير وابن ماجه فى السنن من حديث يزيد بن هرون به وقال الترمذى هذا حديث حسن وقال مجاهد وكان عرشه على الماء قبل ان يخلق شيأ وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد وقال قتادة فى قوله وكان عرشه على الماء ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والارض وقال الربيع بن أنس وكان عرشه على الماء فلما خلق السموات والارض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفا

[illegible]

ابليس فيقوم فى حزبه فيقول القول المذكور فى الآية وأما عيسى فيقول ماقلت لهم الا ما أمرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد وقال قتادة المعنى ما أنا بمعينكم (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) قد ذهب جمهور المفسرين الى ان ما مصدرية أى باشراككم اياى مع الله فى الطاعة لانهم كانوا يطيعونه فى اعمال الشر كما يطاع الله فى أعمال الخير فالاشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته أو لانهم لما أشركوا الاصنام ونحوها باتقاعه لهم فى ذلك فكأنهم أشركوه وقيل موصولة على معنى انى كفرت بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل و يكون هذا حكاية لكفره بالله عند ان أمره بالسجود لآدم ولما كشف لهم القناع بانه لا يغنى عنهم من عذاب الله شيأ ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر صرح لهم بانه كافر باشراكهم اياه مع الله فى الربوبية من قبل هذا الوقت الذى قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة وهو ما كان منهم فى الدنيا من جعله شريكا ولقد قام لهم الشيطان فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فاوضح لهم أولا ان مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وانه أخلفهم ماوعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشئ منها ثم أوضح لهم ثانيا بانهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التى لابد للعاقل منها فى قبول قول غيره ثم أوضح لهم ثالثا بانه لم يكن منه الا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شئ مما يتمسك به العقلاء ثم نعى عليهم رابعا ماوقعوا فيه ودفع لومهم له وأمرهم بان يلوموا أنفسهم لانهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل ثم أوضح لهم خامسا بانه لا نصر عنده ولا اغاثة ولا يستطيع لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرا بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ثم صرح لهم سادسا بانه قد كفر بما اعتقدوه فيه واثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب واذا كان جملة (ان الظالمين لهم عذاب أليم) من تتمة كلامه كما ذهب اليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به فاثبت لهم الظلم ثم ذكر ماهو جزاؤهم عليه من العذاب الاليم لا على قول من قال انه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه ولما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة فقال (وادخل) قراءة الجمهور على البناء للمفعول

تحت العرش وهو البحر المسجور وقال ابن عباس انما سمى العرش عرشا لارتفاعه وقال اسمعيل بن أبى خالد سمعت سعدا الطائى يقول العرش ياقوتة حمراء وقال محمد بن اسحق فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء فكان كما وصف نفسه تعالى اذ ليس الا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والاكرام والعزة والسلطان والملك والقدرة والحلم والعلم والرحمة والنعمة الفعال لما يريد وقال الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس عن قول الله وكان عرشه على الماء على أى شئ كان الماء قال (١٤٨) على متن الريح وقوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا أى خلق السموات والارض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيأ ولم يخلق ذلك عبثا كقوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار وقال تعالى أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم وقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون الآية وقوله ليبلوكم أى ليختبركم أيكم أحسن عملا ولم يقل أكثر عملا بل أحسن عملا ولم يكن العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل وقوله ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين ان الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع انهم يعلمون ان الله تعالى هو الذى خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذى هو بالنسبة الى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقال تعالى ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقولهم ان هذا الا سحر مبين أى يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث وما تذكر ذلك الا من سحرك فهو يجمعك على ما تقول وقوله ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة الآية يقول تعالى ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين الى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم الى مدة مضروبة ليقولن تكذيبا واستعجالا ما يحبسه أى يؤخر هذا العذاب عنا فان سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه

وقرئ بالبناء على الفاعل أى وأنا أدخل (الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) ثم ذكر سبحانه خلودهم فى الجنات وعدم انقطاع نعيمهم فقال (خالدين فيها) ثم ذكر ان ذلك (باذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه وهدايته هذا على القراءة الاولى وفيه تعظيم لذلك الاجر وأما على الثانية فيكون باذن ربهم متعلقا بقوله (تحيتهم فيها) أى تحية الملائكة فى الجنة (سلام) باذن ربهم وقد تقدم تفسير هذا فى سورة يونس ولما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار وانها كرماد اشتدت به الريح ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم الله به من ادخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة لهم ذكر تعالى ههنا مثلا للكلمة الطيبة وهى كلمة الاسلام اى لا اله الا الله أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير وذكر مثلا للكلمة الخبيثة وهى كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر فقال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو ان يصلح للخطاب (ألم تر) بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامى اياك (كيف ضرب الله مثلا) اى اختار مثلا وضعه فى موضعه اللائق به والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالاول (كلمة طيبة) وهى قول لا اله الا الله عند الجمهور أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة قاله الزمخشرى (كشجرة طيبة) أى طيبة الثمر نعت لكلمة وبه بدأ الزمخشرى أو خبر مبتدا محذوف أى هى قاله ابن عطية ثم وصف الشجرة بقوله (أصلها ثابت) أى راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الارض بعروقها (وفرعها فى السماء) أى فى أعلاها ذاهب الى جهة السماء مرتفع فى الهواء ثم وصفها سبحانه بانها (تؤتى أكلها) اى ثمرها (كل حين) اى كل وقت والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره كما سيأتى (باذن ربها) أى بارادته ومشيئته وأمره قيل وهى النخلة كذلك كلمة الايمان ثابتة فى قلب المؤمن وعمله يصعد الى السماء وتناله بركته وثوابه كل وقت وأخرج أحمد وابن مردويه قال السيوطى بسند جيد عن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال هى التى لا تنقص ورقها النخلة وأخرج البخارى وغيره من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما لاصحابه أى شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن قال فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى قلبى انها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى النخلة وفى لفظ للبخارى أخبرونى عن شجرة كالرجل

المسلم

ولا يحيدوا والامة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة فيراد بها الامد كقوله فى هذه الآية الى امة معدودة وقوله فى يوسف وقال الذى نجا منهما وادكر بعد امة وتستعمل فى الامام المقتدى به كقوله ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين وتستعمل فى الملة والدين كقوله اخبارا عن المشركين انهم قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون وتستعمل فى الجماعة كقوله ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون وقوله ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم (١٤٩) بالقسط وهم لا يظلمون والمراد من الامة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما فى صحيح مسلم والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد فى هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى الا دخل النار وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وفى الصحيح فأقول امتى امتى وتستعمل الامة فى الفرقة والطائفة كقوله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون وكقوله من أهل الكتاب امة قائمة الآية (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيآت عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) يخبر تعالى عن الانسان وما فيه من الصفات الذميمة الا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه اذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له اياس وقنوط من الخير بالنسبة الى المستقبل وكفر وجحود لماضى الحال كانه لم ير خيرا ولم يرج بعد ذلك فرجا وهكذا ان أصابته نعمة بعد نقمة ليقولن ذهب السيآت عنى أى يقول ما ينالنى بعد هذا ضيم ولا سوء انه لفرح فخور أى فرح بما فى يده بطر فخور على غيره قال الله تعالى الا الذين صبروا على الشدائد والمكاره وعملوا الصالحات أى فى الرخاء والعافية أولئك لهم مغفرة أى بما يصيبهم من الضراء واجر كبير بما أسلفوه فى الرخاء كما فى الحديث والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله عنه بها من خطاياه وفى الصحيحين والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وليس ذلك لاحد غير المؤمن

المسلم لا يتحات ورقها وتؤتى أكلها كل حين فذكر نحوه وفى لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل تدرون ما الشجرة الطيبة ثم قال هى النخلة وروى نحو هذا جماعة من الصحابة والتابعين وقيل غيرها والمراد تؤتى أكلها كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار فى جميع الاوقات من غير فرق بين شتاء وصيف قاله ابن عباس وقيل المراد فى أوقات مختلفة من غير تعيين وقيل كل غدوة وعشية وقيل الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة وقيل كل شهر وقيل كل ستة أشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن يعنى من وقت طلعها الى حين صرامها وقال على بن أبى طالب ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة غير متناقضة لان الحين عند جميع أهل اللغة الا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره وقد ورد الحين فى بعض المواضع يراد به أكثر كقوله هل أتى على الانسان حين من الدهر وقد تقدم بيان أقوال العلماء فى الحين فى سورة البقرة وقال الزجاج الحين الوقت طال أم قصر وعن ابن عباس فى قوله تعالى تؤتى أكلها كل حين قال يكون أخضر ثم يكون أصفر وعنه قال كل حين جداد النخل وقد روى عن جماعة من السلف فى هذا أقوال كثيرة ووجه الحكمة فى تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق ان الشجرة لا تسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع نابت وكذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان والاركان وقيل غير ذلك وعن ابن عباس الكلمة الطيبة شهادة أن لا اله الا الله والشجرة الطيبة المؤمن وأصلها الثابت قول لا اله الا الله ثابت فى القلب وفرعها فى السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) أحوال المبدا والمعاد وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته وفى ضرب الامثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعانى وتقريب لها من الحس ومواعظ لمن تذكر واتعظ (ومثل كلمة خبيثة) قد تقدم تفسيرها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل وضرب الله مثلا كلمة خبيثة للايذان بان ذلك غير مقصود بالضرب والبيان (كشجرة) أى كمثل شجرة (خبيثة) قيل هى شجرة الحنظل وقيل هى شجرة الثوم وقيل الكمأة

وابـذا قال الله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وقال تعالى ان الانسان خلق هلوعا الآيات (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) يقول تعالى مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يتعنت به (١٥٠) المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشده ان لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم الى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون الآية وقال ههنا فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا أي لقولهم ذلك فانما أنت نذير ولك اسوة باخوانك من الرسل قبلك فانهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل ثم بين تعالى اعجاز القرآن وانه لا يستطيع أحد ان يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة من مثله لان كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما ان صفاته لا تشبه صفات المحدثات وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا اله الا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى فان لم يستجيبوا لكم أي فان لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم اليه فاعلموا انهم عاجزون عن ذلك وان هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه من وأمره ونهيه وانه لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ان أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك انهم لا يظلمون نقيرا يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله الا التماس الدنيا يقول الله تعالى أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا

وقيل الطحلبة وقيل هي كشوث بالضم وآخره مثلثة وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الارض (اجتثت) أي استؤصلت واقتلعت وقطعت من أصلها قال المؤرج أخذت جثتها وهي نفسها وذاتها والجثة شخص الانسان قاعدا وقائما يقال جثه قلعه واجتثه اقتلعه كأنها اجتثت وكأنها غير ثابتة بالكلية وكأنها ملقاة على وجه الارض ومعنى (من فوق الارض) انه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الارض (ما لها) أي لهذه الشجرة (من قرار) أي من استقرار وقيل من ثبات لانها ليس لها أصل ثابت تغوص في الارض بل عروقها في وجهها ولا فرع لها صاعد الى السماء بل ورقها تمتد على الارض كشجرة البطيخ وغرها ردىء كما ان الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلا ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز لان الشجر ما له ساق والنجم ما لا ساق له وهي من النجم فتسميتها شجرة للمشاكلة قال ابن عباس الكلمة الخبيثة الشرك والشجرة الخبيثة الكافر يعني الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم (يثبت الله) راجع للمثل الاول (الذين آمنوا بالقول الثابت) أي بالحجة الواضحة عندهم وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها وقد ثبت في الصحيح انها كلمة الشهادة يقولها المؤمن اذا اقعد في قبره قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذلك قوله تعالى يثبت الله الآية وقيل معنى تثبيت الله لهم هو ان يدوموا عليه (في الحياة الدنيا) ويستمروا حتى اذا فتنوا في دينهم لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الاخدود وغير ذلك (وفي الآخرة) أي في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب قاله الجمهور وقيل يوم القيامة عند البعث والحساب وقيل المراد بالحياة الدنيا وقت المسئلة في القبر وفي الآخرة وقت المسئلة يوم القيامة والمراد انهم اذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم (١) ولا تردد ولا جهل كما يقول من لم يوفق لا أدري فيقال له لا دريت ولا تليت وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا الآية وعن البراء قال اذا جاء الملكان الى الرجل في القبر فقالا من ربك فقال ربي الله وقالا وما دينك قال ديني الاسلام وقالا

(١) التلعثم التوقف اهـ قاموس اهـ منه

وهو في الآخرة من الخاسرين وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال أنس بن مالك والحسن نزلت في اليهود والنصارى وقال مجاهد وغيره نزلت في أهل الرياء وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي الى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا وقال تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب

(أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها الآية وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء الحديث وفي صحيح مسلم عن عياض ابن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وفي المسند والسنن كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه الحديث فالمؤمن باق على هذه الفطرة وقوله ويتلوه شاهد منه أي وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه الى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وابراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى ويتلوه شاهد منه انه جبريل عليه السلام وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد صلى الله عليه وسلم وكلاهما قريب في المعنى لأن كلا من

من نبيك قال نبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فذلك التثبيت في الحياة الدنيا وعن ابن عباس نحوه وعن أبي سعيد قال في الآخرة القبر وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا في القبر وأخرج البزار عنها أيضا قالت قلت يا رسول الله تبتلى هذه الأمة في قبورها فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة قال يثبت الله الذين آمنوا الآية وعن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضع بسطها وهي معروفة نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير (ويضل الله الظالمين) راجع للمثل الثاني أي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا قيل والمراد بالظالمين هنا الكفرة وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الاعراض عن البينات الواضحة فانه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي الى الحق (ويفعل الله ما يشاء) من التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين لا راد لحكمه ولا اعتراض عليه قال الفراء أي لا تنكر له قدرة ولا يسئل عما يفعل والاظهار في محل الاضمار في الموضعين لتربية المهابة (ألم تر) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له تعجيبا مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له أدنى ادراك (الى الذين بدلوا نعمة الله) عليهم (كفرا) أي جعلوا بدل شكرها الكفر بها وذلك بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حين بعثه الله منهم وأنعم عليهم به وقيل انهم بدلوا نفس النعمة كفرا فالتبديل على الأول تغيير في الوصف والنعمة باقية لكنها موصوفة بالكفران وعلى الثاني تغيير في الذات والنعمة زائلة مبدلة بالكفر فانهم لما كفروها سلبت عنهم فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها ولفظ ابن عباس هم كفار أهل مكة أخرجه البخاري والنسائي وبه قال جمهور المفسرين قيل نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر قال علي هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر أخرجه النسائي وقد روي عنه في تفسير هذه الآية من طرق نحو هذا وعن عمر بن الخطاب قال هم الأفجران من قريش بنو المغيرة

جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل الى محمد ومحمد الى الامة وقيل هو على وهو ضعيف لا يثبت له قائل والاول والثانى هو الحق وذلك ان المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ولهذا قال تعالى أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه وهو القرآن بلغه جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم وبلغه النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى امته ثم قال تعالى ومن قبله كتاب موسى أى ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة اماما ورحمة أى أنزله الله تعالى الى تلك الامة اماما (١٥٢) لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الايمان قاده ذلك الى الايمان بالقرآن ولهذا قال تعالى أولئك يؤمنون به ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشئ منه ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده أى ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الارض مشركيهم واهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم واشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى لانذركم به ومن بلغ وقال تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا فالنار موعده وفى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الامة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى الا دخل النار وقال أيوب السختيانى عن سعيد بن جبير قال كنت لا أسمع بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه أو قال تصديقه فى القرآن فبلغنى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بى أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى الا دخل النار فجعلت أقول أين مصداقه فى كتاب الله قال وقلما ما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وجدت له تصديقا فى القرآن حتى وجدت هذه الآية ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال الملل كلها وقوله فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك الآية أى القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين وقال تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقوله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله وقال تعالى ولقد

وبنو أمية فاما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فتمتعوا الى حين وعن على نحوه أيضا وعن ابن عباس قال هم جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم أخرجه ابن أبى حاتم وفيه نظر فان جبلة وأصحابه لم يسلموا الا فى خلافة عمر بن الخطاب وقيل انها عامة فى جميع المشركين (وأحلوا) أى أنزلوا (قومهم) بسبب ما زينوه لهم من الكفر (دار البوار) وهى جهنم قيل هم قادة قريش احلوهم يوم بدر دار الهلاك وهو القتل الذى اصيبوا به والاول أولى لقوله (جهنم) فانه عطف بيان لدار البوار يقال بار الشئ يبور بورا بالضم هلك وبار الشئ بوارا كسد على الاستعارة لانه اذا ترك صار غير منتفع به فاشبه الهالك من هذا الوجه (يصلونها) مستأنفة لبيان كيفية حلولهم فيها اى داخلين فيها مقاسين لحرها (وبئس القرار) أى قرارهم فيها أو بئس المقر جهنم فالمخصوص بالذم محذوف (وجعلوا لله اندادا) اى أمثالا وأشباها اى شركاء فى الربوبية أو فى التسمية وهى الاصنام قال قتادة يعنى أشركوا بالله وليس له تعالى شريك ولا ند ولا شبيه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ليضلوا) بفتح الياء أنفسهم (عن سبيله) أى عن سبيل الله اللام للعاقبة بطريق الاستعارة التبعية أى لتعقب جعلهم لله أندادا ضلالهم لان العاقل لا يريد ضلال نفسه وحسن استعمال لام العاقبة هنا لانها اشبه الغرض والغاية من جهة حصولها فى آخر المراتب والمشابهة أحد الامور المصححة للمجاز وقرئ بضم الياء أى ليوقعوا قومهم فى الضلال عن سبيل الله فهذا هو الغرض من جعلهم لله أندادا والقراءتان سبعيتان ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم (قل تمتعوا) فى الدنيا بما أنتم فيه من الشهوات وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم واضلال الناس أياما قلائل وفى التهديد بصيغة الامر ايذان بان المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به (فان مصيركم) أى مردكم ومرجعكم فى الآخرة (الى النار) ولما كان هذا حالهم وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا ينقلعون عنه ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الامر بمباشرته مكان النهى عن قربانه ايضاحا لما تكون عليه عاقبتهم وانهم لامحالة صائرون الى النار فلا بد لهم من تعاطى الاسباب المقتضية لذلك فجملة فان مصيركم الى النار تعليل للامر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره أو المعنى فان دمتم على ذلك فان مصيركم الى النار والاول أولى والنظم القرآنى عليه

أدل

صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لا جرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون) يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤس الخلائق من (١٥٣) الملائكة والرسل وسائر البشر والجان كما قال الامام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال كنت آخذا بيد ابن عمر عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول ان الله عز وجل يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى اذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه انه قد هلك قال فانى قد سترتها عليك فى الدنيا وانى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته واما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الآية أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث قتادة به وقوله الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أى يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة الى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة ويبغونها عوجا أى ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة

وهم بالآخرة هم كافرون أى جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء أى بل كانوا تحت قهره وغلبته وفى قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وفى الصحيحين ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ولهذا قال تعالى يضاعف لهم العذاب الآية أى يضاعف عليهم العذاب وذلك ان الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله وقالوا

أدل كما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان اصنع ما شئت من المخالفة فان مصيرك الى السيف (قل لعبادى) بثبوت الياء مفتوحة وبحذفها لفظا لا خطا والقراءتان سبعيتان ويجريان فى خمس مواضع من القرآن هذا وقوله فى سورة الانبياء ان الارض يرثها عبادى الصالحون وقوله فى العنكبوت يا عبادى الذين آمنوا وقوله فى سبأ وقليل من عبادى الشكور وفى سورة الزمر قل يا عبادى الذين أسرفوا (الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) لما أمره بان يقول للمبدلين نعمة الله كفرا الجاعلين له أندادا ما قاله لهم أمره سبحانه ان يقول للطائفة المقابلة لهم وهى طائفة المؤمنين هذا القول والمقول محذوف دل عليه المذكور أى قل لهم أقيموا الصلاة الواجبة وأقامتها اتمام أركانها وأنفقوا أى أخرجوا الزكاة المفروضة وقيل أراد به جميع الانفاق فى جميع وجوه الخير والبر والحمل على العموم أولى ويدخل فيه الزكاة دخولا أوليا (سرا وعلانية) قال الفراء أى مسرين ومعلنين أو انفاق سر وعلانية أو وقت سر وعلانية فالانتصاب على الحال أو المصدر أو الظرف قال الجمهور السر ما خفى والعلانية ما ظهر وقيل السر التطوع والعلانية الفرض وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ان تبدوا الصدقات فنعما هى (من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) قال أبو عبيدة البيع ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر قال الواحدى هذا قول جميع أهل اللغة وقال أبو على الفارسى جمع خلة مثل قلة وقلال وبرمة وبرام وعلبة وعلاب والمعنى ان يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدى المقصر فى العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك وليس هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب فامرهم سبحانه بالانفاق فى وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ما داموا فى الحياة الدنيا قادرين على انفاق أموالهم من قبل أن يأتى يوم القيامة فانهم لا يقدرون على ذلك بل لا مال لهم اذ ذاك فالجملة لتأكيد مضمون الامر بالانفاق مما رزقهم الله ويمكن أن يكون فيها أيضا تأكيد لمضمون الامر باقامة الصلاة وذلك لان تركها كثيرا ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الاخلاء قيل هذه الآية الدالة على نفى الخلة محمولة على نفيها بسبب ميل الطبيعة وشهوة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها كقوله سبحانه فى الزخرف الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم

لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير وقال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب الآية ولهذا
يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبوه ولهذا كان أصح الاقوال انهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة
الى الدار الآخرة وقوله أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون أي خسروا أنفسهم لانهم دخلوا نارا حامية فهم
معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى كلما خبت زدناهم سعيرا وضل عنهم أي ذهب عنهم ما كانوا يفترون
من دون الله من الانداد والاصنام فلم تجد عنهم شيأ (١٥٤) بل ضرتهم كل الضرر كما قال تعالى واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء
وكانوا بعبادتهم كافرين وقال
تعالى واتخذوا من دون الله آلهة
ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون
بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا
وقال الخليل لقومه انما اتخذتم
من دون الله أوثانا مودة بينكم في
الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر
بعضكم ببعض ويلعن بعضكم
بعضا ومأواكم النار وما لكم من
ناصرين وقوله اذ تبرأ الذين اتبعوا
من الذين اتبعوا ورأوا العذاب
وتقطعت بهم الاسباب الى غير ذلك
من الآيات الدالة على خسرهم
ودمارهم ولهذا قال لاجرم انهم
في الآخرة هم الاخسرون يخبر
تعالى عن مآلهم انهم أخسر الناس
صفقة في الدار الآخرة لانهم
استبدلوا الدركات عن الدرجات
واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم
آن وعن شرب الرحيق المختوم
بسموم وحميم وظل من يحموم وعن
الحور العين بطعام من غسلين وعن
القصور العالية بالهاوية وعن قرب
الرحمن ورؤيته بغضب الديان
وعقوبته فلا جرم انهم في الآخرة
هم الاخسرون (ان الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير وانعامه
والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) لما ذكر تعالى حال الاشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت
قلوبهم وعملت جوارحهم الاعمال الصالحة قولا وفعلا من الاتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على
الغرف العاليات والسرر المصفوفات والقطوف الدانيات والفرش المرتفعات والحسان الخيرات والفواكه المتنوعات والمآكل
المشتهيات والمشارب المستلذات والنظر الى خالق الارض والسموات وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون

وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها
يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله تعالى في محبته وقد تقدم
تفسير البيع والخلال (الله الذي خلق السموات والارض) اي أبدعهما واخترعهما على
غير مثال سبق وخلق ما فيهما من الاجرام العلوية والسفلية وانما ابتدأ بذكر خلقهما لانهما
أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار ذكر لهذا الموصول
سبع صلات تشتمل على عشرة أدلة على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته (وأنزل من السماء
ماء) المراد بالسماء هنا جهة العلو فانه يدخل في ذلك الفلك عند من قال ان ابتداء المطر منه
ويدخل فيه السحاب عند من قال ان ابتداء المطر منها ويدخل فيه الاسباب التي تثير
السحاب كالرياح قيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الريح ومن
الريح الى الارض وتنكير الماء هنا للنوعية أي نوعا من أنواع الماء وهو ماء المطر (فأخرج
به) اي بذلك الماء (من الثمرات) المتنوعة (رزقا لكم) اي لبني آدم يعيشون به ومن
للبيان كقولك أنفقت من الدراهم وقيل للتبعيض لان الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم
ومنها ما هو ليس برزق لهم وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به والثمر اسم يقع على ما يحصل
من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا كقوله تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم
حصاده وقيل المراد به ما يشمل المطعوم والملبوس (وسخر لكم الفلك) اي السفن الجارية
على الماء جرت على ارادتكم لاجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات
وغيرها من بلد الى بلد آخر فاستعملتموها في مصالحكم ولذا قال (لتجري في البحر) كما تريدون
وعلى ما تطلبون بالركوب والحمل ونحو ذلك (بأمره) اي بأمر الله ومشيئته واذنه وقد تقدم
تفسير هذا في البقرة (وسخر لكم الانهار) بكل فائدة قاله مجاهد أي ذللها لكم بالركوب
عليها والاجراء لها الى حيث تريدون وهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس
والقمر) لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما (دائبين) الدؤب مرور الشيء في العمل
على عادة جارية والدائب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه
ودأب في عمله جد وتعب وبابه قطع وخضع فهو دائب بالالف لا غير والدائبان الليل والنهار
والدأب بسكون الهمزة العادة والشأن وقد يحرك ومعنى دائبين يجريان دائما في اصلاح
ما يصلحانه من النبات والحيوان وازالة الظلمة لان الشمس سلطان النهار وبها يعرف
فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل

ولا يسأمون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون ان هو الا رشح مسك يعرقون ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال مثل الفريقين أي الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالاعمى والاصم وهؤلاء كالبصير والسميع فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا وفي الآخرة لا يهتدي الى خير ولا يعرفه أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم الآية وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل فهل يستوي هذا وهذا (١٥٥) أفلا تذكرون أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الاخرى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون وكقوله وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ان أنت الا نذير انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من أمة الا خلا فيها نذير (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين ألا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله الى أهل الارض من المشركين عبدة الاصنام انه قال لقومه اني لكم نذير مبين أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله ان أنتم عبدتم غير الله ولهذا قال ان لا تعبدوا الا الله وقوله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم أي ان استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذابا أليما موجعا شاقا في الدار الآخرة فقال الملأ الذين كفروا من قومه والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ما نراك الا بشرا مثلنا أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحي اليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الاشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروّ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي أي في أول بادي الرأي ثم ما نرى لكم علينا من فضل يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم

وانعامه على عباده وقيل دائبين في السير امتثالا لامر الله قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله والمعنى يجريان الى يوم القيامة ولا يفتران ولا ينقطع سيرهما في فلكهما وهو السماء الرابعة للشمس وسماء الدنيا للقمر الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون اليه من امور دنياكم والليل لتسكنوا فيه كما قال سبحانه ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولم يقتصر على النعم المتقدمة بل (وآتاكم من كل) نوع وصنف (ما سألتموه) قال الاخفش اي أعطاكم من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر وقيل المعنى من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه قاله ابن الانباري لان نعمه علينا أكثر من ان تحصى وقيل من زائدة وبه قال الاخفش اي آتاكم كل ما سألتموه وقيل للتبعيض اي بعض ما سألتموه وهو رأي سيبويه قال عكرمة أي من كل شيء رغبتم اليه فيه وعن مجاهد مثله وعن الحسن من كل الذي سألتموه وقرئ من كل بتنوين وعلى هذا ما نافية حرفية أي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له أو مصدرية أو موصولة اسمية (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أي وان تتعرضوا لتعداد النعم التي أنعم الله تعالى بها عليكم اجمالا فضلا عن التفصيل لا تطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الاحوال وفي السمين النعمة هنا بمعنى المنعم به وأصل الاحصاء ان الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظه بها ومن المعلوم انه لو رام فرد من افراد العباد ان يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنه أصلا فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة اليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها اللهم انا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه الا أنت ومما علمناه شكرا لا يحيط به حصر ولا يحصره عد وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان قال سليمان التيمي ان الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم وعن بكر بن عبد الله المزني قال يا ابن آدم ان أردت ان تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال من لم يعرف نعمة الله عليه الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وعن أبي أيوب القرشي

هذا بل نظنكم كاذبين أى فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الدار الآخرة اذ صرتم اليها هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه فان الحق فى نفسه صحيح سواء اتبعه الاشراف أو الاراذل بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الاشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الاراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس والغالب على الاشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها (١٥٦) انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم فقال هرقل هم اتباع الرسل وقولهم بادى الرأى ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق اذا وضح لا يبقى للرأى ولا للفكر مجال بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء بل لا يفكر ههنا الا غبى أو عيى والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انما جاؤا بأمر جلى واضح وقد جاء فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر فانه لم يتلعثم أى ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا فبادر اليه وسارع وقولهم وما نرى لكم علينا من فضل هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم فى ريبهم يترددون فى ظلمات الجهل يعمهون وهم الافاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون وفى الآخرة هم الأخسرون (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) يقول تعالى مخبرا عما رد به نوح على قومه فى ذلك أرأيتم ان كنت على بينة من ربى أى على يقين وأمر جلى ونبوة صادقة وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم فعميت عليكم أى خفيت عليكم فلم تهتدوا اليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم الى تكذيبها وردها أنلزمكموها أى نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون) يقول لقومه لا أسألكم على نصحى لكم

مكة

قال قال داود عليه السلام رب اخبرنى ما أدنى نعمتك على فأوحى اليه يا داود تنفس فتنفس فقال هذا أدنى نعمتى عليك (ان الانسان لظلوم) لنفسه باغفاله لشكر نعم الله عليه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر فى غير موضعه وظاهره شمول كل انسان وقال الزجاج ان الانسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال ان الانسان لفى خسر وقيل يريد أبا جهل والاول أولى (كفار) أى شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما ينبغى ويجب عليه عن عمر بن الخطاب قال اللهم اغفر لى ظلمى وكفرى فقال قائل يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر قال ان الانسان لظلوم كفار وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع (واذ قال ابراهيم) أى واذكر وقت قوله ولعل المراد بسياق ما قاله ابراهيم عليه السلام فى هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم وهى اسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة وقيل ان ذكر قصة ابراهيم ههنا لمثال الكلمة الطيبة وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد وانكار عبادة الاصنام وهذه القصة كانت بعد ما وقع له من الالقاء فى النار وفى تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفى هذه قد دعا وتضرع ومقام الدعاء اجل وأعلى من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قاله العارفون فكون ابراهيم قد ترقى وانتقل من طور الى طور من أطوار الكمال (رب اجعل هذا البلد) أى مكة (آمنا) أى ذا أمن الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقدم طلب الامن على سائر المطالب المذكورة بعده لانه اذا انتفى الامن لم يفرغ الانسان لشئ آخر من أمور الدنيا والدين وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى البقرة عند قوله تعالى رب اجعل هذا بلدا آمنا والفرق بين ما هنا وما هنالك ان المطلوب هنا مجرد الامن للبلد والمطلوب هنالك البلدية والامن وفى الجمل فسر الشارح البلد هنا بمكة وفى سورة البقرة بالمكان فيقتضى ان هذا الدعاء وقع مرتين مرة قبل بنائها ومرة بعده ولذلك كتب الكرخى هنالك ما نصه نكر البلد هنا وعرفه فى ابراهيم لان الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلدا فطلب من الله ان يجعل ويصير بلدا آمنا وثم كانت بعد جعله بلدا انتهى وقال الزمخشرى سأل فى الاول ان يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون وفى الثانى ان يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا انتهى قلت والمعانى متقاربة والمراد من الدعاء جعل

مالا اجرة آخذها منكم اعا أبتغي الاجر من الله عزوجل وما أنا بطارد الذين آمنوا كأنهم طلبوا منه ان يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاسة منهم ان يجلسوا معه كما سأل أمثالهم خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ان يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا فأنزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الآية وقال تعالى وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين الآية (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم (١٥٧) بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين) يخبرهم انه رسول من الله يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له باذن الله له فى ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرا بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب له نجا ويخبرهم انه لا قدرة له على التصرف فى خزائن الله ولا يعلم من الغيب الا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم انهم ليس لهم عند الله ثواب على اعمالهم الله أعلم بما فى أنفسهم فان كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالما قائلا ما لا علم له به (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) يقول تعالى مخبرا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه والبلاء

مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على تخريبها وان أغار جماعة من الجبابرة عليها او أخافوا أهلها وقيل هو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين من الحبشة على ما فى الصحيحين فلا تعارض بين النصين أو المراد جعل أهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين وغيرهم وهذا الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها الى الآن قال السيوطى وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه (واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) يقال جنبته كذا وأجنبته أى باعدته عنه ثلاثيا ورباعيا وهى لغة نجد وجنبه اياه مشددا وهى لغة الحجاز وهو المنع وأصله من الجانب كأنه سأله ان يبعده عن جانب الشرك بالطاف منه وأسباب خفية والمعنى باعدنى وباعد بنى عن عبادة الاصنام قيل أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية وقيل أراد من كان موجودا حال دعوته من بنيه وبنى بنيه وقيل أراد جميع ذريته ما تناسلوا قيل ويؤيد ذلك ما قيل من انه لم يعبد أحد من أولاد ابراهيم صنما والصنم هو التمثال الذى كانت تصنعه أهل الجاهلية من الاحجار ونحوها فيعبدونه والتأييد هذا يستقيم على القولين الاولين وأما القول الثالث فلا يستقيم فقريش من أولاد اسمعيل وقد عبدوا الاصنام بلا شك وقال الواحدى المعنى وبنى الذين أذنت لى فى الدعاء لهم وقد كان من بنيه من عبد الصنم فيكون هذا الدعاء من العام المخصوص وقيل هذا مختص بالمؤمنين من أولاده بدليل قوله فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فليس منه وعن مجاهد قال فاستجاب الله لابراهيم دعوته فى ولده فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمنا ورزق أهله من الثمرات وجعله اماما وجعل من ذريته من يقيم الصلاة وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه قيل هو دعاء لنفسه فى مقام الخوف أو قصد به الجمع بينه وبين بنيه ليستجاب لهم ببركته والمراد طلب الثبات والدوام على ذلك (رب انهن أضللن كثيرا من الناس) أسند الاضلال الى الاصنام مع كونها جمادات لا تعقل لانها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه واعادة النداء لتأكيد النداء وكثرة الابتهال والتضرع وهذا التركيب مجاز كقولهم فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال (فمن تبعنى) أى من تبع دينى من الناس فصار مسلما موحدا (فانه منى) أى من أهل

موكل بالمنطق قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا أى حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك فأتنا بما تعدنا أى من النقمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ان كنت من الصادقين قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين أى انما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شئ ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم اى أى شئ يجدى عليكم ابلاغى لكم وانذارى اياكم ونصحي ان كان الله يريد ان يغويكم أى أغواءكم ودماركم هو ربكم واليه ترجعون أى هو مالك أزمة الامور المتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور له الخلق وله الامر وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة (أم يقولون افتراه

قل ان افتريته فعلى اجرامى وأنا برىء مما تجرمون) هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد لها ومقرر لها يقول تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده قل ان افتريته فعلى اجرامى أى فاثم ذلك على وأنا برىء مما تجرمون أى ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى لانى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) يخبر تعالى انه أوحى الى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم دعوته التى قال الله تعالى مخبرا عنه انه قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فدعا ربه انى مغلوب فانتصر فعند ذلك أوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم واصنع الفلك يعنى السفينة باعيننا أى بمرأى منا ووحينا أى تعليمنا لك ماذا تصنعه ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فقال بعض السلف أمره الله تعالى ان يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرها فى مائة سنة أخرى وقيل أربعين سنة والله أعلم وذكر ابن اسحق عن التوراة ان الله أمره ان يصنعها من خشب الساج وان يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وان يطلى باطنها وظاهرها بالقار وان يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع وعن ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم قالوا كلهم وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للانس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها وقد ذكر الامام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس انه قال قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب حام بن نوح قال فضرب الكثيب بعصاه

دينى جعل أهل ملته كنفسه مبالغة (ومن عصانى) فلم يتابعنى ولم يدخل فى ملتى (فانك غفور رحيم) قادر على ان تغفر له قيل قال هذا قبل ان يعلم ان الله لا يغفر ان يشرك به كما وقع منه الاستغفار لابيه وهو مشرك قاله ابن الانبارى وقيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك قاله مقاتل وقيل ان هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك قاله السدى وقيل تغفر له بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب والاول أولى ثم قال (ربنا انى أسكنت من ذريتى) قال الفراء من للتبعيض أى بعض ذريتى وقال ابن الانبارى انها زائدة أى أسكنت ذريتى والاول أولى لانه انما أسكن اسمعيل وهو بعض ولده وامه هاجر (بواد) هو المنخفض بين الجبلين (غير ذى زرع) أى لا زرع فيه قط وهو وادى مكة أو لا يصلح للانبات لانه أرض حجرية لا تنبت شيئا ان يكون اسكانهم لاجل الزراعة (عند بيتك المحرم) أى الذى كان قبل الطوفان وأما وقت دعائه فلم يكن وانما كان تلا من الرمل وأما البيت فقد رفع الى السماء من حين الطوفان ولو جعل التجوز باعتبار ما يؤول لكان صحيحا أيضا يعنى انه سيعمر أو يبنى الذى جرى فى سابق علمك انه سيحدث فى هذا المكان وسمى محرما لان الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه ولانه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا لانه أعتق منه وقيل انه محرم على الجبابرة وقد تقدم فى سورة المائدة ما يغنى عن الاعادة أخرج الواقدى وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال كانت سارة تحت ابراهيم فمكثت تحته دهرا لا ترزق منه ولدا فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية فولدت له اسمعيل فغارت من ذلك سارة ووجدت فى نفسها وعتبت على هاجر فحلفت ان تقطع منها ثلاثة أطراف فقال لها ابراهيم هل لك ان تبرى يمينك قالت كيف أصنع قال اثقبى أذنيها واخفضيها والخفض هو الختان ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا فقالت سارة أرانى انما زدتها جمالا فلم تقاره على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجدا شديدا فنقلها الى مكة فكان يزورها فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها ثم قال (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام لام كى أى ما أسكنتهم بهذا الوادى الخالى من كل مرتفق ومرتزق الا لاقامة الصلاة فيه متوجهين اليه متبركين به وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ولعل تكرير النداء وتوسيطه

قال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام أهكذا هلكت قال لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت انها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل الى نوح عليه السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله اليه ان اضرب بين عيني الاسد فضرب فوقع سنور وسنورة (١٥٩) فاقبلا على الفأر فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح ان البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم ان البلاد قد غرقت قال فطوقها الخضرة في عنقها ودعا لها ان تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله الا تنطلق به الى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له قال فقال له عد باذن الله فعاد ترابا وقوله (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أي يهزؤن به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم) الآية وعد شديد وتهديد أكيد (من يأتيه عذاب يخزيه) أي يهينه في الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أي دائم مستمر أبدا (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل) هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام اذا جاء أمر الله من الامطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر بل هو كما قال تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر واما قوله وفار التنور فعن ابن عباس التنور وجه الارض أي صارت الارض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه واشراقه والاول أظهر وقال مجاهد والشعبي كان هذا التنور بالكوفة وعن ابن عباس عين بالهند وعن قتادة عين بالجزيرة

لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة وللاشعار بانها المقصودة بالذات من اسكانهم ثم والمقصود من الدعاء توفيقهم لها وقيل اللام لام الامر والمراد الدعاء لهم باقامة الصلاة كأنه طلب منهم الاقامة وسأل من الله ان يوفقهم لها اثبت ان الاقامة عنده للعبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر (فاجعل أفئدة) الافئدة جمع فؤاد وهو القلب عبر به عن جميع البدن لانه أشرف عضو فيه وقيل هو جمع وفد والاصل أوفدة فكأنه قال واجعل وفودا (من الناس تهوي اليهم) من للتبعيض وقيل زائدة ولا يلزم منه ان يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس لان المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب اليهم لا توجيهها الى الحج ولو كان هذا مرادا لقال تهوي اليه وقيل من للابتداء كقوله القلب مني سقيم تريد قلبي ومعنى تهوي اليهم تنزع اليهم وقيل تسرع وقيل وتحن اليهم لزيارة بيتك لا لذواتهم وأعيانهم وفي هذا بيان ان حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم يقال هوى نحوه اذا مال وهوت الناقة تهوي هويا فهي هاوية اذا عدت عدوا شديدا كأنها تهوي في بئر ويحتمل ان يكون المعنى تجيء اليهم أو تسرع اليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق اليهم وأصله ان يتعدى باللام وانما تعدى بالى لانه ضمن معنى تميل قال السدي أي أمل قلوبهم الى هذا الموضع وقيل تريدهم قاله الفراء وقيل تنحط اليهم وتنحدر وتنزل وهذا قول أهل اللغة والمعاني متقاربة قال ابن عباس لو قال افئدة الناس لازدحمت عليه فارس والترك والروم والهند ولحج اليهود والنصارى والناس كلهم ولكنه قال افئدة من الناس فخص به المؤمنين أخرجه البيهقي قال السيوطي بسند حسن وفيه دعاء للمؤمنين بان يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته (وارزقهم) أي ذريتي الذين أسكنتهم هنالك أو اياهم ومن يساكنهم من الناس (من) أنواع (الثمرات) التي تنبت فيه كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار أو المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة لقوله تعالى تجبى اليه ثمرات كل شيء وهذا أولى (لعلهم يشكرون) نعمتك التي أنعمت بها عليهم قال محمد بن مسلم ان ابراهيم لما دعا للحرم نقل الله الطائف من فلسطين وعن الزهري قال ان الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها

يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام ان يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الارواح قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكرا وانثى فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق ابليس بذنبه فدخل بيديه وجعل يريد ان ينهض فيثقله ابليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام مالك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال ادخل وان كان ابليس معك فدخلا في السفينة وذكر بعض السلف انهم لم يستطيعوا ان يحملوا معهم الاسد (١٦٠) حتى ألقيت عليه الحمى وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن المواشي ومعها الاسد فسلط الله عليه الحمى فكان أول حمى نزلت في الارض ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فاوحى الله الى الاسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفارة منها وقوله وأهلك الا من سبق عليه القول أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته الا من سبق عليه القول منهم من لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله وقوله ومن آمن أي من قومك وما آمن معه الا قليل أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة الا خمسين عاما فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم وعن كعب الاحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل كانوا عشرة وقيل انما كانوا نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الاربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام وقيل بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة وهذا فيه نظر بل الظاهر انها هلكت لانها كانت على دين قومها فاصابها ما اصابهم كما اصاب امرأة لوط ما اصاب قومها والله اعلم واحكم (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يقول تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام انه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة اركبوا فيها بسم الله

بالطائف لدعوة ابراهيم وأما اجابة قوله فاجعل أفئدة الخ فقد حصلت بجرهم وقد استمر قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام الى آخر الزمان (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) أي ما نكتمه وما نظهره لان الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان لا تفاوت فيهما قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره وقدم الاخفاء على الاعلان للدلالة على انهما مستويان في علم الله سبحانه وظاهر النظم القرآني عموم كل ما يظهره وما لا يظهره من غير تقييد بشيء معين من ذلك وقيل المراد ما يخفيه ابراهيم من وجده باسمعيل وامه حيث أسكنهما بواد غير ذي زرع وما يعلنه من ذلك وقيل ما يخفيه ابراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء والمجيء بضمير الجماعة يشعر بان ابراهيم لم يرد نفسه فقط بل أراد جميع العباد فكان المعنى ان الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه (وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء) قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقا لما قاله ابراهيم من انه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه فقال سبحانه ما يخفى عليه شيء من الاشياء الموجودة كائنا ما كان وانما ذكر السموات والارض لانهما المشاهدتان للعباد والا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية قيل ويحتمل ان يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقا لقوله الاول وتعميما بعد التخصيص فان قيل بالاول فهو اعتراض بين كلامي ابراهيم وان قيل بالثاني ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه فقال (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) أي على كبر سني وسن امرأتي (اسمعيل واسحق) قيل ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقيل على هنا بمعنى مع أي مع كبري ويأسي عن الولد عن سعيد بن جبير قال بشر ابراهيم بعد سبع عشرة ومائة سنة ونعمة الولد في هذا السن من أعظم المنن لانه سن اليأس فلهذا شكر الله على هذه المنة وهذا قاله ابراهيم في وقت آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء لان الظاهر انه دعا بذلك الدعاء المتقدم أول ما قدم بهاجر وابنها وهي ترضعه ووضعها عند البيت واسحق لم يولد في ذلك الوقت قال الكرخي وزمان الدعاء والحمد مختلف فان الدعاء في طفولية اسمعيل ولم يكن اسحق حينئذ (ان ربي لسميع الدعاء) أي لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه اذا أجابه واعتد به وعمل بمقتضاه وهو من اضافة

مجريها ومرساها اى بسم الله يكون جريها على وجه الماء وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها وقرأ أبو رجاء العطاردى بسم
الله مجريها ومرساها وقال الله تعالى فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب
أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الامور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى
والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره الآية وجاءت السنة بالحث على ذلك
والندب اليه كما سيأتى فى سورة الزخرف ان شاء الله وبه الثقة وقال ابو القاسم الطبرانى حدثنا ابراهيم بن
هاشم البغوى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا محمد بن موسى الحرشى قالا حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى عن نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أمان أمتى من الغرق اذا ركبوا فى السفن ان يقولوا بسم الله الملك وماقدروا الله حق قدره الآية بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم وقوله ان ربى لغفور رحيم مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين باغراقهم أجمعين فذكر انه غفور رحيم كقوله ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب الى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين رحمته وانتقامه وقوله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال أى السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذى قد طبق جميع الارض حتى طفف على رؤس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا وقيل بثمانين ميلا وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة باذن الله وتحت كنفه
وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم
تذكرة وتعيها اذن واعية وقال تعالى وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر
وقوله ونادى نوح ابنه الآية هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم
ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء وقيل انه اتخذ له مركبا من زجاج وهذا من الاسرائيليات
والله أعلم بصحته والذى نص عليه القرآن انه قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء اعتقد بجهله ان الطوفان لا يبلغ الى رؤس الجبال

الصفة المتضمنة للمبالغة الى المفعول والمعنى انك لكثير اجابة الدعاء لمن يدعوك وكان
ابراهيم قد دعا ربه فسأله الولد بقوله رب هب لى من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه قال
الحمد لله الخ ثم سأل الله سبحانه بان يجعله مقيم الصلاة محافظا عليها غير مهمل لشئ منها
فقال (رب اجعلنى مقيم الصلاة) اى ممن يقيمها باركانها او يحافظ عليها فى أوقاتها ثم قال
(ومن ذريتى) اى اجعلنى واجعل بعض ذريتى مقيمين للصلاة وانما خص البعض من
ذريته لانه علم ان منهم من لا يقيمها كما ينبغى ثم سأل الله سبحانه ان يتقبل دعاءه على العموم
فقال (ربنا وتقبل دعاء) ويدخل فى ذلك دعاؤه فى هذا المقام دخولا أوليا قيل والمراد
بالدعاء هنا العبادة فيكون المعنى وتقبل عبادتى التى أعبدك بها ثم طلب من الله سبحانه أن
يغفر له ما وقع منه مما يستحق ان يغفره الله وان لم يكن كبيرا لما هو معلوم من عصمة الانبياء
عن الكبائر فقال التجاء الى الله وقطعا للطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه واعترافا
بالعبودية لله والاتكال على رحمته (ربنا اغفر لى ولوالدىّ) قيل انه دعا لهما بالمغفرة
قبل ان يعلم انهما عدوان لله سبحانه وقيل بشرط الاسلام وقيل كانت أمه مسلمة والاول
أولى وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وفيه بعد وقرئ شاذا ولولدىّ يعنى اسمعيل واسحق
وأنكرها الجحدرى بان فى مصحف ولأبوىّ فهى مفسرة لقراءة العامة (وللمؤمنين)
ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أم لم يكن منهم وقيل أراد المؤمنين من ذريته
فقط والاول أولى والله تعالى لا يرد دعاء خليله ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات
بالمغفرة اللهم اغفر لى مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا وانى من ذرية خليلك ابراهيم
فاغفر لى ولمن أخلفه من المؤمنين (يوم يقوم الحساب) اى يوم يثبت حساب المكلفين
فى المحشر استعير له لفظ يقوم الذى هو حقيقة فى قيام الرجل للدلالة على انه فى غاية
الاستقامة وقيل ان المعنى يوم يقوم الناس للحساب وقيل يبدو ويظهر فيه الحساب
والاول أولى (ولا تحسبن) بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان أى لا تظنن (الله غافلا
عما يعمل الظالمون) خطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو تعريض لامته فكأنه
قال ولا تحسب أمتك يا محمد ويجوز أن يكون خطابا لكل من يصلح له من المكلفين وان
كان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لامته فمعناه التثبيت على ما كان
عليه من عدم الحسبان كقوله ولا تكونن من المشركين ونحوه وقيل المراد ولا تحسبنه

وانه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق فقال له أبوه نوح عليه السلام لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم أي ليس شئ
يعصم اليوم من أمر الله وقيل ان عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاسي بمعنى مطعوم ومكسو وحال بينهما الموج فكان من
المغرقين (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)
يخبر تعالى انه لما أغرق أهل الارض كلهم الا أصحاب السفينة أمر الارض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها وأمر السماء
أن تقلع عن المطر وغيض الماء أي شرع (١٦٢) في النقص وقضي الامر أي فرغ من أهل الارض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق

يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم أو يكون المراد بالنهي
عن الحسبان الايذان بانه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية قال ميمون بن مهران في الآية
هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم وعن سفيان بن عيينة نحوه والغفلة معنى يمنع الانسان
من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ
والتيقظ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعلام للمشركين بان تأخير
العذاب عنهم ليس للرضا بافعالهم بل سنة الله سبحانه في امهال العصاة (انما يؤخرهم) اى
يؤخر جزاءهم وعذابهم ولا يؤاخذهم بظلمهم وهذه الجملة استئناف وقع تعليلا للنهي
السابق (ليوم) اى لاجل يوم فاللام للعلة وقيل بمعنى الى اى الى الغاية (تشخص فيه الابصار)
اى أبصارهم فلا تقر في أماكنها قال الفراء المعنى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ولا تغمض
من هول ما تراه في ذلك اليوم شخوص البصر حدة النظر وعدم استقراره في مكانه يقال
شخص سمعه وبصره وأشخصهما صاحبهما وشخص بصره أى لم يطرف جفنه ويقال
شخص من بلده أي بعد والشخص سواد الانسان المرئي من بعد والمراد ان الابصار
بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة قال قتادة شخصت فيه والله أبصارهم
فلا ترتد اليهم قيل أل للعهد وقيل لو حمل على العموم كان أبلغ في التهويل وأسلم من التكرير
(مهطعين) اى مسرعين قاله قتادة وزاد في الجمل الى الداعي وهو اسرافيل وقيل هو جبريل
والنافخ اسرافيل قال الشهاب وهو الاصح كما دلت عليه الآثار وقيل المهطع الذي يديم
النظر قاله مجاهد قال أبو عبيدة قد يكون الوجهان جميعا يعني الاسراع مع ادامة النظر
وقيل المهطع الذي لا يرفع رأسه وقال ثعلب المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع وقيل هو
الساكت قال النحاس والمعروف في اللغة أهطع اذا أسرع وبه قال أبو عبيدة قال ابن
عباس يعني بالاهطاع النظر من غير ان يطرف (مقنعي رؤسهم) اقناع الرأس رفعه
وأقنع صوته اذا رفعه قال ابن عباس الاقناع رفع الرأس والمعنى انهم يومئذ رافعون
رؤسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم الى بعض وقيل ان اقناع
الرأس نكسه وقيل يقال أقنع اذا رفع رأسه وأقنع رأسه اذا طأطأه ذلة وخضوعا والآية
محتملة للوجهين قال المبرد والقول الاول أعرف في اللغة (لا يرتد اليهم طرفهم) اى لا ترجع
اليهم أبصارهم من شدة الخوف وأصل الطرف تحريك الاجفان وسميت العين طرفا لانه
يكون

منهم ديار واستوت السفينة بمن
فيها على الجودي قال مجاهد وهو
جبل بالجزيرة تشامخت الجبال
يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع
هو لله عز وجل فلم يغرق وأرست
عليه سفينة نوح عليه السلام
وقال قتادة استوت عليه شهرا
حتى نزلوا عنها قال قتادة قد أبقى
الله سفينة نوح عليه السلام على
الجودي من أرض الجزيرة عبرة
وآية حتى رآها أوائل هذه الامة
وكم من سفينة قد كانت بعدها
فهلكت وصارت رمادا وقال
الضحاك الجودي جبل بالموصل
قال بعضهم هو الطور وقال ابن أبي
حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع
حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن
سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلي
في الزاوية حين يدخل من أبواب
كندة على يمينك فسألته انك لكثير
الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني
ان سفينة نوح أرست من ههنا
وقال علي بن أحمد عن عكرمة عن
ابن عباس قال كان مع نوح في
السفينة ثمانون رجلا معهم
أهلوهم وانهم كانوا فيها مائة
وخمسين يوما وان الله وجه السفينة
الى مكة فطافت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله الى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر
الارض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن
الماء قد نضب فهبط الى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة احداها
اللسان العربي فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم وقال كعب الاحبار ان السفينة طافت ما بين
المشرق والمغرب قبل ان تستقر على الجودي وقال قتادة وغيره ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم

على الجودى شهرا وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير وانهم
صاموا يومهم ذلك فالله أعلم وقال الامام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الازدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن
شبل عن أبى هريرة قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال ما هذا الصوم قالوا هذا
اليوم الذى نجى الله موسى وبنى اسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح
وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم (١٦٣) أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم فصام
وقال لاصحابه من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ومن كان أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد فى الصحيح وقوله وقيل بعدا للقوم الظالمين أى هلاكا وخسارا لهم وبعدا من رحمة الله فانهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية وقد روى الامام أبو جعفر ابن جرير والحبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يعقوب ابن موسى الزمعى عن قائد مولى عبيد الله بن أبى رافع ان ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره ان عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نوح عليه السلام مكث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما يعنى وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك
خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما
بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى وهذا
حديث غريب من هذا الوجه وقد روى عن كعب الاحبار ومجاهد بن جبير قصة هذا الصبى وأمه بنحو من هذا (ونادى نوح ربه
فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس
لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من

يكون لها وقال ابن عباس يعنى شاخصة أبصارهم قد شغلهم ما بين أيديهم (وأفئدتهم هواء) الهواء فى اللغة الجوف الخالى الذى لم تشغله الاجرام والمعنى ان قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش وجعلها نفس الهواء مبالغة ومنه قيل للاحمق والجبان قلبه هواء أى لا رأى فيه ولا قوة وقيل معنى الآية انها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر لا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها وقيل هواء بمعنى مترددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه وقيل المعنى ان أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير قال ابن عباس ليس فيها شئ من الخير فهى كالخربة قال قتادة ليس فيها شئ خرجت من صدورهم فنشبت فى حلوقهم وعن مرة قال متخرقة لا تعى شيأ وقيل المعنى وأفئدتهم ذات هواء ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أى خاليا من كل شئ الا من هم موسى عليه السلام والحاصل ان القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وأنذر الناس) هذا رجوع الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره الله سبحانه بان ينذرهم والمراد الناس على العموم وقيل المراد كفار مكة وقيل الكفار على العموم والاول أولى لان الانذار كما يكون للكافر يكون أيضا للمسلم ومنه قوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر (يوم يأتيهم العذاب) أى يوم القيامة قاله مجاهد أى خوفهم يوم اتيان العذاب وانما اقتصر على ذكر اتيان العذاب فيه مع كونه يوم اتيان الثواب أيضا لان المقام مقام تهديد وقيل المراد به يوم موتهم فانه أول أوقات اتيان العذاب وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل (فيقول الذين ظلموا) المراد بهم هنا هم الناس أى فيقولون والعدول الى الاظهار مكان الاضمار للاشعار بان الظلم هو العلة فيما نزل بهم هذا اذا كان المراد بالناس هم الكفار وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار (ربنا أخرنا) أى أمهلنا (الى أجل قريب) أى أمد من الزمان معلوم غير بعيد (نجب دعوتك) لعبادك على ألسن أنبيائك الى توحيدك (ونتبع الرسل) المرسلين منك الينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ونتدارك ما فرط منا من الاهمال وانما جمع الرسل لان دعوتهم الى التوحيد متفقة فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم وهذا

الذى غرق قال رب ان ابنى من أهلى أى وقد عن حال ولده وكشف من نوح عليه السلام هذا سؤال استعلام وعدتنى ووعدك الحق الذى لا يخلف فكيف غرق قال يا نوح انه ليس من أهلك الذين وعدت انجاءهم لانى انما وعدت نجاة من آمن من أهلك ولهذا قال وأهلك الا من سبق عليه القول منهم فكان هذا ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره وقد نص غير واحد على تخطئة من ذهب الى أنه ليس بابنه وانما كان ابن زنية ويحكى القول انه ليس بابنه وانما هو ابن امرأته عن مجاهد والحسن وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ما زنت امرأة نبي قط قال وقوله ليس من أهلك أى الذين وعدتك نجاتهم وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه فان الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا عائشة قال عكرمة فى بعض الحروف انه عمل عملا غير صالح ولهذا قال الامام أحمد حدثنا يزيد ابن هرون حدثنا حماد عن ثابت عن شهر عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ انه عمل غير صالح وسمعته يقول يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن ابن عيينة عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن (١) سمعت ابن عباس سئل عن قوله فخانتاهما قال اما انه ليس بالزنا ولكن كانت هذه تخبر الناس انه مجنون وكانت هذه تدل على الاضياف ثم قرأ انه عمل غير صالح قال ابن عيينة وأخبرنى عمار الذهبى انه سأل سعيد بن جبير عنه فقال كان ابن نوح ان الله لا يكذب قال ونادى نوح ابنه قال وقال بعض العلماء ما فجرت امرأة نبي قط وكذا روى عن مجاهد أيضا وهو اختيار ابن جرير وهو الصواب (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودى من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته الى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة قال ابن اسحق لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الارض فسكن الماء وانسدت ينابيع الارض (٢) العمر الاكبر وأبواب السماء يقول الله تعالى وقيل يا أرض ابلعى ماءك الآية فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر

منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق فى الآخرة ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ثم حكى الله سبحانه ما يجاب به عنهم عند ان يقولوا هذه المقالة فقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) اى فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعا من قبل الله أو الملائكة والاستفهام تقريرى قال ابن عباس من زوال عما أنتم فيه الى ما تقولون وقال السدى بعث بعد الموت أى ألم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا وقيل انه لا قسم منهم حقيقة وانما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم فى الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا وقيل قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم فى قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وجواب القسم ما لكم من زوال وانما جاء بلفظ الخطاب فى ما لكم لمراعاة أقسمتم ولولا ذلك لقال ما لنا من زوال (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أى استقررتم يقال سكن الدار وسكن فيها وهى بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له وقال الحسن عملتم بمثل أعمالهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار (كيف فعلنا بهم) من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا من الذنوب وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هى عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وقيل فاعله مضمر لدلالة الكلام عليه أى حالهم وخبرهم وهلاكهم (وضربنا لكم الامثال) فى كتب الله وعلى ألسن رسله ايضاحا لكم وتقريرا وتكميلا للحجة عليكم (وقد مكروا) اى فعلنا بهم ما فعلنا والحال انهم قد مكروا فى رد الحق واثبات الباطل (مكرهم) العظيم الذى استفرغوا فيه وسعهم وقيل المراد كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين هموا بقتله ونفيه كما ذكر فى سورة الانفال والاول أولى (وعند الله مكرهم) اى علمه أو جزاؤه أو مكتوب مكرهم فهو مجازيهم أو وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به على ان يكون المكر مضافا الى المفعول وقيل المراد ما وقع من النمرود حيث حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتا وربط قوائمه باربعة نسور وروى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه باطول من هذا وروى نحو هذه القصة لبختنصر وللنمرود من طرق ذكرها فى الدر المنثور واستبعدها بعض أهل العلم وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل ان يقدم على مثل هذا الامر العظيم الذى ذكروه وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه

(١) بياض بالاصل

(٢) قوله ينابيع الارض العمر الاكبر الخ هكذا فى الاصل وحرره اه

وكان استواء الفلك على الجودى فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه فى أول يوم من الشهر العاشر
رأى رؤس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح كوة الفلك التى ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر ما صنع الماء فلم يرجع اليه
فأرسل الحمامة فرجعت اليه لم تجد لرجليها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت
حين أمست وفى فيها ورق زيتون فعلم نوح ان الماء قد قل عن وجه الارض ثم مكث سبعة أيام فأرسلها فلم ترجع فعلم ان الارض
قد برزت فلما كملت السنة كشف نوح غطاء الفلك وقيل يا نوح (١٦٥) اهبط بسلام منا الآية (تلك من أنباء الغيب نوحيها
اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك
من قبل هذا فاصبر ان العاقبة
للمتقين) يقول تعالى لنبيه صلى
الله عليه وسلم هذه القصة وأشباهها
من أنباء الغيب يعنى من أخبار
الغيوب السالفة نوحيها اليك على
وجهها كأنك شاهدها نوحيها
اليك أى نعلمك بها وحيا منا اليك
ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من
قبل هذا أى لم يكن عندك ولا عند
أحد من قومك علم بها حتى يقول
من يكذب أنك تعلمتها منه بل أخبرك
الله بها كما تشهد به كتب الانبياء
قبلك فاصبر على تكذيبهم وأذاهم
فانا سننصرك ونجعل العاقبة
لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة
كما فعلنا بالمرسلين (والى عاد أخاهم
هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من اله غيره ان أنتم الا مفترون
يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان
أجرى الا على الذى فطرنى أفلا
تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم
ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم
مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم
ولا تتولوا مجرمين) يقول تعالى
ولقد أرسلنا الى عاد أخاهم هودا
آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك
له ناهيا لهم عن الاوثان التى افتروها واختلقوا لها اسماء وأخبرهم انه لا يريد منهم اجرة على هذا النصح انما يبغى ثوابه من الله الذى
فطره أفلا تعقلون من يدعوكم الى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير اجرة ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة
والتوبة عما يستقبلون ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال يرسل السماء عليكم
مدرارا وفى الحديث من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (قالوا يا هود
ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله

لهذه القصة بتأويل الآية البتة (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) وقرئ كاد موضع
كان وقرئ لتزول بفتح اللام على انها لام الابتداء وقرأ الجمهور بكسرها على انها لام الجحود
قال ابن جرير والمختارة هى الاخيرة وان هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة
وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته أى وان الشأن كان مكرهم معدا لذلك قال
الزجاج وان كان مكرهم يبلغ فى الكيد الى ازالة الجبال فان الله ينصر دينه وعلى قراءة
الجمهور يحتمل وجهين أحدهما ان تكون ان هى المخففة من الثقيلة والمعنى كما مر
والثانى ان تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفى كقوله وما كان الله ليضيع
ايمانكم والمعنى ومحال ان تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه
الثابتة على حالها مدى الدهور المشبهة بها فى القرار والبقاء وقال ابن عباس مكرهم
شركهم والمراد بالجبال هنا حقيقتها وقيل المراد بالمكر كفرهم ويناسبه تكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا (فلا تحسبن الله مخلف وعده
رسله) المعنى مخلف رسله وعده قال القتيبى هو من المقدم الذى يوضحه التأخير والمؤخر
الذى يوضحه التقديم وسواء فى ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده وقال الزمخشرى
قدم الوعد ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله
ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه
رسله الذين هم خيرته وصفوته والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله انا لننصر رسلنا
وكتب الله لأغلبن أنا ورسلى (ان الله عزيز) غالب لا يغالبه أحد (ذو انتقام) ينتقم
من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهى وقد مر تفسيره فى أول آل عمران قال قتادة عزيز
والله فى أمره يملى وكيده متين ثم اذا انتقم انتقم بقدرة (يوم) أى اذكروا وارتقب يوم
(تبدل الارض) المشاهدة (غير الارض) والتبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت
الدراهم بالدنانير وقد يكون فى الصفات كما فى بدلت الحلقة خاتما والآية تحتمل الامرين
وبالثانى قال الاكثر (والسموات) أى وتبدل السموات غير السموات لدلالة ما قبله
عليه على الاختلاف الذى مر وتقديم تبديل الارض لقربها ولكون تبديلها أعظم
أثرا بالنسبة الينا أخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال جاء رجل من اليهود الى رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض فقال

واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ما جئتنا ببينة أي بحجة وبرهان على ما تدعيه وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم وما نحن لك بمؤمنين بمصدقين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه يقول إني بريء (١٦٦) من جميع الانداد فكيدوني جميعاً أنتم وآلهتكم ثم لا تنظرون وقوله ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها أي تحت قهره وهو الذي لا يجور فإنه على صراط مستقيم قال الوليد ابن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أيفع بن عبد الكلاعي في قوله تعالى ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها الآية قال يأخذ بنواصي عباده فيلقى المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد بولده ويقول ما غرك بربك الكريم وهذه حجة بالغة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام فإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت قهره لا إله إلا هو (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) يقول لهم

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الظلمة دون الجسر وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة قالت أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قالت أين الناس يومئذ قال على الصراط والصحيح على هذا الزالة عن هذه الارض وأخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الاوسط والبيهقي وابن عساكر وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قول الله يوم تبدل الارض غير الارض قال أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل بها خطيئة قال البيهقي والموقوف أصح وفي الباب روايات وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي وفيهما أيضاً عن حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده الحديث وقد أطال القرطبي في بيان ذلك في تفسيره وفي تذكرته وحاصله أن هذه الاحاديث نص في أن الارض والسموات تبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى تكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس أن تبديل الارض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد أرضها ثم قال وذكر شيبب بن ابراهيم في كتاب الافصاح أنه لا تعارض بين هذه الآثار وأنهما تبدلان كرتين إحداهما هذه الاولى قبل نفخة الصعق والثانية إذا وقفوا في المحشر وهي أرض عفراء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى عليها ظلم ويقوم الناس على الصراط على متن جهنم ثم ذكر في موضع آخر من التذكرة ما يقتضي أن الخلائق وقت تبديل الارض تكون في أيدي الملائكة رافعين لهم عنها قال في الجمل فحصل من مجموع كلامه أن تبديل هذه الارض بأرض أخرى من فضة يكون قبل الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك مرفوعة في أيدي الملائكة وأن تبديل الارض بأرض من خبز يكون بعد الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك على الصراط وهذه الارض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم الجنة (وبرزوا) أي العباد أو الظالمون كما يفيده السياق أي ظهروا من قبورهم ليستوفوا جزاء أعمالهم وهذه هي علة الخروج أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه والتعبير عن المستقبل بالماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ونفخ في الصور (الله الواحد القهار)

هود فإن تولوا عما جئتكم به فقد قامت عليكم الحجة بابلاغي إياكم ويستخلف الله قوماً غيركم يعبدونه وحده ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وباله عليكم إن ربي على كل شيء حفيظ أي شاهد حافظ لأقوال عباده وأفعالهم ولما جاء أمرنا وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بالانبياء فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادي عليهم يوم القيامة على رؤس الاشهاد ألا إن عاداً كفروا ربهم الآية قال السدي ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها

فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب) يقول تعالى ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا
قال هو أنشأكم من الارض أي ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم واستعمركم فيها جعلكم فيها عمارا تعمرونها
وتستغلونها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا ان نعبد ما يعبد
آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان
عصيته فما تزيدونني غير تخسير) يذكر تعالى ما كان من الكلام بينه (١٦٧) وبين قومه وقولهم قد كنت فينا مرجوا
قبل هذا أي كنا نرجوك في عقلك
قبل ان تقول ما قلت أتنهانا ان نعبد
ما يعبد آباؤنا وما عليه أسلافنا واننا
لفي شك مما تدعونا اليه مريب أي
شك كثير قال ياقوم أرأيتم ان كنت
على بينة من ربي فيما أرسلني به
على يقين وبرهان فمن ينصرني
من الله ان عصيته وتركت
دعوتكم الى الحق وعبادة الله
وحده فلو تركته لما نفعتموني ولما
زدتموني غير تخسير أي خسارة
(وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها
تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء
فيأخذكم عذاب قريب فعقروها
فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام
ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا
نجينا صالحا والذين آمنوا معه
برحمة منا ومن خزي يومئذ ان
ربك هو القوي العزيز وأخذ
الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في
ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها
ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا
لثمود) تقدم الكلام عليها في سورة
الاعراف بما أغنى عن اعادته
(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم
بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما
لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى
أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق
ومن وراء اسحق يعقوب قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته
عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) يقول تعالى ولما جاءت الملائكة ابراهيم بالبشرى قيل تبشره باسحق وقيل بهلاك قوم لوط قالوا
سلاما قال سلام أي عليكم قال علماء البيان هذا أحسن مما حيوه به لان الرفع يدل على الثبوت والدوام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ
أي ذهب سريعا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر حنيذ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة هذا معنى ماروى عن ابن عباس

القهار) المتفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده (وترى) التعبير بالمضارع لاستحضار
الصورة (المجرمين) أي المشركين (يومئذ) أي يوم القيامة (مقرنين) أي
مشدودين (في الاصفاد) اما بجعل بعضهم مقرونا مع بعض قاله ابن قتيبة أي بحسب
مشاركتهم في العقائد والاعمال كقوله واذا النفوس زوجت أو قرنوا مع الشياطين كما في
قوله نقيض له شيطانا فهو له قرين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات
الباطلة أو جعلت أيديهم مقرونة الى أرجلهم قاله ابن زيد والمقرن من جمع في القرن وهو
الحبل الذي يربط به والاصفاد الاغلال والقيود قاله قتادة يقال صفدته صفدا أي قيدته
والاسم الصفد بفتحتين فاذا أردت التكثير قلت صفدته ويقال صفدته وأصفدته اذا
أعطيته قال ابن عباس الكبول وعنه يقول في وثاق قال سعيد بن جبير السلاسل
(سرابيلهم) هي القمص قاله السدي وعن ابن زيد مثله واحدها سربال يقال سربلته
أي ألبسته السربال (من قطران) هو قطران الابل الذي تهنأ به قاله الحسن أي
قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل وخص القطران
لسرعة اشتعال النار فيه ولذعه مع نتن رائحته ووحشة لونه وقال جماعة هو النحاس
المذاب وبه قال عمر وابن عباس قال عكرمة هذا القطران يطلى به حتى يشتعل نارا وقال
سعيد بن جبير القطر الصفر والآن الحار وعن عكرمة نحوه والقطران فيه لغات بفتح
القاف وكسر الطاء وهي قراءة العامة وبزنة سكران وبزنة سرحان وهو ما يستخرج من
شجر فيطبخ ويطلى به الابل ليذهب جربها لحدته وقيل هو دهن يحلب من شجر الابهل
والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء ولو أراد الله المبالغة في
احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك
الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام
يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب (وتغشى) أي تعلو (وجوههم
النار) وتضربها وتحللها وقلوبهم أيضا وخص الوجوه لانها أشرف ما في البدن وفيها
الحواس المدركة (ليجزى) أي يفعل ذلك بهم ليجزى (الله) متعلق ببرزوا والجمل
التي بينهما اعتراض كما في السمين (كل نفس ما كسبت) من المعاصي أي جزاء موافقا
لما كسبت من خير أو شر (ان الله سريع الحساب) لا يشغله عنه شئ ولا حساب عن

وقتادة وغير واحد فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وقد تضمنت تنكرهم وأوجس منهم خيفة قال السدي لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صورة رجال شبان حتى نزلوا على ابراهيم فلما رآهم أجلهم فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فذبحه وشواه في الرضف وأتاهم به فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول وامرأته قائمة وهو جالس في دار الضيافة (١) فمن وجوه وقوله فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وذلك ان الملائكة لا يأكلون الطعام فلما رأى حالهم وقراءة استحيب

ابن مسعود فلما قربه اليهم قالوا يا ابراهيم انا لا نأكل طعاما الا بثمن قال فان لهذا ثمنا قالوا فما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدون على آخره فنظر جبريل الى ميكائيل فقال حق لهذا ان يتخذه ربه خليلا فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم فلما نظرت سارة انه قد أكرمهم وقامت تخدمهم ضحكت وقالت عجبا لاضيافنا نخدمهم بانفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا وقوله قالوا لا تخف أي لا تخف منا انا ملائكة أرسلنا الى قوم لوط لنهلكهم فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الاياس وقال قتادة ضحكت وعجبت ان قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة وقوله ومن وراء اسحق يعقوب أي يولد له ولد واستدل بهذه الآية على ان الذبيح اسمعيل لانه وقعت البشارة به وانه سيولد له يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا الآية كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب قالوا أتعجبين من أمر الله فانه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فلا تعجبين وان كنت عجوزا عقيما وبعلك شيخا كبيرا فان الله قادر على ما يشاء رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود) يخبر تعالى عن ابراهيم انه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له انا مهلكو أهل هذه القرية قال لهم أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا لا قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا قالوا لا قال ثلاثون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتكم

حساب بل يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا الحديث بذلك وقد تقدم تفسيره (هذا بلاغ) أي هذا الذي أنزل اليك تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ومبلغ وموصل للناس الى مراتب السعادة قيل ان الاشارة الى ما ذكره سبحانه هنا من قوله ولا تحسبن الله غافلا الى سريع الحساب أي هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة وقيل الاشارة الى جميع السورة وقيل الى القرآن وبه قال ابن زيد وفيه من المحسنات رد العجز على الصدر فقد افتتحت هذه السورة بقوله كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور (للناس) أي للكفار أو لجميع الناس على ما قيل في قوله وانذر الناس أي أنزل لتبليغهم الى ما فيه رشدهم ونفعهم أي لايصالهم الى الخير (ولينذروا به) أي بالقرآن قاله ابن زيد وقرئ بفتح التحتية والذال المعجمة يقال نذرت بالشئ أنذر اذا علمت به واستعددت له (وليعلموا) بالادلة التكوينية المذكورة سابقا أو بالقرآن بما فيه من الحجج (أنما هو اله واحد) لا شريك له (وليذكر اولو الالباب) أي وليتعظ أصحاب العقول السليمة والافهام الصحيحة وهذه اللامات متعلقة بمحذوف والتقدير وكذلك أنزلنا أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي كفاية لهم في ان ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه وانه لا شريك له وليتعظ بذلك أرباب العقول التي تعقل وتدرك

(سورة الحجر)

مكية بالاتفاق والاجماع كما قال القرطبي وعن ابن عباس وابن الزبير مثله وهي تسع وتسعون آية والحجر واد بين المدينة والشام

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) قد تقدم الكلام عليه في محله مستوفى مرارا (تلك) أي ما تضمنته السورة من الآيات (آيات الكتاب) التعريف للتفخيم وقيل هو للجنس والمراد جنس الكتب المنزلة المتقدمة قال مجاهد يعني التوراة والانجيل وقيل المراد به هذه السورة والاضافة بمعنى من وقيل المراد القرآن ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب فقد قيل انه جمع له بين الاسمين عطفا للتغاير اللفظي لاجل التعدد في الاسم بزيادة صفة (وقرآن مبين) أي

الكامل

---

(١) قوله وهو جالس الى قوله فلما رأى حالهم هكذا في الاصول التي بأيدينا وفيها بياض كما ترى فحرره مصححه

ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فقال ابراهيم عليه السلام عند ذلك ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته الآية فسكت عنهم واطمأنت نفسه وقال قتادة وغيره قريبا من هذا زاد ابن اسحق أفرأيتم ان كان فيها مؤمن واحد قالوا لا قال فان كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا نحن أعلم بمن فيها الآية وقوله ان ابراهيم لحليم أواه منيب مدح لابراهيم بهذه الصفات الجميلة وتقدم تفسيرها وقوله يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك الآية أى انه قد نفذ فيهم القضاء (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا (١٦٩) وقال هذا يوم عصيب وجاء قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد) يخبر تعالى عن قدوم الملائكة بعد ما أعلموا ابراهيم بهلاكهم وفارقوه واخبروه باهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطا وهو على ما قيل فى أرض له وقيل فى منزله وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شباب حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة البالغة فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشى ان لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء وقال هذا يوم عصيب قال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك انه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك وذكر قتادة انهم أتوه وهو فى أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم فى اثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه انه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الارض أهل بلد أخبث من هؤلاء

ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك حتى كرره أربع مرات قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك وقال السدى خرجت الملائكة من عند ابراهيم فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا ابنت لوط تستقى فقالوا يا جارية هل من منزل فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه ان يضيف رجلا قالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم أحد الا أهل بيته فخرجت امرأته فاخبرت قومها فجاؤا يهرعون اليه وقوله يهرعون اليه أى يسرعون ويهرولون

الكامل الظاهر رشده وهداه وخيره وتنكير القرآن للتفخيم (ربما يود الذين كفروا) قرئ ربما بالتخفيف والتشديد وهما لغتان قال أبو حاتم أهل الحجاز يخففون وتميم وربيعة يثقلون وأصلها ان تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير قال الكوفيون أى يود الكفار فى أوقات كثيرة وقيل هى هنا للتقليل لانهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب وقيل ان هذا التقليل أبلغ فى التهديد فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا فى احيان قليلة وقيل معناه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره قيل وما هنا لحقت رب لتهيأ للدخول على الفعل وقيل نكرة بمعنى شئ وانما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل الا على الماضى لان المترقب فى اخباره سبحانه كالواقع المحقق فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا بهذا الكتاب والقرآن فهذا امر تبط عاقبله (لو كانوا مسلمين) أى منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة والمراد أنه لما انكشف لهم الامر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لا دين غيره حصلت منهم هذه الودادة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع بل هى لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت فى جنب الله وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين وقيل عند خروج عصاة الموحدين من النار والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم فى كل وقت مستمرة فى كل حالة بعد انكشاف الامر لهم ولو مصدرية أو امتناعية وجوابها محذوف أى لسروا بذلك أو تخلصوا مما هم فيه والاول أولى والتعبير عن متمناهم بالغيبة نظرا للاخبار عنهم ولو نظر لصدوره منهم لقيل لو كنا عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار انهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن ابن مسعود قال هذا فى الجهنميين اذا رأوهم يخرجون من النار وعن ابن عباس قال لا يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول من كان مسلما فليدخل الجنة فذلك قوله ربما يود الذين كفروا وعن ابن عباس وانس انهما تذا كرا هذه الآية فقالا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المشركين والمسلمين فى النار فيقول المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته أخرجه البيهقى فى البعث وابن

من فرحهم بذلك وقوله ومن قبل كانوا يعملون السيآت أى لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال وقوله هؤلاء
بناتى هن أطهر لكم يرشدهم الى نسائهم فان النبى للأمة بمنزلة الوالد فارشدهم الى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة وقوله فى الآية
الاخرى أولم ننهك عن العالمين أى ألم ننهك عن ضيافة الرجال وقوله هن أطهر لكم قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كل نبى أبو أمته
وكذا روى عن قتادة وغير واحد قال ابن جريج أمرهم ان يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحا وقوله فاتقوا الله ولا تخزون فى
ضيفى أى اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم (١٧٠) أليس منكم رجل رشيد أى فيه خير يقبل قالوا لقد علمت ما لنا فى
بناتك من حق أى ان نساءنا لا أرب
لنا فيهن ولا نشتهيهن وانك لتعلم
ما نريد أى ليس لنا غرض الا فى
الذكور وأنت تعلم ذلك فاى حاجة
فى تكرار القول علينا فى ذلك قال
لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن
شديد قالوا يا لوط انا رسل ربك لن
يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من
الليل ولا يلتفت منكم أحد الا
امرأتك انه مصيبها ما أصابهم ان
موعدهم الصبح أليس الصبح
بقريب) يقول تعالى ان لوطا
توعدهم بقوله لو أن لى بكم قوة
الآية أى لفعلت بكم الأفاعيل
بنفسى وعشيرتى ولهذا ورد فى
الحديث من حديث عمرو بن علقمة
عن أبى سلمة عن أبى هريرة ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
رحمة الله على لوط لقد كان يأوى الى
ركن شديد يعنى الله عز وجل فما
بعث بعده نبى الا فى ثروة من قومه
فعند ذلك اخبرته الملائكة انهم
رسل الله وانهم لا وصول لهم اليه
قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا
اليك وأمروه ان يسرى بأهله من
آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أى
يكون ساقة لأهله ولا يلتفت منكم
الامر أتك التخلف
أحد أى اذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الاصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين
قال الاكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله فأسر باهلك الا امرأتك وكذا قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك فجوزوا
الرفع والنصب وذكر هؤلاء انها خرجت معهم وانها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم
قربوا اهلاكهم تبشيرا له لانه قال اهلكوهم الساعة فقالوا ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب هذا وقوم لوط وقوف على
الباب عكوف قد جاؤا يهرعون اليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم وهم يتوعدونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل

المبارك فى الزهد وأخرج الطبرانى فى الاوسط بسند قال السيوطى صحيح عن جابر بن
عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان ناسا من امتى يعذبون بذنوبهم
فيكونون فى النار ما شاء الله ان يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه
من تصديقكم نفعكم فلا يبقى أحد الا أخرجه الله من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم هذه الآية وفى الباب أحاديث مرفوعة عن جمع من الصحابة فى تعيين هذا السبب
فى نزول هذه الآية (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) هذا تهديد لهم أى خل هؤلاء الكفرة
ودعهم عما أنت بصدده من الامر لهم والنهى فهم لا يرعوون أبدا ولا يخرجون من
باطل ولا يدخلون فى حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالاكل والتمتع بزهرة الحياة
الدنيا ومن الهاء العمل لهم عن اتباعك فانهم كالانعام التى لا تهتم الا بذلك ولا تشتغل
بغيره وهذا الامر لا يستعمل له ماض الا قليلا استغناء عنه بترك بل يستعمل منه
المضارع نحو ونذرهم فى طغيانهم ومن مجئ الماضى قوله صلى الله عليه وآله وسلم ذروا
الحبشة ما وذرتكم وترك وودر يكونان بمعنى صير أى ذرهم مهملين أى اترك كفار مكة
والعموم أولى (ويلههم الامل) أى يشغلهم طول الامل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة
الحال عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى يقال الهاه كذا أى شغله ولهى هو عن
الشئ يلهى والمعنى يشغلهم الامل عن اتباع الحق وما زالوا فى الآمال الفارغة والتمنيات
الباطلة حتى اسفر الصبح لذى عينين وانكشف الامر ورأوا العذاب يوم القيامة فعند
ذلك يذوقون ما صنعوا وأكثر ما يستعمل الامل فيما يستبعد حصوله والافعال الثلاثة
مجزومة على انها جواب الامر وهذه الآية منسوخة بآية السيف (فسوف يعلمون)
عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم وفيه من التهديد والزجر ما لا يقدر قدره وفيه تنبيه على ان
ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين قال بعض أهل
العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديدا آخر فتى يهنأ العيش بين تهديدين قال على بن أبى
طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان الاول ينسى الآخرة
والثانى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) من القرى بنوع من أنواع العذاب فى
حال من الاحوال (الا ولها) أى ولتلك القرية (كتاب معلوم) أى أجل مؤقت
مقدر لهلاكها لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه معلوم غير مجهول ولا منسى فلا يتصور

فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم وقال معمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال كان ابراهيم عليه السلام يأتى قوم لوط فيقول أنهاكم الله ان تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى اذا بلغ الكتاب اجله انتهت الملائكة الى لوط وهو يعمل فى أرض له فدعاهم الى الضيافة فقالوا انا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد الى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت اليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ما أعلم على وجه الارض شرا منهم أين اذهب بكم الى قومى وهم شر خلق الله فالتفت (١٧١) جبريل الى الملائكة فقال احفظوا هاتان اثنتان فلما انتهى الى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال ان قومى شر خلق الله أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ما أعلم على وجه الارض أهل قرية شرا منهم فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما دخلوا ذهبت عجوزه عجوز السوء فصعدت فلوحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعا قالوا ما عندك قالت ضيف لوط قوم ما رأيت قط أحسن وجوها منهم ولا أطيب ريحا منهم فهرعوا يسارعون الى الباب فدعوا لوطا داخلا وهم خارج وناشدهم الله ويقول هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فقام الملك وارد بالباب يقول فسده واستأذن جبريل فى عقوبتهم فاذن الله له فى الصورة التى يكون فيها فى السماء فنشر جناحه ولجبريل جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا اجلى الجبين ودله حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه الى الخضرة فقال يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك امض يا لوط عن الباب ودعنى واياهم ففتح لوط عن الباب فخرج اليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عميا لا يعرفون الطريق ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته قال فأسر بأهلك بقطع من الليل وروى عن محمد بن كعب وقتادة والسدى نحو هذا (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) يقول تعالى فلما جاء أمرنا وكان ذلك عند طلوع الشمس جعلنا عاليها وهى سدوم سافلها كقوله فغشاها ما غشى أى أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهى بالفارسية حجارة من طين أى مستحجرة قوية شديدة وقال بعضهم مشوية وقال البخارى سجيل

التخلف عنه بوجه من الوجوه والواو فيها أوجه أحدها وهو الظاهر أنها واو الحال والثانى انها مزيدة الثالث انها داخلة على الجملة الواقعة صفة تأكيدا وبه قال الزمخشرى (ما تسبق من أمة) من الامم (أجلها) المضروب لها المكتوب فى اللوح المحفوظ والمعنى انه لا يأتى هلاكها قبل مجىء أجلها قيل من زائدة وقيل على بابها لانها تفيد التبعيض فى هذا الحكم فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد (وما يستأخرون) عنه والسين زائدة فيكون مجىء هلاكهم بعد مضى الاجل المضروب له وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما قبلها فكأنه قيل ان هذا الامهال لا ينبغى ان يغتر به العقلاء فان لكل امة وقتا معينا فى نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال الزهرى نرى انه اذا حضره أجله فانه لا يؤخر ساعة ولا يقدم وأما ما لم يحضر أجله فان الله يؤخر ما يشاء ويقدم ما شاء قلت وكلام الزهرى هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه وقد تقدم تفسير الاجل فى أول سورة الانعام ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع فى بيان بعض عتوهم فى الكفر وتماديهم فى الغى مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومتهكمين به حيث أثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك فى الواقع أشد انكار ونفيهم له أبلغ نفى (انك) بسبب هذه الدعوى التى تدعيها من كونك رسولا لله مأمورا بتبليغ أحكامه (لمجنون) فانه لا يدعى مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلا فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هو كقول فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون (لوما) حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ومن ما المزيدة فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هى عليه قال الفراء الميم فى لوما بدل من اللام فى لولا وقال الكسائى لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام قال النحاس لوما ولولا وهلا واحد والمعنى هلا (تأتينا بالملائكة) ليشهدوا على صدقك وقيل المعنى لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك (ان كنت من الصادقين) فى قولك وادعائك الرسالة والحاصل انهم قالوا مقالتين تعنتا الاولى يا أيها الذى الخ والثانية لوما تأتينا فقال الله سبحانه مجيبا على الكفار لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم ورادا عليهم المقالتين على

الشديد الكبير سجيل وسجين اللام والنون أختان وقوله منضود أي يتبع بعضها بعضا في نزولها وقوله مسومة أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة مسومة مطوقة بها نضح من حمرة وذكروا انها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث اذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فلم يبق منهم أحد وقال مجاهد أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها وكان حملهم على خوافي جناحه الايمن قال ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها وقال قتادة بلغنا ان جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها الى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ثم دمر بعضها على بعض ثم اتبع شذان القوم صخرا قال وذكر لنا انهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف وفي رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم قال وبلغنا ان ابراهيم عليه السلام يشرف على سدوم ويقول يوم مالك وقوله وما هي من الظالمين ببعيد وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعا من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به (والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان اني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يقول تعالى ولقد أرسلنا الى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان بلادا تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله اليهم شعيبا وكان من أشرفهم نسبا ولهذا قال أخاهم يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان اني أراكم بخير أي في معيشتكم ورزقكم واني أخاف ان تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان اذا أعطوا الناس ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو في الارض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق وقوله بقية الله خير لكم أي من بخسكم الناس وقال الربيع وصية الله خير لكم وقال ابن زيد الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة

سبيل اللف والنشر المشوش (ما ننزل) نحن (الملائكة الا) تنزيلا متلبسا (بالحق) الذي يحق عنده تنزيلنا اياهم فيما تقتضيه الحكمة الالهية والمشيئة الربانية وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة وهذا رد للثانية وقرئ من الانزال وقيل معنى بالحق بالرسالة وقيل بالقرآن وقيل بالعذاب قاله مجاهد وقيل وقت الموت (وما كانوا اذا منظرين) قال السدي أي وما كانوا لو نزلت الملائكة منظرين من ان يعذبوا فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة قال صاحب النظم اذن مركبة من اذ وان وهي اسم بمنزلة حين ثم ضم اليها ان فصار اذان ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار اذن ومجيء لفظة ان دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ كان ما طلبوا ثم أنكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم المذكور فقال سبحانه (انا نحن نزلنا الذكر) الذي أنكروه ونسبوك بسببه الى الجنون وهو القرآن واعتقدوا انه مختلق من عندك (وانا له لحافظون) عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان ونحو ذلك فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الانس والجن ان يزيد فيه أو ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها تلك الاشياء ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وغيرهما وفيه دليل على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر لتطرق اليه الزيادة والنقصان كما يتطرق الى كل كلام سواه وقيل المعنى نزله محفوظا من الشياطين وقيل حفظه بان جعله معجزة باقية الى آخر الدهر وقيل حفظه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق ان يعارضه ولو بأقصر آية وقيل أعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب افساده وابطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن وأخرج مسلم عن عياض عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن

ربه

وقال ابن جرير بقية الله أى ما تفضل عليكم من الربح بعد وفاء الكيل والوزن خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت يشبه قوله تعالى قل لا يستوى الخبيث والطيب الآية وقوله وما أنا عليكم بحفيظ أى برقيب لا حفيظ أى افعلوا ذلك لله لا ليراكم الناس (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد) يقولون على سبيل التهكم أصلاتك قال الاعمش أى قراءتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أى الاوثان والاصنام أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء فنترك التطفيف هى أموالنا نفعل فيها

ما نريد قال الحسن أى والله إن صلاته تأمرهم ان يتركوا ما يعبد آباؤهم وقال الثورى فى قوله أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء يعنون الزكاة انك لأنت الحليم الرشيد قال ابن عباس وغير واحد يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) يقول لهم أرأيتم يا قوم ان كنت على بينة من ربى أى على بصيرة فيما أدعو اليه ورزقنى منه رزقا حسنا قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الامرين وقال الثورى ما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه أى لا أنهاكم عن الشئ وأخالف أنا فى السر فأفعله فى السر خفية عنكم كما قال قتادة يقول لم أكن أنهاكم عن أمر وأركبه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت أى انما مرادى اصلاحكم جهدى وطاقتى وما توفيقى الا بالله أى فى اصابة الحق فيما أريده الا بالله عليه توكلت واليه أنيب أى أرجع قاله مجاهد قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو قزعة سويد بن حجر عن حكيم ابن معاوية عن أبيه ان أخاه مالكا قال يا معاوية ان محمدا أخذ جيرانى فانطلق اليه فانه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضبا فقال أما والله ان فعلت ان الناس يزعمون انك لتأمر بالامر وتخالف الى غيره فقال أوقد قالوها فلئن فعلت ذلك ما ذاك الا علىّ وما عليهم من ذلك شئ أرسلوا له جيرانه وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال أخذ النبى صلى الله عليه وسلم ناسا من قومى فى تهمة فحبسهم فجاء

ربه تعالى نزلت عليك قرآنا لا يغسله الماء وأيضا فى الآية وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل الضمير فى له لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى بالمقام قال الخطابى انما لم يجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وتلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وآله وسلم ألهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الامة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضى الله عنه بمشورة عمر رضى الله عنه انتهى ذكره السيوطى فى الاتقان وقد بسطنا الكلام على جمع القرآن فى رسالتنا المسماة بالاكسير فى أصول التفسير فليرجع اليه ثم ذكر سبحانه ان عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (ولقد أرسلنا) رسلا كائنة (من قبلك) وحذف المفعول لدلالة الارسال عليه (فى شيع الاولين) أى فى أممهم واتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم قال الفراء الشيع الامة التابعة بعضهم بعضا فيما يجمعون عليه واصله من شاعه اذا تبعه وهم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان فى المصباح الشيعة الاتباع والانصار وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ثم صارت الشيعة اسما لجماعة مخصوصة والجمع شيع والاشياع جمع الجمع واضافته الى الاولين من اضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة أو من حذف المضاف اليه عند آخرين منهم أى فى شيع الامم الاولين وفى البيضاوى من قبيل اضافة الموصوف لصفته كقوله حق اليقين (وما كان (يأتيهم) أى الشيعة (من رسول) من الرسل (الا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (كذلك) اى مثل ذلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم (نسلكه) اى الذكر (فى قلوب المجرمين) فالاشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء والسلك ادخال الشئ فى الشئ كالخيط فى المخيط قاله الزجاج والسلوك النفاذ فى الطريق قال والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤا نسلك الضلال فى قلوب المجرمين وقال ابن عباس الشرك نسلكه فى قلوب المشركين وعن قتادة مثله وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهى أبين فى ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند قال الواحدى أضاف الله سبحانه الى نفسه ادخال الكفر فى قلوب

رجل من ذوى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا محمد علام تحبس جيرانى وقال ان ناسا يقولون انك تنهى عن الشئ وتستخلى به فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما يقولون قال فجعلت أعرض بينهما كلاما مخافة ان يسمعها فيدعو على قومى دعوة لا يفلحون بعدها أبدا فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فهمها فقال قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم خلوا عن جيرانه ومن هذا الحديث الذى رواه الامام أحمد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له اشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم (١٧٤) قريب فأنا أولاكم به واذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه اسناده صحيح وعن مسروق قال جاءت امرأة الى ابن مسعود فقالت تنهى عن الواصلة قال نعم قالت فعله بعض نسائك فقال ما حفظت وصية العبد الصالح اذا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه وقال عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن أبى سليمان الضبى قال كانت تجيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الامر والنهى فيكتب فى آخرها وما كنت من ذلك الا كما قال العبد الصالح وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود) يقول لا يجرمنكم شقاقى أى لا تحملكم عداوتى وبغضى على الاصرار على ما أنتم عليه فيصيبكم العذاب وقوله وما قوم لوط منكم ببعيد قيل المراد فى الزمان قال قتادة يعنى انما هلكوا بين أيديكم بالأمس وقيل فى المكان ويحتمل الامران واستغفروا ربكم من سالف الذنوب ثم توبوا اليه فيما تستقبلونه وقوله ان ربى رحيم ودود أى لمن تاب وعن أبى ليلى الكندى قال كنت مع مولاى أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان اذ أشرف علينا من داره فقال يا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح يا قوم لا تقتلونى (٣) كنتم هكذا وشبك بين أصابعه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط) يقولون يا شعيب ما نفقه ما نفهم كثيرا من قولك وانا لنراك فينا ضعيفا قال

(٣) هنا بياض فى الاصل فحرر اه مصححه

الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الرازى احتجوا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال فى قلوب الكفار (لا يؤمنون به) أى بالذكر الذى أنزلناه أو بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حال من ضمير نسلكه أو مستأنفة لبيان ما قبلها وقيل ان الضمير فى نسلكه للاستهزاء وفى به للذكر وهو بعيد والاولى ان الضميرين للذكر (وقد خلت سنة الاولين) أى مضت طريقتهم التى سنها الله فى اهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وقال قتادة مضت وقائع الله فيمن خلا من الامم فاحذروا ان يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب وقال الزجاج قد مضت سنة الله فيهم بان سلك الكفر والضلال فى قلوبهم ثم حكى الله سبحانه اصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال (ولو فتحنا عليهم) اى على هؤلاء المعاندين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم المكذبين له المستهزئين به (بابا من السماء) من أبوابها المعهودة ومكناهم من الصعود اليه (فظلوا فيه) اى فى ذلك الباب يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار (يعرجون) يصعدون بآلة أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما فى السماء من عجائب الملكوت التى لا يجحدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند وقيل الضمير فى فظلوا للملائكة أى فظل الملائكة يعرجون فى ذلك الباب والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب قاله ابن عباس (لقالوا) اى الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم (انما سكرت أبصارنا) قرئ مشددا ومخففا وهما سبعيتان وهو من سكر الشراب أو من السكر وهو سدها عن الاحساس قاله مجاهد يقال سكر النهر اذا سده وحبسه عن الجرى وعن قتادة نحوه قال أبو عمرو بن العلاء سكرت غشيت وغطت وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة وروى عنه أيضا انه من سكر الشراب أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله وعلى التخفيف بمعنى سحرت وقيل أصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر قال النحاس وهذه الاقوال متقاربة والتشديد لاجل التكثير والمبالغة قال ابن عباس قريش تقوله (بل نحن) أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا ثم ادعوا انهم (قوم مسحورون) اى سحرهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفى هذا بيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شئ من الاشياء كائنا ما كان فانهم اذا رأوا آية توجب عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى أبصارهم ان ادراكها غير حقيقى لعارض السكر

سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصر وقال الثوري كان يقال له خطيب الانبياء قال السدي وانا لنراك فينا ضعيفا قال أنت واحد وقال أبو روق يعنون ذليلا لان عشيرتك ليسوا على دينك ولولا رهطك لرجمناك أي قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسببناك وما أنت علينا بعزيز أي ليس عندنا لك معزة قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله يقول تتركوني لاجل قومي ولا تتركوني اعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى ان تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم كتاب الله وراءكم ظهريا أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ان ربي بما تعملون محيط أي هو يعلم جميع أحوالكم (١٧٥) وسيجزيكم (ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) لما يئس نبي الله من استجابتهم قال يا قوم اعملوا على مكانتكم أي طريقتكم وهذا تهديد شديد اني عامل على طريقتي فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وقوله وارتقبوا أي انتظروا وقوله جاثمين أي هامدين لا حراك بهم وقوله كأن لم يغنوا فيها في دارهم قبل ذلك وقوله كما بعدت ثمود وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار وشبههم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) يقول تعالى مخبرا عن ارسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة الى فرعون ملك القبط وملئه فاتبعوا أمر فرعون طريقته في الغي وما أمر فرعون برشيد أي ليس فيه رشد ولا هدى كما انهم اتبعوه في الدنيا كذلك هو يقدمهم الى نار جهنم فأوردهم اياها وله في ذلك الحظ الاوفر من العذاب وكذلك شأن المتبوعين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب الآية وقال الامام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية الى النار وقوله وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة الآية أي اتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ويوم القيامة بئس الرفد المرفود قال مجاهد زيدوا

أو أن عقولهم قد سحرت فصار ادراكهم غير صحيح ومن بلغ في التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدي بآية وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بان ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل اليهم بنوع من السحر ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته فقال (ولقد جعلنا) الجعل ان كان بمعنى الخلق فقوله (في السماء بروجا) متعلق به وان كان بمعنى التصيير فهو خبره والبروج في اللغة القصور والحال والطرق والمنازل والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة السبعة وهي الاثنا عشر المشهورة كما يدل على ذلك التجربة والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم ويستدلون بها على الطرقات والاوقات والخصب والجدب وقالوا الفلك اثنا عشر برجا واسماء هذه البروج الحمل الثور الجوزاء السرطان الاسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدي الدلو الحوت كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الاربعة عند المشتغلين بهذا العلم ويسمون الحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية والجوزاء والدلو والميزان هوائية والسرطان والعقرب والحوت مائية وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وتلك البروج منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو ذكره السيوطي وهي مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما وأصل البروج الظهور ومنه تبرج المرأة باظهار زينتها وقال الحسن وقتادة البروج النجوم وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها وقيل السبعة السيارة منها قاله أبو صالح وقيل هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس قاله عطية وقال مجاهد البروج الكواكب (وزيناها) اى السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج (للناظرين) اليها أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها اذا كان من النظر وهو الاستدلال أي بابصارهم أو ببصائرهم وفي السمين النظر عيني وقيل قلبي وحذف متعلقه ليعم (وحفظناها) اى السماء بالشهب (من) دخول (كل شيطان

لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس بئس الرفد المرفود قال لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة وهو كقوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار الآيتين (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) لما ذكر تعالى خبر الانبياء مع أممهم قال ذلك من أنباء القرى أي أخبارهم نقصه عليك منها قائم أي عامر وحصيد أي هالك وما ظلمناهم اذ أهلكناهم ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيبهم وكفرهم فما أغنت عنهم آلهتهم أوثانهم التي يدعونها من شئ ما نفعوهم ولا أنقذوهم وما زادوهم غير تتبيب قال مجاهد وقتادة وغيرهما أي غير تخسير وذلك ان سبب دمارهم باتباعهم تلك الآلهة فبهذا خسروا الدنيا والآخرة (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة كذلك نفعل بأشباههم ان أخذه أليم شديد وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة الآية (ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره الا لأجل معدود يوم يأتي لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد) يقول تعالى ان في اهلاكنا الكافرين وانجائنا المؤمنين لآية أي عظة واعتبارا على صدق موعودنا في الآخرة وقوله ذلك يوم مجموع له الناس أي أولهم وآخرهم كقوله فحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وذلك يوم مشهود أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم ويحكم فيه العادل الغيوب الذي لا يظلم وقوله وما نؤخره الا لأجل معدود أي ما نؤخر اقامة القيامة الا انه قد سبقت كلمة الله في وجود الناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة اذا انقطعت وتكامل وجود المقدر خروجهم قامت الساعة يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد الا باذن الله كقوله لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وقال وخشعت الاصوات للرحمن الآية وفي الصحيحين في حديث الشفاعة ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وقوله فمنهم شقي وسعيد أي فمن أهل الجمع

رجيم) قال أبو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم كما في قوله رجوما للشياطين والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة ثم قيل للعن والطرد والابعاد رجم لان الرمي بالحجارة يوجب هذه المعاني وقال قتادة الرجيم الملعون (الا) أي لكن (من استرق السمع) من غير دخول وهذا أوجه الانقطاع والسمع بمعنى المسموع وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا الى السماء فيسترقوا السمع من الملائكة وقيل الاستثناء متصل أي الا من استرق فانها لا تحفظ منه قال أبو السعود محله النصب على المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة أو المنقطع ان فسر ذلك بالمنع من دخولها والتصرف فيها انتهى قال ابن عباس أراد أن يخطف السمع كقوله الا من خطف الخطفة (فأتبعه شهاب مبين) والمعنى حفظنا السماء من الشياطين ان تسمع شيأ من الوحي وغيره الا من استرق السمع فانه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله أو تخبله أو تحرقه أو تثقبه ومعنى فأتبعه تبعه ولحقه أو أدركه والشهاب الكوكب نفسه أو النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله بشهاب قبس وصنيع البيضاوي يقتضي ان الشهاب بمعنى الشعلة هو الحقيقة والكثير وبمعنى الكوكب هو القليل وسمي الكوكب شهابا لبريقه شبه بشهاب النار وانفصاله منها والمبين الواضح الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم قال القرطبي واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا فقال ابن عباس يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل يقال خبلته خبلا من باب ضرب اذا أفسدت عضوا من أعضائه أو أذهبت عقله والخبال بالفتح يطلق على الفساد والجنون وقال الحسن وطائفة يقتل فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل القاء السمع الى الجن قولان أحدهما انهم يقتلون قبل القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل أخبار السماء الى غير الانبياء ولذلك انقطعت الكهانة والثاني انهم يقتلون بعد القائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من الجن قال ذكره الماوردي ثم قال والقول الاول أصح قال واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث فقال الاكثرون نعم وقيل لا وانما ذلك بعد المبعث قال الزجاج والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما حدث بعد مولده لان الشعراء في القديم لم يذكروه في اشعارهم والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها وصونا للاخبار

الغيوب وعن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها (٣) وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء أخرجه البخاري قال كثير من أهل العلم نحن نرى انقضاض الكواكب فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم تصير نارا اذا ادرك الشيطان ويجوز أن يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل الينا انه نجم يسري (والارض) نصب على الاشتغال ولم يقرأ بغيره لانه أرجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها (مددناها) أي بسطناها وفرشناها على وجه الماء كما في قوله والارض بعد ذلك دحاها وفي قوله والارض فرشناها فنعم الماهدون وفيه رد على من زعم انها كالكرة (وألقينا) أي جعلنا ووضعنا (فيها رواسي) أي جبالا ثابتة لئلا تتحرك باهلها جمع راسية كما في المختار وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد (وأنبتنا فيها من) تبعيضية وهو الصحيح أو مزيدة عند الكوفيين والاخفش (كل شيء موزون) أي مقدر معلوم فعبر عن ذلك بالوزن لانه مقدار تعرف به الاشياء وقيل موزون مقسوم وقيل معدود والمقصود من الانبات الانشاء والايجاد قال ابن زيد الاشياء توزن وقيل الضمير راجع الى الجبال أي أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والكحل والرصاص ونحو ذلك وقيل موزون بميزان الحكمة ومقدر بقدر الحاجة وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون أي حسن وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن (وجعلنا لكم فيها) أي في الارض (معايش) تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا وقيل هي الملابس وقيل هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة قال الماوردي وهو الظاهر قلت والاول أظهر قال النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ انتهى وقرئ بالهمز على التشبيه بشمائل وقد ذكر في الاعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء

شقي ومنهم سعيد وعن عمر لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله علام نعمل على شيء قد فرغ منه أم على شيء مستأنف قال بل على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الاقلام ولكن كل ميسر لما خلق له رواه أبو يعلى في مسنده ثم بين تعالى حالهم فقال (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) قال ابن عباس في الصدر أي لنفسه زفير (١) وآخرهم النفس شهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض قال ابن جرير عادة العرب اذا أرادت ان تصف الشيء بالدوام أبدا قالت هذا دائم دوام السموات والارض وكذلك (١٧٧) يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون بينهم قلت يحتمل ان المراد ما دامت السموات والارض الجنس لانه لابد في الآخرة من سموات وأرض غير هذه فما دامت تلك السموات وتلك الارض وقال ابن أبي حاتم عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس في الآية قال لكل جنة سماء وأرض وقوله الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد كقوله النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله وقد اختلف في هذا الاستثناء على أقوال حكاها ابن الجوزي في زاد المسير وقال ابن جرير في كتابه واختار ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ان الاستثناء عائد على العصاة من الموحدين وقد ورد في تفسيرها عن بعض السلف أقوال غريبة وقال قتادة الله أعلم بثنياه (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) يقول تعالى وأما الذين سعدوا وهم اتباع الرسل ففي الجنة خالدين فيها أي ماكثين ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك يعني بالاستثناء هنا أن دوامهم ليس أمرا واجبا بذاته بل موكول الى مشيئة الله وقال الضحاك والحسن هو في حق عصاة الموحدين كانوا في النار ثم أخرجوا منها عقب ذلك يقول عطاء غير مجذوذ أي مقطوع قاله ابن عباس وغير واحد لئلا يتوهم بذكر المشيئة ان ثم انقطاع كما بين هناك ان عذاب أهل النار دائما مردود الى مشيئته وانه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال ان ربك فعال لما يريد وفي الصحيحين يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح ثم يقال

(١) قوله في الصدر أي لنفسه زفير وآخرهم النفس شهيق هكذا في الاصل الذي بايدينا وحرره مصححه

يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما يعملون خبير) يقول تعالى فلا تك في مرية مما يعبد المشركون انه باطل فانه ليس لهم مستند فيه الا اتباع الآباء وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم وان كانت لهم حسنات فقد وفاهم اياها في الدنيا وقال الثوري عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس وانا لموفوهم (١٧٨) نصيبهم غير منقوص قال ما وعدوا فيه من خير وشر وقال ابن زيد نصيبهم من العذاب ثم ذكر تعالى انه أتى موسى الكتاب فاختلف فيه فمن مؤمن به ومن كافر فلك بمن سلف من الانبياء اسوة ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العباد الى أجل معلوم ويحتمل ان لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه فانه قد قال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ثم أخبر ان الكافرين في شك مما جاء به الرسول ثم أخبر انه سيجمع الاولين والآخرين من الامم وسيجزيهم باعمالهم فقال وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم الآية(١) وهذه القراءة يرجع معناها الى الذي ذكرنا (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر ونهى عن الطغيان وهو البغي فانه مصرعة ولو كان على مشرك وأعلم تعالى انه بصير باعمال العباد وقوله ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس لا تداهنوا وقال العوفي عنه هو الركون الى الشرك وقال أبو العالية لا ترضون باعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس لا تميلوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وهذا القول حسن أي لا تعينوا الظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم صنيعهم وليس لكم من دونه ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس وأقم الصلاة طرفي النهار يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وابن

لانها في المفرد أصلية لان مفرده معيشة من العيش فالياء أصلية والمد في المفرد لا يقلب همزا في الجمع الا اذا كان زائدا في المفرد قاله في الجمل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أو على محل لكم وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والاولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله وان ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب وهذا في غاية الامتنان والمعنى على الثاني وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش وهم من تقدم ذكره ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها وقيل أراد الوحش قاله منصور وقال مجاهد الانعام وقيل الطيور ومنه قوله وما من دابة في الارض الا على الله رزقها (وان من شئ الا عندنا خزائنه) ان هي النافية ومن مزيدة للتأكيد وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ومع لفظ شئ المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها فافاد ذلك ان جميع الاشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شئ والخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الامور وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور والمعنى ان كل الممكنات مقدورة ومملوكة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار كيف شاء وقال جمهور المفسرين ان المراد بما في الآية هو المطر لانه سبب الارزاق والمعايش وعن ابن مسعود وابن عباس ما نقص المطر منذ أنزله الله ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى ثم قرأ وما ننزله الآية قال ابن الخطيب وتخصيص قوله هذا بالمطر تحكم محض لان قوله وان من شئ يتناول جميع الاشياء الا ما خصه الدليل وقيل الخزائن المفاتيح أي ما من شئ الا عندنا في السماء مفاتيحه والاولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود بل قد يصدق الشئ على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك وقيل في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل هذه الآية وأخرج البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خزائن الله الكلام فاذا أراد شيأ قال له كن فكان (وما ننزله) من السماء الى الارض أو نوجده للعباد (الا بقدر) أي بمقدار (معلوم) والمعنى ان الله سبحانه لا يوجد للعباد شيأ من تلك الاشياء المذكورة الا متلبسا ذلك الايجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد اليه كما قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء وقد فسر الانزال بالاعطاء وبالانشاء وبالايجاد والمعنى متقارب

(وأرسلنا

---

(١) قوله وهذه القراءة يرجع معناها الى الذي ذكرنا كذا بالاصل الذي بايدينا ولم يتقدم ذكر للقراءة ولا المعنى الذي أشار اليه فحرر اه

زيد وقال الحسن في رواية وقتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر من آخره وكذا قال محمد بن كعب وقوله وزلفا من الليل قال ابن عباس وغير واحد يعني صلاة العشاء وعن مبارك بن فضالة المغرب والعشاء وكذا قال مجاهد وغيره وقوله ان الحسنات يذهبن السيئات يقول ان فعل الخيرات يكفر الذنوب كما في الحديث الذي رواه أهل السنن عن علي رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلي ركعتين الا غفر له وفي الصحيحين عن عثمان رضي الله عنه انه توضأ لهم وضوء (١٧٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ أو قال من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه وروى أحمد عن عثمان رضي الله عنه انه دعا بماء فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئي هذا ثم قال من توضأ وضوئي هذا وقام فصلى الظهر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما كان بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما كان بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم ان قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهي الحسنات يذهبن السيئات وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أرأيتم لو ان على باب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ قالوا لا يا رسول الله قال كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا وفي صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وروى الامام أحمد عن أبي أيوب مرفوعا كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة ووزر وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية فقال يا رسول الله ألي هذا قال لجميع أمتي كلهم ورواه مسلم وفي لفظ اني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شئ غير اني لم أجامعها قبلتها ولزمتها فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ فذهب الرجل فقال عمر لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره فقال ردوه علي

(وأرسلنا الرياح) جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور (لواقح) أي حوامل لانها تحمل السحاب أي تقله وتصرفه ثم تمر به فتنزله قال تعالى اذا أقلت سحابا ثقالا أي حملت وناقة لاقح اذا حملت الجنين في بطنها قاله الازهري وبه قال الفراء وابن قتيبة وقيل لواقح بمعنى ملقحة قال ابن الانباري تقول العرب ابقل النبت فهو باقل أي مبقل والمعنى انها تلقح الشجر أي تقويها وقيل معنى لواقح ذوات لقح قال الزجاج معناه ذوات لقحة لانها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة يقال رامح أي ذو رمح ولابن أي ذو لبن وتامر أي ذو تمر قال أبو عبيدة لواقح بمعنى ملاقح ذهب الى انها جمع ملقحة وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل ولقاح الشجر بلقاح الحمل قال ابن مسعود يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وعن ابن عباس نحوه وعن عبيد بن عمير قال يبعث الله المبشرة فتقم الارض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفا ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح فتلقحه فتمطر وأخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء الا بعد أن تعمل الرياح الاربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه (فأنزلنا من السماء) أي من السحاب وكل ما علاك فأظلك فهو سماء وقيل من جهة السماء (ماء) المراد هنا ماء المطر (فأسقيناكموه) أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم قال أبو علي يقال سقيته الماء اذا أعطيته قدر ما يروي وأسقيته نهرا أي جعلته شربا له وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه وقيل سقى وأسقى بمعنى واحد (وما أنتم له بخازنين) بل نحن الخازنون له فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه في قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه وقيل ان المعنى ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه (وانا لنحن نحيي ونميت) أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا وان واللام تفيدان الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا وبيدنا احياء الخلق واماتتهم والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الامور على كمال

فردوه فقرأ عليه أقم الصلاة طرفي النهار الآية فقال معاذ أله وحده قال بل للناس كافة وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن اسحق عن الصباح بن محمد عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين الا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قلنا وما بوائقه قال غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه

ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار ان الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن وقال الامام أحمد حدثنا يونس وعفان حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ان رجلا أتى عمر فقال ان امرأة جاءت تبايعه فأدخلتها الدولج فأصبت منها ما دون الجماع قال ويحك لعلها مغيبة قال أجل قال فائت أبا بكر فأتاه فسأله فقال لعلها مغيبة في سبيل الله (١)

ونزل القرآن وأقم الصلاة طرفي النهار الآية فقال يا رسول الله الي خاصة فضرب يعني عمر صدره وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق عمر ولابن جرير بسنده عن أبي اليسر قال أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرا فقلت ان في هذا البيت تمرا اجود من هذا فدخلت فأهويت اليها فقبلتها فأتيت عمر (٢) فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك فلم أصبر حتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال أخنت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى ظننت اني من أهل النار حتى تمنيت اني أسلمت اذا فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة فنزل جبريل بهذه الآية وروى ابن جرير من حديث أبي امامة ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اقم في حد الله مرة أو مرتين فأعرض عنه ثم اقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل قال أنا ذا قال أتممت الوضوء وصليت معنا قال نعم قال فانك من خطيئتك كما ولدتك امك فلا تعد وأنزل الله أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة

قدرته عز وجل وانه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته ولهذا قال (ونحن الوارثون) أي للأرض ومن عليها لانه سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه الحي الذي لا يموت الدائم الذي لا ينقطع وجوده ومصير الخلق اليه ولله ميراث السموات والارض (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) المراد علمنا من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر فيهما وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر وقيل المستقدمون هم الامم المتقدمون على امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من لدن آدم والمستأخرون هم امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى يوم القيامة وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد والمستأخرون من لم يقتل وقيل من خلق ومن لم يخلق بعد وقيل من أسلم أولا ومن يسلم آخرا واللفظ أوسع من ذلك واللام في الموضعين هي الموطئة للقسم وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسناء من أحسن النساء فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الاول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطه فأنزل الله هذه الآية وقد رواه عبد الرزاق وابن المنذر من قول أبي الجوزاء عن ابن عباس قال الترمذي وهذا أشبه أن يكون أصح وقال ابن كثير في هذا الحديث نكارة شديدة وعن ابن عباس قال المستقدمين الصفوف المتقدمة والمستأخرين الصفوف المؤخرة وقد وردت أحاديث كثيرة في ان خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها وعن مقاتل وعطاء ان الآية في صفوف القتال وقال الحسن المستقدمين في طاعة الله والمستأخرين في معصية الله وعن ابن عباس يعني بالمستقدمين من مات وبالمستأخرين من هو حي لم يمت وقال أيضا المستقدمين آدم ومن مضى من ذريته والمستأخرين في أصلاب الرجال وعن قتادة نحوه (وان ربك هو يحشرهم) أي هو المتولي لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر وفيه انه سبحانه يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته لانه الامر المقصود من الحشر (انه حكيم) يجري الامور على ما تقتضيه حكمته البالغة (عليم) أحاط علمه بجميع الاشياء لا يخفى عليه شيء منها ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه

وجرى

---

(١) بياض بالاصل (٢) قوله فأتيت عمر الخ كذا بالاصل الذي بايدينا وساق الخطيب هذا الحديث عن الترمذي عن أبي اليسر بزيادة اه

أخبرنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سلمان تحت شجرة فأخذ غصنا منها يابسا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال أبا عثمان لا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله قال هكذا فعل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان المسلم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت ذنوبه كما يتحات هذا الورق وقال أقم الصلاة طرفي النهار الآية ولأحمد عن معاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وله عن أبي ذر مرفوعا اذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها قلت يارسول الله أمن الحسنات لا اله الا الله قال هي أفضل الحسنات (١٨١) وقال أبو يعلى حدثنا هذيل بن ابراهيم حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري عن الزهري عن أنس مرفوعا ما قال عبد لا اله الا الله في ساعة من ليل أو نهار الا طمست ما في الصحيفة من السيآت حتى تسكن مثلها من الحسنات عثمان فيه ضعف وللبزار عن أنس ان رجلا قال يارسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة الا اقتطعتها فقال له أتشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله قال بلى قال فان هذا يأتي على ذلك (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) يقول تعالى فلولا وجدنا من قرن من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما يقع بينهم من الشرور والمنكرات وقوله الا قليلا أي قد وجدنا منهم من هذا الضرب قليلا وهم الذين انجى الله عن حلول نقمه ولهذا أمر الله هذه الامة ان يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال ولتكن منكم امة يدعون الى الخير الآية وقوله واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه الآية أي استمروا على ما هم فيه من المعاصي ولم يلتفتوا الى انكار أولئك حتى فجأهم العذاب ثم أخبر تعالى انه لم يهلك قرية الا وهي ظالمة نفسها ولم يأت عذابه قرية مصلحة قط كقوله وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم الآية (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يخبر تعالى انه قادر على جعل الناس كلهم امة واحدة من ايمان أو كفر وانه لا يزال الخلف بينهم في أديانهم ومذاهبهم وآرائهم قال عكرمة مختلفين في الهدى وقال الحسن مختلفين

وجرى فيه حكمه سبحانه لا اله الا هو (ولقد خلقنا الانسان) أي آدم عليه السلام لأنه أصل هذا النوع (من) لابتداء الغاية أو للتبعيض (صلصال) أي طين يابس اذا انصب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع واذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتا قال أبو عبيدة هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل اذا حرك فاذا طبخ بالنار فهو الفخار وهذا قول أكثر المفسرين وقال الكسائي هو الطين المنتن مأخوذ من قول العرب صل اللحم وأصل اذا أنتن مطبوخا كان أو نيئا وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية وأول ابتدائه انه كان ترابا متفرق الاجزاء ثم بل فصار طينا ثم أنتن واسود فصار حمأ مسنونا أي متغيرا ثم يبس فصار صلصالا وعلى هذه الاطوار والاحوال تتخرج الآيات الواردة في أطواره الطينية كآية خلقه من تراب وآية بشرا من طين وهذه الآية التي نحن فيها (من) ابتدائية (حمأ مسنون) الحمأ الطين الاسود المتغير أو الطين الاسود من غير تقييد بالمتغير قال ابن السكيت تقول منه حمأت البئر حمأ بالتسكين اذا نزعت حمأتها وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها وأحميتها احماء ألقيت فيها الحمأة قال أبو عبيدة الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة يعني بالتحريك والجمع حمأ مثل تمرة وتمر والحمأ مصدر مثل الهلع والجزع ثم سمي به والمسنون قال الفراء هو المتغير وأصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ويقال أسن الماء اذا تغير ومنه قوله لم يتسنه وقوله من ماء غير آسن وكلا الاشتقاقين يدل على التغير لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون الا منتنا وقال أبو عبيدة المسنون المصبوب وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه اذا صببته والسن الصب وقال سيبويه المسنون المصور مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته وقال الاخفش المسنون المنصوب القائم من قولهم وجه مسنون اذا كان فيه طول والحاصل على هذه الاقوال ان التراب لما بل صار طينا فلما انتن صار حمأ مسنونا فلما يبس صار صلصالا فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون ولهذا وصف بهما وعن ابن عباس قال خلق الانسان من ثلاث من طين لازب وصلصال وحمأ مسنون فالطين اللازب اللازم الجيد والصلصال المدقق الذي يصنع منه الفخار والحمأ المسنون الطين الذي فيه الحمأة وقال أيضا الصلصال الماء يقع على الارض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق وعنه قال الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد يبسه وقال أيضا طين خلط برمل

فى الرزق بسخر بعضهم بعضا والصحيح الاول وقوله الا من رحم ربك أى الا المرحومين من اتباع الرسل الذين عملوا بما امروا به من الذى أخبرتهم به رسل الله اليهم ولم يزل هذا دأبهم حتى كان خاتم الرسل فاتبعوه وهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا ان اليهود افترقت على احدى وسبعين فرقة وان النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا فرقة واحدة قالوا ومن هم يارسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة (١٨٢) وقال عطاء ولا يزالون مختلفين يعنى اليهود والنصارى والمجوس الا من رحم ربك يعنى الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله الجماعة وان افترقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وان اجتمعت ديارهم وأبدانهم وقوله ولذلك خلقهم قال ابن ابى طلحة عن ابن عباس خلقهم فريقين كقوله فمنهم شقى وسعيد وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد ابن ابى نجيح عن طاوس ان رجلين اختصما اليه فاكثرا فقال طاوس اختلفتما وأكثرتما فقال أحدهما لذلك خلقنا فقال طاوس كذبت فقال أليس الله يقول ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة كقوله وما خلقت الجن والانس الآية وقيل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن فى رواية عطاء والاعمش وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعن مالك فيما رويناه عنه من التفسير ولذلك خلقهم قال للرحمة وللاختلاف بدنه وقوله وتمت كلمة ربك الآية يخبر تعالى انه قد سبق فى قضائه ان من خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وانه لابد ان يملأ من هذين الثقلين وله الحجة البالغة والحكمة التامة وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين فقال الله عز وجل للجنة انت رحمتى ارحم بك من أشاء وقال للنار انت عذابى انتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منهما ملؤها فاما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله

وقال أيضا الذى اذا ضرب به صلصل وعنه قال الطين تعصر بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك وقال حمأ مسنون من طين رطب وقال من طين منتن (والجان) منصوب على الاشتغال وهو أبو الجن عند جمهور المفسرين وقال الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل هو ابليس أبو الشياطين وسمى جانا لتواريه عن الاعين يقال جن الشئ اذا ستره فالجان يستر نفسه عن أعين بنى آدم وهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا وفى الجن مسلمون وكافرون وهم يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس أبوهم ذكره الخازن قال ابن عباس الجان مسيخ الجن كالقردة والخنازير مسيخ الانس وقيل كان ابليس من حى الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور (خلقناه من قبل) أى من قبل خلق آدم (من نار السموم) وهى الريح الحارة النافذة فى المسام لشدة لطفها وقوة حرارتها يكون بالنهار وقد يكون بالليل كذا قال أبو عبيدة وقال أبو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا أحدث الله أمرا أخرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون خرق ذلك الحجاب قاله الخطيب وقيل السموم نار جهنم وقيل هى جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان قاله ابن مسعود وفى السمين السموم ما يقتل من افراط الحر من شمس أو ريح أو نار لانها تدخل فى المسام وقيل السموم ما كان ليلا والحرور ما كان نهارا وقيل هو من باب اضافة الموصوف لصفته وذكر خلق الجان والانسان فى هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الالهية وبيان ان القادر على النشأة الاولى قادر على النشأة الاخرى قال ابن عباس من نار السموم من أخس النار الحارة التى تقتل وعن ابن مسعود قال السموم التى خلق منها الجان جزء من سبعين جزأ من نار جهنم وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا (و) اذكر (اذ قال ربك للملائكة) بين سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع له عند خلقه وقد تقدم تفسير ذلك فى البقرة (انى خالق بشرا) مأخوذ من البشرة وهى ظاهر الجلد (من صلصال) قد تقدم تفسيره قريبا مستوفى وكذا تفسير (من حمأ مسنون فاذا سويته) أى سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وخلقته البشرية وأكملت اجزاءه وأتممت خلقه أو سويت اجزاء

لها خلقوا وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) يقول تعالى وكلا نقصه عليك من أنباء الرسل مع أممهم وكيف جرى من المحاجات وما احتمله الانبياء وكيف نصر الله المؤمنين وخذل الكافرين كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد أي قلبك ليكون لك بهم اسوة وقوله وجاءك في هذه الحق أي هذه السورة قاله ابن عباس وجماعة وعن قتادة في هذه الدنيا وجاءك فيها قصص حق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى ينتفع بها المؤمنون (١٨٣) (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون) يقول تعالى وقل للذين لا يؤمنون على وجه التهديد اعملوا على مكانتكم طريقتكم انا عاملون على طريقتنا وانتظروا انا منتظرون فستعلمون من تكون له عاقبة الدار وقد أنجز الله وعده ونصر عبده فله الحمد وحده (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) يخبر تعالى انه يعلم غيب السموات والارض وانه اليه المرجع وأمر بعبادته والتوكل عليه فانه كاف من توكل عليه وروى ابن جرير بسنده عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود آخر تفسير سورة هود عليه السلام ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة يوسف عليه السلام وهي مكية) روى الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سليم ويقال سليم المدايني وهو متروك عن هرون بن كثير وقد نص على جهالته أبو حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي امامة عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه ايما مسلم تلاها وعلمها أهله أو ما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت واعطاه من القوة ان لا يحسد مسلما وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف اسناده بالكلية وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هرون بن كثير ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري عن علي بن زيد عن جدعان وعن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه وروى البيهقي في الدلائل ان طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) أما الكلام على الحروف

بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحي) النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم آخر صالح لامساكها والامتلاء بها فمن قال ان الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ومن قال انه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيؤ البدن لتعلق النفس الناطقة به ومن زائدة أو تبعيضية قال النيسابوري ولا خلاف في ان الاضافة في روحي للتشريف والتكريم مثل ناقة الله وبيت الله قال القرطبي والروح جسم لطيف اجرى الله العادة بان يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم وحقيقته اضافة خلق الى خالق فالروح خلق من خلقه أضافه الى نفسه تشريفا وتكريما قال ومثله روح منه وقد تقدم في النساء قال أبو السعود وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فيه وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فاذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيى به من الروح التي هي من أمري (فقعوا له ساجدين) الفاء تدل على ان سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ وهو أمر بالوقوع من وقع يقع أي اسقطوا وخروا وفيه دليل على ان المأمور به هو السجود الحقيقي أي وضع الجبهة على الارض لا مجرد الانحناء كما قال السيوطي وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ولله ان يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبلة لهم تشريفا له وهذا وان كان معنى صحيحا لكن يخالفه ظاهر النظم القرآني والاولى ما دل عليه ظاهر اللفظ فالاول أولى والخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشرا (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ قال المبرد قوله كلهم أزال احتمال ان بعض الملائكة لم يسجد فظهر أنهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم هل سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد في وقت فلما قال أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة وهو ايضاح لما سبق وقيل قوله أجمعون توكيد بعد توكيد ورجح هذا الزجاج قال النيسابوري وذلك لان أجمع معرفة فلا يقع حالا ولو صح ان يكون حالا لكان منتصبا قال الكرخي فيه تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ولا يكون تحصيلا للحاصل لان نسبة أجمعون الى كلهم كنسبة كلهم الى أصل الجملة أو أجمعون يفيد معنى الاجتماع وقيل هما تأكيدان للمبالغة وزيادة الاعتناء ثم استثنى ابليس من الملائكة فقال (الا ابليس) قيل هذا الاستثناء متصل لكونه كان

المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقوله تلك آيات الكتاب أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أى الواضح الجلى الذى يفصح عن الاشياء المبهمة ويفسرها ويبينها انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وذلك لان لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس فلهذا انزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك فى أشرف بقاع الارض وابتداء انزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه ولهذا قال تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص الآية وقد ورد (١٨٤) فى سبب نزول هذه الآيات مارواه ابن جرير حدثنى نصر بن عبد الرحمن الاودى حدثنا حكام الرازى عن أيوب عن عمرو وهو ابن قيس الملائى عن ابن عباس قال قالوا يارسول الله صلى الله عليك وسلم لو قصصت علينا فنزلت نحن نقص عليك أحسن القصص ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلا وقال أيضا حدثنا محمد بن سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد أخبرنا خالد الصفار عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم القرآن قال فتلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله عز وجل الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله لعلكم تعقلون ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث الآية وذكر الحديث ورواه الحاكم من حديث اسحق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشى المنقرى وروى ابن جرير بسنده عن المسعودى عن عون بن عبد الله قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا يارسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص فأنزل الله الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله لمن الغافلين فارادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن وانه كاف عن كل ماسواه من الكتب مارواه الامام أحمد حدثنا شريح بن النعمان أخبرنا هشيم أخبرنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله ان عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم فغضب وقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذى نفسى بيده لو ان موسى كان حيا لما وسعه الا ان يتبعنى وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق

من جنس الملائكة ولكنه (أبى أن يكون مع الساجدين) استكبارا واستعظاما لنفسه وحسد الآدم فحقت عليه كلمة الله وقيل انه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم وبينهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا زاد أبو السعود امالانه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقيل ان الاستثناء منقطع منفصل بناء على عدم كونه منهم وعدم تغليبهم عليه أى ولكن ابليس أبى من السجدة وقد تقدم الكلام فى هذا فى سورة البقرة وهذه الجملة على الاول استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء لان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد فبين سبحانه انه كان على وجه الاباء والاستكبار (قال ياابليس) مستأنفة أيضا وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم بل على سبيل الاهانة والاذلال والتقريع والتوبيخ فظاهره يقتضى ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة لانه قال فى الجواب لم أكن لأسجد لبشر خلقته فقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة فقول بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله ضعيف قيل معنى (مالك) أى غرض لك وأى سبب حملك على (ان لا تكون مع الساجدين) لآدم مع الملائكة وهم فى الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التى قد علمتها وعلى هذا فليست لا زائدة واليه مال البيضاوى وقيل زائدة بدليل مافى سورة ص مامنعك ان تسجد (قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته) مستأنفة كالتى قبلها أى لا ينبغى لى ولا يصح منى ولا يليق بحالى فاللام لتأكيد النفى جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشرا مخلوقا (من صلصال من حما مسنون) زعما منه انه مخلوق من عنصر نار وهى أشرف من عنصر آدم عليه السلام وهو الطين المتغير المنتن لانها نيرة والطين كثيف مظلم وفيه اشارة اجمالية الى كونه خيرا منه وقد صرح بذلك فى موضع آخر فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين وقال فى موضع آخر أأسجد لمن خلقت طينا ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما فضله الله تعالى قال الكرخى وحاصل كلامه ان كونه بشرا يشعر بكونه جسما كثيفا وهو كان روحانيا لطيفا فكأنه يقول البشر الجسمانى الكثيف أدون حالا من الروحانى اللطيف فكيف يسجد الاعلى للادنى وأيضا فآدم مخلوق من صلصال تولد من حما مسنون وهذا الاصل فى غاية الدناءة

حدثنا اسفيان عن جابر عن الشعبى عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى مررت
بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك قال فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن
ثابت فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا قال فسرى
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال والذى نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم انكم حظى من
الامم وأنا حظكم من النبيين وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا (١٨٥) عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير حدثنا على بن مسهر
عن عبد الرحمن بن اسحق عن خليفة
ابن قيس عن خالد بن عرفطة قال
كنت جالسا عند عمر اذ أتى برجل
من عبد القيس سكنه بالسوس
فقال له عمر أنت فلان بن فلان
العبدى قال نعم قال وأنت النازل
بالسوس قال نعم فضربه بقناة معه
قال فقال الرجل مالى يا أمير المؤمنين
فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه
بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات
الكتاب المبين الى قوله لمن الغافلين
فقرأها عليه ثلاثا وضربه ثلاثا فقال
له الرجل مالى يا أمير المؤمنين فقال
أنت الذى نسخت كتاب دانيال قال
مرنى بأمرك أتبعه قال فانطلق
فامحه بالحميم والصوف الابيض ثم
لا تقرأه ولا تقرئه أحدا من الناس
فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو
أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك
عقوبة ثم قال له اجلس فجلس بين
يديه فقال انطلقت أنا فانتسخت
كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى
أديم فقال لى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ماهذا فى يدك يا عمر قال
قلت يارسول الله كتاب نسخته لنزداد
به علما الى علمنا فغضب رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الانصار أغضب نبيكم
صلى الله عليه وسلم السلاح السلاح فجاؤا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس انى قد أوتيت جوامع
الكلام وخواتيمه واختصر لى اختصارا ولقد آتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون قال عمر فقمت فقلت
رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبك رسولا ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مختصرا من
حديث عبد الرحمن بن اسحق هو أبو شيبة الواسطى وعبد الرحمن بن اسحق ضعفوه وشيخه قال البخارى لا يصح حديثه قلت وقد

الدناءة وأصل ابليس هى النار وهى أشرف العناصر فكان أصل ابليس أشرف من أصل
آدم والاشرف يقبح ان يؤمر بالسجود للادون فهذا مجموع شبه ابليس فاجاب الله
سبحانه عليه بقوله (قال فاخرج منها) أى حيث عصيت وتكبرت فاخرج منها (فانك
رجيم) والضمير فى منها قيل عائد الى الجنة وقيل الى السماء وقيل الى زمرة الملائكة والرجيم
المرجوم بالشهب وقيل معناه ملعون أى مطرود لان من يطرد يرجم بالحجارة وفى القاموس
الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران وفى المصباح الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر
سمى بذلك لما يجتمع عليه من الاحجار ورجمته رجما من باب قتل ضربته بالرجم (وان عليك
اللعنة) اى الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه مستمرا عليك لازمالك (الى يوم الدين)
وهو يوم القيامة والجزاء وقيل هو ملعون فى السموات والارض وجعل يوم الدين غاية للعنه
لا يستلزم انقطاعها فى ذلك الوقت لان المراد دوامها من غير انقطاع وذكر يوم الدين
للمبالغة كما فى قوله تعالى مادامت السموات والارض أو ان المراد انه فى يوم الدين
يعذب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب بما ينسى اللعن معه فكأنه لا يجد له ما كان
يجده قبل ان يمسه العذاب (قال رب فانظرنى) أى أخرنى وأمهلنى ولا تمتنى (الى يوم
يبعثون) اى آدم وذريته طلب ان يبقى حيا الى هذا اليوم لانه لما سمع ذلك علم ان الله قد
أخر عذابه الى الدار الآخرة وكأنه طلب ان لا يموت أبدا لانه اذا أخر موته الى ذلك اليوم
وأمهل الى يوم البعث الذى هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك لانقطاع الموت من
حين النفخة الاولى فهو يوم لا موت فيه وفى البيضاوى أراد بهذا السؤال ان يجد فسحة
فى الاغواء ونجاة عند الموت اذ لا موت بعد وقت البعث فاجابه الى الاول دون الثانى وقيل
انه لم يطلب ان لا يموت بل طلب ان يؤخر عذابه الى يوم القيامة ولا يعذب فى الدنيا (قال
فانك من المنظرين) لما سأل الانظار اجابه الله سبحانه الى ما طلبه وأخبره بانه من جملة
المنظرين ممن أخر آجالهم من مخلوقاته أو من جملة من أخر عقوبتهم عما اقترفوا ولم يكن
اجابة الله اياه فى الامهال اكراما له بل زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه ثم بين سبحانه الغاية
التى أمهله اليها فقال (الى يوم الوقت المعلوم) الذى عينت وهو يوم القيامة فان يوم الدين
ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم كلها عبارات عن القيامة وسمى معلوما لان ذلك لا يعلمه
الا الله سبحانه وتعالى فهو معلوم عنده وقيل ان جميع الخلائق تموت فيه فهو معلوم بهذا

روى له شاهد من وجه آخر فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن ابراهيم الاسماعيلى أخبرنى الحسن بن سفيان حدثنا يعقوب بن سفيان
حدثنا اسحق بن ابراهيم بن العلاء الزبيدى حدثنى عمرو بن الحرث حدثنا عبد الله بن سالم الاشعرى عن الزبيدى حدثنا سليم بن
عامر أن جبير بن نفير حدثهم ان رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر رضى الله عنه فارسل اليهما فيمن أرسل من اهل حمص وكانا
قد اكتتبا من اليهود صلاصفة (٣) فأخذاها معهما يستفتيان فيها عمر يقولون ان رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة وان نهانا
عنها رفضناها فلما قدما عليه قالا انا بارض أهل كتاب وانا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا أفنأخذ منه أو نترك
فقال املكما كتبتما منه شيأ
فقالا لا قال سأحدثكما انطلقت
فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم
حتى أتيت خيبر فوجدت يهوديا
يقول قولا أعجبنى فقلت هل أنت
مكتبى مما تقول قال نعم فأتيت
باديم فأخذ على حتى كتبت فى
الاكراع فلما رجعت قلت يا نبى الله
وأخبرته قال ائتنى به فانطلقت
أرغب عن المشى رجاء أن أكون
جئت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ببعض ما يحب فلما أتيت به قال
اجلس اقرأ على فقرأت ساعة ثم
نظرت الى وجه رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاذا هو يتلون فتحيرت
من الفرق فما استطعت ان أجير
منه حرفا فلما رأى الذى بى رفعه
ثم جعل يتبعه رسما رسما يمحوه
بريقه وهو يقول لا تتبعوا هؤلاء
فانهم قد تهوكوا وتهوكوا حتى محى
آخره حرفا حرفا قال عمر رضى الله
عنه فلو علمت انكما كتبتما منه شيأ
جعلتكما نكالا لهذه الامة قالا
والله ما نكتب منه شيأ أبدا نخرجا
بصلاصفتهما لحفر الهافلم يألوا أن
يعمقا ودفناها فكان آخر العهد
منها وهكذا روى الثورى عن جابر
ابن يزيد الجعفى عن الشعبى عن عبد الله بن ثابت الانصارى عن عمر بن الخطاب بنحوه وروى أبو داود فى المراسيل من
حديث أبى قلابة عن عمر نحوه والله أعلم (اذ قال يوسف لابيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)
يقول تعالى اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف اذ قال لابيه وأبوه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام كما قال
الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم انفرد باخراجه البخارى فرواه عن عبد الله بن محمد

الاعتبار وقيل المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت وقال
ابن عباس هو النفخة الاولى يموت فيها ابليس وبين النفختين أربعون سنة وهى مدة موته
(قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم وما مصدرية أى أقسم باغوائك اياى واختار
البيضاوى فى الاعراف كونها للسببية ونقل كونها للقسم بصيغة التمريض لانه وقع فى
مكان آخر قال فبعزتك والقصة واحدة الا ان أحدهما اقسام بصفة ذاته والثانى اقسام
بفعله والفقهاء قالوا الاقسام بصفات الذات صحيح واختلفوا فى القسم بصفات الافعال
ومنهم من فرق بينهما ولان جعل الاغواء مقسما به غير متعارف قاله الكرخى قلت واقسامه
هنا باغواء الله له لا ينافى اقسامه فى موضع آخر بعزة الله التى هى سلطانه وقهره لان الاغواء
له هو من جملة ما يصدق عليه العزة وقال أهل العراق الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة
والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين قيل والاصح ان الايمان
مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا ومالا فلا وجواب القسم (لأزينن
لهم) اى لذرية آدم وان لم يجر لهم ذكر للعلم بهم (فى الارض) اى ما داموا فى الدنيا والتزيين
منه اما بتحسين المعاصى لهم وايقاعهم فيها أو بشغلهم بزينة الدنيا وحبها عن فعل ما أمرهم
الله به فلا يلتفتون الى غيرها (ولأغوينهم أجمعين) اى لأضلنهم عن طريق الهدى
وأوقعهم فى طريق الغواية وأحملهم عليها بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم
انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم وفى الآية
حجة على المعتزلة فى خلق الافعال وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر (الا عبادك منهم
المخلصين) اى الذين استخلصتهم من العباد أو الذين أخلصوا لك العبادة والطاعة فلم
يقصدوا بها غيرك وانما استثناهم لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه
وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير (قال) الله تعالى (هذا صراط
على مستقيم) لا عوج فيه والمعنى حق على ان أراعيه وأحفظه وهو أن لا يكون لك على
عبادى سلطان فالكلام على التشبيه عند أهل السنة كما فى قوله تعالى وكان حقا علينا نصر
المؤمنين اذ لا تجب رعاية الاصلح عندنا وقيل قال الكسائى هذا على الوعيد والتهديد كقولك
لمن تهدده طريقك على ومصيرك الى وكقوله ان ربك لبالمرصاد فكان معنى هذا الكلام
هذا طريق مرجعه الى فاجازى كلا بعمله وقيل على هنا بمعنى الى وقيل المعنى على ان أدل

(٣) قوله صلاصفة هكذا فى الاصل وحررها اه

عن عبد الصمد به وقال البخاري أيضا حدثنا محمد أنبأنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني قالوا نعم قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا ثم قال تابعه أسامة عن عبيد الله قال ابن عباس رؤيا الانبياء وحي وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام ان الاحد عشر كوكبا عبارة عن اخوته وكانوا أحد عشر (١٨٧) رجلا والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره واخوته بين يديه وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد جاء في حديث تسمية الاحد عشر كوكبا وقال الامام جعفر بن جرير حدثني علي بن سعيد الكندي حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن ابن سابط قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من يهود يقال له بستانة اليهودي فقال يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف انها ساجدة له ما أسماؤها قال فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها قال فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه فقال أنت تؤمن اذا أخبرتك بأسمائها قال نعم قال جريان والطارق والذيال وذو الكتفين وقابس ووثاب وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما وابن أبي حاتم في تفسيره أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به وزاد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد قال والشمس أبوه والقمر أمه تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الائمة وتركه الاكثرون وقال الجرجاني ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف ثم ذكر الحديث المروي عن جابر ان يهوديا سأل

على الصراط المستقيم بالبيان والحجة وقيل بالتوفيق والهداية وقيل عائد الى الاخلاص أي ان الاخلاص طريق علي والي يؤدي الى كرامتي ورضواني قال أبو السعود والاظهر ان ذلك رد لما وقع في عبارة ابليس حيث قال لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرئ علي على انه صفة مشبهة ومعناه رفيع (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) المراد بالعباد هنا هم المخلصون والمراد انه لا تسلط أنت عليهم بايقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما فانه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه قال أهل المعاني معنى عليهم على قلوبهم وقال سفيان ابن عيينة معناه ليس لك عليهم قوة وقدرة على ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم واجتباهم من عباده (الا من اتبعك) استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لابليس (من الغاوين) عن طريق الحق الواقعين في الضلال وهو موافق لما قاله ابليس اللعين من قوله لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ويمكن أن يقال بين الكلامين فرق فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان ابليس على جميع عباده الا من اتبعه من الغاوين فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع ابليس وكلام ابليس اللعين يتضمن اغواء الجميع الا المخلصين فدخل فيهم من لم يكن مخلصا ولا تابعا لابليس غاويا والحاصل ان بين المخلصين والغاوين التابعين لابليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لابليس وقد قيل ان الغاوين المتبعين لابليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون قال أبو السعود وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وان اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم ثم قال الله تعالى متوعدا الاتباع ابليس (وان جهنم لموعدهم) اي موعد المتبعين الغاوين (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال (لها سبعة أبواب) يدخل أهل النار منها وانما كانت سبعة لكثرة أهلها (لكل باب منهم) اي من الاتباع الغواة (جزء مقسوم) اي نصيب وقدر معلوم متميز عن غيره والجزء بعض الشيء وجزأته جعلته أجزاء والمراد هنا بالجزء الحزب والطائفة والفريق وقيل المراد بالابواب الاطباق طبق فوق طبق قال ابن جريج النار سبع دركات وهي جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية فأعلاها

النبي صلى الله عليه وسلم عن الكواكب التي رآها يوسف ما أسماؤها وانه أجابه ثم قال تفرد به الحكم بن ظهير وقد ضعفه الاربعة (قال يابني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين) يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رآى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع اخوته له وتعظيمهم اياه تعظيما زائدا بحيث يخرون له ساجدين اذلالا واكراما واحتراما فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدا من اخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسدا منهم له ولهذا قال له لا تقصص (١٨٨) رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رآى أحدكم ما يحب فليحدث به واذا رآى ما يكره فليتحول الى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحدا فانها لن تضره وفي الحديث الآخر الذي رواه الامام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فاذا عبرت وقعت ومن هذا يؤخذ الامر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فان كل ذي نعمة محسود (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف انه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك كذلك يجتبيك ربك أي يختارك ويصطفيك لنبوته ويعلمك من تأويل الاحاديث قال مجاهد وغير واحد يعني تعبير الرؤيا ويتم نعمته عليك أي بارسالك والايحاء اليك ولهذا قال كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وهو الخليل واسحق ولده وهو الذبيح في قوله وليس بالرجيح ان ربك عليم حكيم أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما في الآية الاخرى (لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف وخبره مع اخوته آيات للسائلين

لعصاة الموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ثم كذلك كذا قيل والمعنى ان الله تعالى يجزئ اتباع ابليس سبعة أجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار قال الخطيب تخصيص هذا العدد لان أهلها سبع فرق وقيل جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لانها مصادر السيآت فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الاعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية انتهى أقول الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر بل الاولى تفويضها الى جاعلها وهو الله سبحانه الا أن يرد به خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجب المصير اليه وعن علي رضي الله عنه قال اطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الاول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي وأخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية جزء أشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله وقد وردت في صفة النار وأهوالها أحاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها (ان المتقين) أي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه كما قاله جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي وبه قال الجبائي وجمهور المعتزلة والاول أولى وأجمعت الامة على ان التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة وليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا أن يكون آتيا بجميع أنواع التقوى لان الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتيا بالتقوى كما ان الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة وكل فرد من أفراد الماهية يجب أن يكون مشتملا على تلك الماهية وبهذا التحقيق استدلوا على ان الامر لا يفيد التكرار (في جنات) هي البساتين (وعيون) هي الانهار الجارية أي مستغرقون فيهما والتركيب يحتمل أن يكون لجميعهم جنات وعيون أو لكل واحد منهم جنات وعيون أي عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف

أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فانه خبر عجيب يستحق ان يستخبر عنه اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا
أى حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لامه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة أى جماعة فكيف
أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ان أبانا لفى ضلال مبين يعنون فى تقديمهما علينا ومحبته اياهما أكثر منا واعلم انه لم يقم دليل
على نبوة اخوة يوسف وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم انهم أوحى اليهم بعد ذلك وفى هذا نظر ويحتاج
مدعى ذلك الى دليل ولم يذكروا سوى قوله تعالى قولوا آمنا بالله (١٨٩) وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق
ويعقوب والاسباط وهذا فيه احتمال لان بطون بنى اسرائيل يقال لهم الاسباط كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب يذكر تعالى انه أوحى الى الانبياء من أسباط بنى اسرائيل فذكرهم اجمالا لانهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من اخوة يوسف ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء انهم أوحى اليهم والله أعلم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم يقولون هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم اعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم اما بان تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الاراضى تستريحوا منه وتختلوا أنتم بأبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين فاضمروا التوبة قبل الذنب قال قائل منهم قال قتادة ومحمد بن اسحق كان أكبرهم واسمه روبيل وقال السدى الذى قال ذلك يهوذا وقال مجاهد هو شمعون لا تقتلوا يوسف أى لا تصلوا فى عداوته وبغضه الى قتله ولم يكن لهم سبيل الى قتله لان الله تعالى كان يريد منه أمرا لابد من امضائه واتمامه من الايحاء اليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر
والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه واشارته عليهم بان يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله قال قتادة وهى بئر بيت المقدس
يلتقطه بعض السيارة أى المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة الى قتله ان كنتم فاعلين أى ان كنتم عازمين على ما تقولون
قال محمد بن اسحق بن يسار لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له
وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ليفرقوا بينه على كبر سنه ورقة عظمه مع
مكانه من الله فيمن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته الى لطف والده وسكونه اليه يغفر الله لهم وهو

خاف مقام ربه جنتان أو لكل واحد منهم جنة وعين تجرى فى قصوره ودوره فينتفع بها هو
ومن يختص به من حوره وولدانه قال الرازى يحتمل أن يكون منها ما ذكره الله تعالى فى
قوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن الآية ويحتمل أن يكون المراد
من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الانهار (ادخلوها) اى قيل لهم ادخلوها وقرئ على انه
فعل مبنى للمفعول أى أدخلهم الله اياها وقد قيل انهم اذا كانوا فى جنات وعيون فكيف
يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور فان الامر لهم بالدخول يشعر بانهم لم يكونوا
فيها وأجيب بان المعنى انهم لما صاروا فى الجنات فاذا انتقلوا من بعضها الى بعض يقال لهم
عند الوصول الى التى أرادوا الانتقال اليها ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض
ملائكته (بسلام آمنين) اى بسلامة من جميع الآفات وأمن من المخافات أو من
زوال هذا النعيم أو مسلمين على بعضهم بعضا أو مسلما عليهم من الملائكة أو من الله عز وجل
وقال الضحاك أمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون
(ونزعنا ما فى صدورهم من غل) هو الحقد والعداوة والشحناء والبغضاء والحسد وكل
ذلك مذموم داخل فى الغل لانها كامنة فى القلب وقد مر تفسيره فى الاعراف وعن الحسن
البصرى عن على فينا والله أهل الجنة نزلت وعنه قال نزلت فى ثلاثة أحياء من العرب
فى بنى هاشم وبنى تيم وبنى عدى وفى أبى بكر وعمر وعنه قال انى لارجو أن أكون أنا
وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله ونزعنا ما فى صدورهم من غل وعن ابن عباس قال
نزلت فى عشرة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن
عوف وابن مسعود وفى الباب روايات (اخوانا) حال مقدرة قاله أبو البقاء يعنى من
فاعل ادخلوها ولا حاجة اليه بل هى حال مقارنة من ضمير صدورهم والمعنى حال كونهم
اخوة فى الدين بالتعاطف والمحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه اخوة النسب يروى
ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد
نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وصاروا اخوانا حال كونهم (على سرر)
من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت قال أبو البقاء يجوز أن يتعلق بنفس اخوانا
لانه بمعنى متصافين أى متصافين على سرر وفيه نظر من حيث تأويل جامد بمشتق بعيد
منه والسرر جمع سرير وهو مثل ما بين صنعاء الى الجابية وقيل هو المجلس العالى الرفيع

أرحم الراحمين فقد احتملوا أمرا عظيما رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون) لما تواطؤا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل جاؤا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف الآية وهذه التوطئة توطئة وسلف ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له أرسله معنا أي ابعثه معنا غدا نرتع ونلعب قرأ بعضهم بالياء يرتع ويلعب قال ابن عباس يسعى وينشط وكذا قال قتادة والسدي وغيرهم وانا له لحافظون يقولون ونحن نحفظه ونحوطه من اجلك

(قال اني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب انه قال لبنيه في جواب ما سألوا من ارسال يوسف معهم الى الرعي في الصحراء اني ليحزنني ان تذهبوا به أي يشق على مفارقته مدة ذهابكم به الى ان يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه وقوله وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون يقول وأخشى ان تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة انا اذا لهالكون عاجزون (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) يقول تعالى فلما ذهبت به اخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك وأجمعوا بأن ان يجعلوه في غيابة الجب هذا فيه تعظيم لما فعلوه انهم اتفقوا كلهم على القائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له اكراما له وبسطا وشرحا لصدره وادخالا للسرور عليه فيقال ان يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه اليه وقبله ودعا له قال غيره انه لم يكن بين اكرامهم له وبين اظهار الاذى له الا ان غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه ثم جاؤا به الى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان اذا لجأ الى واحد منهم

المهيأ للسرور ومنه قولهم سر الوادي لافضل موضع منه (متقابلين) اي ينظر بعضهم الى وجه بعض قال مجاهد لا يرى بعضهم قفا بعض وعن ابن عباس نحوه فاذا اجتمعوا وتلاقوا ثم أرادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده وقفاه الى الجهة التي يسير اليها السرير وهذا أبلغ في الانس والاكرام وأخرج الطبراني والبغوي وابن أبي حاتم وغيرهم عن زيد بن أبي أوفى قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية قال المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم الى بعض (لا يمسهم فيها) اي في الجنة مستأنفة أو حالية (نصب) اي تعب واعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة لانها نعيم خالص ولذة محضة تحصل لهم بسهولة وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا قال السدي النصب المشقة والاذى (وما هم منها) اي من الجنة (بمخرجين) أبدا وهذا نص من الله الكريم في كتابه العزيز على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم فان علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذاته ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والاجر الجزيل (نبئ عبادي أني) بفتح الياء فيهما وسكونها فيهما سبعيتان أي أخبر يا محمد كل من كان معترفا بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي (أنا الغفور الرحيم) اي أنا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسي ان رحمتي سبقت غضبي اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة وأدخلتهم تحت واسع الرحمة أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ناس من أصحابه يضحكون فقال اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت هذه الآية وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار ثم ان الله سبحانه لما أمر رسوله ان يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره

لطمه وشتمه واذا انشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فغمره فصعد الى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها وقوله وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا الآية يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وانزاله اليسر في حال العسر انه أوحى الى يوسف في تلك الحال الضيق تطييبا لقلبه وتثبيتا له انك لا تحزن مما أنت فيه فان لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا وانه سينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع وقوله وهم لا يشعرون قال قتادة وهم لا يشعرون بايحاء الله اليه وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك (١٩١) وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك كما قال ابن جرير حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا صدقة بن عبادة الاسدي عن أبيه سمعت ابن عباس يقول لما دخل اخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون قال جيء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم وانكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ثم نقره فطن قال فأتيتم أباكم فقلتم ان الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب قال فقال بعضهم لبعض ان هذا الجام ليخبره بخبركم قال ابن عباس رضي الله عنهما فلا نرى هذه الآية نزلت الا فيهم لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون (وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) يقول تعالى مخبرا عن الذي اعتمده اخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب انهم رجعوا الى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الاسف والجزع عليه ويتغممون لابيهم وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا انا ذهبنا نستبق أي نترامى وتركنا يوسف عند متاعنا اي عند ثيابنا وأمتعتنا فأكله الذئب وهو الذي كان جزع منه وحذر عليه وقوله وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه يقولون ونحن نعلم انك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين فكيف وأنت تتهمنا في ذلك لانك خشيت ان يأكله الذئب فأكله الذئب وأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا وجاؤا على قميصه بدم كذب اي مكذوب مفترى وهذا من الافعال التي يأكدون بها ما تمالؤا عليه من المكيدة وهو انهم عمدوا الى سخلة فيما ذكره مجاهد

بان يذكر لهم شيأ مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال (وان عذابي هو العذاب الاليم) اى الكثير الايلام وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الامرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطاء بين اليأس والرجاء وخير الامور أوسطها وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف وبين حالتي الانس والهيبة قيل لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لما أقدم على ذنب وفي هذه الآية لطائف منها انه أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادي وهذا تشريف لهم وتعظيم كما أضاف في قوله أسرى بعبده ليلا ولم يزد عليه ومنها انه أكد ذكر الرحمة والمغفرة بمؤكدات ثلاثة أولها قوله أني وثانيها أنا وثالثها التعريف في الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولم يقل في ذكر العذاب اني أنا المعذب ولم يصف نفسه بذلك بل قال على سبيل الاخبار ان عذابي هو العذاب الأليم ومنها انه أمر رسوله ان يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة ثم أتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات السعداء ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وذكر هنا أربع قصص قصة ابراهيم ثم قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة صالح وسيأتي تفصيلها وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) أي أخبرهم بما جرى على ابراهيم من الامر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله في عباده وأيضا لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم وان عذابه هو العذاب الأليم وأصل الضيف الميل يقال أضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وهو في الاصل مصدر ولذلك وحد وان كانوا جماعة ملائكة اثنى عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل على صورة غلمان حسان أرسلهم الله اليه ليبشروه بالولد ويهلكوا قوم لوط عليه السلام وقدم تفسير القصة مفصلا في سورة هود عليه السلام وسمي الضيف ضيفا لاضافته الى المضيف وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان (اذ دخلوا) اى اذكر لهم وقت دخولهم (عليه فقالوا سلاما) اى هذا اللفظ قالوه تحية لابراهيم وفي الشهاب يجوز أن يكون سلاما منصوبا

والسدى وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوبه بدمها موهمين ان هذا القميص الذى اكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه ولكنهم نسوا

ان يخرقوه فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب بل قال لهم معرضا عن كلامهم الى ماوقع فى نفسه من لبسهم عليه

بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل أى فسأصبر صبرا جميلا على هذا الامر الذى اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه والله

المستعان على ماتصفون أى على ماتذكرونه من الكذب والمحال وقال الثورى عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وجاؤا على

قميصه بدم كذب قال لو أكله السبع لخرق القميص (١٩٢) وكذا قال الشعبى والحسن وقتادة وغير واحد وقال مجاهد الصبر

الجميل الذى لاجزع فيه وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى جبلة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله فصبر جميل قال صبر لاشكوى فيه وهذا مرسل وقال عبد الرزاق قال الثورى عن بعض أصحابه انه قال ثلاث من الصبر ان لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكى نفسك وذكر البخارى ههنا حديث عائشة رضى الله عنها فى الافك حتى ذكر قولها والله لاأجد لى ولكم مثلا الا كما قال ابو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام واسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) يقول تعالى مخبرا عما جرى ليوسف عليه السلام فى الجب حين ألقاه اخوته وتركوه فى ذلك الجب فريدا وحيدا فمكث عليه السلام فى البئر ثلاثة ايام فيما قاله ابو بكر بن عياش وقال محمد بن اسحق لما ألقاه اخوته فى البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع ومايصنع

به فساق الله له سيارة فنزلوا قريبا من ذلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذى يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر لازالة

وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فاخرجه واستبشر به وقال يابشرى هذا غلام وقرأ بعض القراء يابشرى

وزعم السدى انه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه معلماله انه أصاب غلاما وهذا القول من السدى غريب لانه لم يسبق

الى تفسير هذه القراءة بهذا الا فى رواية عن ابن عباس والله أعلم وانما معنى القراءة على هذا النحو يرجع الى القراءة الاخرى

ويكون قد أضاف البشرى الى نفسه وحذف ياء الاضافة وهو يريدها كما تقول العرب يانفس اصبرى وياغلام أقبل بحذف

بفعل مقدر أى سلمنا أو نسلم سلاما ويجوز نصبه بقالوا ولم تذكرهنا تحية ابراهيم لهم لانها

ذكرت فى سورة هود فالقصة هنا مختصرة (قال انا منكم وجلون) اى خائفون فزعون وانما

قال هذا بعد ان قرب اليهم العجل فرآهم لايأكلون منه كما تقدم فى سورة هود فلما رأى

أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة وقيل أنكر السلام منهم لانه لم يكن فى

بلادهم وقيل أنكر دخولهم عليه بغير استئذان (قالوا) أى الملائكة (لاتوجل) أى لاتخف

قاله عكرمة وقرئ لاتأجل وتوجل من أوجله أى أخافه (انا نبشرك بغلام عليم) مستأنفة

لتعليل النهى عن الوجل لان المبشر لايخاف منه والعليم كثير العلم وقيل هو الحليم كما وقع

فى موضع آخر من القرآن وهذا الغلام هو اسحق كما تقدم فى هود ولم يسمه هنا ولاذكر التبشير

بيعقوب اكتفاء بما سلف (قال أبشرتمونى) قرئ بألف الاستفهام وبغيرها (على أن

مسنى الكبر) اى مع حالة الكبر والهرم (فبم تبشرون) استفهام انكار وتعجب كأنه

عجب من حصول الولد له مع ماقد صار اليه من الهرم الذى جرت العادة بانه لايولد لمن بلغ

اليه والمعنى فبأى شئ تبشرون فان البشارة بما لايكون عادة لاتصح (قالوا بشرناك بالحق)

اى بما يكون لامحالة أو باليقين الذى لالبس ولاخلف فيه فان ذلك وعد الله وهو لايخلف

الميعاد ولايستحيل عليه شئ فانه القادر على كل شئ (فلا تكن من القانطين) اى الآيسين

من ذلك الذى بشرناك به فانه تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين فكيف من شيخ

فان وعجوز عاقر وكان تعجب ابراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك (قال ومن يقنط من

رحمة ربه) قرئ بفتح النون من يقنط وبكسرها وهما لغتان سبعيتان وحكى فيه ضم النون

شاذا والقنوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قانط وقنوط (الا الضالون) اى

المكذبون أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب والمعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله

تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال الله تعالى انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون اى

انى انما استبعدت الولد لكبر سنى لا لقنوطى من رحمة ربى ثم سألهم عما لاجله أرسلهم الله

سبحانه (قال فما خطبكم أيها المرسلون) الخطب الامر الخطير والشأن العظيم أى فما

أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به غير ماقد بشرتمونى به وكان قد فهم ان مجيئهم ليس لمجرد

البشارة بل لهم شأن آخر لاجله أرسلوا لانهم كانوا اعدادا والبشارة لاتحتاج الى عدد ولذلك

اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام أو لانهم بشروه فى تضاعيف الحال

لازالة الوجل ولو كانت البشارة تمام المقصود لابتدؤه بها (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين)
أي الى قوم لهم اجرام فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه وهؤلاء القوم هم قوم لوط
عليه السلام ثم استثنوا منهم من ليسوا بمجرمين فقالوا (الا آل لوط) وهو استثناء متصل
لانه من الضمير المستكن في مجرمين يعني أجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ولو كان
من قوم لكان منقطعا لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين وليس آل لوط مجرمين البتة
ويجب فيه على هذا النصب ثم ذكروا ما يختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم
مع القوم في اجرامهم فقالوا (انا لمنجوهم) اى آل لوط (أجمعين) وهم اتباعه وأهل بيته
ودينه لايمانهم قرئ من التنجية والانجاء ومعناهما التخليص مما وقع فيه غيرهم وهذا
الكلام استئناف اخبار بنجاتهم بكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا
للمجرمين ولآل لوط لاهلاك أولئك وانجاء هؤلاء على تقدير الاتصال وعلى انه منقطع
جرى هذا الكلام مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط نجيناهم
(الا امرأته) فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه لكفرها وهذا الاستثناء من الضمير في لمنجوهم
اخرجها من التنجية وقيل من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية والمعنى انها من
الهالكين لان الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي ومنعه الزمخشري وقال كيف
يكون استثناء من استثناء وقد اختلف الحكمان (قدرنا انها لمن الغابرين) اى قضينا
وحكمنا انها من الباقين في العذاب مع الكفرة والغابر الباقي والماضي وهو من الاضداد
وابه دخل قال الزجاج معنى قدرنا دبرنا وهو قريب من معنى قضينا وأصل التقدير جعل
الشئ على مقدار الكفاية وقرئ قدرنا بالتخفيف وبالتشديد قال الهروي هما بمعنى وقيل
ضمن قدرنا معنى العلم فلذلك علق باللام مع كون التعليق من خصائص أفعال القلوب
فكسرت ان وقيل هذا لا يصلح علة لكسرها انما يصلح علة لتعليقها الفعل قبلها فقط
والعلة في كسرها وجود اللام ولولاها لفتحت وانما أسندوا التقدير الى الملائكة مع كونه
من فعل الله سبحانه مجازا لما لهم من القرب عند الله أو انهم رسل الله وواسطة بينه وبين
خلقه (فلما جاء آل لوط المرسلون) مستأنفة لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من
يستحق النجاة وفي الكلام حذف أي خرجوا من عند ابراهيم وسافروا من قريته الى قرية
لوط وكان بينهما أربعة فراسخ ولفظة آل زائدة بدليل ولقد جاءت رسلنا لوطا (قال) لوط

حرف الاضافة ويجوز الكسر حينئذ والرفع وهذا منه وتفسرها القراءة الاخرى يابشراى والله أعلم وقوله وأسروه بضاعة أي
وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة ان يشاركوهم فيه اذا علموا خبره قاله مجاهد
والسدي وابن جرير هذا قول وقال العوفي عن ابن عباس قوله وأسروه بضاعة يعني اخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون
أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة ان يقتله اخوته واختار البيع فذكره اخوته لوارد القوم فنادى أصحابه يابشرى هذا غلام يباع
فباعه اخوته وقوله والله عليم بما يعملون أي عليم بما يفعله اخوة يوسف ومشتروه (١٩٣) وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له
حكمة وقدر سابق فترك ذلك ليمضي
ما قدره وقضاه ألا له الخلق
والامر تبارك الله رب العالمين
وفي هذا تعريض لرسوله محمد
صلى الله عليه وسلم واعلام له بأني
عالم بأذى قومك لك وأنا قادر على
الانكار عليهم ولكني سأملي لهم
ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم
كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة
على اخوته وقوله وشروه بثمن بخس
دراهم معدودة يقول تعالى وباعه
اخوته بثمن قليل قاله مجاهد
وعكرمة والبخس هو النقص كما قال
تعالى فلا يخاف بخسا ولا رهقا أي
اعتاض عنه اخوته بثمن دون قليل
ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين
أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سألوه
بلا شئ لاجابوا قال ابن عباس
ومجاهد والضحاك ان الضمير في
قوله وشروه عائد على اخوة يوسف
وقال قتادة بل هو عائد على السيارة
استبشروا به وأسروه بضاعة ولو
كانوا فيه زاهدين لما اشتروه فترجح
من هذا ان الضمير في شروه انما هو
لاخوته وقيل المراد بقوله بخس
الحرام وقيل الظلم وهذا وان كان
كذلك لكن ليس هو المراد هنا لان هذا معلوم يعرفه كل أحد ان ثمنه حرام على كل حال
وعلى كل أحد لانه نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم وانما المراد هنا بالبخس الناقص
أو الزيوف أو كلاهما أي انهم اخوته وقد باعوه ومع هذا بأنقص الاثمان ولهذا قال دراهم معدودة فعن ابن مسعود رضي الله
عنه باعوه بعشرين درهما وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي وزاد اقتسموها درهمين درهمين
وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما وقال محمد بن اسحق وعكرمة أربعون درهما وقال الضحاك في قوله وكانوا فيه من الزاهدين

وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل وقال مجاهد لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر فقال من يبتاعني وليبشر فاشتراه الملك وكان مسلما (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى (١٩٤) أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه قطفير وقال محمد بن اسحق اسمه اطفير بن روحيب وهو العزيز كان على خزائن مصر وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأته راعيل بنت رعابيل وقال غيره اسمها زليخا وقال محمد بن اسحق أيضا عن محمد ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان ابن ابراهيم فالله أعلم وقال أبو اسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمي مثواه والمرأة التي قالت لأبيها يا أبت استأجره الآية وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقول تعالى كما أنقذنا يوسف من اخوته كذلك مكنا ليوسف في الأرض يعني بلاد مصر ولنعلمه من تأويل الأحاديث قال مجاهد والسدي هو تعبير الرؤيا والله غالب على أمره أي إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه قال سعيد بن جبير في قوله والله غالب على أمره أي فعال لما يشاء وقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون يقول لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد وقوله ولما بلغ أي يوسف عليه السلام أشده أي استكمل عقله وتم خلقه آتيناه حكما وعلما يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام وكذلك نجزي المحسنين أي أنه كان محسنا في عمله عاملا بطاعة الله تعالى وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ثلاث وثلاثون وعن ابن عباس بضع وثلاثون وقال الضحاك عشرون وقال الحسن أربعون سنة وقال عكرمة خمس وعشرون سنة وقال

مخاطبا لهم (انكم قوم منكرون) لا أعرفكم بل أنكركم وأخاف ان تصيبوني بمكروه ولا أعرف غرضكم ولا من أي القبائل أنتم (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه فالاضراب هو عن مجيئهم بما ينكره كأنهم قالوا ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه بل جئناك بما فيه سرورك وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه (وأتيناك) متلبسين (بالحق) أي باليقين الذي لا مرية فيه ولا ترددا أو متلبسا أنت به لا بصارك له وهو العذاب النازل بهم لا محالة (وانا لصادقون) في ذلك الخبر الذي أخبرناك وقد تقدم تفسير قوله (فأسر بأهلك بقطع من الليل) في سورة هود أي سر في جزء من الليل بهم وهم بناته فلم يخرج من قريته الا هو وبناته وفي القرطبي في سورة هود فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم (واتبع أدبارهم) أي كن من ورائهم وامش خلفهم تذودهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب أو لاجل ان تطمئن عليهم وتعرف انهم ناجون (ولا يلتفت منكم أحد) أي أنت ولا أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين وقيل معنى لا يلتفت لا يتخلف (وامضوا حيث تؤمرون) أي الى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضي اليها وهي جهة الشام وقيل مصر وقيل قرية من قرى لوط وقيل أرض الخليل عليه الصلاة والسلام وقيل الأردن وزعم بعضهم ان حيث هنا ظرف زمان مستدلا بقوله بقطع من الليل ثم قال وامضوا حيث تؤمرون أي في ذلك الزمان وهو ضعيف ولو كان كما قال لكان التركيب وامضوا حيث أمرتم على انه لو جاء التركيب هكذا لم يكن فيه دلالة (وقضينا اليه) أي أوحينا الى لوط عليه السلام (ذلك الأمر) هو اهلاك قومه ثم فسره بقوله (ان دابر هؤلاء مقطوع) الدابر هو الآخر أي ان آخر من يبقى منهم يهلك (مصبحين) أي حال كونهم داخلين في وقت الصبح ومثله فقطع دابر القوم الذين ظلموا وقدره الفراء وأبو عبيدة اذا كانوا مصبحين قال الكرخي فان كان تفسير معنى فصحيح وأما الاعراب فلا ضرورة تدعو اليه قال ابن عباس يعني استئصال هلاكهم ثم ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريته فقال (وجاء أهل المدينة) أي أهل مدينة قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة فذال معجمة على وزن فعول وأخطأ من قال بمهملة مدينة من مدائن قوم لوط كما سبق وتقدم ان هذا المجيء قبل قول

الملائكة

السدى ثلاثون سنة وقال سعيد بن جبير ثمانية عشر سنة وقال الامام مالك وربيعة بن زيد بن أسلم والشعبي الاشد الحلم وقيل غير ذلك والله أعلم (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون) يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وباكرامه فراودته عن نفسه اى حاولته على نفسه ودعته اليها وذلك انها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على ان تجملت له وغلقت عليه الابواب ودعته الى نفسها وقالت هيت لك فامتنع من ذلك أشد الامتناع وقال معاذ الله

انه ربى أحسن مثواى وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير أى ان بعلك ربى أحسن مثواى أى منزلى وأحسن الى فلا أقابله بالفاحشة فى أهله انه لا يفلح الظالمون قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن اسحق وغيرهم وقد اختلف القراء فى قوله هيت لك فقرأه كثيرون بفتح الهاء واسكان الياء وفتح التاء قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد معناه انها تدعوه الى نفسها وقال على ابن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس هيت لك تقول هلم لك وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة قال عمرو بن عتبة عن الحسن وهى كلمة بالسريانية أى عليك وقال السدى هيت لك أى هلم لك وهى بالقبطية وقال مجاهد هى لغة غريبة تدعوه بها وقال البخارى وقال عكرمة هيت لك هلم لك بالحورانية هكذا ذكره معلقا وقد أسنده الامام أبو جعفر بن جرير حدثنى أحمد بن سهل الواسطى حدثنا قرة بن عيسى حدثنا النضر ابن عزبى الخدرى عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله هيت لك قال هلم لك قال هى بالحورانية وقال أبو عبيد القاسم بن سلام وكان الكسائى يحب هذه القراءة يعنى هيت لك ويقول هى لغة لاهل حوران وقعت الى أهل الحجاز ومعناها تعال وقال أبو عبيد سألت شيخا عالما من أهل حوران فذكر انها لغتهم يعرفها واستشهد الامام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق اذا أتينا * ان العراق وأهله * عنق اليك فهيت هيتا

يقول فتعال واقترب وقرأ ذلك آخرون هئت لك بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك من قول القائل هئت بالامر اهيء هيئة وممن روى عنه هذه القراءة ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمى وأبو وائل وعكرمة وقتادة وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك قال ابن جرير وكان أبو عمرو

الملائكة فاسر باهلك فما فى سورة هود على الترتيب الواقعى وما هنا على خلافه والواو لا تفيد ترتيبا قال الكرخى ذكر القصة فى هود بترتيب الوقوع وهنا أخذ كرمجيئهم عن قول الرسل بل جئناك مع تقدمه ليستقل الاول ببيان كيفية نصرة الصابرين والثانى بتساوى الامم (يستبشرون) اى مستبشرين بأضياف لوط طمعا فى ارتكاب الفاحشة منهم والاستبشار اظهار الفرح والسرور (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى) وحد الضيف لانه مصدر كما تقدم والمراد أضيافى وسماهم ضيفا لانه رآهم على هيئة الاضياف وقومه رأوهم مردا حسان الوجوه فى غاية الحسن ونهاية الجمال فلذلك طمعوا فيهم (فلا تفضحون) يقال فضحه يفضحه فضيحة وفضحا اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار باظهاره وفى المختار فضحه فافتضح أى كشف مساويه وبابه قطع والاسم الفضيحة والفضوح أيضا بضمتين والمعنى لا تفضحونى عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون انى عاجز عن حماية من نزل بى أو لا تفضحونى بفضيحة ضيفى فان من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف (واتقوا الله) فى أمرهم من ركوب الفاحشة (ولا تخزون) يجوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان أى لا تذلونى ويجوز أن يكون من الخزاية وهى الحياء والخجل وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة هود (قالوا) اى قوم لوط مجيبين له (أولم ننهك عن العالمين) الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ونهك عن ان تكلمنا فى شأن أحد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة وقيل نهوه عن ضيافة غرباء الناس قال قتادة يقولون أولم ننهك ان تضيف أحدا أو تؤويه فى قريتنا ويجوز حمل ما فى الآية على ما هو أعم من ذلك (قال هؤلاء بناتى) فتزوجوهن حلالا ان أسلمتم ولا تركبوا الحرام وقيل أراد بناته نساء قومه لكون النبى بمنزلة الاب لقومه أو انه كان فى شريعته يحل تزوج الكافر بالمسلمة والاول أولى وقد تقدم تفسير هذا فى هود (ان كنتم فاعلين) ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفى أو ما آمركم به (لعمرك) العمر والعمر بالفتح والضم واحد لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لايثار الاخف فانه كثير الدور على ألسنتهم ذكر ذلك الزجاج وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وعيشه والبقاء مدة حياته فى الدنيا والمعنى لعمرك قسمى أو يمينى فحذف الخبر لدلالة الكلام عليه قال القاضى عياض اتفق أهل التفسير فى هذا انه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكذا حكى

والكسائي ينكران هذه القراءة وقرأ عبد الله بن اسحق هيت بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هيت بفتح الهاء وضم التاء وأنشد قول الشاعر

ليس قومي بالابعدين اذا ما * قال داع من العشيرة هيت

قال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الاعمش عن ابي وائل قال قال ابن مسعود وقد سمع القراء متقاربين فاقرؤا كما علمتم واياكم والتنطع والاختلاف وانما هو كقول أحدكم هلم وتعال ثم قرأ عبد الله هيت لك فقال يا أبا عبد الرحمن ان ناسا يقرؤنها هيت قال عبد الله أن أقرأها كما علمت أحب الي وقال ابن جرير حدثني ابن وكيع (١٩٦) حدثنا ابن عيينة عن منصور عن ابي وائل قال قال عبد الله هيت لك فقال له مسروق ان ناسا يقرؤنها هيت لك فقال دعوني فاني أقرأ كما أقرئت أحب الي وقال أيضا حدثني المثنى حدثنا آدم بن ابي اياس حدثنا شعبة عن شقيق عن ابن مسعود قال هيت لك بنصب الهاء والتاء ولا تهمز وقال آخرون هيت لك بكسر الهاء واسكان الياء وضم التاء قال أبو عبيد معمر بن المثنى هيت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث بل يخاطب الجميع بلفظ واحد فيقال هيت لك وهيت لكم وهيت لكما وهيت لكن وهيت لهن (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) اختلف اقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام وقد روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره والله أعلم وقيل المراد بهمه بها خطرات حديث النفس حكاه البغوى عن بعض اهل التحقيق ثم أورد البغوى ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها وان هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فانما تركها من جرائي فان عملها فاكتبوها بمثلها وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها وقيل هم بضربها وقيل تمناها زوجة وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه أي فلم يهم بها وفي هذا القول نظر من حيث العربية حكاه ابن جرير وغيره وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضا فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن اسحق

اجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تشريفا له قال أبو الجوزاء ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم لانه أكرم البرية عنده وعن ابن عباس قال ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال لعمرك الآية يقول وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا وعيشك بها وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما حلف الله بحياة أحد الا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال لعمرك الآية أخرجه ابن مردويه كذا في الدر المنثور للسيوطي قال ابن العربي ما الذي يمنع ان يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء وكل ما يعطيه الله سبحانه للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لانه أكرم على الله منه أولا تراه سبحانه أعطى ابراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قال فاذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أرفع قال القرطبي ما قاله حسن فانه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كلاما معترضا في قصة لوط عليه السلام فان قيل قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ونحو ذلك فما فيهما من فضل وأجيب بانه ما من شيء أقسم الله به الا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه وقيل الاقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به أي وخالق التين وكذلك ما بعده وفي قوله لعمرك أي وخالق عمرك وذكر صاحب الكشاف وأتباعه ان هذا القسم هو من الملائكة على ارادة القول أي قالت الملائكة للوط لعمرك ثم قال وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له انتهى وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه وجاءت بذلك الاحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (انهم لفي سكرتهم يعمهون) اى انهم لفي غوايتهم وشدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به اليهم يتحيرون جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة والضمير لقريش على ان القسم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والجملة

اعتراض

وغيرهم رأى صورة أبيه يعقوب عاضا على اصبعه بفمه وقيل عنه في رواية فضرب في صدر يوسف وقال العوفي عن ابن عباس رأى خيال الملك يعني سيده وكذا قال محمد بن اسحق فيما حكاه عن بعضهم انما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن أبي مودود سمعت من محمد بن كعب القرظي قال رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فاذا كتاب في حائط البيت لا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن أبي صخر قال سمعت القرظي (١٩٧) يقول في البرهان الذي رأى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ان عليكم لحافظين الآية وقوله وما تكون في شأن الآية وقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت قال نافع سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي وزاد آية رابعة ولا تقربوا الزنا وقال الاوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك قال ابن جرير والصواب ان يقال انه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به وجائز ان يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون الملك وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك ولا حجة قاطعة على تعيين شئ من ذلك فالصواب ان يطلق كما قال الله تعالى وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء أي كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع اموره انه من عبادنا المخلصين أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الاخيار صلوات الله وسلامه عليه (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا ان يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين) يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان الى الباب يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع الى البيت فلحقته في أثناء ذلك فامسكت بقميصه فقدته قدا فظيعا يقال انه سقط عنه من ورائه فقدته قدا فظيعا واستمر يوسف هاربا ذاهبا وهي في اثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها

اعتراض أو اقوم لوط على ان القسم بلوط قال قتادة أي في ضلالهم يلعبون وقال الاعمش لفي غفلتهم يترددون وعمه من باب تعب كما في المختار (فأخذتهم الصيحة) العظيمة أو صيحة جبريل والصيحة العذاب قال ابن جريج الصيحة مثل الصاعقة وكل شئ أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة (مشرقين) أي حال كونهم داخلين في وقت الشروق يقال أشرقت الشمس أي أضاءت وشرقت اذا طلعت وقيل هما لغتان بمعنى واحد وأشرق القوم اذا دخلوا في وقت شروق الشمس وقيل أراد شروق الفجر وقيل أول العذاب كان عند شروق الفجر حين أصبحوا وامتد تمامه الى طلوع الشمس حين أشرقوا فلذلك قال أولا مقطوع مصبحين وقال ههنا مشرقين (فجعلنا) مرتب على أخذ الصيحة (عاليها) أي عالي المدينة أو عالي قرى قوم لوط (سافلها) وقال الزمخشري الضمير لقرى ورجح الاول بانه تقدم ما يعود اليه لفظا بخلاف الثاني والمراد بعاليها وجه الارض وما عليه رفعها جبريل الى السماء من الارض السفلى وأسقطها مقلوبة الى الارض وكانت أربعة قرى فيها أربعمائة ألف مقاتل (وأمطرنا عليهم) أي على من كان خارجا عن قراهم بان كان غائبا في سفر أو غيره (حجارة من سجيل) أي من طين متحجر طبخ بالنار وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود (ان في ذلك) المذكور من قصتهم وبيان ما أصابهم (لآيات للمتوسمين) أي للمتفكرين الناظرين في الامر يستدلون بها وقال أبو عبيدة للمتبصرين وقال قتادة للمعتبرين وقيل للمتأملين كأنهم يعرفون باطن الشئ بسمة ظاهره وقال مجاهد للمتفرسين وأخرج البخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان في ذلك لآيات للمتوسمين والفراسة على نوعين أحدهما ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس باصابة الحدس والنظر والظن والتثبت والثاني ما يحصل بدلائل التجارب والاخلاق وللناس في هذا العلم تصانيف قديمة وحديثة وقال ثعلب الواسم الناظر اليك من فرقك الى قدمك والمعنى متقارب وأصل التوسم التثبت والتفكر تفعل مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير أو البقر وقيل أصله استقصاء التعرف يقال توسمت أي تعرفت مستقصيا وجوه التعرف وقيل هو من الوسم بمعنى العلامة (وانها

ماجزاء من أراد بأهلك سوأ أى فاحشة الا ان يسجن أى يحبس أو عذاب اليم أى يضرب ضربا شديدا موجعا فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة وقال بارا صادقا هى راودتنى عن نفسى وذكر انها اتبعته تجذبه اليها حتى قدت قميصه وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل أى من قدامه فصدقت اى فى قولها انه راودها على نفسها لانه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين وذلك يكون كما وقع لما هرب (١٩٨) منها وتطلبته أمسكت قميصه من ورائه لترده اليها فقدت قميصه من ورائه وقد اختلفوا فى هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير على قولين لعلماء السلف فقال عبد الرزاق أخبرنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس وشهد شاهد من أهلها قال ذو لحية وقال الثورى عن جابر عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس كان من خاصة الملك وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن اسحق وغيرهم انه كان رجلا وقال زيد ابن أسلم والسدى كان ابن عمها وقال ابن عباس كان من خاصة الملك وقد ذكر ابن اسحق ان زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله وشهد شاهد من أهلها قال كان صبيا فى المهد وكذا روى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ابن مزاحم انه كان صبيا فى الدار واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرنى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار فذكر فيهم شاهد يوسف ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس انه قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان من أمر الله تعالى ولم يكن انسيا وهذا قول غريب وقوله فلما رأى قميصه قد من دبر أى لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به قال انه من كيدكن أى ان هذا البهت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به

لبسبيل مقيم) يعنى قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت أو الباء بمعنى فى وهى الطريق من المدينة الى الشام فان السالك فى هذه الطريق يمر بتلك القرى ويشاهدها ويرى أثر عذاب الله وغضبه لانه لم يدثر ولم يخف ولم يزل وعن ابن عباس معنى لبسبيل لبهلاك وعن مجاهد لبطريق معلم ليس يخفى وعن قتادة لبطريق واضح (ان فى ذلك) المذكور من المدينة أو القرى أو ما أنزل بهم من العذاب (لآية للمؤمنين) يعتبرون بها فان المؤمنين بالله والانبياء والمرسلين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار ويعرفون ان ذلك انما كان لانتقام الله من الجهال لاجل مخالفتهم وأما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم وحصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية وجمع الآيات أولا باعتبار تعدد ما قص من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما كان من اهلاكهم وقلب المدائن على من فيها وامطار الحجارة على من غاب عنها ووحدها ثانيا باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله وانها لبسبيل مقيم فلا يرد كيف جمع الآية أولا ووحدها ثانيا والقصة واحدة (وان كان أصحاب الايكة) شروع فى قصة شعيب وذكرت ههنا مختصرة وسيأتى بسطها فى سورة الشعراء والايكة الغيضة وهى جماع الشجر ويجمع الشئ والجمع الايك وفى الاصل اسم للشجر الملتف والمراد بها هنا البقعة التى فيها شجر مزدحم ففى الكلام مجاز من اطلاق الحال على المحل ويروى ان شجرهم كان دوما وهو المقل فالمعنى وان كان أصحاب الشجر المجتمع وأرباب بقعة الاشجار باعتبار اقامتهم فيها وملازمتهم لها (لظالمين) بتكذيبهم شعيبا واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق واللام فيه للتأكيد وقيل الايكة اسم القرية التى كانوا فيها قال أبو عبيدة أيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة وأصحابها هم قوم شعيب وقد تقدم خبرهم وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان مدين وأصحاب الايكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا وعن ابن عباس قال أصحاب الايكة هم قوم شعيب والايكة ذات آجام وشجر كانوا فيها (فانتقمنا منهم) أى أهلكناهم بالعذاب وذلك ان الله سلط عليهم شدة الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه لهم سحابة كالظلة فالتجؤا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل يلتمسون الروح فبعث نارا فأحرقتهم جميعا (وانهما) الضمير يرجع الى

من جملة كيدكن ان كيدكن عظيم ثم قال آمرا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع يوسف أعرض عن هذا أي اضرب عن هذا صفحا أي فلا تذكره لاحد واستغفري لذنبك يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا أو انه عذرها لانها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من ارادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه انك كنت من الخاطئين (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا (١٩٩) وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) يخبر تعالى ان خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس وقال نسوة في المدينة مثل نساء الكبراء والامراء ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها انها تراود فتاها عن نفسه أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه الى نفسها قد شغفها حبا أي قد وصل حبه الى شغاف قلبها وهو غلافه قال الضحاك عن ابن عباس الشغف الحب القاتل والشغف دون ذلك والشغاف حجاب القلب انا لنراها في ضلال مبين أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها اياه عن نفسه فلما سمعت بمكرهن قال بعضهم بقولهن وقال محمد بن اسحق بل بلغهن حسن يوسف فأحببن ان يرينه فقلن ذلك ليتوصلن الى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك أرسلت اليهن أي دعتهن الى منزلها لتضيفهن واعتدت لهن متكأ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ولهذا قال تعالى وآتت كل واحدة منهن سكينا وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته وقالت اخرج عليهن وذلك انها كانت قد خبأته في مكان آخر فلما خرج ورأينه أكبرنه أي أعظمنه أي أعظمن شأنه وأجللن

الى مدينة قوم لوط ومكان أصحاب الايكة أي وان المكانين (لبامام مبين) أي لبطريق واضح ظاهر قاله ابن عباس وقيل يعود على الخبرين خبر اهلاك قوم لوط وخبر اهلاك قوم شعيب وقيل يعود على أصحاب الايكة وأصحاب مدين لانه مرسل اليهما فذكر أحدهما مشعر بالآخر وأرجح الاقوال هو الاول والامام اسم لما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك قال الفراء والزجاج سمي الطريق اماما لانه يؤتم به ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده وقيل الضمير للايكة ومدين لان شعيبا كان ينسب اليهما ثم ان الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال (ولقد كذب أصحاب الحجر) قال قتادة هم أصحاب الوادي وكانوا ثمود قوم صالح والحجر اسم لديار ثمود قاله الازهري وهي ما بين مكة وتبوك وقال ابن جرير هي أرض بين الحجاز والشام وآثارها موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وبالعكس وانما قال الله سبحانه (المرسلين) ولم يرسل اليهم الا صالحا لان من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة الى الله وقيل كذبوا صالحا ومن تقدمه من الانبياء وقيل كذبوا صالحا ومن معه من المؤمنين (وآتيناهم آياتنا) المنزلة على نبيهم ومن جملتها الناقة فان فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) أي عن الآيات (معرضين) أي غير معتبرين بها ولا ملتفتين اليها بل تاركين لها ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم قال الكرخي وذلك يدل على ان النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم (وكانوا ينحتون) النحت في كلام العرب البري والنجر نحته ينحته بالكسر نحتا أي براه وفي التنزيل أتعبدون ما تنحتون أي تنجرون وكانوا يتخذون لانفسهم (من الجبال بيوتا) بضم الباء وكسرها سبعيتان أي يخرقونها في الجبال (آمنين) أي حال كونهم آمنين من الخراب ونقب اللصوص لها لشدة احكامها أو من ان يقع عليهم الجبل أو السقف قاله الفراء وقيل آمنين من الموت وقيل من العذاب ركونا منهم على قوتها ووثاقتها وقال بعضهم المراد أنهم يتخذون بيوتا في الجبال بنقرها وقطع الصخر منها بالمعاول حتى تصير مساكن من غير بنيان (فأخذتهم الصيحة) أي العذاب وهو الرجفة أو الزلزلة الشديدة من الارض (مصبحين) أي داخلين

قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته وهن يظنن انهن يقطعن الاترج بالسكاكين والمراد انهن حززن أيديهن بها قاله غير واحد وعن مجاهد وقتادة قطعن أيديهن حتى ألقينها فالله أعلم وقد ذكر عن زيد بن أسلم انها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجا وآتت كل واحدة منهن سكينا هل لكن في النظر الى يوسف قلن نعم فبعثت اليه تأمره أن اخرج اليهن فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرا فرجع وهن يحززن في أيديهن فلما أحسسن بالالم ان ذهب جعلن يولولن فقالت أنتن من نظرة واحدة (٢٠٠) فعلتن هذا فكيف ألام انا فقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ثم قلن لها وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأين لانهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبا منه فانه عليه السلام كان قد أعطى شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الاسراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال فاذا هو قد أعطى شطر الحسن وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى يوسف وأمه شطر الحسن وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال أعطى يوسف وامه ثلث الحسن وقال أبو اسحق أيضا عن أبي الاحوص عن عبد الله قال كان وجه يوسف مثل البرق وكانت المرأة اذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة ان تفتتن به ورواه الحسن البصري مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اعطى يوسف وامه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطى الناس الثلثين أو قال أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث وقال سفيان عن منصور عن مجاهد عن ربيعة الجرشي قال قسم الحسن نصفين فاعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن والنصف الآخر بين سائر العلم الخلق وقال الامام أبو القاسم السهيلي معناه ان يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام فان الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ولم يكن في ذريته من يوازنه في جماله وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته حاش لله قال مجاهد وغير واحد معاذ الله ما هذا بشرا وقرأ بعضهم ما هذا بشرى أي بمشترى بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني فيه تقول هذا معتذرة اليهن بان هذا حقيق ان يحب لجماله وكماله ولقد راودته عن

في وقت الصبح وقد تقدم ذكر الصيحة في الاعراف وفي هود وتقدم أيضا قريبا (فما أغنى) أي لم يدفع (عنهم) شيأ من عذاب الله (ما كانوا يكسبون) من الاموال والحصون في الجبال أو من الشرك والاعمال الخبيثة أخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاصحاب الحجر لا تدخلوا على هؤلاء القوم الا ان تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ان يصيبكم مثل ما أصابهم وأخرج ابن مردويه عنه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فامرهم باهراق القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم ان يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال اني أخشى ان يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا) متلبسة (بالحق) وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى الصلاح وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته كما في قوله سبحانه ولله ما في السموات وما في الارض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى وقيل المراد بالحق الزوال لانها مخلوقة وكل مخلوق زائل (وان الساعة لآتية) وعند اتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن الى من يستحق الاحسان وفيه وعيد للعصاة وتهديد ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بان يصفح عن قومه فقال (فاصفح الصفح الجميل) أي تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا وقيل فأعرض عنهم اعراضا جميلا ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم قال علي الصفح الجميل الرضا بغير عتاب وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال هذه الآية قبل القتال وعن عكرمة مثله يعني هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لان الله أمر نبيه ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والامر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم (ان ربك هو الخلاق) أي الخالق للخلق جميعا (العليم) بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) من للتبعيض أو للبيان على اختلاف الاقوال في المراد ذكر معنى ذلك الزجاج فقال هي للتبعيض اذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان اذا أردت الاسباع واختلف أهل

نفسه فاستعصم أى فامتنع قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن وهى العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعده ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن وقال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه أى من الفاحشة والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن أى ان وكلتنى الى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعا الا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلا تكلنى الى نفسى أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه الآية وذلك ان يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك وهذا فى غاية مقامات الكمال انه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهى امرأة عزيز مصر وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفا من الله رجاء ثوابه ولهذا ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى اخاف الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) يقول تعالى ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه الى حين اى الى مدة وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهى الادلة على صدقه فى عفته ونزاهته وكأنهم والله أعلم انما سجنوه لما شاع الحديث ايهاما انه راودها عن نفسها وانهم سجنوه على ذلك ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب اليه من الخيانة فلما تقرر ذلك خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه وذكر السدى انهم انما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها فى حقه وتبرأ عرضه فيفضحها (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين) قال قتادة كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه قال محمد بن اسحق كان اسم الذى على الشراب

العلم فيها ماذا هى فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة قال الواحدى وأكثر المفسرين على انها فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلى وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبى وزاد القرطبى أبا هريرة وأبا العالية وزاد النيسابورى الضحاك وسعيد بن جبير وقد روى ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتى بيانه فتعين المصير اليه وقيل هى السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والسابعة الانفال والتوبة لانهما كسورة واحدة اذ ليس بينهما تسمية روى هذا عن ابن عباس وقيل السابعة هى سورة يونس وقيل المراد بها السبعة الاحزاب فانها سبع صحائف وقيل هى السور التى دون الطوال وفوق المفصل وهى المئين والمثانى جمع مثناة من التثنية وهى التكرير أو جمع مثنية وقال الزجاج يثنى بما يقرأ بعدها معها فعلى القول الاول يكون وجه تسمية الفاتحة مثانى انها تثنى أى تكرر فى كل صلاة وعلى القول بانها السبع الطوال فوجه التسمية ان العبر والاحكام والحدود كررت فيها وعلى القول بانها السبعة الاحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما فى القرآن من القصص ونحوها وقد ذهب الى ان المراد بالسبع المثانى القرآن كله الضحاك وطاوس وأبو مالك وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى كتابا متشابها مثانى وقيل المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن وهى الامر والنهى والتبشير والانذار وضرب الامثال وتعريف النعم وأنباء القرون الماضية قاله زياد بن أبى مريم ولا يخفى عليك ان تسمية الفاتحة مثانى لا يستلزم نفى تسمية غيرها بهذا الاسم وقد تقرر انها المرادة بهذه الآية فلا يقدح فى ذلك صدق وصف المثانى على غيرها (والقرآن العظيم) المراد به سائر القرآن قاله ابن مسعود فيكون من عطف العام على الخاص لان الفاتحة بعض من القرآن وكذلك ان اريد بالسبع المثانى السبع الطوال لانها بعض من القرآن ان اريد به القدر المشترك الصادق على الكل والبعض أو من عطف الكل على البعض ان اريد به المجموع الشخصى وأما اذا اريد بها السبعة الاحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر ومما يقوى كون السبع المثانى هى الفاتحة ان هذه السورة مكية وأكثر السبع الطوال مدنية وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه وظاهر قوله ولقد آتيناك الخ انه قد تقدم ايتاء السبع على نزول هذه الآية وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى انه قال له

بنذا والآخر بحاث قال السدي كان سبب حبس الملك اياهما انه توهم انهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والامانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه ومعرفة التعبير والاحسان الى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ولما دخل هذان الفتيان الى السجن تألفا به وأحباه حبا شديدا وقالا له والله لقد أحببناك حبا زائدا قال بارك الله فيكما انه ما أحبني أحد الا دخل علي من محبته ضرر أحبتني عمتي فدخل علي الضرر بسببها وأحبني أبي فأوذيت بسببه وأحبتني امرأة (٢٠٢) العزيز فكذلك فقالا والله ما نستطيع الا ذلك ثم انهما رأيا مناما فرأى الساقي انه يعصر خمرا يعني عنبا وكذلك هي في قراءة عبد الله ابن مسعود اني أراني أعصر عنبا ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن يزيد بن هرون عن شريك عن الاعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود انه قرأها أعصر عنبا وقال الضحاك في الآية في قوله اني أعصر خمرا يعني عنبا قال وأهل عمان يسمون العنب خمرا وقال عكرمة قال اني رأيت فيما يرى النائم اني غرست حبلة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرا وقال الآخر وهو الخباز اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله الآية والمشهور عند الاكثرين ما ذكرناه انهما رأيا مناما وطلبا تعبيره وقال ابن جرير حدثنا وكيع وابن حميد قالا حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن ابراهيم عن عبد الله بن مسعود قال ما رأى صاحبا يوسف شيئا انما كان تحالما ليجربا (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يخبرهما يوسف عليه السلام انهما مهما رأيا في منامهما من حلم فانه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قال مجاهد يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما وكذا قال السدي وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا محمد بن يزيد شيخ له عن الحسين

النبي صلى الله عليه وآله وسلم الا أعلمك أفضل سورة قبل ان أخرج من المسجد فذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج فذكرت فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم وأخرج البخاري أيضا من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ام القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم فوجب بهذا المصير الى القول بانها فاتحة الكتاب ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا وعن الضحاك قال المثاني القرآن يذكر الله القصة الواحدة مرارا وعن زياد بن أبي مريم في الآية قال أعطيتك سبعة أجزاء مر وانه وبشر وأنذر واضرب الامثال واعدد النعم واتل نبأ القرآن ثم لما بين الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره الله عن اللذات العاجلة الزائلة فقال (لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم) أي لا تطمح ببصرك الى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها قال الواحدي انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا أدام النظر نحوه وادامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه وقال بعضهم المعنى لا تحسدن أحدا على ما أوتي من الدنيا ورد بان الحسد منهي عنه مطلقا وانما قال في هذه السورة لا تمدن بغير واو لانه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه وعن ابن عباس قال في قوله لا تمدن عينيك نهى الرجل ان يتمنى مال صاحبه والازواج الاصناف قاله ابن قتيبة وقال الجوهري الازواج القرناء وقيل يعني اليهود والنصارى والمجوس وعن مجاهد في قوله ازواجا منهم قال الاغنياء الامثال والاشباه وعن سفيان بن عيينة قال من أعطي القرآن فمد عينيه الى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ألم تسمع قوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني الى قوله ورزق ربك خير وأبقى وقد فسر ابن عيينة أيضا الحديث الصحيح ليس منا من لم يتغن بالقرآن فقال ان المعنى لم يستغن به ثم لما نهاه عن الالتفات الى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات اليهم فقال (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد وقيل المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا وفاتك من مشاركتهم فيها فان لك الآخرة والاول أولى روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدري ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل وما هو قال النار وعنه عند مسلم مرفوعا انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لا تزدروا

ابن ثوبان عن عكرمة وعن ابن عباس قال ما أدرى لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف وهو كذلك لانى أجد فى كتاب الله حين
قال للرجلين لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قال اذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك قال ابن عباس انما علم فعلم
وهذا أثر غريب ثم قال وهذا انما هو من تعليم الله اياى لانى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى
المعاد واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب الآية يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا يكون حال من سلك طريق (٢٠٣) الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن
طريق الضالين فان الله يهدى قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ويجعله اماما يقتدى به فى الخير وداعيا الى سبيل الرشاد ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس هذا التوحيد وهو الاقرار بان لا اله الا الله وحده لا شريك له من فضل الله علينا أى أوحاه الينا وأمرنا به وعلى الناس اذ جعلنا دعاة لهم الى ذلك ولكن أكثر الناس لا يشكرون أى لا يعرفون نعمة الله عليهم بارسال الرسل اليهم بل بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس انه كان يجعل الجد أبا و يقول والله لمن شاء لاعنته عند الحجر ما ذكر الله جدا ولا جدة قال الله تعالى يعنى اخبارا عن يوسف واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان
ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم ان يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين
بالمخاطبة والدعاء لهما الى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الاوثان التى يعبدها قومهما فقال أأرباب متفرقون خير
أم الله الواحد القهار أى الذى ذل كل شئ لعز جلاله وعظمة سلطانه ثم بين لهما ان التى يعبدونها ويسمونها آلهة انما هى جهل منهم
وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال ما أنزل الله بها من سلطان أى حجة
ولا برهان ثم أخبرهم ان الحكم والتصرف والمشيئة كله لله وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا الا اياه ثم قال تعالى ذلك الدين القيم

لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عوف كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما منى
كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت
الفقراء فاسترحت ثم لما نهاه عن ان يمد عينيه الى أموال الكفار وان يحزن عليهم وكان
ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره ان يتواضع للمؤمنين فقال (واخفض
جناحك للمؤمنين) خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ومنه قوله سبحانه
واخفض لهما جناح الذل وأصله ان الطائر اذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ثم قبضه
على الفرخ فجعل ذلك وصفا لتواضع الانسان لاتباعه ويقال فلان خافض الجناح أى
وقور ساكن والجناحان من ابن آدم جانباه ومنه واضمم يدك الى جناحك (وقل انى انا
النذير المبين) أى المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله (كما أنزلنا على المقتسمين)
عذابا أى انى انا النذير لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذى أنزلناه عليهم كقوله
تعالى أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقيل ان الكاف زائدة وقيل متعلق
بمحذوف والتقدير أنزلنا اليك انزالا مثل ما أنزلنا قاله الكرخى وقيل هو متعلق بقوله
ولقد آتيناك أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون قاله
الزمخشرى والاولى ان يتعلق بقوله انى أنا النذير المبين لانه فى قوة الامر بالانذار وقد
اختلف فى المقتسمين من هم على أقوال سبعة فقال مقاتل والفراء هم ستة عشر رجلا
بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن
دخل مكة لا تغتروا بهذا الخارج فينا فانه مجنون وربما قالوا ساحر وربما قالوا شاعر وربما
قالوا كاهن فقيل لهم المقتسمون لانهم اقتسموا هذه الطرق وقيل انهم قوم من قريش
اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا وبعضه سحرا وبعضه كهانة وبعضه أساطير الاولين
قاله قتادة وقيل هم أهل الكتاب وسموا مقتسمين لانهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء
فيقول بعضهم هذه السورة لى وهذه لك روى هذا عن ابن عباس وقيل انهم اقتسموا كتابهم
وفرقوه وبددوه وحرفوه وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال
تعالى تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله قلت وفى هذا الوجه قرب من حيث المقاسمة وبعد
من حيث وصفهم بجعلهم القرآن عضين وأما الاوجه الآخرة فهى مستقيمة وقيل
تقاسموا ايمانا تحالفوا عليها قاله الاخفش وقيل انهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا

أى هـذا الذى أدعوكم اليه من توحيد الله واخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذى امر الله به وانزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ولكن أكثر الناس لا يعلمون أى فلهـذا كان أكثرهم مشركين وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقد قال ابن جريج انما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا الى هـذا لانه عرف انها ضارة لاحدهما فاحب ان يشغلهما بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها فعاودوه فاعاد عليهم الموعظة وفى هذا الذى قاله نظر لانه قد وعدهما أولا تعبيرها ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببا الى دعائهما الى التوحيد والاسلام (٢٠٤) لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والاقبال له والانصات اليه ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع فى تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان) يقول لهما يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وهو الذى رأى انه يعصر خمرا ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ولهذا أبهمه فى قوله وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه وهو فى نفس الامر الذى رأى انه يحمل فوق رأسه خبزا ثم أعلمهما ان هـذا قد فرغ منه وهو واقع لامحالة لان الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت وقال الثورى عن عمارة بن القعقاع عن عبد الله قال لما قالا ما قالا وأخبرهما قالا ما رأينا شيأ فقال قضى الامر الذى فيه تستفتيان ورواه محمد بن فضيل عن عمارة عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهم وحاصله ان من تحلم بباطل وفسره فانه يلزم بتأويله والله أعلم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت وفى مسند ابى يعلى من طريق يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعا الرؤيا لاول عابر (وقال للذى ظن انه ناج منهما اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) لما ظن يوسف عليه السلام ان الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم لئلا يشعره انه المصلوب قال له اذكرنى عند ربك يقول اذكر قصتى عند ربك وهو الملك فنسى ذلك الموصى ان يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبى الله من السجن هذا هو الصواب

ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البخترى والنضر بن الحرث وامية بن خلف وشيبة بن الحجاج ذكره الماوردى (الذين جعلوا القرآن عضين) جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها أعضاء وأجزاء فيكون المعنى على هـذا الذين جعلوه أجزاء متفرقة بعضه شعر وبعضه سحر وبعضه كهانة ونحو ذلك وقيل مأخوذ من عضهته اذا بهته فالمحذوف منه الهاء لا الواو وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض وقيل العضة والعضين فى لغة قريش السحر وهم يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن العاضهة والمستعضهة وفسر بالساحرة والمستسحرة والمعنى انهم أكثروا البهت على القرآن وسموه سحرا وكذبا وأساطير الاولين ونظير عضة فى النقصان شفة والاصل شفهة وكذلك سنة أصلها سنهة قال الكسائى العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون وقال الفراء انه مأخوذ من العضاه وهى شجرة تؤذى وتجرح كالشوك ويجوز ان يراد بالقرآن التوراة والانجيل لكونهما مما يقرأ ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى أى جعلوهما أجزاء متفرقة وهو أحد الاقوال المتقدمة (فوربك) أقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة (لنسألنهم) أى هؤلاء الكفرة (أجمعين) يوم القيامة سؤال توبيخ (عما كانوا يعملون) فى الدنيا من الاعمال التى يحاسبون عليها ويسئلون عنها وقيل ان المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد وقد أخرج الترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أنس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال عن قول لا اله الا الله وروى عن أنس موقوفا وعن ابن عمر مثله والعموم يفيد ما هو أوسع من ذلك وقيل ان المسؤلين ههنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار ويدل عليه قوله ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم وقوله وقفوهم انهم مسؤلون وقوله ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم ويمكن ان يقال ان قصر هـذا السؤال على المذكورين فى السياق وصرف العموم اليهم لا ينافى سؤال غيرهم (فاصدع بما تؤمر) قال الزجاج يقول أظهر ما تؤمر به من الشرائع أخذا من الصديع وهو الصبح انتهى وأصل الصدع الفرق والشق يقال صدعته فانصدع أى انشق وتصدع القوم أى تفرقوا ومنه يومئذ يصدعون أى يتفرقون قال الفراء أراد فاصدع بالامر أى أظهر دينك فما مع الفعل على هـذا بمنزلة

المصدر

ان الضمير في قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه عائد على الناجي كما قاله مجاهد ومحمد بن اسحق وغير واحد ويقال ان الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضا وعكرمة وغيرهم وأسند ابن جرير ههنا حديثا فقال حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يقل يعني يوسف الكلمة التي قال مالبث في السجن طول مالبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله وهذا الحديث ضعيف جدا لان سفيان بن وكيع ضعيف وابراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم وأما البضع فقال مجاهد وقتادة هو ما بين الثلاث الى التسع وقال وهب بن منبه مكث أيوب في البلاء سبعا ويوسف في السجن سبعا وعذب بختنصر سبعا وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ولبث في السجن بضع سنين قال ثنتا عشرة سنة وقال الضحاك أربعة عشرة سنة (وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى انها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة والحزاة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك واعتذروا اليه بانها أضغاث أحلام أي اخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين أي لو كانت رؤيا صحيحة من اخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا

المصدر وقال ابن الاعرابي معناه اقصد وقيل فرق جمعهم وكلمتهم بان تدعوهم الى التوحيد فانهم يتفرقون والاولى أن الصدع الاظهار كما قاله الزجاج والفراء وغيرهما قال الواحدي قال المفسرون أي اجهر بالامر أي بأمرك بعد اظهار الدعوة ومازال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه وقال ابن عباس هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل اليه واصدع بمعنى أمضه وأعلن ثم أمره الله سبحانه بعد أمره بالصدع بالاعراض وعدم الالتفات الى المشركين فقال (وأعرض عن المشركين) اى لا تبال بهم ولا تلتفت اليهم اذا لاموك على اظهار الدعوة قال ابن عباس نسخه قوله تعالى واقتلوا المشركين وليس للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا ثم أكد هذا الامر وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (انا كفيناك المستهزئين) مع انهم كانوا من أكابر الكفار وأهل الشوكة فيهم فاذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالاولى وهؤلاء المستهزؤن كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث والحرث بن الطلاطلة كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين وقد أهلكهم الله جميعا يوم بدر وكفاه أمرهم في يوم أحد وقد روى هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال (الذين يجعلون مع الله الها آخر) فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ثم توعدهم فقال (فسوف يعلمون) كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد التسلية الاولى بكفايته شرهم ودفعه مكرهم فقال (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) الاقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر والجنون والكهانة والكذب وقد كان يحصل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانساني وان كان مفوضا جميع أموره لربه ثم أمره سبحانه بان يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال (فسبح بحمد ربك) اى افزع الى الله فيما نابك وافعل التسبيح المتلبس بالحمد أو فنزهه عما يقولون حامدا له على أن هداك للحق (وكن من

الساجدين) اى من المصلين فانك اذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك وفي الكلام مجاز ثم أمره بعبادة ربه فقال (واعبد ربك) من عطف العام على الخاص أي دم على عبادته الى غاية هي قوله (حتى يأتيك اليقين) قال الواحدي قال جماعة المفسرين يعني الموت لانه موقن به متيقن الوقوع والنزول لا يشك فيه أحد وقال أبو حيان ان اليقين من أسماء الموت وبنزوله يزول كل شك ووقت العبادة بالموت اعلاما بانها ليس لها نهاية دون الموت فلا يرد ما قيل أي فائدة لهذا التوقيت مع ان كل أحد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات وايضاح الجواب ان المراد واعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من العبادة والله أعلم بمراده قال الزجاج المعنى اعبد ربك أبدا لانه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز اذا عبد الانسان مرة أن يكون مطيعا فاذا قال حتى يأتيك اليقين فقد أمره بالاقامة على العبادة أبدا ما دام حيا ومثله قوله تعالى في سورة مريم وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أوحي الي ان اجمع المال وكن من التاجرين ولكن أوحي الي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وروي بطرق كثيرة

(سورة النحل مائة وثمان وعشرون آية)

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن عبد الله وروي عن ابن عباس وابن الزبير انها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحد وهي قوله تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله تعلمون وقال قتادة هي مكية الا خمس آيات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله وان عاقبتم الى آخر السورة وزاد مقاتل قوله من كفر بالله من بعد ايمانه الآية وضرب الله مثلا قرية وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية والاول أولى وتسمى هذه سورة النعم بسبب ما عدد الله

في السجن مع يوسف وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك تذكر بعد أمة أي مدة وقرأ بعضهم بعد امة أي بعد نسيان فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك أنا أنبئكم بتأويله أي بتأويل هذا المنام فأرسلون أي فابعثوني الى يوسف الصديق الى السجن ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال يوسف أيها الصديق افتنا وذكر المنام الذي رآه الملك فعند ذلك ذكره يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ومن غير اشتراط للخروج بل قال تزرعون سبع سنين دأبا أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر

البقر بالسنين لانها تثير الارض التي تستغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضر ثم أرشدهم الى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن اسراع الفساد اليه الا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان لان سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم انهن لا ينبتن شيأ وما بذروه فلا يرجعون منه الى شيء ولهذا قال يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بان يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه حتى قال بعضهم يدخل فيه حلب اللبن أيضا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وفيه يعصرون يحلبون (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فيها فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم) يقول تعالى اخبارا عن الملك لما رجعوا اليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأينقه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن

اخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال ائتونى به اى أخرجوه من السجن وأحضروه فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى تحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب اليه من جهة امرأة العزيز وان السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلما وعدوانا فقال ارجع الى ربك الآية وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه ففى المسند والصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى الآية (٢٠٧) ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعى وفى لفظ لاحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كنت أنا لأسرعت الاجابة وما ابتغيت العذر وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر هذا حديث مرسل وقوله تعالى قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه اخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز فقال مخاطبا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره العزيز قال الملك للنسوة اللاتى قطعن أيديهن ما خطبكن اى شأنكن وخبركن اذ راودتن يوسف عن نفسه يعنى يوم الضيافة قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء أى قالت النسوة جوابا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهما والله ما علمنا عليه من سوء فعند ذلك قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين فى قوله هى راودتنى عن نفسى ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب تقول انما اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى انى لم أخنه بالغيب فى نفس الامر ولا وقع المحذور الاكبر وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم

فيها من النعم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أتى أمر الله) اى جاء ودنا وقرب عقابه للمشركين بالقتل بالسيف والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه وقال جماعة من المفسرين الامر القيامة قال الزجاج هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ولما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما أخرجاه فى الصحيحين من حديث سهل بن سعد وقيل ان المراد بالامر حكمه بذلك وقد وقع وأتى فاما المحكوم به فانه لم يقع لانه سبحانه حكم بوقوعه فى وقت معين فقبل مجىء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود وقيل المراد باتيانه اتيان مباديه ومقدماته وقال الضحاك يعنى الاحكام والحدود والفرائض (فلا تستعجلوه) اى فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت فانه واقع لا محالة ولا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه وقد كان المشركون يستعجلون العذاب كما قال النضر بن الحرث اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية والمعنى قرب أمر الله فلا تستعجلوه وقوعا وقد كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة وفى نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) اى تنزه الله وترفع عن اشراكهم أو عن أن يكون له شريك وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب وقيام الساعة استهزاء وتكذيبا فانه يتضمن وصفهم له سبحانه بانه لا يقدر على ذلك وانه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق فكان ذلك شركا وهذه الجملة تنازع فيها العاملان وفيه التفات من الخطاب الى الغيبة تحقيرا لشأنهم وحطا لدرجتهم عن رتبة الخطاب وفى قراءة سبعية بالتاء وما مصدرية فلا عائد لها عند الجمهور أو موصولة كما قاله السمين اى عما يشركونه به وما عبارة عن الاصنام (ينزل الملائكة) قرئ بالياء التحتية والفاعل هو الله سبحانه وقرئ تنزل من التفعل والاصل تتنزل فالفعل مستند الى الملائكة وقرئ تنزل على البناء للمفعول وننزل بالنون والمراد بالملائكة هنا جبريل وعبر عنه بالجمع تعظيما له (بالروح) هو الوحى قاله ابن عباس ومثله يلقى الروح من أمره وسمى الوحى روحا لانه يحيي قلوب المؤمنين فان من جملة الوحى القرآن وهو نازل من الدين منزلة

انى برئ وان الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسى تقول المرأة ولست أبرئ نفسى فان النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته لان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى اى الا من عصمه الله تعالى ان ربى غفور رحيم وهذا القول هو الاشهر والاليق والانسب بسياق القصة ومعانى الكلام وقد حكاه الماوردى فى تفسيره وانتدب لنصره الامام أبو العباس بن تيمية رحمه الله فافرده بتصنيف على حدة وقد قيل ان ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول ذلك ليعلم انى لم أخنه فى زوجته بالغيب الآيتين وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن ابى حاتم سواه قال ابن (٢٠٨) جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق الآية قال يوسف ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب فقال له جبريل عليه السلام ولا يوم هممت بما هممت به فقال وما أبرئ نفسى الآية وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبى الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدى والقول الاول أقوى وأظهر لان سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم)

يقول تعالى اخبارا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب اليه قال ائتونى به أستخلصه لنفسى أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى فلما كلمه أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك انك اليوم لدينا مكين أمين أى انك وقيل عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة فقال يوسف عليه السلام اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم مدح نفسه ويجوز للرجل ذلك اذا جهل أمره للحاجة وذكر انه حفيظ اى خازن أمين عليم ذو علم وبصيرة بما يتولاه وقال شيبة بن نعامة حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى الجدب رواه ابن ابى حاتم وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس وانما سأله ان يجعله على خزائن الارض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه

الروح من الجسد وبه قال الحسن فالتعبير بالروح عن الوحى على طريق الاستعارة التصريحية بجامع ان الروح به احياء البدن والوحى به احياء القلوب من الجهالات وقيل المراد أرواح الخلائق وقيل الرحمة وقيل الهداية لانها تحيا بها القلوب كما تحيا الابدان بالارواح قال الزجاج الروح ما كان فيه من الله حياة بالارشاد الى أمره وقال أبو عبيدة الروح هنا جبريل ويكون الباء على هذا بمعنى مع وعن ابن عباس قال الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله وصورهم على صورة بنى آدم وما ينزل من السماء ملك الا ومعه واحد من الروح ثم تلا يوم يقوم الروح والملائكة صفا ومن فى (من أمره) بيانية أى ناشئا ومبتدأ من أمره أو صفة للروح أو متعلق بينزل (على من يشاء من عباده) يعنى من يصطفيه للنبوة والرسالة وتبليغ الوحى الى الخلق وهم الانبياء ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها انه صلى الله عليه وآله وسلم لما أخبرهم عن الله انه قد قرب أمره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا فى الطريق التى علم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فاخبر انه علم بها بالوحى على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته (ان أنذروا) قال الزجاج أى ينزلهم بان أنذروا أو المعنى بان الشأن أقول لكم أنذروا أى أعلموا الناس وعبارة البيضاوى وان مفسرة لان الروح بمعنى الوحى الدال على القول أو مصدرية فى موضع الجر بدلا من الروح أو النصب بنزع الخافض أو مخففة من الثقيلة (أنه لا اله الا أنا) اى مروهم بتوحيدى وأعلموهم ذلك مع تخويفهم لان فى الانذار تخويفا وتهديدا والضمير فى انه للشأن (فاتقون) رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود والخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله والفاء فصيحة وفى الشهاب اذا كان الانذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول فاتقون فى المنذر به لانه هو المنذر به فى الحقيقة واذا كان بمعنى الاعلام فالمقصود بالاعلام هو الجملة الاولى وهذا متفرع عليها انتهى وفيه تنبيه على الاحكام الفرعية بعد التنبيه على الاحكام العلمية بقوله أنه لا اله الا أنا فقد جمعت هذه الآية بين الاحكام الاصلية والفرعية ثم انه سبحانه لما أرشدهم الى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال (خلق السموات والارض) اى أوجدهما على هذه الصفة التى هما عليها (بالحق) اى للدلالة على قدرته ووحدانيته وقيل المراد بالحق هنا الفناء والزوال (تعالى) الله (عما يشركون) اى تقدس وترفع عن اشراكهم أو عن شريكه الذى يجعلونه شريكا له

الاحوط والاصلح والارشد فاجيب الى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) يقول تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض اى ارض مصر يتبوأ منها حيث يشاء قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يتصرف فيها كيف يشاء وقال ابن جرير يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والاسار نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين أى وما أضعنا صبر يوسف على أذى اخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا (٢٠٩) عقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون يخبر تعالى ان ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كقوله فى حق سليمان عليه السلام هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب والغرض ان يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام قاله مجاهد وقال محمد ابن اسحق لما قال يوسف للملك اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم قال الملك قد فعلت فولاه فيما ذكروا عمل اطفير وعزل اطفير عما كان عليه يقول الله عز وجل وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين قال فذكر لى والله اعلم ان اطفير هلك فى تلك الليالى وان الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة اطفير راعيل وانها حين دخلت عليه قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قال فيزعمون انها قالت أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت فيزعمون انه وجدها عذراء فاصابها فولدت له رجلين أفرايثم بن يوسف وميشا بن يوسف وولد لافرايثم نون والد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليه السلام وقال الفضيل بن عياض وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف فقالت الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته والملوك عبيدا بمعصيته (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم

وقيل عما يشركونه من الاصنام أو منهما أى السموات والارض ثم لما كان نوع الانسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال (خلق الانسان) وهو اسم لجنس هذا النوع (من نطفة) اى من جماد يخرج من حيوان وهو المنى فقلبه أطوارا الى ان كملت صورته ونفخ فيه الروح وأخرجه من بطن أمه الى هذه الدار فعاش فيها ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخى والنطفة القطرة من الماء يقال نطف رأسه ماء أى قطر وقيل هى الماء الصافى ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل للنطفة فعل من لفظها (فاذا هو) بعد خلقه على هذه الصفة (خصيم) كثير الخصومة والمجادلة والمعنى انه كالمخاصم لله سبحانه فى قدرته (مبين) ظاهر الخصومة وواضحها وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل والمبين هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين قيل نزلت فى أبى بن خلف والاولى انها عامة فى كل ما يقع من الخصومة فى الدنيا و يوم القيامة فانه لا اعتبار بخصوص السبب اذا اقتضى المقام العموم كما تقرر قال الكرخى ان هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم فى الغى والكفر ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الانعام لما فيها من النفع لهذا النوع والامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها فقال (والانعام خلقها) وهى الابل والبقر والغنم ويدخل فى الغنم المعز وأكثر ما يقال نعم وأنعام للابل و يقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة وقال الجوهرى والنعم واحد الانعام وأكثر ما يقع هذا الاسم على الابل ثم لما أخبر سبحانه بانه خلقها لبنى آدم بين المنفعة التى فيها لهم قال الواحدى تم الكلام عند هذا ثم ابتدأ فقال (لكم فيها دفء) ويجوز أن يكون تمامه عند قوله لكم والاول أولى وأحسن والدفء السخانة وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها قال ابن عباس دفء الثياب أى من الاكسية والاردية قال بعض المفسرين ان فى الآية التفاتا من الغيبة فى الانسان الى الخطاب فى لكم فيقتضى ان الخطاب مطلق بنى آدم المندرجين تحت الانسان (ومنافع) اى ما ينتفعون به من الاطعمة والاشربة قاله ابن عباس وهى درها وركوبها ونتاجها والحراثة ونحو ذلك وقد قيل ان الدفء النتاج واللبن قال فى الصحاح الدفء نتاج الابل وألبانها وما ينتفع به منها ثم قال والدفء أيضا السخونة وعلى هذا

بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون)

ذكر السدى ومحمد بن اسحق وغيرهما من المفسرين ان السبب الذى أقدم اخوة يوسف بلاد مصر ان يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع سنين المخصبة ثم تلتها السبع سنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكمالها ووصل الى بلاد كنعان وهى فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وحينئذ احتاط يوسف (٢١٠) عليه السلام للناس فى غلاتهم وجمعها أحسن جمع فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة وورد عليه الناس من سائر الاقاليم والمعاملات يمتارون لانفسهم وعيالهم فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما الا أكلة واحدة فى وسط النهار حتى يتكفأ الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين وكان رحمة من الله على أهل مصر وما ذكره بعض المفسرين من انه باعه فى السنة الاولى بالاموال وفى الثانية بالمتاع وفى الثالثة بكذا وفى الرابعة بكذا حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما يملك عليهم جميع ما يملكون ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها الله أعلم بصحة ذلك وهو من الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب والغرض انه كان فى جملة من ورد للميرة اخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم فى ذلك فانه بلغه ان عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده اليه بعد يوسف فلما دخلوا على يوسف وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر لانها اليهم وهم له منكرون اى لا يعرفونه لانهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم ان يصير الى ما صار اليه فلهذا لم يعرفوه وأما هو فعرفهم فذكر السدى وغيره انه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم ما أقدمكم بلادى فقالوا أيها العزيز انا قدمنا للميرة قال لعلكم عيون قالوا معاذ الله قال فمن أين أنتم قالوا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله قال وله أولاد غيركم قالوا نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية وكان أحبنا الى أبيه وبقى شقيقه فاحتبسه

فان أريد بالدفء المعنى الاول فلا بد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها وان حمل على المعنى الثانى كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحا وقيل المراد بالمنافع النتاج خاصة وقيل الركوب (ومنها) اى من لحومها وشحومها (تأكلون) وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لانها أعظمها وقيل خصها لان الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التى فيها وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للاشارة الى ان الاكل منها هو الاصل وغيره نادر فالاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر يجرى مجرى التفكه به وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر ولما كانت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الاكل قدمه على الاكل (ولكم فيها) مع ما تقدم ذكره (جمال) هو ما يتجمل به ويتزين والحسن والمعنى هنا لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين اليها (حين تريحون وحين تسرحون) اى فى هذين الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها اليها فالرواح والاراحة رجوعها بالعشى وردها من المراعى والسراح مسيرها الى مراعيها بالغداة يقال سرحت الابل أسرحها سرحا وسروحا اذا غدوت بها الى المرعى وقدم الاراحة على التسريح مع انه خلاف الواقع لان منظرها عند الاراحة أجمل وذواتها أحسن لكونها فى تلك الحالة قد نالت حاجتها من الاكل والشرب فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع وخص هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين اليها الا انها عند استقرارها فى الحظائر لا يراها أحد وعند كونها فى مراعيها هى متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى فى جانب وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم فى هذا الوقت فانه يسمع للابل رغاء وللبقر خوار وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا (وتحمل) اى الانعام والمراد بها هنا الابل خاصة (أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر من طعام وغيره وسمى ثقلا لانه يثقل الانسان حمله وقيل المراد أبدانهم (الى بلد لم تكونوا بالغيه) اى واصلين اليه لو لم يكن معكم ابل تحمل أثقالكم (الا بشق الانفس) لبعده عنكم وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه فى السفر وظاهره يتناول كل بلد بعيد من غير تعيين وقيل المراد بالبلد مكة قاله ابن عباس وقيل اليمن ومصر والشام

أبوه ليتسلى به عنه فأمر بانزالهم وإكرامهم ولما جهزهم بجهازهم اى أوفى لهم كيلهم وحمل لهم احمالهم قال ائتونى بأخ لكم هذا الذى ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ألا ترون انى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين يرغبهم فى الرجوع اليه ثم رهبهم فقال فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى الآية اى ان لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية فليس لكم عندى ميرة ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وانا لفاعلون أى سنحرص على مجيئه اليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه وذكر السدى انه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم وفى هذا نظر لانه أحسن اليهم ورغبهم كثيرا وهذا لحرصه على رجوعهم وقال لفتيانه اى غلمانه اجعلوا بضاعتهم أى التى قدموا بها ليمتاروا عوضا عنها فى رحالهم أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يرجعون بها قيل خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها وقيل تذمم ان يأخذ من أبيه واخوته عوضا عن الطعام وقيل أراد أن يردهم اذا وجدوها فى متاعهم تحرجا وتورعا لانه يعلم ذلك منهم والله أعلم (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) يقول تعالى عنهم انهم رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل يعنون بعد هذه المرة ان لم ترسل معنا أخانا بنيامين فأرسله معنا نكتل وانا له لحافظون وقرأ بعضهم بالياء ولهذا قال لهم هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل أى هل أنتم صانعون به الا كما صنعتم بأخيه من قبل تغيبونه عنى وتحولون بينى وبينه فالله خير حفظا وقرأ بعضهم حافظا وهو أرحم الراحمين أى هو أرحم الراحمين بى وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى وأرجو من الله أن يرده على ويجمع شملى به انه أرحم الراحمين (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) يقول تعالى ولما فتح اخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها

لانها متاجر العرب وشق الانفس مشقتها قرئ بكسر الشين وبفتحها قال الجوهرى الشق المشقة ومنه قوله تعالى الا بشق الانفس وحكى أبو عبيدة فتح الشين وهما بمعنى ويجوز أن يكون المفتوح مصدرا من شققت عليه أشق شقا والمكسور بمعنى النصف يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة ويكون المعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بذهاب نصف الانفس من التعب قد امتن الله سبحانه على عباده بخلق الانعام على العموم ثم خص الابل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الاثقال دون البقر والغنم والاستثناء من أعم العام أى لم تكونوا بالغيه بشئ من الاشياء الا بشق الانفس قال ابن عباس لو تكلفتموه لم تطيقوه الا بجهد شديد (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح (والخيل والبغال والحمير) اى وخلق لكم هذه الثلاثة الاصناف وسميت الخيل خيلا لاختيالها فى مشيها وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن وقيل اسم جنس لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو الفرس والبغال جمع بغل وهو المتولد من الخيل والحمير والحمير جمع حمار ثم علل سبحانه خلق هذه الانواع الثلاثة بقوله (لتركبوها) وهذه العلة هى باعتبار معظم منافعها لان الانتفاع بها فى غير الركوب معلوم كالتحميل عليها (وزينة) عطف على محل لتركبوها لانها فى محل نصب على انه علة لخلقها ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها لان الركوب فعل المخاطبين والزينة فعل الزائن وهو الخالق والتحقيق فيه ان الركوب هو المعتبر فى المقصود بخلاف الزينة فانه لا يلتفت اليه أهل الهمم العالية لانه يورث العجب فكأنه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا بواسطتها عن أنفسكم ضرر الاعياء والمشقة وأما التزين بها فهو حاصل فى نفس الامر ولكنه غير مقصود بالذات وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بان التعليل بالركوب يدل على انها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها قالوا ويؤيد ذلك افراد هذه الانواع الثلاثة بالذكر واخراجها عن الانعام فيفيد ذلك اتحاد حكمها فى تحريم الاكل قالوا ولو كان أكل الخيل جائزا لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب لانه أعظم فائدة منه وقد ذهب الى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والاوزاعى ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم الى حل لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الشافعى وأحمد واسحق ولا حجة لأهل القول

في رحالهم فلما وجدوها في متاعهم قالوا يا أبانا ما نبغي اي ماذا نريد هذه بضاعتنا ردت الينا كما قال قتادة ما نبغي وراء هذا ان بضاعتنا ردت الينا وقد أوفى لنا الكيل ونمير أهلنا أي اذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة الى أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير وذلك ان يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير وقال مجاهد حمل حمار وقد يسمى في بعض اللغات بعيرا كذا قال ذلك كيل يسير هذا من تمام الكلام وتحسينه أي ان هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من الله اي تحلفون بالعهود والمواثيق لتأتنني به الا ان يحاط بكم الا ان تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه فلما آتوه موثقهم أكده عليهم فقال الله على ما نقول وكيل قال ابن اسحق وانما فعل ذلك لانه لم يجد بدا من بعثهم لاجل الميرة التي لا غنى بهم عنها فبعثه معهم (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يقول تعالى اخبارا عن يعقوب عليه السلام انه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين الى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة فانه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد انه خشي عليهم العين وذلك انهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشي عليهم ان يصيبهم الناس بعيونهم فان العين حق تستنزل الفارس عن فرسه وروى ابن أبي حاتم عن ابراهيم النخعي في الآية في قوله وادخلوا من أبواب متفرقة قال علم انه سيلقى اخوته في بعض تلك الابواب وقوله وما أغني عنكم من الله من شيء أي هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه فان الله اذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها قالوا هي دفع اصابة العين لهم وانه لذو علم لما علمناه قال قتادة والثوري لذو علم بعلمه وقال ابن جرير لذو علم لتعليمنا اياه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال اني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) يخبر تعالى عن اخوة يوسف

الاول في التعليل بقوله لتركبوها الا ذكر ما هو الاغلب من منافعها لا ينافي غيره ولا نسلم ان الاكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب وأيضا لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الاهلية وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر وقد قدمنا ان هذه السورة مكية والحاصل ان الادلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل فلو سلمنا ان في هذه الآية متمسكا للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ودافعة لهذا الاستدلال وقد أوضح الشوكاني هذه المسئلة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه الى غيره وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرسا فأكلناه وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الاهلية وأخرج ابو داود نحوه من حديثه أيضا وهما على شرط مسلم وثبت ايضا في الصحيحين من حديث جابر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وأما ما اخرجه ابو عبيد وابو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ففي اسناده صالح بن يحيى بن ابي المقدام وفيه مقال ولو فرضنا ان الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحل على انه يمكن ان هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر فيكون منسوخا (ويخلق ما لا تعلمون) من الاشياء العجيبة والغريبة مما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا وقيل المراد من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الارض وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوه وقيل هو ما أعده الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر وقيل هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه وقيل عين تحت العرش وقيل نهر من النور وقيل ارض بيضاء ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الانواع بل المراد انه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة لانه سبحانه قد خلق ما لم يعلم به العباد ولا يأتي عليه الحصر والعد واخرج

لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والالطاف والاحسان واختلى باخيه فاطلعه على شأنه وماجرى له وعرفه انه أخوه وقال له لا تبتئس أي لا تاسف على ماصنعوا بي وأمره بكتمان ذلك عنهم وان لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من انه أخوه وتواطأ معه انه سيحتال على ان يبقيه عنده معززا مكرما معظما (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما (٢١٣) أمر بعض فتيانه ان يضع السقاية وهي اناء من

ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان مما خلق الله أرضا من لؤلؤ بيضاء ثم ساق من أوصافها مايدل على ان الحديث موضوع ثم قال في آخره فذلك قوله ويخلق مالا تعلمون (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل فالمعنى وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع وقيل هو على حذف مضاف والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل والسبيل الاسلام وبيانه بارسال الرسل وانزال الكتب واقامة الحجج والبراهين والقصد في السبيل هو كونه موصلا الى المطلوب فالمعنى وعلى الله بيان الطرق الموصلة الى المطلوب (ومنها) الضمير راجع الى السبيل بمعنى الطريق لانها تذكر وتؤنث أولانها في معنى سبل فانث على معنى الجمع وقيل راجع اليها بتقدير مضاف أي ومن جنس السبيل (جائر) مائل عن الحق والجور العدول عن الاستقامة وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها والمعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق أي عادل عنه فلا يهتدي اليه قيل وهم أهل الاهواء المختلفة وقيل أهل الملل الكفرية فقصد السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقيل قصد السبيل السنة المطهرة والجائر البدع المحدثة المضلة قال ابن عباس على الله ان يبين الهدى والضلالة ومنها جائر قال السبل المتفرقة وقال قتادة وعلى الله بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ومنها جائر قال من السبل ناكب عن الحق وعن علي كان يقرأ ومنكم جائر (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي ولو شاء ان يهديكم جميعا هداية موصلة الى الطريق الواضح الصحيح والمنهج الحق الصريح لفعل ذلك ولكنه لم يشأ بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة عليها كما قال وهديناه النجدين وأما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم ان لا يوجد في العباد كافر ولا من يستحق النار من المسلمين وقد اقتضت المشيئة الربانية بكون البعض مؤمنا والبعض كافرا كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد ان يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال (هو الذي أنزل من) جهة (السماء) وهي السحاب (ماء) أي نوعا من أنواع الماء وهو المطر (لكم منه شراب) هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم والمعنى ان الماء النازل من السماء قسمان قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فانه من المطر لقوله

فضة في قول الاكثرين وقيل من ذهب قال ابن زيد كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام اذ ذاك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد وقال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس صواع الملك قال كان من فضة يشربون فيه وكان مثل المكوك وكان للعباس مثله في الجاهلية فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ثم نادى مناد بينهم أيتها العير انكم لسارقون فالتفتوا الى المنادي وقالوا ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك اي صاعه الذي يكيل به ولمن جاء به حمل بعير وهذا من باب الجعالة وانا به زعيم وهذا من باب الضمان والكفالة (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) لما اتهموهم وأولئك الفتيان بالسرقة قال لهم اخوة يوسف تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين اي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا لانهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا ماجئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة فقال لهم الفتيان فما جزاؤه أي السارق ان كان فيكم ان كنتم كاذبين أي اي شيء يكون عقوبته ان وجدنا فيكم من أخذه قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين وهكذا كانت شريعة ابراهيم عليه السلام ان السارق يدفع الى المسروق منه وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام

ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه أى فتشها قبله تورية ثم استخرجها من وعاء أخيه فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم والزامهم اياهم بما يعتقدونه ولهذا قال تعالى كذلك كدنا ليوسف وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة وقوله ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك أى لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره وانما قيض الله له ان التزم له اخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ولهذا مدحه الله تعالى فقال نرفع درجات من نشاء كما قال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم الآية وفوق كل ذى علم عليم (٢١٤) قال الحسن البصرى ليس عالم الا فوقه عالم حتى ينتهى الى الله عز وجل وكذلك روى عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن عبد الاعلى الثعلبى عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال الحمد لله فوق كل ذى علم عليم قال يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم وهكذا قال عكرمة وقال قتادة وفوق كل ذى علم عليم حتى ينتهى العلم الى الله منه بدئ وتعلمت العلماء واليه يعود وفى قراءة عبد الله وفوق كل عالم عليم (قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) وقال اخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يتنصلون الى العزيز بالتشبه به ويذكرون ان هذا فعل كما فعل أخ له من قبل يعنون به يوسف عليه السلام قال سعيد ابن جبير عن قتادة كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجده أبى أمه فكسره وقال محمد بن اسحق عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى ان عمته ابنة اسحق وكانت أكبر ولد اسحق وكانت عندها منطقة اسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلما لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان اهابه وله فلم تحب أحدا حبها اياه حتى اذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت اليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال يا أخية سلى الى يوسف فوالله ما اقدر على ان يغيب عنى ساعة قالت فوالله ما أنا بتاركته ثم قالت فدعه عندى اياما أنظر اليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت الى منطقة اسحق فحزمتها على يوسف من تحت

فسلكه ينابيع فى الارض (و) قسم يحصل (منه شجر) ترعاه المواشى قال الزجاج كل ما نبت من الارض فهو شجر لان التركيب يدل على الاختلاط ومنه تشاجر القوم اذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلا وفيما له ساق وقال ابن قتيبة المراد من الشجر فى الآية الكلأ وقيل الشجر كل ما له ساق لقوله تعالى والنجم والشجر يسجدان والعطف يقتضى التغاير فلما كان النجم ما لا ساق له وجب ان يكون الشجر ما له ساق وأجيب بان عطف الجنس على النوع جائز (فيه تسيمون) أى فى الشجر ترعون مواشيكم يقال سامت السائمة تسوم سوما رعت فهى سائمة وأسمتها أى أخرجتها الى الرعى فانا مسيم وهى مسامة وسائمة وأصل السوم الابعاد فى المرعى قال الزجاج أخذ من السومة وهى العلامة لانها تؤثر فى الارض علامات برعيها وهذه الآية مبنية على مكارم الاخلاق وهو ان يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بنفسه وأما الآية الاخرى كلوا وارعوا أنعامكم فمبنية على قوله صلى الله عليه وآله وسلم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول (ينبت) الله (لكم به) أى بذلك الماء الذى أنزله من السماء وهذا استئناف اخبار عن منافع الماء وقدم (الزرع) لانه أصل الاغذية التى يعيش بها الناس وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما (و) ذكر (الزيتون) بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه وادام من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة (و) ذكر (النخيل) لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه (و) جمع (الاعناب) لاشتمالها على الاصناف المختلفة وهى شبيه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم أشار الى سائر الثمرات اجمالا فقال (ومن كل الثمرات) كما أجمل الحيوانات التى لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية اذ كلها انما يوجد فى الجنة وما أنبت الارض بعض من كلها للتذكرة (ان فى ذلك) الانزال والانبات (لآية) عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية (لقوم يتفكرون) فى مخلوقات الله ولا يهملون النظر فى مصنوعاته فذكر لفظ الآية فى هذه السورة سبع مرات خمس بالافراد وثنتان بالجمع قال الكرمانى ما جاء بلفظ الافراد فلوحدة المدلول وهو الله تعالى وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات انتهى وختم هذه الفاصلة بالتفكر لان النظر فى ذلك

ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها فالتمست ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت والله انه لى لسلم اصنع فيه ماشئت فأتاها يعقوب فاخبرته الخبر فقال لها أنت وذاك ان كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك فامسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت قال فهو الذى يقول اخوة يوسف حين صنع باخيه ماصنع حين أخذه ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل وقوله فاسرها يوسف فى نفسه يعنى الكلمة التى بعدها وهى قوله أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون أى تذكرون قال هذا فى نفسه (٢١٥) ولم يبده لهم وهذا من باب الاضمار قبل الذكر وهو كثير كقول الشاعر

حزى بنوه أبا الغيلان عن كبر
وحسن ظن كما يجزى سنمار

وله شواهد كثيرة فى القرآن والحديث واللغة فى منثورها وأخبارها وأشعارها قال العوفى عن ابن عباس فاسرها يوسف فى نفسه قال أسر فى نفسه أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون) لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم فقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا يعنون وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده فخذ أحدنا مكانه أى بدله يكون عندك عوضا عنه انا نراك من المحسنين أى العادلين المنصفين القابلين للخير قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده أى كما قلتم واعترفتم انا اذا لظالمون أى ان أخذنا بريا بسقيم (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل مافرطتم فى يوسف فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون) يخبر تعالى عن اخوة يوسف انهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذى قد التزموا لابيهم برده اليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك خلصوا أى انفردوا عن الناس نجيا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل وقيل يهوذا وهو الذى أشار عليهم بالقائه فى

يعنى انبات النبات بالماء يحتاج الى مزيد تأمل واستعمال فكر ألاترى ان الحبة الواحدة اذا وضعت فى الارض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الارض فانها تنتفخ وينشق اعلاها فتصعد منه شجرة الى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق فى الارض ثم ينمو الاعلى ويقوى وتخرج منه الاوراق والازهار والاكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والالوان والروائح والاشكال والمنافع ومن تفكر فى ذلك علم ان من هذه أفعاله وآثاره لايمكن ان يشبهه شئ فى شئ من صفات الكمال فضلا عن ان يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ذكره الخازن وأبو السعود (وسخر لكم الليل والنهار) معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ماتقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائما كالعبد الطائع لسيده لايخالف ما يأمر به ولايخرج عن ارادته ولايهمل السعى فى نفعه (و) كذا الكلام فى تسخيره (الشمس والقمر و) قوله (النجوم) قرأ حفص عن عاصم برفعه على انه مبتدأ وخبره (مسخرات) أى مذللات مقهورات (بامره) تعالى يجرى على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الاوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان ولاتصرف لها فى نفسها فضلا عن غيرها وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى فاخبر سبحانه انها مذللات تحت قهره وارادته (ان فى ذلك) التسخير وما بعده (لآيات لقوم يعقلون) أى يعملون عقولهم فى هذه الآيات الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له وختم الفاصلة الثانية بالعقل لان الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة وجمع الآيات ليطابق قوله مسخرات وقيل ان وجه الجمع هو ان كلا من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية فى نفسها بخلاف ماتقدم من الانبات فانه آية واحدة ولايخلو كل هذا عن تكلف والاولى ان يقال ان هذه المواضع التى أفرد الآية فى بعضها وجمعها فى بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد باعتبار فلم يجرها على طريقة واحدة افتنانا وتنبيها على جواز الامرين وحسن كل واحد منهما (وماذرأ) أى خلق (لكم فى الارض) يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرأ فهو ذارئ ومنه الذرية وهى نسل الثقلين وقد تقدم تحقيق هذا أى وسخر لكم ماذرأ فى

البشر عندنا ماهو ابقتله قال لهم ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله لتردنه اليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من اضاعة يوسف عنه فلن أبرح الارض اى لن أفارق هذه البلدة حتى يأذن لى أبى فى الرجوع اليه راضيا عنى أو يحكم الله لى قيل بالسيف وقيل بان يمكننى من أخذ أخى وهو أحكم الحاكمين ثم أمرهم ان يخبروا أباهم بصورة ماوقع حتى يكون عذرا عنده و يتنصلوا اليه و يبرؤا مما وقع بقولهم وقوله وما كنا للغيب حافظين قال قتادة وعكرمة ماعلمنا ان ابنك سرق وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ماعلمنا فى الغيب انه سرق له شيأ انما سألنا (٢١٦) ماجزاء السارق واسأل القرية التى كنا فيها قيل المراد مصر قاله قتادة وقيل غيرها والعير التى أقبلنا فيها أى التى وافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا وانا لصادقون فيما أخبرناك به من انه سرق وأخذوه بسرقته (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال انما أشكوا بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون) قال لهم كما قال لهم حين جاؤا على قميص يوسف بدم كذب بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل قال محمد ابن اسحق لما جاؤا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن انها كفعلتهم بيوسف قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ثم ترجى من الله ان يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذى أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه اما أن يرضى عنه فيأمره بالرجوع اليه واما ان يأخذ أخاه خفية ولهذا قال عسى الله ان يأتينى بهم جميعا انه هو العليم أى العليم بحالى الحكيم فى أفعاله وقضائه وقدره وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف أى أعرض عن بنيه وقال متذكرا حزن يوسف القديم الاول يا أسفا على يوسف جدد له حزن الابنين الحزن الدفين قال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن سفيان العصفرى عن سعيد بن جبير انه قال لم يعط أحد غير هذه الامة الاسترجاع ألا تسمعون الى قول يعقوب عليه السلام يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أى ساكت لايشكو أمره الى مخلوق قاله قتادة وغيره وقال الضحاك فهو كظيم كمد حزين وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى

الارض من الدواب والانعام والاشجار والثمار فالمعنى انه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الارضية (مختلفا ألوانه) أى هيآته ومناظره فان ذرء هذه الاشياء على اختلاف الالوان والاشكال مع تساوى الكل فى الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده قال قتادة مختلفا من الدواب والشجر والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله (ان فى ذلك) التسخير لهذه الامور مع اختلاف طبائعها واشكالها مع اتحاد موادها (لآية) واضحة (لقوم يذكرون) فان من تذكر اعتبر ومن اعتبر استدل على المطلوب قيل وانما خص المقام الاول بالتفكر لامكان ايراد الشبهة وخص الثانى بالعقل لذكره بعد اماطة الشبهة وازاحة العلة فمن لم يعترف بعدها بالوحدانية فلا عقل له وخص الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له وفى هذا من التكلف مالا يخفى والاولى ان يقال هنا كما قلنا فيما تقدم فى افراد الآية فى البعض وجمعها فى البعض الآخر وبيانه ان كلا من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان فى التعبير فى كل موضع بواحد منها افتنان حسن لايوجد فى التعبير بواحد منها فى جميع المواضع الثلاثة (وهو الذى سخر البحر) امتن الله سبحانه بتسخير البحر بامكان الركوب عليه واستخراج مافيه من صيد وجواهر لكونه من جملة النعم التى أنعم الله بها على عباده مع مافيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته وقد جمع الله سبحانه لعباده فى هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الارضية والسماوية والبحرية فارشدهم الى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الامكنة اتماما للحجة وتكميلا للانذار وتوضيحا لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ومواضع النظر والاعتبار ثم ذكر العلة فى تسخير البحر فقال (لتأكلوا منه لحما طريا) المراد به السمك ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والارشاد الى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة قال قتادة يعنى حيتان البحر وقال السدى ومافيه من الدواب وبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود به قوام البدن وتسميته لحما هو مذهب المالكية بخلاف الشافعية والحنفية وعلى هذا فلو حلف لايأكل لحما لايحنث باكل السمك ولاظهار قدرته فى خلقه عذبا طريا فى ماء ملح والطراوة ضد اليبوسة أى غضا جديدا ويقال طريت كذا أى جددته وأطريت فلانا مدحته باحسن

مافيه

حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن الاحنف بن قيس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان داود عليه السلام قال يارب ان بني اسرائيل يسألونك بابراهيم واسحق ويعقوب فاجعلني لهم رابعا فاوحى الله تعالى اليه ان ياداود ان ابراهيم القي في النار بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك وان اسحق بذل مهجة دمه بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك وان يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر وتلك بلية لم تنلك وهذا مرسل فيه نكارة فان الصحيح ان اسمعيل هو الذبيح ولكن علي بن زيد بن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم وأقرب ما في هذا ان الاحنف بن قيس (٢١٧) رحمه الله حكاه عن بني اسرائيل كعب ووهب ونحوهما والله أعلم فان بني اسرائيل ينقلون ان يعقوب كتب الى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده ويذكر له انهم أهل بيت مصابون بالبلاء فابراهيم ابتلي بالنار واسحق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لايصح والله أعلم فعند ذلك رق له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه تالله تفتؤ تذكر يوسف أي لا تفارق تذكر يوسف حتى تكون حرضا أي ضعيف القوة أو تكون من الهالكين يقولون ان استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف قال انما أشكو بثي وحزني الى الله أي أجابهم عما قالوا بقوله انما أشكو بثي وحزني أي همي وما أنا فيه الى الله وحده وأعلم من الله مالا تعلمون أي أرجو منه كل خير وعن ابن عباس واعلم من الله مالا تعلمون يعني رؤيا يوسف ان الله لابد ان يظهرها وقال العوفي عنه في الآية اعلم ان رؤيا يوسف صادقة واني سوف اسجد له وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية عن حفص بن عمر بن أبي الزبير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليعقوب النبي عليه السلام أخ مؤاخ له فقال له ذات يوم ما الذي اذهب بصرك وقوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فاتاه جبريل عليه السلام فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام و يقول لك أما تستحي ان تشكوني الى غيري فقال يعقوب انما أشكو بثي وحزني الى الله فقال جبريل عليه السلام الله أعلم بما تشكو وهذا حديث غريب فيه نكارة (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه

ما فيه و يقال بالغت في مدحه وجاوزت (وتستخرجوا منه) أي من البحر وهو الملح فقط (حلية) أي لؤلؤا ومرجانا كما في قوله سبحانه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والحلية اسم لما يتحلى به وأصلها الدلالة على الهيئة كالعمة وفي المصباح حلي الشئ بعيني و بصدري من باب تعب حلا وحسن عندي وأعجبني وحليت المرأة حليا ساكن اللام لبست الحلي وجمعه حلي والاصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلي مقصور وتضم الحاء وتكسر وحلية السيف زينته قال ابن فارس ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي أو اتخذته وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي أو اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيأ حلوا حتى حلا وظاهر قوله (تلبسونها) انه يجوز للرجال ان يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله تلبسونها بقولهم تلبسها نساؤهم لانهن من جملتهم أو لكونهن يلبسنها لاجلهم وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان مالم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها الا النساء خاصة فان ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبها بهن لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان وعن أبي جعفر قال ليس في الحلي زكاة ثم قرأ هذه الآية أخرجه ابن أبي شيبة أقول وفي هذا الاستدلال نظر والذي ينبغي التعويل عليه ان الاصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شئ من أنواع المال فتلزم وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها (وترى الفلك مواخر فيه) أي ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدورها قاله عكرمة ومخر السفينة شقها الماء بصدرها قال الجوهري مخر السابح اذا شق الماء بصدره ومخر الارض شقها للزراعة وقيل مواخر جواري قاله ابن عباس وأصل المخر الجري في المختار مخرت السفينة من باب قطع ودخل اذا جرت تشق الماء مع صوت وقيل معترضة وقيل تذهب وتجيء قال الضحاك السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة وقيل مواقر أي مملوءة متاعا وقال أبو عبيدة صوائح وقيل ملججة (1) قال ابن جرير المخر في اللغة صوت هبوب الريح عند شدتها ولم يقيد بكونه في الماء (ولتبتغوا من فضله) أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا أو فعل ذلك لتبتغوا أي لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه قال

(1) يقال لججت السفينة أي خاضت اللجة اه صحاح

لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين) يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام انه ندب بنيه على الذهاب في الارض يستعلمون اخبار يوسف وأخيه بنيامين والتحسس يكون في الخير والتجسس يكون في الشر ونهضهم وبشرهم وأمرهم ان لا ييأسوا من روح الله أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه له فانه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون وقوله فلما دخلوا عليه (٢١٨) تقدير الكلام فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام وجئنا ببضاعة مزجاة أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل قاله مجاهد والحسن وغير واحد وقال ابن عباس الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء وفي رواية عنه الدراهم الرديئة التي لا تجوز الا بنقصان وكذا قال قتادة والسدي وقال سعيد بن جبير هي الدراهم الفسول وقال أبو صالح هو الصنوبر وحبة الخضراء وقال الضحاك كاسدة لا تنفق وقال أبو صالح جاؤا بحب البطم الاخضر والصنوبر وأصل الازجاء الدفع لضعف الشيء كما قال حاتم طي

ليبك على ملحان ضيف مدافع
وأرملة تزجي مع الليل أرملا

وقال اعشى بني ثعلبة

الواهب المائة الهجان وعبدها
عوذا تزجي خلفها اطفالها

وقوله اخبارا عنهم فأوف لنا الكيل أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك وقرأ ابن مسعود فأوقر ركابنا وتصدق علينا وقال ابن جريج وتصدق علينا برد أخينا الينا وقال سعيد بن جبير والسدي وتصدق علينا وقيل يقولون تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها وسئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الانبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ألم تسمع قوله فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين رواه ابن جرير عن الحرث عن القاسم عنه وقال ابن جرير حدثنا الحرث حدثنا القاسم حدثنا مروان بن معاوية عن عثمان بن الاسود سمعت مجاهدا وسئل هل يكره ان يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي قال نعم انما الصدقة لمن يبتغي الثواب (قال هل علمتم ما فعلتم

السدي هي التجارة (ولعلكم تشكرون) أي اذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والاركان قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعا للمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع انها في تضاعيف المهالك ويمكن ان يضم الى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما اشتمل عليه البحر من كونه فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الاسباب المستدعية للشكر الموجبة له ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال (وألقى في الارض رواسي) أي جبالا ثابتة يقال رسا يرسو اذا ثبت وأقام (ان تميد بكم) أي كراهة ان تميد بكم على ما قاله البصريون أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون والميد الاضطراب يمينا وشمالا يقال ماد الشيء يميد ميدا تحرك ومادت الاغصان تمايلت وماد الرجل تبختر قال قتادة حتى لا تميد بكم كانوا على الارض تمور بهم لا تستقر فأصبحوا صبحا وقد جعل الله سبحانه الجبال وهي الرواسي أوتادا في الارض (و) جعل فيها (أنهارا) لان الالقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله وألقيت عليك محبة مني وذكر الانهار عقب الجبال لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال قال السيوطي كالنيل ولم يذكر في المثال غير هذا لانه من أهل مصر (و) جعل فيها (سبلا) وأظهرها وبينها لاجل ان تهتدوا بها في أسفاركم الى مقاصدكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان وهي الطرق وقال السدي هي الطرق في الجبال (لعلكم تهتدون) بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون أو الى توحيد ربكم (و) جعل فيها (علامات) هي معالم الطرق جمع علامة وفي المصباح أعلمت على كذا بالالف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة وأعلمت الثوب جعلت له علما من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم أعلام مثل سبب وأسباب وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له أمارة يعرف بها والمعنى انه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها (وبالنجم) المراد به الجنس (هم يهتدون) به في سفرهم ليلا وقرأ ابن وثاب وبالنجم بضمتين والمراد النجوم فقصره أو هو جمع نجم كسقف وسقف وقيل المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان قاله الفراء وقيل الثريا وبنات نعش وقيل العلامات الجبال

يوسف وأخيه اذأنتم جاهلون قالوا أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) يقول تعالى مخبرا عن يوسف انه لما ذكر له اخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه واخوته وبدره البكاء فتعرف اليهم فيقال انه رفع التاج عن جبهته (٢١٩) وكان فيها شامة وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون يعني كيف فرقوا بينه وبينه اذ أنتم جاهلون أي انما حملكم عليه الجهل بالمقدار الذي ارتكبتموه كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل وقرأ ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة الآية والظاهر والله أعلم ان يوسف عليه السلام انما تعرف اليهم بنفسه باذن الله له في ذلك كما انه انما أخفى منهم نفسه في المرتين الاوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الامر فرج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا فعند ذلك قالوا أئنك لانت يوسف وقرأ أبي بن كعب انك لانت يوسف وقرأ ابن محيصن أنت يوسف والقراءة المشهورة هي الاولى لان الاستفهام يدل على الاستعظام اى انهم تعجبوا من ذلك انهم يترددون اليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي وقوله قد من الله علينا أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا الآية يقولون معترفين له بالفضل والاثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة ايضا على قول من لم يجعلهم انبياء واقروا له بانهم اساؤا اليه واخطأوا في حقه قال لاتثريب عليكم اليوم يقول اى لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين قال السدي اعتذروا الى يوسف فقال لاتثريب عليكم اليوم يقول لا أذكر لكم ذنبكم وقال ابن اسحق والثوري لاتثريب عليكم اى لا تأنيب عليكم اليوم

وقيل هي النجوم لان من النجوم ما يهتدى به ومنها علامة لا يهتدى بها وذهب الجمهور الى ان المراد في الآية الاهتداء في الاسفار وقيل هو الاهتداء الى القبلة ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك قال الاخفش تم الكلام عند قوله وعلامات وقوله وبالنجم الخ كلام منفصل عن الاول قال السدي علامات النهار الجبال وعلامات الليل النجوم وقال ابن عباس معالم الطرق بالنهار الجبال ويهتدون بالنجم بالليل قال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة للسماء ومعالم الطرق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد ان يوبخ أهل الشرك والعناد فقال (أفمن يخلق) هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات الغريبة الجليلة ويفعل هذه الافاعيل العجيبة المرئية بالعيان (كمن لايخلق) شيأ منها ولا يقدر على ايجاد واحد منها وهي هذه الاصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه وأطلق عليها لفظ من اجراء لها مجرى أولي العلم جريا على زعمهم بانها آلهة أو مشاكلة لقوله أفمن يخلق لوقوعها في صحبته أو هو من عكس التشبيه وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى وما أحقهم بذلك فانهم جعلوا بعض المخلوقات شريكا لخالقه تعالى الله عما يشركون (أفلا تذكرون) مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك فانها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها لا يحتاج الى دقيق الفكر والنظر قال قتادة في الآية الله هو الخالق الرازق وهذه الاوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيأ ولا تملك لاهلها ضرا ولا نفعا ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة الى المكلفين نعم قال (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ولو اجتهدتم في ذلك وأتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه فضلا ان تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر وهذا تذكير اجمالي بنعمه تعالى وقد مر تفسير هذا في سورة ابراهيم قال العقلاء ان كل جزء من أجزاء الانسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الانسان وتمنى ان ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل فهو سبحانه يدبر بدن هذا الانسان على الوجه الملائم له مع ان الانسان لا علم له بوجود ذلك فكيف يطيق حصر نعم الله عليه أو يقدر على احصائها أو يتمكن من شكر ادناها يا ربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك معترفة

عندى فماصنعتم يغفر الله لكم اى يستر الله عليكم فيما فعلتم وهو ارحم الراحمين (اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت
بصيرا وأتونى باهلكم أجمعين ولما فصلت العير قال أبوهم انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم)
يقول اذهبوا بهذا القميص فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا وكان قد عمى من كثرة البكاء وأتونى باهلكم أجمعين اى
بجميع بنى يعقوب ولما فصلت العير أى خرجت من مصر قال أبوهم يعنى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه انى لاجد
ريح يوسف لولا ان تفندون تنسبونى الى الفند والكبر قال عبد الرزاق أنبأنا اسرائيل عن أبى سنان

عن عبد الله بن ابى الهذيل قال سمعت ابن عباس يقول ولما فصلت العير قال لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام وكذا رواه سفيان الثورى وشعبة وغيرهما عن ابن سنان به وقال الحسن وابن جريج كان بينهما ثمانون فرسخا وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة وقوله تفندون قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير تسفهون وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون وقولهم انك لفى ضلالك القديم قال ابن عباس لفى خطئك القديم وقال قتادة اى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم ان يقولوها لوالدهم ولا لنبى الله صلى الله عليه وسلم وكذا قال السدى وغيره (فلما ان جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم اقل لكم انى اعلم من الله مالا تعلمون

بالعجز عن تأدية الشكر لشىء منها لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ولا نطيق التعبير بالشكر لك فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فانك ان لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير فى شكر نعمك فكيف بما قد فرط منا من التساهل فى الائتمار باوامرك والانتهاء عن مناهيك وما أحسن ما قال من قال

العفو يرجى من بنى آدم * فكيف لا يرجى من الرب

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذى لا يلتبس على انسان مشيرا الى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال (ان الله لغفور رحيم) أى كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه والقصور عن احصائها والعجز عن القيام بادناها ومن رحمته ادامتها عليكم وادرارها فى كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها اللهم انى اشكرك عدد ما شكرك ويشكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان فلقد خصصتنى بنعم لم أرها على كثير من خلقك من انسان وحيوان وان رأيت منها شيأ على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها فأنى أطيق شكرك وكيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها ثم بين لعباده انه عالم بجميع ما يصدر منهم لا يخفى عليه خافية فقال (والله يعلم ما تسرون) أى ما تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) أى وما تظهرونه منها وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ وتنبيه على ان الاله يجب ان يكون عالما بالسر والعلانية لا كالاصنام التى تعبدونها فانها جمادات لا شعور لها بشئ من الظواهر فضلا عن الضمائر والسرائر فكيف تعبدونها وقراءة التحتية شاذة فيما كما نبه عليه السمين ثم شرع سبحانه فى تحقيق كون الاصنام التى أشار اليها بقوله كمن لا يخلق عاجزة عن ان يصدر منها خلق شئ فلا تستحق عبادة فقال (والذين يدعون) بالياء والتاء سبعيتان أى الآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دون الله) سبحانه صفتهم هذه الصفات الثلاثة المذكورة المنافية للالوهية وهى انهم (لا يخلقون شيأ) من المخلوقات أصلا لا كبيرا ولا صغيرا ولا جليلا ولا حقيرا (وهم يخلقون) أى وصفهم انهم يخلقون فكيف يتمكن المخلوق من ان يخلق غيره ففى هذه الآية زيادة بيان لانه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق فانه

قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم) قال ابن عباس والضحاك البشير البريد وقال مجاهد والسدى كان يهوذا بن يعقوب قال السدى انما جاء به لانه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فاحب ان يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فالقاه على وجه أبيه فرجع بصيرا وقال لبنيه عند ذلك ألم اقل لكم انى اعلم من الله مالا تعلمون أى اعلم ان الله سيرده الى وقلت لكم انى لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون فعند ذلك قالوا لابيهم مترفقين له يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم اى من تاب اليه تاب عليه قال ابن مسعود وابراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم

ارجأهم الى وقت السحر وقال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنا ابن ادريس سمعت عبد الرحمن بن اسحق يذكر عن محارب بن دثار قال كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع انسانا يقول اللهم دعوتنى فأجبت وأمرتنى فاطعت وهذا السحر فاغفر لى قال فاستمع الصوت فاذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال ان يعقوب أخر بنيه الى السحر بقوله سوف أستغفر لكم ربى وقد ورد فى الحديث ان ذلك كان ليلة الجمعة كما قال ابن جرير أيضا حدثنى المثنى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى حدثنا ابو الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس (٢٢١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف أستغفر لكم ربى يقول حتى تأتى ليلة الجمعة وهو قول أخى يعقوب لبنيه وهذا غريب من هذا الوجه وفى رفعه نظر والله أعلم (فلما دخلوا على يوسف اوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم) يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لاخوته أن يأتوه باهلهم أجمعين فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام ويقال ان الملك خرج أيضا لتلقيه وهو الاشبه وقد أشكل قوله آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر على كثير من المفسرين فقال بعضهم هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وآوى اليه أبويه ورفعهما على العرش ورد ابن جرير هذا وأجاد فى ذلك ثم اختار ما حكاه عن السدى ان يوسف آوى اليه أبويه لما تلقاهما ثم لما وصلوا باب البلد قال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وفى هذا نظر أيضا لان الايواء انما يكون فى المنزل كقوله آوى اليه أخاه وفى الحديث من آوى محدثا وما المانع ان يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم اليه ادخلوا مصر وضمنه اسكنوا مصر ان شاء الله آمنين أى مما كنتم فيه من الجهد والقحط ويقال والله أعلم ان الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم

اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال (أموات) يعنى ان هذه الاصنام أجسادها جمادات ميتة لا حياة بها أصلا فزيادة قوله (غير أحياء) لبيان انها ليست كبعض الاجساد التى تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلا فكيف يعبدونها وهم أفضل منها لانهم أحياء (وما يشعرون) اى الآلهة (أيان يبعثون) اى الكفار الذين يعبدون الاصنام والمعنى ما تشعر هذه الجمادات من الاصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ويكون هذا على طريقة التهكم لهم لان شعور الجماد مستحيل بما هو من الامور الظاهرة فضلا عن الامور التى لا يعلمها الا الله سبحانه وقيل معناه ما يشعر هذه الاصنام أيان تبعث ومتى يبعثها الله وبه بدأ القاضى تبعا للكشاف ويؤيد ذلك ما روى ان الله يبعث الاصنام ويخلق لها أرواحا معها شياطينها فيؤمر بكلها الى النار ويدل على هذا قوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقيل قد تم الكلام عند قوله وهم يخلقون ثم ابتدأ فوصف المشركين بانهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون فيكون الضميران على هذا للكفار وعلى القول بان الضميرين أو أحدهما للاصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بانها تعقل وأيان بفتح الهمزة وكسرها لغتان وفى الآية قول آخر وهو ان أيان ظرف لقوله (الهكم اله واحد) يعنى ان الاله يوم القيامة واحد ولم يدع أحد تعدد الآلهة فى ذلك اليوم بخلاف أيام الدنيا فانه قد وجد فيها من ادعى ذلك وعلى هذا فقد تم الكلام على قوله يشعرون الا ان هذا القول مخرج لأيان عن موضوعها وهو اما الشرط واما الاستفهام الى محض الظرفية بمعنى وقت مضاف للجملة بعده والظاهر تفسيره بمتى يبعثون كما فى الكشاف وغيره ولما زيف سبحانه طريقة عبدة الاصنام صرح بما هو الحق فى نفس الامر وهو وحدانيته سبحانه وهو نتيجة ما قبله ثم ذكر ما لاجله أصر الكفار على شركهم فقال (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) جاحدة للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير (وهم مستكبرون) عن قبول الحق متعظمون عن الاذعان للصواب مستمرون على الجحد (لا جرم) قال الخليل هى كلمة تحقيق ولا يكون الا جوابا أى حقا قلت لا نافية وجرم بمعنى بد وهذا بحسب الاصل وأما الآن فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى كلمة واحدة وتلك الكلمة مصدر أو فعل معناه حق وثبت وقوله (ان الله) فاعل لا جرم وقدمر تحقيق الكلام

يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة حين قال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع
يوسف ثم لما تضرعوا اليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام
وقوله آوى اليه أبويه قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديما وقال محمد بن اسحق وابن
جرير كان أبوه وأمه يعيشان قال ابن جرير ولم يقم دليل على موت أمه وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور
الذي يدل عليه السياق وقوله ورفع أبويه على (٢٢٢) العرش قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني السرير أي أجلسهما
معه عليه وخروا له سجدا اي سجد
له أبوه واخوته الباقون وكانوا احد
عشر رجلا وقال يا أبت هذا تأويل
رؤياي من قبل أي التي كان قصها
على أبيه من قبل اني رأيت أحد
عشر كوكبا الآية وقد كان هذا
سائغا في شرائعهم اذا سلموا على
الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزا
من لدن آدم الى شريعة عيسى عليه
السلام فحرم هذا في هذه الملة وجعل
السجود مختصا لجناب الرب سبحانه
وتعالى هذا مضمون قول قتادة
وغيره وفي الحديث ان معاذا قدم
الشام فوجدهم يسجدون
لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا
يا معاذ فقال اني رأيتهم يسجدون
لأساقفتهم وأنت أحق ان يسجد
لك يا رسول الله فقال لو كنت آمرا
أحدا ان يسجد لاحد لامرت
المرأة ان تسجد لزوجها لعظم
حقه عليها وفي حديث آخر ان
سلمان لقي النبي صلى الله عليه
وسلم في بعض طرق المدينة وكان
سلمان حديث السن بالاسلام
فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم
فقال لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت والغرض ان هذا كان جائزا في شريعتهم ولهذا خروا له   أرادوا
سجدا فعندها قال يوسف يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا أي هذا ما آل اليه الامر فان التأويل يطلق على
ما يصير اليه الامر كما قال تعالى هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله اي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر وقوله قد
جعلها ربي حقا اي صحيحة صدقا يذكر نعم الله عليه وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو أي البادية قال
ابن جريج وغيره كانوا من أهل بادية وماشية وقال كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام قال وبعض

في لاجرم بابسط من هذا قال أبو مالك لاجرم يعني الحق وقال الضحاك لا كذب (يعلم
ما يسرون) من أقوالهم وأفعالهم (وما يعلنون) من ذلك (انه لا يحب المستكبرين)
اي لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لانبيائه والجملة تعليل لما
تضمنه الكلام المتقدم أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن
مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان فقال رجل يا رسول الله
الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال ان الله جميل يحب الجمال الكبر
من بطر الحق وغمض الناس وفي ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة وكذلك في اخراج
محبة حسن الثوب وحسن النعل ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة فقد روي عن الحسين
ابن علي انه مر بمساكين قد قدموا كسرا لهم وهم يأكلون فقالوا الغداء يا أبا عبد الله فنزل
وجلس معهم وقال انه لا يحب المستكبرين ثم أكل فلما فرغوا قال قد أجبتكم فاجيبوني
فقاموا معه الى منزله فاطعمهم وسقاهم وأعطاهم فانصرفوا قال العلماء كل ذنب يمكن
ستره واخفاؤه الا التكبر فانه فسق يلزمه الاعلان وهو أصل العصيان كله وفي الحديث
الصحيح ان المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطؤهم الناس باقدامهم لتكبرهم أو كما قال
صلى الله عليه وآله وسلم تصغر لهم أجسامهم في المحشر حين يضرهم تصغيرها وتعظم لهم
في النار حين يضرهم عظمها ذكره القرطبي والحاصل ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم
قد بين ماهية الكبر انه بطر الحق وغمض الناس فهذا هو الكبر المذموم وقد ساق صاحب
الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة ليس هذا مقام ايرادها بل المقام مقام
ذكر ماله علاقة بتفسير الكتاب العزيز ثم شرع في ذكر شيء من قبائح المشركين فقال
(واذا قيل لهم) اي واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل (ماذا) اي أي
شيء أو ما الذي (أنزل ربكم) قيل القائل النضر بن الحرث وكانت عنده كتب التواريخ
ويزعم ان حديثه أجل وأتم مما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم والآية نزلت فيه
فيكون هذا القول منه على طريق التهكم وقيل القائل هو من يفد عليهم وقيل بعضهم لبعض
وقيل القائل المسلمون فاجاب المشركون المنكرون المستكبرون و(قالوا أساطير الاولين)
بالرفع اي ما تدعون أيها المسلمون أساطير الاوائل وأحاديثهم وأباطيلهم أو ان المشركين

يقول كانوا بالاولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى وكانوا أصحاب بادية وشاء وابل من بعد ان نزغ الشيطان بينى و بين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء اى اذا أراد أمرا قيض له أسبابا وقدره و يسره انه هو العليم بمصالح عباده الحكيم فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره و يريده قال ابو عثمان النهدى عن سلمان كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة قال عبد الله بن شداد واليها ينتهى أقصى الرؤيا رواه ابن جرير وقال أيضا حدثنا عمرو بن على حدثنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا هشام عن الحسن قال كان منذ فارق يوسف يعقوب الى أن التقيا ثمانون سنة (٢٢٣) لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه وما على وجه الارض عبد أحب الى الله من يعقوب وقال هشيم عن يونس عن الحسن ثلاث وثمانون سنة وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة فغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فمات وله عشرون ومائة سنة وقال قتادة كان بينهما خمس وثلاثون سنة وقال محمد ابن اسحق ذكروا الله أعلم ان غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة قال وأهل الكتاب يزعمون انها كانت أربعين سنة أو نحوها وان يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف بعد ان قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله اليه وقال أبو اسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال دخل بنو اسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون انسانا وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا وقال أبو اسحق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون بين رجل وامرأة وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى عن عبد الله بن شداد اجتمع آل يعقوب الى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون انسانا صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وخرجوا وهم ستمائة ألف ونيف (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه واخوته وما من الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا ان يتمها عليه فى الآخرة وان يتوفاه مسلما حين يتوفاه قاله الضحاك وان يلحقه بالصالحين وهم اخوته من النبيين والمرسلين صلوات الله

أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطيرهم وعلى هذا فلا يرد ما قيل من ان هذا لا يصلح أن يكون جوابا من المشركين والا لكان المعنى الذى أنزله ربنا أساطير الاولين والكفار لا يقرون بالانزال ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه وقيل هو كلام مستأنف اى ليس ما تدعون انزاله أيها المسلمون منزلا بل هو أساطير الاولين والاساطير الاباطيل والترهات التى يتحدث الناس بها عن القرون الاولى وليس من كلام الله فى شئ ولا مما أنزله أصلا فى زعمهم وهى جمع أسطورة كأحاديث وأضاحيك وأعاجيب جمع أحدوثة وأضحوكة وأعجوبة (ليحملوا) اى قالوا هذه المقالة لكى يحملوا (أوزارهم كاملة يوم القيامة) لم يكفر منها شئ لعدم اسلامهم الذى هو سبب لتكفير الذنوب وقيل ان اللام هى لام العاقبة لانهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لاجل ان يحملوا الاوزار ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعليل به كقوله ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل هى لام الامر قال الرازى فى الآية وهذا يدل على انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة (ومن أوزار الذين يضلونهم) اى ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لان من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها كما ورد فى الحديث وقيل من للجنس لا للتبعيض اى يحملون كل أوزار الذين يضلونهم قاله الواحدى (بغير علم) حال من الفاعل والمعنى ان الرؤساء يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم اليه ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام وقيل انه حال من المفعول اى يضلون من لا يعلم انهم ضلال قاله الزمخشرى وعليه جرى القاضى وفائدتها الدلالة على ان جهلهم لا يعذرهم اذ كان عليهم ان يبحثوا و يميزوا بين الحق والباطل ولا يقنعوا بالتقليد البحت العمى ورجح الاول بانه من المحدث عنه والمسند اليه الاضلال على جهة الفاعلية والمعنى انهم يقدمون على الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد فى مقابلته ومثل هذه الآية قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقوله ولنحمل خطاياكم وقد تقدم فى الانعام الكلام على قوله ولا تزر وازرة وزر أخرى فمعناه وزر الامدخل لها فيه ولا تعلق لهم بها بتسبب ولا غيره قال ابن عباس يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم وعن مجاهد نحوه وزاد ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيأ (ألا ساء ما يزرون) اى بئس شيأ يزرونه ويحملونه وفى ذلك وعيد وتهديد

وسلامه عليهم أجمعين وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثا ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره لا أنه سأله ذلك منجزا كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام ويقول الداعي اللهم وأحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا وكان ذلك سائغا في ملتهم كما قال قتادة قوله توفني مسلما وألحقني بالصالحين (٢٢٤) لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبله وكان ابن عباس يقول ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام كما أن نوحا أول من قال رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ويحتمل أنه أول من سأل انجاز ذلك وهو ظاهر سياق قتادة ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان ولا بد متمنيا الموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي وأخرجاه وعندهما لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إن كان محسنا فيزداد وإن كان مسيئا فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان ابن رفاعة حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال جلسنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ورققنا فبكى وقبل سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال يا ليتني مت فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا سعد أعندي تتمنى الموت فردد ذلك ثلاث مرات ثم قال يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس هو سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيرا تفرد به أحمد وهذا فيما إذا كان

لهم ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال (قد مكر الذين من قبلهم) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث بنى بناء عظيما يقال طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها فأهب الله الريح فخر ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا وكان أعظم أهل الأرض تجبرا في زمن ابراهيم عليه السلام ونمروذ بضم النون والذال المعجمة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين الماكرين الذين يحاولون الحاق الضر بالمحقين المؤمنين ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وآله وسلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم (فأتى الله) أي أتى أمر الله وهو الريح التي أخربت (بنيانهم) قال المفسرون أرسل الله ريحا فألقت رأس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي بزلزلة من أسفله فأهلكهم وهم تحته (من القواعد) قال الزجاج أي من الأساطين وقيل من أصوله وأساسه بكسر الهمزة جمع أس وأما بالفتح فجمعه أسس بضمتين قيل لما سقط تبلبلت ألسن الناس بالفزع فتكلموا يومئذ بثلاث وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لأن صالحا كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذي نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم كل هؤلاء عرب والمعنى أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها فزعزعها (فخر عليهم السقف) بفتح السين وضمها مع سكون القاف وبضمهما وضم القاف أي أنه سقط عليهم السقف لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها قال ابن الأعرابي وإنما قال (من فوقهم) ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته والعرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه فجاء بقوله من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال من فوقهم أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا وقيل هو للتأكيد لأن السقف لا يخر إلا من فوق وقيل إن المراد بالسقف السماء أي أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم وقد اختلف في هؤلاء الذين خر عليهم السقف فقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح قاله ابن عباس وعن مجاهد نحوه وقيل إنه بختنصر وأصحابه وقيل هم المقتسمون الذين تقدم ذكرهم في سورة الحجر

الضر خاصا به وأما اذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى اخبارا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وقالت مريم لما جاءها المخاض وهو الطلق الى جذع النخلة يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا لما علمت من ان الناس يقذفونها بالفاحشة لانها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا وأنطقه فى المهد بانه عبد الله ورسوله فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه وفى حديث معاذ الذى رواه الامام أحمد والترمذى فى قصة المنام والدعاء الذى فيه واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون وقال الامام أحمد حدثنا أبو سلمة أنبأنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو ابن عاصم عن كثير بن قتادة عن محمود بن لبيد مرفوعا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب فعند حلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى آخر خلافته لما رأى ان الامور لا تجتمع له ولا يزداد الامر الا شدة فقال اللهم خذنى اليك فقد سئمتهم وسئمونى وقال البخارى رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال اللهم توفنى اليك وفى الحديث ان الرجل ليمر بالقبر أى فى زمان الدجال فيقول يا ليتنى مكانك لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والامور الهائلة التى هى فتنة لكل مفتون قال أبو جعفر بن جرير وذكر أن بنى يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم (ذكر من قال ذلك) حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى حجاج عن صالح المرى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال ان الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينيه خلا ولده نجيا فقال بعضهم لبعض ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقى منكم الشيخ وما لقى منكم يوسف قالوا بلى قال فيغركم عفوهما عنكم فكيف لكم بربكم فاستقام أمرهم على ان أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف الى جنب أبيه قاعد قالوا يا أبانا أتيناك لامر لم نأتك لامر مثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه والانبياء عليهم السلام أرحم البرية فقال

وقيل المعنى على العموم يعنى انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه وهذا ما اختاره القاضى كالكشاف والاول أولى ومع ذلك العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قال قتادة أتاها أمر الله من أصلها فخر عليهم السقف من فوقهم والسقف أعالى البيوت فائتفكت بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم (وأتاهم العذاب) اى الهلاك (من حيث لا يشعرون) به بل من حيث انهم فى أمان لا يخطر العذاب ببالهم ثم بين سبحانه ان عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا فقال (ثم يوم القيامة يخزيهم) اى الكفار بادخالهم النار ويفضحهم بذلك ويذلهم ويهينهم عطف على مقدر أى هذا عذابهم فى الدنيا ثم يوم القيامة يخزيهم (ويقول) الله لهم مع ذلك توبيخا وتقريعا (أين شركائى) كما تزعمون وتدعون ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله (الذين كنتم تشاقون) قرأ نافع بكسر النون على الاضافة والباقون بفتحها اى تخاصمون الانبياء والمؤمنين (فيهم) والمعنى على قراءة الكسر تخاصموننى وتعادوننى وتخالفوننى وقد ضعف أبو حاتم هذه القراءة والمشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم (قال الذين أوتوا العلم) وهم فى الموقف قيل هم العلماء قالوا لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون الى وعظهم وكان هذا القول منهم على طريقة الشماتة وقيل هم الانبياء وقيل الملائكة والظاهر الأول لان ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وان كان الانبياء والملائكة هم من أهل العلم بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة ولا يقدح فى هذا جواز الاطلاق لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط (ان الخزى اليوم) اى الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة (والسوء) اى العذاب (على الكافرين) مختص بهم يقولونه شماتة بهم (الذين تتوفاهم) بالتاء والياء وهما سبعيتان لكنه مع الياء يقرأ بالامالة فى الموضعين والتذكير على ان الملائكة ذكور والتأنيث لان لفظ الجمع مؤنث (الملائكة) وهم ملك الموت عزرائيل وأعوانه (ظالمى أنفسهم) بالكفر

مالكم يا بنى قالوا الست قد علمت ما كان منا اليك وما كان منا الى اخينا يوسف قال بلى قالوا أولستما قد عفوتما قالا بلى قالوا فان عفوكما لا يغنى عنا شيأ ان كان الله لم يعف عنا قال فما تريدون يا بنى قالوا نريد ان تدعو الله لنا فاذا جاءك الوحى من الله بانه قد عفا عنا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا والا فلا قرة عين فى الدنيا لنا أبدا قال فقام فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين قال فدعا وامن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة قال صالح المرى يخيفهم قال حتى اذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه (٢٢٦) السلام فقال ان الله تعالى قد بعثنى اليك أبشرك بان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وان الله قد عفا عما صنعوا وانه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة هذا الاثر موقوف عن أنس ويزيد الرقاشى وصالح المرى ضعيفان جدا وذكر السدى ان يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى الى يوسف بان يدفن عند ابراهيم واسحق فلما مات صبره وأرسله الى الشام فدفن عندهما عليهم السلام (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين) يقول تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لما قص عليه نبأ اخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام هذا وأمثاله يا محمد من اخبار الغيوب السابقة نوحيه اليك ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم اذ أجمعوا أمرهم اى على القائه فى الجب وهم يمكرون به ولكنا أعلمناك به وحيا اليك وانزالا عليك كقوله وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم الاية وقال تعالى وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر الاية الى قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا الاية وقال وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا الاية وقال ما كان لى من علم بالملا الاعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين يقول تعالى انه رسوله وانه قد أطلعه على انباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله لدلالة

وقد تقدم تفسيره (فألقوا السلم) اى أقروا بالربوبية وانقادوا عند الموت ومعناه الاستسلام قاله قطرب وقيل معناه المسالمة أى سالموا وتركوا المشاقة قاله الاخفش وقيل معناه الاسلام اى أقروا بالاسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر (ما كنا نعمل من سوء) تفسير للسلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب أو من شدة الخوف ومن لم يجوز الكذب على أهل القيامة حمله على انهم أرادوا انهم لم يعملوا سوأ فى اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ومثله قوله والله ربنا ما كنا مشركين فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم (بلى) كنتم تعملون السوء (ان الله عليم بما) اى بالذى (كنتم تعملون) فيجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيأ وقال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (فادخلوا أبواب جهنم) يقال لهم ذلك عند الموت وقد تقدم ذكر الابواب وان جهنم درجات بعضها فوق بعض اى ليدخل كل صنف الى الطبقة التى هو موعود بها وانما قيل لهم ذلك لانه أعظم فى الخزى والغم وفيه دليل على ان الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (خالدين فيها) حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل (فلبئس مثوى المتكبرين) هى فالمخصوص بالذم محذوف والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان والعبادة كما فى قوله انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ثم اتبع أوصاف الاشقياء بأوصاف السعداء فقال (وقيل للذين اتقوا) وهم المؤمنون (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) اى أنزل خيرا ورفع الاول ونصب هذا فرقا بين جواب المقر وجواب الجاحد (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) قيل هذا من كلام الله عز وجل وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا فيكون هذا بدلا من خيرا قاله الزمخشرى وعلى الاول يكون كلاما مستأنفا مسوقا لمدح المتقين والمعنى للذين أحسنوا أعمالهم بالايمان فى الدنيا مثوبة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة وقال قتادة أحسنوا اى آمنوا بالله وكتبه ورسله وأمروا بطاعة الله وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم اليه قال الضحاك هى النصر والفتح وقال مجاهد هى الرزق الحسن وقيل الحياة الطيبة وهى استحقاق المدح والثناء أو فتح أبواب المشاهدات والمكاشفات قاله الكرخى (ولدار الآخرة) اى مثوبتها وهى الجنة (خير) مما أوتوا فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح

كقوله ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين الى غير ذلك من الآيات وقوله وما تسألهم عليه من أجر اى ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء الى الخير والرشد من أجر أى من جعالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلقه ان هو الا ذكر للعالمين اى يتذكرون به ويهتدون وينجون به فى الدنيا والآخرة (وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل (٢٢٧) توحيده بما خلقه الله فى السموات والارض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات وافلاك دائرات والجميع مسخرات وكم فى الارض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات وكم من أحياء وأموات وحيوان ونبات وثمرات متشابهة ومختلفات فى الطعوم والروائح والالوان والصفات فسبحان الواحد الاحد خالق أنواع المخلوقات المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للاسماء والصفات وغير ذلك وقوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون قال ابن عباس من ايمانهم اذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق الارض ومن خلق الجبال قالوا الله وهم مشركون به وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وفى الصحيحين ان المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وفى صحيح مسلم انهم كانوا اذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قد أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا وقال الله تعالى ان الشرك لظلم عظيم وهذا هو الشرك الاعظم يعبد مع الله غيره كما فى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك وقال الحسن البصرى فى قوله وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون قال ذلك المنافق يعمل اذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعنى قوله تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالبا فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن ابى النجود عن عروة قال دخل حذيفة على مريض فرأى فى عضده سيرا

لدلالة ما قبله عليه (جنات عدن) اى بساتين اقامة من عدن بالمكان اذا أقام به قيل يجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح فيجىء فيها ثلاثة أوجه رفعها بالابتداء والجملة المتقدمة خبرها أو رفعها خبر المبتدا مضمر أو رفعها بالابتداء والخبر محذوف وهو أضعفها ويجوز أن يكون جنات عدن خبر مبتدا مضمر لا على ما تقدم بل يكون المخصوص محذوفا تقديره ولنعم دارهم هى جنات وقدره الزمخشرى ولنعم دار المتقين دار الآخرة ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله يدخلونها ويجوز أن يكون الخبر مضمرا تقديره لهم جنات دل عليه قوله للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة قاله السمين (يدخلونها) اى تلك الجنات ولا يرحلون عنها ولا يخرجون منها (تجرى من تحتها) اى من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم (الانهار لهم فيها) اى فى الجنات (ما يشاؤن) اى ما يقع عليه مشيئتهم صفوا عفوا يحصل لهم بمجرد ذلك وهذه الحالة لا تحصل الا فى الجنة وذلك يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريد فى الدنيا (كذلك) اى الامر كذلك اومثل ذلك الجزاء (يجزى الله المتقين) المراد بهم كل من يتقى الشرك وما يوجب النار من المعاصى (الذين تتوفاهم) اى تقبض أرواحهم (الملائكة طيبين) حال من المفعول او الفاعل مقارنة أو مقدرة وفيه أقوال اى طاهرين من شوائب الشرك والكفر والنفاق أو صالحين أو زاكية أفعالهم وأقوالهم او من ظلم أنفسهم بالمعاصى قاله البيضاوى اوطيبين الانفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله أو طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله أوطيبين الوفاة اى هى عليهم سهلة لا صعوبة فيها وقال مجاهد طيبين أحياء وأمواتا قدر الله لهم ذلك أو فرحين ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس وقيل طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن حملا لها على العموم فدخل فيه جميع ما ذكر (يقولون) اى قائلين لهم يعنى الملائكة حال مقارنة ان كان القول واقعا منهم فى الدنيا أو مقدرة ان كان واقعا فى الآخرة (سلام عليكم) معناه يحتمل وجهين أحدهما أن يكون السلام انذارا لهم بالوفاة الثانى ان يكون تبشيرا لهم بالجنة لان السلام أمان وفى الكرخى يقولون لهم عند الموت سلام عليكم اى لا يلحقكم بعد مكروه فهى حال مقارنة واستشهد له فى الدر المنثور بما أخرجه مالك وابن جرير والبيهقى وغيرهم عن محمد بن كعب القرظى قال اذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك ياولى الله الله يقرأ عليك

فقطعه أو انتزعه ثم قال وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون وفي الحديث من حلف بغير الله فقد أشرك رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرقى والتمائم والتولة شرك وفي لفظ لهما وما منا الا ولكن الله يذهبه بالتوكل ورواه الامام أحمد بابسط من هذا فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى الجزار عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت كان عبد الله اذا جاء من حاجة فانتهى الى الباب تنحنح وبزق (٢٢٨) كراهة ان يهجم منا على أمر يكرهه قالت وانه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فادخلتها تحت السرير قالت فدخل فجلس الى جانبي فرأى في عنقي خيطا فقال ماهذا الخيط قالت قلت خيط رقى لي فيه فأخذه فقطعه ثم قال ان آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرقى والتمائم والتولة شرك قالت قلت له لم تقول هذا وقد كانت عيني تقرف فكنت اختلف الى فلان اليهودي يرقيها فكان اذا رقاها سكنت فقال انما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده فاذا رقاها كف عنها انما كان يكفيك ان تقولي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لاشفاء الا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما وفي حديث آخر رواه الامام أحمد عن وكيع عن ابن ابي ليلى عن عيسى ابن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له لو تعلقت شيأ فقال أتعلق شيأ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلق شيأ وكل اليه ورواه النسائي عن ابي هريرة وفي مسند الامام أحمد من عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من علق تميمة فقد أشرك وفي رواية من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له وعن العلاء عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشركه رواه مسلم وعن ابي سعد بن ابي فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله الاولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله اغنى الشركاء عن الشرك رواه الامام احمد وقال احمد حدثنا يونس

السلام وبشره بالجنة ونحوه في الكشاف وقال أبو حيان الظاهر أن السلام انما هو في الآخرة ولذلك جاء بعده ادخلوا الجنة فهو من قول خزنة الجنة وعليه فهي حال مقدرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) اي بسبب عملكم قيل يحتمل هذا وجهين الاول يكون تبشيرا بدخول الجنة عند الموت الثاني أن يكون ذلك لهم في الآخرة ولا ينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح سددوا وقاربوا واعلموا انه لن يدخل أحد الجنة بعمله قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمته وقد قدمنا البحث عن هذا (هل ينظرون) هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان ينزل عليهم ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال هل ينظرون في تصديق نبوتك (الا ان تأتيهم) بالتاء والياء سبعيتان (الملائكة) شاهدين بذلك ويحتمل ان يقال انهم لما طعنوا في القرآن بانه أساطير الأولين أوعدهم الله بقوله هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم (او يأتي أمر ربك) اي عذابه في الدنيا المستأصل لهم او المراد بأمر الله القيامة والمراد بكونهم ينظرون انهم ينظرون اتيان الملائكة أو اتيان امر الله على التفسير الآخر انهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظرا له وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة فانهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه قيل أو مانعه خلو فان كلا من الموت والعذاب يأتيهم وان اختلف الوقت وانما عبر بأو دون الواو اشارة الى كفاية كل واحد من الامرين في تعذيبهم كما أفاده ابو السعود (كذلك) اي مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين من قبلهم) من طوائف الكفار فأتاهم أمر الله فهلكوا (وما ظلمهم الله) بتدميرهم بالعذاب فانه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بما ارتكبوه من القبائح وفيه ان ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما يؤول اليه (فأصابهم سيآت ما عملوا) اي أجزية أعمالهم السيئة او جزاء سيآت أعمالهم معطوف على فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض (وحاق) اي نزل (بهم) على وجه الاحاطة والحيق لا يستعمل الا في الشر قاله البيضاوي فلا يقال حاقت به النعمة بل النقمة قاله الشهاب (ما) اي العذاب الذي (كانوا به يستهزؤن) او عقاب استهزائهم (وقال الذين أشركوا) هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله تعالى عنهم والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة (لو شاء الله)

عدم

حدثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يارسول الله قال الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة اذا جازى الناس باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء وقد رواه اسمعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمرو عن قتادة عن محمود بن لبيد به وقال الامام أحمد حدثنا حسن أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا ابن هبيرة عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٢٩) من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا يارسول الله ما كفارة ذلك قال ان يقول أحدهم اللهم لا خير الا خيرك ولا طير الا طيرك ولا اله غيرك وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله ابن نمير حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العرزى عن أبى على رجل من بنى كاهل قال خطبنا أبو موسى الاشعرى فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون قال بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله ان يقول فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله قال قولوا اللهم انا نعوذ بك ان نشرك بك شيأ نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم وقد روى من وجه آخر وفيه ان السائل فى ذلك هو الصديق كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى من حديث عبد العزيز بن مسلم عن ليث بن أبى سليم عن محمد عن معقل بن يسار قال شهدت النبى صلى الله عليه وسلم أو قال حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل فقال أبو بكر وهل الشرك الا من دعا مع الله الها آخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ثم قال ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره قل اللهم انى أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى عن شيبان بن فروخ عن يحيى بن كثير عن الثورى عن اسمعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر الصديق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا

عدم عبادتنا الشئ غيره (ما عبدنا من دونه من شئ) أى لحصل ذلك جئت أو لم تجئ ولو شاء منا الكفر لحصل جئت أو لم تجئ واذا كان كذلك فالكل من عند الله فلا فائدة فى بعثة الرسل الى الأمم ومن الاولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق (نحن) تأكيد لضمير عبدنا لالتصحيح العطف لوجود الفواصل وان كان محسناله (ولا آباؤنا) الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من الكفر والشرك بالله قال الزجاج انهم قالوا هذا على وجه الاستهزاء ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين انتهى وقد مضى الكلام على مثل هذا فى سورة الانعام (ولا حرمنا من دونه من شئ) من السوائب والوصائل والبحائر ونحوها ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن فى الرسالة أى لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير الله والمنع من تحريم مالم يحرمه الله حاكيا ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فانه قد شاء الله ذلك وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم مالم يحرمه كان ذلك دليلا على ان ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته مع انهم فى الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به لكنهم قصدوا ماذكرنا من الطعن على الرسل والظاهر أن من الاولى والثانية ههنا زائدتان أى ولا حرمنا شيأ حال كوننا دونه أى دون الله أى مستقلين بتحريمه قاله الحفناوى (كذلك فعل الذين من قبلهم) من طوائف الكفر فانهم أشركوا بالله وحرموا مالم يحرمه وجادلوا رسلهم بالباطل واستهزؤا بهم ثم قال (فهل على الرسل) الذين يرسلهم الله الى عباده بما شرعه لهم من الشرائع التى رأسها توحيده وترك الشرك به (الا البلاغ المبين) الى من أرسلوا اليهم بما أمروا بتبليغه بلاغا واضحا يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم والبلاغ مصدر بمعنى الابلاغ ثم انه سبحانه أكد هذا وزاده ايضاحا فقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) كما بعثنا فى هؤلاء لاقامة الحجة عليهم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأن فى قوله (أن اعبدوا الله) اما مصدرية أى بعثنا بان اعبدوا الله وحده أو مفسرة لأن فى البعث معنى القول والوجهان حكاهما السمين وغيره (واجتنبوا الطاغوت) اى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا الى الضلال وهو من الطغيان يذكر ويؤنث ويقع على الواحد كقوله يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به وعلى الجمع كقوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجمع

قال فقال أبو بكر يارسول الله فكيف النجاة والمخرج من ذلك فقال ألا أخبرك بشيء اذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره قال بلى يارسول الله قال قل اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم قال الدارقطني يحيى بن كثير هذا يقال له أبو النضر متروك الحديث وقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاصم سمعت أبا هريرة قال قال أبو بكر الصديق يارسول الله علمني شيأ أقوله اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعي قال قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه رواه ابوداود والنسائي وصححه وزاد الامام أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم عن أبي بكر الصديق قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أقول فذكر الدعاء وزاد في آخره وأن اقترف على نفسي سوأ أو أجره الى مسلم وقوله أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله الآية أي أفأمن هؤلاء المشركون ان يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى أفأمن الذين مكروا السيآت ان يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم وقوله أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الى الثقلين الانس والجن آمراً له أن يخبر الناس ان هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له يدعو الى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي وقوله وسبحان الله أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن ان يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه (وما لهم

(٢٣٠)

طواغيت والتقدير واجتنبوا عبادتها فالكلام على حذف المضاف (فمنهم) أي من هذه الامم التي بعث الله اليها برسله (من هدى الله) أي أرشده الى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت فآمن (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لاصراره على الكفر والعناد فلم يؤمن قال الزجاج اعلم الله انه بعث الرسل بالامر بالعبادة وهو من وراء الضلال والهداية ومثل هذه الآية قوله تعالى فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وفي هذه الآية التصريح بان الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان وكل ما يدعو الى الضلال وانهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة فكان في ذلك دليل على ان أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة ارادته فانه يأمر الكل بالايمان ولا يريد الهداية الا للبعض اذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا (فسيروا في الارض) سير المعتبرين المتفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك وفي الفاء اشعار بوجوب المبادرة الى النظر والاستدلال (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) رسلهم من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود أي كيف ما آخر أمرهم الى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب ثم خص الخطاب برسوله صلى الله عليه وآله وسلم مؤكدا لما تقدم فقال (ان تحرص) يا محمد (على هداهم) أي تطلب بجهدك ذلك وقد أضلهم الله لا تقدر على ذلك وفي المصباح حرص عليه حرصا من باب ضرب اذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا وحرص حرصا من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة وفي السمين قراءة العامة أن تحرص بكسر الراء مضارع حرص بفتحها وهي اللغة العالية لغة الحجاز وقرئ بكسر الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة لبعضهم (فان الله) تعليل للجواب (لا يهدي من يضل) قرئ يهدي بفتح حرف المضارعة على انه فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه أي فان الله لا يرشد من أضله وقرئ بضم حرف المضارعة على انه مبني للمجهول على انه لا يهديه هاد كائنا من كان وهما سبعيتان فهذه الآية كقوله في الآية الاخرى من يضلل الله فلا هادي له وقال الفراء على القراءة الاولى معنى لا يهدي لا يهتدي كقوله تعالى أم من لا يهدي الا ان يهدى بمعنى يهتدي قال النحاس حكي عن المبرد معنى لا يهدي من يضل من علم ذلك منه وسبق له عنده

كان حليما غفورا (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) يخبر تعالى انه انما أرسل رسله من الرجال لا من النساء وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ان الله تعالى لم يوح الى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع وزعم بعضهم ان سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم أم عيسى نبيات واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وبقوله وأوحينا إلى أم موسى ان أرضعيه الآية وبأن الملك جاء الى مريم وبشرها (٢٣١) بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين وهذا القدر حاصل لهن ولكن لا يلزم من هذا ان يكن نبيات بذلك فان أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لاشك فيه ويبقى الكلام معه في ان هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن اسمعيل الاشعري عنهم انه ليس في النساء نبية وانما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام فوصفها في اشرف مقاماتها بالصديقية فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والاعظام فهي صديقة بنص القرآن وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله وما ارسلنا من قبلك الا رجالا الآية اي ليسوا من اهل السماء كما قلتم وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق الآية وقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فانجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين وقوله تعالى قل ما كنت بدعا من الرسل الآية وقوله من اهل القرى المراد بالقرى المدن لا أنهم من اهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعا واخلاقا وهذا هو المعهود المعروف ان اهل المدن ارق طباعا وألطف من اهل بواديهم واهل الريف والسواد اقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي ولهذا قال تعالى الاعراب اشد كفرا ونفاقا الآية وقال قتادة في الآية قوله من اهل القرى لانهم

(وما لهم من ناصرين) ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ومن زائدة ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث فقال (وأقسموا بالله) أي حلفوا وسمي الحلف قسما لانه يكون عند انقسام الناس الى مصدق ومكذب (جهد أيمانهم) أي جاهدين غاية اجتهادهم فيها وذلك انهم كانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الأمر عظيما اقسموا بالله والجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة وانتصابه على المصدرية وظاهره انه استئناف اخبار وجعله الزمخشري نسقا على وقال الذين أشركوا (لا يبعث الله من يموت) من عباده زعموا ان الله سبحانه عاجز عن بعث الاموات عن أبي العالية قال كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان مما تكلم به والذي أرجوه بعد الموت انه لكذا وكذا فقال له المشرك انك لتزعم انك تبعث من بعد الموت فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فانزل الله سبحانه هذه الآية وعن علي قال نزلت في (بلى وعدا عليه حقا) هذا اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم ووعدا مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله والتقدير وعد البعث وعدا عليه وحقه حقا لا خلف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير اما لعدم علمهم بانه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها واما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع البعث (ليبين) أي ليظهر (لهم) وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير في لهم راجع الى من يموت (الذي يختلفون فيه) أي الامر الذي وقع الخلاف بينهم فيه وبيانه اذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ونزلت عليهم فيه كتب الله وقيل ليبين متعلق بقوله ولقد بعثنا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه وأنكروا البعث (انهم كانوا كاذبين) في جدالهم وانكارهم البعث بقولهم لا يبعث الله من يموت (انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) جملة مستأنفة لبيان كيفية الابداء والاعادة مسوقة لهذا المقصد بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه قال الزجاج أعلمهم بسهولة خلق الاشياء عليه فاخبر أنه متى أراد الشيء كان وهذا كقوله فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون قال ابن الانباري أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق لانه بمنزلة ما قد وجد وشوهد قال الزجاج ان معنى لشيء لاجل شيء فجعل اللام سببية وليس بواضح وقيل هي لام التبليغ قاله أبو السعود أي أي

اعلم واه لمن اهل العمر ة وفى الحديث الآخر ان رجلا من الاعراب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يعطيه و يزيده حتى رضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد هممت ان لا أتهب هبة الا من قرشى أو انصارى أو ثقفى أو دوسى وقال الامام احمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الاعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الاعمش هو ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على اذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على اذاهم وقوله أفلم يسيروا فى الارض اى المكذبون (٢٣٢) فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أى من الامم المكذبة كقوله أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها الآية فاذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله اهلك الكافرين ونجى المؤمنين وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ولهذا قال تعالى ولدار الآخرة خير للذين اتقوا اى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة وهى خير لهم من الدنيا بكثير كقوله انا لننصر رسلنا والذين امنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار واضاف الدار الى الآخرة فقال ولدار الآخرة كما يقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وعام اول وبارحة الاولى ويوم الخميس قال الشاعر

أتمدح فقعسا وتذم عبسا
ألا لله امك من هجين
ولو أقوت عليك ديار عبس
عرفت الذل عرفان اليقين

(حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) يذكر تعالى ان نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله فى احوج الاوقات اليه كقوله تعالى وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الآية وفى قوله كذبوا قراءتان احداهما بالتشديد قد كذبوا وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها تقرؤها قال البخارى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال اخبرنى عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت له وهو يسألها عن قوله حتى اذا استيأس الرسل قال قلت اكذبوا أم كذبوا قالت عائشة كذبوا قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن قالت اجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك فقلت

شئ كان مما عز وشان كما فى قولك قلت له قم فقام وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى انه لا يمتنع عليه شئ وان وجوده عند ارادته كوجود المأمور به عند أمر الأمير المطاع اذا ورد على المأمور المطيع وليس هنالك قول ولا مقول له ولا آمر ولا مأمور ولا كاف ولا نون حتى يقال انه يلزم منه أحد محالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل قلت هكذا قال أكثر المفسرين وهو يخالف ظاهر النظم القرآنى والحق ما دلت عليه الآية من القول وهو على حقيقته وانه جرت به العادة الالهية وقد مضى تفسير ذلك فى سورة البقرة مستوفى وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما تحار فيه العقول والألباب (والذين هاجروا) قد تقدم معنى الهجرة فى سورة النساء وهى ترك الاهل والأوطان أى انتقلوا من مكة الى المدينة لاقامة دين الله سبحانه ومعنى (فى الله) فى شأن الله سبحانه وفى رضاه وقيل فى دين الله وقيل فى بمعنى لام التعليل أى لله (من بعد ما ظلموا) أى عذبوا وأهينوا وقد اختلف فى سبب نزول الآية فقيل نزلت فى صهيب وبلال وخباب وعمار واعترض بأن السورة مكية وذلك يخالف قوله والذين هاجروا واجيب بانه يمكن ان تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية فى هذه السورة كما قدمنا فى عنوانها وقيل نزلت فى أبى جندل بن سهيل وقيل نزلت فى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين (لنبوأنهم فى الدنيا حسنة) قيل المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس والحسن والشعبى وقتادة وقيل المراد الرزق الحسن قاله مجاهد وقيل النصر على عدوهم قاله الضحاك وقيل ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات وقيل ما بقى لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور والمعنى لنبوأنهم مباءة حسنة أو تبوئة حسنة فحسنة صفة مصدر محذوف (ولأجر الآخرة) أى جزاء أعمالهم الكائن فى الآخرة وهو النعيم الكائن فى الجنة التى هى المراد بالآخرة (أكبر) وأعظم من ان يعلمه أحد من خلق الله قبل ان يشاهده ومنه قوله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا (لو كانوا) أى هؤلاء الظلمة (يعلمون) ذلك وقيل ان الضمير راجع الى المؤمنين المهاجرين أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا انه اكبر من حسنة الدنيا وهو اسكانهم المدينة (الذين صبروا)

صبروا) على أذى المشركين أو على مفارقة الوطن والهجرة أو على الجهاد وبذل الانفس والاموال في سبيل الله واللفظ أعم من ذلك (وعلى ربهم) وحده خاصة (يتوكلون) في جميع أمورهم معرضين عما سواه والصبر مبدأ السلوك الى الله تعالى والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه والظاهر والله أعلم ان المعنى على المضي والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل وجواب الموصول محذوف أي فيرزقهم من حيث لا يحتسبون (وما أرسلنا من قبلك) رد على قريش حيث زعموا ان الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولا من البشر فرد الله عليهم بان هذه عادته وسنته ان لا يرسل (الا رجالا) من البشر (نوحي اليهم) وزعم أبو علي الجبائي ان معنى الآية ان الله سبحانه لم يرسل الى الانبياء بوحيه الا من هو على صورة الرجال من الملائكة ويرد عليه ان جبريل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صور مختلفة ولما كان كفار مكة مقرين بان اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والانجيل صرف الخطاب اليهم وأمرهم ان يرجعوا الى أهل الكتاب فقال (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) أي فاسألوا أيها المشركون ان شككتم فيما ذكر مؤمني أهل الكتاب فانهم سيخبرونكم بان جميع الانبياء كانوا بشرا أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهر فانهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه وقيل المعنى فاسألوا أهل القرآن عن سعيد بن جبير قال نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من أهل التوراة وقد استدل مجوزو التقليد بهذه الآية وقالوا أمر سبحانه من لا علم له ان يسأل من له علم والجواب ان هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص خارج عن محل النزاع كما يفيده السياق المذكور قبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده وبه قال ابن جرير والبغوي وأكثر المفسرين واستوفاه السيوطي في الدر المنثور وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق والسباق وعلى فرض ان المراد السؤال العام فالمأمور بسؤالهم هم أهل الذكر والذكر هو كتاب الله وسنة رسوله لا غيرهما ولا أظن مخالفا يخالف في هذا لان هذه الشريعة المطهرة هي اما من الله عز وجل وذلك هو القرآن الكريم أو من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك واذا كان المأمور بسؤالهم هم أهل القرآن والحديث فالآية الكريمة حجة على المقلدة لا لهم لان المراد انهم يسألون أهل الذكر

لها وظنوا أنهم قد كذبوا قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعبة عن الزهري قال أخبرنا عروة فقلت لعلها قد كذبوا مخففة قالت معاذ الله انتهى ما ذكره وقال ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة ان ابن عباس قرأها وظنوا انهم قد كذبوا خفيفة قال عبد الله هو ابن ابي مليكة ثم قال لي ابن عباس كانوا بشروا ثم تلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب قال ابن جريج وقال لي ابن أبي مليكة وأخبرني عروة عن عائشة انها خالفت ذلك وأبته وقالت ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم من شئ الا قد علم انه سيكون حتى مات ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم قال ابن أبي مليكة في حديث عروة كانت عائشة تقرؤها وظنوا انهم قد كذبوا مثقلة من التكذيب وقال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أنبأنا ابن وهب أخبرني سليمان بن بلال عن عمر بن سعيد قال جاء انسان الى القاسم بن محمد فقال ان محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا فقال القاسم أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا تقول كذبتهم اتباعهم اسناد صحيح أيضا والقراءة الثانية بالتخفيف واختلفوا في تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم وعن ابن مسعود فيما رواه الثوري عن الاعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله انه قرأ حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة قال عبد الله هو الذي تكره وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما أما ابن عباس فروى عنه حدثنا الاعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم ان الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك فنجي من نشاء وكذا روى عن سعيد بن جبير وعمران بن الحرث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا عارم أبو النعمان

حدثنا حماد بن زيد حدثنا شعيب حدثنا ابراهيم بن أبي حمزة الجزري قال سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف فاني اذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال نعم حتى اذا استيأس الرسل من قومهم ان يصدقوهم وظن المرسل اليهم ان الرسل كذبوا فقال الضحاك بن مزاحم ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى الى علم فيتلكأ لو رحلت الى اليمن في هذه كان قليلا ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر ان مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فاجابه بهذا الجواب فقام الى سعيد فاعتنقه وقال فرج الله عنك كما فرجت عني وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير انه فسرها كذلك وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى ان مجاهدا قرأها وظنوا انهم قد كذبوا بفتح الذال رواه ابن جرير الا ان بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله وظنوا انهم قد كذبوا الى اتباع الرسل من المؤمنين ومنهم من يعيده الى الكافرين منهم أي وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر وأما ابن مسعود فقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد ابن وصيل عن محش بن زياد الضبي عن تميم بن حزم قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم ان يؤمنوا لهم وظن قومهم حين أبطأ الامر انهم كذبوا بالتخفيف فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك وانتصر لها ابن جرير ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه والله أعلم (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

يقول تعالى لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين عبرة لأولي الالباب وهي العقول ما كان حديثا يفترى أي وما كان لهذا القرآن ان يفترى من دون الله أي يكذب ويختلق ولكن تصديق الذي بين يديه أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير وتفصيل كل شئ

فيخبرونهم به فالجواب من المسؤلين ان يقولوا قال الله كذا وقال رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كذا فيعمل السائلون بذلك وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بها فانه انما استدل بها على جواز ما هو فيه من الاخذ باقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل فان هذا هو التقليد ولهذا رسموه بانه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة فحاصل التقليد ان المقلد لا يسأل عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بل يسأل عن مذهب امامه فقط فاذا جاوز ذلك الى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره واذا تقرر ان المقلد اذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مقلدا علمت أن هذه الآية الشريفة على تسليم ان السؤال ليس عن الشئ الخاص الذي يدل عليه السياق بل عن كل شئ من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع في وجهه وترغم أنفه وتكسر ظهره فان معنى هذا السؤال الذي شرعه الله تعالى هو السؤال عن الحجة الشرعية وطلبها من العالم فيكون هو راويا وهذا السائل مسترويا والمقلد يقر على نفسه بانه يقبل قول العالم ولا يطالبه بالحجة فالآية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد وبهذا ظهر لك ان هذه الحجة التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض ان المراد المعنى الخاص وهي عليه لا له على فرض ان المراد المعنى العام (بالبينات والزبر) فيه ستة أوجه أحدها ما تقديره أي رجالا متلبسين بالبينات وهو وجه حسن ذكره الزمخشري ولا محذور فيه الثاني (١) تقديره وما أرسلناهم بها ذكره الحوفي والزمخشري وغيرهما وبه بدأ في الكشاف الثالث تقديره ما أرسلنا بها الا رجالا حكاه ابن عطية الرابع انه متعلق بنوحي كما تقول أوحى اليه بحق ذكره الزمخشري وأبو البقاء الخامس أنه منصوب بتقدير أعني والباء زائدة السادس انه متعلق بمحذوف كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بها كذا قدره الزمخشري قال السمين وهو أحسن من تقدير أبي البقاء يعني لموافقته للدال عليه لفظا ومعنى والبينات الحجج الواضحة والبراهين الساطعة والزبر الكتب والصحف وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران (وأنزلنا اليك) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (الذكر) أي القرآن وسماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ثم بين الغاية المطلوبة من الانزال فقال (لتبين للناس) جميعا (ما نزل اليهم) في هذا الذكر من الاحكام الشرعية والوعد والوعيد وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى

(١) قوله تقديره الخ كذا بالاصل الذي بأيدينا وعبارة الزمخشري اما ان يتعلق بما أرسلنا داخلا تحت حكم الاستثناء مع رجالا أي وما ارسلنا الا رجالا بالبينات الخ فتأمل اه مصححه

من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الامر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والاخبار عن الامور الجلية وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية والاخبار عن الرب تبارك وتعالى بالاسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات فلهذا كان هدى ورحمة لقوم يؤمنون تهتدى به قلوبهم من الغى الى الرشاد ومن الضلالة الى السداد و يبتغون به الرحمة من رب العباد فى الدنيا و يوم المعاد فنسأل الله العظيم ان يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة *آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام ولله الحمد والمنة وبه المستعان

(تفسير سورة الرعد وهى مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) اما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقدمنا ان كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ولهذا قال تلك آيات الكتاب أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن وقيل التوراة والانجيل قاله مجاهد وقتادة وفيه نظر بل هو بعيد ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال والذى أنزل اليك أى يا محمد من ربك الحق خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله والذى أنزل اليك من ربك الحق هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة واختار ابن جرير ان تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا واستشهد بقول الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون كقوله وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين أى مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى باذنه وأمره رفع السموات بغير عمد بل باذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الارض بعدا لا تنال ولا يدرك مداها فالسماء الدنيا محيطة بجميع الارض وما

صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا قيل متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقيل المحكم مبين والمتشابه مجمل يطلب بيانه من السنة فهذه الآية محمولة على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) أى ارادة ان يتأملوا و يعملوا افكارهم فيتعظوا و يعملوا به (أفأمن الذين مكروا) الاستفهام للتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم (السيآت) اى المكرات السيآت ولم يذكر الزمخشرى غيره أو المعنى عملوا أو فعلوا السيآت أو أمن الماكرون العقوبات السيآت أو مكروا بالسيآت قال مجاهد يعنى نمروذ بن كنعان وقومه وعن قتادة قال مكرهم الشرك وقال الضحاك تكذيبهم الرسل وعملهم بالمعاصى أو هو سعيهم فى أذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأذى أصحابه على وجه الخفية واحتيالهم فى ابطال الاسلام وكيد أهله فى دار الندوة من تقييده أو قتله أو اخراجه كما ذكر فى الانفال (أن) أى أفأمنوا من أن (يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وقرون من قبلهم يقال خسف المكان يخسف خسوفا ذهب فى الارض وخسف الله به الارض خسوفا أى غاب به فيها ومنه قوله فخسفنا به وبداره الارض وخسف هو فى الارض وخسف به (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) به أى فى حال غفلتهم عنه ومن جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وغيرهم وقيل يريد يوم بدر فانهم أهلكوا فى ذلك اليوم ولم يكن فى حسبانهم (أو يأخذهم فى تقلبهم) ذكر المفسرون فيه وجوها فقيل المراد فى أسفارهم ومتاجرهم فانه سبحانه قادر على ان يهلكهم فى السفر كما يهلكهم فى الحضر وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم فى الارض وبعدهم عن الاوطان والتقلب الحركة اقبالا وادبارا وقيل المراد فى حال تقلبهم فى قضاء أوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم وقيل فى حال تقلبهم فى الليل على فرشهم وقيل فى اختلافهم وقيل فى حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار والتقلب بالمعنى الاول مأخوذ من قوله لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد وبالمعنى الثانى مأخوذ من قوله وقلبوا لك الامور (فما هم بمعجزين) أى بفائتين ولا ممتنعين ولا سابقين (أو يأخذهم على) حال (تخوف) وتوقع للبلايا بان يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه فهو خلاف ما تقدم من قوله أو يأتيهم العذاب من

حوله من الماء والهواء من جميع نواحيه وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء وبعد ما بينها وبين الارض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وبينهما من بعد المسيرة خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن الآية وفي الحديث ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي الا كحلقة ملقاة بارض فلاة والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة

وفي رواية والعرش لا يقدر قدره الا الله عزوجل وجاء عن بعض السلف ان بعد ما بين العرش الى الارض مسيرة خمسين ألف سنة وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء وقوله بغير عمد ترونها روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد انهم قالوا لها عمد ولكن لا ترى وقال اياس بن معاوية السماء على الارض مثل القبة يعني بلا عمد وكذا روى عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه فعلى هذا يكون قوله ترونها تأكيدا لنفي ذلك اي هي مرفوعة بغير عمد ترونها وهذا هو الاكمل في القدرة وفي شعر امية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه كما ورد في الحديث ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة * بعثت الى موسى رسولا مناديا
فقلت له يا اذهب وهرون فادعوا * الى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له هل أنت سويت هذه * بلا عمد أو فوق ذلك بانيا
وقولا له هل أنت سويت وسطها * منيرا اذا ما جنك الليل هاديا
وقولا له من أنبت الحب في الثرى * فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤسه * ففي ذلك آيات لمن كان واعيا

حيث لا يشعرون وقال ابن الاعرابي على تنقص من الاموال والانفس والثمرات حتى يهلكهم كلهم قال الواحدي قال عامة المفسرين معنى على تخوف على تنقص اما بقتل أو بموت يعني بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الاول فالاول حتى يأتي الأخذ على جميعهم قال والتخوف التنقص يقال هو يتخوف المال أي يتنقصه ويأخذ من أطرافه انتهى يقال تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون تنقصه قال الهيثم بن عدي التخوف بالفاء التنقص لغة لازدشنوءة وقال ابن قتيبة هذه لغة هذيل وقيل على تخوف على عجل قاله الليث بن سعد وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم روى ذلك عن ابن عباس وقيل على تخوف أن يعاقب ويتجاوز قاله قتادة وعن ابن عباس على أن يموت صاحبه وعنه أيضا وتنقص من اعمالهم وعن عمر انه سألهم عن هذه الآية فقالوا ما نرى الا انه عند تنقص ما يردده من الآيات فقال عمر ما أرى الا انه على ما ينتقصون من معاصي الله فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقي أعرابيا فقال يا فلان ما فعل ربك قال قد تخيفته يعني تنقصته فرجع الى عمر فاخبره فقال قدرأيته ذلك وعبارة البيضاوي روى ان عمر قال على المنبر ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال هل تعرف العرب ذلك في أشعارها فقال نعم قال شاعرنا أبو بكر (١) يصف ناقته

تخوف الرحل منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم انتهى قال الشهاب الرحل رحل الناقة والتامك السنام المشرف والقرد هو المرتفع أو المتراكم والنبع شجر يتخذ منه القسي والسفن هنا المبرد والقدوم يصف ناقته بانها أثر الرحل في سنامها فأكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود انتهى وعن مجاهد قال على تخوف يأخذهم بنقص بعضهم بعضا وقال الضحاك والكلبي هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون ان يصيبهم ما أصابهم والحاصل انه سبحانه خوفهم بخسف يحصل في الارض أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه ختم الآية بقوله (فان ربكم لرؤف رحيم) لا يعاجل بالعذاب بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم للعقوبة ثم لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف أتبعه ذكر ما يدل على كمال

قدرته

(١) هكذا في الجمل وفي نسخة من البيضاوي أبو كبير وحكى الشهاب عن الكشاف نسبة البيت لزهير وقال مع انه ليس له اه وفي نسخة من البيضاوي أنه كثير والله أعلم اه من هامش الاصل

وقوله تعالى ثم استوى على العرش تقدم تفسيره فى سورة الاعراف وانه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقوله وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى قيل المراد انهما يجريان الى انقطاعهما بقيام الساعة كقوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وقيل المراد الى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلى بطن الارض من الجانب الآخر فانهما وسائر الكواكب اذا وصلوا هناك يكونون أبعد ما يكون عن العرش لانه على الصحيح الذى تقوم عليه الأدلة قبة مما يلى العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الافلاك لان له قوائم وحملة يحملونه ولا يتصور هذا فى الفلك المستدير وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والاحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة وذكر الشمس والقمر لانهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت فاذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الاولى والأحرى كما نبه بقوله تعالى لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون مع انه قد صرح بذلك بقوله والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وقوله يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون أى يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا اله الا هو وانه يعيد الخلق اذا شاء كما بدأه (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) لما ذكر تعالى العالم العلوى شرع فى ذكر قدرته وحكمته واحكامه للعالم السفلى فقال وهو الذى مد الارض أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض وأرساها بجبال راسيات شامخات وأجرى فيها الانهار والجداول والعيون ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الالوان والاشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين أى من كل شكل صنفان يغشى الليل النهار أى جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا فاذا ذهب هذا غشيه هذا واذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضا فى الزمان كما يتصرف فى المكان والسكان ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون أى فى آلاء الله وحكمه ودلائله وقوله وفى الارض

قدرته فى تدبير العالم العلوى والسفلى ومكانه ما مصدرا بالاستفهام الانكارى فقال (أولم يروا) بالتحتية بارجاع الضمير الى ماكرى السيآت وقرئ بالفوقية على انه خطاب لجميع الناس وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التى يكون معها النظر الى الشئ ليتأمل أحواله ويتفكر فيه ويعتبر به (الى ما خلق الله) ما مبهمة مفسرة بقوله (من شئ) لفظ وهى الاجسام فهو عام أريد به الخاص وخرج به الملك والجن (يتفيأ ظلاله) اى تميل وتدور وتنتقل من جانب الى جانب وتكون أول النهار على حال وتتقاص ثم تعود فى آخر النهار على حالة أخرى قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشى وما انصرفت عنه الشمس والقمر والذى يكون بالغداة هو الظل وهو ما لم تنله وقال ثعلب أخبرت عن أبى عبيدة ان رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل وفى السمين التفيؤ تفعل من فاء يفئ اذا رجع وفاء قاصر فاذا أريد تعديته عدى بالهمزة كقوله ما أفاء الله على رسوله أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ فهو لازم واختلف فى الفئ فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده وهو الموافق لمعنى الآية ههنا وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفئ فالظل أعم وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفئ بما بعده والظلال جمع ظل وهو مضاف الى مفرد لانه واحد يراد به الكثرة (عن اليمين والشمائل) أى عن جهة أيمانها وعن شمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعارة أو مجاز من اطلاق المقيد على المطلق قال أبو السعود استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله وقيل المراد باليمين يمين الفلك وهو جهة المشرق لان الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع ومن الشمائل شماله وهى جهات المغرب المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربى من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها قال الفراء وحد اليمين لانه أراد واحدا من ذوات الأظلال وجمع الشمال لانه أراد كلها الان ما خلق الله لفظ مفرد ومعناه جمع وقال الواحدى وحد اليمين والمراد به الجمع ايجازا فى اللفظ كقوله ويولون الدبر وبه قال الزمخشرى ودلت الشمائل على ان المراد بها الجمع وقيل ان العرب اذا ذكرت

قطع متجاورات أى أراض يجاور بعضها بعضا مع ان هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيأ كذا روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد ويدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه محجرة وهذه سهلة وهذه مرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة والكل متجاورات فهذه بصفتها وهذه بصفتها الآخر فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا اله الا هو ولا رب سواه وقوله وجنات من أعناب وزرع ونخيل يحتمل ان تكون عاطفة على جنات فيكون (٢٣٨) وزرع ونخيل مرفوعين ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب فيكون مجرورا ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة وقوله صنوان وغير صنوان الصنوان هو الاصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الاشجار ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه كما جاء فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر أما شعرت ان عم الرجل صنو أبيه وقال الثورى وشعبة عن أبى اسحق عن البراء رضى الله عنه الصنوان هى النخلات فى أصل واحد وغير الصنوان المتفرقات وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقوله تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل قال الاعمش عن ابى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ونفضل بعضها على بعض فى الأكل قال الدقل والفارسى والحلو والحامض رواه الترمذى وقال حسن غريب أى هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة وذا فى غاية المرارة وذا عفص وهذا عذب وهذا جمع والمراد هذا وهذا ثم يستحيل الى طعم آخر باذن الله تعالى وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق وكذلك الزهورات مع ان كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط ففى ذلك آيات لمن كان واعيا وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الاشياء وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال فى أعناقهم

صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله وجعل الظلمات والنور وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وقيل المراد باليمين النقطة التى هى مشرق الشمس وانها واحدة والشمائل عبارة عن الانحراف فى تلك الأظلال بعد وقوعها على الارض وهى كثيرة قيل اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا استوت الشمس فى وسط السماء كان ظلك فى خلفك فاذا مالت الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال قتادة والضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وانما عبر عن المشرق باليمين لان أقوى جانبى الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس أشمل كذراع وأذرع (سجدا) جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع أى حال كون الظلال ساجدة (لله) قال الزجاج يعنى ان هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال أيضا سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة قال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ لله وقيل ان الظلال ملتصقة بالارض كالساجد عليها فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ (وهم) اى والحال ان الظلال (داخرون) أى خاضعون صاغرون والدخور الصغار والذل يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله ولما وصفها بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل (ولله) وحده لا لغيره (يسجد) أى يخضع وينقاد والسجود على نوعين سجود طاعة وعبادة وسجود انقياد وخضوع كسجود الانسان وسجود الظلال والآية تحتمل النوعين (ما فى السموات) جميعا (وما فى الارض من دابة) أى حيوان جسمانى ونسمة تدب وتتحرك على الارض والمراد به كل دابة قال الاخفش هو كقولك ما أتانى من رجل مثله وما أتانى من الرجال مثله وقد دخل فى عموم ما فيهما جميع الاشياء الموجودة فيهما قال قتادة لم يدع شيأ من خلقه الا عبده له طائعا أو كارها وعن الحسن قال يسجد من فى السموات طوعا ومن فى الارض طوعا وكرها وانما خص الدابة بالذكر لانه قد علم من قوله أولم يروا الى ما خلق الله من شئ انقياد الجمادات ومن بيانية بيانا لما فى الشقين أو بيانا لما الثانية فقط (و) عطف (الملائكة) على ما قبلهم عطف خاص على عام تشريفا لهم وتعظيما لدخولهم فى المعطوف عليه وقيل أفرد الملائكة لانهم أولوا أجنحة يطيرون بها أو تكون فى السماء خلق يدبون (وهم) أى والحال انهم (لا يستكبرون) عن عبادة ربهم

والمراد الملائكة ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة وفى هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله والمعنى يسجد لله ما فى السموات وما فى الارض والملائكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود (يخافون) اى حال كونهم خائفين (ربهم من فوقهم) أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم ومن آثار الخوف عدم الاستكبار أى يخافون عذاب ربهم كائنا من فوقهم أو يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بأئناعنهم بالاستواء على العرش وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف أى يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه وانما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت فى الاذهان وتقررت فى القلوب قيل وهذه المخافة هى مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخبارا عن فرعون وانا فوقهم قاهرون (ويفعلون ما يؤمرون) به من طاعة الله يعنى الملائكة أو جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجمل على الملائكة أولى لان فى مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وابليس وجنوده وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها ولما بين سبحانه ان مخلوقاته السماوية والارضية منقادة له خاضعة لجلاله أتبع ذلك بالنهى عن الشرك بقوله (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) فنهى سبحانه عن اتخاذ الهين ثم أثبت ان الالهية منحصرة فى اله واحد وهو الله سبحانه وقد قيل ان التثنية فى الالهين قد دلت على الاثنينية والافراد فى اله قد دل على الوحدة فما وجه وصف الهين باثنين ووصف اله بواحد فقيل فى الجواب ان فى الكلام تقديما وتأخيرا والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين وفيه بعد وقال أبو البقاء هو مفعول ثان وهذا كالغلط اذ لا معنى لذلك البتة وقيل ان التكرير لاجل المبالغة فى التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل انه تأكيد لالهين وعليه أكثر الناس وكلام الزمخشرى هنا يفهم منه انه ليس بتأكيد وقيل ان فائدة زيادة اثنين هى ان يعلم أن النهى راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم ان المراد اثبات الالهية دون الواحدية مع ان الالهية لله سبحانه مسلمة فى نفسها وانما خلاف المشركين فى الواحدية ثم نقل الكلام

ب النار هم فيها خالدون) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وان تعجب من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله فى خلقه على انه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من انه ابتدأ خلق الاشياء فكونها بعد أن لم تكن شيأ مذكورا ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى انه سيعيد العالم خلقا جديدا وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد وقد علم كل عالم وعاقل ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وان من بدأ الخلق فالاعادة عليه أسهل كما قال تعالى أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شئ قدير ثم نعت المكذبين بهذا فقال أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أى ماكثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) يقول تعالى ويستعجلونك اى هؤلاء المكذبون بالسيئة قبل الحسنة أى بالعقوبة كما أخبر عنهم فى قوله وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين وقال تعالى ويستعجلونك بالعذاب الآيتين وقال سأل سائل بعذاب واقع وقال يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا الآية أى عقابنا وحسابنا كما قال مخبرا عنهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون ان يأتيهم بعذاب الله قال الله تعالى وقد خلت من قبلهم المثلات أى قد أوقعنا نقمنا بالامم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم أى انه تعالى ذو صفح وستر للناس مع انهم يظلمون ويخطؤن بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بانه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين وقال ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم وقال نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم

وان عذابي هو العذاب الاليم الى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الرمادي أنه رأى رب العزة في النوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته فقال له ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم قال ثم انتبهت (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد) يقول تعالى اخبارا عن المشركين انهم يقولون كفرا وعنادا لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الاولون كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهارا قال تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون الآية انما أنت منذر أي انما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك الله وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وقوله ولكل قوم هاد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي لكل قوم داع وقال العوفي عن ابن عباس في الآية يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك وغير واحد وعن مجاهد ولكل قوم هاد أي نبي كقوله وان من امة الا خلا فيها نذير وبه قال قتادة وعبد الرحمن ابن زيد وقال أبو صالح ويحيى بن رافع ولكل قوم هاد أي قائد وقال أبو العالية الهادي القائد والقائد الامام والامام العمل وعن عكرمة وأبي الضحى ولكل قوم هاد قال هو محمد صلى الله عليه وسلم وقال مالك ولكل قوم هاد من يدعوهم الى الله عز وجل وقال أبو جعفر بن جرير حدثني أحمد بن يحيى الصوفي حدثنا الحسن بن الحسين الانصاري حدثنا معاذ بن مسلم حدثنا الهروي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت انما أنت منذر ولكل قوم هاد قال وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال أنا المنذر ولكل قوم هاد وأومأ بيده على منكب علي فقال أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي وهذا الحديث فيه نكارة شديدة وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا عثمان بن أبي شيبة

سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال (فاياي فارهبون) أي ان كنتم راهبين شيأ فاياي فارهبون لا غيري فالتركيب أفاد الحصر وقيل التقدير اياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية ارهبوا اياي فارهبون قال الشيخ وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في أول البقرة ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وأنه الذي يجب ان يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال (وله ما في السموات والارض) ملكا وخلقا وعبيدا والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الارض الخ وتقديم الخبر لافادة الاختصاص والتفت فيه من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله انما هو اله واحد أو على الخبر أو مستأنف (وله الدين واصبا) أي ثابتا واجبا دائما لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص قال الفراء واصبا معناه دائما وروى عنه أيضا الواصب الخالص والاول أولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب واصب أي دائم وقال الزجاج أي طاعته واجبة أبدا ففسر الواصب بالواجب وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب أي ليس أحد يطاع الا انقطع ذلك بزوال أو بهلكة غير الله تعالى فان الطاعة تدوم له ففسر الواصب بالدائم واذا دام الشيء دواما لا ينقطع فقد وجب وثبت يقال وصب الشيء يصب وصوبا فهو واصب اذا دام ووصب الرجل على الامر اذا واظب عليه وقيل الوصب التعب والاعياء أي يجب طاعة الله سبحانه وان تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية قال مجاهد الدين الاخلاص وواصبا دائما وقال أبو صالح يعني لا اله الا الله وعن ابن عباس دائما واجبا وفي البيضاوي واصبا لازما وقال الشهاب الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام وفي القاموس وصب يصب دام وثبت كأوصب وعلى الامر واظب وأحسن القيام عليه وفي المصباح وصب الشيء وصوبا دام ووصب الدين وجب والاستفهام في قوله (أفغير الله تتقون) للتقريع والتوبيخ أو للتعجب والانكار والفاء للتعقيب والمعنى اذا كان الدين أي الطاعة واجبا له دائما لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم ايقاعها لغيره فكيف يعقل ان يكون للانسان رغبة او رهبة في غير الله ثم امتن سبحانه عليهم بان جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال (وما بكم من نعمة فمن الله) أي ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فهي

حدثنا المطلب بن زياد عن السدي عن عبد خير عن علي ولكل قوم هاد قال الهادي رجل من بني هاشم قال الجنيد هو علي بن أبي
طالب رضي الله عنه قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عباس في احدى الروايات وعن أبي جعفر محمد بن علي نحو ذلك وأورد ابن جرير
الحديث الذي فيه أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي وفيه نكارة شديدة (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض
الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء وانه
محيط بما تحمله الحوامل من كل اناث الحيوانات كقوله ويعلم ما في الأرحام (٢٤١) أي ما حملت من ذكر أو أنثى أو حسن أو قبيح

منه سبحانه والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لاجل العمل به واما
دنيوية نفسانية أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها وكل واحدة من هذه
جنس تحته أنواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل ان لا يشكر الا اياه وما
موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول والفاء زائدة أو شرطية
واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وأبو البقاء ثم بين تلون الانسان بعد استغراقه في بحر النعم
فقال (ثم اذا مسكم الضر) أي الشدة والأمراض والاسقام أو أي ضر كان والضر
المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان (فاليه) سبحانه لا الى غيره
(تجأرون) تتضرعون وتستغيثون وتضجون في كشفه فلا كاشف له الا هو يقال جأر
يجأر جؤارا اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع قال مجاهد تتضرعون بالدعاء وقال السدي
تضجون بالدعاء وفي القاموس جأر جأرا وجؤارا بوزن غراب رفع صوته بالدعاء وتضرع
واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبات طال والارض طال نبتها (ثم اذا كشف الضر
عنكم) أي اذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر (اذا فريق) أي جماعة (منكم
بربهم) الذي رفع الضر عنهم (يشركون) فيجعلون معه الها آخر من صنم أو نحوه
اذا الاولى شرطية والثانية فجائية جوابها وفي الآية دليل على ان اذا الشرطية لا تكون
معمولة لجوابها لان ما بعد اذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها والآية مسوقة للتعجيب من
فعل هؤلاء حيث يضعون الاشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر
مكان الشكر له وهذا المعنى قد تقدم في الانعام ويونس ويأتي ان شاء الله تعالى في سبحان
قال الزجاج هذا خاص بمن كفر وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر وعلى هذا فيكون
من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعا والفريق هم الكفرة وان كان
الخطاب موجها الى الكفار فمن للبيان وبه قال الزمخشري كأنه قيل اذا فريق كافر وهم
أنتم قاله السمين واللام في (ليكفروا) لام كي أي لكي يكفروا يعني اشراكهم سبب
كفرهم وقيل انها لام الصيرورة أي صار أمرهم الى ذلك وقيل انها لام الامر واليه نحا
الزمخشري وقيل انها لام العاقبة أي فعاقبة اشراكهم بالله غيره كفرهم (بما آتيناهم)
من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر
الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها

أو شقي أو سعيد أو طويل العمر
أو قصيره كقوله تعالى هو أعلم بكم اذ
أنشأكم من الارض واذ أنتم أجنة
الآية وقال تعالى يخلقكم في
بطون أمهاتكم خلقا من بعد
خلق في ظلمات ثلاث أي خلقكم
طورا من بعد طور كما قال تعالى
ولقد خلقنا الانسان من سلالة
من طين ثم جعلناه نطفة في قرار
مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا
العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما
فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه
خلقا آخر فتبارك الله أحسن
الخالقين وفي الصحيحين عن ابن
مسعود قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان خلق أحدكم
يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم
يكون علقة مثل ذلك ثم يكون
مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا
فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه
وعمره وعمله وشقي أو سعيد وفي
الحديث الآخر يقول الملك أي
رب أذكر أم أنثى أي رب أشقي أم
سعيد فما الرزق فما الاجل فيقول
الله ويكتب الملك وقوله وما تغيض
الارحام وما تزداد قال البخاري
حدثنا ابراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله لا يعلم ما في غد الا الله ولا يعلم ما تغيض الارحام
الا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد الا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله وقال العوفي عن ابن
عباس وما تغيض الارحام يعني السقط وما تزداد يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما وذلك ان من النساء
من تحمل عشرة أشهر ومن تحمل تسعة أشهر ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى

وكل ذلك بعلمه تعالى وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله وما تغيض الارحام وما تزداد قال ما نقصت من تسعة وما زاد عليها وقال
الضحاك وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين وولدتني وقد نبتت ثنيتي وقال ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت
لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل وقال مجاهد وما تغيض الارحام وما تزداد قال ما ترى من الدم في حملها وما
تزداد على تسعة أشهر وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاك وقال مجاهد أيضا اذا رأت المرأة الدم دون التسعة
زاد على التسعة مثل أيام الحيض وقال عكرمة (٢٤٢) وسعيد بن جبير وابن زيد وقال مجاهد أيضا وما تغيض الارحام اراقة
الدم حتى يحسن الولد وما تزداد
ان لم تهرق الدم تم الولد وعظم وقال
مكحول الجنين في بطن أمه لا يطلب
ولا يحزن ولا يغتم وانما يأتيه رزقه
في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم
لا تحيض الحامل فاذا وقع الى
الارض استهل واستهلاله
استنكاره لمكانه فاذا قطعت سرته
حول الله رزقه الى ثدي أمه حتى
لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم ثم يصير
طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله فاذا
هو بلغ قال هو الموت أو القتل أنى لي
بالرزق فيقول مكحول يا ويحك غذاك
وأنت في بطن أمك وأنت طفل
صغير حتى اذا اشتددت وعقلت
قلت هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق
ثم قرأ مكحول الله يعلم ما تحمل كل
أنثى الآية وقال قتادة وكل شيء
عنده بمقدار أي بأجل حفظ ارزاق
خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلا
معلوما وفي الحديث الصحيح ان
احدى بنات النبي صلى الله عليه
وسلم بعثت اليه أن ابنا لها في الموت
وانها تحب ان تحضره فبعث اليها
يقول ان لله ما أخذ وله ما أعطى
وكل شيء عنده بأجل مسمى فروها
فلتصبر ولتحتسب الحديث بتمامه وقوله عالم الغيب والشهادة أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم من
ولا يخفى عليه منه شيء الكبير الذي هو أكبر من كل شيء المتعال أي على كل شيء قد أحاط بكل شيء علما وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب
ودان له العباد طوعا وكرها (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين
يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من
دونه من وال) يخبر تعالى عن احاطة علمه بجميع خلقه وسواء منهم من أسر قوله أو جهر به فانه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله وان

غاية ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة الى الخطاب (فتمتعوا)
بما أنتم فيه من ذلك (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار
وما تصيرون اليه في الدار الآخرة قال الحسن هذا وعيد ثم حكى سبحانه نوعا آخر من قبائح
أعمالهم فقال (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أي يقع منهم هذا الجعل بعد
ما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما تعقب كشفه عنهم من الكفر
منهم بالله والاشراك به ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين
نصيبا من أموالهم يتقربون به اليه وقيل المعنى انهم أي الكفار يجعلون للاصنام وهم
لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات وأجراها مجرى العقلاء جريا على اعتقاد الكفار فيها
وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للاصنام التي لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التي
رزقهم الله اياها قال مجاهد يعلمون ان الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما
لا يعلمون انه يضرهم وينفعهم نصيبا مما رزقناهم وقال قتادة هم مشركو العرب جعلوا
لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزؤا من أموالهم جزأ فجعلوه لهم وعن السدي قال
هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (تالله لتسئلن) أقسم بنفسه على نفسه انه
يسألهم يوم القيامة وهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب وهو من بديع الكلام وبليغه
وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ (عما كنتم تفترون) أي تختلقونه من الكذب على الله
سبحانه في الدنيا (ويجعلون لله البنات) هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم وقد
كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله فنزه (سبحانه) نفسه عما نسبه اليه هؤلاء
الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة قال ابن عباس يقول تجعلون لي
البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن لانفسكم وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا ولد للرجل
منهم جارية أمسكها على هون أو دسها في التراب وهي حية ان هم الا كالانعام بل هم
أضل وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم (ولهم ما يشتهون) أي ويجعلون لانفسهم
ما يشتهونه من البنين والجملة مستأنفة أو في محل النصب على الحال من الواو في يجعلون
هذا ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال (واذا بشر أحدهم
بالانثى) أي اذا أخبر أحدهم بولادة بنت له (ظل) صار (وجهه مسودا) أي متغيرا وليس
المراد السواد الذي هو ضد البياض بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل

تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى وقال ويعلم ما تخفون وما تعلنون وقالت عائشة رضي الله عنها سبحان الذي وسع سمعه الاصوات والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جنب البيت وانه ليخفى علي بعض كلامها فأنزل الله قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير وقوله ومن هو مستخف بالليل أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل وسارب بالنهار أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه فان كلاهما في علم الله على السواء كقوله تعالى ألا حين يستغشون ثيابهم الآية وقوله تعالى وما تكون في شأن (٢٤٣) وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين وقوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الاعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الاعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيآت وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وآخر من قدامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان كما جاء في الصحيح يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون وفي الحديث الآخر ان معكم من لا يفارقكم الا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله والمعقبات من الله هي الملائكة وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه وقال مجاهد ما من عبد الا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شئ يأتيه يريده الا قال له الملك وراءك الا شئ اذن الله فيه فيصيبه وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله له معقبات من بين يديه

من الغم والحزن والغيظ والكراهة والعرب تقول لكل من لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا قاله الزجاج وقال الماوردي بل المراد سواد اللون حقيقة قال وهو قول الجمهور والاول أولى فان المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه الا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي (وهو كظيم) أي ممتلئ من الغم غيظا وحنقا يقال كظمت الغيظ كظاما وكظوما أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فأنا كظيم ومكظوم وكظم البعير كظوما لم يجتر قال الاخفش هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره وقيل انه المغموم الذي يطبق فاه من الغم مأخوذ من الكظامة وهو سد فم البئر قاله علي بن عيسى وقد تقدم في سورة يوسف (يتوارى) أي يتغيب ويختفي (من القوم من سوء ما بشر به) أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له تعلق هنا جاران بلفظ واحد لاختلاف معناهما فان الاولى للابتداء والثانية للعلة أي من أجل سوء وسوؤها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ومن حيث كونها لا تكتسب ومن حيث غير ذلك (أيمسكه على هون) قال اليزيدي الهون الهوان بلغة قريش وكذا حكى عن الكسائي وحكى عنه أيضا انه البلاء والمشقة وقال الفراء الهون القليل بلغة تميم وعن الاعمش انه قرأ أيمسكه على سوء (أم يدسه في التراب) أي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعله العرب والدس اخفاء الشئ في الشئ فلا يزال الذي بشر بحدوث الانثى مترددا بين هذين الامرين والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الانثى لرعاية اللفظ وقرأ الجحدري أم يدسها ويلزمه ان يقرأ أيمسكها وقيل دسها اخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لاخفائه عن الابصار (ألا ساء ما يحكمون) حيث أضافوا البنات التي يكرهونها الى الله سبحانه وأضافوا البنين المحبوبين عندهم الى أنفسهم ومثله قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى قال السدي بئسما حكموا يقول شئ لا يرضونه لانفسهم فكيف يرضونه لي (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق وقيل العذاب والنار (ولله المثل الاعلى) هي أضداد صفة المخلوقين من الغنى

ومن خلفه قال ذلك ملك من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس وقال العوفي عن ابن عباس له معقبات من بين يديه ومن خلفه يعني
ولي السلطان يكون عليه الحرس وقال عكرمة في تفسيرها هؤلاء الامراء المواكب من بين يديه ومن خلفه وقال الضحاك في
الآية هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك والظاهر والله أعلم ان مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس
الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم وقد روى الامام أبو جعفر بن جرير ههنا حديثا غريبا جدا فقال حدثني
المثنى حدثنا ابراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري بن عبد الرحمن حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن
عبد الحميد بن جعفر عن كنانة
العدوي قال دخل عثمان بن عفان
على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال يا رسول الله أخبرني عن
العبد كم ملك معه فقال ملك عن
يمينك على حسناتك وهو أمير على
الذي على الشمال فاذا عملت حسنة
كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال
الذي على الشمال للذي على اليمين
اكتبها قال لا لعله يتوب أو يستغفر
فيستأذنه ثلاث مرات فاذا قال ثلاثا
قال اكتب أراحنا الله منه فبئس
القرين ما أقل مراقبته لله واستحياءه
منا يقول الله ما يلفظ من قول
الا لديه رقيب عتيد وملكان من
بين يديك ومن خلفك يقول الله
تعالى له معقبات من بين يديه ومن
خلفه الآية وملك قابض على
ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك
واذا تجبرت على الله قصمك
وملكان على شفتيك ليس
يحفظان عليك الا الصلاة على
محمد صلى الله عليه وسلم وملك قائم
على فيك لا يدع أن تدخل الحية في
فيك وملكان على عينيك فهؤلاء
عشرة أملاك على كل بني آدم
ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لان ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل بني
آدم وابليس بالنهار وولده بالليل وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا اسود بن عامر حدثنا سفيان حدثني منصور عن سالم بن أبي الجعد
عن أبيه عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة
قالوا واياك يا رسول الله قال واياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني الا بخير انفرد باخراجه مسلم وقوله يحفظونه من أمر الله
قيل المراد حفظهم له من أمر الله رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وغيرهم

الكامل والجود الشامل والعلم الواسع أو التوحيد واخلاص العبادة أو أنه خالق رازق
قادر مجاز منزه عن الولد وقيل شهادة أن لا اله الا الله قاله قتادة وقيل الله نور السموات
والارض مثل نوره الآية وقيل ليس كمثله شيء قاله ابن عباس (وهو العزيز) الذي لا يغالب
فلا يضره نسبتهم اليه ما لا يليق به (الحكيم) في أقواله وأفعاله ثم لما حكى سبحانه عن
القوم عظم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال (ولو يؤاخذ الله
الناس بظلمهم) المراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة والباء السببية (ما ترك عليها)
أي على الارض وان لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس أو الدابة (من دابة) قط بل أهلكها
بالمرشؤم ظلم الظالمين فان الجميع مستقرون على الارض والمراد بالدابة الكافر وقيل
كل ما دب وقد قيل على هذا كيف يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له وأجيب بان اهلاك
الظالم انتقاما منه واهلاك غيره ان كان من أهل التكليف فلاجل توفير أجره وان كان
من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ومثل
هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وفي معنى هذه الآية أحاديث
منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
يقول اذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم وكذلك
حديث الجيش الذي يخسف بهم في البيداء وفي آخره انهم يبعثون على نياتهم وقد قدمنا
عند تفسير قوله سبحانه واتقوا فتنة الآية تحقيقا حقيقا بالمراجعة له قال سعيد بن جبير
ما ترك عليها من دابة ما سقاهم المطر وعن السدي نحوه أي يمسك المطر بسبب ظلمهم
وانقطاعه يوجب انقطاع النسل وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الابناء وذلك
يستلزم ان لا يبقى في العالم أحد من الناس وقال قتادة قد فعل ذلك في زمن نوح أهلك الله
ما على الارض من دابة الا ما حمل في سفينته وهذا ايذان بان ما أتوه من القبائح فقد تناهى
الى أمد لا غاية وراءه وعن ابن مسعود قال ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره ثم قال اي
والله زمن غرق قوم نوح وعنه قال كاد الجعل ان يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ هذه
الآية وعن أنس نحوه وعن أبي هريرة انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه قال
أبو هريرة بلى والله ان الحبارى لتموت هزالا في وكرها من ظلم الظالم (ولكن يؤخرهم الى
أجل مسمى) معلوم معين عنده تعالى وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل
عذابهم

وقال قتادة يحفظونه من أمر الله قال وفي بعض القراآت يحفظونه بأمر الله وقال كعب الاحبار لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن(٣) لرأى كل شيء من ذلك شيأ أنفسه لولا ان الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم اذا لتخطفتم وقال أبو أمامة ما من آدمي الا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له وقال أبو مجلز جاء رجل من مراد الى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال احترس فان ناسا من مراد يريدون قتلك فقال ان مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه ان الاجل جنة حصينة وقال بعضهم يحفظونه من أمر الله بأمر الله كما جاء في الحديث انهم قالوا يا رسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيأ فقال هي من قدر الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن ابراهيم أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل أن قل لقومك انه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها الى معصية الله الا حوّل الله عنهم ما يحبون الى ما يكرهون ثم قال ان تصديق ذلك في كتاب الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقد ورد هذا في حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه صفة العرش حدثنا الحسن ابن علي حدثنا الهيثم بن الاشعث السلمي حدثنا أبو حنيفة اليماني الانصاري عن عمير بن عبد الملك قال خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال كنت اذا أمسكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأني واذا سألته عن الخبر أنبأني وانه حدثني عن ربه عز وجل قال قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها الى ما أحببت من طاعتي الا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي الى ما يحبون من رحمتي وهذا غريب وفي اسناده من لا أعرفه (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) يخبر تعالى انه هو الذي يسخر البرق وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلال السحاب وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب الى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال البرق الماء وقوله خوفا وطمعا قال قتادة خوفا للمسافر يخاف أذاه ومشقته وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق

عذابهم وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الاعذار اليهم وارخاء العنان معهم ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم (فاذا جاء أجلهم) الذي سماه لهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) اي حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه والساعة المدة القليلة وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه ثم ذكر نوعا آخر من جهلهم وحمقهم فقال (ويجعلون لله ما يكرهون) اي ينسبون اليه سبحانه ما يكرهون نسبته الى أنفسهم من البنات والشريك في الرياسة واهانة الرسل وهو تكرير لما تقدم لقصد التأكيد والتقرير أو لزيادة التوبيخ والتقريع قال الضحاك أي يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائحهم فقال (وتصف ألسنتهم الكذب) والذي تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم (أن لهم) الخصلة أو العاقبة (الحسنى) قال الزجاج يصفون ان لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن أي الجنة كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقرئ الكذب بضمتين على انه صفة للألسن وهو جمع كذب فيكون المفعول على هذا ان لهم الحسنى قال مجاهد قول كفار قريش لنا البنون وله البنات وعن قتادة نحوه ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله (لا جرم) تركيب مزجي من لفظ لا ولفظ جرم ومعناه الفعل أي ثبت أو المصدر أي حقا (أن لهم) مكان ما جعلوه لانفسهم من الحسنى (النار) الموقدة والعذاب الدائم (وأنهم مفرطون) بفتح الراء تخفيفا أي مقدمون الى النار قال ابن الاعرابي وأبو عبيدة أي متروكون منسيون في النار وبه قال مجاهد وعن سعيد بن جبير نحوه وبه قال الكسائي والفراء فيكون مشتقا من أفرطت فلانا خلفي اذا خلفته ونسيته وقال قتادة والحسن معجلون اليها مقدمون في دخولها من أفرطته اي قدمته في طلب الماء والفارط هو الذي يتقدم الى الماء والفراط المتقدمون في طلبه والوراد المتأخرون ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم أنا فرطكم على الحوض اي متقدمكم وقرئ مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومعناه مسرفون في الذنوب والمعاصي يقال أفرط فلان على فلان اذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر وقرئ مفرطون بكسر الراء وتشديدها اي مضيعون أمر الله فهو من التفريط في الواجب ثم بين سبحانه ان مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الامم فقال مسليا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب

---

(٣) قوله لرأى كل شيء من ذلك الخ هكذا فيما بأيدينا من النسخ وفيه تحريف وسقط وحرر الرواية اهـ مصححه

جهالات القوم (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) رسلا (فزين لهم الشيطان أعمالهم) الخبيثة من الكفر فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب والمزين هو الله سبحانه والشيطان انما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم اليوم) لفظ اليوم المعرف بأل انما يستعمل حقيقة فى الزمان الحاضر المقارن لتكلم كالآن وحينئذ فلفظ اليوم فى الآية يحتمل أن يكون عبارة عن زمان الدنيا فيكون المعنى هو قرينهم فى الدنيا ويحتمل أن يكون عبارة عن يوم القيامة ومابعده فيكون للحال الآتية ويكون الولى بمعنى الناصر والمراد نفى الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لان الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الدار الآخرة واذا كان الناصر منحصرا فيه لزم أن لا نصرة من غيره ويحتمل ان يراد باليوم بعض زمان الدنيا وهو على وجهين الاول ان يراد البعض الذى قد مضى وهو الذى وقع فيه التزيين من الشيطان للامم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية الثانى ان يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير فى وليهم لكفار قريش اى فهو ولى هؤلاء اليوم اوعلى حذف مضاف اى فهو ولى أمثال أولئك الامم اليوم ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة وهو عذاب النار ثم ذكر سبحانه انه ما ذلك من هلك الا بعد اقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم فقال (وما أنزلنا عليك الكتاب) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء فى الامفرغ من أعم الاحوال اى ما أنزلنا عليك لحال من الاحوال ولا لعلة من العلل (الا لتبين لهم) اى للناس وانما جر هذا باللام لاختلاف فاعله مع فاعل الفعل فان المنزل هو الله والمبين هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وانما انتصب اللذان بعده لاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل لان الهادى والراحم هو الله كما انه المنزل (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد والشرك والجبر والقدر وأحوال البعث واثبات المعاد وسائر الاحكام الشرعية (وهدى) عطف على لتبين (ورحمة لقوم يؤمنون) بالله سبحانه ويصدقون ماجاءت به الرسل ونزلت به الكتب لانهم هم المنتفعون به ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرده بالالهية بذكر آياته العظام وبيناته الفخام فقال (والله أنزل من السماء) اى من السحاب أو من جهة العلو كما مر (ماء) اى نوعا من أنواع الماء (فأحيي به الارض

الله وينشئ السحاب الثقال أى ويخلقها منشأة جديدة وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة الى الارض قال مجاهد والسحاب الثقال الذى فيه الماء قال ويسبح الرعد بحمده كقوله وان من شئ الا يسبح بحمده وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا ابراهيم بن سعد أخبرنى أبى قال كنت جالسا الى جنب حميد بن عبد الرحمن فى المسجد فمر شيخ من بنى غفار فارسل اليه حميد فلما أقبل قال يا ابن أخى وسع الله فيما بينى وبينك فانه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه فقال له حميد ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤٦) فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بنى غفار انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك والمراد والله أعلم ان نطقها الرعد وضحكها البرق وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن ابراهيم قال يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكا ولا آنس منه منطقا فضحكه البرق ومنطقه الرعد وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا ان البرق ملك له أربعة وجوه وجه انسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد فاذا مصع بذنبه فذاك البرق وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ورواه الترمذى والبخارى فى كتاب الادب والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة عن أبى مطر ولم يسم به وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا اسرائيل عن أبيه عن رجل عن ابى هريرة رفعه انه كان اذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده وروى عن على رضى الله عنه انه كان اذا سمع صوت الرعد يقول سبحان من سبحت له وكذا روى عن ابن عباس وطاوس والاسود بن يزيد انهم كانوا يقولون كذلك وقال الاوزاعى كان ابن أبى زكريا يقول من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم يصبه صاعقة وعن عبد الله بن الزبير انه كان اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول ان هذا الوعيد شديد لاهل

الارض رواه مالك فى موطئه والبخارى فى كتاب الادب وقال الامام أحمد حدثنا سليمان بن داود الطيالسى حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن معمر بن نهار عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال ربكم عز وجل لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد وقال الطبرانى حدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا أبو كامل الجحدرى حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر حدثنا عبد الكريم حدثنا عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فانه لا يصيب ذاكرا (٢٤٧) وقوله تعالى ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء أى يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ولهذا تكثر فى آخر الزمان كما قال الامام أحمد حدثنا محمد ابن مصعب حدثنا عمارة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة فيقولون صعق فلان وفلان وفلان وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا اسحق حدثنا على ابن أبى يسار الشيبانى حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا مرة الى رجل من فراعنة العرب فقال اذهب فادعه لى قال فذهب اليه فقال يدعوك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له من رسول الله وما الله أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو قال فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يا رسول الله قد أخبرتك انه أغنى من ذلك قال لى كذا وكذا فقال لى ارجع اليه الثانية أراه فذهب فقال له مثلها فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد أخبرتك انه أغنى من ذلك فقال ارجع اليه فادعه فرجع اليه الثالثة قال فاعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه اذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فانزل الله عز وجل ويرسل الصواعق الآية ورواه ابن جرير من حديث على بن ابى يسار به ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدة بن عبد الله بن يزيد بن هرون عن ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس فذكر نحوه وقال حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا أبان بن يزيد حدثنا عمران الجونى عن ابى عبد الرحمن بن صحار العبدى انه بلغه ان النبى

(الارض بعد موتها) اى أحياها بالنبات والزرع بعد أن كانت يابسة لا حياة بها (ان فى ذلك) الانزال والاحياء (لآية) اى علامة دالة ودلالة واضحة على وحدانيته وعلى نعمه للخلق ومجازاتهم (لقوم يسمعون) كلام الله سماع تدبر وانصاف و يفهمون ما يتضمنه من العبر ويتفكرون فى خلق السموات والارض فالمراد سمع القلوب لا سمع الآذان لان من لم يسمع بقلبه فكأنه لم يسمع وكأنه أصم (وان لكم فى الانعام لعبرة) الانعام هى الابل والبقر والغنم ويدخل فى الغنم المعز والعبرة أصلها تمثيل الشئ بالشئ ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه فاعتبروا يا أولى الابصار والظاهر أن فى سببية اى بسبب الانعام وقال أبو بكر الوراق العبرة فى الانعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم والظاهر أن العبرة هى قوله (نسقيكم مما فى بطونه) فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة قرئ من سقى يسقى ومن أسقى يسقى قيل هما لغتان وقرئ بالتاء على ان الضمير راجع الى الانعام وبالتحتية على ارجاع الضمير الى الله سبحانه وهما ضعيفتان وجميع القراء على القراءتين الأوليين والفتح لغة قريش والضم لغة حمير وقيل ان بين سقى وأسقى فرقا فاذا كان الشراب من يد الساقى الى فم المسقى فيقال سقيته وان كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له قيل أسقاه ومن تبعيضية أو ابتدائية والضمير فى بطونه راجع الى الانعام قال سيبويه العرب تخبر عن الانعام بخبر الواحد وقال الزجاج لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث فيقال هو الانعام وهى الانعام جاز عود الضمير بالتذكير وقال الكسائى معناه مما فى بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور قال الفراء وهو صواب وقال المبرد هذا فاش فى القرآن كثير مثل قوله للشمس هذا ربى يعنى هذا الشئ الطالع وكذلك انى مرسلة اليهم بهدية ثم قال فلما جاء سليمان ولم يقل جاءت لان المعنى جاء الشئ الذى ذكرنا انتهى ومن ذلك قوله ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره وحكى الكسائى ان المعنى مما فى بطون بعضه وهى الاناث لان الذكور لا ألبان لها وبه قال أبو عبيدة وحكى عن الفراء انه قال النعم والانعام واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد فرجع الضمير الى لفظ النعم الذى هو بمعنى الانعام وهو كقول الزجاج ورجحه ابن العربى فقال انما رجع التذكير الى معنى الجمع والتأنيث الى معنى الجماعة فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة (من بين فرث ودم) الفرث الزبل الذى ينزل الى الكرش فاذا أخرج منه لم يسم فرثا بل يسمى

صلى الله عليه وسلم بعثه الى جبار يدعوه فقال أرأيتكم ربكم أذهب هو أم فضة هو أم لؤلؤ هو قال فبينما هو يجادلهم اذ بعث الله سحابة فرعدت فارسل عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه ونزلت هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال جاء يهودي فقال يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من نحاس هو أم من لؤلؤ أو ياقوت قال فجاءت صاعقة فاخذته وأنزل الله ويرسل الصواعق الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلا أنكر القرآن وكذب النبي صلى الله عليه وسلم فارسل الله صاعقة فاهلكته وأنزل الله ويرسل الصواعق الآية (٢٤٨) وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فسألاه ان يجعل لهما نصف الامر فأبى عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة يعني الانصار ثم انهما هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام فارسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته وأما عامر بن الطفيل فارسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية حتى ماتا لعنهما الله وأنزل الله في مثل ذلك ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه

أخشى على أربد الحتوف ولا * أرهب نوء السماك والاسد
فجعني الرعد والصواعق بالـ * ـفارس يوم الكريهة النجد

آخرها وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا مسعدة بن سعد العطار حدثنا ابراهيم بن المنذر الحزامي حدثني عبد العزيز بن عمران حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عن ابن عباس ان أربد بن قيس بن جزء بن جليد بن جعفر ابن كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهيا اليه وهو جالس فجلسا بين يديه فقال عامر بن الطفيل يا محمد ما تجعل لي ان أسلمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ما للمسلمين وعليك ما عليهم قال عامر بن الطفيل

روثا وهو ثفل الكرش يقال أفرثت الكرش اذا أخرجت ما فيها وفي البيضاوي الفرث الاشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش والمعنى ان الشيء الذي تأكله يكون منه ما في الكرش وهو الفرث ويكون منه الدم فيكون أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه (لبنا) فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش كما هو فسبحان من هذه بعض حكمته (خالصا) من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحد وذلك ان الحيوان اذا أكل العلف طبخه الكرش ثم انقسم الى أقسام ثلاثة ثفل وفوقه اللبن وفوقه الدم ثم تسلط الكبد عليها فترسل الدم الى العروق واللبن الى الضروع ويبقى الثفل في الكرش حتى ينزل الى الخارج والحاصل ان الله تعالى خلق اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم (سائغا للشاربين) اي لذيذا هنيأ لا يغص به من شربه يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا أي سهل مدخله في الحلق وفي ذلك عبرة لمن اعتبر (ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا) قال ابن جرير التقدير ومن ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون فحذف ما ودل على حذفه قوله منه وقيل التقدير وان لكم من ثمرات النخيل والاعناب لعبرة وقيل نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل وقيل نسقيكم من ثمرات النخيل قدره الزمخشري ويكون على هذا تتخذون منه سكرا بيانا للاسقاء وكشفا عن حقيقته وقيل تقديره ومن ثمرات النخل والاعناب ثمر تتخذون منه سكرا ويكون تكرير منه للتأكيد وانما ذكر الضمير في منه لانه يعود الى المذكور أو الى المضاف المحذوف وهو العصير كأنه قال من عصير ثمرات تتخذون منه والسكر بفتحتين ما يسكر من الخمر وقيل انه من أسماء الخمر وقيل انه في الاصل مصدر سمي به الخمر (ورزقا حسنا) هو جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل والدبس قال ابن عباس السكر ما حرم من ثمرتهما والرزق الحسن ما حل وعنه قال السكر الحرام والرزق زبيبه وخله وعنبه ومنافعه وأيضا قال السكر النبيذ والرزق الزبيب فنسختها آية انما الخمر والميسر وعنه قال فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لانه منه ثم قال ورزقا حسنا فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك فاقره الله وجعله حلالا للمسلمين وعن ابن عمر أنه سئل عن السكر فقال الخمر بعينها وعن ابن مسعود قال السكر الخمر وبالجملة فقد كان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر وبه جزم السيوطي اعتمادا على قولهم في السورة انها مكية الا ثلاث آيات من

أتجعل لي الأمر ان أسلمت من بعدك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل قال أنا الآن في أعنة خيل نجد اجعل لي الوبر ولك المدر قال رسول الله لا فلما قفا من عنده قال عامر أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنعك الله فلما خرج أربد وعامر قال أربد يا عامر أنا أشغل عنك محمدا بالحديث فاضربه بالسيف فان الناس اذا قتلت محمدا لم يزيدوا على ان يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب قال أربد افعل فأقبلا راجعين اليه فقال عامر يا محمد قم معي أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلسا الى الجدار ووقف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف فلم يستطع سل السيف فأبطأ أربد على عامر بالضرب فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كانا بالحرة حرة واقم نزلا فخرج اليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا اشخصا يا عدوا الله لعنكما الله فقال عامر من هذا يا سعد قال هذا أسيد بن حضير العاتب فخرجا حتى اذا كانا بالرقم أرسل الله على اربد صاعقة فقتلته وخرج عامر حتى اذا كان بالجريم أرسل الله قرحة فأخذته فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول فجعل يمس قرحته في حلقه ويقول غدة كغدة الجمل في بيت سلولية يرغب أن يموت في بيتها ثم ركب فرسه فاحضره حتى مات عليه راجعا فأنزل الله فيهما الله يعلم ما تحمل كل أنثى الى قوله وما لهم من دونه من وال المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا صلى الله عليه وسلم ثم ذكر أربد وما قتله به فقال ويرسل الصواعق الآية وقوله وهم يجادلون في الله أي يشكون في عظمته وانه لا اله الا هو وهو شديد المحال قال ابن جرير شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره وهذه الآية شبيهة بقوله ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين وعن علي رضي الله عنه وهو شديد المحال أي شديد الأخذ وقال مجاهد شديد القوة (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه له دعوة

آخرها والمائدة مدنية وتحريم الخمر فيها وهي آخر القرآن نزولا كما ثبت في الحديث وقيل ان السكر الخل بلغة الحبشة والرزق الطعام من الشجرتين وقيل السكر العصير الحلو الحلال وسمي سكرا لأنه قد يصير مسكرا اذا بقي فاذا بلغ الاسكار حرم والقول الأول أولى وعليه الجمهور وقد صرح أهل اللغة بان السكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك الا أبو عبيدة فانه قال السكر الطعم ورجح هذا ابن جرير فقال ان السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل انما أشكو بثي وحزني الى الله قال الزجاج قول أبي عبيدة هذا لا يعرف وأهل التفسير على خلافه وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ قالوا وانما يمتن الله على عباده بما أحل لا بما حرمه عليهم وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر (ان في ذلك) المذكور من اخراج اللبن واتخاذ السكر والرزق من الثمرات (لآية لقوم يعقلون) أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية (وأوحى ربك الى النحل) قد تقدم الكلام في الوحي وانه يكون بمعنى الالهام وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ومنه قوله سبحانه ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ومن ذلك الهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطف حكمته وقدرته وقرئ النحل بفتح الحاء قال الزجاج وسمي نحلا لأن الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه قال الجوهري والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والأنثى وقيل اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ويذكر ويؤنث والنحل بالضم مصدر قولك نحلته من العطية أنحله نحلا والنحلى العطية على فعلى (أن اتخذي من الجبال بيوتا) أي بان اتخذي على أن أن هي المصدرية ويجوز أن تكون تفسيرية لان في الايحاء معنى القول وبهذا قال الزمخشري وغيره ومن منع وهو أبو عبد الله الرازي قال لا نسلم انها مفسرة كيف وقد انتفى شرط التفسير بأن المراد من الايحاء هو الالهام اتفاقا وليس فيه معنى القول وحينئذ فهي مصدرية كأنه قيل أوحى ربك باتخاذ بعض الجبال بيوتا ورده في المغني بان الالهام فيه معنى القول من حيث الدلالة على المعنى وأنث الضمير في اتخذي لكونه أحد الجائزين كما تقدم أو للحمل على المعنى أو لكون النحل

الحق قال التوحيد رواه ابن جرير وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر له دعوة الحق لا اله الا الله والذين يدعون من دونه الآية أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه قال علي بن أبي طالب كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا بيده فكيف يبلغ فاه وقال مجاهد كباسط كفيه يدعو الماء بلسانه ويشير اليه فلا يأتيه أبدا وقيل المراد كقابض يده على الماء فانه لا يحكم منه على شئ كما قال الشاعر

فاني واياكم وشوقا اليكم ، كقابض ماء لم تسقه أنامله (٢٥٠) وقال الآخر فاصبحت مما كان بيني وبينها ، من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى الكلام ان هذا الذي يبسط يده الى الماء اما قابضا واما متناولا له من بعد كما انه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل الى فيه الذي جعله محلا للشرب فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله الها غيره لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال وما دعاء الكافرين الا في ضلال (ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شئ ودان له كل شئ ولهذا يسجد له كل شئ طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين وظلالهم بالغدو أي البكر والآصال وهو جمع أصيل وهو آخر النهار كقوله تعالى اولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله الآية (قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار)

جمعا وأهل الحجاز يؤنثون النحل والمعنى سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر في نفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبني بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة ولما حصل المقصود فألهمها الله تعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية وألهمها أيضا ان يجعلوا عليهم أميرا كبيرا نافذا الحكم فيهم وهم يطيعونه ويمتثلون أمره ويكون هذا الامير أكبرهم جثة وأعظمهم خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكهم كذا حكاه الجوهري وألهمها أيضا ان جعلوا على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها وألهمها أيضا انها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي ومن في من الجبال (و) كذا في (من الشجر و) كذا في (مما يعرشون) للتبعيض أي مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الاجباح (١) والحيطان وغيرها وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الخشب يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها وهما سبعيتان وبابه نصر وضرب كما في المختار والظاهر أن من في مما بمعنى في اذ لا معنى لكونها تبني من بناء الناس بل الظاهر انها تبني في بنائهم ويكون المراد من بنائهم الكوارة ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل فان من المشاهد انها تبني لها بداخل الخلية من الشمع ثم تمج فيه العسل شيأ فشيأ والظاهر أن من في الموضعين الاولين بمعنى في أيضا كما صرح به الشهاب ويكون المراد ببيوتها ما تبنيه من الشمع كما تقدم فالشمع تارة تبنيه في الجبال وتارة في الاشجار وهذا في النحل الوحشي وتارة تبنيه في الخلايا وهذا في النحل الاهلي فان النحل قسمان كما ذكره الخازن (ثم كلي من كل الثمرات) من للتبعيض لانها تأكل النور من الاشجار فاذا أكلتها (فاسلكي) أي فادخلي (سبل ربك) أي الطرق التي فهمك الله وعلمك وأضافها الى الرب لانه خالقها وملهم النحل ان تسلكها أي ادخليها لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك أي في مسالكه التي يستحيل فيها بقدرته النور المر عسلا من أجوافك أو اذا أكلت الثمار في الامكنة البعيدة فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك لا

يقرر تعالى انه لا اله الا هو بانهم معترفون بانه هو الذي خلق السموات والارض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لانفسها ولا لعابديها بطريق الاولى نفعا ولا ضرا أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ولهذا قال قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم أي اجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون انها مخلوقة من مخلوق غيره

(١) الجبح ويثلث خلية العسل الجمع أجبح وأجباح اه قاموس

أى ليس الامر كذلك فانه لا يشابهه شئ ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وانما عبدوا هؤلاء المشركون معه آلهتهم يعرفون انها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فانكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده الا باذنه ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له وكم من ملك فى السموات الآية وقال ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا فاذا كان الجميع عبيدا فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ثم قد أرسل رسله من أولهم الى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ولا يظلم ربك أحدا (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال) اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه فقال تعالى أنزل من السماء ماء أى مطرا فسالت أودية بقدرها أى أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير وسع بقدره وهو اشارة الى القلوب وتفاوتها فمنها ما يسع علما كثيرا ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها فاحتمل السيل زبدا رابيا أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الاودية زبد عال عليه هذا مثل وقوله ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع الآية هذا هو المثل الثانى وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أى يجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه كذلك يضرب الله الحق والباطل أى اذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام كما ان الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال فأما الزبد فيذهب جفاء أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شئ ولا يبقى الا الماء وذلك

لا تضلين فيها (ذللا) حال من السبل وهى جمع ذلول أى مذللة غير متوعرة واختار هذا الزجاج وابن جرير وقيل حال من النحل يعنى مطيعة للتسخير واخراج العسل من بطونها واختار هذا ابن قتيبة قال مجاهد طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته وعن قتادة قال مطيعة قال السدى ذليلة (يخرج من بطونها) مستأنفة عدل به عن خطاب النحل تعديد النعم وتعجيبا لكل سامع وتنبيها على العبر وارشادا الى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الضعيف الشبيه بالذباب (شراب) المراد به فى الآية هو العسل قاله ابن عباس (مختلف ألوانه) يعنى ان بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا وفى هذا دليل على قدرته وفى البيضاوى مختلف ألوانه بسبب اختلاف سن النحل أو الفصل قال الشهاب فالابيض لفتيها والاصفر لكهلها والاحمر لمسنها ولا يخفى انه مما لا دليل عليه انتهى وجمهور المفسرين على ان العسل يخرج من أفواه النحل ويسيل كاللعاب وقيل من أسفلها وقيل لا يدرى من أين يخرج منها (فيه) أى فى الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل والى هذا ذهب الجمهور (شفاء للناس) قال مجاهد العسل فيه الشفاء وفى القرآن وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف ان الضمير راجع الى القرآن ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين وعن ابن مسعود قال ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور وعنه مرفوعا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليكم بالشفاءين العسل والقرآن وقد وردت أحاديث فى كون العسل شفاء منها ما أخرجه البخارى من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال الشفاء فى ثلاثة فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتى عن الكى وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أخى استطلق بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه عسلا ثم جاء فقال سقيته عسلا فما زاده الا استطلاقا قال اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه ثم جاء فقال ما زاده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه فبرأ وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى

الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال كقوله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال بعض السلف كنت اذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لان الله تعالى يقول وما يعقلها الا العالمون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الآية هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فاما الشك فلا ينفع معه العمل وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله فأما الزبد وهو الشك فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض وهو اليقين وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك وقال العوفي عن ابن عباس قوله أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا يقول احتمل السيل ما في الوادي من عود ومما يوقدون عليه في النار فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة وأما ما ينفع الارض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيء يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد وكذلك الهدى والحق جاآ من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما يبقى ما ينفع الناس في الارض وكذلك الحديد لا يستطاع ان يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فاذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الاعمال فيرفع الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهو قوله مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله الآية ثم قال أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق الآية وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين أحدهما قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب الآية والسراب انما يكون في شدة الحر ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون فيقولون اي ربنا عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون فيردون النار فاذا هي كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى في المثل الآخر أو كظلمات في بحر لجي الآية وفي الصحيحين

والافعال

العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الامراض فقالت طائفة هو على العموم في كل حال ولكل أحد وقالت طائفة ان ذلك خاص ببعض الامراض ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل انسان وليس هذا باول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام ومما يدل على هذا ان العسل نكرة في سياق الاثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل الاصول وتنكيره ان أريد به التعظيم لا يدل الا على ان فيه شفاء عظيم المرض أو أمراض لا لكل مرض فان تنكير التعظيم لا يفيد العموم والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب انه اذا استعمل مفردا كان دواء لأمراض خاصة وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الامراض قلت وحديث البخاري ان أخي استطلق بطنه الحديث أوضح دليل على ما ذهبت اليه طائفة من تعميم الشفاء لان قوله صلى الله عليه وآله وسلم صدق الله أي انه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الامر بالسقيا وقد اعترض على هذا الحديث بعض الملحدين ومن في قلبه مرض بكونه خلاف ما أجمع عليه الاطباء من ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال وأجاب عنه الخازن على الطريق الجاري على صناعة الطب وأورده الشيخ سليمان الجمل ثم قال ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك انتهى وعن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيأ الا جعل عليه عسلا حتى الدمل اذا خرج طلى عليه العسل وعن أبي وجرة انه كان يكتحل بالعسل ويستنشق ويتداوى به ذكره القرطبي وفي الباب آثار عن جماعة من السلف وقال البيضاوي شفاء للناس اما بنفسه كما في الامراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الامراض اذ قلما يكون معجون الا والعسل جزء منه وقيل ان هذا القول خرج مخرج الاغلب وانه في الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء لكنه في الجملة دواء وان نفعه أكثر من مضرته ومنافعه كثيرة جدا قال السدي شفاء للاوجاع التي شفاؤها فيه وبالجملة فهو من أعظم الاغذية وأنفع الادوية وقليلا ما يجتمع هذان الامران في غيره (ان في ذلك) المذكور من أمر النحل (لآية لقوم يتفكرون) اي يعملون افكارهم عند النظر في صنيع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فان أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها ومن تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة

والافعال العجيبة حتى التدبر علم قطعا انه لابد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه ولما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة وخصائص القدرة القاهرة اتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر فقال (والله خلقكم) ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبابا واما كهولا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى أضعفه وأردئه وأخسه وهو الهرم يقال رذل يرذل رذالة والارذل والرذالة أردأ الشئ وأخسه وأحقره وأوضعه قال النيسابورى ان العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان فى أربع أولها سن النشو والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد وثانيها سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل وثالثها سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة تسرع الانسان الى النقص لكنه يكون النقص خفيا لا يظهر ورابعها سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف قال على أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقيل تسعون سنة قاله قتادة ومثل هذه الآية قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين وعن السدى قال هو الخرف وعن عكرمة قال من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر وعن طاوس العالم لا يخرف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح وغيره انه كان يتعوذ بالله ان يرد الى أرذل العمر ثم علل سبحانه رد من يرده الى أرذل العمر بقوله (لكيلا) اللام لام التعليل وكى حرف مصدر ونصب ولا نافية وقيل اللام هنا للصيرورة والعاقبة (يعلم بعد علم) كان قد حصل له (شيأ) منه لا كثيرا ولا قليلا أو شيأ من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم وقيل المراد بالعلم هنا العقل وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذى قد حصل له قبل ذلك وقيل لكى يصير كالصبى الذى لا عقل له وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد أن كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على اماتته واحيائه قادر على نقله من العلم الى الجهل وانه قادر على احيائه بعد اماتته فيكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت (ان الله عليم) بحكم التحويل الى الارذل من الاكمل أو الى الافناء من الاحياء (قدير) على تبديل ما يشاء من الاشياء وعلى ما يريد ثم لما بين سبحانه خلق الانسان وتقلبه فى أطوار العمر ذكر

عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به فهذا مثل المائى وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها وأخرجاه فى الصحيحين أيضا فهذا مثل نارى (للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) يخبر تعالى عن مآل السعداء والاشقياء فقال للذين استجابوا لربهم أى أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لاوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم الحسنى وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى مخبرا عن ذى القرنين انه قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقوله والذين لم يستجيبوا له أى لم يطيعوا الله لو أن لهم ما فى الارض جميعا أى فى الدار الآخرة لو أن يمكنهم ان يفتدوا من عذاب الله بملء الارض ذهبا ومثله معه لافتدوا به ولكن لا يتقبل منهم لانه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا أولئك لهم سوء الحساب أى فى الدار الآخرة أى يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عذب ولهذا قال ومأواهم جهنم وبئس المهاد (أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب) يقول تعالى لا يستوى من يعلم من الناس ان الذى أنزل اليك يا محمد من ربك هو الحق أى الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه بل كله حق

يصدق بعضه بعضا لا يضاد شيء منه شيأ آخر فاخباره كلها حق وأوامره ونواهيه عدل كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا
أي صدقا في الاخبار وعدلا في الطلب فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لا يهتدي الى خير لا يفهمه ولو
فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون وقال في
الآية الكريمة أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى أي أفهذا كهذا لا استواء وقوله انما يتذكر أولو الالباب أي
يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون
ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) يقول تعالى مخبرا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بان لهم عقبى الدار وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وليسوا كالمنافقين الذين اذا عاهد أحدهم غدر واذا خاصم فجر واذا حدث كذب واذا ائتمن خان والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الارحام والاحسان اليهم والى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ويخشون ربهم اى فيما يأتون وما يذرون من الاعمال يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم
القاصرة والمتعدية والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم اى عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل والاستفهام
ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه وأقاموا الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي
وأنفقوا مما رزقناهم أي على الذين يجب عليهم الانفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين سرا وعلانية
أي في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الاحوال آناء الليل وأطراف النهار ويدرؤن بالحسنة السيئة أي يدفعون القبيح
بالحسن فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا كقوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة

طرفا من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك أي فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفا مؤلفة من بني آدم وضيقه على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت الا بسؤال الناس والتكفف لهم وكثر لواحد وقلل على واحد وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والخلق والخلق والجهل وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الاحوال وعن ابن عباس في الآية قال لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني وعن مجاهد قال هذا مثل لآلهة الباطل مع الله وقيل معنى الآية ان الله سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله (فما الذين فضلوا) أي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم كالموالي والسادة (برادي رزقهم) الذي رزقهم الله اياه (على ما ملكت أيمانهم) من المماليك (فهم) أي المالكون والمماليك (فيه) أي في الرزق (سواء) أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فالفاء على هذا للدلالة على ان التساوي مترتب على التراد أي لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوي وانما يردون عليهم منه شيأ يسيرا وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الاصنام كما تقدم والمعنى اذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء والحال ان عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالاصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير ومثل هذه الآية قوله سبحانه ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم وفي هذه الجملة أوجه أحدها تقديره أفهم فيه سواء ومعناه النفي اى ليسوا مستوين فيه والثاني انها اخبار بالتساوي أي انما هو رزقي أجريته على أيديهم فهم فيه سواء قال أبو البقاء انها واقعة موقع فعل تقديره يستووا وقيل ان الفاء في فهم بمعنى حتى (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون ما يفعلون من الشرك والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه ولانه لو كان خطابا لكان ظاهره للمسلمين

كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ولهذا قال مخبرا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ثم فسر ذلك بقوله جنات عدن والعدن الاقامة أي جنات اقامة يخلدون فيها وعن عبد الله بن عمرو أنه قال ان في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله الا نبي أو صديق أو شهيد وقال الضحاك في قوله جنات عدن مدينة الجنة فيها الرسل والانبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها رواهما ابن جرير وقوله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والاهلين والابناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم حتى انه ترفع درجة الادنى الى درجة الاعلى امتنانا من الله واحسانا من غير تنقيص للاعلى كقوله تعالى والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم الآية وقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم اياها تدخل عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والانعام والاقامة في دار السلام في جوار الصديقين والانبياء والرسل الكرام وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثني سعيد بن أبي أيوب حدثنا معروف بن سويد الحراني عن أبي عشانة الغافري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله قالوا الله ورسوله أعلم قال اول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء ونسلم عليهم فيقول انهم كانوا عبادا يعبدونني لا يشركون بي شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ورواه ابو القاسم الطبراني عن احمد بن رشد عن أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب عن عمر بن الحرث عن أبي عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن

والاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر أي أيشركون به فيجحدون نعمته ويكون المعنى على قراءة الخطاب ان المالكين ليسوا برادي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي أرزقهم واياهم فلا تظنوا انهم يعطونهم شيئا وانما هو رزقي أجريه على أيديهم جميعا وهم في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى كأن يقال ألا تفهمون ذلك فتجحدون نعمة الله ثم ذكر سبحانه الحالة الاخرى من أحوال الانسان فقال (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) قال المفسرون يعني النساء فانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام قال قتادة خلق آدم ثم خلق زوجته منه أو المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجا لتستأنسوا بها لان الجنس يأنس الى جنسه ويستوحش من غير جنسه وبسبب هذه الانسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج ولم يذكر البنات لكراهيتهم لهن فلم يمتن عليهم الا بما يحبونه ولهذا قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد يقال حفد يحفد حفدا وحفودا اذا أسرع فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد ومنه اليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك قال أبو عبيد الحفد العمل والخدمة وهذا أصله في اللغة قال الخليل ابن أحمد الحفدة عند العرب الخدم والاعوان وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك وقال الازهري قيل الحفدة أولاد الاولاد وروى هذا عن ابن عباس والحفيد ولد الابن ذكرا كان أو انثى وولد البنت كذلك وتخصيصه بولد الذكر وتخصيص ولد الانثى بالسبط عرف طارئ على أصل اللغة وقيل الحفدة الاختان قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وقيل الحفدة الاصهار قال الاصمعي الختن من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما والاصهار منهما جميعا يقال أصهر فلان الى بني فلان فهو صاهر وقيل هم أولاد امرأة الرجل من غيره وقيل أولاد الرجل الذين يخدمونه وقيل البنات الخادمات لأبيهن وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ورجح كثير من العلماء انهم أولاد الاولاد لانه سبحانه امتن على عباده بان جعل لهم من الازواج بنين وحفدة فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين وان كان يجوز أن يكون المعنى جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم وبالحفدة من يخدم الاب منهم أو يراد بالحفدة البنات فقط ولا يفيد أنهم

النبي صلى الله عليه وسلم قال أول ثلاثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره واذا أمروا سمعوا وأطاعوا وان كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره وان الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب وتأتي الملائكة فيسجدون و يقولون ربنا نحن نسبح الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل عليهم الملائكة (٢٥٦) من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن المنذر سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول جلست الى أبي امامة فقال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا فيقول أقربهم للمؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه للذي يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث اسمعيل بن عياش عن ارطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الالهاني قال سمعت أبا امامة فذكر نحوه وقد جاء في الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) هذا حال الاشقياء بحال وصفاتهم وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم الى خلاف ما صار اليه المؤمنون كما انهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل وهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض كما ثبت في الحديث آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وفي رواية واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر ولهذا قال أولئك لهم اللعنة وهي الابعاد عن الرحمة ولهم سوء الدار وهو سوء العاقبة والمآل

أولاد الاولاد الاولاد الا اذا كان تقدير الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة (ورزقكم من الطيبات) التي تستطيبونها وتستلذونها من أنواع الاثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ومن للتبعيض لان الطيبات لا تكون مجتمعة الا في الجنة والمرزوق في الدنيا أنموذج منها ثم ختم سبحانه الآية بقوله (أفبالباطل يؤمنون) الاستفهام للانكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله فيؤمنون بالباطل وفي تقديم بالباطل على الفعل دلالة على انه ليس لهم ايمان الا به والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم انها تضر وتنفع وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما (وبنعمة الله) أي ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر (هم يكفرون) باضافتها الى غيره وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على ان كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد وعن ابن جريج الباطل هو الشيطان ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ويعبدون من دون الله) داخل تحت الانكار التوبيخي انكارا منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الاصنام وهي لا تنفع ولا تضر ولهذا قال (ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) المعنى ان هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا أي رزق كائنا منهما عن قتادة قال هذه الاوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقا من السموات والارض ولا خيرا ولا حياة ولا نشورا وفي شيأ ثلاثة أوجه أحدها انه منصوب على المصدر أي لا يملك لهم ملكا أي شيأ من الملك والثاني انه بدل من رزقا وهذا غير مفيد اذ ليس فيه بيان ولا تأكيد الثالث انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر وهو يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك وبه قال الفارسي ورد عليه ابن الطراوة بان الرزق اسم المرزوق كالرعي والطحن ورد عليه بان الرزق أيضا مصدر (ولا يستطيعون) الضمير راجع الى ما وجمع جمع العقلاء بناء على زعمهم الباطل والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم ان من لا يملك شيأ قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق فبين سبحانه انه لا يملك ولا يستطيع وقيل الضمير للكفار والمعنى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف ثم نهاهم سبحانه عن ان يشبهوه بخلقه فقال (فلا تضربوا لله الامثال) فانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد قاله قتادة فان ضارب المثل يشبه حالا

ومأواهم جهنم وبئس المهاد وقال أبو العالية في قوله الذين ينقضون عهد الله الآية قال هي ست خصال في المنافقين اذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به ان يوصل وأفسدوا في الارض واذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا ائتمنوا خانوا (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) يذكر تعالى انه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتره على من يشاء (٢٥٧) لما له في ذلك من الحكمة والعدل وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجا لهم وامهالا كما قال أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة الى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع كما قال قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا وقال بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن يحيى بن سعيد قالا حدثنا اسمعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخي بني فهر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع وأشار بالسبابة ورواه مسلم في صحيحه وفي الحديث الآخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدي أسك ميت والاسك الصغير الاذنين فقال والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) يخبر تعالى عن قيل المشركين لولا أي هلا أنزل عليه آية من ربه كقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة وان الله قادر على اجابة ما سألوا وفي الحديث ان الله أوحى الى رسوله لما سألوه ان يحول لهم الصفا ذهبا وان يجري لهم ينبوعا وان يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين ان شئت يا محمد أعطيتهم ذلك فان كفروا أعذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين وان شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال بل تفتح لهم

بحال وقصة بقصة قال الزجاج لا تجعلوا لله مثلا فانه واحد لا مثل له وكانوا يقولون ان اله العالم أجل من ان يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون الى الاصنام والكواكب كما ان اصاغر الناس يخدمون اكابر حضرة الملك وأولئك الاكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك وعلل النهي بقوله (ان الله) عليم (يعلم) ما عليكم من العبادة (وانتم لا تعلمون) ما في عبادتها من سوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سبحانه أو انه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الامثال فانه يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختل وعن ابن عباس قال يعني اتخاذهم الاصنام يقول لا تجعلوا معي الهاً غيري فانه لا اله غيري ثم علمهم كيفية ضرب الامثال في هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) أي ذكر شيأ يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبين ما جعلوه شريكا له من الاصنام والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له وهي المملوكية والعجز عن التصرف فقوله (عبدا) تفسير للمثل وبدل منه ووصفه بكونه (مملوكا) لان العبد والحر مشتركان في كون كل واحد منهما عبدا لله سبحانه ووصفه بكونه (لا يقدر على شيء) لان المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات فهذا الوصف لتمييزه عنهما واحتج الفقهاء بهذا على ان العبد لا يملك شيأ (ومن) أي الذي وقيل موصوفة واختاره الزمخشري كأنه قيل وحرا من الاحرار الذين يملكون الاموال ويتصرفون بها كيف شاؤا (رزقناه) ليطابق عبدا (منا) أي من جهتنا (رزقا حسنا) والمراد به انه مما يحسن في عيون الناس لكونه رزقا كثيرا مشتملا على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها (فهو ينفق منه) في وجوه الخير ويصرف منه الى أنواع البر والمعروف (سرا وجهرا) أي في حال السر وحال الجهر والمراد بيان عموم الانفاق للاوقات وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وان الثواب فيه أكثر (هل يستوون) أي الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة وجمع الضمير لمكان من لانه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث وقيل انه اريد بالعبد والموصول الذي هو عبارة عن الحر الجنس أي من اتصف بتلك الاوصاف من الجنسين والاستفهام للانكار أي هل يستوي العبيد والاحرار مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله

ناب التوبة والرحمة ولهذا قال لرسوله قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم الى سؤالهم فان الهداية والاضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه كما قال وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وقال ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم وقال ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ولهذا قال قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب (٢٥٨) أي ويهدي من أناب الى الله ورجع اليه واستعان به وتضرع لديه الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله أي تطيب وتركن الى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيرا ولهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب أي هو حقيق بذلك وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس فرح وقرة عين وقال عكرمة نعم ما لهم وقال الضحاك غبطة لهم وقال ابراهيم النخعي خير لهم وقال قتادة هي كلمة عربية يقول الرجل طوبى لك أي أصبت خيرا وقال في رواية طوبى لهم حسنى لهم وحسن مآب أي مرجع وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس طوبى لهم قال هي أرض الحبشة وقال سعيد ابن مسجوع طوبى اسم الجنة بالهندية وكذا روى السدي عن عكرمة طوبى لهم هي الجنة وبه قال مجاهد وقال العوفي عن ابن عباس لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب وذلك حين أعجبته وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن شهر بن حوشب قال طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة هكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سلمان وأبي اسحق السبيعي وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد فامتدت الى حيث يشاء الله تبارك وتعالى وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن وقد قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة

الكامل

سبحانه من جملة البشر ومن المعلوم انهم لا يستوون فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه وحاصل المعنى انه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر وقيل المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته والآخر هو المؤمن وقال ابن عباس بمعناه بأطول من هذا والغرض انهما لا يستويان في الرتبة والشرف وقال عطاء هما أبو جهل بن هشام وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقيل العبد هو الصنم والثاني عابد الصنم والمراد انهما لا يستويان في القدرة والتصرف لان الأول جماد والثاني انسان (الحمد) كله (لله) وحده حمد نفسه لانه المنعم المستحق لجميع المحامد لا يستحق غيره من العباد شيأ منه فكيف تستحق الأصنام منه شيأ ولا نعمة منها أصلا لا بالأصالة ولا بالتوسط وقيل أراد الحمد لله على ما أنعم به على أوليائه من نعمة التوحيد وقيل أراد قل الحمد لله والخطاب اما لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أو لمن رزقه الله رزقا حسنا وقيل انه لما ذكر مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال الحمد لله أي على قوة هذه الحجة (بل أكثرهم لا يعلمون) ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة ونفي العلم عنهم اما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم أو هم يتركون الحق عنادا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له وخص الأكثر بنفي العلم اما لكونه يريد الخلق جميعا وأكثرهم المشركون أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل أو المراد أكثر المشركين لان فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم ثم ذكر سبحانه مثلا ثانيا ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال (وضرب الله مثلا) آخر أوضح مما قبله وأظهر منه (رجلين) بدل من مثل وتفسير له (أحدهما أبكم) أي العي المفحم وقيل هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام وقيل هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم وروى ثعلب عن ابن الأعرابي انه الذي لا يسمع ولا يبصر ثم وصف الأبكم فقال (لا يقدر على شيء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق وهو اشارة الى العجز التام والنقصان

ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح ان أبا القاسم حدثه عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا قال يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني قال له رجل وما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وروى البخاري ومسلم جميعا عن اسحق بن راهويه عن مغيرة المخزومي عن وهيب عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة (٢٥٩) يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها قال فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي فقال حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها وفي صحيح البخاري من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى وظل ممدود قال في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وقال الامام أحمد حدثنا شريح حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود أخرجاه في الصحيحين وفي لفظ لاحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا حدثنا شعبة سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد وقال محمد بن اسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سدرة المنتهى فقال يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة أو قال يستظل في الفنن منها مائة راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال رواه الترمذي وقال اسمعيل بن عياش عن سعد بن يوسف عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام الاسود قال سمعت أبا امامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم أحد يدخل الجنة الا انطلق به الى طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء ان شاء أبيض وان شاء أحمر وان شاء أصفر وان شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى

الكامل (وهو كل) أي ثقيل (على مولاه) أي على وليه وقرابته وعياله على من يلي أمره ويعوله ووبال على اخوانه وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله وفي هذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ مطلقا ثم وصفه بصفة رابعة فقال (أينما يوجهه) أي يرسله ويصرفه في طلب الحاجة أو كفاية المهم (لا يأت بخير) قط لانه عاجز أخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه ان يقول (هل يستوى هو) في نفسه مع هذه الاوصاف التي اتصف بها (ومن يأمر) الناس (بالعدل) مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الاشياء وهو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ورشد وديانة (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) أي على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل الى أحد جانبي الافراط والتفريط وانما قابل الاوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لأن حاصل أوصاف الاول عدم استحقاقه لشئ وحاصل وصفي هذا انه مستحق أكمل استحقاق والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين الامرين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له قال ابن عباس يعني بالأبكم الكافر وبالآمر بالعدل المؤمن وهذا المثل في الاعمال وعلى هذا تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر وقيل هي على الخصوص والذي يأمر بالعدل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأبكم هو أبو جهل وقيل الابكم أبي بن خلف والآمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون وقال ابن عباس هذه الآية نزلت في عثمان ابن عفان ومولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الاسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤنة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله (ولله غيب السموات والارض) أي يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما أو أراد بغيبهما يوم القيامة لان علمه غائب عن العباد ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما والمراد التوبيخ للمشركين والتقريع لهم أي ان العبادة انما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلا عاجزا لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشئ من أنواع العلم (وما أمر الساعة) التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه وهو اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين أو المعنى ما أمر قيام

حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال طوبى شجرة في الجنة يقول الله لها تفتقي لعبدي كما شاء فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها وعن الابل بأزمتها وعما شاء من الكسوة وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثرا غريبا عجيبا قال وهب رحمه الله ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها زهرها رياض وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها ياقوت وترابها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل وهي مجلس لأهل الجنة فبينما هم (٢٦٠) في مجلسهم اذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ووبرها كخز المرعزى من لينه عليها رحال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس واستبرق فينيخونها يقولون ان ربنا أرسلنا اليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال فيركبونها فهي أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجبا من غير مهنة يسير الرجل الى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا يصيب اذن راحلة منها اذن الأخرى (١) ولا برك راحلة برك الأخرى حتى ان الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه قال فيأتون الى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا اليه فاذا رأوه قالوا اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والاكرام قال فيقول تعالى أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي مرحبا بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري قال فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا في السجود قدامك قال فيقول الله انها ليست بدار نصب ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم واني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم فان لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه حتى ان أقصرهم أمنية ليقول ربي تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها الى ان انتهت الدنيا فيقول الله تعالى لقد قصرت بك أمنيتك ولقد سألت دون منزلتك هذا لك مني لانه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد قال ثم يقول اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال قال فيعرضون عليهم

الساعة في سرعته وسهولته (الا كلمح البصر) أي كرجع طرف من أعلى الحدقة الى أسفلها وانما ضرب به المثل لانه لا يعرف زمان أقل منه واللمح النظر بسرعة ولا بد فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة ولذا قال (أو هو) أي بل أمرها (أقرب) منه بان يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدأ فيه فان الله تعالى يحيي الخلق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن أي جزء غير منقسم وليس هذا من قبيل المبالغة بل هو كلام في غاية الصدق لأن مدة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ومنها الى الأبد غير متناه ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي أو يقال ان الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت في القرب كلمح البصر وقال الزجاج لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر وانما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها لانه يقول للشيء كن فيكون وقيل المعنى هي عند الله كذلك وان لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة ومثله قوله سبحانه انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولفظ أو ليس للشك بل للتمثيل أو للتخيير وقيل دخلت لشك المخاطب وقيل هي بمنزلة بل (ان الله على كل شيء قدير) ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته ثم انه سبحانه ذكر حالة اخرى للانسان دالة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ) معطوف على قوله والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء ولا تعلمون شيأ مما أخذ عليكم من الميثاق وقيل مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة وقيل شيأ من منافعكم والاولى التعميم لتشمل الآية هذه الامور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ فان شيأ نكرة واقعة في سياق النفي (وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة) أي ركب فيكم هذه الاشياء وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الاخراج لما ان مدلول الواو هو مطلق الجمع والمعنى جعل لكم هذه الاشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوبا عنكم عند اخراجكم من بطون امهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه ونكتة تأخيره ان السمع ونحوه من آلات الادراك انما يعتد به اذا أحس وأدرك وذلك بعد الاخراج وقدم السمع على البصر لانه طريق تلقي الوحي أو لان ادراكه أقدم من ادراك البصر والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر وقد قدمنا الوجه في افراد السمع وجمع الابصار والافئدة وهو أن افراد

السمع

---

(١) قوله ولا برك راحلة برك الأخرى هكذا بالأصل وليحرر الحديث اه

السمع لكونه مصدرا في الأصل يتناول القليل والكثير (لعلكم تشكرون) أي لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على كمال قدرته فقال (ألم يروا إلى الطير مسخرات) أي ألم ينظروا إليها حال كونها مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك كرقة قوام الهواء وإلهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء (في جو السماء) أي في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو وإضافته إلى السماء لكونه في جانبها قال كعب إن الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (ما يمسكهن) في قبضهن وبسطهن ووقوفهن في الجو (إلا الله) سبحانه بقدرته الباهرة فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها (إن في ذلك) التسخير على تلك الصفة (لآيات) ظاهرة تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة (لقوم يؤمنون) بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها (والله جعل) أي صير أو خلق (لكم من بيوتكم) التي هي من الحجر والمدر وغيرهما ومن ابتدائية (سكنا) مصدر يوصف به الواحد والجمع وإليه ذهب ابن عطية ومنعه الشيخ ولم يذكر وجه المنع وهو بمعنى مسكون أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة وهذا من جملة تعديد الله نعمه على الإنسان فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطربا دائما كالأفلاك ولو شاء لخلقه ساكنا أبدا كالأرض (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) لما ذكر سبحانه بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة وهي الأنطاع والأدم جعلها بيوتا كالخيام والقباب والأخبية والفساطيط قال مجاهد وهي خيام العرب وقيل ذلك في بعض الناس كالسودان فإنهم يتخذون خيامهم من الجلود ويجوز أن يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها (تستخفونها) أي يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها ولهذا قال (يوم ظعنكم) أي في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم والظعن بفتح العين وسكونها وهما لغتان قرئ بهما كالنهر والنهر وهو سير أهل البادية للانتجاع والتحول من موضع إلى موضع والظعن الهودج أيضا قال ابن عباس بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة (ويوم

حتى تقصر أمانيهم التي في أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح طيبت إلا قد عبقت (٢) يتعرض وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يرى أن له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما (٢٦١) فيحيانه ويقبلانه ويتعلقان به ويقولان له والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق ومنابرها من نور يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها فلولا أنه مسخر إذا لالتمع الأبصار فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالسندس الأخضر وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأحمر (٣) منزه بالزمرذ الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء قوائمها وأركانها من الجوهر وشرفها قباب من لؤلؤ وبروجها غرف من المرجان فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت سرجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ببطن رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان وفيهما من كل فاكهة زوجان وحور مقصورات في الخيام

---

(٢) قوله يتعرض وجوههما غلظ القبة الخ كذا في النسخ وحرره اهـ (٣) وقوله منزه بالزمرذ هكذا في النسخ ولعله محرف وحرره اهـ

فلما تبينوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم هل وجدتم ما وعدتكم حقا قالوا نعم وربنا قال هل رضيتم ثواب ربكم قالوا ربنا رضينا فارض عنا قال رضاى عنكم حللتم دارى ونظرتم الى وجهى وصافحتكم ملائكتى فهنيأ هنيأ لكم عطاء غير مجذوذ ليس فيه تنغيص ولا قصر يدفعند ذلك قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وأدخلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ان ربنا لغفور شكور وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد ففى الصحيحين ان الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة (٢٦٢) تمن فيتمنى حتى اذا انتهت به الامانى يقول الله تعالى تمن من كذا وتمن من كذا يذكره ثم يقول ذلك لك وعشرة أمثاله وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل يا عبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فاعطيت كل انسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيأ الا كما ينقص المخيط اذا ادخل فى البحر الحديث بطوله وقال خالد بن معدان ان فى الجنة شجرة يقال لها طوبى لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة وان سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة رواه ابن أبى حاتم (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الامة لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك أى تبلغهم رسالات الله اليهم كذلك أرسلنا فى الامم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم اسوة كما أوقعنا بأسنا ونقمتنا باولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم فان تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك الآية وقال تعالى ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولاتباعهم فى الدنيا والآخرة وقوله وهم يكفرون بالرحمن أى هذه الامة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به لانهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ولهذا أنفوا يوم الحديبية ان يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم

الاشارة

اقامتكم) أى حضركم والمعنى لا يثقل عليكم حملها فى الحالين (و) جعل لكم (من أصوافها وأوبارها وأشعارها) والانعام تعم الابل والبقر والغنم كما تقدم والاصواف للغنم والاوبار للابل والاشعار للمعز وهى من جملة الغنم فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها للواحد من الثلاثة أعنى الابل ونوعى الغنم ولم يذكر القطن والكتان لانهما لم يكونا ببلاد العرب (أثاثا) هو متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث أى كثير مجتمع يقال أث أى كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال الخليل أثاثا أى منضما بعضه الى بعض من أث اذا كثر قال الفراء لا واحد له (ومتاعا) هو ما يتمتع به بأنواع التمتع قال الخليل الاثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما وعلى قول أبى زيد الانصارى ان الاثاث المال أجمع الابل والغنم والعبيد والمتاع يكون عطف المتاع على الاثاث من عطف الخاص على العام وقيل ان الاثاث ما يكتسى به الانسان ويستعمله من الغطاء والوطاء والمتاع ما يفرش فى المنازل من الفرش والاكسية ويتزين به ومعنى (الى حين) الى ان تقضوا أوطاركم منه أو الى ان يبلى ويفنى أو الى الموت أو الى القيامة ثم لما كان الانسان قد لا يكون له خيام أو أبنية يستظل بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج الى ان يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك نبه سبحانه على ذلك فقال (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) أى أشياء تستظلون بها من شدة الحر والبرد كالاشياء المذكورة وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار والحاصل ان الظلال تعم الاشياء التى تظل ثم لما كان المسافر قد يحتاج الى كن يأوى اليه فى نزوله والى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفى المختار الكن السترة والجمع أكنان والاكنة الاغطية وقال الكسائى كن الشئ ستره وبابه رد وفى القاموس الكن بالكسر وقاء كل شئ وستره كالكنة والكنان بكسرهما والكن البيت جمعا كنان وأكنة وكنه كنا وكنونا وأكنه وكننه واكتنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط أو سقيفة فوق باب الدار أو ظلة هنالك أو مخدع انتهى وهى هنا الغيران والاسراب فى الجبال ونحوها جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون اليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها لان الانسان غنى أو فقير فالغنى يستصحب معه الخيام فى سفره ليسكن فيها واليه

قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري وقد قال الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وفي صحيح
مسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أحب الاسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن قل هو ربي لا اله
الا هو أي هذا الذي تكفرون به عليه توكلت في جميع اموري واليه متاب أي اليه ارجع وانيب فانه لا يستحق ذلك أحد
سواه (ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله
لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو (٢٦٣) تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله
لا يخلف الميعاد) يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الارض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الاولى ان يكون كذلك لما فيه من الاعجاز الذي لا يستطيع الانس والجن عن آخرهم اذا اجتمعوا ان يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له فلله الامر جميعا أي مرجع الامور كلها الى الله عز وجل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادي له ومن يهد الله فما له من مضل وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لانه مشتق من الجمع قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته ان تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل ان تسرج دابته وكان لا يأكل الا من عمل يديه
انفرد باخراجه البخاري والمراد بالقرآن هو الزبور وقوله أفلم ييأس الذين آمنوا أي من ايمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ان
لو يشاء الله لهدى الناس جميعا فانه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على
جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من نبي الا وقد أوتي ما آمن على
مثله البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فارجو ان اكون أكثرهم تابعا يوم القيامة معناه ان معجزة كل نبي انقرضت

الاشارة في الآية المتقدمة والفقير يسكن في ظلال الاشجار والحيطان والكهوف والى
هذا الاشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم الى الظلال
وما يدفع شدة الحر وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان
عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهي
القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها قال الزجاج كل ما لبسته فهو
سربال (تقيكم الحر) أي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه أكثر المفسرين
من انه من حذف المعطوف للعلم به قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا
عليها وهو أنه انما اقتصر على الحر لانه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم ان
ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر انما هي لتحصيل البرد وهذا فيه
من اللطف ما هو ألطف من النسيم فلله در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تتناهى انتهى
ونظيره بيدك الخير أي والشر لان الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر أو لتقدم وقاية
البرد في قوله لكم فيها دفء (وسرابيل تقيكم بأسكم) وهي الدروع والجواشن وسائر
ما يلبس في الحرب من السلاح تتقون بها الطعن والضرب والرمي والمعنى انها تقيكم
البأس الذي يصل من بعضكم الى بعض في الحرب (كذلك) الاتمام البالغ (يتم
نعمته عليكم) فانه سبحانه قد من على عباده بصنوف النعم المذكورة هنا وبغيرها وهو
بفضله واحسانه سيتم نعمة الدين والدنيا (لعلكم تسلمون) أي ارادة ان تسلموا فان من
أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه الا الاسلام والانقياد للحق وقرأ ابن عباس وعكرمة من
السلامة من الجراح وقرأ الباقون من الاسلام قال أبو عبيد والاختيار قراءة العامة لان
ما أنعم الله به علينا من الاسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح وقيل الخطاب
لأهل مكة أي لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية والحمل على العموم أولى وأفرد النعمة
هنا لان المراد بها المصدر (فان تولوا) أي أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا ما جئت به
فقد تمهد عذرك وفيه التفات وجواب الشرط محذوف أي فلا لوم عليك وهذا تسلية له
صلى الله عليه وآله وسلم والتعبير بالتولي اشارة الى ان الاصل فطرة الاسلام وخلافها
عارض متجدد والمعنى ان داموا على التولي لظهور توليهم (فانما عليك البلاغ) لما
أرسلت به اليهم وقد فعلت ذلك بهم (المبين) أي الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف

بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث أنبأنا بشر ابن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفي قال قلت له ولو أن قرآنا سيرت به الجبال الآية قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية قال قلت هل (٢٦٤) تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

قال نعم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا روي عن ابن عباس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية والله أعلم وقال قتادة لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم وقوله بل لله الأمر جميعا أي لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل بسنده عنه قاله ابن عباس وقاله ابن جرير أيضا وقال غير واحد من السلف في قوله أفلم ييأس الذين آمنوا أفلم يعلم الذين آمنوا وقرأ آخرون أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقال أبو العالية قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا كما قال تعالى ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون وقال أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون

قال قتادة عن الحسن أو تحل قريبا من دارهم أي القارعة وهذا هو الظاهر من السياق وقال أبو داود الطيالسي كذا هم
حدثنا المسعودي عن قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة قال سرية أو تحل قريبا من دارهم قال محمد صلى الله عليه وسلم حتى يأتي وعد الله قال فتح مكة وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية وقال العوفي عن ابن عباس تصيبهم بما صنعوا قارعة قال عذاب من السماء ينزل عليهم أو تحل قريبا من دارهم يعني نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم وكذا قال مجاهد وقتادة وقال عكرمة في رواية عنه عن ابن عباس قارعة أي نكبة

الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسلية له وهذا قبل الأمر بالقتال فتكون الآية منسوخة الحكم وهو لا يظهر إلا لو قدر جواب الشرط فأعرض عنهم ولا تقاتلهم مع أن أكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مؤاخذة في عدم إيمانهم لأنك بلغت ما أمرت بتبليغه وهذا يتم من الله لا إليك وهذا لا ينافي أن يكون مأمورا بقتالهم ثم استأنف لبيان توليهم فقال (يعرفون نعمة الله) التي عددها في هذه السورة ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه (ثم ينكرونها) بما يقع عنهم من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة حيث يقولون هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام وحيث يقولون إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم وأيضا لكونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعرفونه صلى الله عليه وآله وسلم ثم ينكرون نبوته وقيل هي الإسلام وجيء بثم للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن من عرف النعمة حقه أن يعترف لا أن ينكر (وأكثرهم الكافرون) بالله أو الجاحدون أنعم الله وعبر هنا بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع وإليه أشار في التقرير أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان كفر بعضهم كفر جهل وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ولما بين سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وأن أكثرهم كافرون اتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة فقال (و) اذكر (يوم نبعث) أي نحيي ونخرج (من كل أمة شهيدا) والمعنى يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب قال ابن عباس شهيدها نبيها على أنه قد بلغ رسالات ربه قال الله وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ولا يؤذن لهم فيعتذرون أو في كثرة الكلام أو في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكليف أو في حالة شهادة الشهود بل يسكت أهل الجمع

وكلهم قال حتى يأتى وعد الله يعنى فتح مكة وقال الحسن البصرى حتى يأتى وعد الله يوم القيامة وقوله ان الله لا يخلف الميعاد أى لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) يقول تعالى مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه ولقد استهزئ برسل من قبلك أى فلك فيهم أسوة فأمليت للذين كفروا أى أنظرتهم وأجلتهم ثم أخذتهم أخذة رابية فكيف بلغك ماصنعت بهم وعاقبتهم كقوله تعالى وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة الآية وفى الصحيحين ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الارض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد) يقول تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أى حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم مايعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وقال تعالى وما تسقط من ورقة الا يعلمها وقال وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين وقال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وقال يعلم السر وأخفى وقال وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير أفمن هو كذلك كالاصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا لانفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله وجعلوا لله شركاء أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان قل سموهم أى أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فانهم لا حقيقة لهم ولهذا قال أم تنبئونه بما لا يعلم فى الارض أى لا وجود له لانه لو كان لها وجود فى الارض لعلمها لانه لا تخفى عليه خافية أم بظاهر من القول قال مجاهد بظن من القول وقال الضحاك وقتادة بباطل من القول أى انما عبدتم هذه الاصنام بظن منكم انها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ان هى الا أسماء سميتموها أنتم

كلهم ليشهد الشهود أولا يؤذن لهم فى معارضة الشهود بالقاء معذرة أو ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقررونهم على ذلك وايراد ثم ههنا للدلالة على ان ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلى أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء (ولاهم يستعتبون) اى لا يطلب منهم العتبى أى الرجوع الى مايرضى الله من العبادات لان العتاب انما يطلب لأجل العود الى الرضاء فاذا كان على عزم السخط فلا فائدة فى العتاب والمعنى انهم لا يسترضون أى لا يكلفون ان يرضوا ربهم لان الآخرة ليست بدار عمل ولا تكليف ولا يتركون الى رجوع الدنيا فيتوبون وأصل الكلمة من العتب وهو الموجدة يقال عتب عليه يعتب اذا وجد عليه وبابه ضرب ونصر فاذا أفاض عليه ماعاتب فيه عليه قيل عاتبه فاذا رجع الى مسرته قيل أعتبه والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه الى مايرضى العاتب قاله الهروى فالاستعتاب التعرض لطلب الرضاء وهذا باب منسد على الكفار فى الآخرة وفى الخطيب أى لا تزال عتباهم وهى مايعتبون عليها و يلامون يقال استعتبت فلانا اى أزلت عتباه انتهى واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر قال الخليل العتاب مخاطبة الادلال ومذاكرة الموجدة وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه سره بعدما ساء واستعتب وأعتب بمعنى واستعتب أيضا طلب ان يعتب اى استرضاه فارضاه (واذا رأى) اى أبصر (الذين ظلموا) اى أشركوا او كفروا (العذاب) الذى يستحقونه بشركهم وهو عذاب جهنم (فلا يخفف) ذلك العذاب (عنهم ولاهم ينظرون) اى لا يمهلون ولا يؤخرون ليتوبوا اذ لا توبة هنالك (واذا رأى الذين أشركوا) يوم القيامة (شركاءهم) مفعول به والاضافة لادنى ملابسة باعتبار ادعائهم شركتها الله اى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها فى الدنيا لما تقرر من انهم يبعثون مع المشركين يقال لهم من كان يعبد شيأ فليتبعه كما ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو) اى نعبدهم ونتخذهم آلهة (من دونك) ونطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم قال أبو مسلم الاصفهانى مقصود المشركين بهذا القول احالة الذنب على تلك الاصنام تعللا بذلك واستروا حا مع كونهم يعلمون ان العذاب واقع بهم لا محالة ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه (فالقوا اليهم) اى ألقى أولئك الشركاء من الاصنام والاوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى بل زين للذين كفروا مكرهم
قال مجاهد قولهم أى ما هم فيه من الضلال والدعوة اليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم الآية
وصدوا عن السبيل من قرأها بفتح الصاد معناه انه لما زين لهم ما هم فيه وانه حق دعوا اليه وصدوا الناس عن اتباع طريق حق الرسل
ومن قرأها بالضم اى بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال ومن يضلل الله فما له من هاد كما قال ومن يرد الله
فتنته فلن تملك له من الله شيأ وقال ان تحرص (٢٦٦) على هداهم فان الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين (لهم عذاب
في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة
أشق وما لهم من الله من واق مثل
الجنة التى وعد المتقون تجرى من
تحتها الانهار أكلها دائم وظلها تلك
عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين
النار) ذكر تعالى عقاب الكفار
وثواب الابرار فقال بعد اخباره عن
حال المشركين وما هم عليه من
الكفر والشرك لهم عذاب في
الحياة الدنيا أى بايدى المؤمنين قتلا
وأسرا ولعذاب الآخرة أى المدخر
مع هذا الخزى في الدنيا أشق أى
من هذا بكثير كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين ان
عذاب الدنيا أهون من عذاب
الآخرة وهو كما قال صلوات الله
وسلامه عليه فان عذاب الدنيا له
انقضاء وذاك دائم أبدا في نار هى
بالنسبة الى هذه سبعون ضعفا
ووثاق لا يتصور كثافته وشدته كما
قال تعالى فيومئذ لا يعذب عذابه
أحد ولا يوثق وثاقه أحد وقال
تعالى وأعتدنا لمن كذب بالساعة
سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد
سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا
منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك
ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء رؤس
ومصيرا ولهذا قرن هذا بقوله مثل الجنة التى وعد المتقون أى صفتها ونعتها تجرى من تحتها الانهار أى سارحة في ارجائها وجوانبها
وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرا أى يصرفونها كيف شاؤا وأين شاؤا كقوله مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة الآية وقوله أكلها
دائم وظلها اى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه

والكفار (القول) وعن مجاهد قال حدثوهم وقالوا لهم (انكم) ايها المشركون
(لكاذبون) فيما تزعمون من احالة الذنب علينا الذى هو مقصودكم من هذا القول أو في
تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا بل عبدتم أهواءكم فان قيل ان المشركين أشاروا
الى الاصنام ونحوها ان هؤلاء شركاؤنا وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الاصنام
ونحوها فالجواب بان مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا هؤلاء شركاء الله في المعبودية
فكذبتهم الاصنام في دعوى هذه الشركة والاصنام والاوثان وان كانت لا تقدر على
النطق فان الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم وهذا كما قالت
الملائكة بل كانوا يعبدون الجن يعنون ان الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم قال
الكرخي ان المثبت لهم هذا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها والمنفى عنهم
في الكهف النطق بالاجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي (وألقوا الى الله
يومئذ السلم) اى ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذاب الله والخضوع
لعزته وبه قال ابن جريج وعن قتادة نحوه وقيل المعنى استسلم العابد والمعبود وانقادوا
لحكمه فيهم لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه (وضل عنهم
ما كانوا يفترون) اى ضاع وبطل وزال ما افتروا من ان لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون
من شفاعتهم لهم وان عبادتهم لهم تقربهم الى الله سبحانه (الذين كفروا) في أنفسهم
(وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) اى عن طريق الحق وهى طريق الاسلام والايمان
بان منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر وقيل المراد به الصد عن المسجد الحرام
والعموم أولى (زدناهم عذابا) لاجل الاضلال لغيرهم (فوق العذاب) الذى استحقوه
لاجل ضلالهم وقيل المعنى زدنا القادة عذابا فوق عذاب اتباعهم أى أشد منه وقيل ان
هذه الزيادة هى اخراجهم من حر النار الى برد الزمهرير وغير ذلك وعن ابن مسعود قال
زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم في جهنم وروى مثله عن البراء مرفوعا
أخرجه الخطيب وغيره وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع
احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفا وعن ابن عباس قال خمسة أنهار من
نار صبها الله عليهم يعذبون ببعضها بالليل وبعضها بالنهار وقد روى ابن مردويه عن جابر
عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الزيادة خمسة أنهار تجرى من تحت العرش على

رؤس أهل النار ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار فذلك قوله زدناهم عذابا فوق العذاب (بما كانوا يفسدون) بصدهم الناس عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا) اى نبيا يشهد (عليهم من أنفسهم) اى من جنسهم اتماما للحجة وقطعا للمعذرة وهو أعدل شاهد عليها وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد وقال الخطيب كرر سبحانه التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الامم لا لهم وتكون بحضرتهم (وجئنا بك) يا محمد وايثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه الصلاة والسلام وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (شهيدا) تشهد (على هؤلاء) اى على هذه الامم وقيل على أمتك وقومك هكذا قال الجلال وسنده قوله سابقا ويوم نبعث من كل أمة شهيدا الخ ومثله في البيضاوي وفي الشهاب عليه وقيل الآية مسوقة لشهادته على الانبياء فتخلو عن التكرار ورد بان المراد بشهادته على أمته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الانبياء وهذا لم يعلم مما مر وهو الوارد في الحديث وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء (ونزلنا عليك) في الدنيا (الكتاب) اى القرآن والجملة مستأنفة (تبيانا لكل شيء) اى بيانا له والتاء للمبالغة فالتبيان أخص من مطلق البيان على قاعدة ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ونظيره من المصادر التلقاء ولم يأت غيرهما وفي الاسماء كثير نحو التمساح والتمثال ومثل هذه الآية قوله سبحانه ما فرطنا في الكتاب من شيء ومعنى كونه تبيانا لكل شيء ان فيه البيان البليغ لكثير من الاحكام والاحالة فيما بقي منها على السنة وأمرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتي به من الاحكام وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال اني أوتيت القرآن ومثله معه وعن ابن مسعود قال تبيانا لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن وعنه قال من أراد العلم فليثور القرآن فان فيه علم الاولين والآخرين قال الكرخي اما بتبيينه في نفس الكتاب أو باحالته على السنة لقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا أو باحالته على الاجماع كما قال تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين الآية أو على القياس كما قال فاعتبروا يا أولي الابصار والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها وكلها مذكورة في القرآن فكان

قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال اني رأيت الجنة أو أريت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا عبيد الله حدثنا أبو عقيل عن جابر قال بينما نحن في صلاة الظهر اذ تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه فقال اني عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه (٢٦٧) ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والارض لا ينقصونه وروى مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر شاهد البعض وعن عتبة بن عبد السلمي ان أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنة فقال فيها عنب قال نعم قال فما عظم العنقود قال مسيرة شهر للغراب الابقع ولا يفتر رواه الامام أحمد وقال الطبراني حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا ريحان بن سعيد عن عبادة ابن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل اذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس رواه مسلم وروى الامام أحمد والنسائي من حديث الاعمش عن ثمامة بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم تزعم ان أهل الجنة يأكلون ويشربون قال نعم والذي نفس محمد بيده ان الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة قال ان الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه رواه الامام أحمد والنسائي وقال الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الاعرج عن عبد الله بن الحرث عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتنظر الى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشويا وجاء في بعض الاحاديث انه اذا فرغ منه عاد طائرا باذن الله تعالى وقد قال تعالى وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وقال ودانية عليهم

ظلالها وذللت قطوفها تذليلا وكذلك ظلها لا يزول ولا يتقلص كما قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري
من تحتها الانهار لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها ثم قرأ وظل ممدود وكثيرا ما يقرن الله بين
صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى
الكافرين النار كما قال تعالى لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون وقال بلال بن سعد
خطيب دمشق في بعض خطبه عباد الله هل جاءكم مخبر يخبركم ان شيأ من عبادتكم تقبلت منكم أو ان شيأ من خطاياكم غفرت لكم أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة أكلها دائم الآية رواه ابن أبي حاتم (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق) يقول تعالى والذين آتيناهم الكتاب وهم قائمون بمقتضاه يفرحون بما أنزل اليك أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته الآية وقال تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا الى قوله ان كان وعد ربنا لمفعولا أي ان كان ما وعدنا الله به في كتبنا من ارسال محمد صلى الله عليه وسلم لحقا وصدقا مفعولا لا محالة وكائنا فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا وقوله ومن الاحزاب من ينكر بعضه أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل اليك وقال مجاهد ومن الاحزاب أي اليهود والنصارى من ينكر بعضه أي بعض ما جاءك من الحق وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كما قال تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله الآية قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به أي انما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الانبياء من قبلي اليه أدعو أي الى سبيله أدعو الناس واليه مآب

تبيانا لكل شيء فاندفع ما قيل كيف قال الله ذلك ونحن نجد كثيرا من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصا كعدد ركعات الصلاة ومدة المسح والحيض ومقدار حد الشرب ونصاب السرقة وغير ذلك ومن ثم اختلفت الامة في كثير من الاحكام انتهى وفي هذا التقرير بحث ونظر ذكرته في محله فليراجعه ولذلك قال الشهاب على قول البيضاوي بالاحالة الى السنة أو القياس وفيه تأمل انتهى وقد احتج بهذه الآية جمع من أهل العلم على منع التقليد (وهدى) للعباد من الضلالة (ورحمة) لهم (وبشرى للمسلمين) خاصة دون غيرهم أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة بهم لانهم المنتفعون بذلك ثم لما ذكر سبحانه ان في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لاصول التكليف كلها تصديقا لذلك فقال (ان الله يأمر) أي فيما نزله تبيانا لكل شيء وهدى وبشرى (بالعدل والاحسان) وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والاحسان فقيل العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وقيل العدل الفرض والاحسان النافلة وقيل العدل استواء العلانية والسريرة والاحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية وقيل العدل التوحيد والاحسان التفضل وقيل العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقيل العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وقيل العدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا يفعل الا ما هو عدل ولا يقول الا ما هو حسن وقيل غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره والعدل هو المساواة في كل شيء من غير شطط ولا وكس والاولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الافراط والتفريط فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن تكون عباده في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة الى جانب الافراط وهو الغلو المذموم في الدين ولا الى جانب التفريط وهو الاخلال بشيء مما هو من أمر الدين اعتقادا كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر وعملا كالتعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقا كالجود المتوسط بين البخل والتبذير وأما الاحسان فمعناه اللغوي يرشد الى انه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع ومن الاحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها ولم يذكر متعلقات العدل والاحسان والبغي ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به واليه ويبغى فيه

أى مرجعى ومصيرى وقوله وكذلك أنزلناه حكما عربيا أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا
عليك القرآن محكما معربا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه تنزيل من حكيم حميد وقوله ولئن اتبعت أهواءهم أى آراءهم بعدما جاءك من العلم أى من الله سبحانه مالك من الله من ولى
ولا واق وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا اليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها
أفضل الصلاة والسلام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله
لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء
و يثبت وعنده أم الكتاب) يقول
تعالى وكما أرسلناك يا محمد رسولا
بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك
بشرا يأكلون الطعام ويمشون
فى الاسواق ويأتون الزوجات
ويولد لهم وجعلنا لهم أزواجا وذرية
وقد قال تعالى لأشرف الرسل
وخاتمهم قل انما أنا بشر مثلكم
يوحى الى وفى الصحيحين ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال أما أنا
فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل
اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن
سنتى فليس منى وقال الامام أحمد
حدثنا يزيد أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن
مكحول قال قال ابو أيوب قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم أربع من سنن
المرسلين التعطر والنكاح والسواك
والحناء وقد رواه أبو عيسى الترمذى
عن سفيان بن وكيع عن حفص
ابن غيثان عن الحجاج عن مكحول
عن أبى الشمال عن أبى أيوب فذكره
ثم قال وهذا أصح من الحديث
الذى لم يذكر فيه أبو الشمال وقوله
وما كان لرسول أن يأتى بآية الا
باذن الله أى لم يكن يأتى قومه بخارق
الا اذا أذن له فيه ليس ذلك اليه بل
الى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لكل أجل كتاب أى لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شئ عنده بمقدار ألم تعلم
ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير وكان الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله لكل أجل
كتاب اى لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا يمحو الله ما يشاء منها ويثبت
يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه وقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت اختلف
المفسرون فى ذلك فقال الثورى ووكيع وهشيم عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس يدبر أمر

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه فسر الاحسان بان يعبد الله العبد حتى كأنه
يراه فقال فى حديث ابن عمر فى الصحيحين والاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه
فانه يراك وهذا هو المعنى بالاحسان شرعا (وايتاء ذى القربى) ما تدعو اليه حاجتهم وفى
الآية ارشاد الى صلة الاقارب والارحام وترغيب فى التصدق عليهم وهو من باب عطف
الخاص على العام ان كان اعطاء الاقارب قد دخل تحت العدل والاحسان وقيل من باب
عطف المندوب على الواجب ومثل هذه الآية قوله وآت ذا القربى حقه وانما خص ذوى
القربى لان حقهم آكد فان الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه الشريف وجعل صلتها
من صلته وقطيعتها من قطيعته فيستحب أن يصلهم من فضل ما رزقه الله فان لم يكن له فضل
فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) هى الخصلة المتزايدة فى القبح من قول أو فعل
وقيل هى الزنا وقيل البخل (والمنكر) وهو ما أنكره الشرع بالنهى عنه وهو يعم جميع
المعاصى على اختلاف أنواعها وقيل هو الشرك (والبغى) قيل هو الكبر وقيل هو الظلم
وقيل الحقد وقيل التعدى وحقيقته تجاوز الحد فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع
أقسامه تحت المنكر وانما خص بالذكر اهتماما به لشدة ضرره ووبال عاقبته وهو من الذنوب
التى ترجع على فاعلها لقوله سبحانه انما بغيكم على أنفسكم وهذه الآية من الآيات الدالة
على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعن عبد الملك بن عمير ان هذه الآية لما
بلغت أكثم بن صيفى حكيم العرب قال انى أراه يأمر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها
ثم قال لقومه كونوا فى هذا الامر رؤساء ولا تكونوا فيه أذنابا وكونوا فيه أولا ولا تكونوا
فيه آخرا وعن ابن عباس قال أعظم آية فى كتاب الله الله لا اله الا هو الحى القيوم وأجمع آية
فى كتاب الله للخير والشر التى فى النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان وأكثر آية فى كتاب
الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأشد آية فى كتاب الله
رجاء يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية وعن عكرمة ان
النبى صلى الله عليه وآله وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له يا ابن أخى أعد
على فأعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان
أسفله لمغدق وما هو بقول البشر وعن الحسن انه قرأ هذه الآية الى آخرها ثم قال ان الله
عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من

السنة فمحو الله مايشاء الا الشقاء والسعادة والحياة والموت وفي رواية يمحو الله مايشاء ويثبت الا الموت والحياة والشقاء والسعادة فانه ماقد فرغ منهما وقال مجاهد يمحو الله ويثبت الا الحياة والموت والشقاء والسعادة فانهما لايتغيران وقال منصور سألت مجاهدا فقلت أرأيت دعاء أحدنا يقول اللهم ان كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم وان كان في الاشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء فقال حسن ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال انا أنزلناه في ليلة مباركة الآيتين قال يقضى في ليلة القدر مايكون في السنة من رزق أو مصيبة (٢٧٠) ثم يقدم مايشاء ويؤخر مايشاء فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لايغير وقال الاعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة انه كان كثيرا يدعو بهذا الدعاء اللهم ان كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء وان كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا فانك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب رواه ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا عمرو بن علي حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن أبي حكيمة عصمة عن أبي عثمان النهدي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي وهو يقول اللهم ان كنت كتبت علي شقوة أو ذنبا فامحه فانك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة وقال حماد عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن ابن مسعود رضي الله عنه انه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عليم عن ابن مسعود بمثله وقال ابن جرير حدثني حجاج حدثنا خصاف عن أبي حمزة عن ابراهيم ان كعبا قال لعمر بن الخطاب قال ياأمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن الى يوم القيامة قال وماهي قال قول الله تعالى يمحو الله مايشاء الآية ومعنى هذه الاقوال ان الاقدار ينسخ الله مايشاء منها ويثبت منها مايشاء وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثوري عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به وثبت في الصحيح ان صلة الرحم تزيد في العمر وفي حديث آخر ان الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والارض وقال ابن جرير حدثني محمد

طاعة الله شيأ الا جمعه وأمر به ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيأ الا جمعه وزجر عنه وفي المستدرك عن ابن مسعود وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر قال البيضاوي وبسببها أسلم عثمان بن مظعون ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه انه تبيان لكل شئ وهدى ورحمة ولعل ايرادها عقب قوله ونزلنا عليك الكتاب للتنبيه عليه ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله (يعظكم) بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه (لعلكم تذكرون) أي ارادة ان تذكروا ماينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به فانه كاف في باب الوعظ والتذكير (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) خص الله سبحانه الايفاء من جملة المأمورات التي تضمنها قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وظاهره العموم في كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره وخص هذا العهد المذكور في الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الاسلام وهو خلاف مايفيده العهد المضاف الى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله ولو فرض ان السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبا للقصر على السبب فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفسره بعضهم باليمين وهو مدفوع بذكر الوفاء بالايمان بعده حيث قال سبحانه (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) اي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الاسماء والصفات وقيل ان تأكيد اليمين هو حلف الانسان على الشئ الواحد مرارا وحكى القرطبي عن ابن عمر ان التوكيد هو ان يحلف مرتين فان حلف واحدة فلا كفارة عليه وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالايمان المؤكدة لا بغيرها مما لا تأكيد فيه فان تحريم النقض يتناول الجميع ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الاثم فوق الاثم الذي في نقض مالم يؤكد منها يقال وكدوا أكد توكيدا وتأكيدا وهما لغتان وقال الزجاج الاصل الواو والهمزة بدل منها وقيل ليست الهمزة بدلا من الواو كما زعمه أبو اسحق لان الاستعمالين في المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلا أولى من الآخر وتبع مكي الزجاج في ذلك ثم قال ولا يحسن ان يقال الواو بدل من الهمزة ولذلك تبعه الزمخشري أيضا وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الاحاديث الصحيحة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وآله وسلم فقال والله لا أحلف

على

ابن سهل بن عسكر حدثنا عبد الرزاق أنبأنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال ان لله عزوجل لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت والدفتان لوحان لله عزوجل ثلاث وستون لحظة يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الاولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت وذكر تمام الحديث رواه ابن جرير وقال الكلبي يمحو الله مايشاء ويثبت قال يمحو من الرزق ويزيد فيه ويمحو من الاجل ويزيد فيه فقيل له من حدثك بهذا فقال أبو صالح عن جابر ابن عبد الله بن رياب عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه كل شئ ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب وقال عكرمة عن ابن عباس الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في الآية في قوله يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب يقول هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت وروى عن سعيد ابن جبير انها بمعنى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يمحو الله مايشاء ويثبت يقول يبدل مايشاء فينسخه ويثبت مايشاء فلا يبدله وعنده أم الكتاب وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ ومايبدل ومايثبت كل ذلك في كتاب وقال قتادة في قوله يمحو الله مايشاء ويثبت كقوله ماننسخ من آية أو ننسها الآية وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله يمحو الله مايشاء ويثبت قال قالت كفار قريش لما نزلت وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله مانرى محمدا يملك شيأ وقد فرغ من الامر فانزلت هذه الآية تخويفا ووعيدا لهم انا ان شئنا أحدثنا له من أمرنا ماشئنا ونحدث في كل رمضان فيمحو مايشاء ويثبت مايشاء من أرزاق الناس ومصائبهم ومايعطيهم ومايقسم لهم وقال الحسن البصري يمحو الله مايشاء ويثبت قال من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي

على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني وهذه الالفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما ويخص أيضا من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لاخراج ايمان اللغو وقد تقدم بسط الكلام على الايمان في البقرة (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) اى شهيدا أما على التشبيه فهو استعارة أو باستعماله في لازم معناه فهو مجاز مرسل وقيل حافظا وقيل ضامنا وقيل رقيبا لان الكفيل يراعي حال المكفول له (ان الله يعلم ماتفعلون) من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر وفيه ترغيب وترهيب ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض فقال (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد (كالتي نقضت غزلها) اى ماغزلته (من بعد قوة) اى ابرام الغزل واحكامه عن ابن عباس ان سعيدة الاسدية كانت تجمع الشعر والليف فنزلت فيها هذه الآية وعن أبي بكر بن حفص مثله وفي الروايتين جميعا انها كانت مجنونة وعن السدي في سبب نزولها قال كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فاذا أبرمت غزلها نقضته وعن عبد الله بن كثير معناه وقيل هي امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم قرشية فالمشبه به معين على هذا وفي الكرخي المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لان القصد بالامثال صرف المكلف عن الفعل اذا كان قبيحا والدعاء اليه اذا كان حسنا وذلك يتم بدون التعيين اذ لا يلزم في التشبيه أن يكون المشبه به موجودا في الخارج (أنكاثا) جمع نكث بكسر النون ماينكث فتله ليغزل ثانيا بمعنى منكوث أي منقوض يقال نكث الرجل العهد نكثا من باب قتل نقضه ونبذه فانتكث قال ابن قتيبة هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الايمان فانكم ان فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا وأحكمته ثم جعلته أنكاثا أي اقطاعا وأجزاء (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) قال الجوهري الدخل المكر والخديعة وقال أبو عبيدة كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل وقيل الدخل ماأدخل في الشئ على فساده وقال الزجاج غشا وغلا وقيل أصل الدخل العيب والعيب ليس من الشئ الذي يدخل فيه (أن تكون أمة) اى بان تكون جماعة أو لاجل وجدانكم أمة (هي أربى من أمة) جماعة اى أكثر عددا منها وأوفر مالا يقال ربى الشئ يربو اذا كثر قال الفراء المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم

يجري الى أجله وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله وقوله وعنده أم الكتاب قال الحلال والحرام وقال قتادة أي جملة الكتاب وأصله وقال الضحاك وعنده أم الكتاب قال كتاب عند رب العالمين وقال سنيد بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا وقال ابن جريج عن ابن عباس وعنده أم الكتاب قال الذكر (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم (٢٧٢) لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) يقول تعالى لرسوله

وإما نرينك يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا أو نتوفينك قبل ذلك فإنما عليك البلاغ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به وعلينا الحساب أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم وقوله أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها قال ابن عباس أولم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض وقال في رواية أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية وقال مجاهد وعكرمة ننقصها من أطرافها قال خرابها وقال الحسن والضحاك هو ظهور المسلمين على المشركين وقال العوفي عن ابن عباس نقصان أهلها وبركتها وقال مجاهد نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض وقال الشعبي لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ولكن تنقص الأنفس والثمرات وكذا قال عكرمة لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه ولكن هو الموت وقال ابن عباس في رواية خرابها بموت علمائها في الاسلام وفقهائها وأهل الخير منها وكذا قال مجاهد أيضا هو موت العلماء وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئي بدمشق أنشدنا أبو بكر الآجري بمكة قال أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها * متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها * وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام

وقد عز قومهم بالإيمان قيل وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم قاله مجاهد وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إنما يبلوكم الله به) أي يختبركم بكونهم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغترارا بالكثرة فالضمير في به راجع إلى مضمون الجملة المتقدمة أي إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه أو يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار وفي هذا إنذار وتحذير من مخالفة الحق والركون إلى الباطل ثم بين سبحانه أنه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الإيمان فقال (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الحق (ولكن) بحكم الإلهية (يضل من يشاء) بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم (ويهدي من يشاء) بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولهذا قال (ولتسئلن) يوم القيامة سؤال تبكيت لا سؤال استفسار وتفهم وهو المنفي في غير هذه الآية (عما كنتم تعملون) من الأعمال في الدنيا لتجازوا عليها واللام في ليبينن وفي لتسئلن هي الموطئة للقسم ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الأيمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) قال الشهاب وغيره ولما كان اتخاذ الأيمان دخلا قيدا للمنهي عنه كان منهيا عنه ضمنا فصرح به هنا تأكيدا ومبالغة في قبح المنهي عنه قال في الجمل وعلى هذا فهو تأسيس لا تأكيد ولا تكرير قال أبو حيان لم يتكرر النهي وإنما الذي سبق إخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلا معللا بشيء خاص هو أن تكون أمة هي أربى من أمة وجاء النهي بقوله هذا استئنافا للنهي عن اتخاذ الأيمان دخلا على العموم أي في كل حال فيشمل جميع الصور من الخديعة في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك قال الواحدي قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله فتزل قدم بعد ثبوتها من المبالغة وبما في قوله وتذوقوا السوء بما صددتم لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصدوا غيرهم عن الدخول

على الشرك قرية بعد قرية كقوله ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى الآية وهذا اختيار ابن جرير (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) يقول تعالى وقد مكر الذين من قبلهم برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقوله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا الآيتين وقوله يعلم ما تكسب (٢٧٣) كل نفس أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر

وسيجزى كل عامل بعمله وسيعلم الكافر والقراءة الأخرى الكفار لمن عقبى الدار أي لمن تكون الدائرة له والعاقبة إليهم أو لأتباع الرسل كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون لست مرسلا أي ما أرسلك الله قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم أي حسبي الله هو الشاهد علي وعليكم شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان وقوله ومن عنده علم الكتاب قيل نزلت في عبد الله بن سلام قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال هم من اليهود والنصارى وقال قتادة منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري وقال مجاهد في رواية عنه هو الله تعالى وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول هي

مكية وكان يقرؤها ومن عنده علم الكتاب ويقول من عند الله وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري وقد روى ابن جرير من حديث هرون الأعور عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها ومن عنده علم الكتاب ثم قال لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات قلت وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من طريق هرون بن موسى هذا عن سليمان بن أرقم وهو ضعيف عن الزهري عن سالم عن أبيه مرفوعا كذلك ولا يثبت والله أعلم والصحيح في هذا أن ومن عنده علم الكتاب اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال

في الإسلام وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي سبب نزول هذه الآية فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (فتزل قدم) أي قدم من اتخذ يمينه دخلا عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها قيل وإفراد القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أية قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ويقال لمن أخطأ في شيء زلت به قدمه (وتذوقوا السوء) أي العذاب السيء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (بما صددتم) أي بسبب امتناعكم وصدودكم (عن سبيل الله) وهو الإسلام أو بسبب صدكم لغيركم عن الإسلام فإن من نقض البيعة وارتد اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ولهذا قال (ولكم عذاب عظيم) أي متبالغ في العظم وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا ثم نهاهم سبحانه عن الميل إلى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال (ولا تشتروا بعهد الله) الذي تركتموه (ثمنا قليلا) أي لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضا يسيرا حقيرا وكل عرض دنيوي وإن كان في الصورة كثيرا فهو لكونه ذاهبا زائلا يسير ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال (إنما عند الله) وفي رسم أن هذه اختلاف بين المصاحف العثمانية ففي بعضها وصلها بما وفي بعضها فصلها عنها كما ذكره ابن الجزري أي ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع (هو خير لكم) ثم علل النهي عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا بقوله (إن كنتم تعلمون) وتميزون بين الأشياء ثم ذكر دليلا قاطعا على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) والنفاد الفناء والذهاب يقال نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفادا ونفودا وأما نفذ بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح ينفذ بالضم ويقال أنفد القوم إذا فني زادهم وباق بثبوت الياء وحذفها مع سكون القاف وهما سبعيتان ومعلوم لكل عاقل أن ما ينفد ويزول وإن بلغ في الكثرة إلى أي مبلغ فهو حقير يسير وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل أما نعيم الآخرة فظاهر وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وإن كان زائلا لكنه لما كان متصلا بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية في حكم الباقي الذي

تعالى ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل الآية وقال تعالى أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل الآية وأمثال ذلك مما فيه الاخبار عن علماء بني اسرائيل انهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة وقد ورد في حديث الاحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة قال الحافظ أبو نعيم الاصبهاني في كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا محمد بن مصفى حدثنا (٢٧٤) الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام قال للاحبار اليهود اني أردت أن أحدث بمسجد أبينا ابراهيم واسمعيل عيدا فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فوافاهم وقد انصرفوا من الحج فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس حوله فقام مع الناس فلما نظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنت عبد الله بن سلام قال قلت نعم قال ادن قال فدنوت منه قال أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام أما تجدني في التوراة رسول الله فقلت له انعت ربنا قال فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له قل هو الله احد الله الصمد الى آخرها فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام أشهد ان لا اله الا الله وأنك رسول الله ثم انصرف ابن سلام الى المدينة فكتم اسلامه فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأنا فوق نخلة لي اجذها فألقيت نفسي فقالت أمي انت لو كان موسى بن عمران ما كان لك ان تلقي نفسك من نفس النخلة فقلت والله لأنا أسر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من موسى بن عمران اذ بعث وهذا غريب جدا آخر تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنة

لا ينقطع ثم قال (ولنجزين) بالنون ففيه التفات وقرئ بالياء واللام هي الموطئة للقسم أي والله لنجزين (الذين صبروا) بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف والفاقة وجهاد الكافرين والصبر على ما نالهم منهم من الاذى (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) من الطاعات قيل وانما خص أحسن أعمالهم لان ما عداه وهو الحسن مباح والجزاء انما يكون على الطاعة وقيل المعنى ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من أعمالهم كقوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقيل أحسن هنا ليس للتفضيل بل بمعنى الحسن أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الاعلى منها من الجزاء الجزيل لا انا نعطي الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بان نجزي الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن كذا قيل وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزع وتنظمه في سلك الصبر الجميل (من عمل صالحا) هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح وتعميم للوعد والمعنى من عمل عملا صالحا أي عمل كان (من ذكر أو أنثى) زيادة التمييز بذكر وأنثى مع كون لفظ من شاملا لهما القصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد وقيل ان لفظ من ظاهر في الذكور فكان في التنصيص على الذكور والانثى بيان لشموله للنوعين (وهو مؤمن) جعل سبحانه الايمان قيدا في الجزاء المذكور لان عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال (فلنحيينه حياة طيبة) وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون فقيل بالرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا واذا صار الى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل روى ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك وقيل بالقناعة قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه وروى أيضا عن علي وابن عباس قال وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف علي كل غائبة لي بخير وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قد أفلح من هدي الى الاسلام وكان عيشه

(تفسير سورة ابراهيم عليه السلام وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد) وقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور كتاب أنزلناه اليك أي هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الارض

الى جميع أهلها عربهم وعجمهم لتخرج الناس من الظلمات الى النور أى انما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه
من الضلال والغى الى الهدى والرشد كما قال تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم
الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات الآية وقال تعالى هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى
النور الآية وقوله باذن ربهم أى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم الى صراط العزيز الحميد
أى العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه الحميد (٢٧٥) أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه
وأمره ونهيه الصادق فى خبره
وقوله الله الذى له ما فى السموات
وما فى الارض قرأ بعضهم مستأنفا
مرفوعا وقرأ آخرون على الاتباع
صفة للجلالة كقوله تعالى قل يا أيها
الناس انى رسول الله اليكم جميعا
الذى له ملك السموات والارض
الآية وقوله وويل للكافرين من
عذاب شديد أى ويل لهم يوم
القيامة اذ خالفوك يا محمد وكذبوك
ثم وصفهم بانهم يستحبون الحياة
الدنيا على الآخرة أى يقدمونها
ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا
ونسوا الآخرة وتركوها وراء
ظهورهم ويصدون عن سبيل الله
وهى اتباع الرسل ويبغونها عوجا
أى ويحبون أن تكون سبيل الله
عوجا مائلة وعائلة وهى مستقيمة فى
نفسها لا يضرها من خالفها ولا من
خذلها فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل
وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم
والحالة هذه صلاح (وما أرسلنا من
رسول الا بلسان قومه ليبين لهم
فيضل الله من يشاء ويهدى من
يشاء وهو العزيز الحكيم) هذا من
لطفه تعالى بخلقه انه يرسل اليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به اليهم كما روى الامام أحمد حدثنا وكيع
عن عمر بن ذر قال قال مجاهد عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث الله عز وجل نبيا الا بلغة قومه وقوله فيضل
الله من يشاء ويهدى من يشاء اى بعد البيان واقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ويهدى من يشاء الى الحق
وهو الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الحكيم فى افعاله فيضل من يستحق الاضلال ويهدى من هو أهل لذلك وقد كانت هذه سنته
فى خلقه انه ما بعث نبيا فى أمة الا ان يكون بلغتهم فاختص كل نبى بابلاغ رسالته الى أمته دون غيرهم واختص محمد بن عبد الله

عيشه كفافا وقنع به وقيل بالكسب الطيب والعمل الصالح قاله ابن عباس وقيل
بالتوفيق الى الطاعة قاله الضحاك وقيل هى حياة الجنة روى هذا عن مجاهد وقتادة
وغيرهما وحكى عن الحسن انه قال لا تطيب الحياة لاحد الا فى الجنة وقيل الحياة الطيبة
هى السعادة روى ذلك عن ابن عباس وقيل هى المعرفة بالله حكى ذلك عن جعفر الصادق
رضى الله تعالى عنه وقال أبو بكر الوراق هى حلاوة الطاعة وقال مقاتل هى العيش فى
الطاعة وقيل رزق يوم بيوم وقال السدى انما هى تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح
بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال سهل بن عبد الله التسترى هى أن ينزع عن العبد تدبير
نفسه ويرد تدبيره الى الحق وقيل هى الاستغناء عن الخلق والافتقار الى الحق وأكثر
المفسرين على ان الحياة الطيبة هى فى الدنيا لا فى الآخرة لان حياة الآخرة قد ذكرت
بقوله (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد قدمنا قريبا تفسير الجزاء بالاحسن
ووحد الضمير فى لنحيينه وجمعه فى لنجزينهم حملا على لفظ من وعلى معناه ثم لما ذكر سبحانه
العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التى تخلص بها الاعمال الصالحة عن
الوساوس الشيطانية فقال (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) الفاء لترتيب الاستعاذة على
العمل الصالح وقيل هذه الآية متصلة بقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ
والتقدير فاذا أخذت فى قراءته فاستعذ بالله قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة معناه اذا
أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وهذا على مذهب الاكثرين من الفقهاء والمحدثين من أن
الاستعاذة تطلب قبل القراءة وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن ومثله اذا أكلت فقل
بسم الله قال الواحدى وهذا اجماع الفقهاء ان الاستعاذة قبل القراءة الا ما روى عن أبى
هريرة وابن سيرين ومالك وحمزة من القراء فانهم قالوا الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا
الى ظاهر الآية واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وداود
الظاهرى وأما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء
الامصار انها قبل القراءة كما تقدم ومعنى فاستعذ بالله اسأله سبحانه ان يعيذك (من
الشيطان الرجيم) أى من وساوسه لئلا يوسوسك فى القراءة وفيه دليل على ان المصلى
يستعيذ فى كل ركعة لان الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياسا وتعقيبه لذكر
العمل الصالح والوعد عليه ايذان بان الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وتخصيص

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعموم الرسالة الى سائر الناس كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه وبعثت الى الناس عامة وله شواهد من وجوه كثيرة وقال تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) يقول تعالى كما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم الى الخروج من الظلمات الى النور كذلك أرسلنا موسى الى بنى اسرائيل بآياتنا قال مجاهد هى التسع الآيات ان أخرج قومك من الظلمات أى أمرناه قائلين له أخرج قومك من الظلمات الى النور أى ادعهم الى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال الى نور الهدى وبصر الايمان وذكرهم بأيام الله أى بأياديه ونعمه عليهم فى اخراجه اياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وانجائه اياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله اياهم الغمام وانزاله عليهم المن والسلوى الى غير ذلك من النعم قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد وقد ورد فى الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل فى مسند أبيه حيث قال حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم حدثنا محمد بن أبان الجعفى عن أبى اسحق عن سعيد بن جبير وابن أبى حاتم من حديث محمد بن أبان به ورواه عبد الله ابنه أيضا عن ابى ابن كعب رفعه فى قوله وذكرهم بأيام الله قال بنعم الله ورواه ابن جرير موقوفا وهو أشبه وقوله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أى فيما صنعنا بأوليائنا بنى اسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار أى فى الضراء شكور أى فى السراء كما قال قتادة نعم العبد عبد اذا ابتلى صبر واذا أعطى شكر كذا جاء وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان أمر المؤمن كله عجب لا يقضى الله له قضاء الا كان خيرا له ان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وان أصابته سراء شكر كان خيرا له (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء

الجلالة

قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لسائر الاعمال الصالحة عند ارادتها أهم لانه اذا وقع الامر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند ارادة غيره أولى كذا قيل وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للاشعار بان غيره أولى منه بفعل الاستعاذة لانه صلى الله عليه وآله وسلم اذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته فكيف بسائر أمته قال السيوطى فى الآية أى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى وهذا بيان للافضل والا فاصل السنة يحصل بأى صيغة كانت من صيغ الاستعاذة وقد ذهب الجمهور الى ان الامر فى الآية للندب وروى عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الامر والضمير فى (انه) للشأن أو للشيطان (ليس له سلطان) أى تسلط تعليل لمحذوف هو جواب الامر تقديره فان استعذت كفيت شره (على) اغواء (الذين آمنوا) وحكى الواحدى عن جميع المفسرين انهم فسروا السلطان بالحجة وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين فى اغوائهم ودعائهم الى الضلالة (وعلى ربهم يتوكلون) أى يفوضون أمورهم اليه فى كل قول وفعل فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم وان وسوس لاحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس الا عبادك منهم المخلصين وقال الله فيهم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان فقال (انما سلطانه) أى تسلطه (على) اغواء (الذين يتولونه) أى يتخذونه وليا ويطيعونه فى وساوسه يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه وهذا مقابل لقوله وعلى ربهم يتوكلون (والذين هم به) أى بالله والباء للتعدية (مشركون) وقيل الضمير يرجع الى الشيطان والباء للسببية أى والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله وهذا مقابل لقوله على الذين آمنوا (واذا بدلنا آية مكان آية) هذا شروع منه سبحانه فى حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قاله مجاهد وهو كقوله ما ننسخ من آية أو ننسها الخ وقد تقدم الكلام على النسخ فى البقرة (والله أعلم بما ينزل) اعتراض دخل فى الكلام أى انه أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من أحكامه وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار وقيل

من ربكم عظيم واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد) يقول تعالى مخبرا عن موسى حين ذكر قومه بايام الله عندهم ونعمه عليهم اذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والاذلال حيث كانوا يذبحون من أبنائهم و يتركون اناثهم فانقذهم الله من ذلك وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم أى نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها وقيل وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الافاعيل بلاء أى اختبار عظيم ويحتمل ان يكون

المراد هذا وهذا والله أعلم كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون وقوله واذ تأذن ربكم أى آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ويحتمل ان يكون المعنى واذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة وقوله لازيدنكم أى لئن شكرتم نعمتى عليكم لازيدنكم منها ولئن كفرتم اى كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ان عذابى لشديد وذلك بسلبها عنهم وعقابه اياهم على كفرها وقد جاء فى الحديث ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفى المسند ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به سائل فاعطاه تمرة فسخطها ولم يقبلها ثم مر به آخر فأعطاه اياها فقبلها وقال تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر له باربعين درهما أو كما قال قال الامام أحمد حدثنا أسود حدثنا عمارة الصيدلانى عن ثابت عن أنس قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم سائل فامر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها قال وأتاه آخر فامر له بتمرة فقال سبحان الله تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للجارية اذهبى الى ام سلمة فاعطيه الاربعين درهما التى عندها تفرد به الامام أحمد وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان واحمد ويعقوب بن عثمان وقال ابن معين صالح وقال ابو زرعة لا بأس به وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين وقال البخارى ربما يضطرب فى حديثه وعن أحمد ايضا انه قال روى عنه احاديث منكرة وقال ابو داود ليس بذلك وضعفه الدارقطنى وقال ابن عدى لا بأس به ممن يكتب حديثه وقوله تعالى وقال موسى ان تكفروا انتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد اى هو غنى عن شكر عباده وهو الحميد المحمود وان كفره من كفره كقوله ان تكفروا فان الله غنى عنكم الآية وقوله فكفروا وتولوا واستغنى الله

الجملة حالية وليس بظاهر وجواب اذا قوله (قالوا) أى كفار قريش الجاهلون للحكمة فى النسخ (انما أنت) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (مفتر) أى كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث تزعم انه أمرك بشئ ثم تزعم انه أمرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال (بل أكثرهم لا يعلمون) شيأ من العلم أصلا أو لا يعلمون حقيقة القرآن وهو انه اللفظ المنزل من عند الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته أو لا يعلمون بالحكمة فى النسخ فانه مبنى على المصالح التى لا يعلمها الا الله سبحانه فقد تكون فى شرع هذا الشئ مصلحة موقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت فى شرع غيره وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا ان ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين ان ذلك لم يكن من عند الله وان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم افتراه فقال (قل نزله) أى القرآن المدلول عليه بذكر الآية (روح القدس) بضم الدال وسكونها سبعيتان والقدس التطهير والطهارة والمعنى نزله الروح المطهر من ادناس البشرية وهو جبريل عليه السلام فهو من اضافة الموصوف الى الصفة كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير (من ربك) أى ابتداء تنزيله من عنده سبحانه (بالحق) أى متلبسا بكونه حقا ثابتا لحكمة بالغة (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ولانهم أيضا اذا عرفوا ما فى النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم وقرئ من الاثبات (وهدى وبشرى للمسلمين) معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا لهم وهداية و بشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصائل لغيرهم ثم ذكر سبحانه شبهة اخرى من شبههم فقال (ولقد نعلم) علما مستمرا (انهم يقولون انما يعلمه بشر) وليس هو من عند الله كما هو بزعم واللام هى الموطئة أى والله لقد نعلم ان هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمدا القرآن بشر من بنى آدم غير ملك وقد اختلف أهل العلم فى تعيين هذا البشر الذى زعموا عليه ما زعموا فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا حدادا روميا فاسلم وكان قريش اذا سمعوا من النبى صلى الله عليه وآله وسلم أخبار القرون الأولى مع كونه أميا قالوا انما يعلمه جبر وقيل اسمه عايش أو يعيش عبد لبنى الحضرمى وكان يقرأ الكتب الاعجمية وقيل غلام لبنى عامر بن لؤى وقيل عنوا سلمان

والله غنى حميد وفى صحيح مسلم(١) عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل انه قال يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيأ يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك فى ملكى شيأ يا عبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسئلته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر فسبحانه وتعالى الغنى الحميد

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) قال ابن جرير هذا من تمام قول موسى لقومه يعنى وتذكاره اياهم بأيام الله بانتقامه من الامم المكذبة بالرسل وفيما قال ابن جرير نظر والظاهر انه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الامة فانه قد قيل ان قصة عاد وثمود ليست فى التوراة فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصه عليهم ولا شك أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الامم المكذبة للرسل مما لا يحصى عدده الا الله عزوجل أتتهم رسلهم بالبينات أى بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات وقال ابن اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله انه قال فى قوله لا يعلمهم الا الله كذب النسابون وقال عروة ابن الزبير ماوجدنا أحدا يعرف مابعد معد بن عدنان وقوله فردوا أيديهم فى أفواههم اختلف المفسرون فى معناه قيل معناه انهم أشاروا الى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم الى الله عزوجل وقيل بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبا لهم وقيل بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة معناه انهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم قال ابن جرير وتوجيهه ان فى هنا بمعنى الباء قال وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون فى الجنة وقال الشاعر

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه * ولكننى عن سنبس لست أرغب

يريد أرغب بها قلت ويؤيد قول مجاهد تفسيره بتمام الكلام قالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب فكأن هذا تفسير لمعنى فردوا أيديهم فى أفواههم وقال سفيان الثورى واسرائيل عن أبى اسحق عن أبى الاحوص عن عبد الله فى قوله

الفارسى وقيل عنوا نصرانيا بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة وقيل عنوا رجلا نصرانيا كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية وفى رواية اسمه عداس وقيل أرادوا بالبشر غلامين اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر وكانا صيقليين يعملان السيوف بمكة وكانا يقرآن كتابا لهم وقيل كان يقرآن التوراة والانجيل وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون انما يتعلم منهما قاله عبد الله بن مسلم الحضرمى قال النحاس وهذه الاقوال غير متناقضة لانه يجوز انهم زعموا انهم جميعا يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال انه سلمان لان هذه الآية مكية وهو انما أتى الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال (لسان الذى يلحدون اليه) أى لغته وكلامه (أعجمى) والالحاد الميل يقال لحد وألحد أى مال عن القصد ومنه لحد القبر لانه حفرة مائلة عن وسطه وقد تقدم فى الاعراف والمعنى لسان الذى يميلون اليه ويشيرون ويزعمون أنه يعلمك أعجمى يقال رجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصحان والعجمة الاخفاء وهى ضد البيان والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجميا قال الفراء والراغب الاعجم الذى فى لسانه عجمة وان كان من العرب والاعجمى هو الذى أصله من العجم وقال أبو على الفارسى العجمى المنسوب الى العجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم وكذلك الاعجم والاعجمى المنسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والأعرابى الذى يسكن البادية والعربى الذى يسكن الامصار من بلاد العرب (وهذا) أى القرآن (لسان) أى كلام (عربى مبين) وسماه لسانا لان العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال وهذا قرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون ان بشرا يعلمه من العجم وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذى تشيرون اليه وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه وأنتم أهل اللسان العربى ورجال الفصاحة وقادة البلاغة فثبت بهذا ان الذى جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحى أوحاه الله اليه وليس هو من تعليم البشر الذى تشيرون اليه ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحى من الله عزوجل وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لابطال طعنهم ودفع كذبهم ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهددهم فقال (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى لا يصدقون بها فى علم الله (لا يهديهم الله) الى الحق الذى هو سبيل النجاة هداية

---

(١) قوله وفى صحيح مسلم الخ الموجود هنا بعض الحديث

فردوا أيديهم فى أفواههم قال عضوا عليها غيظا وقال شعبة عن أبى اسحق عن أبى هبيرة بن مريم عن عبد الله انه قال ذلك أيضا وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فوجهه ابن جرير مختار اله بقوله تعالى عن المنافقين واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وقال العوفى عن ابن عباس سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم الى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به الآية يقولون لا نصدقكم فيما جئتم به فان عندنا فيه شكا قويا (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم فى المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤا به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل أفى الله شك وهذا يحتمل شيئين أحدهما أفى وجوده شك فان الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به فان الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج الى النظر فى الدليل الموصل الى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم الى طريق معرفته بانه فاطر السموات والارض الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق فان شواهد الحدث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلابد لهما من صانع وهو الله لا اله الا هو خالق كل شئ والهه ومليكه والمعنى الثانى فى قولهم أفى الله شك أى أفى الهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة الا هو وحده لا شريك له فان غالب الامم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى وقالت لهم رسلهم الرسل تدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم أى فى الدار الآخرة ويؤخركم الى أجل مسمى يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله الآية فقالت لهم الامم محاجين فى مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الاول وحاصل ما قالوه ان أنتم الا بشر مثلنا أى كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نرى منكم معجزة فأتونا بسلطان مبين أى خارق نقترحه عليكم قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم أى صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ولكن الله يمن على من يشاء من عباده أى بالرسالة والنبوة وما كان لنا أن نأتيكم

موصلة الى المطلوب لما علم من شقاوتهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رد عليهم بقوله (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو رأس المؤمنين بها والداعين الى الايمان بها وهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها فهم المفترون للكذب قال الزجاج المعنى انما يفترى الكذب الذين اذا رأوا الآيات التى لا يقدر عليها الا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة ثم سماهم الكاذبين فقال (وأولئك) المتصفون بذلك (هم الكاذبون) أى ان الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم فهم الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله وقولهم انما يعلمه بشر والتأكيد بالتكرار وان وغيرهما رد القولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله من بعد ايمانه) أى تلفظ وتكلم بالكفر أو فعل فعل كفر سواء كان مختارا فى ذلك أو مكرها عليه فالاستثناء فى قوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) متصل وقال القرطبى أجمع المفسرون وأهل العلم على ان من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل انه لا اثم عليه ان كفر وقلبه مطمئن بالايمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر وحكى عن محمد بن الحسن انه اذا ظهر الكفر كان مرتدا فى الظاهر وفيما بينه وبين الله على الاسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه ان مات ولا يرث أباه ان مات مسلما وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة وذهب الحسن البصرى والاوزاعى والشافعى وسحنون الى ان هذه الرخصة انما جاءت فى القول واما فى الفعل فلا رخصة مثل ان يكره على السجود لغير الله ويدفعه ظاهر الآية فانها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم والمعنى الا من كفر باكراه والحال ان قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يهاجر الى المدينة قال لاصحابه تفرقوا عنى فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب أول الليل فاذا سمعتم بى قد استقرت بى الارض فالحقوا بى فاصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فاخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعا من حديد فى الشمس ثم

بسلطان على وفق ما سألتم الا باذن الله اى بعد سؤالنا اياه واذنه لنا فى ذلك وعلى الله فليتوكل المؤمنون أى فى جميع أمورهم ثم قالت الرسل وما لنا ان لا نتوكل على اى وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا الأقوم الطرق وأصحها وأبينها ولنصبرن على ما آذيتمونا اى من الكلام السيء والافعال السخيفة وعلى الله فليتوكل المتوكلون (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء

صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) يخبر تعالى عما توعدت به الامم الكافرة رسلهم من الاخراج من الارض والنفى من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا الآية وكما قال قوم لوط أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية وقال تعالى اخبارا عن مشركى قريش وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا وقال تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وكان من صنعه تعالى انه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا يقاتلون فى سبيل الله تعالى ولم يزل يرقيه تعالى من شئ الى شئ حتى فتح له مكة التى أخرجته ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الارض حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الاديان فى مشارق الارض ومغاربها فى أيسر زمان ولهذا قال تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم وكما ولا قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز وقال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر الآية وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقوله ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد أى وعيدى لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة وخاف من وعيدى وهو تخويفى وعذابى كما قال تعالى

يلبسونها اياه فاذا ألبسوها اياه قال أحد أحد وأما خباب فجعلوا يجرونه فى الشوك وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فادخل الحربة فى قبلها حتى قتلها ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه بأمرهم واشتد على عمار الذى كان تكلم به فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف كان قلبك حين قلت أكان منشرحا بالذى قلت أم لا قال لا فانزل الله الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان وقيل نزلت فى أناس من أهل مكة وقيل نزلت فى جبر مولى عامر بن الحضرمى أكرهه سيده على الكفر والاول أولى والحق ان الآية عامة فى كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا وفيه دليل على ان محل الايمان هو القلب (ولكن) الاستدراك واضح لان قوله الا من أكره قد يسبق الوهم الى الاستثناء مطلقا فاستدرك هذا وقوله مطمئن لا ينفى ذلك الوهم (من) موصولة أو شرطية والاول أولى (شرح بالكفر صدرا) أى اختاره ورضى به وطابت به نفسه (فعليهم) فيه مراعاة معنى من ولو راعى لفظها لأفرد وقال فعليه (غضب من الله ولهم عذاب عظيم) فى الآخرة عن ابن عباس قال أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى صلى الله عليه وآله وسلم وذكر آلهتهم بخير فتركوه فلما أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ما وراءك قال شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال كيف تجد قلبك قال مطمئنا بالايمان قال ان عادوا فعد فنزلت الا من أكره الخ قال فذلك عمار بن ياسر ولكن من شرح بالكفر صدرا عبد الله بن أبى سرح أخرجه البيهقى والحاكم وصححه وفى الباب روايات مصرحة بانها نزلت فيه وعن محمد بن سيرين قال نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة وعن ابن عباس قال هو عبد الله بن أبى سرح الذى كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان يقتل يوم فتح مكة فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعن الحسن وعكرمة مثله وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه وعيد (ذلك) اى الكفر بعد الايمان أو الوعيد بالغضب والعذاب (بأنهم استحبوا الحياة الدنيا) اى ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا الفانية (على الآخرة) الباقية الدائمة (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) فى علمه الى الايمان به

فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وقال ولمن خاف مقام ربه جنتان وقوله واستفتحوا أى استنصرت الرسل ربها على قومها قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم استفتحت الامم على انفسها كما قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ويحتمل ان يكون هذا مرادا وهذا مرادا كما انهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنصر وقال الله تعالى للمشركين ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم الآية والله أعلم وخاب كل جبار عنيد أى متجبر فى نفسه عنيد (٢٨١) معاند للحق كقوله تعالى ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد وفى الحديث انه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادى الخلائق فتقول انى وكلت بكل جبار عنيد الحديث خاب وخسر حين اجتهد الانبياء فى الابتهال الى ربها العزيز المقتدر وقوله من ورائه جهنم وراء هنا بمعنى امام كقوله تعالى وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وكان ابن عباس يقرؤها وكان امامهم ملك أى من وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمرصاد يسكنها مخلدا يوم المعاد ويعرض عليها غدوا وعشيا الى يوم التناد ويسقى من ماء صديد أى فى النار ليس له شراب الا من حميم وغساق فهذا فى غاية الحرارة وهذا فى غاية البرد والنتن كما قال هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج وقال مجاهد وعكرمة الصديد من القيح والدم وقال قتادة هو ما يسيل من لحمه وجلده وفى رواية عنه الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم وفى حديث شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد بن السكن قالت قلت يارسول الله ما طينة الخبال قال صديد أهل النار وفى رواية عصارة أهل النار وقال الامام أحمد حدثنا على بن اسحق انبأنا عبد الله انبأنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بشر عن أبى امامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب اليه فيتكرهه فاذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم ويقول وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه الآية وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به ورواه هو وابن ابى حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به

ولا يعصمهم من الزيغ ثم وصفهم بقوله (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الاوصاف القبيحة (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا أبصروا الآيات التى يستدل بها على الحق وقد سبق تحقيق الطبع فى أول البقرة ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال (وأولئك هم الغافلون) عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وضمير الفصل يفيد انهم متناهون فى الغفلة اذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه (لا جرم) قد تقدم تحقيق الكلام فى معناها أى حقا (انهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران البالغون الى غاية منه ليس فوقها غاية لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم والموجب لخسرانهم ان الله وصفهم بست صفات تقدمت الاولى انهم استوجبوا غضب الله الثانية انهم استحقوا عذابه العظيم الثالثة انهم استحبوا الحياة الدنيا الرابعة انهم حرمهم الله من الهداية الخامسة انه طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين (ثم ان ربك للذين هاجروا) من دار الكفر الى دار الاسلام وخبر ان محذوف أى لغفور رحيم وقيل الخبر هو الذين هاجروا أى ان ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم وفيه بعد قال فى الكشاف ثم ههنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء يعنى الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك وهم عمار وأصحابه ويدل على ذلك ما روى انها نزلت فى ابن أبى السرح قال ابن عباس كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالاسلام فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا بذلك اليهم أن الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فادركهم المشركون فقاتلوهم فنجى من نجى وقتل من قتل (من بعد ما فتنوا) أى فتنهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا فى الكفر وقرئ فتنوا على البناء للفاعل وهى سبعية أيضا أى للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الاسلام (ثم جاهدوا) فى سبيل الله (وصبروا) على ما أصابهم من الكفار وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف (ان ربك من بعدها) أى من بعد الفتنة التى فتنوها أو بعد المهاجرة أو الجهاد أو الصبر أو جميع ذلك (لغفور رحيم) اى كثير الغفران والرحمة لهم ومعنى الآية على قراءة البناء للفاعل واضح ظاهر أى ان ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا الغفور رحيم وأما على قراءة البناء للمفعول وهى قراءة الجمهور فالمعنى ان هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة

وقوله يتجرعه أي يتغصصه ويتكرهه اي يشربه قهرا لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بطراق من حديد كما قال تعالى ولهم مقامع من حديد ولا يكاد يسيغه اي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع و يأتيه الموت من كل مكان اي يألم له جميع بدنه وجوارحه واعضائه قال عمرو بن ميمون من كل عظم وعصب وعرق وقال عكرمة حتى من اطراف شعره وقال ابراهيم التيمي من موضع كل شعرة اي من جسده حتى من اطراف شعره وقال ابن جرير و يأتيه الموت من كل مكان اي من امامه وخلفه وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقهم ومن (٢٨٢) تحت ارجلهم ومن سائر اعضاء جسده وقال الضحاك عن ابن عباس ويأتيه الموت من كل مكان قال انواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع الا يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت لان الله تعالى قال لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه انه ما من نوع من هذه الانواع من العذاب الا اذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ولهذا قال و يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وقوله ومن ورائه عذاب غليظ اي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ اي مؤلم صعب شديد اغلظ من الذي قبله وادهى وامر وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم انها شجرة تخرج في اصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم فأخبر انهم تارة يكونون في أكل زقوم وتارة في شرب حميم وتارة يردون الى جحيم عياذا بالله من ذلك وهكذا قال تعالى هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن وقال تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق راسه من عذاب الحميم ذق انك انت العزيز الكريم ان هذا ما كنتم به تمترون وقال واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم وقال تعالى هذا وان للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله ازواج الى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وانواعه واشكاله مما لا يحصيه الا الله عز وجل جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به

للكفر اذا اصلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم وأما اذا كان سبب الآية هو عبد الله بن أبي سرح الذي ارتد عن الاسلام ثم رجع بعد ذلك اليه فالمعنى ان هذا المفتون في دينه بالردة اذا أسلم وجاهد وصبر فالله غفور له رحيم به (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) أي تخاصم وتسعى في خلاصها وقد استشكل اضافة ضمير النفس الى النفس ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه واجيب بان المراد بالنفس الاولى جملة بدن الانسان وبالنفس الثانية الذات فكأنه قيل يوم يأتي كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيرها بل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة فهو يجادل ويخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة (وتوفى كل نفس) جزاء (ما عملت) في الدنيا من خير أو شر (وهم لا يظلمون) من جزاء أعمالهم بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة أو نقصان (وضرب الله مثلا قرية) قد قدمنا ان ضرب مضمن معنى جعل ولذا عدي الى مفعولين قد اختلف المفسرون هل المراد بهذه القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة قال الزمخشري بل كل قوم أنعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته ونحوه في البيضاوي قال القرطبي انه مثل مضروب لاي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز ان تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ويجوز ان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها وذهب الاكثرون الى الاول وصرحوا بانها مكة وذلك لما دعا عليهم رسول الله صلى الله وآله وسلم وقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام والثاني أرجح لان تنكير قرية يفيد ذلك ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولا أوليا وأيضا يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلها وعلى فرض ارادتها ففي المثل انذار لغيرها من مثل عاقبتها وعن ابن عباس قال يعني مكة وعن عطية مثله وزاد فقال الا ترى انه قال ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه قال الواحدي ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم أي بين الله لها شبها ثم وصف القرية بانها

الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا اليها وقال تعالى مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم اي مثل اعمالهم يوم القيامة اذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لانهم كانوا يحسبون انهم على شيء فلم يجدوا شيأ ولا الفوا حاصلا الا كما يتحصل من الرماد اذا اشتدت به الريح العاصفة في يوم عاصف اي ذي ريح عاصفة قوية فلم يقدروا على شيء من اعمالهم التي كسبوا في الدنيا الا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقوله تعالى مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين وقوله في هذه الآية ذلك هو الضلال البعيد أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا اليه ذلك هو الضلال البعيد (الم تر ان الله خلق السموات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) يقول تعالى مخبرا عن قدرته على معاد الابدان يوم القيامة بانه خالق السموات والارض التي هي أكبر من خلق الناس أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفات والآيات الباهرات وهذه الارض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وصحاري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها واشكالها وألوانها أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير وقال تعالى أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيأ

(كانت آمنة) غير خائفة (مطمئنة) غير منزعجة أي لا يخاف أهلها ولا ينزعجون وعن ابن شهاب قال القرية التي كانت آمنة مطمئنة هي يثرب قلت ولا أدري أي دليل على هذا التعيين ولا أي قرينة قامت له على ذلك ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الانصار بأنعم الله وأي وقت أذاقها الله لباس الجوع والخوف وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صح ذلك عن الصادق المصدوق وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (يأتيها رزقها) أي ما يرتزق به أهلها (رغدا) أي واسعا يقال رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغد ورغيد ورغد ورغد رغدا من باب تعب لغة فهو راغد وهو في رغد من العيش أي رزق واسع وأرغد القوم بالالف أخصبوا والرغيد الزبد (من كل مكان) من الامكنة التي يجلب ما فيها اليها أي من نواحيها من البر والبحر (فكفرت) أي كفر أهلها (بأنعم الله) التي أنعم بها عليهم وهي جمع نعمة كالاشد جمع شدة وقيل كالادرع جمع درع على ترك الاعتداد بالتاء وقيل جمع نعم مثل بؤس وابؤس ويحتمل انه جمع نعماء بفتح النون والمد وهي بمعنى النعمة وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله (فاذاقها الله) أي أهلها (لباس الجوع والخوف) أي أثرهما فقحطوا سبع سنين وسمى ذلك لباسا لانه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة وأصلها الذوق بالفم ثم استعيرت لمطلق الايصال مع انبائها بشدة الاصابة لما فيها من اجتماع الادراكين ادراك اللمس والذوق روى ان ابن الراوندي الزنديق قال لابن الاعرابي امام اللغة والادب هل يذاق اللباس فقال له ابن الاعرابي لا بأس أيها النسناس هب ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ما كان نبيا أما كان عربيا كأنه طعن في الآية بأن المناسب ان يقال فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع فرد عليه ابن الاعرابي وقد أجاب علماء البيان ان هذا من تجريد الاستعارة وذلك انه استعار اللباس لما غشي الانسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ثم ذكر الوصف ملائما للمستعار له وهو الجوع والخوف لان اطلاق الذوق على ادراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة قيل وترشيح الاستعارة وان كان

ان يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون وقوله ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله
بعزيز أي بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه اذا خالفتم أمره كما قال وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم وقال يا أيها
الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وقال ان يشأ يذهبكم ويأت بآخرين وكان الله على
ذلك قديرا (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا
الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا (٢٨٤) مالنا من محيص) يقول تعالى وبرزوا أي برزت الخلائق كلها برها

وفاجرها لله الواحد القهار أي اجتمعوا له في براز من الارض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر احدا فقال الضعفاء وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل فقالوا لهم انا كنا لكم تبعا أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء أي فهل تدفعون عنا شيأ من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم لو هدانا الله لهديناكم ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله وحقت كلمة العذاب على الكافرين سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه ان صبرنا عليه أو جزعنا منه قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ان أهل النار قال بعضهم لبعض تعالوا فانما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم الى الله عز وجل تعالوا نبك ونتضرع الى الله ففعلوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا انما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر تعالوا حتى نصبر فصبروا واصبرا لم ير مثله فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا

مستحسنا من جهة المبالغة الا ان للتجريد ترجيحا من حيث انه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحا قال الرازي والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها والتقدير ان الله عرفها الباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

أو يحمل اللبس على المماسة أي فاذاقها الله مساس الجوع (بما كانوا يصنعون) أي فعلنا بهم ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم ولم يقل صنعت لانه أراد أهل القرية قال الفراء كل الصفات أجريت على القرية الا قوله يصنعون تنبيها على ان المراد في الحقيقة أهلها (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (رسول منهم) أي من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه فامرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم (فكذبوه) فيما جاء به (فاخذهم العذاب) النازل بهم من الله سبحانه (وهم) أي والحال انهم في حال أخذهم العذاب لهم (ظالمون) لانفسهم بايقاعها في العذاب الابدي ولغيرهم بالاضرار لهم وصدهم عن سبيل الله وهذا الكلام من تمام المثل المضروب وقيل ان المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم وقيل القتل يوم بدر والاول أولى ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة أمرهم بان يأكلوا مما رزقهم الله من الغنائم ونحوها وقال (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) جاء بالفاء للاشعار بان ذلك متسبب عن ترك الكفر والمعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنائم واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم قيل الخطاب للمسلمين وبه قال جمهور المفسرين وقيل للمشركين من أهل مكة حكاه الواحدي وغيره والاول أولى وقيل ان الفاء في فكلوا داخلة على الامر بالشكر وانما دخلت على الامر بالاكل لان الاكل ذريعة الى الشكر (واشكروا نعمة الله) التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها (ان كنتم اياه تعبدون) ولا تعبدون غيره أو ان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادة الله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير و) حرم الله (ما أهل) أي ما رفع الصوت (لغير الله به) سواء كان صنما أو وثنا أو نصبا

سواء علينا أجزعنا أم صبرنا الآية قلت والظاهر ان هذه المراجعة في النار بعد دخولهم اليها كما قال تعالى واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال تعالى قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون وقال تعالى ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا

السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون (وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق (٢٨٥) ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام) يخبر تعالى عما خاطب به ابليس اتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فادخل المؤمن الجنة وأسكن الكافرين الدركات فقام فيهم ابليس لعنه الله يومئذ خطيبا ليزيدهم حزنا الى حزنهم وغبنا الى غبنهم وحسرة الى حسرتهم فقال ان الله وعدكم وعد الحق أي على السنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعدا حقا وخبرا صادقا وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم كما قال الله تعالى يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم قال وما كان لي عليكم من سلطان أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم اليه ولا حجة فيما وعدتكم الا ان دعوتكم فاستجبتم لي بمجرد ذلك هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤكم به فخالفتموهم فصرتم الى ما أنتم فيه فلا تلوموني اليوم ولوموا أنفسكم فان الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم الى الباطل ما أنا بمصرخكم أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه وما أنتم بمصرخي أي بنافعي بانقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال اني كفرت بما أشركتمون من قبل قال قتادة أي بسبب ما أشركتمون من قبل وقال ابن جرير يقول اني جحدت ان أكون شريكا لله عز وجل وهذا الذي قاله هو الراجح كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم

أو روحا خبيثا من جن أو روحا طيبا من انس كالنبي والولي والصالح حيا كان أو ميتا فهو حرام وقد ورد في الحديث ملعون من ذبح لغير الله أي سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم لان ما اشتهر لغيره سبحانه وتعالى ورفع به الصوت باسم الفلاني لا ينفع بعد ذلك ذكر اسمه تعالى عند ذبحه لان هذا الحيوان قد انتسب الى ذلك الغير وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة فانها لم يذكر عليها اسم الله وهذا الحيوان قد عين روحه لغير خالقه ثم ذبح له وهو الشرك بعينه وحين سرى هذا الخبث وأثر فيه لا يحل بحال وان ذكر اسم الله عليه كما لو ذبح الكلب او الخنزير على اسمه سبحانه وتعالى لا يحل والسر في ذلك ان نذر الروح لغير خالق الروح لا يجوز وان كان حكم جميع المأكولات والمشروبات والاموال المنذورة للتقرب الى غير الله سبحانه هكذا فانها اشراك وحرام ولكن ثوابها الذي كان يعود الى الناذر جاز جعله للغير كما جاز للانسان ان يعطي ماله من شاء بخلاف روح الحيوان فانه ليس بمملوك للانسان حتى يعطيه لاحد غير الله وانما وجب الاجر في انفاق المال لان المال شيء ينتفع به في الحال ولما كان الموتى لا ينتفعون بعين المال جعل طريق ايصال النفع اليهم ان يجعل الاموال المعطاة لاهل الاستحقاق لهم فيعود ثوابها اليهم واما روح الحيوان فلا يصلح للانتفاع في حياة الانسان فكيف بعد مماته ومضى الازمان وأما الاضحية عن الميت التي ورد بها الحديث فمعناها ان الاجر الذي كان يثبت في ازهاق الروح لله سبحانه وتعالى يعطى لذلك الميت لانه يذبح لاجله ويرفع به الصوت للتقرب اليه وهذه الآية الكريمة جاءت في أربعة مواضع من التنزيل ومعناها ما رفع به الصوت لغير الله لا ما ذبح باسم غير الله فمن رفع الصوت بحيوان لغيره تعالى ثم ذكر اسم الله عند ذبحه لا ينفعه هذا الذكر شيأ ولا يأتي بفائدة ولا يعود بعائدة ولا يحل أكله بهذا الذكر عند الذبح وانما الاهلال في لغة العرب بمعنى رفع الصوت لا بمعنى الذبح كيف ولم يرد به عرف ولا وقع في شعر قط هذه كتب اللسان العربي ودفاتر اللغات على وجه البسيطة ليس في أحد منها الاهلال بمعنى الذبح وانما يقال الاهلال لرؤية الهلال ولبكاء الطفل وللتلبية بالحج لا للذبح فليس معنى أهللت لله ذبحت له في القاموس استهل الصبي رفع صوته بالبكاء كأهل وكذا كل متكلم رفع صوته أو خفض وأهل نظر الى الهلال والملبي رفع صوته بالتلبية وقال الجوهري استهل الصبي أي صاح عند الولادة وأهل المعتمر اذا رفع صوته

كافرين وقال كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقوله ان الظالمين أى فى اعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم والظاهر من سياق الآية ان هذه الخطبة تكون من ابليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم وهذا لفظه وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد حدثنى دحين الحجرى عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا جمع الله الاولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء قال المؤمنون قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا فيقولون انطلقوا بنا الى آدم وذكر نوحا وابراهيم وموسى وعيسى (٢٨٦) فيقول عيسى أدلكم على النبى الامى فيأتونى فيأذن الله لى ان أقوم اليه فيثور من مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو الا ابليس هو الذى أضلنا فيأتون ابليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك انت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم نحيبهم وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وهذا سياق ابن أبى حاتم ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد عن عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم عن دحين عن عقبة به مرفوعا وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله لما قال أهل النار سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قال لهم ابليس ان الله وعدكم وعد الحق الآية فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون وقال عامر الشعبى يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤس الناس يقول الله تعالى لعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله الى قوله قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم قال ويقوم ابليس لعنه الله فيقول ما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى الآية ثم لما ذكر تعالى مآل الاشقياء وما صاروا اليه من الخزى والنكال وان خطيبهم ابليس عطف بمآل السعداء فقال وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا خالدين فيها ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون تحيتهم فيها سلام كما قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم وقال

بالتلبية وأهل بالتسمية على الذبيحة وقوله تعالى وما أهل لغير الله به أى نودى عليه بغير اسم الله وأصله رفع الصوت انتهى ولو سلم ان معناه ذبح لغير الله فأين هذا من معنى ذبح باسم غير الله حتى تنتهض به الحجة فالقول بان الاهلال فى هذه الآية ونظائرها بمعنى الذبح وغير الله بمعنى اسم غير الله يقرب بتحريف كلامه سبحانه وتعالى حاشاه عن ذلك وقد حكى النظام النيسابورى فى تفسيره اجماع أهل العلم على ان ذبيحة المسلم التى قصد بذبحها التقرب الى غير الله ذبيحة مرتد وقد صار هو مرتدا أيضا وكان الكفار فى الجاهلية اذا خرجوا من ديارهم رفعوا الاصوات بأسماء الاصنام فى الطرق والشوارع واذا وصلوا الى مكة المكرمة طافوا الكعبة مع ان طوافهم هذا لم يكن يقبل عند الله ولهذا نزل قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا فكذلك فيما نحن فيه اذا رفع أحد الصوت بحيوان انه لفلان أو لاجله أو يذبح له ثم ذكر عليه اسم الله عند الذبح فهنا لا تترتب عليه الحلية أصلا نعم ان تغير النية ويبدل الامنية ويزيل قصد التقرب به الى غير الله ويرفع به الصوت خلاف ما رفع به أولا ويقول تبت عنه ثم يذبح ويذكر عليه اسم الله تعالى يحل أكله واذا تقرر لك ان الاهلال بمعنى رفع الصوت فى اللغة لا بمعنى الذبح علمت ان الذى فسره بالذبح قد غلط غلطا بينا أو تجوز ولا يصار الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة أو تأول رفع الصوت بالذبح بناء على سبب النزول وانما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد فسرنا الاهلال فى البقرة والمائدة والانعام بما فسر به جمهور المفسرين وهو تسامح سبق به القلم وانما الحق فى المقام تفسيره برفع الصوت والغاء قيد الذبح ليتناول النظم الكريم كل حيوان رفع به الصوت لغير الله سبحانه وتعالى سواء ذبح باسم الله أو باسم غيره وعليه تدل اللغة العربية وهى الاصل المقدم فى تفسير كلام الله العزيز على الجميع ما لم يعارضه نص مقدم أو ناقل صريح أو دليل مساو والذى فسرنا به الآية هنا قد فسرها به الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوى رحمه الله فى تفسيره وهو الصواب وبالله التوفيق ثم ذكر الله سبحانه الرخصة فى تناول شئ مما ذكر فقال (فمن اضطر) أى دعته ضرورة المخمصة الى تناول شئ من ذلك حال كونه (غير باغ) على مضطر آخر (ولا عاد) متعد قدر الضرورة وسد الرمق (فان الله غفور رحيم) لا يؤاخذه بذلك وقيل معناه غير باغ على الوالى ولا متعد على الناس بالخروج لقطع الطريق فعلى هذا الاباحة تناول شئ من

تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تعالى ويلقون فيها تحية وسلاما وقال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ومثل كلمة طيبة شهادة أن لا اله الا الله كشجرة طيبة وهو المؤمن أصلها ثابت يقول لا اله الا الله فى قلب المؤمن وفرعها فى السماء (٢٨٧) يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد ان ذلك عمل المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح وان المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدى عن مرة عن ابن مسعود قال هى النخلة وشعبة عن معاوية بن قرة عن أنس هى النخلة وحماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقناع بسر فقرأ ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة قال هى النخلة وروى من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفا وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم وقال البخارى حدثنا عبيد بن اسمعيل عن أبى اسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرونى عن شجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء تؤتى أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع فى نفسى انها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت ان أتكلم فلما لم يقولوا شيأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى انها النخلة قال ما منعك ان تكلم قال لم أركم تكلمون فكرهت ان أتكلم أو أقول شيأ قال عمر لان تكون قلتها أحب الى من كذا وكذا وقال أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد صحبت ابن عمر الى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حديثا واحدا قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بجمار فقال من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم فأردت ان أقول هى النخلة فنظرت فاذا أنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة أخرجاه وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن

المحرمات فى سفر المعصية ثم زيف طريقة الكفار فى الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفى النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) قال الكسائى والزجاج ما مصدرية والكذب منتصب بلا تقولوا أى لا تقولوا الكذب لاجل وصف ألسنتكم ومعناه لا تحللوا ولا تحرموا لاجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة وقيل ما موصولة والكذب منتصب بتصف أى لا تقولوا للذى تصف ألسنتكم الكذب فيه فحذف لفظ فيه لكونه معلوما فيكون هذا حلال وهذا حرام بدلا من الكذب قال مجاهد فى البحيرة والسائبة وقيل يعنى قولهم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحى قيل فى الكلام حذف بتقدير القول أى فتقول هذا حلال وهذا حرام أو قائلة هذا حلال وهذا حرام وقيل لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب وقرئ كذب بضم الثلاثة على انه نعت للالسنة وقرئ ككتف نعتا لما أو بدلا منها ومعناه ولا تقولوا الكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام عن أبى نضرة قال قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا الى يومى هذا قلت صدق رحمه الله فان هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأى المقدمين له على الرواية أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وانهم لحقيقون بان يحال بينهم وبين فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم فانهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل

كبهيمة عمياء قاد زمامها * أعمى على عوج الطريق الحائر

وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال عسى رجل يقول ان الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت أو يقول ان الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت (لتفتروا) اللام هى لام العاقبة لا لام الغرض أى فيتعقب ذلك افتراؤكم (على الله الكذب) بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير ان يكون منه (ان الذين يفترون على الله الكذب) أى افتراء كان (لا يفلحون) بنوع من أنواع الفلاح والفوز بالمطلوب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة بدليل ما بعده (متاع قليل) قال الزجاج متاعهم متاع قليل

دينار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لاصحابه ان من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن قال فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى قلبى انها النخلة أخرجاه أيضا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا أبان يعنى ابن زيد العطار حدثنا قتادة ان رجلا قال يارسول الله ذهب أهل الدثور بالاجور فقال أرأيت لو عمد الى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء أفلا أخبرك بعمل أصله فى الارض وفرعه فى السماء قال ماهو يارسول الله قال تقول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر (٢٨٨) مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الارض وفرعه فى السماء وعن ابن عباس كشجرة طيبة قال هى شجرة فى الجنة وقوله تؤتى أكلها كل حين قال غدوة وعشية وقيل كل شهر وقيل كل شهرين وقيل كل سنة أشهر وقيل كل سبعة أشهر وقيل كل سنة والظاهر من السياق ان المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين باذن ربها أى كاملا حسنا كثيرا طيبا ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون وقوله تعالى ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هذا مثل الكافر لا أصل له ولا ثبات مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان وقال أبو بكر البزار الحافظ حدثنا يحيى بن محمد السكن حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع حدثنا شعبة عن معاوية ابن قرة عن أنس أحسبه رفعه قال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة قال هى النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة قال هى الشريان ثم رواه عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن معاوية عن أنس موقوفا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد هو ابن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هى الحنظلة فاخبرت بذلك أبا العالية فقال هكذا كنا نسمع ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به ورواه أبو يعلى فى مسنده بابسط من هذا فقال حدثنا غسان عن حماد عن شعيب عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقناع عليه بسر فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها فقال هى النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة

وقيل لهم متاع قليل (ولهم عذاب أليم) يردون اليه فى الآخرة ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال (وعلى الذين هادوا) أى على اليهود خاصة دون غيرهم (حرمنا ما قصصنا عليك) بقولنا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية (من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا قال الحسن يعنى فى سورة الانعام وعن قتادة مثله وقال حيث يقول وعلى الذين هادوا الى قوله وانا لصادقون وتحريم الشئ اما للضرر فيه واما لبغى المحرم عليهم فقوله انما حرم عليكم الخ اشارة للقسم الاول وهذا اشارة للقسم الثانى (وما ظلمناهم) بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا أسباب ذلك فحرمنا عليهم تلك الاشياء عقوبة لهم ثم بين سبحانه ان الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أى متلبسين بجهالة أى جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه أى غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم وعن السلف كل من عصى الله فهو جاهل ولا يصدر العمل السوء الا من الجاهل بالعاقبة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح وفيه بيان سعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصى وقدم تقدم تفسير هذه الآية فى سورة النساء (ثم تابوا من بعد ذلك) أى من بعد عملهم للسوء وفيه تأكيد فان ثم قد دلت على البعدية فأكدها بزيادة ذكر البعدية (وأصلحوا) أعمالهم التى كان فيها افساد بالسوء الذى عملوه ثم كرر ذلك تأكيدا وتقريرا فقال (ان ربك من بعدها) أى من بعد التوبة (لغفور) كثير الغفران (رحيم) أى واسع الرحمة ولما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وابطال مطاعنهم وكان ابراهيم عليه السلام من الموحدين وهو قدوة كثير ممن ذكره الله فى آخر هذه السورة قال (ان ابراهيم كان أمة) قال ابن الاعرابى يقال للرجل العالم امة والامة الرجل الجامع للخير قال الواحدى قال أكثر المفسرين معنى الامة المعلم للخير وبه قال ابن مسعود وعلى هذا فمعنى كون ابراهيم امة انه كان معلما للخير أو جامعا لخصال الخير أو عالما بما علمه الله من الشرائع وقيل انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان امة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده لانه كان فارق الجاهلية قاله مجاهد وقيل بمعنى مأموم أى الذى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال تعالى انى جاعلك للناس اماما وحكى ابن الجوزى عن

اجتثت من فوق الارض مالها من قرار قال هي الحنظل قال شعيب فاخبرت بذلك أبا العالية فقال كذلك كنا نسمع وقوله
اجتثت أي استؤصلت من فوق الارض مالها من قرار أي لا أصل لها ولا ثبات كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر
عمل ولا يتقبل منه شيء (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) قال
البخاري حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أخبرني علقمة بن مرثد قال سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنه ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم اذا سئل في القبر شهد أن لا اله (٢٨٩) الا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت
الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ورواه مسلم أيضا وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الارض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها
في يده طرفة عين حتى يأخذوها ويجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها
كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح
الطيبة فيقولون فلان بن فلان باحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له
من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهي بها الى السماء السابعة فيقول الله اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه
الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان

ابن الانباري انه قال ان هذا مثل قول العرب فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بهذا
التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة على الجماعة وعلى
الواحد كقوله فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمي ابراهيم أمة لانه اجتمع
فيه من صفات الفضل وسمات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة

ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم في واحد

(قانتا لله) اي مطيعا له قائما بأوامره قال ابن مسعود هو الذي يطيع الله ورسوله وعن
ابن عباس قال كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الاسلام غيره فذلك
ما قال الله كان أمة قانتا لله وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
ما من عبد تشهد له أمة الا قبل الله شهادتهم والامة الرجل فما فوقه ان الله يقول ان ابراهيم
كان أمة أخرجه ابن مردويه وقد تقدم معنى القنوت في البقرة (حنيفا) الحنيف المائل
عن الاديان الباطلة الى دين الحق أي مسلما مقيما على دين الاسلام وقد تقدم بيانه في الانعام
(ولم يك من المشركين) بالله كما تزعمه كفار قريش انه كان على دينهم الباطل بل كان من
الموحدين المخلصين لله تعالى من صغره الى كبره (شاكرا لانعمه) التي أنعم الله بها عليه
وان كانت قليلة كما يدل عليه جمع القلة فهو شاكر لما كثر منها بالاولى (اجتباه) اي
اختاره للنبوة واختصه بها (وهداه الى صراط مستقيم) وهو ملة الاسلام ودين الحق
(وآتيناه في الدنيا حسنة) اي خصلة حسنة أو حالة حسنة قيل هي الولد الصالح وقيل الثناء
الجميل وقيل النبوة وقيل الصلاة منا عليه في التشهد وقيل لسان الصدق وقيل القبول
العام في جميع الامم فانه يتولاه جميع أهل الاديان ويثنون عليه ولا يكفر به أحد ورزقه
أولادا طيبة وعمرا طويلا في السعة والطاعة ولا مانع أن يكون ما آتاه الله شاملا لذلك
كله ولما عداه من خصال الخير وفيه التفات عن الغيبة ونكتة الالتفات زيادة الاعتناء
بشأنه عليه السلام (وانه في الآخرة لمن الصالحين) اي في أعلى مقاماتهم في الجنة وقيل
من بمعنى مع وهذا حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال وألحقني بالصالحين واجعل لي
لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم اللهم اني أسألك أن تجعلني ممن
يصدق عليه هذا الدعاء واني من ذرية خليلك ابراهيم وما ذلك عليك بعزيز وآتني في الدنيا
حسنة وفي الآخرة حسنة وقني عذاب النار انك انت التواب الرحيم وحاصل ما ذكر من

له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول ابشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة (٢٩٠) رب أقم الساعة حتى أرجع الى أهلي ومالي قال وان العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان باقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى بها الى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء ان كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة ورواه أبو داود من حديث الاعمش والنسائي وابن ماجه من

الصفات هنا تسعة بل عشرة اذ قوله سبحانه (ثم أوحينا اليك) يا محمد مع علو درجتك وسمو منزلتك وكونك سيد ولد آدم يرجع لوصف ابراهيم وتعظيمه بان محمدا أمر باتباعه (أن) مفسرة أو مصدرية (اتبع ملة ابراهيم) اى دينه وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبي من أنبيائه من أملت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيق ذلك ان الوضع الالهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما ان الملة لا تضاف الا الى النبي ولا تكاد توجد مضافة الى الله ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته الاسلام الذي عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم قيل والمراد اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم لملته عليه السلام في التوحيد والدعوة اليه وقال ابن جرير في التبري من الاوثان والتدين بدين الاسلام وقيل في مناسك الحج وقيل في الاصول دون الفروع وقال أبو السعود في الاصول والعقائد وأكثر الفروع دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار انتهى وقيل في جميع شريعته الا ما نسخ وهذا هو الظاهر وفي الكرخي انما جاز اتباع الافضل المفضول لسبقه الى القول والعمل به قال القرطبي وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الافضل للمفضول فيما يؤدي الى الصواب ولا درك على الفاضل في ذلك فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الانبياء عليهم السلام وقد أمر بالاقتداء بالانبياء مع كونه سيدهم فقال تعالى فبهداهم اقتده (حنيفا) حال من ابراهيم وجاز مجيء الحال منه لان الملة كالجزء منه وقد تقرر في علم النحو أن الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف اليه أو كان جزأ أو كالجزء من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الاول اذ يصح ان يقال أن اتبع ابراهيم حنيفا (وما كان من المشركين) تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها اى كرر ردا على زعم المشركين انهم على دينه (انما جعل السبت) اى وبال السبت وهو المسخ في زمن داود عليه السلام أو فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه (على الذين اختلفوا فيه) وهم اليهود لا على غيرهم من الامم وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت فقالت طائفة ان موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا ان السبت أفضل فقال الله له دعهم وما اختاروا لأنفسهم وقيل ان الله سبحانه أمرهم بتعظيم يوم

في

في الاسبوع فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت لان الله سبحانه فرغ فيه من الخلق وعينت النصارى يوم الاحد لان الله بدأ فيه الخلق فألزم الله كلا منهم ما أدى اليه اجتهاده وعين لهذه الامة الجمعة من غير أن يكلهم الى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان اليهود كانوا يزعمون ان السبت من شرائع ابراهيم عليه السلام فأخبر الله سبحانه انه انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره وانما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة قال الواحدي هذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة وقال آخرون الاحد أفضل وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فرقتين في السبت وانما اختار الاحد النصارى بعدهم بزمان طويل وعن مجاهد في الآية قال أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها وعن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قالا باستحلالهم اياه رأى موسى عليه السلام رجلا يحمل حطبا يوم السبت فضرب عنقه وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه (وان ربك ليحكم بينهم) اى بين المختلفين فيه (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيجازي فيه كلا بما يستحقه ثوابا وعقابا كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لاخرى ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو أمته الى الاسلام فقال (ادع الى سبيل ربك) وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة أو المعنى افعل الدعاء والاول أولى وكأن المعنى وخاطب الناس في دعائك لهم وسبيل الله هو الاسلام (بالحكمة) اى بالمقالة المحكمة الصحيحة الموضحة للحق المزيلة للشبهة والشك قيل وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين وقيل القرآن وقيل النبوة (والموعظة الحسنة) وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها قيل وهي الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة قيل وليس للدعوة الا هاتان الطريقتان ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الالد الى استعمال المعارضة

حديث المنهال بن عمرو به وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة فذكر نحوه وفيه فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب الا وهم يدعون الله عز وجل ان يعرج بروحه من قبلهم وفي آخره ثم يقيض له أعمى أصم أبكم وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب الى النار ويمهد له من فرش النار وقال سفيان الثوري عن أبيه عن خيثمة عن البراء في قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال عذاب القبر وقال المسعودي عن عبد الله ابن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال ان المؤمن اذا مات أجلس في قبره فيقال له ما ربك ما دينك من نبيك فيثبته الله فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ عبد الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقال الامام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيبان ابن عبد الرحمن بن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل قال فاما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة وذكر لنا انه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم القيامة رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به وقال الامام أحمد حدثنا يحيى ابن سعيد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير انه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذه الامة تبتلى في قبورها فاذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاء ملك شديد الانتهار فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل فاما المؤمن فيقول انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبده فيقول له الملك انظر الى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجاك الله منه وأبدلك

بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة فيراهما كليهما فيقول المؤمن دعوني أبشر أهلي فيقال له اسكن وأما المنافق فيقعد اذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري أقول كما يقول الناس فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار قال جابر فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يبعث كل عبد في القبر على ما مات المؤمن على ايمانه والمنافق على نفاقه اسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند (٢٩٢) عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس ان هذه الامة تبتلى في قبورها فاذا الانسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق من حديد فاقعده فقال ما تقول في هذا الرجل فان كان مؤمنا قال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له صدقت ثم يفتح له بابا الى النار فيقول كان هذا منزلك لو كفرت بربك فاما اذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له بابا الى الجنة فيريد أن ينهض اليه فيقول له اسكن ويفسح له في قبره وان كان كافرا أو منافقا فيقول له ما تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيأ فيقول لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له بابا الى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فاما اذ كفرت به فان الله عز وجل أبدلك به هذا فيفتح له بابا الى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين فقال بعض القوم يا رسول الله ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق الا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا أيضا اسناد لا بأس به فان عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقرونا ولكن ضعفه بعضهم وقال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الميت تحضره الملائكة فاذا كان الرجل الصالح قال اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقولون مرحبا

والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قال سبحانه (وجادلهم بالتي هي أحسن) اى بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وايثار الوجه الايسر والمقدمات التي هي أشهر فان ذلك أنفع في تسكين شرهم وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين وانما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقا وغرضه صحيحا وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا قيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام الاول هم العلماء وهم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والثاني هم أصحاب النظر السليم والخلقة الاصلية وهم غالب الناس وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة والثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم المشار اليهم بقوله وجادلهم الخ وقال مجاهد في الآية اعرض عن أذاهم اياك ولا تقصر في تبليغ الرسالة وعلى هذا فالآية منسوخة بآية السيف قال بعضهم لا حاجة الى دعوى النسخ اذ الامر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين ان الرشد والهداية ليس الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانما ذلك الى الله تعالى وهو الاعلم بمن يضل (وهو أعلم بالمهتدين) اى بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت وانما شرع لك الدعوة وأمر بها قطعا للمعذرة وتتميما للحجة وازاحة للشبهة وليس عليك غير ذلك وفي ايثار الفعلية في الضالين والاسمية في مقابليهم اشارة الى انهم غيروا الفطرة وبدلوها باحداث الضلال ومقابلوهم استمروا عليها وتقديم أرباب الضلال لان الكلام واردفيهم ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع الى الحق فان أبوا وتلوا أمر الداعي بان يعدل في العقوبة فقال (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) اى بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك قال ابن جرير نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ان لا ينال من ظالمه اذا تمكن الا مثل ظلامته لا يتعداها الى غيرها ونحوه في البيضاوي وهذا صواب لان الآية وان قيل ان لها سببا خاصا كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره وسمى سبحانه الفعل الاول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة مع ان العقوبة ليست الا فعل الثاني وهو المجازي للمشاكلة وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز ثم حث سبحانه على العفو فقال (ولئن صبرتم) عن المعاقبة بالمثل وعن الانتقام بتركه بالكلية (لهو) بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان اى

بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها الى السماء التى فيها الله عز وجل واذا كان الرجل السوء قال اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وابشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فانه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير الى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له (٢٩٣) مثل ماقيل فى الحديث الاول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ماقيل له فى الحديث الاول ورواه النسائى وابن ماجه من طريق ابن أبى ذئب بنحوه وفى صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال اذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الارض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه فينطلق به الى ربه عز وجل فيقال انطلقوا به الى آخر الاجل وان الكافر اذا خرجت روحه قال حماد وذكر من نتنها وذكر مقتا ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الارض فيقال انطلقوا به الى آخر الاجل قال أبو هريرة فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريطة كانت عليه على أنفه هكذا وقال ابن حبان فى صحيحه حدثنا عمر بن محمد الهمدانى حدثنا زيد بن أخرم حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة عن قسام بن زهير عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا قبض أتته

أى فالصبر (خير للصابرين) من الانتصاف ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد وقد ذهب الجمهور الى ان هذه الآية محكمة لانها واردة فى الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم وفى تعليم حسن الادب فى كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدى وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة ولا تعلق لها بالنسخ وقيل هى منسوخة بآيات القتال وبه قال ابن عباس والضحاك ولا وجه لذلك أخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم عن أبى بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الانصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى وان عاقبتم الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم الا أربعة وأخرج الطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقف على حمزة حيث استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شئ قط كان أوجع لقلبه منه ونظر اليه قد مثل به فقال رحمة الله عليك فانك كنت ما علمت وصولا للرحم فعولا للخير ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبى صلى الله عليه وآله وسلم واقف بخواتيم سورة النحل وان عاقبتم الآية فكفر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن يمينه وأمسك عن الذى أراد وصبر وعن ابن عباس مرفوعا نحوه أخرجه الطبرانى وابن المنذر وغيرهما وهذا القول من النبى صلى الله عليه وآله وسلم كأنه كان باجتهاد منه وعليه فلينظر هل قوله تعالى ولئن صبرتم الخ نسخ لهذا الاجتهاد أو تنبيه على خطئه تأمل وعنه قال هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ثم نزلت براءة وانسلاخ الاشهر الحرم فهذا منسوخ ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر فقال (واصبر) على ما أصابك من صنوف الاذى (وما صبرك الا بالله) اى بتوفيقه وتثبيته والاستثناء مفرغ من أعم الاشياء اى وما صبرك مصحوبا بشئ من الاشياء الا بتوفيقه لك وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم نهاه عن الحزن فقال (ولا تحزن عليهم) اى على الكافرين فى اعراضهم عنك واستحقاقهم للعذاب الدائم أو لا تحزن على قتلى أحد فانهم قد أفضوا الى رحمة الله (ولا تك فى ضيق) اى ضيق صدر

ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجى الى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى انه ليناوله بعضهم بعضا يسمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل الارض ولا يأتون سماء الا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فانه كان فى غم فيقول قد مات أما أتاكم فيقولون ذهب به الى أمه الهاوية وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى الى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به الى باب الارض وقد روى أيضا من طريق همام بن يحيى عن قتادة عن أبى الجوزاء عن أبى هريرة عن

النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه قال فيسأل مافعل فلان مافعلت فلانة قال وأما الكافر فاذا قبضت نفسه وذهب بها الى باب الارض يقول خزنة الارض ماوجدنا ريحا أنتن من هذه فيبلغ بها الارض السفلى قال قتادة وحدثني رجل عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال أرواح المؤمنين تجمع بالجابيين وأرواح الكفار تجمع ببرهوت سبخة بحضرموت ثم يضيق عليه قبره وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله حدثنا يحيى بن خلف حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٩٤) اذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما منكر والآخر نكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول ما كان يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين وينور له فيه ثم يقال نم فيقول أرجع الى أهلي فاخبرهم فيقولان نم نومة العروس الذي لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وان كان منافقا قال سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم لا أدري فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا فيقال للارض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال ذلك اذا قيل له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت فيقال له صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث (بسم الله) وقال ابن جرير حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا حدثنا يزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده ان الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين فان كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان الى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول

قرئ بفتح الضاد وكسرها وهما سبعيتان قال ابن السكيت هما سواء وقال الفراء الضيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك وبالكسر ما يكون في الذي يتسع كالدار والثوب وكذا قال الاخفش وهو من الكلام المقلوب لان الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشئ المحيط بالانسان من جميع جوانبه وقال ههنا تك بحذف النون ليكون ذلك مبالغة في التسلية وأثبتها في النمل على القياس ولان الحزن ثم دون الحزن ههنا والى ذلك أشار في التقرير (مما يمكرون) اى من مكرهم بك فيما يستقبل من الزمان وما مصدرية أو بمعنى الذي ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال (ان الله مع الذين اتقوا) المعاصي على اختلاف أنواعها وقيل اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي والعموم أولى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة (والذين هم محسنون) بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا به منها أو بالعفو عن الجاني وقيل المعنى محسنون في أصل الانتقام فيكون الاول اشارة الى قوله فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به والثاني اشارة الى قوله ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقيل الذين اتقوا اشارة الى التعظيم لامر الله والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى وعن الحسن قال اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم والعموم أولى وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوص فقال انما الوصية في المال ولا مال لي ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل

(سورة بني اسرائيل)

وتسمى سورة سبحان وسورة الاسراء مائة واحدى عشرة آية وهي مكية وبه قال ابن عباس وعن ابن الزبير مثله الا ثلاث آيات قوله وان كادوا ليستفزونك نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بأرض الانبياء وقوله رب أدخلني مدخل صدق وقوله ان ربك أحاط بالناس وزاد مقاتل قوله ان الذين أوتوا العلم من قبله وقيل الآيات الثمان وعن ابن مسعود قال في هذه والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر

الصيام ماقبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ماقبلي مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعني حتى أصلي فيقال انك ستفعل فاخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألوني فيقال أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه فيقول أمحمد فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وانه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعليه تبعث ان شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويفتح له باب الى الجنة فيقال له انظر الى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة (٢٩٥) وسرورا ثم تجعل نسمته في النسم الطيب

وهي طير أخضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد الى مابدئ من التراب وذلك قول الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ورواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد ابن عمرو وذكر جواب الكافر وعذابه وقال البزار حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي حدثنا الوليد بن القاسم حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة أحسبه رفعه قال ان المؤمن ينزل به الموت ويعاين مايعاين فود لو خرجت يعني نفسه والله يحب لقاءه وان المؤمن يصعد بروحه الى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الارض فاذا قال تركت فلانا في الارض أعجبهم ذلك واذا قال ان فلانا قد مات قالوا ماجيء به الينا وان المؤمن يجلس في قبره فيسئل من ربه فيقول ربي الله فيقول من نبيك فيقول محمد نبيي فيقول ماذا دينك قال ديني الاسلام فيفتح له باب في قبره فيقول أو يقال انظر الى مجلسك ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة واذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ماعاين فانه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبحان) هو مصدر سماعي لسبح المشدد أو اسم مصدر يقال سبح يسبح تسبيحا وسبحانا أو مصدر قياسي لسبح المخفف فانه يقال سبح في الماء ومعناه التنزيه والبعد والبراءة لله سبحانه من كل نقص وسوء وعلى كل فهو علم جنس للتنزيه والتقديس وقال سيبويه العامل فيه فعل لا من لفظه والتقدير أنزه الله تنزيها فوقع سبحان مكان تنزيها فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء وقيل هو علم للتسبيح كعثمان للرجل أي أسبح الله سبحان ثم نزل منزلة الفعل وسد مسده ودل على التسبيح البليغ والتنزيه الكامل ولذا لايستعمل الا فيه تعالى (الذي أسرى بعبده) الاسراء قيل هو سير الليل يقال سرى وأسرى كسقى وأسقى لغتان بمعنى سار في الليل وهما لازمان لكن مصدر الاول الاسراء ومصدر الثاني سرى بضم السين كهدى فالهمزة ليست للتعدية الى المفعول وانما جاءت التعدية هنا من الباء ومعنى أسرى به صيره ساريا في الليل وقيل هو سير أول الليل خاصة واذا كان الاسراء لايكون الا في الليل فلابد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة فقيل اراد بقوله (ليلا) تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به في بعض الليل من مكة الى الشام مسافة أربعين ليلة ووجه دلالة ليلا على تقليل المدة مافيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ماذا قلت سريت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلا للبعضية بقراءة عبد الله وحذيفة من الليل أي في جزء قليل من الليل قيل قدر أربع ساعات وقيل ثلاث وقيل أقل من ذلك والتقليل والتبعيض متقاربان فاستعمل في التبعيض ماهو للتقليل وقال الزجاج معنى الآية سير عبده يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليلا وعلى هذا معنى أسرى سير فيكون للتقييد بالليل فائدة وقد أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون على ان المراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يختلف أحد من الامة في ذلك وقال بعبده ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بمحمد تشريفا له صلى الله عليه وآله وسلم قال أهل العلم لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية

أصم اذا نوديت باسمي وانني * اذا قيل لي ياعبدها لسميع

لايحب ان تخرج روحه أبدا والله يبغض لقاءه فاذا جلس في قبره أو أجلس فقال له من ربك فيقول لا أدري فيقال لادريت فيفتح له باب الى جهنم ثم يضرب ضربة تسمع كل دابة الا الثقلين ثم يقال له نم كما ينام المنهوش قلت لابي هريرة ما المنهوش قال الذي تنهشه الدواب والحيات ثم يضيق عليه قبره ثم قال لانعلم رواه الا الوليد بن مسلم وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال كانت أسماء يعني بنت الصديق رضي الله عنها تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت قال اذا دخل الانسان مؤمنا أحف به عمله الصلاة والصيام قال فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده

قال فيناديه اجلس فيجلس فيقول له ماذا تقول فى هذا الرجل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم قال من قال محمد قال اشهد أنه رسول
الله قال ومايدريك أدركته قال أشهد أنه رسول الله قال يقول على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث وان كان فاجرا أو كافرا جاء
الملك ليس بينه و بينه شئ يرده فأجلسه فيقول له ماذا تقول فى هذا الرجل قال أى رجل قال محمد قال يقول والله ما أدرى
سمعت الناس يقولون شيأ فقلته قال له الملك على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث قال ويسلط عليه دابة فى قبره معها سوط
ثمرته جمرة مثل عرق البعير تضرب به ماشاء الله صماء لا تسمع صوته فترحمه وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما
فى هذه الآية قال ان المؤمن اذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه و بشروه بالجنة فاذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس فاذا دفن أجلس فى قبره فيقال له من ربك فيقول ربى الله فيقال له ماشهادتك فيقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيوسع له فى قبره مد بصره وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم والبسط هو الضرب يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت فاذا أدخل قبره أقعد فقيل له من ربك فلم يرجع اليهم شيأ وأنساه الله ذكر ذلك واذا قيل من الرسول الذى بعث اليكم لم يهتد له ولم يرجع اليه شيأ كذلك يضل الله الظالمين وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الازدى حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا ابراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى اسحق عن عامر بن سعد البجلى عن أبى قتادة الانصارى فى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة الآية قال ان المؤمن اذا
مات أجلس فى قبره فيقال له من ربك فيقول الله فيقال له من نبيك فيقول محمد بن عبد الله فيقال له ذلك مرات المعنى
ثم يفتح له باب الى النار فيقال له انظر الى منزلك فى النار لو زغت ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال له انظر الى منزلك (١) لو ثبت ثم يفتح له باب
الى النار فيقال له انظر الى منزلك اذ زغت وذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وقال عبد
الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا قال لا اله الا الله وفى الآخرة
المسئلة فى القبر وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح وفى الآخرة فى القبر وكذا روى عن غير واحد من السلف

(١) ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال له الخ هنا سقط وانظر الرواية اه مصححه

(غيره) لا تدعنى الا بياعبدها ٭ فانه أشرف اسمائى

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال أسرى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الاول قبل الهجرة بسنة وعن ابن شهاب قال أسرى به الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة وعن عروة نحوه وقال السدى قبل مهاجره بستة عشر شهرا (من المسجد الحرام) قال الحسن وقتادة يعنى المسجد نفسه وهو ظاهر القرآن وقال عامة المفسرين أسرى به صلى الله عليه وآله وسلم من دار أم هانئ فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لاحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام أو لان الحرم كله مسجد وفى حديث مالك بن صعصعة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر سبحانه الغاية التى أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليها فقال (الى المسجد الاقصى) وهو بيت المقدس وسمى الاقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام فهو أبعد بالنسبة الى من بالحجاز وفى تاريخ القدس انه سمى به لانه أبعد المساجد التى تزار من المسجد وقيل لبعده عن الاقذار والخبائث وقيل لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالا يخفى وأول من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما فى المواهب فهو أول مسجد بنى فى الارض بعد الكعبة وتمام حاله فى كتابنا لقطة العجلان فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان وكان الاسراء به ببدنه فى اليقظة وكان قبلها فى المنام كما أنه رأى فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان والحكمة فى اسرائه الى بيت المقدس دون العروج به من مكة لانه محشر الخلائق فيطؤه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه أو لانه مجمع أرواح الانبياء فأراد الله أن يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وآله وسلم أو ليخبر الناس بصفاته فيصدقوه فى الباقى قاله الكرخى والوجه الاخير أظهر والله أعلم ثم وصف المسجد الاقصى بقوله (الذى باركنا حوله) بركة دنيوية وهى ليست الا حول الاقصى وأما فى الداخل فالبركة فى كل من المسجدين بل هى فى الحرام أتم وهى كثرة الثواب بالعبادة فيهما وعبارة الخازن يعنى بالثمار والانهار والاشجار أو بالانبياء والصالحين لانه قبلتهم قبل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وسماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى واليه يحشر الخلق يوم القيامة فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الاقصى ببركات الدنيا والآخرة قال السدى

المعنى أنبتنا حوله الشجر وجعل الاسراء اليه كالتوطئة لمعراجه الى السماء ثم ذكر العلة التي أسرى به لاجلها فقال (لنريه من آياتنا) أي ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ومن تبعيضية وانما أتى بها تعظيما لآيات الله فان الذي رآه صلى الله عليه وآله وسلم وان كان جليلا عظيما فهو بعض بالنسبة الى آيات الله تعالى وعجائب قدرته وجليل حكمته قاله أبو شامة والرؤية هنا بصرية وقيل قلبية واليه نحا ابن عطية (انه) سبحانه (هو السميع) بكل مسموع ومن جملة ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (البصير) بكل مبصر ومن جملة ذلك ذات رسوله وأفعاله قيل في هذه الآية أربعة التفاتات وذلك انه التفت أولا من الغيبة في قوله الذي أسرى بعبده الى التكلم في قوله باركنا حوله ثم التفت ثانيا من التكلم في باركنا الى الغيبة في ليريه على قراءة الحسن بالياء ثم التفت ثالثا من هذه الغيبة الى التكلم في آياتنا ثم التفت رابعا من هذا التكلم الى الغيبة في قوله انه هو على الصحيح في الضمير انه لله تعالى وأما على قول نقله أبو البقاء ان الضمير في انه هو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا يجيء ذلك ويكون في قراءة العامة التفات واحد وفي قراءة الحسن ثلاثة وهذا موضع غريب وأكثر ما ورد الالتفات ثلاث مرات على ما قال الزمخشري في قول امرئ القيس تطاول ليلك بالاثمد الابيات وقيل فيها خمس التفاتات والخامس الالتفات من قوله انه هو الى التكلم في قوله الآتي وآتينا موسى وقد اختلف أهل العلم هل كان الاسراء بجسده صلى الله عليه وآله وسلم مع روحه أو بروحه فقط فذهب معظم السلف والخلف الى الاول وذهب الى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحق وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان وذهبت طائفة الى التفصيل فقالوا كان الاسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح واستدلوا على هذا التفصيل بقوله الى المسجد الاقصى فجعله غاية للاسراء بذاته صلى الله عليه وآله وسلم فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء وقع بذاته لذكره والذي دلت عليه الاحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف من الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس ثم الى السموات ولا حاجة الى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الاحاديث الى ما يخالف الحقيقة ولا مقتضى لذلك الا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتاب نوادر الاصول حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال اني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا كلما ورد حوضا (٢٩٧) منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ورأيت رجلا من أمتي والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده الى جنبي ورأيت رجلا من أمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج النار أو شررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه ورأيت رجلا من امتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من امتي جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ورأيت رجلا من امتي قائما على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من امتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من امتي على الصراط يزحف احيانا ويحبو أحيانا فجاءته صلاته علي فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ورأيت رجلا من أمتي انتهى الى باب الجنة فغلقت الابواب دونه فجاءته شهادة أن لا اله الا الله ففتحت له الابواب وأدخلته الجنة قال القرطبي بعد ايراده هذا الحديث من هذا الوجه هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة أورده هكذا في كتابه التذكرة وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثا غريبا مطولا فقال حدثنا أبو عبد الرحمن

أحمد بن ابراهيم المكرى حدثنا محمد بن بكر البرسانى أبو عثمان حدثنا أبو عاصم الحبطى وكان من أخيار أهل البصرة وكان من أصحاب حزم وسلام بن أبى مطيع حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك عن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل لملك الموت انطلق الى ولى فأتنى به فانى قد ضربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ائتنى به فلأريحنه فينطلق اليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ومعهم ضبائر الريحان أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ومعهم الحرير الابيض فيه المسك الاذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه ويحفون بالملائكة ويضع كل ملك منهم ما معه على عضو من أعضائه ويبسط ذلك الحرير الابيض والمسك الاذفر تحت ذقنه ويفتح له باب الى الجنة فان نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة تارة بازواجها ومرة بكسوتها ومرة بثمارها كما يعلل الصبى أهله اذا بكى قال وان أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشا قال وتبرز الروح قال البرسانى يريد أن يخرج من العجل الى ما يحب قال ويقول ملك الموت اخرجى يا أيتها الروح الطيبة الى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب قال ولملك الموت أشد به لطفا من الوالدة لولدها يعرف ان ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين قال وقال الله عز وجل الذين تتوفاهم الملائكة طيبين وقال فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم قال روح من جهة الموت وريحان يتلقى به وجنة نعيم مقابلة قال فاذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد جزاك الله عنى خيرا فقد كنت سريعا الى طاعة الله بطيأ عن معصية الله فقد نجيت وأنجيت قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك قال وتبكى عليه بقاع الارض التى كان يطيع الله فيها وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة قال فاذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده فلا يقلبه بنو آدم لشق الاقلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته باكفان قبل اكفان بنى آدم وحنوط قبل حنوط بنى آدم ويقوم من باب بيته الى قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار فيصيح عند ذلك ابليس صيحة يتصدع منها عظام جسده قال ويقول لجنوده الويل لكم

عن فهم ما هو معلوم من انه لا يستحيل عليه سبحانه شئ ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم ان الاسراء كان بالروح فقط وان رؤيا الانبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدرا فان الانسان قد يرى فى نومه ما هو مستبعد بل هو محال ولا ينكر ذلك أحد واما التمسك لمن قال بان هذا الاسراء انما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الافتنة للناس فعلى تسليم ان المراد بهذه الرؤيا هو هذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا والتصريح فى الاحاديث الصحيحة الكثيرة بانه اسرى به لا يقصر عن الاستدلال به على تأويل هذه الرؤيا الواقعة فى الآية برؤية العين فانه قد يقال لرؤية العين رؤيا وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الاحاديث الصحيحة بان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ركب البراق وكيف يصح وصف الروح بالركوب وهكذا كيف يصح حمل الاسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وآله وسلم بانه كان عند أن اسرى به بين النائم واليقظان فالاولى ما ذهب اليه الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم وقد اختلف أيضا فى تاريخ الاسراء فروى ان ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة وروى ان الاسراء كان قبل الهجرة باعوام ووجه ذلك ان خديجة صلت مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل باربع ولم تفرض الصلاة الا ليلة الاسراء وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك وقد اختلفت الرواية عن الزهرى وممن قال بان الاسراء كان قبل الهجرة بسنة الزهرى فى رواية عنه وكذلك الحربى فانه قال أسرى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الاول قبل الهجرة بسنة وقال ابن القاسم فى تاريخه كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا قال ابن عبد البر لا أعلم أحدا من أهل السير قال بمثل هذا وروى عن الزهرى انه أسرى به قبل مبعثه بسبعة أعوام وروى عنه انه قال كان قبل مبعثه بخمس سنين وروى يونس عن عروة عن عائشة انها قالت توفيت خديجة قبل ان تفرض الصلاة واعلم انه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطى وغيرهما فى هذا الموضع بذكر الاحاديث الواردة فى الاسراء على اختلاف ألفاظها وما يتعلق بها من الاحكام وما قال أهل العلم فيه وما ظهر بعد المعراج من الآيات الدالة على صدقه وليس

فى

كيف خلص هذا العبد منكم فيقولون ان هذا كان عبدا معصوما قال فاذا اصعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل فى سبعين ألفا من الملائكة كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه قال فاذا انتهى ملك الموت بروحه الى العرش خر الروح ساجدا قال يقول الله عز وجل لملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب قال فاذا وضع فى قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه وجاءه الصيام فكان عن يساره وجاءه القرآن فكان عند رأسه وجاءه مشيه الى الصلاة فكان عند رجليه وجاءه الصبر فكان ناحية القبر قال فيبعث الله عز وجل (٢٩٩) عنقا من العذاب قال فيأتيه عن يمينه قال فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائبا عمره كله وانما استراح الآن حين وضع فى قبره قال فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه الى الصلاة مثل ذلك فلا يأتيه العذاب من ناحية هل يلتمس هل يجد اليه مساغا الا وجد ولى الله قد أخذ ناحيته قال فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج قال ويقول الصبر لسائر الاعمال اما انه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى الا انى نظرت ما عندكم فان عجزتم كنت أنا صاحبه فاما اذا أجزتم عنه فانا له ذخر عند الصراط والميزان قال ويبعث ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب يطآن فى أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير فى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها قال فيقولان له اجلس قال فيجلس فيستوى جالسا قال ويقع أكفانه فى حقويه قال فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك قال قالوا يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك وأنت تصف من الملكين ما تصف قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء قال فيقول ربى الله وحده لا شريك له ودينى الاسلام الذى دانت به الملائكة ونبيى محمد خاتم النبيين قال فيقولان له صدقت قال فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا وعن يمينه أربعين ذراعا وعن شماله أربعين ذراعا ومن خلفه أربعين ذراعا ومن عند رأسه أربعين ذراعا ومن عند رجليه أربعين ذراعا قال

فى ذلك كثير فائدة فهى معروفة فى مواضعها من كتب الحديث وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الاقصى وهو بحث آخر والمقصود فى كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز وذكر أسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية وما عدا ذلك فهو فضل لا تدعو اليه حاجة (وآتينا موسى الكتاب) أى التوراة قيل والمعنى كرمنا محمدا بالمعراج وأكرمنا موسى بالكتاب قال الشهاب عقبت آية الاسراء بهذه استطرادا بجامع ان موسى أعطى التوراة بمسيره الى الطور وهو بمنزلة معراجه لانه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم والواو استئنافية أو عاطفة على جملة سبحان الذى أسرى لا على أسرى بعبده وتكلفه (وجعلناه) أى ذلك الكتاب وقيل موسى (هدى لبنى اسرائيل) يهتدون به (أن لا تتخذوا) قرئ بالتحتية ولا نافية وان مصدرية ولام التعليل مقدرة وبالفوقية ولا ناهية وان زائدة والمعنى على الاولى آتيناه الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا وعلى الثانية قلنا لهم لا تتخذوا والاولى ان تكون ان مفسرة لان هذا ليس من مواضع زيادة بل ذلك فى نحو ولما ان جاءت رسلنا (من دونى وكيلا) أى كفيلا بامورهم قاله الفراء وروى عنه انه قال كافيا وقيل معناه متوكلون عليه فى امورهم وقيل شريكا ومعنى الوكيل فى اللغة من توكل اليه الامور (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص وبه بدأ الزمخشرى أو النداء اى يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا كما كان نوح فى العبودية والانقياد وفى كثرة الشكر لله تعالى بفعل الطاعات ذكرهم سبحانه انعامه عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق وقيل المعنى ولا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا كقوله ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا والمراد بالذرية هنا جميع من فى الارض لانهم من ذرية من كان فى السفينة وقيل موسى وقومه وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص والرفع على البدل من فاعل لا تتخذوا أو على الخبر فانها كلها راجعة الى بنى اسرائيل المذكورين وأما على جعل النصب على ان ذرية هى المفعول الاول لقوله لا تتخذوا فالاولى تفسير الذرية بجميع من فى الارض من بنى آدم أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الانصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذرية من حملنا مع نوح قال ما كان مع نوح الا أربعة أولاد حام وسام ويافث وكوش فذلك أربعة أولاد تناسلوا هذا الخلق (انه) اى ان

فيوسعان له مائتي ذراع قال البرساني فاحسبه وأربعين ذراعا يحاط به قال ثم يقولان له انظر فوقك فاذا باب مفتوح الى الجنة قال فيقولان له ولي الله هذا منزلك اذ أطعت الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده انه يصل الى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا ثم يقال له انظر الى تحتك قال فينظر تحته فاذا باب مفتوح الى النار قال فيقولان ولي الله نجوت آخر ما عليك قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يصل الى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا قال فقالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون بابا الى الجنة يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل وبالاسناد المتقدم الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ويقول الله تعالى للملك الموت انطلق الى عدوي فأتني به فاني قد بسطت له رزقي ويسرت له نعمتي فأبى الا معصيتي فأتني به لانتقم قال فانطلق اليه ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط له اثنا عشر عينا ومعه سفود من النار كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ومعهم سياط من نار لينها لين السياط وهي نار تأجج قال فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر قال ثم يلويه ليا شديدا قال فينتزع روحه من أظفار قدميه قال فيلقيها في ركبتيه ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة فيرفعه ملك الموت عنه قال وتضرب الملائكة وجهه ودبره بالسياط قال ثم ينترد ملك الموت نترة فينتزع روحه من عقبيه فيلقيها في ركبتيه فيلقيها في حقويه قال فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفعه ملك الموت عنه قال وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال كذلك الى صدره ثم كذلك الى حلقه قال ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه قال ويقول ملك الموت اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة الى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم قال فاذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد جزاك الله عني شرا فقد كنت سريعا بي الى معصية الله بطيئا بي عن طاعة الله فقد هلكت وأهلكت قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك وتلعنه بقاع الارض التي كان يعصي الله عليها وتنطلق جنود ابليس اليه فيبشرونه بانهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار قال فاذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى قال ويبعث الله اليه أفاعي دهما كأعناق البخت يأخذون باذنيه وابهامي قدميه

(٣٠٠)

نوحا (كان عبدا شكورا) وصفه الله بكثرة الشكر في السراء والضراء وذلك انه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال الحمد وجعله كالعلة لما قبله ايذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات وحثا الذرية على شكر الله سبحانه (وقضينا) اى أعلمنا وأخبرنا قاله ابن عباس أو حكمنا أو أتممنا وأصل القضاء الاحكام للشيء والفراغ منه وقيل أوحينا ويدل عليه قوله (الى بني اسرائيل) ولو كان بمعنى الاعلام والاخبار لقال قضينا بني اسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني اسرائيل ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني اسرائيل (في الكتاب) أي التوراة ويكون انزالها على نبيهم موسى كانزالها عليهم لكونهم قومه وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ (لتفسدن) اى والله لتفسدن (في الارض) قرئ بفتح الفوقية ومعناها قريب من معنى قراءة الجمهور لانهم اذا أفسدوا أفسدوا في نفوسهم والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة والمراد بالارض أرض الشام وبيت المقدس وقيل أرض مصر واللام جواب قسم محذوف قال النيسابوري أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن (مرتين) تثنية مرة وهي الواحدة من المر أي المرور على حد وفعلة لمرة كجلسة وفي القاموس مر مرا ومرورا وجاز وذهب كاستمر ومر به وجاز عليه والمرة الفعلة الواحدة والجمع مر بالضم ومرار بالكسر ومرر كعنب ولقيه ذات مرة لا يستعمل الا ظرفا وذات المرار أي مرارا كثيرة وجئته مرا أو مرين أي مرة أو مرتين انتهى والمرة الاولى قتل شعيا وحبس أرميا ومخالفة أحكام التوراة والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى وقيل الاولى قتل زكريا والثانية قتل يحيى وذكر ابن اسحق ان بعض العلماء أخبره ان زكريا مات موتا ولم يقتل قال ابن مسعود أول الفساد قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك النبط ثم ان بني اسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فاصابوا منهم فذلك قوله ثم رددنا لكم الكرة عليهم وعن ابن عباس قال بعث الله في الاولى جالوت وبعث عليهم في المرة الاخرى بختنصر فعادوا فافسدوا فبعث الله عليهم المؤمنين (ولتعلن علوا كبيرا) هذه اللام كاللام التي قبلها أي لتستكبرن عن اطاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك وتبغون بغيا عظيما (فاذا جاء وعد) أي وقت وعد (أولاهما) أولى المرتين المذكورتين والمراد بالوعد الوعيد والمراد بالوعيد المتوعد به أي حان وقت حلول العقاب الموعود به (بعثنا

فيقرضونه حتى يلتقين في وسطه قال ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وانيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها قال فيقولان له اجلس فيستوي جالسا قال وتقع اكفانه في حقويه قال فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول لا أدري فيقولان لا دريت ولا تليت فيضربانه ضربة يتطاير شرارها في قبره ثم يعودان قال فيقولان انظر فوقك فينظر فاذا باب مفتوح فيقولان والله منزلك

(بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد) أي قوة في الحروب وبطش عند اللقاء قيل هو بختنصر وجنوده وقيل جالوت وقيل جند من فارس وقيل جند من بابل وقيل هو سنجاريب من أهل نينوى فقتلوا اعلماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا (فجاسوا خلال الديار) أي عاثوا وترددوا يقال جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن عزير والقتيبي قال الزجاج معناه طافوا هل بقي أحد لم يقتلوه قال والجوس طلب الشيء باستقصاء قال الجوهري الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي تخللوها كما يجوس الرجل للاخبار أي يطلبها وكذا قال أبو عبيدة وقال ابن جرير معنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين وقال الفراء معناه قتلوهم بين بيوتهم وقال قطرب معناه نزلوا وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة قال أبو زيد الحوس والجوس والعوس والهوس الطوف بالليل وقيل الطوف بالليل هو الحوسان محركا كذا قال أبو عبيدة وقال ابن عباس جاسوا امشوا ومعنى خلال الديار وسط الديار فهو على هذا اسم مفرد بمعنى الوسط ويؤيده قراءة الحسن خلل الديار والثاني جمع خلل بفتحتين كجبل وجبال وجمل وجمال قاله السمين (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) أي كائنا لا محالة لازما لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة) اي الدولة والغلبة والرجعة (عليهم) وذلك عند توبتهم قيل وذلك حين قتل داود جالوت وقيل حين قتل بختنصر ووضع رددنا موضع نرد لانه لم يقع وقت الاخبار لكن لتحققه عبر بالماضي والكرة في الاصل مصدر كر يكر أي رجع ثم يعبر بها عن الدولة والقهر (وأمددناكم بأموال وبنين) بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان (وجعلناكم أكثر نفيرا) قال ابو عبيدة النفير العدد من الرجال فالمعنى أكثر رجالا من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ويجوز أن يكون النفير جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو (ان أحسنتم) أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم (أحسنتم لأنفسكم) لان ثواب ذلك عائد عليكم (وان أسأتم) أعمالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم (فلها) اي فعليها اساءتها وانما عبر بها للمشاكلة قاله الكرماني قال ابن جرير اللام بمعنى الى اي فاليها ترجع الاساءة كقوله تعالى بأن ربك أوحى لها اي اليها وقيل المعنى فلها الجزاء والعقاب وقال

لو اطعت الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انه ليصل الى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد ابدا قال ويقولان له انظر تحتك فينظر تحته فاذا باب مفتوح الى النار فيقولان عدو الله هذا منزلك اذ عصيت الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انه ليصل الى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا قال وقالت عائشة ويفتح له سبعة وسبعون بابا الى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله اليها هذا حديث غريب جدا وسياق عجيب ويزيد الرقاشي راويه عن أنس له غرائب ومنكرات وهو ضعيف الرواية عند الائمة والله أعلم ولهذا قال ابو داود حدثنا ابراهيم بن موسى الرازي حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بحير عن هانئ مولى عثمان عن عثمان رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبت فانه الآن يسئل تفرد به أبو داود وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم الآية حديثا مطولا جدا من طريق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا وفيه غرائب أيضا (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) قال البخاري قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ألم تعلم كقوله ألم تر كيف ألم تر الى الذين خرجوا البوار الهلاك بار يبور بورا قوما بورا هالكين حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم كفار أهل مكة وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية هو

جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم والمشهور والصحيح عن ابن عباس هو القول الاول وان كان المعنى يعم
جميع الكفار فان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونعمة للناس فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ومن ردها
وكفرها دخل النار وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الاول وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابى حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا شعبة عن
القاسم بن أبى بزة عن ابى الطفيل ان ابن الكواء سأل عليا عن الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار قال هم كفار
قريش يوم بدر حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا بسام هو الصيرفى عن ابى الطفيل قال جاء رجل الى
على فقال يا أمير المؤمنين من الذين
بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم
دار البوار قال منافقو قريش وقال
ابن أبى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابن
نفيل قال قرأت على معقل عن ابن أبى
حسين قال قام على بن أبى طالب رضى
الله عنه فقال الا أحد يسألنى عن
القرآن فوالله لو أعلم اليوم أحدا أعلم
به منى وان كان من وراء البحار لاتيته
فقام عبد الله بن الكواء فقال من الذين
بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم
دار البوار قال مشركو قريش أتتهم
نعمة الله الايمان فبدلوا نعمة الله كفرا
وأحلوا قومهم دار البوار وقال السدى
فى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله
كفرا الآية ذكر مسلم المستوفى عن
على انه قال هم الافجران من قريش
بنو أمية وبنو المغيرة فاما بنو المغيرة
فاحلوا قومهم دار البوار يوم بدر وأما
بنو امية فاحلوا قومهم دار البوار
يوم احد وكان ابو جهل يوم بدر وابو
سفيان يوم أحد وأما دار البوار
فهى جهنم وقال ابن أبى حاتم رحمه
الله حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحرث
أبو منصور عن اسرائيل عن أبى
اسحق عن عمرو بن مرة قال سمعت
عليا قرأ هذه الآية وأحلوا قومهم دار البوار قال هم الافجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة فاما بنو المغيرة
فاهلكوا يوم بدر وأما بنو امية فمتعوا الى حين ورواه أبو اسحق عن عمرو بن مرة عن على نحوه وروى من غير وجه عنه وقال سفيان
الثورى عن على بن زيد عن يوسف بن سعد عن عمر بن الخطاب فى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم الافجران من
قريش بنو المغيرة وبنو امية فاما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو امية فمتعوا الى حين وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة
قال قال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين هذه الآية ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار قال هم

الحسين بن الفضل فلها رب يغفر الاساءة وقال الكرخى أجرى اللام على بابها قال ابو
البقاء وهو الصحيح لان اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنه وسيئه انتهى
وهذا الخطاب قيل هو لبنى اسرائيل الملابسين لما ذكر فى هذه الآيات وقيل لبنى اسرائيل
الكائنين فى زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه اعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا
مثل ذلك وقيل هو خطاب لمشركى قريش (فاذا جاء وعد الآخرة) أى حضر وقت
ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة والمرة الآخرة هى قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق وقصة قتله
مستوفاة فى الانجيل واسمه فيه يوحنا قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله
واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة وقال ابن جرير هيردوس فسلط عليهم الفرس والروم
فسبوهم وقتلوهم وقيل هو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وجواب اذا
محذوف لدلالة جواب اذا الاولى تقديره بعثناهم (ليسوؤا وجوهكم) أى ليفعلوا بكم
ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين فى وجوهكم الكآبة وقيل المراد
بالوجوه السادة منهم وقرئ لنسوء بالنون على ان الضمير لله سبحانه وقرئ لنسوأن بنون
التأكيد وقرئ ليسوء بالتحتية وافراد الضمير لله أو للوعد وقرئ ليسوؤا على ان الفاعل
عبادا لنا وفى عود الواو على العباد نوع استخدام اذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده والمراد
بهم فى ضمن الضمير بختنصر وجنوده (وليدخلوا المسجد) اى بيت المقدس ونواحيه
فيخربوها (كما دخلوه أول مرة) اى وقت افسادهم الاول (وليتبروا) اى يدمروا ويهلكوا
قاله ابن عباس وقال قطرب يهدموا قال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته
(ما علوا) ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم (تتبيرا) اى تدميرا ذكر المصدر ازالة
للشك وتحقيقا للخبر (عسى ربكم) يا بنى اسرائيل (ان يرحمكم) بعد انتقامه منكم فى المرة
الثانية فيرد الدولة اليكم قال الضحاك كانت الرحمة التى وعدهم بعث محمد صلى الله عليه
وآله وسلم (وان عدتم) الى المعصية ثالثا (عدنا) الى عقوبتكم قال اهل السير ثم انهم
عادوا الى ما لا ينبغى وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكتمان ما ورد من نعته فى
التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على أيدى العرب فجرى على بنى قريظة والنضير
وبنى قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبى والاجلاء وضرب الجزية على من بقى منهم

وضرب

الافجران من قريش أخوالى وأعمامك فاما اخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر وأما أعمامك فاملى الله لهم الى حين وقال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش الذى قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك فى تفسيره عن نافع عن ابن عمر وقوله وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله أى جعلوا الشركاء عبدوهم معه ودعوا الناس الى ذلك ثم قال تعالى مهددا لهم ومتوعدا لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أى مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شئ فان مصيركم الى النار أى مرجعكم وموئلكم اليها كما قال تعالى نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ وقال تعالى متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) يقول تعالى آمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والاحسان الى خلقه بان يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وان ينفقوا مما رزقهم الله باداء الزكوات والنفقة على القرابات والاحسان الى الاجانب والمراد باقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها وأمر تعالى بالانفاق مما رزق فى السراى فى الخفية والعلانية وهى الجهر وليبادروا الى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتى يوم وهو يوم القيامة لا بيع فيه ولا خلال أى ولا يقبل من أحد فدية بان تباع نفسه كما قال تعالى فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا وقوله ولا خلال قال ابن جرير يقول ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته بل هناك العدل والقسط والخلال مصدر من قول القائل خاللت فلانا فانا أخاله مخالة وخلالا ومنه قول امرئ القيس

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى * ولست بمقلى الخلال ولا قالى

وقال قتادة ان الله قد علم ان فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب فان كان لله فليداوم وان كان لغير الله فسيقطع عنه قلت والمراد من هذا انه يخبر تعالى انه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية ولو افتدى بملء الارض ذهبا لو وجده ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد اذا لقى الله كافرا قال الله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها

(٣٠٣)

وضرب الذلة والمسكنة وقال قتادة نعاد وافبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وقد اختلفت الروايات فى تعيين الواقع منهم فى المرتين وفى تعيين من سلطه الله عليهم وفى كيفية الانتقام منهم ولا يتعلق بذلك كثير فائدة (وجعلنا جهنم للكافرين) منهم ومن غيرهم (حصيرا) اى سجنا ومحبسا جعل الله مأواهم فيها قاله ابن عباس والحصير هو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول والمعنى انهم محبوسون فى جهنم لا يتخلصون عنها أبدا قال الجوهرى حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به ويقال للسجن محصر وحصير وقيل فراشا ومهادا قاله الحسن وأراد على هذا بالحصير الحصير الذى يفرشه الناس (ان هذا القرآن يهدى) الناس (للتى) أى للطريقة التى (هى أقوم) وأصوب من غيرها من الطرق وهى ملة الاسلام وقال الزجاج للحال التى هى أقوم الحالات وهى توحيد الله والايمان برسله وكذا قال الفراء وقيل للكلمة التى هى أعدل وهى شهادة أن لا اله الا الله فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا وهم الكافرون (ويبشر المؤمنين) بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلا وعاجلا (الذين يعملون الصالحات) التى أرشد الى عملها القرآن (أن لهم) أى بان لهم (أجرا كبيرا) وهو الجنة (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحكامها المبينة فى القرآن (أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلا فى حيز البشارة وعليه جرى السفاقسى والبيضاوى والسيوطى والجملة عطف على جملة يبشر بتقدير يخبر وقيل عطف على قوله ان لهم أجرا كبيرا ويراد بالتبشير مطلق الاخبار سواء كان بخير أو شر أو معناه الحقيقى ويكون الكلام مشتملا على تبشير المؤمنين ببشارتين الاولى ما لهم من الثواب والثانية ما لاعدائهم من العقاب ولا شك ان ما يصيب عدوهم سرور لهم (ويدع) القياس ان تثبت واو يدع لانه مرفوع الا انها لما وجب سقوطها لفظا لاجتماع الساكنين سقطت فى الخط أيضا على خلاف القياس ونظيره سندع الزبانية (الانسان بالشر) المراد بالانسان هو الجنس لوقوع هذا الدعاء من بعض افراده وهو دعاء الرجل على نفسه وماله وولده عند الضجر بما لا يحب ان يستجاب له نحو اللهم أهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) أى مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولاهله كطلب العافية والرزق ونحوهما فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر لهلك لكنه لم يستجب تفضلا منه ورحمة ومثل ذلك

عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) يعدد تعالى نعمه على خلقه بان خلق لهم السموات سقفا محفوظا والارض فراشا وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من (٣٠٤) نبات شتى ما بين ثمار وزروع مختلفة الالوان والاشكال والطعوم والروائح والمنافع وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بامر الله تعالى وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من اقليم الى اقليم آخر لجلب ما هنا الى ما هنالك وما هنالك الى ههنا وسخر الانهار تشق الارض من قطر الى قطر رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع وسخر لكم الشمس والقمر دائبين أي يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين فالشمس والقمر يتعاقبان والليل والنهار يتعارضان فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار وقوله وآتاكم من كل ما سألتموه يقول هيأ لكم كل ما تحتاجون اليه في جميع أحوالكم ما تسألونه بحالكم وقال بعض السلف من كل ما سألتموه وما لم تسألوه وقرأ بعضهم وآتاكم من كل ما سألتموه وقوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله ان حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وان نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا اسمعيل ابن أبي الحرث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

ولو يعجل الله الناس الشر استعجالهم بالخير وقد تقدم في سورة يونس انه يستجاب له بالخير ولا يستجاب له في الشر فراجعه وقيل المراد بالانسان القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقال ابن عباس قوله اللهم العنه واغضب عليه وقيل هو ان يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح (وكان الانسان عجولا) أي مطبوعا على العجلة يسارع الى كل ما يخطر بباله لا ينظر الى عاقبته ومن عجلته انه يسأل الشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء والمراد بالانسان الجنس لان أحدا من الناس لا يعرى عن عجلة ولو تركها لكان تركها أصلح في الدين والدنيا وقيل أشار به الى آدم عليه السلام حين نهض قبل ان يكمل فيه الروح فعن سلمان الفارسي قال أول ما خلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه فلما كان بعد العصر قال يا رب أعجل قبل الليل فذلك قوله وكان الانسان عجولا والمناسب للسياق هو الاول ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وذلك لما فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الاحلام ومعنى كونهما آيتين انهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى انفاذ الحكم بتعاقبهما على نسق واحد مع امكان غيره وقدم الليل على النهار لكونه الاصل وثنى الآية ههنا وأفردها في قوله وجعلناها وابنها آية لتباين الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما فناسب هنا التثنية بخلاف عيسى مع امه فانه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسب فيهما الافراد قاله الكرخي (فمحونا آية الليل) اى طمسنا نورها وقد كان القمر كالشمس في الانارة والضوء قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر وقيل المراد بمحوها انه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة مظلمة لا يستبين فيه شيء وليس المراد انه محاها بعد ان لم تكن كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقب جعل الليل والنهار آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته وعن علي قال في الآية هو السواد الذي في القمر وعن ابن عباس نحوه وأخرج البيهقي وابن عساكر عن سعيد المقبري ان عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن السواد الذي في القمر فقال كانا شمسين

فالسواد

يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه فيقول الله
تعالى لأصغر نعمة أحسبه قال في ديوان النعم خذي ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله ثم تنحى وتقول وعزتك
ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم فاذا أراد الله أن يرحمه قال يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت لك عن سيآتك احسبه
قال ووهبت لك نعمي غريب وسنده ضعيف وقد روى في الاثر أن داود عليه السلام قال يارب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك
علي فقال الله تعالى الآن شكرتني يا داود حين اعترفت بالتقصير عن أداء (٣٠٥) شكر النعم وقال الامام الشافعي رحمه الله الحمد لله
الذي لا تؤدى شكر نعمة من نعمه
الا بنعمة حادثة توجب على مؤديها
نعمة وبأدائها نعمة حادثة توجب
عليه شكره بها وقال القائل في ذلك

لو كل جارحة مني لها لغة
تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري اذ شكرت به
اليك أبلغ في الاحسان والمنن

(واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا
البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد
الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من
الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني
فانك غفور رحيم) يذكر تعالى في هذا
المقام محتجا على مشركي العرب بان
البلد الحرام مكة انما وضعت أول
ما وضعت على عبادة الله وحده
لا شريك له وان ابراهيم الذي كانت
عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير
الله وانه دعا لمكة بالامن وقال رب
اجعل هذا البلد آمنا وقد استجاب
الله له فقال تعالى أولم يروا أنا جعلنا
حرما آمنا الآية وقال تعالى ان أول
بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا
وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام
ابراهيم ومن دخله كان آمنا وقال
في هذه القصة رب اجعل هذا
البلد آمنا فعرفه لانه دعا به بعد بنائها ولهذا قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل
واسحق ومعلوم ان اسمعيل أكبر من اسحق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب باسمعيل وأمه وهو رضيع الى مكان مكة فانه دعا
أيضا فقال رب اجعل هذا بلدا آمنا كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا وقوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ينبغي
لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته ثم ذكر انه افتتن بالاصنام خلائق من الناس وانه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم الى الله
إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم

فالسواد الذي رأيت هو المحو وعن ابن عباس مرفوعا نحوه باطول منه أخرجه ابن
مردويه قال السيوطي واسناده واه (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي مبصرا فيها قال
الكسائي وغيره هو من قول العرب أبصر النهار اذا صار بحالة يبصر بها وأشار بهذا الى ان
في الكلام مجازا عقليا لان النهار لا يبصر بل يبصر فيه فهو من اسناد الحدث الى زمانه وقيل
مبصرة للناس من قولهم أبصره فبصر فالاول وصف لها بحال أهلها والثاني وصف لها
بحال نفسها واضافة آية الى النهار بيانية أي فمحونا الآية التي هي النهار مبصرة كقولهم
نفس الشئ وذاته وقيل آية النهار الشمس كما ان آية الليل القمر فمعنى وجعلنا آية النهار
مبصرة أي جعلنا شمس النهار مضيئة تبصر بها الاشياء رؤية بينة (لتبتغوا فضلا من ربكم)
أي لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في وجوه المعاش والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا
فضلا أي رزقا اذ غالب تحصيل الارزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ولم يذكر هنا السكون
في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا
ثم ذكر مصلحة اخرى في ذلك الجعل فقال (ولتعلموا اعداد السنين والحساب) وهذا متعلق
بالفعلين جميعا أعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا بأحدهما فقط
كالاول اذ لا يكون علم عدد السنين والحساب الا باختلاف الجديدين ومعرفة الايام
والشهور والسنين والفرق بين العدد والحساب ان العدد احصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من
غير أن يتحصل منه شئ والحساب احصاء ماله كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة
معينة منها حد معين منه له اسم خاص فالسنة مثلا ان وقع النظر اليها من حيث عدد
ايامها فذلك هو العدد وان وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد
تحصل كل شهر من عدة أيام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من
عدة دقائق فذلك هو الحساب ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص
المكتسبين والتجار ولتعطلت الامور ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم
والصلاة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار اذ
العدد موضوع الحساب (وكل شئ فصلناه تفصيلا) أي كل ما تفتقرون اليه في أمر
دينكم ودنياكم بيناه تبيينا واضحا لا يلتبس فهو كقوله ما فرطنا في الكتاب من شئ
وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وانما ذكر المصدر وهو قوله تفصيلا لاجل تأكيد

وليس فيهما ... السنة ... ووقوع ذلك قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عُبد الرحمن بن جرير عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس الآية وقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك الآية ثم قال اللهم أمتى اللهم أمتى اللهم أمتى وبكى فقال الله اذهب ياجبريل الى محمد وربك أعلم وسله مايبكيك فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال فقال الله اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وهذا يدل على ان هذا دعاء ثان بعد الدعاء الاول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها وذلك قبل بناء البيت وهذا كان بعد بنائه تأكيدا ورغبة الى الله عز وجل ولهذا قال عند بيتك المحرم وقوله ربنا ليقيموا الصلاة قال ابن جرير هو متعلق بقوله المحرم أى انما جعلته محرما ليتمكن أهله من اقامة الصلاة عنده فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكن قال من الناس فاختص به المسلمون وقوله وارزقهم من الثمرات أى ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثمارا يأكلونها وقد استجاب الله ذلك كما قال أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهى تجبى اليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام (ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) قال ابن جرير يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم خليله انه قال ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن أى أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لاهل هذا البلد وانما هو القصد الى رضاك والاخلاص لك فانك تعلم الاشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شىء فى الارض ولا فى السماء ثم حمد ربه عز وجل

الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقا على الوجه الذى لامزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الاعذار ليهلك من هلك عن بينة ولهذا قال (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال أبو عبيدة الطائر عند العرب الحظ ويقال له البخت فالطائر ماوقع للشخص فى الازل بما هو نصيبه من العقل والفهم والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كان طائرا يطير اليه من وكر الازل وظلمات عالم الغيب طيرا نا لانهاية له ولاغاية الى ان انتهى الى ذلك الشخص فى وقته المقدر من غير خلاص ولامناص وقال الازهرى الاصل فى هذا ان الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصى فكتب ما علمه منهم أجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعا وشقاوة من علمه عاصيا فطار لكل منهم ما هو صائر اليه عند خلقه وانشائه وذلك قوله وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه أى ما طار له فى علم الله وقيل ان العرب كانوا اذا أرادوا الاقدام على عمل من الاعمال وأرادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل يسوقهم الى خير أو شر اعتبروا أحوال الطير فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشىء باسم لازمه وفى عنقه عبارة عن شدة اللزوم وكمال الارتباط قال الزجاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس قال مجاهد ما من مولود يولد الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول طائر كل انسان فى عنقه وقال ابن عباس طائره سعادته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أينما كان وعن أنس قال طائره كتابه فالطائر له تفسيران الاول العمل وما قدر له والثانى الكتاب الحقيقى (ونخرج) بنون التعظيم (له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) وقرئ يخرج بالتحتية وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر فيصير كتابا وقرئ يخرج والفاعل هو الله سبحانه وقرئ على البناء للمفعول أى يخرج له الطائر كتابا والمعنى مكتوبا فيه أعماله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن يسارك فيحفظ عليك سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة وانما قال سبحانه يلقاه منشورا تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة قال ابن عباس هو عمله الذى أحصى عليه فاخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل

على مارزقه من الولد بعد الكبر فقال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق ان ربي لسميع الدعاء أي انه يستجيب لمن دعاه وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال رب اجعلني مقيم الصلاة أي محافظا عليها مقيما لحدودها ومن ذريتي أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ربنا وتقبل دعاء اي فيما سألتك فيه كله ربنا اغفر لي ولوالدي قرأ بعضهم ولوالدي بالافراد وكان هذا قبل ان يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل وللمؤمنين أي كلهم يوم يقوم الحساب أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم (٣٠٧) ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) يقول تعالى ولا تحسبن الله يا محمد غافلا عما يعمل الظالمون أي لا تحسبه اذا أنظرهم وأجلهم انه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عدا انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار أي من شدة الاهوال يوم القيامة ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم الى قيام المحشر فقال مهطعين أي مسرعين كقوله مهطعين الى الداع الآية وقال تعالى يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له الى قوله وعنت الوجوه للحي القيوم وقال تعالى يوم يخرجون من الاجداث سراعا الآية وقوله مقنعي رؤسهم قال ابن عباس ومجاهد وغيروا حد رافعي رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم أي أبصارهم طائرة شاخصة مديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ماهم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذا بالله العظيم من ذلك ولهذا قال وأفئدتهم هواء أي وقلوبهم خالية ليس فيها شئ لكثرة

العمل فقرأه منشورا والمعنى يلقاه الانسان أو يلقى الانسان (اقرأ كتابك) أي يقال له أو قائلين له اقرأ قيل يقرأ في ذلك اليوم الكتاب من كان قارئا ومن لم يكن قارئا قاله قتادة (كفى بنفسك) أي بشخصك (اليوم عليك حسيبا) أي حاسبا أو كافيا والحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس والخليط قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) بين سبحانه ان ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه الى غيره فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك مانهاه الله عنه وعمل بما في تضاعيفه من الاحكام فانما تعود منفعة ذلك الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لم يهتد (ومن ضل) عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به ولم يترك مانهى عنه (فانما يضل عليها) اي فان وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل أحد محاسب عن نفسه مجزى بطاعته معاقب بمعصيته وهذا حاصل ماتقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطريق ولزوم الاعمال لاصحابها ثم اكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال (ولا تزر وازرة وزر اخرى) الوزر الاثم يقال وزر يزر وزرا وزرة أي اثما والجمع أوزار والوزر الثقل ومنه يحملون أوزارهم على ظهورهم أي أثقال ذنوبهم ومعنى الآية لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الاخرى عن وزرها وتؤخذ به الاولى وقد تقدم مثل هذا في الانعام قال الزجاج في تفسير هذه الآية ان الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وهذا التحقيق معنى قوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه وأما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئتها فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون انهم ان لم يكونوا على الحق فالشفاعة على أسلافهم الذين قلدوهم أخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أولاد المشركين فقال هم من آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال الله

الوجل والخوف ولهذا قال قتادة وجماعة ان امكنة أفئدتهم خالية لان القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف وقال بعضهم هي خراب لا تعي شيأ لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقول تعالى مخبرا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك

وتتبع الرسل كقوله حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون الآية وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم الآيتين
وقال تعالى مخبرا عنهم في حال محشرهم ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم الآية وقال ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد
ولا نكذب بآيات ربنا الآية وقال تعالى وهم يصطرخون فيها الآية قال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا أولم تكونوا أقسمتم من
قبل ما لكم من زوال أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة انه لا زوال لكم عما أنتم فيه وانه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك
قال مجاهد وغيره ما لكم من زوال أي ما لكم من انتقال من الدنيا الى الآخرة كقوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم
لا يبعث الله من يموت الآية وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالامم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعناه بهم لكم مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر وقد روى شعبة عن أبي اسحق عن عبد الرحمن بن رباب ان عليا رضي الله عنه قال في هذه الآية وان كاد مكرهم لتزول منه الجبال قال اخذ ذاك الذي حاج ابراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا قال فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد الى تابوت وجوعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت قال ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم فطارا وجعل يقول لصاحبه انظر ماترى قال أرى كذا وكذا حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذباب قال فصوب العصا فصوبهما فهبط قال فهو قوله عز وجل وان كاد مكرهم لتزول منه الجبال قال ابو اسحق وكذلك هي في قراءة عبد الله وان كاد مكرهم قلت وكذا روى عن ابي
ابن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما انهما قرآ وان كاد كما قرأ علي وكذا رواه سفيان الثوري واسرائيل
عن ابي اسحق عن عبد الرحمن بن رباب عن علي فذكر نحوه وكذا روى عن عكرمة ان سياق القصة لنمروذ ملك كنعان انه رام اسباب
السماء بهذه الحيلة والمكر كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر وذكر
مجاهد هذه القصة عن بختنصر وانه لما انقطع نظره عن الارض وأهلها نودي أيها الطاغية أين تريد ففرق ثم سمع الصوت فوقه
فصوب الرماح فصوبت النسور ففزعت الجبال من هدتها وكادت الجبال ان تزول من حس ذلك فذلك قوله وان كان مكرهم لتزول

أعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعد ما استحكم الاسلام فنزلت ولا تزر وازرة الآية فقال هم
على الفطرة أو قال في الجنة قال السيوطي وسنده ضعيف وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما
ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل له يا رسول الله انا نصيب في البيات من ذراري
المشركين قال هم منهم وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل وقد ذكر ابن كثير في تفسير
هذه الآية غالب الاحاديث الواردة في أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم في المسئلة
فليرجع اليه (وما كنا معذبين) أحدا (حتى نبعث رسولا) لما ذكر سبحانه اختصاص
المهتدي بهدايته والضال بضلالته وعدم مؤاخذة الانسان بجناية غيره ذكر انه لا يعذب
عباده الا بعد الاعذار اليهم بارسال رسله وانزال كتبه فبين سبحانه انه لم يتركهم سدى ولا
اخذهم قبل اقامة الحجة عليهم والظاهر انه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة الا بعد
الاعذار اليهم بارسال الرسل وبه قالت طائفة من أهل العلم وذهب الجمهور الى ان المنفي
هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع
لا بالعقل (واذا أردنا ان نهلك قرية) اختلف المفسرون في معنى (أمرنا مترفيها) على
قولين الاول ان المراد به الذي هو نقيض النهي وعلى هذا اختلفوا في المأمور به فالاكثر
على انه الطاعة والخير وقال في الكشاف معناه أمرناهم بالفسق (ففسقوا فيها) وأطال
الكلام في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل
قول القائل أمرته فعصاني فان كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا ان المأمور به
شئ غير المعصية لان المعصية منافية للامر مناقضة له فكذلك أمرته ففسق يدل على ان
المراد به شئ غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافي
كونه مأمورا به ويناقضه والقول الثاني ان معنى أمرنا مترفيها أكثرنا فساقها قال
الواحدي تقول العرب أمر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم وقد قرئ أمرنا
بتشديد الميم أي جعلناهم أمراء مسلطين وقرئ آمرنا بالمد والتخفيف أي أكثرنا جبابرتها
وأمراءها قاله الكسائي وقال أبو عبيدة آمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرته ومنه
الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل وكذا قال ابن عزيز وقرئ أمرنا
بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس قال قتادة والحسن
المعنى أكثرنا وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد وأنكره الكسائي قال لا يقال من الكثرة
الا

منه الجبال ونقل ابن جريج عن مجاهد انه قرأ ها لتزول منه الجبال بفتح اللام الاولى وضم الثانية وروى العوفي عن ابن عباس في قوله وان كان مكرهم لتزول منه الجبال يقول ما كان مكرهم لتزول منه الجبال وكذا قال الحسن البصري ووجهه ابن جرير بان هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم ماضر ذلك شيأ من الجبال ولا غيرها وانما عاد وبال ذلك عليهم قلت ويشبه هذا قول الله تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وان كان مكرهم لتزول منه الجبال يقول شركهم كقوله تكاد (٣٠٩) السموات يتفطرن منه الآية وهكذا قال الضحاك وقتادة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) يقول تعالى مقررا الوعد ومؤكدا فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ثم أخبر تعالى انه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب وذو انتقام ممن كفر به وجحده فويل يومئذ للمكذبين ولهذا قال يوم تبدل الارض غير الارض والسموات أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الارض غير الارض وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لاحد وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة انها قالت أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قالت قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله قال على الصراط رواه مسلم منفردا به دون البخاري والترمذي وابن ماجه من حديث داود بن أبي هند به وقال الترمذي حسن صحيح ورواه أحمد أيضا عن عفان عن وهيب عنها ولم يذكر مسروقا وقال قتادة عن حسان بن بلال المزني عن عائشة رضي الله عنها انها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال قالت يا رسول الله فأين الناس يومئذ قال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ذاك أن الناس على جسرهم وروى الامام أحمد من حديث حبيب بن أبي عمرة عن مجاهد عن ابن عباس حدثتني عائشة انها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله

الا آمرنا بالمد قال في الصحاح وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي كثر وأمر القوم أي كثروا وقرأ الجمهور أمرنا من الامر ومعناه ما قدمنا في القول الاول وقد قيل في تأويل أمرنا انه مجاز عن الامر الحامل لهم على الفسق وهو ادرار النعم عليهم وقيل المراد قرب اهلاك قرية وهو عدول عن الظاهر بدون ملجئ اليه والمراد بالمترفين المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش والمفسرون يقولون في تفسير المترفين انهم الجبارون المتسلطون والملوك الجائرون قالوا وانما خصوا بالذكر لان من عداهم أتباع لهم وفي القاموس الترفه بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الطريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته أو نعمته كترفته تتريفا والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وتترف تنعم (فحق عليها القول) أي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب والعقاب بعد ظهور فسقهم وتمردهم في كفرهم (فدمرناها تدميرا) عظيما لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم موقعه وأهلكناها اهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب ثم ذكر سبحانه ان هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال (وكم أهلكنا من القرون) أي كثيرا ما أهلكنا منهم فكم مفعول أهلكنا أي من قوم كفروا (من بعد نوح) كعاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب وفيه تخويف لكفار مكة وانما قال ذلك لانه أول من كذبه قومه ومن ثم لم يقل من بعد آدم ومن الثانية لابتداء الغاية والاولى للبيان فلذلك اتحد متعلقهما وقال الحوفي الثانية بدل من الاولى وليس كذلك لاختلاف معنييهما ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما هو ردع للناس كافة فقال (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) قال الفراء انما يجوز ادخال الباء في المرفوع اذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك كفاك به وأكرم به رجلا وطاب بطعامك طعاما ولا يقال قام باخيك وأنت تريد قام أخوك والمراد بكونه سبحانه خبيرا انه محيط بحقائق الاشياء ظاهرا وباطنا عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا تخفى عليه خافية من أحوال الخلق وفي الآية بشارة عظيمة لاهل الطاعة وتخويف شديد لاهل المعصية لان العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة يقتضي ايصال الجزاء الى مستحقه بحسب استحقاقه ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك (من كان يريد العاجلة) هذا تأكيد لما سلف من جملة كل انسان ألزمناه

تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه فأين الناس يومئذ يارسول الله قال هم على متن جهنم وقال ابن
جرير حدثنا الحسن حدثنا علي بن الجعد أخبرنا القاسم سمعت الحسن قال قالت عائشة يارسول الله يوم تبدل الارض غير الارض
فأين الناس يومئذ قال ان هذا شيء ماسألني عنه أحد قال على الصراط ياعائشة ورواه أحمد عن عفان عن القاسم بن الفضل عن
الحسن به وقال الامام مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثني الحسن بن علي الحلواني حدثني أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن
سلام عن زيد يعني أخاه انه سمع أبا سلام حدثني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
حدثه قال كنت قائما عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم فجاء
حبر من أحبار اليهود فقال السلام
عليك يامحمد فدفعته دفعة كاد
يصرع منها فقال لم تدفعني فقلت
ألا تقول يارسول الله فقال اليهودي
انما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان اسمي محمد الذي سماني به أهلي
فقال اليهودي جئت أسألك فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم أينفعك
شيأ ان حدثتك قال أسمع باذني
فنكت رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعود معه فقال سل فقال
اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل
الارض غير الارض والسموات
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
هم في الظلمة دون الجسر قال فمن أول
الناس اجازة فقال فقراء المهاجرين
قال اليهودي فما تحفتهم حين
يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون
قال فما غذاؤهم في أثرها قال ينحر لهم
ثور الجنة الذي كان يأكل من
أطرافها قال فما شرابهم عليه قال
من عين فيها تسمى سلسبيلا قال
صدقت قال وجئت أسألك عن شيء
لا يعلمه احد من أهل الارض الا نبي أو رجل أو رجلان قال أينفعك ان حدثتك قال اسمع باذني قال جئت
أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء المرأة اصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة اذكرا باذن الله تعالى واذا علا مني المرأة
مني الرجل آنثا باذن الله قال اليهودي صدقت وانك لنبي ثم انصرف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سألني هذا عن الذي
سألني عنه ومالي علم بشيء منه حتى أتاني الله به حدثنا أبو جعفر بن جرير الطبري حدثنا ابن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا ابن أبي
مريم حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي عن ابي أيوب الانصاري ان حبرا من اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت اذ

طائره وجملة من اهتدى والمراد بالعاجلة المنفعة العاجلة أو الدار العاجلة والمعنى من
كان يريد باعمال البر أو باعمال الآخرة ذلك فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤن
والمنافقون (عجلنا له) أي لذلك المريد (فيها) أي في تلك العاجلة قيد المعجل والمعجل له
بقيدين الاول قوله (مانشاء) تعجيله له منها لاما يشاؤه ذلك المريد ولهذا ترى كثيرا من
هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا مالا ينالون و يتمنون مالا يصلون اليه والقيد
الثاني قوله (لمن نريد) التعجيل له منهم مااقتضته مشيئتنا وقيل الآية في المنافقين كانوا
يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الامساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذه
الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وقوله من
كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون وقيل قرئ
مايشاء بالتحتية والضمير على هذا لله سبحانه وفيه بعد لمخالفته لما قبله وهو عجلنا ومابعده
وهو لمن نريد وقيل الضمير راجع الى من في قوله من كان يريد فيكون ذلك مقيدا بقوله لمن
نريد أي عجلنا له مايشاؤه لكن بحسب ارادتنا فلا يحصل لمن أراد العاجلة مايشاؤه الا اذا
أراد الله له ذلك ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها الا بالقيدين
المذكورين عذاب الآخرة الدائم ولهذا قال (ثم جعلنا له جهنم) أي بسبب تركه لما أمر به
من العمل للآخرة واخلاصه عن الشوائب جعلنا له عذاب جهنم على اختلاف أنواعه
(يصلاها) أي يدخل جهنم (مذموما) ملوما من الخلق (مدحورا) أي مطرودا من
رحمة الله مبعدا عنها وفي المختار دحر ويدحر من باب خضع طرده فهذه عقوبته في الآخرة
مع انه لا ينال من الدنيا الا ماقدره الله سبحانه فأين حال هذا الشقي من حال المؤمن التقي
فانه ينال من الدنيا ماقدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمئنان
قلبه وثقته بربه وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا
قال (ومن أراد) باعماله الدار (الآخرة وسعى لها) أي من أجلها وفائدة اللام اعتبار
النية والاخلاص لانها للاختصاص (سعيها) أي السعي الحقيق بها اللائق بطالبها
وهو الاتيان بما أمر به وترك مانهي عنه خالصا لله غير مشوب وكان الاتيان به على القانون
الشرعي من دون ابتداع ولا هوى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم (وهو مؤمن) بالله
ايمانا صحيحا لان العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه الا اذا كان من المؤمنين انما

يتقبل

يتقبل الله من المتقين والواو للحال (فأولئك) أي المريدون للآخرة الساعون لها سعيها وفيه مراعاة معنى من بعد مراعاة لفظها وهو مبتدأ وخبره (كان سعيهم مشكورا) عند الله أي مقبولا غير مردود وقيل مضاعفا الى اضعاف كثيرة فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكورا أمورا ثلاثة الاول ارادة الآخرة الثاني ان يسعى لها السعي الذي يحق لها والثالث أن يكون مؤمنا وفي الخطيب قال بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية ثم بين سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال (كلا) أي كل واحد من الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (نمد) أي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع (هؤلاء وهؤلاء) بدل من المفعول وهو كلا فكأنه قيل نمد هؤلاء وهؤلاء الاول للاول والثاني للثاني فهو لف ونشر مرتب اي نرزق الكفار والمؤمنين وأهل المعصية وأهل الطاعة لا تؤثر معصية العاصي في قطع رزقه ومابه الامداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا وما أنعم به في الاولى والاخرى على من يريد الآخرة وفي قوله (من عطاء ربك) اشارة الى ان ذلك بمحض التفضل وهو متعلق بنمد (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا عن أحد قاله الضحاك يقال حظره يحظره حظرا منعه وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا كالرزق والجاه اذ لاحظ للكافر في الآخرة قال الزجاج علم الله سبحانه انه يعطي المسلم والكافر وانه يرزقهم جميعا وقال الحسن كل يرزقه الله في الدنيا البر والفاجر وقال ابن عباس يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة (انظر) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من له أهلية النظر والاعتبار وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد وموضحة له والمعنى انظر (كيف فضلنا) في العطايا العاجلة (بعضهم) أي بعض العباد (على بعض) فمن غني وفقير وقوي وضعيف وصحيح ومريض وعاقل وأحمق وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن ادراكها (وللآخرة) اللام لام ابتداء أو قسم (أكبر درجات وأكبر تفضيلا) من الدنيا وذلك لان نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة مقدار فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وقيل المراد ان المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين وحاصل المعنى ان

يقول الله تعالى في كتابه يوم تبدل الارض غير الارض والسموات اين الخلق عند ذلك فقال أضياف الله فلن يعجزهم مالديه ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به وقال شعبة أخبرنا أبو اسحق سمعت عمرو بن ميمون وربما قال قال عبد الله وربما لم يقل فقلت له عن عبد الله فقال سمعت عمرو بن ميمون يقول يوم تبدل الارض غير الارض قال أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا قال أراه قال قياما حتى يلجمهم العرق وروى من وجه آخر عن شعبة عن اسرائيل عن ابى اسحق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بنحوه وكذا رواه عاصم عن زر عن ابن مسعود به وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون لم يخبر به أورد ذلك كله ابن جرير وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل حدثنا سهل بن حماد أبو غياث حدثنا جرير بن أيوب عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل يوم تبدل الارض غير الارض قال أرض بيضاء لم يسقط عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ثم قال لا نعلم رفعه الا جرير بن أيوب وليس بالقوي ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب عن معاوية بن هشام عن سنان عن جابر الجعفي عن أبي جبيرة عن زيد قال أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليهود فقال هل تدرون لم أرسلت اليهم قالوا الله ورسوله أعلم قال أرسلت اليهم أسألهم عن قول الله يوم تبدل الارض غير الارض انها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة فلما جاؤا سألهم فقالوا تكون بيضاء مثل النقي وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر انها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة وعن علي رضي الله عنه انه قال تصير الارض فضة والسموات ذهبا وقال الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال تصير السموات جنانا وقال أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن قيس في الآية في قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم وكذا روى وكيع عن عمر بن بشر الهمداني عن سعيد بن جبير في قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه وقال الاعمش عن خيثمة قال قال عبد الله بن مسعود الارض يوم القيامة كلها نار والجنة من

وراءها ترى كواعبها وأكوابها ويلجم الناس العرق ويبلغ منهم العرق ولم يبلغوا الحساب وقال الاعمش أيضا عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن قال قال عبد الله الارض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها والذى نفس عبد الله بيده ان الرجل ليفيض عرقا حتى ترشح فى الارض قدمه ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب قالوا مم ذلك يا أبا عبد الرحمن قال مما يرى الناس ويلقون وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن كعب فى قوله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال تصير السموات جنانا ويصير مكان البحر نارا وتبدل الارض غيرها الحديث الذى رواه أبو داود لا يركب البحر الا غاز أو حاج أو معتمر فان تحت البحر نارا أو تحت النار بحرا وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يبدل الله الارض غير الارض والسموات فيبسطها ويمدها مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزجر الله الخلق زجرة فاذا هم فى هذه المبدلة وقوله وبرزوا لله أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله الواحد القهار أى الذى قهر كل شئ وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الالباب (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب) يقول تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم مقرنين أى بعضهم الى بعض قد جمع بين النظراء أو الاشكال منهم كل صنف الى صنف كما قال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وقال واذا النفوس زوجت وقال واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا وقال والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد والاصفاد هى القيود قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والاعمش وعبد الرحمن بن زيد وهو مشهور فى اللغة قال عمرو بن كلثوم

فآبوا بالنهاب وبالسبايا * وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله سرابيلهم من قطران أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران وهو الذى تهنأ به الابل أى تطلى قال قتادة وهو ألصق شئ بالنار ويقال فيه قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها وبكسر القاف وتسكين الطاء ومنه قول أبى النجم

التفاضل فى الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل فى الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما وثبت فى الصحيحين ان أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله وسعى لها سعيها وهو مؤمن أخذ فى تفصيل ذلك مبتدئا بأشرفها الذى هو التوحيد فقال (لا تجعل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به أمته تهييجا والهابا أو لكل مكلف من أهل له صالح لتوجيهه اليه وقيل التقدير قل لكل مكلف لا تجعل (مع الله الها آخر فتقعد) النصب على جواب النهى أى لا يكن منك جعل فقعود ومعنى تقعد تصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة واليه ذهب الفراء والزمخشرى وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات فان السعى فيه انما يأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعدا عن الطلب وقيل ان من شأن المذموم المخذول ان يقعد نادما مفكرا على ما فرط منه فالقعود على هذا حقيقة (مذموما مخذولا) ونصبهما على خبرية تقعد أو على الحال أى من غير حمد وبغير ناصر فتصير جامعا بين الامرين الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحى عباده والخذلان لك منه سبحانه أو حال كونك جامعا بينهما وحاصل ما ذكر فى هذه الآيات من أنواع التكاليف خمسة وعشرون نوعا بعضها أصلى وبعضها فرعى وقد ابتدأ بالاصلى فى قوله لا تجعل ثم ذكر عقبه سائر الاعمال التى يكون من عمل بها ساعيا فى الآخرة فقال (وقضى ربك) أى أمر أمرا جزما وحكما قطعا وحتما مبرما وعن ابن عباس انه قرأ ووصى ربك مكان وقضى وقال التزقت الواو والصاد وانتم تقرؤنها وقضى ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد وبه قرأ الضحاك أيضا أقول انما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الامر وهو وان كان أحد معانى مطلق القضاء كما فى قوله قضى الامر الذى فيه تستفتيان وقوله فاذا قضيتم مناسككم وقوله فاذا قضيتم الصلاة ولكنه ههنا بمعنى الامر وهو أحد معانى القضاء والامر لا يستلزم ذلك فانه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ومن جملة ذلك افراده بالعبادة وتوحيده وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين ومن معانى مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ومنه فقضاهن سبع سموات وبمعنى الارادة كقوله اذا قضى أمرا وبمعنى العهد كقوله اذ قضينا الى موسى الامر وقد روى عنه أيضا انه قال قضى أمر وقيل أوجب

كأن قطرانا اذا تلاها * ترمي به الريح الى مجراها

وكان ابن عباس يقول القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها سرابيلهم من قطران أي من نحاس حار قد انتهى حره وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وقوله وتغشى وجوههم النار كقوله تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن اسحق أنبأنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع في أمتي (٣١٣) من أمر الجاهلية لا يتركوهن الفخر بالاحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت والنائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب انفرد باخراجه مسلم وفي حديث القاسم عن أبي امامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعه النائحة اذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار وقوله ليجزي الله كل نفس ما كسبت أي يوم القيامة ليجزي الذين أساؤا بما عملوا الآية ان الله سريع الحساب يحتمل ان يكون كقوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ويحتمل انه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز لانه يعلم كل شئ ولا يخفى عليه خافية وان جميع الخلق بالنسبة الى قدرته كالواحد منهم كقوله تعالى ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وهذا معنى قول مجاهد سريع الحساب احصاء ويحتمل ان يكون المعنيان مرادين والله أعلم (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب) يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله لانذركم به ومن بلغ أي هو البلاغ لجميع الخلق من انس وجن كما قال في أولها الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور الآية ولينذروا به أي ليتعظوا به وليعلموا انما هو اله واحد أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على انه لا اله الا هو وليذكر أولوا الالباب أي ذوو العقول آخر تفسير سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

(تفسير سورة الحجر وهي مكية)

أوجب ربك وعن مجاهد قال عهد ربك قال الرازي هذا القول أي قول ابن عباس بعيد جدا لانه يفتح باب ان التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين (أن لا) أي بان (لا تعبدوا الا اياه) قاله السيوطي وقال في الجمل قوله هذا غير سديد حيث أثبت النون بين الهمزة ولا النافية بقلم الحمرة فيقتضي انها من رسم القرآن مع انه ليس كذلك وقد نص في شرح الجزرية ان ما عدا المواضع العشرة يكتب موصولا أي لا تثبت فيه النون وقيل ان مفسرة ولا تعبدوا نهي وفيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق ثم أردفه بالامر ببر الوالدين فقال (وبالوالدين) اي وقضى بان تحسنوا بهما أو واحسنوا بهما (احسانا) وتبروهما قيل وجه ذكر الاحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه انهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما وفي جعل الاحسان الى الابوين قرينا لتوحيد الله وعبادته من الاعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترنا بشكره فقال ان اشكر لي ولوالديك ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها الى البر من الولد أحوج من غيرها فقال (اما يبلغن) ان شرطية وما زائدة والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التأكيد الثقيلة (عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) معنى عندك ان يكونا في كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للاشعار بان كل فرد من الافراد منهي بما فيه النهي ومأمور بما فيه الامر (فلا تقل لهما أف) جواب الشرط قيل والتقييد بهذا الشرط خرج مخرج الغالب من ان الولد انما يتهاون بوالديه عند الكبر والا فلا يختص بالكبيرين والمعنى لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد وليس المراد حالة الاجتماع فقط عن الحسين بن علي مرفوعا وعلم الله شيأ من العقوق أدنى من أف لحرمه وقال مجاهد لا تقل لهما أف لما تميط عنهما من الاذى الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول وفي أف أربعون لغة قاله السمين ثم قال وقد قرئ من هذه اللغات بسبع ثلاث في المتواتر وأربع في الشواذ وقال الفراء تقول العرب فلان يتأفف من ريح وجدها اي يقول أف أف وقال الاصمعي الاف وسخ الاذن والتف وسخ الاظفار يقال ذلك عند استقذار الشئ ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأذون به وعن ابن الاعرابي ان الاف الضجر وقال القتيبي

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور وقوله تعالى ربما يود الذين كفروا الآية اخبار عنهم انهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنون لو كانوا فى الدنيا مسلمين ونقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ان كفار بدر لما عرضوا على النار تمنوا لو كانوا مسلمين وقيل المراد ان كل كافر يود عند احتضاره ان لو كان مؤمنا وقيل هذا اخبار (٣١٤) عن يوم القيامة كقوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزاهرية عن عبد الله فى قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال هذا فى الجهنميين اذا رأوهم يخرجون من النار وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبى فروة العبدى ان ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا قال فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم فذلك حين يقول ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن حماد عن ابراهيم وعن خصيف عن مجاهد قالا يقول أهل النار للموحدين ما أغنى عنكم ايمانكم فاذا قالوا ذلك قال الله أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان قال فعند ذلك قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وهكذا روى عن الضحاك وقتادة وأبى العالية وغيرهم وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا من محمد بن العباس هو الاخرم حدثنا محمد بن منصور الطوسى حدثنا صالح بن اسحق الجهبذى وابن علية يحيى بن موسى حدثنا معروف ابن واصل عن يعقوب بن نباتة عن عبد الرحمن الاغر عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ناسا من أهل لا اله الا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا اله الا الله وأنتم معنا فى النار فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرؤن من حرقهم كما يبرأ القمر من كسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها

أصله انه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم وقال الزجاج معناه النتن وقال أبو عمرو بن العلاء الأف وسخ بين الاظفار والتف قلامتها والحاصل انه اسم فعل ينبئ عن التضجر والاستثقال أو صوت ينبئ عن ذلك فنهى الولد عن ان يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما وقيل أف مصدر بمعنى تبا وقبحا وخسرانا والاول أرجح وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو مقرر فى الاصول (ولا تنهرهما) اى لا تضجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهى والنهر والنهم أخوات بمعنى الزجر والغلظة يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزجره قال الزجاج معناه لا تكلمهما ضجرا صائحا فى وجوههما (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) أى لينا لطيفا جميلا سهلا أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع حسن التأدب والحياء والاحتشام قال محمد بن زبير يعنى اذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما وقيل هو ان يقول يا أماه يا أبتاه ولا يدعوهما باسمائهما ولا يكنيهما (واخفض لهما جناح الذل) قال سعيد بن جبير اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ ذكر القفال فى معنى خفض الجناح وجهين الاول ان الطائر اذا أراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير فكأنه قال للولد اكفل لوالديك بان تضمهما الى نفسك لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك وكنت مفتقرا اليهما والثانى ان الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا أراد النزول خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية بليغة عن التواضع وترك الارتفاع وفى اضافة الجناح الى الذل وجهان الاول انها كاضافة حاتم الى الجود فى قولك حاتم الجود فالاصل فيه الجناح الذليل والثانى سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحا ثم أثبت لذلك الجناح خفضا والذل من ذل يذل ذلا وذلة ومذلة فهو ذليل وقرئ بكسر الذال من قولهم دابة ذلول بينة الذل أى منقادة سهلة لا صعوبة فيها وقوله (من الرحمة) فيه معنى التعليل أى من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله اليهما بالامس قال السمين وفى من ثلاثة أوجه أحدها انها للتعليل والثانى انها ابتدائية قال ابن عطية أى ان هذا الخفض يكون ناشئا

الجهنميون فقال رجل يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار نعم أنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ثم قال الطبراني تفرد به الجهبذي * الحديث الثاني قال الطبراني أيضا حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبو الشعثاء علي بن حسن الواسطي حدثنا خالد بن نافع الاشعري عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين

ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم الاسلام فقد صرتم معنا في النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فاخرجوا فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ورواه ابن أبي حاتم من حديث خالد بن نافع به وزاد فيه بسم الله الرحمن الرحيم عوض الاستعاذة * الحديث الثالث قال الطبراني أيضا حدثنا موسى بن هرون حدثنا اسحق بن راهويه قال قلت لابي أسامة أحدثكم أبو روق واسمه عطية بن الحرث حدثني صالح بن أبي شريف قال سألت أبا سعيد الخدري فقلت له هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الآية ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قال نعم سمعته يقول يخرج الله ناسا من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم وقال لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون انكم أولياء الله في الدنيا فما بالكم معنا في النار فاذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا باذن الله فاذا رأى المشركون ذلك قالوا يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم قال فذلك قول الله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم فيقولون يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم فأقر به أبو أسامة وقال نعم * الحديث الرابع قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا العباس بن الوليد النرسي حدثنا مسكين أبو فاطمة حدثني اليمان بن يزيد عن محمد بن جبير عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله

من الرحمة المستكنة في النفس الثالث انه انتصب على الحال من جناح ثم كأنه قال له سبحانه ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها (و) لكن (قل رب ارحمهما) أي وادع الله لهما ولو خمس مرات في اليوم والليلة ان يرحمهما برحمته الباقية الدائمة وأراد به اذا كانا مسلمين (كما ربياني صغيرا) أي رحمة مثل تربيتهما لي قدره الحوفي أو مثل رحمتهما لي قدره أبو البقاء وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما في الوجود أي فلتقع هذه كما وقعت تلك والتربية التنمية ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أي لاجل تربيتهما لي كقوله واذكروه كما هداكم ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها وان يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما وهذه خمسة أشياء كلف الانسان بها في حق الوالدين وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي معروفة في كتب الحديث (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي بما في ضمائركم من الاخلاص وعدمه في كل الطاعات ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الاصرار عليه ويندرج تحت هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق اندراجا أوليا وقيل ان الآية خاصة بما يجب للوالدين من البر ويحرم على الاولاد من العقوق والاول أولى اعتبارا بعموم اللفظ فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده (ان تكونوا صالحين) أي ابرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة (فانه كان للاوابين) أي الرجاعين عن الذنوب الى التوبة ومن السيئات الى الحسنات ومن العقوق الى البر ومن عدم الاخلاص الى محض الاخلاص (غفورا) لما فرط منكم من قول أو فعل أو اعتقاد فلا يضركم ما وقع من الذنب الذي تبتم عنه فمن تاب تاب الله عليه ومن رجع الى الله رجع الله اليه وقال سعيد بن جبير يعني البادرة من الولد الى الوالد أي ان تكن النية صادقة فانه كان غفورا للبادرة التي بدرت منه كالفلتة والزلة تكون من الرجل الى أبويه أو احدهما وهو لا يضمر عقوقا ولا يريد بذلك بأسا قال سعيد بن المسيب هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب وقيل الأواب الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها

عليه وسلم منهم من تأخذه النار الى ركبته ومنهم من تأخذه الى حجزته ومنهم من تأخذه النار الى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت الى ان تفنى فاذا أراد الله ان يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل الاديان والاوثان لمن فى النار من أهل التوحيد آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشئ فيما مضى فيخرجهم الى عين فى الجنة وهو قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقوله ذرهم يأكلوا ويتمتعوا (٣١٦) تهديد شديد لهم ووعيد أكيد كقوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وقوله كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون ولهذا قال ويلههم الامل أى عن التوبة والانابة فسوف يعلمون أى عاقبة أمرهم (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ما تسبق من امة أجلها وما يستأخرون) يخبر تعالى انه ما أهلك قرية الا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها وانه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم وهذا تنبيه لاهل مكة وارشادلهم الى الاقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والالحاد الذى يستحقون به الهلاك (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم فى قولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر أى الذى تدعى ذلك انك لمجنون أى فى دعائك ايانا الى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا لو ما أى هلا تأتينا بالملائكة اى يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون لولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وكذا قال فى الآية ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين وقال مجاهد فى قوله ما ننزل الملائكة الا بالحق بالرسالة والعذاب ثم قرر تعالى انه هو الذى أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى له لحافظون على النبى صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك من

وقال عبد بن عمير هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله وهذه الاقوال متقاربة قال ابن عباس الاوابين المطيعين المحسنين التوابين وقيل المسبحين وقيل المصلين قال عون العقيلى هم الذين يصلون صلاة الضحى وقيل من يصلى بين المغرب والعشاء والاول أولى ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الاقارب بعد التوصية بهما فقال (وآت ذا القربى حقه) الخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تهييجا والهابا لغيره من الامة أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما فى قوله وقضى ربك والامر للوجوب عند أبى حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة أقاربه اذا كانوا محارم كالاخ والاخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره الا نفقة الاصول والفروع دون غيرهما من الاقارب أقول المراد بذوى القربى أولوا القرابة وحقهم هو صلة الرحم التى أمر الله بها والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء وكرر الوصية فيها والخلاف بين أهل العلم فى وجوب النفقة للقرابة أو لبعضهم كالوالدين على الاولاد والاولاد على الوالدين معروف والذى ينبغى الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما تقتضيه الحال قال ابن عباس أمر باحق الحقوق وعلمه كيف يصنع اذا كان عنده وكيف يصنع اذا لم يكن عنده (و) آت (المسكين وابن السبيل) حقهما من الزكاة وهذا دليل على ان المراد بما يؤتى ذوى القربى من الحق هو تعهدهم بالمال وعن سفيان فى الآية قال هو ان يصل ذا القرابة ويطعم المسكين ويحسن الى ابن السبيل وعن السدى قال القربى قربى بنى عبد المطلب وقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقول ليس فى السياق ما يفيد هذا التخصيص ولا دل عليه دليل ومعنى النظم القرآنى واضح ان كان الخطاب مع كل من يصلح له من الامة لان معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بان يعطيهم حقهم وهو الصلة التى أمر الله بها وان كان الخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فان كان على وجه التعريض لامته فالامر فيه كالاول وان كان خطابا له من دون تعريض فامته اسوته فالامر له صلى الله عليه وآله وسلم بايتاء ذى القربى حقه أمر لكل فرد من افراد امته والظاهر ان هذا الخطاب ليس خاصا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بدليل ما قبل الآية وهى قوله وقضى ربك وما بعدها وهى قوله (ولا تبذر تبذيرا) هو تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه وهو الاسراف المذموم لمجاوزته للحد المستحسن شرعا فى

الانفاق

الناس والمعنى الاول أولى وهو ظاهر السياق (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين) يقول تعالى مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من كفار قريش انه أرسل من قبله من الامم الماضية وانه ما اتى أمة رسول الا كذبوه واستهزؤا به ثم أخبر انه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى قال أنس والحسن البصرى كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين يعنى الشرك وقوله وقد خلت سنة الاولين أى قد علم ما فعل تعالى بمن كذب (٣١٧) رسله من الهلاك والدمار وكيف أنجى الله الانبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق انه لو فتح لهم بابا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا انما سكرت أبصارنا قال مجاهد وابن كثير والضحاك سدت أبصارنا وقال قتادة عن ابن عباس أخذت أبصارنا وقال العوفى عن ابن عباس شبه علينا وانما سحرنا وقال الكلبى عميت أبصارنا وقال ابن زيد سكرت أبصارنا السكران الذى لا يعقل (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ما يحار نظره فيه ولهذا قال مجاهد وقتادة البروج ههنا هى الكواكب قلت وهذا كقوله تبارك وتعالى تبارك الذى جعل فى السماء بروجا الآية ومنهم من قال البروج هى منازل الشمس والقمر وقال عطية العوفى البروج ههنا هى قصور فيها الحرس وجعل الشهب حرسا لها من مردة الشياطين لئلا يسمعون الى الملا الاعلى فمن تقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب فأبلغه فربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب الى الذى هو دونه فيأخذها الآخر ويأتى بها الى وليه كما جاء مصرحا به فى الصحيح كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن

الانفاق أو هو الانفاق فى غير الحق وان كان يسيرا قال الشافعى التبذير انفاق المال فى غير حقه ولا تبذير فى عمل الخير قال القرطبى وهذا قول الجمهور وقال أشهب عن مالك التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه فى غير حقه وهو الاسراف وهو حرام لقوله (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) فان هذه الجملة تعليل للنهى عن التبذير والمراد بالاخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو فى خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه اطلاق المماثلة والاسراف فى الانفاق من عمل الشيطان فاذا فعله أحد من بنى آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم قال ابن مسعود التبذير انفاق المال فى غير حقه وعنه كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث ان التبذير النفقة فى غير حقه وعن ابن عباس قال هم الذين ينفقون المال فى غير حقه وعن على قال ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان وقيل هو انفاق المال فى العمارة على وجه السرف وقيل لو أنفق الانسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما أو مدا فى باطل كان مبذرا قيل ان بعضهم انفق نفقة فى خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير ولا مانع من حمل الآية على الجميع والعموم أولى (وكان الشيطان لربه) أى لنعم ربه (كفورا) أى كثير الكفران لجحود النعمة عظيم التمرد عن الحق لانه مع كفره لا يعمل الا شرا ولا يأمر الا بعمل الشر ولا يوسوس الا بما لا خير فيه وفى هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ثم التسجيل على جنس الشيطان بانه كفور فاقتضى ذلك ان المبذر مماثل للشيطان وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك قال الكرخى وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه الى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لانه موافق للشيطان فى الصفة والفعل (واما تعرضن عنهم) أى ان أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل لامر اضطرك الى ذلك الاعراض (ابتغاء رحمة) أى لفقد رزق (من ربك) ولكنه أقام المسبب الذى هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذى هو فقد الرزق لان فاقد الرزق مبتغ له (ترجوها) أى ترجو أن يفتح الله به عليك (فقل لهم قولا ميسورا) أى قولا سهلا لينا كالوعد الجميل أو الاعتذار

عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان قال على وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض فربما أدرك الشهاب المستمع قبل ان يرمى بها الى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمى بها الى الذى يليه الى الذى هو أسفل منه حتى يلقوها (٣١٨) الى الارض وربما قال سفيان حتى تنتهى الى الارض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا للكلمة التى سمعت من السماء ثم ذكر تعالى خلقه الارض ومده اياها وتوسيعها وبسطها وما جعل فيها من الجبال الرواسى والاودية والاراضى والرمال وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة وقال ابن عباس من كل شئ موزون أى معلوم وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة ومنهم من يقول مقدر بقدر وقال ابن زيد من كل شئ يوزن ويقدر بقدر وقال ابن زيد ما يزنه أهل الاسواق وقوله وجعلنا لكم فيها معايش يذكر تعالى انه صرفهم فى الارض فى صنوف الاصناف والمعايش وهى جمع معيشة وقوله ومن لستم له برازقين قال مجاهد هى الدواب والانعام وقال ابن جرير هم العبيد والاماء والدواب والانعام والقصد انه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الاسباب وصنوف المعايش وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والانعام التى يأكلونها والعبيد والاماء التى يستخدمونها ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة والرزق على الله تعالى (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم) يخبر تعالى انه مالك كل شئ وان كل شئ سهل عليه يسير لديه وان عنده خزائن الاشياء من جميع الصنوف وما ننزله الا بقدر معلوم أى كما يشاء وكما يريد ولما له فى ذلك من

المقبول قيل هو ان يقول رزقنا الله واياكم من فضله قال الكسائى يسرت له القول أى لينته قال الفراء معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعسارا فعدهم عدة حسنة ويجوز أن يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولا ميسورا وليس المراد هنا الاعراض بالوجه وفى هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده اذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبما يردون ولقد أحسن من قال

ان لا يكن ورق يوما أجود بها * للسائلين فانى لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى * اما نوال واما حسن مردود

ولما ذكر الله سبحانه أدب المنع بعد النهى عن التبذير بين أدب الانفاق فقال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) هذا النهى يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم تعريضا لامته وتعليما لهم أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين والمراد النهى للانسان بان يمسك امساكا يصير به مضيقا على نفسه وعلى اهله ولا يوسع فى الانفاق توسيعا لا حاجة اليه بحيث يكون به مسرفا فهو نهى عن جانبى الافراط والتفريط ويحصل من ذلك مشروعية التوسط وهو العدل الذى ندب الله اليه

ولا تك فيها مفرطا أو مفرطا * كلا طرفى قصد الامور ذميم

وقد مثل الله سبحانه فى هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه مضمومة اليه مجموعة معه فى الغل بحيث لا يستطيع التصرف بها ومثل حال من يجاوز الحد فى التصرف بحال من يبسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها مما يقبض الايدى عليه ولا يبقى شيأ فى كفه وفى هذا التصوير مبالغة عظيمة بليغة ثم بين سبحانه غاية الطرفين المنهى عنهما فقال (فتقعد) تصير (ملوما) مذموما عند الناس بسبب ما انت عليه من الشح أو عند الله سبحانه لان الشح غير مرضى لديه أو عند نفسك وأصحابك أو يلومك سائلوك اذا لم تعطهم (محسورا) بسبب ما فعلته من الاسراف أى منقطعا عن المقاصد بسبب الفقر والمحسور فى الاصل المنقطع عن السير من حسره السفر اذا بلغ منه أى أثر فيه والبعير الحسير هو الذى ذهبت قوته فلا انبعاث به ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير أى كليل منقطع وقيل معناه نادما على ما سلف فجعله هذا القائل من الحسرة التى هى الندامة وفيه نظر لان الفاعل من الحسرة حسران ولا يقال محسور الا للملوم وفى المختار

الحسرة

الحكمة البالغة والرحمة لعباده لا على وجه الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة قال يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة عن عبد الله ما من عام بامطر من عام ولكن الله يقسمه حيث شاء عاما ههنا وعاما ههنا ثم قرأ وان من شيء الا عندنا خزائنه الآية رواه ابن جرير وقال أيضا حدثنا القاسم حدثنا هشيم أخبرنا اسمعيل بن سالم عن الحكم بن عيينة في قوله وما ننزله الا بقدر معلوم قال ما عام بأكثر مطرا من عام ولا أقل ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر قال وبلغنا أنه ينزل مع المطر الملائكة أكثر من عدد ولد ابليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت وقال البزار حدثنا داود وهو ابن (٣١٩) بكير حدثنا حيان بن أغلب بن تميم حدثني أبي عن هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خزائن الله الكلام فاذا أراد شيأ قال له كن فكان ثم قال لا يرويه الا الأغلب وليس بالقوي وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ولم يروه عنه الا ابنه وقوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الانتاج بخلاف الريح العقيم فانه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الانتاج لانه لا يكون الا بين شيئين فصاعدا وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود في قوله وأرسلنا الرياح لواقح قال ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة وكذا قال ابن عباس وابراهيم النخعي وقتادة وقال الضحاك يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء وقال عبيد بن عمير الليثي يبعث الله المثيرة فتقم الارض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا وأرسلنا الرياح لواقح وقد روى ابن جرير من حديث عبيس بن ميمون عن أبي المهزم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الريح الجنوب من الجنة وهي التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس وهذا اسناد ضعيف وقال الامام أبو بكر عبد الله ابن الزبير الحميدي في مسنده حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرني يزيد بن جعدبة الليثي أنه سمع عبد الرحمن بن مخراق يحدث عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق في الجنة ريحا بعد الريح بسبع سنين وان من دونها بابا مغلقا

الحسرة شدة التلهف على الشيء الفائت تقول حسر على الشيء من باب طرب وحسره أيضا فهو حسير وحسره غيره تحسيرا وعن سيار أبي الحكم قال أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بز من العراق وكان معطاء كريما فقسمه بين الناس فبلغ ذلك قوما من العرب فقالوا انا نأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجدوه قد فرغ منه فانزل الله ولا تجعل يدك الآية أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر أقول ولا أدري كيف هذا فالآية مكية ولم يكن اذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يحمل اليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه على ان فتح العراق لم يكن الا بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم ثم سلى رسوله والمؤمنين بان الذي يرهقهم من الاضاقة ليس لهوانهم على الله سبحانه ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة لا يكون من وسع له رزقه مكرما عنده ومن ضيقه عليه هينا لديه ويقدر ويقتر مترادفان قيل ويجوز أن يراد أن البسط والقبض انما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه فاما عباده فعليهم ان يقتصدوا وعن الحسن في الآية قال ينظر له فان كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خيرا له أفقره ثم علل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) أي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية من ذلك فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم وفي هذه الآية دليل على انه المتكفل بارزاق عباده فلذلك قال بعدها (ولا تقتلوا أولادكم) خطاب للموسرين بدليل قوله (خشية املاق) أي فاقة وفقر يقع بكم يقال أملق الرجل اذا لم يبق له الا الملقات وهي الحجارة العظام الملس يقال أملق اذا افتقر وسلب الدهر ما بيده نهاهم الله سبحانه عن ان يقتلوا أولادهم خشية الفقر وقد كانوا يفعلون ذلك وقد تقدم في سورة الانعام نهي المعسرين بقوله ولا تقتلوا أولادكم من املاق وفي الكرخي حاصله ان قتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم ثم بين ان خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك الى قتل الاولاد لا وجه له فان الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الابناء كما يرزق الآباء فقال (نحن نرزقهم واياكم) ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ثم علل

وانما يأتيكم الريح من ذلك الباب ولو فتح لأذرت ما بين السماء والارض من شيء وهي عند الله الأذيب وهي فيكم الجنوب وقوله فأسقيناكموه أى أنزلناه لكم عذبا يمكنكم ان تشربوا منه ولو نشاء لجعلناه أجاجا كما نبه على ذلك فى الآية الاخرى فى سورة الواقعة وهى قوله تعالى أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون وفى قوله وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون وقوله وما أنتم له بخازنين قال سفيان الثورى بمانعين ويحتمل ان المراد وما أنتم له بحافظين بل (٣٢٠) نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع فى الارض ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم فى طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم وقوله وانا لنحن نحى ونميت اخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق واعادته وانه هو الذى أحيى الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع وأخبر انه تعالى يرث الارض ومن عليها واليه يرجعون ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال ولقد علمنا المستقدمين منكم الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما المستقدمون كل من هلك من نسل آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حى ومن سيأتى الى يوم القيامة وروى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبى وغيرهم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن رجل عن مروان بن الحكم انه قال كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وقد ورد فيه حديث (الا غريب جدا قال ابن جرير حدثنى محمد بن موسى الجرشى حدثنا نوح بن قيس حدثنا عمرو بن قيس حدثنا عمرو بن مالك عن ابى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت تصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم امرأة قال ابن عباس لا والله ما رأيت مثلها قط وكان بعض المسلمين اذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يراها وبعض يستأخرون فاذا سجدوا نظروا اليها من تحت أيديهم فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين منكم الآية وهذا فيه نكارة شديدة وكذا رواه أحمد وابن أبى حاتم فى تفسيره ورواه الترمذى والنسائى فى كتاب

سبحانه النهى عن قتل الاولاد لذلك بقوله (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وقرئ بفتح الخاء والطاء يقال خطئ فى دينه خطأ اذا أثم واخطأ اذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد قال الازهرى خطئ يخطأ خطأ مثل اثم يأثم اثما اذا تعمد الخطأ وأخطأ اذا لم يتعمد خطأ والخطأ الاثم يقوم مقام الاخطاء وفيه لغتان القصر وهو الجيد والمد وهو قليل وقرأ ابن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة قال النحاس ليس لهذه القراءة وجه وكذلك جعلها أبو حاتم غلطا ولما نهى سبحانه عن قتل الاولاد المستدعى لافناء النسل ذكر النهى عن الزنا المفضى الى ذلك لما فيه من اختلاط الانساب فقال (ولا تقربوا الزنا) قربت الامر أقربه من باب تعب وفى لغة من باب قتل قربانا بالكسر فعلته أو دانيته ومن الاول هذه الآية ومن الثانى لا تقرب الحمى أى لا تدن منه وفى النهى عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالاولى فان الوسيلة الى الشئ اذا كانت حراما كان المتوسل اليه حراما بفحوى الخطاب والزنا فيه لغتان المد والقصر ثم علل النهى عن الزنا بقوله (انه كان فاحشة) أى قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحد شرعا وعقلا (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه وذلك لانه يؤدى الى النار ولا خلاف فى كونه من كبائر الذنوب وقد ورد فى تقبيحه والتنفير عنه من الادلة ما هو معلوم وهو يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولده من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم وعن السدى فى الآية قال يوم نزلت هذه لم تكن حدود فجاءت بعد ذلك الحدود فى سورة النور وعن أبى بن كعب قال ساء سبيلا الا من تاب فان الله كان غفورا رحيما فذكر لعمر فأتاه فسأله فقال أخذتها من فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لك عمل الا الصفق بالبقيع ولما فرغ سبحانه من ذكر النهى عن القتل لخصوص الاولاد وعن النهى عن الزنا الذى يفضى الى ما يفضى اليه قتل الاولاد من اختلاط الانساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الانفس المعصومة على العموم فقال (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) اى التى جعلها الله معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد والاصل فى القتل هو الحرمة الغليظة وحل القتل انما يثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهى الاسباب العارضة فقال

(الا بالحق) كالردة والزنا من المحصن وكالقصاص من القاتل عمدا عدوانا وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ أي لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب متلبس بالحق أو الا متلبسين بالحق وقد تقدم الكلام في هذا في الانعام وعن الضحاك قال نزل هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وآله وسلم بها وهو أول شئ نزل من القرآن في شأن القتل كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الله من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله اياكم على ان تقتلوا له أبا أو أخا أو واحدا من عشيرته وان كانوا مشركين فلا تقتلوا الا قاتلكم وهذا قبل ان تنزل براءة وقبل ان يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله فلا يسرف في القتل انه كان منصورا يقول لا تقتل غير قاتلك وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم ان يقتلوا الا قاتلهم ثم بين حكم بعض المقتولين بغير حق فقال (ومن قتل مظلوما) أي لا بسبب من الاسباب المسوغة لقتله شرعا وهو أحد ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل مؤمن معصوم عمدا كما في الحديث (فقد جعلنا لوليه) أي لمن يلي أمره من ورثته ان كانوا موجودين أو لمن له سلطان ان لم يكونوا موجودين (سلطانا) أي تسلطا على القاتل ان شاء قتل وان شاء عفا وان شاء أخذ الدية قال ابن عباس سلطانا بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود أو العقل ثم لما بين اباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحد فقال (فلا يسرف) أي لا يجاوز الولي ما أباحه الله له (في القتل) فيقتل بالواحد الاثنين أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه وقرأ الجمهور بالتحتية وقرئ بالفوقية فهو خطاب للقاتل الاول ونهي له عن القتل أي فلا تسرف أيها القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فان عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته وقال ابن جرير الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللائمة من بعده أي لا تقتل يا محمد غير القاتل ولا تفعل ذلك الائمة بعدك وفي قراءة أبي لا تسرفوا قال مجاهد معنى لا يسرف لا يكثر ولا يقتل الا قاتل رحمه وعن زيد بن أسلم ان الناس في الجاهلية كانوا اذا قتل الرجل من القوم رجلا لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا به رجلا شريفا واذا كان قتيلهم شريفا لم يقتلوا قاتله وحده بل قتلوا معه غيره فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه فلا يسرف في القتل ثم علل النهي عن السرف فقال (انه) يعني ولي المقتول (كان منصورا) أي مؤيدا معانا فان الله سبحانه قد نصره باثبات القصاص له

التفسير من سننهما وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما وحكى عن ابن معين تضعيفه وأخرجه مسلم وأهل السنن وهذا الحديث فيه نكارة شديدة وقد رواه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك وهو النكري انه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة والمستأخرين والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر وقد قال الترمذي هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه انه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين انها في صفوف الصلاة فقال محمد بن كعب ليس هكذا ولقد علمنا المستقدمين منكم الميت والمقتول والمستأخرين من يخلق بعد وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم فقال عون بن عبد الله وفقك الله وجزاك خيرا (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس والظاهر أنه كقوله تعالى خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار وعن مجاهد أيضا الصلصال المنتن وتفسير الآية بالآية أولى وقوله من حمإ مسنون أي الصلصال من حمإ وهو الطين والمسنون الأملس كما قال الشاعر

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ … راء تمشي في مرمر مسنون

أي أملس صقيل ولهذا روى عن ابن عباس انه قال هو التراب الرطب وعن ابن عباس ومجاهد أيضا والضحاك ان الحمأ المسنون هو المنتن وقيل المراد بالمسنون ههنا المصبوب وقوله والجان خلقناه من قبل أي من قبل الانسان من نار السموم قال ابن عباس هي السموم التي تقتل وقال بعضهم السموم بالليل والنهار ومنهم من يقول السموم بالليل والحرور بالنهار وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن أبي اسحق قال دخلت على عمر الأصم أعوده فقال ألا أحدثك حديثا سمعته من عبد الله بن مسعود يقول هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق منها الجان ثم قرأ والجان خلقناه من قبل من نار السموم وعن ابن عباس ان الجان خلق من لهب النار وفي رواية من أحسن النار وعن عمرو بن دينار من نار الشمس وقد ورد في الصحيح خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج

من نار وخلق آدم مما وصف لكم والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى ان يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ان لا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه وتشريفه اياه بأمر الملائكة بالسجود له ويذكر تخلف ابليس عدوه عن السجود له من بين سائر (٣٢٢) الملائكة حسدا وكفرا وعنادا واستكبارا وافتخارا بالباطل ولهذا قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون كقوله انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين وقوله أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية وقد روى ابن جرير ههنا أثرا غريبا عجيبا من حديث شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال لما خلق الله الملائكة قال انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين قالوا لا نفعل فارسل عليهم نارا فاحرقتهم ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك قالوا سمعنا وأطعنا الا ابليس كان من الكافرين الاولين وفى ثبوت هذا عنه بعد والظاهر انه اسرائيلى والله أعلم (قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يذكر تعالى انه أمر ابليس أمرا كونيا لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملا الاعلى وأنه رجيم أى مرجوم وانه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه الى يوم القيامة وعن سعيد بن جبير انه قال لما لعن الله ابليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ورن رنة فكل رنة فى الدنيا الى يوم القيامة منها رواه ابن أبى حاتم وأنه لما تحقق الغضب الذى لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة الى يوم القيامة وهو يوم البعث وانه اجيب الى ذلك استدراجا له وامهالا فلما تحقق النظرة قبحه الله (قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) يقول تعالى مخبرا

او الدية بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الادلة وأمر أهل الولايات بعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ويجوز أن يكون الضمير راجعا الى المقتول ظلما أى ان الله نصره بوليه يعنى منصورا فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله قيل وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل لانها مكية كما تقدم ولما ذكر سبحانه النهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهى عن اتلاف الاموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال (ولا تقربوا مال اليتيم) الخطاب لأولياء اليتيم والنهى عن قربانه مبالغة فى النهى عن المباشرة واتلافه قال قتادة كانوا لا يخالطونهم فى مال ولا مأكل ولا مركب حتى نزلت وان تخالطوهم فاخوانكم ثم بين سبحانه ان النهى عن قربانه ليس المراد منه النهى عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولى اليتيم ان يفعل فى مال اليتيم ما يصلحه وذلك يستلزم مباشرته فقال (الا بالتى) أى الا بالخصلة التى (هى أحسن) من جميع الخصال وهى حفظه وطلب الربح فيه والسعى فيما يزيد به والانفاق عليه بالمعروف ثم ذكر غاية النهى عن قربان مال اليتيم فقال (حتى يبلغ) أى لا تقربوه حتى يبلغ اليتيم (أشده) فاذا بلغ أشده كان لكم ان تدفعوه اليه أو تتصرفوا فيه باذنه لأن التصرف له حينئذ والاشد مفرد بمعنى القوة وقيل جمع لا واحد له من لفظه وقيل جمع شدة بكسر الشين وقيل جمع شد كذلك وقيل جمع بفتحها وعلى كل فالمراد به القوة وكمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر وان كان الاشد فى الاصل عبارة عن بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وقيل هى ثمانى عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى فى الانعام (وأوفوا بالعهد) قد تقدم الكلام فيه فى غير موضع قال الزجاج كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد فيدخل فى ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم لبعض والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى الا اذا دل دليل خاص على جواز النقض (ان العهد كان مسؤلا) عنه فالمسؤل هنا هو صاحبه وقيل ان العهد يسئل تبكيتا لناقضه فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسئل فيم قتلت وان كان سؤال العهد تخييلا وتمثيلا وسؤال الموؤدة تحقيقا قال سعيد بن جبير ان الله يسأل ناقض العهد عن عهده وعن ابن جريج قال يسئل عهده من أعطاه اياه (وأوفوا الكيل) أى أتموه ولا تخسروه وخطاب للبائعين (اذا كلتم) أى وقت كيلكم للناس وأخذ

عن ابليس وتمرده وعتوه انه قال للرب بما أغويتني قال بعضهم اقسم باغواء الله له قلت ويحتمل انه بسبب ما أغويتني وأضللتني لأزينن لهم أي لذرية آدم عليه السلام في الارض أي أحبب اليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأؤزهم اليها وأزعجهم اليها ازعاجا ولأغوينهم أجمعين أي كما أغويتني وقدرت على ذلك الا عبادك منهم المخلصين كقوله أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا قال الله تعالى له متهددا ومتوعدا هذا صراط علي مستقيم أي مرجعكم كلكم الى فاجازيكم باعمالكم ان خيرا فخيروان شرا فشر كقوله تعالى ان ربك لبالمرصاد وقيل طريق مرجعها الى الله تعالى (٣٢٣) واليه تنتهي قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله وعلى الله قصد السبيل وقرأ قيس ابن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة وهذا صراط علي مستقيم كقوله وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أي رفيع والمشهور القراءة الاولى وقوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان أي الذي قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك اليهم الا من اتبعك من الغاوين استثناء منقطع وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن موهب حدثنا يزيد بن قسيط قال كانت الانبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم فاذا أراد النبي ان يستنبئ ربه عن شئ خرج الى مسجده فصلى ما كتب الله ثم سأله ما بدا له فبينا نبي في مسجده اذ جاء عدو الله يعني ابليس حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال فرد ذلك ثلاث مرات فقال عدو الله أخبرني باي شئ تنجو مني فقال النبي بل أخبرني باي شئ تغلب ابن آدم مرتين فاخذ كل واحد على صاحبه فقال النبي ان الله تعالى يقول ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين قال عدو الله قد سمعت هذا قبل أن تولد قال النبي ويقول واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم واني والله ما أحسست بك قط الا استعذت بالله منك قال عدو الله صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني باي شئ تغلب ابن آدم قال آخذه عند الغضب والهوى وقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين أي جهنم موعد جميع من اتبع ابليس كما قال عن القرآن ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع ابليس يدخلونه لا محيد لهم عنه اجارنا الله منها وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في دركة بقدر عمله قال اسمعيل

من هذا بعضهم ان أجرة الكيال على البائع لانها من تمام التسليم وكذلك عليه اجرة النقاد للثمن وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قال الزجاج هو ميزان العدل أي ميزان كان صغيرا أو كبيرا من موازين الدراهم وغيرها وفيه لغتان ضم القاف وكسرها وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون قاله الضحاك وقيل هو العدل نفسه قاله مجاهد وهي لغة الروم قاله ابن جبير وقيل لغة سريانية ثم عربت ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لأن العجمي اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا والاصح انه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل والتفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعيا في ابقاء الاموال على أربابها (ذلك) أي ايفاء الكيل والوزن بالميزان المستوى (خير) لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك (وأحسن تأويلا) أي عاقبة من آل اذا رجع ثم أمر سبحانه باصلاح اللسان والقلب فقال (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي لا تتبع ما لا تعلم وهو مأخوذ من قولك قفوت فلانا اذا اتبعت أثره ومنه قافية الشعر لانها تقفو كل بيت ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقدام الناس وحكى ابن جرير عن فرقة انها قالت قفى وقاف مثل عثى وعاث وقال منذر بن سعيد البلوطي قفى وقاف مثل جذب وجبذ وقيل مجزوم بحذف الواو من باب عدا يعدو سما أي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم ومعنى الآية النهي عن أن يقول الانسان ما لا يعلمه أو يعمل بما لا علم له وهذه قضية كلية وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور فقال ابن عباس لا تذم أحدا بما ليس لك به علم وقيل هي في شهادة الزور قاله محمد بن الحنفية وقيل هي في القذف وقال القتيبي معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون وهذا صواب فان ما عدا ذلك هو العلم وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعيا كان أو ظنيا قال أبو السعود في تفسيره واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وأقول ان هذه الآية قد دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة

ابن علية وشعبة كلاهما عن أبي هرون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال ان أبواب جهنم هكذا قال أبو هرون أطباقا بعضها فوق بعض وقال اسرائيل عن أبي اسحق عن هبيرة بن مريم عن علي رضي الله عنه قال أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الاول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها وقال عكرمة سبعة أبواب سبعة أطباق وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه وكذا روى عن الاعمش بنحوه أيضا وقال قتادة

لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم هي والله منازل بأعمالهم رواهن ابن جرير وقال جويبر عن الضحاك لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم قال باب لليهود وباب للنصارى وباب للصابئين وباب للمجوس وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب وباب للمنافقين وباب لاهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لاولئك أبدا وقال الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عثمان بن عمر عن مالك بن مغول عن جنيد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد ثم قال لا نعرفه الا من حديث مالك بن مغول وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عباس بن الوليد الخلال حدثنا يزيد يعني ابن يحيى حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لكل باب منهم جزء مقسوم قال ان أهل النار منهم من تأخذه النار الى كعبه وان منهم من تأخذه النار الى حجزته ومنهم من تأخذه النار الى تراقيه منازلهم بأعمالهم فذلك قوله لكل باب منهم جزء مقسوم

(ان المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم) لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وانهم في جنات وعيون وقوله ادخلوها بسلام أي سالمين من الآفات مسلم عليهم آمنين من كل خوف وفزع ولا تخشوا من انقطاع ولا اخراج ولا افناء وقوله ونزعنا ما في صدورهم الآية روى القاسم عن أبي امامة قال يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن حتى اذا تكافؤوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ

والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا يخرج من عمومها ومن عموم ان الظن لا يغني من الحق شيأ الا ما قام دليل جواز العمل به فالعمل بالرأي في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله لمعاذ لما بعثه قاضيا بم تقضي قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي وهو حديث صالح للاحتجاج به كما أوضح الشوكاني ذلك في بحث مفرد وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولا أوليا لانه محض رأي في شرع الله وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولم تدع اليه حاجة على ان الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل انما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ولم يدل دليل على انه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ظلمات بعضها فوق بعض وقد قيل ان هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلا ثم علل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله (ان السمع والبصر والفؤاد) أي القلب (كل أولئك) أي كل واحد من الحواس الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها وقال الزجاج ان العرب تعبر عما لا يعقل وعما يعقل بأولئك والضمير في (كان) يرجع الى كل وكذا الضمير في (عنه) وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله لا تقف وقوله عنه في محل رفع لاسناد (مسؤلا) اليه ورد بما حكاه النحاس من الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا قيل والاولى ان يقال انه فاعل مسؤل المحذوف والمذكور مفسر له ومعنى سؤال هذه الجوارح انه يسئل صاحبها عما استعملها فيه لانها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني فان استعملها في الخير استحق الثواب وان استعملها في الشر استحق العقاب وهو اختيار الزمخشري وقيل ان الله سبحانه ينطق الاعضاء هذه عند سؤالها فتخبر بما فعله صاحبها وعليه جرى القاضي فتسئل توبيخا لاصحابها

ونزعنا ما في صدورهم من غل هكذا في هذه الرواية والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي امامة ضعيف وقد روى سعيد في تفسيره حدثنا ابن فضالة عن لقمان عن أبي امامة قال لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وقال ابن جرير حدثنا الحسن حدثنا يزيد بن (٣٢٥) هرون أخبرنا هشام عن محمد هو ابن سيرين قال استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له فلما دخل قال اني لأراك انما حبستني لهذا قال أجل قال اني لأرى لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني قال أجل اني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين وقال أيضا حدثنا الحسن بن محمد حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد حدثنا ابو مالك الاشجعي حدثنا أبو حبيبة مولى لطلحة قال دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال اني لارجو أن يجعلني الله وأباك من الذين ينزع الله ما في صدورهم من غل ويجعلنا اخوانا على سرر متقابلين وحدثنا الحسن حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا أبو مالك الاشجعي عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال اني لارجو ان يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين قال ورجلان جالسان على ناحية البساط فقالا الله أعدل من ذلك تقتلهم بالامس وتكونون اخوانا فقال علي رضي الله عنه قوما أبعد أرض وأسحقها فمن هم اذا لم أكن أنا وطلحة وذكر أبو معاوية الحديث بطوله وروى وكيع عن أبان بن عبد الله البجلي عن نعيم بن أبي هند عن ربعي بن خراش عن علي نحوه وقال فيه فقام رجل من همدان فقال الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين قال فصاح به علي صيحة فظننت ان القصر تدهده لها ثم قال اذا لم نكن نحن فمن هم وقال سعيد بن مسروق عن أبي طلحة وذكره وفيه فقال الحرث الاعور ذلك فقام اليه علي رضي الله عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه وقال فمن هم

لاصحابها وهذا أبلغ مما قبله وفي الآية دليل على ان العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية (ولا تمش في الارض مرحا) قيل هو شدة الفرح وقيل التكبر في المشي وقيل تجاوز الانسان قدره وقيل الخيلاء في المشي وقيل البطر والاشر وقيل النشاط والظاهر أن المراد به الخيلاء والفخر قال الزجاج في تفسير الآية لا تمش في الارض مختالا فخورا وذكر الارض مع ان المشي لا يكون الا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيدا وتقريرا ولقد أحسن من قال

ولا تمش فوق الارض الا تواضعا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وان كنت في عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالا أي ذا مرح أي مارحا متلبسا بالكبر والخيلاء وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد وقرئ مرحا بفتح الراء ومرحا بكسرها على انه اسم فاعل ثم علل سبحانه هذا النهي فقال (انك لن تخرق الارض) يقال خرق الثوب أي شقه وخرق الارض قطعها والخرق الواسع من الارض والمعنى انك لن تخرق الارض بمشيك عليها تكبرا حتى تبلغ آخرها وفيه تهكم بالمختال المتكبر وقيل المراد بخرق الارض نقبها لا قطعها بالمسافة وقال الازهري خرقها قطعها قال النحاس وهذا بين كأنه مأخوذ من الخرق وهو الفتحة الواسعة ويقال فلان أخرق من فلان أي أكثر سفرا (ولن تبلغ الجبال طولا) أي وان تبلغ قدرتك الى ان تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملا لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الارض بالمشي عليها ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بكبرك فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر وأصغر من كل واحد من الجمادين فكيف يليق بك الكبر (كل ذلك) أي جميع ما تقدم ذكره من الاوامر والنواهي الخمس والعشرين أو ما نهى عنه فقط من قوله ولا تقف ولا تمش (كان سيئه عند ربك) على اضافة سيئ الى الضمير ويؤيد هذه القراءة قوله (مكروها) فان السيئ هو المكروه ويؤيدها أيضا قراءة أبي كان سيآته وقرأ نافع وغيره سيئة على انها واحدة السيآت وانتصابها على خبرية كان ومكروها خبر ثان لكان أو بدل من سيئة ورجح أبو علي الفارسي البدل وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى قال الزجاج والاضافة أحسن لان ما تقدم من الآيات فيها سيئ وحسن فسيئه المكروه ويقوى ذلك التذكير في

يا أعور ادا لم نكن نحن وقال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم قال جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحبسه طويلا ثم أذن له فقال له أما أهل البلاء فتجفوهم فقال علي بفيك التراب اني لارجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بنحوه وقال سفيان ابن عيينة عن اسرائيل عن أبي موسى سمع الحسن البصري يقول قال علي فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين وقال (٣٢٦) كثير النوا دخلت على ابي جعفر محمد بن علي فقلت وليي وليكم وسلمي سلمكم وعدوي عدوكم وحربي حربكم أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر فقال قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه ثم تلا هذه الآية اخوانا على سرر متقابلين قال أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح في قوله اخوانا على سرر متقابلين قال هم عشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين وقوله متقابلين قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض وفيه حديث مرفوع قال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن عبدك القزويني حدثنا حسان بن حسان حدثنا ابراهيم بن بشر حدثنا يحيى ابن معن عن ابراهيم القرشي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية اخوانا على سرر متقابلين في الله ينظر بعضهم الى بعض وقوله لا يمسهم فيها نصب يعني المشقة والأذى كما جاء في الصحيحين ان الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب وقوله وما هم منها بمخرجين كما جاء في الحديث يقال يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا وان لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا وقال الله تعالى خالدين فيها لا يبغون عنها حولا وقوله نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب أليم وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقام الرجاء والخوف وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه يضحكون

المكروه ومن قرأ بالتنوين جعل كل ذلك احاطة بالمنهي عنه دون الحسن والمعنى كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروها والمكروه على هذا بدل من السيئة وليس بنعت والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه لا انه غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على ان الاشياء واقعة بارادته سبحانه وذكر مطلق الكراهة مع ان في الاشياء المتقدمة ما هو من الكبائر اشعارا بان مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك والحاصل ان في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به وما هو مكروه وهو المنهي عنه فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله كل ذلك الى جميع الخصال حسنها ومكروهها ثم الاخبار بان ما هو سيء من هذه الاشياء هو المنهي عنه عند الله وعلى قراءة الافراد تكون الاشارة الى المنهيات ثم الاخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من قوله لا تجعل مع الله الى هذه الغاية (مما أوحى اليك ربك) أي من جنسه أو بعض منه وذكر هنا في ثمان عشرة آية أولها لا تجعل وذكر في التوراة في عشر آيات (من الحكمة) سمي حكمة لانه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع أو من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعند الحكماء ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به قاله البيضاوي فالتوحيد من القسم الاول وباقي التكاليف من القسم الثاني (ولا تجعل مع الله الها آخر) كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيدا وتقريرا وتنبيها على أنه رأس خصال الدين وعمدته ومبدأ الامر ومنتهاه وعلى أنه ملاك الحكمة وأسها قيل وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الاول كونه مذموما مخذولا وذلك اشارة الى حال الشرك في الدنيا ورتب على الثاني ما هو نتيجته في العقبى فقال (فتلقى في جهنم ملوما) تلوم نفسك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله مطرودا وفي القعود هناك والالقاء هنا اشارة الى أن للانسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة (أفأصفاكم) أي خصكم قاله أبو عبيدة وقال المفضل أخلصكم (ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا) أي بنات والخطاب للكفار القائلين بان الملائكة بنات الله وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل والفاء للعطف على مقدر كنظائره مما قد قررناه (انكم لتقولون قولا عظيما) بالغا في العظم والجرأة على الله الى مكان لا يقادر قدره

فقال اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم رواه ابن أبى حاتم وهو مرسل
وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا اسحق أخبرنا ابن المكى أخبرنا ابن المبارك أخبرنا مصعب بن ثابت حدثنا عاصم بن عبيد الله
عن ابن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل
منه بنو شيبة فقال ألا أراكم تضحكون ثم أدبر حتى اذا كان عند الحجر رجع الينا القهقرى فقال انى لما خرجت جاء جبريل عليه السلام
فقال يا محمد ان الله يقول لك تقنط عبادى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم (٣٢٧) وأن عذابى هو العذاب الاليم وقال سعيد
عن قتادة فى قوله نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم قال بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه (ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) يقول تعالى وخبرهم يا محمد عن قصة ضيف ابراهيم والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر وكيف دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون أى خائفون وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل الى ما قربه لهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ قالوا لا توجل أى لا تخف وبشروه بغلام عليم أى اسحق عليه السلام كما قال فى سورة هود ثم قال متعجبا من كبره وكبر زوجته ومتحققا للوعد أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون فأجابوه مؤكدين لما
بشروه به تحقيقا وبشارة بعد بشارة قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين وقرأ بعضهم القنطين فأجابهم بأنه ليس
يقنط ولكن يرجو من الله الولد وان كان قد كبر وأسنت امرأته فانه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك (قال فما خطبكم
أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين) يقول تعالى اخبارا
عن ابراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى انه شرع يسألهم عما جاؤا له فقالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين يعنون
قوم لوط وأخبروه انهم سينجون آل لوط من بينهم الا امرأته فانها من الهالكين ولهذا قالوا الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين أى

باضافة الاولاد اليه وهى خاصة بعض الاجسام لسرعة زوالها ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم بجعل الملائكة الذين هم أشرف الخلق أدونهم (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) أى بينا وكررنا ضروب القول فيه من الامثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والاخبار والاوامر والنواهى وغيرها وقيل فى زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن والتصريف فى الاصل صرف الشئ من جهة الى جهة والتشديد فيه للتكثير والتكرير وقيل معنى التصريف المغايرة أى غايرنا بين المواعظ ثم عال سبحانه ذلك فقال (ليذكروا) أى ليتعظوا ويعتبروا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه (و) الحال ان هذا التصريف والتذكير (ما يزيدهم الا نفورا) أى تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر فى الصواب لانهم قد اعتقدوا فى القرآن انه حيلة وسحر وكهانة وشعر وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم الى الهداية وكان الثورى اذا قرأها يقول زادنى لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا (قل) لهم فى شأن الاستدلال على ابطال التعدد الذى زعموه واثبات الوحدانية (لو كان معه آلهة كما) أى كونا مشابها لما (يقولون) والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة قرئ بالتحتية وبالفوقية على الخطاب للقائلين بان مع الله آلهة أخرى (اذا) قال الزمخشرى هى دالة على أن ما بعدها وهو (لابتغوا) جواب لمقالة المشركين وجزاء للو (الى ذى العرش) هو الله سبحانه (سبيلا) طريقا للمغالبة والمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم وقيل معناه اذا لابتغت الآلهة الى الله القربة والزلفة عنده لانهم دونه والمشركون انما اعتقدوا انها تقربهم الى الله والظاهر المعنى الاول ومثله معنى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وحاصل الدليل انه قياس استثنائى يستثنى فيه نقيض التالى لينتج نقيض المقدم وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقا للقتال فلم يكن هناك تعدد ثم نزه تعالى نفسه فقال (سبحانه) والتسبيح التنزيه وقد تقدم مرارا (وتعالى) أى تباعد (عما يقولون) من الاقوال الشنيعة والفرية العظيمة (علوا) أى تعاليا ولكنه وضع العلو موضع التعالى كقوله والله أنبتكم من الارض نباتا (كبيرا) وصف العلو بالكبير مبالغة فى

الباقين المهلكين (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وانا لصادقون) يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال انكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم وحلوله بساحتهم وأتيناك بالحق كقوله تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق وقوله وانا لصادقون تأكيد لخبرهم اياه بما أخبروه به من نجاته واهلاك قومه (فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يذكر تعالى عن الملائكة انهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضى جانب من الليل وأن يكون لوط عليه السلام يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى فى الغزو انما يكون ساقة يزجى الضعيف ويحمل المنقطع وقوله ولا يلتفت منكم أحد أى اذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا اليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال وامضوا حيث تؤمرون كأنه كان معهم من يهديهم السبيل وقضينا اليه ذلك الامر أى تقدمنا اليه فى هذا ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين أى وقت الصباح كقوله فى الآية الأخرى ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب (وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون) يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم وانهم جاؤا مستبشرين بهم فرحين قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون وهذا انما قاله لهم قبل ان يعلم بأنهم رسل الله كما قال فى سورة هود وأما هنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم ولكن الواو لا تقتضى الترتيب ولاسيما اذا دل دليل على خلافه فقالوا له مجيبين أولم ننهك عن العالمين أى أوما نهيناك ان تضيف أحدا فأرشدهم الى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة وقد تقدم ايضاح القول فى ذلك بما أغنى عن اعادته هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر ولهذا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون أقسم

النزاهة وتنبيها على ان بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين الغنى المطلق والفقير المطلق مباينة لا يعقل الزيادة عليها ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) قال فيهن بضمير العقلاء لاسناده اليها التسبيح الذى هو فعل العقلاء وقد أخبر سبحانه عن السموات والارض بانها تسبحه وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة والانس والجن وغيرهم من الاشياء التى لا تعقل ففيه دلالة على ان الاكوان باسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة ولكن المشركين لا يفهمون تسبيحها فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع ان كل شيء من عداهم ينزهه عن كل نقص أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الاسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به الى المسجد الاقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحا فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا سبحان العلى الاعلى سبحانه وتعالى وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو جالس مع أصحابه اذ سمع هدة فقال أطت السماء ويحقها أن تئط والذى نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر الا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده ثم زاد ذلك تعميما وتأكيدا فقال (وان من شيء الا يسبح) متلبسا (بحمده) فيشمل كل ما يسمى شيأ كائنا ما كان حتى صرير الباب ونقيض السقف وتسبيحها سبحان الله وبحمده وقيل انه يحمل قوله ومن فيهن على الملائكة والثقلين ويحمل قوله وان من شيء على ما عدا ذلك من المخلوقات وقد اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا فقالت طائفة ليس بمخصوص وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لان كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بان الله خالق قادر وقالت طائفة هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذى معناه التنزيه وان كان البشر لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفقهونه لكونه بغير لغاتهم وهذا يقتضى ان تسبيح الجماد بلسان المقال وهو الذى اختاره الخازن وأثبته بأحاديث متعددة قال فى الجمل وهو قريب جدا ويؤيد هذا قوله سبحانه (ولكن لا تفقهون) بالتاء والياء (تسبيحهم) فانه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان

تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض قال عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس انه قال ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون رواه ابن جرير وقال قتادة في سكرتهم أي في ضلالتهم يعمهون أي يلعبون وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لعمرك لعيشك انهم لفي سكرتهم يعمهون قال يترددون (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات (٣٢٩) للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان في ذلك لآية للمؤمنين) يقول تعالى فأخذتهم الصيحة وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها وذلك مع رفع بلادهم الى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وأرسل حجارة السجيل عليهم وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية وقوله ان في ذلك لآيات للمتوسمين أي ان آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته كما قال مجاهد في قوله للمتوسمين قال المتفرسين وعن ابن عباس والضحاك للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مالك عن بعض أهل المدينة للمتوسمين للمتأملين وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير العبدي عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ان في ذلك لآيات للمتوسمين رواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية عن أبي سعيد وقال الترمذي لانعرفه الا من هذا الوجه ولابن جرير من حديث عمرو وأيضا حدثني أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحسن ابن محمد حدثنا الفرات بن السائب حدثنا ميمون بن مهران عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فان المؤمن ينظر بنور الله وقال ابن جرير حدثني أبو شرحبيل الحمصي حدثنا سليمان بن سلمة حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي حدثنا وهب بن منبه عن طاوس بن كيسان عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احذروا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وبتوفيق الله وقال أيضا حدثنا عبد الاعلى بن واصل حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا

لكان أمرا مفهوما لكل أحد وأجيب بان المراد بقوله لاتفقهون الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار وقالت طائفة هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات وقيل خاص بالاجسام النامية فيدخل النباتات كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخص تسبيح النباتات بوقت نموها الا بعد قطعها وقد استدل لذلك بحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر على قبرين وفيه ثم دعا بعسيب رطب فشقه باثنين وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا ويؤيد حمل الآية على العموم قوله انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق وقوله وان منها لما يهبط من خشية الله وقوله وتخر الجبال هدا ونحو ذلك من الآيات وثبت في الصحيح انهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا حديث حنين الجذع وحديث ان حجرا بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وآله وسلم ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده قال السدي ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى (انه كان حليما غفورا) فمن حلمه الامهال لكم وعدم انزال عقوبته عليكم على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ من تاب منكم أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ان نوحا قال لابنه يابني آمرك أن تقول سبحان الله فانها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق قال الله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرصت نملة نبيا من الانبياء فامر بقرية النمل فاحرقت فأوحى الله اليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الامم تسبح وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر وقال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال الزرع يسبح وأجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمنا فاغسلني اذن وعنه قال كل شيء يسبح الا الكلب والحمار أخرجه أبو الشيخ وعن الحسن قال هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية وان من شيء الا يسبح بحمده قال في التوراة تسبح له الجبال وتسبح له الشجر

عبد الواحد بن واصل حدثنا أبو بشر المزلق عن ثابت عن أنس بن مالك قال قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر ومن حديث ثوبان نحوه وله عن أنس مرفوعا ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم ورواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا سهل بن بحر حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبو بشر يقال له ابن المزلق قال وكان ثقة عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقوله وانها لبسبيل مقيم أي وان قرية سذوم التى أصابها من القلب الصورى والمعنوى والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة الى اليوم كقوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وان يونس لمن المرسلين وقال مجاهد والضحاك وانها لبسبيل مقيم قال معلم وقال قتادة بطريق واضح وقال قتادة أيضا بصقع من الارض واحد وقال السدى بكتاب مبين يعنى كقوله وكل شئ أحصيناه فى امام مبين ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا والله أعلم وقوله ان فى ذلك لآية للمؤمنين أى ان الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وانجائنا لوطا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله (وان كان أصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) أصحاب الأيكة هم قوم شعيب قال الضحاك وقتادة وغيرهما الأيكة الشجر الملتف وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة وقد كانوا قريبا من قوم لوط بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان ولهذا قال تعالى وانهما لبامام مبين أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره طريق ظاهر ولهذا لما انذر شعيب قومه قال فى نذارته اياهم وما قوم لوط منكم ببعيد (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين وذكر تعالى انه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء وكانت تسرح فى بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم فلما عتوا وعقروها قال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال تعالى وأما ثمود فهديناهم

ويسبح له كذا وكذا وفى الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها تصريح بتسبيح جميع المخلوقات ولما فرغ سبحانه من الالهيات شرع فى ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم المنكرون للبعث (حجابا مستورا) يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به أى انهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك ذكر معناه الزجاج وغيره ومعنى مستورا ساترا قال الاخفش والفاعل قد يكون فى لفظ المفعول كما تقول انك لمشؤم وميمون وانما هو شائم ويامن وقيل معناه ذا ستر كقولهم سيل مفعم أى ذو افعام وقيل هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم قال السيوطى نزل فيمن أراد الفتك به صلى الله عليه وآله وسلم انتهى كأبى جهل وأم جميل زوجة أبى لهب والمراد بها فى الآية مطلق القرآن أو ثلاث آيات مشهورات من النحل والكهف والجاثية وهى فى سورة النحل أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم الآية وفى سورة الكهف وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الآية وفى حم الجاثية أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم الآية فكأن الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين ذكره الخطيب وفى القرطبى قلت ويزاد الى هذه الآيات أول سورة يس الى قوله فهم لا يبصرون فان فى السيرة فى هجرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومقام على فى فراشه قال وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس حتى فرغ ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ثم انصرف الى حيث أراد ان ينصرف (وجعلنا على قلوبهم أكنة) جمع كنان وهى الاغطية وقد تقدم تفسيره فى الانعام وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قلوبنا غلف وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب (ان يفقهوه) اى كراهة ان يفقهوه أو لئلا يفقهوه اى يفهموا ما فيه من الاوامر والنواهى والحكم والمعانى (و) جعلنا (فى آذانهم وقرا) اى صمما وثقلا كراهة ان يسمعوه أو لئلا يسمعوه ومن قبائح المشركين انهم كانوا يحبون ان يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فاذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس كما قال تعالى (واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) يقال وحد يحد وحدا وحدة

فاستحبوا العمى على الهدى وذكر تعالى انهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين أي من غير خوف ولا احتياج اليها بل أشرا وبطرا وعبثا كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لاصحابه لاتدخلوا بيوت القوم المعذبين الا أن تكونوا باكين فان لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم وقوله فأخذتهم الصيحة مصبحين أي وقت الصباح من اليوم الرابع فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه (٣٣١) فما دفعت عنهم تلك الاموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك (وماخلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) يقول تعالى وماخلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية أي بالعدل ليجزي الذين أساؤا بما عملوا الآية وقال تعالى وماخلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار وقال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وانها كائنة لامحالة ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به كقوله فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون وقال مجاهد وقتادة وغيرهما كان هذا قبل القتال وهو كما قالا فان هذه مكية والقتال انما شرع بعد الهجرة وقوله ان ربك هو الخلاق العليم تقرير للمعاد وانه تعالى قادر على اقامة الساعة فانه الخلاق الذي لايعجزه خلق شئ العليم بما تمزق من الاجساد وتفرق في سائر أقطار الارض كقوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لاتمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن الى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه ولاتذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين أي ألن لهم جانبك كقوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم

وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحدا وقال يونس منصوب على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) هو مصدر بمعنى التولية والتقدير هربوا نفورا أو نفروا نفورا وقيل جمع نافر كقاعد وقعود قاله البيضاوي والشهاب والاول أولى وقيل المصدر في موضع الحال والمعنى ولوا نافرين قال ابن عباس ولوا نفور الشياطين (نحن أعلم بما) اى بالحال الذي (يستمعون) القرآن (به) اى متلبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن وقيل الباء للسببية أو بمعنى اللام وعبارة الكواشي بما يستمعون به هازئين وقال الزمخشري يستمعون بالهزء (اذ يستمعون اليك) ظرف لأعلم وفيه تأكيد للوعيد (واذ هم نجوى) أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء (اذ) بدل من اذ قبله (يقول الظالمون) أي الوليد بن المغيرة وأصحابه (ان تتبعون) أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ما تتبعون (الا رجلا مسحورا) أي سحر به فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال قال ابن الاعرابي المسحور الذاهب العقل الذي أفسد من قولهم طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقيل هو المخدوع لان السحر الحيلة والخديعة وذلك لانهم زعموا ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعلم من بعض الناس وكانوا يخدعونه بذلك التعليم وقال أبو عبيدة معنى مسحورا ان له سحرا أي رئة فهو لايستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وتقول العرب للجبان قد انتفخ سحره وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور قال ابن قتيبة لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة (انظر كيف ضربوا لك الامثال) اى قالوا تارة انك كاهن وتارة ساحر وتارة شاعر وتارة مجنون (فضلوا) عن طريق الصواب في جميع ذلك وحادوا (فلا يستطيعون سبيلا) الى الهدى أو الحق أو الطعن الذي تقبله العقول السليمة ويقع التصديق له لا أصل الطعن فقد فعلوا منه ما قدروا عليه وقيل لايستطيعون مخرجا لتناقض كلامهم كقولهم ساحر كاهن مجنون شاعر ولما فرغ سبحانه من حكاية شبهة القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة وتقرير الشبهة ان الانسان اذا مات جفت عظامه

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم وقد اختلف في السبع المثاني ماهي فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم هي السبع الطوال يعنون البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس وبه نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير وقال شعبة بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والاحكام وقال ابن عباس بين الامثال والخبر والعبر وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال قال سفيان المثاني المئين البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف والانفال وبراءة (٣٣٢) سورة واحدة قال ابن عباس ولم يعطهن أحد الا النبي صلى الله عليه وسلم وأعطى موسى منهن ثنتين رواه هشيم عن الحجاج عن الوليد بن العيزار عن سعيد بن جبير عنه وقال أوتي النبي صلى الله عليه وسلم سبعا من المثاني الطوال وأوتي موسى عليه السلام ستا فلما ألقى الالواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع وقال مجاهد هي السبع الطوال ويقال هي القرآن العظيم وقال خصيف عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى سبعا من المثاني قال أعطيتك سبعة أجزاء أمر وانه وبشر وأنذر واضرب الامثال واعدد النعم وأنبئك بنبا القرآن رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والقول الثاني انها الفاتحة وهي سبع آيات روى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها وبه قال ابراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر ابن حوشب والحسن البصري ومجاهد قال قتادة ذكر لنا انهن فاتحة الكتاب وانهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع واختاره ابن جرير واحتج بالاحاديث الواردة في ذلك وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير ولله الحمد

وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين أحدهما قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن حبيب ابن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال مر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته فقال ما منعك أن تأتيني فقلت كنت أصلي فقال ألم يقل الله يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل ان أخرج من المسجد فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته الثاني قال حدثنا آدم حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال

وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة الى ذلك المجموع فاجاب سبحانه عنهم كما سيأتي بان اعادة بدن الميت الى حال الحياة أمر ممكن ولو فرضتم ان بدنه قد صار أبعد شئ من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد فهو كقول القائل أتطمع في وأنا ابن فلان فيقول كن ابن السلطان أو ابن من شئت فسأطلب منك حقي والرفات ما تكسر وبلي من كل شئ كالفتات والحطام والرضاض قاله أبو عبيدة والكسائي والفراء والاخفش يقول منه رفت الشئ رفتا أي حطم فهو مرفوت وقيل الرفات الغبار قاله ابن عباس وقيل التراب قاله مجاهد ويؤيده انه تكرر في القرآن ترابا وعظاما وقيل الرفات هو ما بولغ في دقه وتفتيته وهو اسم لاجزاء ذلك الشئ المفتت اى أجزاء متفتتة (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيدا وتقريرا (قل كونوا حجارة أو حديدا) قال ابن جرير معناه ان عجبتم من انشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة في الشدة أو حديدا في القوة ان قدرتم على ذلك وقال علي بن عيسى معناه انكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل اذا أرادكم الا أنه خرج مخرج الامر لانه أبلغ في الالزام وقيل معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لاعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم قال النحاس وهذا قول حسن لانهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا وانما المعنى انهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة فليس المراد الامر وانما عبر فيه بمادة الكون لتعبيرهم بها في سؤالهم قلت وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا (أو خلقا مما يكبر في صدوركم) اى يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم لمبعوثون لامحالة وقيل المراد به السموات والارض والجبال لعظمها في النفوس وقال جماعة من الصحابة والتابعين المراد به الموت لانه ليس شئ أكبر في نفس ابن آدم منه والمعنى لو كنتم الموت لاماتكم الله ثم بعثكم ولا يخفى ما في هذا من البعد لان معنى الآية الترقي من الحجارة الى الحديد ثم من الحديد الى ما هو أكبر في صدور القوم منه والموت نفسه ليس بشئ يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد اليه (فسيقولون من يعيدنا) الى الحياة اذا كنا عظاما ورفاتا أو حجارة أو حديدا مع ما بين الحالتين من التفاوت (قل) يعيدكم (الذي فطركم)

خلقكم

رسول الله صلى الله عليه وسلم أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم فهذا نص فى ان الفاتحة السبع المثانى والقرآن العظيم ولكن لا ينافى وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضا كما قال تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى فهو مثانى من وجه ومتشابه من وجه وهو القرآن العظيم أيضا كما انه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فاشار الى مسجده والآية نزلت فى مسجد قباء فلا تنافى فان ذكر الشئ لا ينفى ذكر ما عداه اذا اشترك فى تلك الصفة والله أعلم وقوله لا تمدن عينيك (٣٣٣) الى ما متعنا به أزواجا منهم أى استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ومن ههنا ذهب ابن عيينة الى تفسير الحديث الصحيح ليس منا من لم يتغن بالقرآن الى انه يستغنى به عما عداه وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم فى أول التفسير وقال ابن أبى حاتم ذكر عن وكيع بن الجراح حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط عن أبى رافع صاحب النبى صلى الله عليه وسلم قال ضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيف ولم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم أمر يصلحه فارسل الى رجل من اليهود يقول لك محمد رسول الله أسلفنى دقيقا الى هلال رجب قال لا الا برهن فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال أما والله انى لأمين من فى السماء وأمين من فى الارض ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين اليه فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا الى آخر الآية كأنه يعزيه عن الدنيا قال العوفى عن ابن عباس لا تمدن عينيك قال نهى الرجل ان يتمنى مال صاحبه وقال مجاهد الى ما متعنا به أزواجا منهم هم الاغنياء (وقل انى أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس انى أنا النذير المبين البين النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الامم المكذبة لرسلها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام وقوله المقتسمين أى المتحالفين أى تحالفوا على مخالفة الانبياء وتكذيبهم وأذاهم كقوله تعالى اخبارا عن قوم صالح انهم قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله الآية أى نقتلهم ليلا قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أولم تكونوا أقسمتم من قبل الآية أهؤلاء الذين

خلقكم واخترعكم (أول مرة) اى عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة فمن قدر على البدء والانشاء قدر على الاعادة بل هى أهون (فسينغضون اليك رؤسهم) اى يحركونها استهزاء يقال نغض رأسه ينغض نغضا ونغوضا اذا تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب من الشئ (ويقولون) استهزاء وسخرية (متى هو) اى البعث والاعادة (قل عسى أن يكون قريبا) اى هو قريب لان عسى فى كلام الله واجب الوقوع ومثله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا وكل ما هو آت قريب (يوم يدعوكم) الظرف منتصب بفعل مضمر اى اذكر أو بدل من قريبا أو التقدير يوم يدعوكم كان ما كان والدعاء النداء الى المحشر بكلام يسمعه الخلائق وقيل هى الصيحة التى يسمعونها فتكون داعية لهم الى الاجتماع فى أرض المحشر وقيل ان المنادى جبريل وان النافخ اسرافيل وصورة الدعاء والنداء ان يقول أيتها العظام البالية والاوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء قاله الجلال المحلى فى سورة ق (فتستجيبون بحمده) منقادين له حامدين لما فعله بكم وقيل المعنى فتستجيبون والحمد لله أوله الحمد وقد روى ان الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك قاله سعيد بن جبير وقيل المراد بالدعاء هنا البعث وبالاستجابة انهم يبعثون فالمعنى يوم نبعثكم فتبعثون منقادين والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا اليه وهى الاجابة الا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى أوكد من الاجابة وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين قال ابن عباس معنى بحمده بأمره وقال قتادة بمعرفته وطاعته (وتظنون) عند البعث (ان لبثتم) ان نافية وهى معلقة للظن عن العمل وقل من يذكر ان النافية فى أدوات تعليق هذا الباب أى ما لبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم (الا) زمنا (قليلا) وقيل بين النفختين وذلك ان العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين وذلك أربعون عاما ينامون فيها فلذلك قالوا من بعثنا من مرقدنا وقيل ان الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة قاله قتادة (وقل) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لعبادى) المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم للمشركين الكلمة (التى هى أحسن) من غيرها من الكلام الحسن كان يقولوا لهم انكم من أهل النار فانه يهيجهم الى الشر مع ان عاقبتهم مغيبة عنا وهذا كقوله سبحانه ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى

أقسموا لا ينالهم الله برحمة فكأنهم كانوا لا يكذبون بشئ من الدنيا الا أقسموا عليه فسموا مقتسمين قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم اني رأيت الجيش بعيني واني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبه طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من (٣٣٤) عصاني وكذب ما جئت به من الحق وقوله الذين جعلوا القرآن عضين

أحسن وقوله فقولا له قولا لينا الان المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الاجابة أو تؤدي الى ما قال سبحانه ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم وهذا كان قبل نزول آية السيف وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والاول أولى كما يشهد له السبب قال ابن سيرين يعني لا اله الا الله وعن ابن جريج في الآية قال يعفون عن السيئة وعن الحسن قال يقول له يرحمك الله يغفر الله لك (ان الشيطان ينزغ بينهم) بالفساد والقاء العداوة والاغراء فلعل المخاشنة معهم تفضي الى العناد وازدياد الفساد قال اليزيدي نزغ بيننا أي أفسد وقال غيره النزغ الاغراء قال قتادة نزغ الشيطان تحريشه وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه واغتابه وبينهم أفسد وأغوى ووسوس (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) اى متظاهرا بالعداوة مكاشفا بها وهو تعليل لما قبله وقد تقدم مثل هذا في البقرة (ربكم أعلم بكم) اى بعاقبة أمركم كما يدل عليه قوله (ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم) قيل هذا خطاب للمشركين والمعنى ان يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم وقيل هو خطاب للمؤمنين أى ان يشأ يرحمكم بان يحفظكم من الكفار أو يرحمكم بالتوبة والايمان وان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم وقيل ان هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن (وما أرسلناك عليهم وكيلا) اى ما وكلناك في منعهم من الكفر وقسرهم على الايمان وقيل ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن في السموات والارض) ذاتا وحالا واستحقاقا فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه قاله البيضاوي أقول عبر بهذه العبارة حكاية عن الكفار والا فلا يجوز اطلاقها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى انه أفتى بعض المالكية بقتل قائلها كما في الشفاء فكان ينبغي له تركها وفي هذه الباء قولان أشهرهما انها تتعلق بأعلم ولا يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما فقط والثاني انها متعلقة بيعلم مقدرا قاله الفارسي محتجا بانه يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما وهو وهم لانه لا يلزم من ذكر الشئ نفي الحكم عما عداه وهذا هو الذي يقول الاصوليون انه مفهوم اللقب ولم يقل به الا أبو بكر الدقاق في طائفة قليلة والاصح خلافه فالجمهور على ان اللقب لا يحتج به قاله الكرخي وتمام هذا البحث في كتابنا حصول

أي جزؤا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض قال البخاري حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا هشيم أنبأنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس جعلوا القرآن عضين قال هم أهل الكتاب جزؤه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه حدثنا عبد الله بن موسى عن الاعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس جعلوا القرآن عضين قال هم أهل الكتاب جزؤه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه حدثنا عبيد الله بن موسى عن الاعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال كما أنزلنا على المقتسمين قال آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارى قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس جعلوا القرآن عضين قال السحر وقال عكرمة العضة السحر بلسان قريش يقول للساحرة انها العاضهة وقال مجاهد عضوه أعضاء قالوا سحر وقالوا كهانة وقالوا أساطير الاولين وقال عطاء قال بعضهم ساحر وقالوا مجنون وقالوا كاهن فذلك العضين وكذا روى عن الضحاك وغيره وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال بل أنتم قولوا لأسمع قالوا نقول كاهن قال ما هو بكاهن قالوا فنقول مجنون قال ما هو بمجنون قالوا فنقول شاعر قال ما هو بشاعر قالوا فنقول

ساحر قال ماهو بساحر قالوا فماذا نقول قال والله ان لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيأ الا عرف انه باطل وان أقرب القول أن نقول هو ساحر ففرقوا عنه بذلك وأنزل الله فيهم الذين جعلوا القرآن عضين أصنافا فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون دوينك النفر الذين قالوا لرسول الله وقال عطية العوفي عن ابن عمر في قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن لا اله الا الله وقال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن ليث هو ابن أبي سليم عن مجاهد في قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن لا اله الا الله وقد روى الترمذي وأبو يعلى الموصلي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن ليث بن أبي سليم عن بشير بن أبي نهيك عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فوربك لنسألنهم أجمعين عن لا اله الا الله ورواه ابن ادريس عن ليث عن بشير عن أنس موقوفا وقال ابن جرير حدثنا أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن هلال عن عبد الله بن حكيم قال ورواه الترمذي وغيره من حديث أنس مرفوعا وقال عبد الله هو ابن مسعود والذي لا اله غيره ما منكم من أحد الا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول ابن آدم ماذا غرك مني بي ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ابن آدم ماذا أجبت المرسلين وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين وقال ابن عيينة عن عملك وعن مالك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحوارى حدثنا يونس الحذاء عن أبي حمزة الشيباني عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ ان المرء يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية في قوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ثم قال فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قال لا يسألهم هل عملتم كذا لانه أعلم بذلك منهم ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم بابلاغ

حصول المأمول من علم الاصول فراجعه وهذه الآية أعم من قوله ربكم أعلم بكم لان هذا يشمل كل ما في السموات والارض من مخلوقاته وذلك خاص ببني آدم أو ببعضهم وهذا كالتوطئة لقوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) أي ان هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن هو دونه وبمن هو يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله أي فخصهم بما شاء على قدر أحوالهم قيل يعني بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع حتى داود عليه السلام فان شرفه بما أوحى اليه من الكتاب كما يأتي لا بما أوتيه من الملك وقيل هو اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد تقدم هذا في البقرة وقد اتخذ الله ابراهيم خليلا وموسى كليما وجعل عيسى كلمته وروحه وجعل سليمان على نبينا وعليهم الصلوات والتسليمات ملكا عظيما وغفر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر وجعله سيد ولد آدم وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل ثم ذكر ما فضل به داود فقال (وآتينا داود زبورا) أي كتابا مزبورا قال الزجاج أي فلا تنكروا تفضيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم واعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبورا وفيه دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الانبياء وان أمته خير الامم لان ذلك مكتوب في الزبور قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته وانما خص كتاب داود بالذكر لان اليهود زعمت انه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله هذا وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول أو مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر فيه ذكره صلى الله عليه وآله وسلم قال قتادة كنا نحدث ان الزبور دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام وعن الربيع بن أنس قال الزبور ثناء على الله ودعاء وتسبيح قلت الامر كما قاله قتادة والربيع فانا وقفنا على الزبور فوجدناه خطبا يخطب بها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه عند دخوله الكنيسة وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزمورا بفتح الميم الاولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من أعدائه ويستنصره عليهم وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني

مابعثه به وانفاذه والصدع به وشوه واجهة المشركين به كما قال ابن عباس فى قوله فاصدع بما تؤمر أى امضه وفى رواية افعل
ما تؤمر وقال مجاهد هو الجهر بالقرآن فى الصلاة وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود مازال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا
حتى نزلت فاصدع بما تؤمر فخرج هو وأصحابه وقوله وأعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين أى بلغ ما أنزل اليك من ربك
ولا تلتفت الى المشركين الذين يريدون ان يصدوك عن آيات الله ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تخفهم فان الله كافيك اياهم وحافظك
منهم كقوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك (٣٣٦) من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وقال

عليه بسبب ما وقع له من النصر عليهم والغلبة لهم وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة
وهى آلة من آلات الملاهى وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور ههنا روايات عن جماعة
من السلف يذكرون ألفاظا وقفوا عليها فى الزبور ليس لها كثير فائدة فقد أغنى عنها
وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه)
هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على انها صور الملائكة وعلى
طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بالهية عيسى ومريم وعزير فامر الله سبحانه رسوله
صلى الله عليه وآله وسلم بان يقول لهم ادعوا الذين زعمتم انهم آلهة من دون الله وقيل أراد
بالذين زعمتم نفرا من الجن عبدهم ناس من العرب وانما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله
الآتى يبتغون الى ربهم الوسيلة فان هذا لا يليق بالجمادات روى معنى ذلك عن ابن
مسعود وقال ابن عباس كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرا والشمس
والقمر (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) أى لا يستطيعون ذلك والمعبود
الحق هو الذى يقدر على كشف الضر وعلى تحويله من حال الى حال ومن مكان الى مكان
فوجب القطع بان هذه التى تزعمونها آلهة ليست بآلهة ثم انه سبحانه أكد عدم اقتدارهم
ببيان غاية افتقارهم الى الله فى جلب المصالح ودفع المضار فقال (أولئك الذين يدعون)
قرئ بالتحتية على الخبر وقرأ ابن مسعود بالفوقية على الخطاب ولا خلاف فى (يبتغون)
انه بالتحتية والضمير فى (الى ربهم) يعود الى العابدين أو المعبودين (الوسيلة) هى القربة
بالطاعة والعبادة أى يتضرعون الى الله فى طلب ما يقربهم الى ربهم أخرج الترمذى
وابن مردويه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلوا الله لى
الوسيلة قالوا وما الوسيلة قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية (أيهم أقرب) بالوسيلة الى
الله قاله الزجاج أى يتقرب اليه بالعمل الصالح أو يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة
فكيف بمن دونه وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون أى يحرصون أيهم أقرب اليه
سبحانه بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) كما يرجوها غيرهم (ويخافون عذابه) كما
يخافه غيرهم فكيف يزعمون انهم آلهة لان الاله يكون غنيا بالغنى المطلق (ان عذاب ربك
كان محذورا) تعليل لقوله يخافون أى ان عذابه سبحانه حقيق بان يحذره العباد من

الملائكة

الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى
ابن محمد بن السكن حدثنا اسحق
ابن ادريس حدثنا عون بن كهمس
عن يزيد بن درهم عن أنس قال
سمعت أنسا يقول فى هذه الآية انا
كفيناك المستهزئين الذين يجعلون
مع الله الها آخر قال مر رسول
الله صلى الله عليه وسلم فغمزه
بعضهم فجاء جبريل قال أحسبه قال
فغمزهم فوقع فى أجسادهم كهيئة
الطعنة فماتوا وقال محمد بن اسحق
كان عظماء المستهزئين كما حدثنى يزيد
ابن رومان عن عروة بن الزبير خمسة
نفر وكانوا ذوى أسنان وشرف فى
قومهم من بنى أسد بن عبد العزى بن
قصى الاسود بن المطلب أبو زمعة
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيما بلغنى قد دعا عليه لما كان يبلغه
من اذاه واستهزائه فقال اللهم اعم
بصره وأثكله ولده ومن بنى زهرة
الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن
عبد مناف بن زهرة ومن بنى مخزوم
الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن
مخزوم ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص
ابن كعب بن لؤى العاص بن وائل
ابن هشام بن سعيد بن سعد ومن
خزاعة الحرث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحرث بن عمرو بن ملكان فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله
صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين الى قوله فسوف يعلمون
قال ابن اسحق فحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء ان جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف
بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الاسود بن عبد يغوث فاشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ومر به
الوليد بن المغيرة فاشار الى أثر جرح باسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر أزره وذلك انه مر برجل من خزاعة

يريش نبلاله فتعلق سهم من نبله بازاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشئ فانتقض به فقتله ومر به العاص بن وائل فأشار الى أخمص قدمه فخرج على حماره يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت فى أخمص قدمه فقتلته ومر به الحرث بن الطلاطلة فأشار الى رأسه فامتخط قيحا فقتله قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن رجل عن ابن عباس قال كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذى جمعهم وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن اسحق عن يزيد عن عروة بطوله الا أن سعيدا يقول الحرث بن غيطلة وعكرمة يقول الحرث بن قيس قال الزهرى وصدقا هو الحرث بن قيس وأمه غيطلة وكذا روى عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد انهم كانوا خمسة وقال الشعبى كانوا سبعة والمشهور الاول وقوله الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبودا آخر وقوله ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين أى وانا لنعلم يا محمد انك يحصل لك من اذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنك ذلك ولا يثنينك عن ابلاغك رسالة الله وتوكل عليه فانه كافيك وناصرك عليهم فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة ولهذا قال فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين كما جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن نعيم بن همار انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره ورواه ابو داود والنسائى من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى وقوله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين قال البخارى قال سالم الموت وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنى طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين قال الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيره والدليل على ذلك قوله تعالى اخبارا عن أهل النار انهم قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين وفى الصحيح من حديث الزهرى عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء امرأة من الانصار ان

الملائكة والانبياء وغيرهم ثم بين سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال (وان) نافية للاستغراق (من) أى ما من (قرية) اى قرية كانت من قرى الكفار (الا نحن مهلكوها) قال الزجاج اى ما من اهل قرية الا سيهلكون اما بموت أو خراب واما بعذاب يستأصلهم وانما قال (قبل يوم القيامة) لان اهلاك يوم القيامة ليس يختص بالقرى الكافرة بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا (أو معذبوها عذابا شديدا) بالقتل وانواع العقاب اذا كفروا وعصوا وقيل الاهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة والاول أولى لقوله تعالى وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون قال ابن مسعود اذا ظهر الزنا والربا فى قرية اذن الله فى هلاكها وقد ذكر فى المدارك عن مقاتل فى تفسير هذه الآية عن كتب الضحاك خراب كل قرية خاصة وبلدة معينة بنوع خاص من العذاب وقسم مخصوص من الهلاك وليس بمرفوع حتى يعتمد عليه أو يصار اليه (كان ذلك) المذكور من الاهلاك والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ قاله ابراهيم التيمى (مسطورا) أى مكتوبا والسطر الخط وهو فى الاصل مصدر والسطر بالتحريك مثله وجمع السطر اسطار وجمع السطر بالسكون أسطر عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد أخرجه الترمذى (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) قال المفسرون ان أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحى عنهم جبال مكة فأتاه جبريل فقال ان شئت كان ما سأله قومك ولكنهم ان لم يؤمنوا لم يمهلوا وان شئت استأنيت بهم فانزل الله هذه الآية روى معنى هذا أحمد والنسائى وغيرهما عن ابن عباس وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان شئتم دعوت الله فانزلها عليكم فان عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها والمعنى وما منعنا من ارسال الآية التى سألوها الا تكذيب الاولين فان أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه فى عباده فالمنع مستعار للترك والاستثناء مفرغ من أعم الاشياء اى ما تركنا ارسالها لشئ من الاشياء

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك ان الله أكرمه فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن فقال اما هو فقد جاءه اليقين واني لأرجو له الخير ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله واعبد ربك حتى يأتيك اليقين على ان العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الانسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة الى ان المراد باليقين المعرفة فمتى وصل أحدهم الى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فان الانبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات الى حين الوفاة وانما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه ولله الحمد والمنة والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل وهو المسؤل أن يتوفانا على أكمل الاحوال وأحسنها فانه جواد كريم آخر تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين

(تفسير سورة النحل وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرا بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون وقال اقتربت الساعة وانشق القمر وقوله فلا تستعجلوه أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه يحتمل أن يعود الضمير على الله ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقد ذهب الضحاك في تفسيره هذه الآية الى قول عجيب فقال في قوله أتى أمر الله اى فرائضه وحدوده وقد رده ابن جرير فقال لا نعلم أحدا استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب فانهم استعجلوه قبل كونه استبعادا وتكذيبا قلت كما قال تعالى عصمه

الا تكذيب الاولين فان كذب بها هؤلاء كما كذب بها أولئك لحل بهم ما حل بهم لاشتراكهم في الكفر والعناد والحاصل ان المانع من ارسال الآية التي اقترحوها هو ان الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال وقد عزمنا على ان نؤخر أمر من بعثنا اليهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى يوم القيامة وقيل معنى الآية ان هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن أولئك فيكون ارسال الآيات ضائعا ثم انه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته فانهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر وأعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استوصلوا بالعذاب وانما خص قوم صالح بالاستشهاد لان آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال (وآتينا ثمود الناقة) آية (مبصرة) أي ذات ابصار يدركها الناس بابصارهم كقوله وجعلنا آية النهار مبصرة أو اسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو انها جعلتهم ذوي ابصار من أبصره اذا جعله بصيرا (فظلموا بها) أي بتكذيبها أو جحدوا بها أو كفروا بها (١) ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) من نزول العذاب المستأصل فان لم يخافوا أنزل أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن الا تخويفا بعذاب الآخرة فان أمر من بعثت اليهم مؤخر الى يوم القيامة اختلف في تفسير الآيات على وجوه الاول ان المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الانذار تخويفا للمكذبين الثاني انها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي الثالث تقلب الاحوال من صغر الى شباب ثم الى تكهل ثم الى شيب ليعتبر الانسان بتقلب أحواله فيخاف في عاقبة أمره الرابع آيات القرآن الخامس الموت الذريع والمناسب للمقام تفسير الآيات المذكورة بالآيات المقترحة كما تقدم ولما ذكر سبحانه الامتناع من ارسال الآيات المقترحة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم للصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال (و) اذكر (اذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) يعني انهم في قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم الى الخروج مما يريده بهم لاحاطته بهم بعلمه وقدرته وقيل المراد بالناس أهل مكة واحاطته بهم اهلاكه اياهم أي ان الله سيهلكهم وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه وذلك كما وقع في يوم بدر ويوم الفتح وقيل المراد انه سبحانه

(١) هذا على تقدير تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا اهـ

يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد وقال ابن أبي حاتم ذكر عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش عن محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن حجيرة عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها يا أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض هل سمعتم فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك ثم ينادي الثانية يا أيها الناس فيقول الناس بعضهم لبعض هل سمعتم فيقولون نعم ثم ينادي الثالثة يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي بيده ان الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبدا وان الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئا أبدا وان الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدا قال ويشتغل الناس ثم انه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والانداد تعالى وتقدس علوا كبيرا وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال سبحانه وتعالى عما يشركون (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون) يقول تعالى ينزل الملائكة بالروح اى الوحي كقوله وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وقوله على من يشاء من عباده وهم الانبياء كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته وقال الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وقال يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقوله ان انذروا اي لينذروا انه لا اله الا انا فاتقون أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف امري وعبد غيري (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات والعالم السفلي وهو الارض بما حوت وان ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة أي مهينة ضعيفة فلما استقل ودرج اذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله وهو انما خلق ليكون عبدا لا ضدا كقوله تعالى وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان

عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) لما بين سبحانه ان انزال الآيات يتضمن التخويف ضم اليه ذكر آية الاسراء وهي المذكورة في صدر السورة وسماها رؤيا لانها وقعت بالليل اولان الكفرة قالوا لعلها رؤيا وقد قدمنا في صدر السورة وجها آخر في تفسير هذه الرؤيا وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين اخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه أسري به وقيل كانت رؤيا نوم وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى انه يدخل مكة هو واصحابه وهو يومئذ بالمدينة فسار الى مكة قبل الاجل فرده المشركون فقال ناس قد رد وقد كان حدثنا انه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم فافتتن المسلمون لذلك فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقد تعقب هذا بان هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة وأجيب بانه لا يبعد انه صلى الله عليه وآله وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان حقيقة بالمدينة وفيه تكلف وقال الخفاجي بعيد لقلة جدواه وقيل ان هذه الرؤيا هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل انما هي الدنيا اعطوها فسري عنه وفيه ضعف جدا فانه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا الا ان يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الاساءة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو يحمل على انه قد كان اخبر الناس بها فافتتنوا وقيل ان الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمع ذلك قريش جعلوا رؤياه سخرية وقد تعارضت هذه الاسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الاسراء فتعين ذلك قال ابن عباس رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به الى بيت المقدس أخرجه البخاري وبه قال سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم وقد حكى ابن كثير اجماع الحجة من اهل التأويل على ذلك في الرؤيا وفي تفسير الشجرة الآتية وانها شجرة الزقوم فلا اعتبار بغيرهم معهم (والشجرة الملعونة في القرآن) عطف على الرؤيا قيل والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس قال جمهور المفسرين هي شجرة الزقوم وكذا أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن

هوخصيم مبين وضرب لنامثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم
وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال بصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كفه ثم قال يقول
الله تعالى ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللارض منك وئيد فجمعت
ومنعت حتى اذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق وانى أوان الصدقة (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها
تأكلون ولكم فيها جمال حين
تريحون وحين تسرحون وتحمل
أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه
الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف
رحيم) يمتن تعالى على عباده بما خلق
لهم من الانعام وهى الابل والبقر
والغنم كما فصلها فى سورة الانعام
الى ثمانية أزواج وبما جعل لهم فيها
من المصالح والمنافع من أصوافها
وأوبارها وأشعارها يلبسون
ويفترشون ومن ألبانها يشربون
ويأكلون من أولادها وما لهم فيها
من الجمال وهو الزينة ولهذا قال
ولكم فيها جمال حين تريحون وهو
وقت رجوعها عشيا من الرعى فانها
تكون أمده خواصر وأعظمه
ضروعا وأعلاه اسنمة وحين تسرحون
أى غدوة حين تبعثونها الى المرعى
وتحمل أثقالكم وهى الاحمال
الثقيلة التى تعجزون عن نقلها
وحملها الى بلد لم تكونوا بالغيه الا
بشق الانفس وذلك فى الحج والعمرة
والغزو والتجارة وما جرى مجرى
ذلك يستعملونها فى أنواع الاستعمال
من ركوب وتحميل كقوله وان
لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما
فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة
ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك
تحملون وقال الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم منه وب
وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم ان ربكم لرؤف رحيم أى ربكم الذى
قيض لكم هذه الانعام وسخرها لكم كقوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها
يأكلون وقال وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان
الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون قال ابن عباس لكم فيها دفء أى ثياب ومنافع ما تنتفعون به من الاطعمة
والاشربة وقال عبد الرزاق أخبرنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس دفء ومنافع نسل كل دابة وقال مجاهد لكم

ابن عباس والمراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه ان شجرة الزقوم طعام الاثيم قال الزجاج
ان العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهى فى أصل
الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة ومعنى الفتنة فيها ان أبا جهل وغيره قالوا زعم صاحبكم ان
نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول تنبت فيها الشجر فأنزل الله هذه الآية وما قدروا الله حق
قدره اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فوبر السمندر
وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت فى النار فذهب الوسخ وبقى
المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق فى كل شجرة نارا
فلا تحرقها فجاز أن يخلق فى النار شجرة لا تحرقها وروى ان أبا جهل أمر جارية فأحضرت
تمرا وزبدا وقال لاصحابه تزقموا وقال ابن الزبعرى كثر الله من الزقوم فى داركم فانه التمر
والزبد بلغة اليمن وقيل هى التى تلتوى على الشجرة فتقتلها وهى شجرة الكشوث وقيل
هى الشيطان وقيل هى اليهود وقيل بنو امية وعن عائشة انها قالت لمروان بن الحكم
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لابيك وجدك انكم الشجرة الملعونة فى
القرآن وفى هذا نكارة (ونخوفهم) بالآيات وبنظائرها وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على
التجدد والاستمرار (فما يزيدهم) التخويف (الا طغيانا) متجاوزا للحد متماديا غاية التمادى
(كبيرا) فما يفيدهم ارسال الآيات الا الزيادة فى الكفر فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن
قبلهم من الكفار وهو عذاب الاستئصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة ولما ذكر سبحانه
ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان فى بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبين
ان جميع الانبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام كانوا كذلك حتى ان هذه عادة قديمة
سنها ابليس اللعين مع أول الانبياء وأيضا لما ذكر ان الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة
أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ذكر ههنا ما يحقق ذلك فقال (واذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم) هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه فى سبعة مواضع فى البقرة
والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص وقد تقدم تفسيرها مبسوطا
(فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) نصب بنزع الخافض أى من طين كما
صرح به فى الآية الاخرى وخلقته من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من
عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقى وقال الزجاج

فيها دفء قال اللباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن وقال قتادة دفء ومنافع يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ولما فصلها على الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل ممن ذهب من العلماء الى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب اليه فيها كالامام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهي حرام كما ثبتت (٣٤١) به السنة النبوية وذهب اليه أكثر العلماء وقد روى الامام أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن عيينة أنبأنا هشام الدستوائي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس انه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول قال الله تعالى والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون فهذه للاكل والخيل والبغال والحمير لتركبوها فهذه للركوب وكذا روى من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة رضي الله عنه أيضا واستأنسوا بحديث رواه الامام أحمد في مسنده حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنا ثور بن يزيد عن صالح ابن يحيى بن المقدام بن معديكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح بن يحيى بن المقدام وفيه كلام ورواه أحمد أيضا من وجه آخر بابسط من هذا وأدل منه فقال حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا محمد بن حرب حدثنا سليمان بن سليم عن صالح بن يحيى بن المقدام عن جده المقدام بن معديكرب قال غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا الى اللحم فسألوني رمكة فدفعتها اليهم فحبلوها وقلت مكانكم حتى آتي خالدا فأسأله فأتيته فسألته فقال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة ولا يدخل الا مسلم ثم قال أيها الناس انكم قد أسرعتم في حظائر يهود ألا لا يحل أموال المعاهدين الا بحقها وحرام عليكم لحوم الاتن الاهلية وخيلها وبغالها وكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير والرمكة هي الحجرة

منصوب على الحال أو التمييز وتبعه فيه ابن عطية ولا يظهر ذلك اذ لم يتقدم ابهام ذات ولا نسبة (قال أرأيتك) أي أخبرني عن (هذا الذي كرمت) أي فضلته (علي) بأمري بالسجود له لم كرمته علي وقد خلقتني من نار ولم يجبه عن هذا السؤال اهمالا له وتحقيرا حيث اعترض على مولاه وسأله بلم (لئن أخرتن الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه (لاحتنكن ذريته) أي لاستولين عليهم بالاغواء والاضلال قال الواحدي أصله من احتناك الجراد الزرع وهو ان تستأصله باحناكها وتفسده وهذا هو الاصل ثم سمي الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكا وقيل معناه لاسوقنهم وأقودنهم حيث أردت من حنك الدابة اذا جعل الرسن في حنكها وفي المختار حنك الفرس جعل في فيه الرسن وبابه نصر وضرب والحنك المنقار يقال أسود مثل حنك الغراب وأسود حانك مثل حالك والحنك ما تحت الذقن من الانسان والمعنى الاول أنسب بمعنى هذه الآية وقال مجاهد المعنى لاحتوينهم وعن ابن زيد قال لاضلنهم وانما أقسم اللعين هذا القسم على انه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق اليه من سمع استرقه أو انه استنبط ذلك من قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات أو ظن ذلك لانه وسوس لآدم فقبل منه ذلك ولم يجد له عزما كما روي عن الحسن أو قاله لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم وانه يجري منهم في مجاري الدم وانهم بحيث يروج عندهم كيده وينفق لديهم وسوسته الا من عصم الله كالانبياء وصلحاء هذه الامة وهم المرادون بقوله (الا قليلا) قيل من كل ألف واحد وفي معنى هذا الاستثناء قوله تعالى سبحانه ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فانه يفيد انه قال ما قاله هنا اعتمادا على الظن (قال) الله تعالى (اذهب) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وانما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية بينه وبين ما سولته نفسه أمره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف لانها كلها معاص والله لا يأمر بها والمعنى اذهب منظرا الى وقت النفخة الاولى مع ان غرضه الامهال والانظار الى النفخة الثانية وغرضه بذلك طلب أن لا يموت اصلا لانه يعلم أنه لا موت بعد النفخة الثانية ثم عقب الذهاب بذكر ما جره سوء اختياره فقال (فمن تبعك) وأطاعك (منهم فان جهنم جزاؤكم) أي ابليس ومن أطاعه والخطاب للتغليب لانه تقدم غائب

وقوله حياوشا أي أوثقوها في الحبل ليذبحوها والخطائر البساتين القريبة من العمران وكأن هذا الصنيع وقع بعد اعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر والله اعلم فلو صح هذا الحديث لكان نصا في تحريم الخيل ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الاهلية واذن في لحوم الخيل ورواه الامام أحمد وابو داود باسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وفي صحيح مسلم عن أسماء (٣٤٢) بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت نحرنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة فهذه أدل وأقوى وأثبت والى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال كانت الخيل وحشية فذللها الله لاسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام وذكر وهب ابن منبه في اسرائيلياته ان الله خلق الخيل من ريح الجنوب والله اعلم فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال وقد اهديت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة فكان يركبها مع انه قد نهى عن انزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل قال الامام احمد حدثني محمد بن عبيد حدثنا عمر من آل حذيفة عنه عن الشعبي عن دحية الكلبي قال قلت يا رسول الله الا أحمل لك حمارا على فرس فتنتج لك بغلا فتركبها قال انما يفعل ذلك الذين لا يعلمون (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين) لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية وكثيرا ما يقع في القرآن العبور من الامور الحسية الى الامور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى وقال تعالى يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الانعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم وتحمل أثقالهم الى البلاد والاماكن البعيدة والاسفار الشاقة شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس اليه فبين أن الحق منها موصلة اليه فقال وعلى الله قصد السبيل كقوله وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وقال هذا صراط علي مستقيم قال مجاهد في

ومخاطب في قوله فمن تبعك منهم فغلب المخاطب أو يكون الخطاب مرادا به من خاصة ويكون ذلك على سبيل الالتفات (جزاء موفورا) اي وافرا مكملا يقال وفرته أفره وفرا ووفر المال بنفسه يفر وفورا فهو وافر فهو مصدر ثم كرر سبحانه الامهال لابليس اللعين فقال (واستفزز) اي استزعج واستعجل واستزل واستخف (من استطعت) ان تستفزه (منهم) أي من بني آدم يقال افزه واستفزه أي أزعجه واستخفه والمعنى استخفهم (بصوتك) داعيا لهم الى معصية الله وقيل هو الوسوسة والغناء واللهو واللعب والمزامير (وأجلب) قال الفراء وابو عبيدة من الجلبة والصياح أي صح (عليهم) وقال الزجاج أي اجمع عليهم كما تقدر عليه من مكايدك وحبائلك وأحثهم على الاغواء فالاجلاب الجمع وقال ابن السكيت الاجلاب الاعانة أي استعن عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر والامر للتهديد كما يقال اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك (بخيلك) أي بركبان جندك والخيل يقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وآله وسلم يا خيل الله اركبي ويقع على الافراس قاله ابن السكيت قيل الباء للملابسة أي صح وصوت عليهم حال كونك متلبسا ومصحوبا بجنودك قلت كون الباء للملابسة بعيد من حيث المعنى المراد كما تدل عليه عبارة اللغويين واللائق بها ان تكون زائدة وقد نص الشهاب على زيادتها وفي المختار جلب على فرسه يجلب جلبا صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا اجلب عليه وهذا يقتضي زيادة الباء والمعنى حث وأسرع عليهم جندك خيلا ومشاة لتدركهم وتتمكن منهم فليتأمل (ورجلك) أي مشاتك يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من ركب أو مشى في معصية الله فهو من جند ابليس والرجل بسكون الجيم جمع راجل كتاجر وتجر وصاحب وصحب وقال أبو زيد يقال رجل ورجل بمعنى راجل وقيل اسم لراجل بمعنى الماشي وقرئ في السبعة بكسر الجيم وهو مفرد بمعنى الجمع فهو بمعنى المشاة فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان أو المراد ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك والحمل على الظاهر أولى (وشاركهم في الاموال والاولاد) اما المشاركة في الاموال فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذا من غير حق أو وضعا في غير حق كالغصب والسرقة والربا ومن ذلك تبتيك آذان الانعام وجعلها بحيرة وسائبة والمشاركة في الاولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي وتحصيله بالزنا وتسميتهم بعبد اللات والعزى والاساءة في تربيتهم

قوله وعلى الله قصد السبيل قال طريق الحق على الله وقال السدى وعلى الله قصد السبيل الاسلام وقال العوفى عن ابن عباس فى
قوله وعلى الله قصد السبيل يقول على الله البيان أى يبين الهدى والضلالة وكذا روى على بن أبى طلحة عنه وكذا قال قتادة والضحاك
وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق لانه تعالى أخبر ان ثم طرقا تسلك اليه فليس يصل اليه منها الا طريق الحق وهى الطريق
التى شرعها ورضيها وما عداها مسدودة والاعمال فيها مردودة ولهذا قال تعالى ومنها جائر أى حائد مائل زائغ عن الحق قال ابن عباس
وغيره هى الطرق المختلفة والآراء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية (٣٤٣) وقرأ ابن مسعود ومنكم جائر ثم أخبر تعالى
ان ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال ولو شاء لهداكم أجمعين كما قال تعالى ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا وقال ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الانعام والدواب شرع فى ذكر نعمته عليهم فى انزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولانعامهم فقال لكم منه شراب أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحا اجاجا ومنه شجر فيه تسيمون أى وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد فى قوله فيه تسيمون أى ترعون ومنه الابل السائمة والسوم الرعى وروى ابن
ماجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن السوم قبل طلوع الشمس وقوله ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب
ومن كل الثمرات أى يخرجها من الارض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا
قال ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون أى دلالة وحجة على أنه لا اله الا الله كما قال تعالى أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من
السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ثم قال تعالى (وسخر لكم الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم
يذكرون) ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان والشمس والقمر يدوران والنجوم

تزيينهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم
خشية املاق ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التى هم عليها من الاديان
الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع اذا لم يسم
وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة نار قال ذلك
من وطء الجن ثم قال (وعدهم) بانهم لا يبعثون قاله الزجاج وقال الفراء أى قل لهم لا جنة
ولا نار وقيل وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من النصرة على من خالفهم وشفاعة
الآلهة والكرامة على الله بالانساب الشريفة والاتكال على كرامة الله وتأخير التوبة
لطول الامل وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك وهذا على طريق التهديد كقوله اعملوا
ما شئتم (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) أى باطلا اعتراض لبيان مواعيده فانه وقع بين
الجمل التى خاطب الله بها الشيطان وفيه اظهار فى مقام الاضمار والالتفات عن الخطاب الى
الغيبة وكان مقتضى الظاهر ان يقال وما تعدهم الا غرورا وأصل الغرور تزيين الخطا
بما يوهم الصواب (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى عباده المؤمنين كما فى غير هذا
الموضع من الكتاب العزيز من ان اضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لما فى الاضافة من
التشريف وقيل المراد الانبياء وأهل الصلاح والفضل لانه لا يقدر على اغوائهم وقيل
المراد جميع العباد بدليل الاستثناء بقوله فى غير هذا الموضع الا من اتبعك من الغاوين
والمراد بالسلطان التسلط (وكفى بربك) الباء زائدة فى الفاعل (وكيلا) يتوكلون عليه فهو
الذى يدفع عنهم كيدك ويعصمهم من اغوائك ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية
الله الا بعصمته ولا قوة على طاعته الا بتوفيقه (ربكم الذى يزجى) الازجاء السوق والدفع
والاجراء والتسيير ومنه قوله تعالى ألم تر أن الله يزجى سحابا وهذا تعليل لكفايته وبيان
لقدرته على عصمة من توكل عليه فى أموره وشروع فى تذكير بعض النعم عليهم حملا لهم
على الايمان حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركوا به أحدا والمعنى ان الله سبحانه يسير (لكم
الفلك فى البحر) بالريح والفلك هنا جمع بمعنى السفائن وقد تقدم والبحر هو الماء الكثير
عذبا كان أو مالحا وقد غلب هذا الاسم على المشهور (لتبتغوا من فضله) أى من رزقه
الذى تفضل به على عباده من الربح بالتجارة أو أنواع الامتعة التى لا تكون عندكم ومن
زائدة أو للتبعيض (انه كان بكم رحيما) تعليل ثان لما تقدم اى فهداكم الى مصالح دنياكم

الثوابت والسيارات في ارجاء السموات نورا وضياء ليهتدى بها في الظلمات وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص منها والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره كقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ولهذا قال ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون أي لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه وقوله وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الارض من الامور العجيبة والاشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ان في ذلك لآية لقوم يذكرون أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم) يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الامواج ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه وجعله السمك والحيتان فيه واحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والاحرام وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجها من قراره حلية يلبسونها وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه وقيل تمخر الرياح وكلاهما صحيح وقيل تمخره بحرها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد الى صنعتها وهداهم الى ذلك ارثا عن أبيهم نوح عليه السلام فانه أول من ركب السفن وله كان تعليم صنعتها ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل يسيرون من قطر الى قطر ومن بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم لجلب ما هنالك الى ما هنا وما هنا الى ما هنالك ولهذا قال تعالى ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون أي نعمه واحسانه وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سهل حدثنا ابن ابي صالح عن ابيه عن ابي هريرة قال كلم الله هذا البحر الغربي وكلم

(واذا مسكم الضر) يعني خوف الغرق (في البحر ضل من تدعون) من الآلهة وذهب عن خواطركم ولم يوجد لاغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر في حوادثكم (الا اياه) وحده فانكم تعقدون رجاءكم برحمته واغاثته والاستثناء متصل ان كان المراد بمن جميع الآلهة ومنقطع ان كان المراد بها غيره تعالى ومعنى الآية ان الكفار انما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم انها نافعة لهم في غير هذه الحالة فاما في هذه الحالة فان كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته ان الاصنام ونحوها لا فعل لها (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم (الى البر أعرضتم) عن الاخلاص لله وتوحيده ورجعتم الى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها (وكان الانسان كفورا) أي كثير الكفران لنعمة الله وهو تعليل لقوله أعرضتم والمعنى انهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله وفي الرخاء يعرضون عنه وترك فيه خطابهم تلطفا بهم حيث لم يقل وكنتم كفارا ثم أنكر عليهم سبحانه سوء معاملتهم قائلا (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الهمزة للانكار والتوبيخ والتقريع والفاء عاطفة على مقدر والتقدير أنجوتم من الغرق فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض فبين لهم انه قادر على اهلاككم في البر وان سلموا من البحر لان الجهات كلها له وفي قدرته برا كان أو بحرا يعني ان كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لانه يغيب تحت الثرى كما ان الغرق يغيب تحت الماء وأصل الخسف ان تنهار الارض بالشيء يقال بئر خسيف اذا انهدم أصلها وعين خاسف أي غائرة حدقتها في الرأس وخسفت عين الماء اذا غار ماؤها وخسفت الشمس اذا غابت عن الارض وجانب البر ناحية الارض وسماه جانبا لانه يصير بعد الخسف جانبا وأيضا فان البحر جانب من الارض والبر جانب وقيل انهم كانوا على ساحل البحر وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر وقال السمين المعنى جانب البر الذي أنتم فيه فيلزم من خسفه هلاككم ولولا هذا التقدير لم يكن في التوعد به فائدة انتهى وجملة هذه الافعال خمسة وكلها تقرأ بالياء ولا التفات حينئذ وبالنون التفاتا عن الغيبة الى التكلم والقراءتان سبعيتان (أو يرسل عليكم حاصبا) قال أبو عبيدة والقتيبي الحصب الرمي أي ريحا شديدة حاصبة وهي التي ترمي بالحصباء الصغار وقال الزجاج الحاصب التراب الذي فيه حصباء فالحاصب هو ذو الحصباء كاللابن والتامر

البحر الشرقي فقال للبحر الغربي انى حامل فيك عبادا من عبادى فكيف أنت صانع فيهم قال اغرقهم فقال بأسك فى نواحيك
واحملهم على يدى وحرمت الحلية والصيد وكلم هذا البحر الشرقي فقال انى حامل فيك عبادا من عبادى فما انت صانع بهم فقال
أحملهم على يدى وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد ثم قال البزار لانعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله
ابن عمرو وهو منكر الحديث وقد رواه سهل عن النعمان بن أبي عياش عن عبد الله بن أبي عمرو موقوفا ثم ذكر تعالى الارض
وما التى فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات لتقر الارض (٣٤٥) ولا تميد أى تضطرب بما عليها من الحيوانات
فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال والجبال أرساها وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة سمعت الحسن يقول لما خلقت الارض كانت تميد فقالوا ماهذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة ان الله لما خلق الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ماهذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحت صبحا وفيها رواسيها وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنى حجاج بن منهال حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حبيب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لما خلق الله الارض قمصت وقالت اى رب تجعل على بنى آدم يعملون الخطايا ويعملون على الخبث قالت فأرسى الله فيها من الجبال ماترون ومالا ترون فكان اقرارها كاللحم يترجرج وقوله وأنهارا وسبلا أى جعل فيها انهارا تجرى من كل مكان الى مكان آخر رزقا للعباد ينبع فى موضع

وهو رزق لاهل موضع آخر فيقطع البقاع والبرارى والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل الى البلد
الذى سخر لاهله وهى سائرة فى الارض يمنة ويسرة وجنوبا وشمالا وشرقا وغربا ما بين صغار وكبار وأودية تجرى حينا وتقطع فى وقت
وما بين نبع وجمع وقوى السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر فلا اله الا هو ولا رب سواه وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا
يسلك فيها من بلاد الى بلاد حتى انه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرا ومسلكا كما قال تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا
الآية وقوله وعلامات أى دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برا وبحرا اذا ضلوا الطرق وقوله

وقيل الحاصب حجارة من السماء قاله قتادة تحصبهم كما فعل بقوم لوط ويقال للسحابة التى ترمى بالبرد حاصب (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله (أم) متصلة أى أى الامرين كائن أو منقطعة أى بل (أمنتم ان يعيدكم فيه) أى فى البحر بأن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ركوبه وجاء بفى ولم يقل الى البحر للدلالة على استقرارهم فيه (تارة) أى مرة (أخرى) وهو مصدر ويجمع على تيرة وتارات وألفها واو أو ياء (فيرسل عليكم قاصفا من الريح) القاصف الريح الشديدة التى تكسر بشدة من قصف الشئ يقصفه من باب ضرب أى كسره بشدة والقصف الكسر أو هو الريح التى لها قصيف أى صوت شديد من قولهم رعد قاصف أى شديد الصوت وقال ابن عباس الريح التى تغرق وقال ابن عمر والقاصف والعاصف فى البحر (فيغرقكم) وقرئ بالفوقية على ان فاعله الريح (بما كفرتم) أى بسبب كفركم أو بالسبب الذى كفرتم به وما مصدرية أو بمعنى الذى (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى نصيرا قاله ابن عباس أو ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم قال الزجاج لا تجدوا من يتبعنا بانكار ما نزل بكم قال النحاس وهو من الثأر وكذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره تبيع وتابع (ولقد كرمنا) هذا اجمال لذكر النعمة التى أنعم الله على (بنى آدم) أى كرمناهم جميعا وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة والطهارة بعد الموت وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله وحكى ابن جرير عن جماعة ان هذا التكريم هو انهم يأكلون بأيديهم وسائر الحيوانات تأكل بالفم وكذا حكاه النحاس وقيل ميزهم بالنطق والعقل والتمييز وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن التقويم والتصوير وقيل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقال ابن جرير أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم فى أمر المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس ولا مانع من حمل التكريم على جميع هذه الاشياء وأعظم خصال التكريم العقل فانهم به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا فى المطاعم والمشارب وكسبوا الاموال التى تسببوا بها الى تحصيل أمور لا يقدر عليها سائر الحيوان وبه قدروا على تحصيل الابنية التى تمنعهم مما يخافون وعلى تحصيل

وبالنجم هم يهتدون أى فى ظلام الليل قاله ابن عباس وعن مالك فى قوله وعلامات وبالنجم هم يهتدون يقول النجوم وهى الجبال ثم نبه تعالى على عظمته وانه لا تنبغى العبادة الا له دون ما سواه من الاوثان التى لا تخلق شيأ بل هم يخلقون ولهذا قال أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم واحسانه اليهم فقال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم أى يتجاوز عنكم ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازى على (٣٤٦) اليسير وقال ابن جرير يقول ان الله لغفور لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك اذا تبتم وأنبتم الى طاعته واتباع مرضاته رحيم بكم لا يعذبكم بعد الانابة والتوبة (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون أموات غير احياء وما يشعرون ايان يبعثون) يخبر تعالى انه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم أخبر ان الاصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيأ وهم يخلقون كما قال الخليل أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون وقوله أموات غير أحياء أى هى جمادات لا ارواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل وما يشعرون أيان يبعثون أى لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء انما يرجى ذلك من الذى يعلم كل شئ وهو خالق كل شئ (الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) يخبر تعالى انه لا اله الا هو الواحد الاحد الفرد الصمد وأخبر ان الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك أجعل فانه الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وقال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون وقوله وهم مستكبرون أى عن عبادة الله مع انكار قلوبهم لتوحيده كما قال ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ولهذا قال ههنا لا جرم أى حقا ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء انه لا يحب المستكبرين (واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير

الاكسية التى تقيهم الحر والبرد وقيل تكريمهم هو أن جعل محمدا صلى الله عليه وآله وسلم منهم، وأخرج الطبرانى والبيهقى فى الشعب والخطيب فى تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من شئ أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال ولا الملائكة الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر وأخرج الطبرانى عن ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الملائكة قالت يارب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان (وحملناهم) هذا تخصيص وتأكيد لبعض أنواع التكريم حملهم سبحانه (فى البر) على الدواب كالابل والخيل والبغال والحمير (و) فى (البحر) على السفن وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلناهم قارين فيهما بواسطة أو دونها كما فى السباحة فى الماء (ورزقناهم من الطيبات) أى لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به وقيل المراد الزبد والتمر والحلوى وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل ان جميع الاغذية اما نباتية كالثمار والحبوب واما حيوانية كاللحم والسمن واللبن ولا يتغذى الانسان الا باطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الانسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) والاقرب فى الفرق بين التكريم والتفضيل ان يقال ان الله كرم الانسان على سائر الحيوان بامور خلقية طبعية ذاتية مثل العقل ثم عرفه بواسطته اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثانى هو التفضيل أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك ان بنى آدم فضلهم الله سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة وهو مسئلة تفضيل الملائكة على الانبياء والانبياء على الملائكة ومن جملة ما تمسك به مفضلو الانبياء عليهم السلام على الملائكة هذه الآية ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من اجمال الكثير وعدم تبيينه والتعصب فى هذه المسئلة هو الذى حمل بعض الاشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة وهو تعسف لا حاجة اليه وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء ولا دلالة لها على ذلك

علم ألا ساء ما يزرون) يقول تعالى واذا قيل لهؤلاء المكذبين ماذا أنزل ربكم قالوا معرضين عن الجواب أساطير الاولين أي لم ينزل شيأ انما هذا الذي يتلى علينا أساطير الاولين أي مأخوذ من كتب المتقدمين كما قال تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا أي يفترون على الرسول ويقولون اقوالا متضادة مختلفة كلها باطلة كما قال تعالى انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وذلك ان كل من خرج عن الحق فهما قال أخطأ وكانوا يقولون ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ثم استقر أمرهم الى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما فكر وقدر (٣٤٧) فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر أي ينقل ويحكى فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله قال الله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم أي انما قدرنا عليهم ان يقولوا ذلك ليحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم وخطيئة اغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ وقال تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم انها كقوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقال مجاهد يحملون أثقالهم وذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيأ (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين) قال العوفي عن ابن عباس في قوله قد مكر الذين من قبلهم قال هو النمروذ الذي بنى الصرح قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد نحوه وقال عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أول جبار كان في الارض النمروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعمائة سنة

فانه لم يقم دليل على ان الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد انه أفضل من بني آدم بل غاية ما فيه انه لم يكن الانسان مفضلا عليه فيحتمل أن يكون مساويا للانسان ويحتمل ان يكون أفضل منه ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال والتأكيد بقوله تفضيلا يدل على عظم هذا التفضيل وانه بمكان مكين فعلى بني آدم ان يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه (يوم) أي اذكر يوم (ندعو كل أناس بامامهم) قال الزجاج يعني يوم القيامة وقرئ يدعو بالتحتية ويدعى على المجهول والاناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخفيفا على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال والباء للالصاق كما تقول أدعوك باسمك ويجوز ان تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو كل أناس متلبسين بامامهم أي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب الامير بجنوده والاول أولى والامام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو الكتاب وقد اختلف المفسرون في تعيين الامام الذي يدعى كل أناس به فقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله أي يدعى كل انسان بكتاب عمله ويؤيد هذا قوله فأما من أوتي كتابه الآية وقال ابن زيد الامام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة وأهل الانجيل بالانجيل وأهل القرآن بالقرآن فيقال يا أهل التوراة يا أهل الانجيل يا أهل القرآن وقال مجاهد وقتادة امامهم نبيهم وعن أنس مثله فيقال هاتوا متبعي ابراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم وبه قال الزجاج وروي عن أبي هريرة مرفوعا أيضا فلينظر في سنده وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه المراد بالامام امام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بامامهم الذي كانوا يأتمرون بامره وينتهون بنهيه وقال الحسن وأبو هريرة وأبو العالية المراد بامامهم أعمالهم فيقال مثلا أين المجاهدون أين الصابرون أين الصائمون أين المصلون ونحو ذلك وقال أبو عبيدة المراد بامامهم صاحب مذهبهم فيقال مثلا أين التابعون للعالم فلان بن فلان وهذا من البعد بمكان وأبعد منه ما قال محمد بن كعب بامامهم بامهاتهم على ان اماما جمع أم كخف وخفاف وأيضا في هذا القول نظر فان في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان بن فلان أخرجه البخاري ومسلم وهذا دليل على ان الناس يدعون

فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته وهو الذي بنى الصرح الى السماء الذي قال الله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد وقال آخرون بل هو بختنصر وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا كما قال في سورة ابراهيم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال وقال آخرون هذا من باب المثل لابطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره كما قال نوح عليه السلام ومكروا مكرا كبارا أي احتالوا في اضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم الى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم اتباعهم يوم القيامة بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا (٣٤٨) الآية وقوله فأتى الله بنيانهم من القواعد أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله وقوله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار وقال الله ههنا فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم أي يظهر فضائحهم وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى يوم تبلى السرائر أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته فيقال هذه غدرة فلان بن فلان وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا هل ينصرونكم أو ينتصرون فاذا

باسمائهم وأسماء آبائهم ويرد على من قال انما يدعون باسماء آبائهم وباسماء امهاتهم لان في ذلك سترا على آبائهم ولذا قال الزمخشري ومن بدع التفاسير ان الامام جمع أم وانهم يدعون بامهاتهم دون آبائهم وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا يفتضح أولاد الزنا وقال القرطبي قيل بعذا هبهم فيدعون بما كانوا يأتون به في الدنيا او يقلدونه فيقال يا حنفي يا شافعي يا معتزلي يا قدري ونحو ذلك وهذا كالاول بل أبعد منه وقيل كل خلق حسن يظهر من الانسان كالعلم والكرم والشجاعة أو قبيح كأضدادها فالداعي الى تلك الافعال خلق باطن هو كالامام ذكره الرازي في تفسيره وعن ابن عباس قال بامامهم امام هدى وامام ضلالة وعنه أيضا بامام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم وأخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية انه قال يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا قال فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه فيقول أبعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا قال البزار بعد اخراجه لا يروى الا من هذا الوجه (فمن أوتي كتابه بيمينه) من أولئك المدعوين وهم السعداء أولوا البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير (فأولئك) اشارة الى من باعتبار معناه قيل وجه الجمع الاشارة الى انهم مجتمعون على شأن جليل أو الاشعار بان قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد (يقرؤن كتابهم) الذي أوتوه (ولا يظلمون فتيلا) أي لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة او هو عبارة عن أقل شئ وفي النواة أمور ثلاثة فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولا والقطمير وهو قشرة النواة والنقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحا ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال (ومن كان) من المدعوين (في هذه) الدنيا (أعمى) أي فاقد

الله من قوة ولا ناصر فاذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار البصيرة قال الذين أوتوا العلم وهم السادة في الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة فيقولون حينئذ ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين أي الفضيحة والعذاب المحيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة اليهم لقبض أرواحهم فألقوا السلم أي أظهروا السمع

والطاعة والانقياد قائلين ما كنا نعمل من سوء كما يقولون يوم المعاد والله ربنا ما كنا مشركين يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما
يحلفون لكم قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى
المتكبرين أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم
مماتهم بأرواحهم ويأتي أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها فاذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في
نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كما قال الله تعالى (٣٤٩) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم
الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) هذا خبر عن السعداء بخلافه عن الاشقياء فان أولئك قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا معرضين عن الجواب لم ينزل شيأ انما هذا أساطير الاولين وهؤلاء قالوا خيرا أي انزل خيرا أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة الآية كقوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله اليه عمله في الدنيا والآخرة ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في
الدنيا كقوله وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير الآية وقال تعالى وما عند الله خير للابرار وقال تعالى والآخرة خير وأبقى
وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم وللآخرة خير لك من الاولى ثم وصف الدار الآخرة فقال ولنعم دار المتقين وقوله جنات عدن بدل من
دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها تجري من تحتها الانهار أي بين أشجارها وقصورها لهم فيها ما يشاؤن
كقوله تعالى وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون وفي الحديث ان السحابة لتمر بالملا من أهل الجنة وهم جلوس
على شرابهم فلا يشتهي أحد منهم شيأ الا أمطرته عليه حتى ان منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أترابا فيكون ذلك كذلك يجزي الله

البصيرة وهو الذي يعطى كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ولعل
العدول عن ذكره بذلك العنوان مع انه الذي يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع في
سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى وأما ان كان من
المكذبين الضالين الخ بعد قوله وأما ان كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق
الاول وقد ذكر في أحد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على
المتروك في الآخر تعويلا على شهادة العقل كما في قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له
الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله ذكره أبو السعود قال النيسابوري لا خلاف ان المراد
بهذا العمى عمى القلب لا عمى البصر وأما قوله (فهو في الآخرة) التي لم تعاين ولم تر
(أعمى) فيحتمل ان يراد به عمى البصر كقوله ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني
أعمى وقد كنت بصيرا وفي هذا زيادة العقوبة ويحتمل ان يراد عمى القلب وقيل المراد بالآخرة
عمل الآخرة فهو في عمل الآخرة أو في أمرها أعمى وقيل المراد من عمي عن النعم التي أنعم
الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة
أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله أعمى فهو في
الآخرة أعمى وقد قيل ان قوله فهو في الآخرة أعمى أفعل تفضيل أي أشد عمى وهذا
مبني على انه من عمى القلب اذ لا يقال ذلك في عمى العين قال الخليل وسيبويه لانه خلقه
بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه وقال الاخفش لا يقال فيه ذلك لانه
أكثر من ثلاثة أحرف وقد حكى الفراء عن بعض العرب انه سمعه يقول ما أسود شعره
والبحث مستوفى في النحو (وأضل سبيلا) من الاعمى لكونه لا يجد طريقا الى الهداية
بخلاف الاعمى فانه قد يهتدي في بعض الاحوال قال ابن عباس من كان في الدنيا أعمى عما
يرى من قدرتي من خلق السماء والارض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه ذلك
فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأبعد حجة ثم لما عدد سبحانه في الآية المتقدمة
أقسام النعم على بني آدم أردفه بما يجري مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الاشقياء فقال
(وان كادوا ليفتنونك) المعنى ان الشأن انهم قد قاربوا ان يخدعوك فاتنين وأصل الفتنة
الاختبار ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حده وجهته
(عن الذي أوحينا اليك) من الاوامر والنواهي والوعد والوعيد (لتفتري علينا غيره)

المتقين أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وان الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم وقد قدمنا الاحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٣٥٠﴾ فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) يقول تعالى مهددا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء الا الملائكة ان تأتيهم لقبض أرواحهم قاله قتادة أو يأتي أمر ربك أي يوم القيامة وما يعاينوه من الاهوال وقوله كذلك فعل الذين من قبلهم أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال وما ظلمهم الله لانه تعالى أعذر اليهم وأقام حججه عليهم بارسال رسله وانزال كتبه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤا به فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك وحاق بهم أي أحاط بهم من العذاب الاليم ما كانوا به يستهزؤن أي يسخرون من الرسل اذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة هذه النار التي كنتم بها تكذبون (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين) يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه

اي لتتقول وتكذب علينا غير الذي أوحينا اليك مما اقترحه علينا كفار قريش ولم نقله وذلك لان في اعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك وعن ابن عباس قال ان أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالا من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب اسلامهم فرق لهم فأنزل الله هذه الآية وعن جابر بن عبد الله مثله وعن سعيد بن جبير قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستلم الحجر فقالوا لا ندعك تستلم حتى تستلم بآلهتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافه فأنزل الله وان كادوا ليفتنونك الآية وعن ابن شهاب نحوه وعن جبير بن نفير ان قريشا أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا ان كنت أرسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن اليهم فأوحى الله اليه هذه الآية وقال الجلال السيوطي وغيره ان ثقيفا سألوه صلى الله عليه وآله وسلم ان يحرم واديهم وألحوا عليه فنزلت هذه الآية (واذن لاتخذوك خليلا) أي لو اتبعت أهواءهم لوالوك ووافوك وصافوك مأخوذ من الخلة بفتح الخاء (ولولا أن ثبتناك) على الحق وعصمناك من موافقتهم (لقد كدت تركن اليهم) أي لقاربت ان تميل اليهم أدنى ميل والركون هو الميل اليسير ولهذا قال (شيأ قليلا) لكن أدركته صلى الله عليه وآله وسلم العصمة فمنعته من ان يقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا دليل على انه صلى الله عليه وآله وسلم ما هم باجابتهم ذكره القشيري وغيره والنظم صريح في انه لم يركن أي باللازم ولا قارب أي بمنطوق التركيب وذلك لان لولا حرف امتناع لوجود فالترتيب يدل على امتناع القرب من الركون واذا امتنع القرب منه امتنع هو بالضرورة وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازا واتساعا كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ذكره المهدوي ثم توعده سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال (اذن) أي لو قاربت ان تركن اليهم (لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أي مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين والمعنى عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات

من تلقاء أنفسهم مالم ينزل الله به سلطانا ومضمون كلامهم انه لو كان تعالى كارها لما فعلنا لانكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه قال الله تعالى رادا عليهم شبههم فهل على الرسل الا البلاغ المبين أى ليس الامر كما تزعمون انه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ونهاكم عنه آكد النهى وبعث فى كل امة أى فى كل قرن وطائفة من الناس رسولا وكلهم يدعو الى عبادة الله وينهى عن عبادة ماسواه ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فلم يزل تعالى يرسل الى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل اليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله الى أهل الارض الى ان ختمهم (٣٥١) بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى طبقت دعوته الانس والجن فى المشارق والمغارب وكلهم كما قال الله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون وقوله تعالى واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فكيف يسوغ لاحد من المشركين بعد هذا ان يقول لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لانه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدرا فلا حجة لهم فيها لانه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ثم انه تعالى قد أخبر انه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد انذار الرسل فلهذا قال فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها فقال ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ثم أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان حرصه على هدايتهم لا ينفعهم اذا كان الله قد أراد اضلالهم كقوله تعالى ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ وقال نوح لقومه ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم وقال فى هذه الآية الكريمة ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل كما قال الله من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون وقال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقوله فان الله أى شأنه وأمره انه ماشاء كان ومالم يشأ

الممات أى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وأضيفت وذلك لان خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وضعف الشئ مثلاه وقد يكون الضعف النصيب كقوله لكل ضعف أى نصيب قال الرازى حاصل الكلام انك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) ينصرك فيدفع عنك ويمنع منك هذا العذاب قال النيسابورى اعلم ان القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الاقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن فى العصمة (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) الكلام فى هذا كالكلام فى ان كادوا ليفتنونك أى وان الشأن انهم قاربوا ان يزعجوك بعداوتهم ومكرهم من أرض مكة لتخرج عنها ولكنه لم يقع ذلك منهم بل منعهم الله عنه حتى هاجر بامر ربه بعد ان هموا به والاستفزاز الازعاج وقيل انه أطلق الاخراج على ارادة الاخراج تجوزا قال سعيد بن جبير قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت الانبياء تسكن الشام فمالك وللمدينة فهم ان يشخص فانزل الله وان كادوا الآية (واذن لا يلبثون خلافك) أى لا يبقون بعد اخراجك (الا) لبثا أو زمنا (قليلا) حتى يهلكوا ثم يعاقبون عقوبة تستأصلهم جميعا قال ابن عباس يعنى بالقليل يوم أخذهم ببدر فكان ذلك هو القليل الذى لبثوا بعده قال ابن الانبارى خلافك بمعنى مخالفتك وقال قتادة هم أهل مكة باخراج النبى صلى الله عليه وآله وسلم منها وقد فعلوا بعد ذلك فاهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده الا قليلا وكذلك كانت سنة الله فى الرسل اذ فعل بهم قومهم مثل ذلك (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى سن الله سنة قال الفراء أى يعذبون كسنة من قد أرسلنا وقيل المعنى سنتنا سنة من قد أرسلنا وقيل اتبع أنت سنة من وقال الزجاج يقول ان سنتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك اليهم انهم اذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه ان ينزل العذاب بهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره ولما ذكر سبحانه الالهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات وهى الصلاة فقال (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أجمع

لم يكن فلهذا قال لا يهدى من يضل أي من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله أي لا أحد وما لهم من ناصرين أي ينقذونهم من عذابه
ووثاقه ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر
الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون)
يقول تعالى مخبرا عن المشركين انهم حلفوا فاقسموا بالله جهد ايمانهم أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الايمان على انه لا يبعث الله
من يموت أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل (٣٥٢) في اخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه فقال تعالى مكذبا لهم ورادا
عليهم بلى أي بلى سيكون ذلك وعدا عليه حقا أي لا بد منه ولكن أكثر الناس لا يعلمون أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الاجساد يوم التناد فقال ليبين لهم أي للناس الذي يختلفون فيه أي من كل شيء ويجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين أي في أيمانهم واقسامهم لا يبعث الله من يموت ولهذا يدعون يوم القيامة الى نار جهنم دعا ويقول لهم الزبانية هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وانه لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء وانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون كما يشاء والمعاد من ذلك كقوله وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقال ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال في هذه الآية الكريمة انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون أي ان نأمر به مرة واحدة فاذا هو كائن كما قال الشاعر

اذا ما أراد الله أمرا فانما * يقول له كن قوله فيكون

أي انه تعالى لا يحتاج الى تأكيد فيما يأمر به فانه تعالى لا يمانع ولا يخالف لانه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته
كل شيء فلا اله الا هو ولا رب سواه وقال ابن أبي حاتم ذكر الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني عطاء انه
سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك فاما تكذيبه اياي فقال

المفسرون على ان المراد بها الصلوات المفروضة وقد اختلف العلماء في الدلوك على قولين أحدهما انه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وجابر والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر الباقر وأكثر التابعين واختاره ابن جرير والقول الثاني انه غروب الشمس قاله علي وابن مسعود وأبي بن كعب وروي عن ابن عباس وبه قال النخعي ومقاتل والسدي قال الفراء دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها قال الازهري معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لانها في الحالتين زائلة قال والقول عندي انه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس وأصل هذه المادة أي ما تركب من الدال واللام والكاف يدل على التحول والانتقال ومنه الدلك فان الدالك لا تستقر يده ومنه دلوك الشمس ففي الزوال انتقال من وسط السماء الى ما يليه وكذا كل ما تركب من الدال واللام بقطع النظر عن آخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل والانتقال فيه من مكان الى مكان آخر ودلح بالحاء المهملة اذا مشى مشيا متثاقلا ودلع بالعين المهملة اذا أخرج لسانه ودلف بالفاء اذا مشى مشي المقيد أو بالقاف لاخراج الماء من مقره ودله اذا ذهب عقله ففيه انتقال معنوي وقال أبو عبيد دلوكها غروبها ودلكت براح أي غابت وبراح اسم من أسماء الشمس على وزن حذام وقطام وعن ابن عمر قال دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار وعن ابن عباس قال اذا فاء الفيء وعن عقبة بن عمرو مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر الحديث أخرجه ابن جرير وعن أبي برزة الاسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي الظهر اذا زالت الشمس ثم تلا أقم الصلاة لدلوك الشمس والحاصل أن اللفظ يجمعهما الا أن أصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها كما ذكروا وعلى الثاني يخرج الظهر والعصر وفي هذه اللام وجهان أحدهما انها بمعنى بعد ومثله قولهم كتبته لثلاث خلون والثاني انها على بابها أي لاجل دلوك قال الواحدي لانها انما تجب بزوال الشمس وفيه ثلاثة أقوال أشهرها انه الزوال وهو نصف النهار والثاني انه من الزوال الى الغروب والثالث انه الغروب (الى

غـق

وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت قال قلت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون وأما شتمه اياى فقال ان الله ثالث ثلاثة وقلت قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هكذا ذكره موقوفا وهو في الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والاخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين (٣٥٣) اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم الى بلاد الحبش ليتمكنوا من عبادة ربهم ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الاسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة بالحسنة في الدنيا والآخرة فقال لنبوئنهم في الدنيا حسنة قال ابن عباس والشعبي وقتادة المدينة وقيل الرزق الطيب قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين فانهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرا منها في الدنيا فان من ترك شيأ لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فانهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكاما وكل منهم للمتقين اماما وأخبر ان ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال ولأجر الآخرة أكبر أي مما أعطيناهم في الدنيا لو كانوا يعلمون أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم قرأ هذه الآية لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ثم وصفهم تعالى فقال الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) قال الضحاك عن

غسق الليل) أي اجتماع الظلمة قاله ابن عباس وقال الفراء والزجاج يقال غسق الليل وأغسق اذا أقبل بظلامه وقيل مغيب الشفق وهذا يتناول المغرب والعشاء والجار متعلق بأقم لانتهاء غاية الاقامة أو أقمها ممدودة اليه قاله أبو البقاء وفيه نظر من حيث انه قدر المتعلق كونا مقيدا الا ان يريد تفسير المعنى لا الاعراب والغسق دخول أول الليل قاله ابن شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته وأصله من السيلان يقال غسقت العين أي سال دمعها فكأن الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم ويقال غسق الجرح امتلأ دما فكأن الظلمة ملأت الوجود والمراد في قوله من شر غاسق القمر اذا كسف واسود وقيل الليل والغساق بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار ويقال غسق الليل وأغسق وظلم وأظلم ودجا وأدجى وغبش وأغبش نقله الفراء قاله السمين وقد استدل بهذه الغاية من قال ان صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال الى الغروب روى ذلك عن الاوزاعي وأبي حنيفة وجوزه مالك والشافعي في حال الضرورة وقد وردت الاحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تعيين أوقات الصلوات فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك ومعنى الآية أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس الى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما العشاآن ثم قال (وقرآن الفجر) عطف على الصلاة أي أقمه قاله الفراء وقال الاخفش وتبعه أبو البقاء وعليك قرآن الفجر وأصول البصريين تأبى هذا لان أسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقيل الزم قرآن الفجر قال المفسرون المراد به صلاة الصبح عبر عنها ببعض أركانها قال الزجاج وفي هذه فائدة عظيمة تدل على ان الصلاة لا تكون الا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا وهو حجة على الاصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن وقد دلت الاحاديث الصحيحة على انه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب وفي بعض الاحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة أو سميت صلاة الصبح قرآنا لطول قراءتها وقد حرره الشوكاني في مؤلفاته تحريرا مجودا ثم علل سبحانه ذلك بقوله (ان قرآن الفجر كان مشهودا) اى تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الآتي وبذلك قال جمهور المفسرين فينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار وقال الشهاب أي الكاتبون والحفظة أو يشهده

ابن عباس لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أومن أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس الآية وقال وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون يعني أهل الكتب الماضية أبشرا كانت الرسل اليهم أم ملائكة فان كانوا ملائكة أنكرتم وان كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا قال تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى ليسوا من أهل السماء كما قلتم وكذا روى (٣٥٤) عن مجاهد عن ابن عباس ان المراد بأهل الذكر أهل الكتاب وقاله مجاهد والاعمش وقول عبد الرحمن ابن زيد الذكر القرآن واستشهد بقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون صحيح لكن ليس هو المراد ههنا لان المخالف لا يرجع في اثباته بعد انكاره اليه وكذا قول أبي جعفر الباقر نحن أهل الذكر ومراده ان هذه الامة أهل الذكر صحيح فان هذه الامة أعلم من جميع الامم السالفة وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء اذا كانوا على السنة المستقيمة كعلي وابن عباس وابني علي الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس وأبي جعفر الباقر وهو محمد ابن علي بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعرف لكل ذي حق حقه ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع عليه قلوب عباده المؤمنين والغرض ان هذه الآية الكريمة أخبرت بان الرسل الماضين قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بشرا كما هو بشر كما قال تعالى قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا حقه رسولا وقال تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وقال تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين وقال قل ما كنت بدعا من الرسل وقال تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرا الى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الانبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشرا أو ملائكة ثم ذكر تعالى انه أرسلهم بالبينات أي بالحجج والدلائل والزبر وهي الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك

الكثير من المصلين في العادة والاول أولى وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها وهو في الصحيحين عنه مرفوعا بلفظ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا وفي الباب أحاديث قال الرازي وهذا دليل قاطع قوي على ان التغليس أفضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الاسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت ان قوله يعني هذه الآية دليل على أن الصلاة في أول وقتها أفضل انتهى (ومن الليل فتهجد به) في من وجهان أحدهما انها متعلقة بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل والثاني انها متعلقة بمحذوف أي قم بعد نومك نومة من الليل أو اسهر من الليل ذكرهما الحوفي ومن للتبعيض اي قم بعض الليل والضمير المجرور راجع الى القرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر ففي الكلام استخدام وقيل التقدير بذلك الوقت والباء بمعنى في قاله السمين ولو قال من بمعنى في لكان أوضح وما قيل من انه منتصب على الاغراء والتقدير وعليك بعض الليل فبعيد جدا والتهجد مأخوذ من الهجود وقال أبو عبيدة وابن الاعرابي هو من الاضداد لانه يقال هجد الرجل اذا نام وهجد اذا سهر وقال الازهري الهجود في الاصل هو النوم بالليل ولكن التفعل فيه لاجل التجنب ومنه تأثم وتحرج أي تجنب الاثم والحرج فالمتهجد من تجنب الهجود فقام بالليل وروى عنه أيضا المتهجد القائم الى الصلاة من الليل هكذا حكى عنه الواحدي فقيد التهجد بالقيام من النوم وهكذا قال مجاهد وعلقمة والاسود فقالوا التهجد بعد النوم قال الليث يقال تهجد اذا استيقظ للصلاة (نافلة لك) معناها في اللغة الزيادة على الاصل فالمعنى انها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نافلة زائدة على الفرائض والامر بالتهجد وان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للامر وقيل المراد بالنافلة هنا انها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في

وغيرهم والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب اذا كتبته وقال تعالى وكل شئ فعلوه في الزبر وقال ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون ثم قال تعالى وأنزلنا اليك الذكر يعني القرآن لتبين للناس مانزل اليهم أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له لعلمنا بانك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ماأجمل وتبين لهم ماأشكل ولعلهم يتفكرون أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين (أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث (٣٥٥) لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم) يخبر تعالى عن حلمه وانظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون اليها ويمكرون بالناس في دعائهم اياهم وحملهم عليها مع قدرته على ان يخسف بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أي من حيث لا يعلمون مجيئه اليهم كقوله تعالى أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير وقوله أو يأخذهم في تقلبهم أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها من اسفار ونحوها من الاشغال الملهية قال قتادة والسدي تقلبهم أي اسفارهم وقال مجاهد والضحاك وقتادة في تقلبهم في الليل والنهار كقوله أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون اوأمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون وقوله فما هم بمعجزين أي لايعجزون الله على أي حال كانوا عليه وقوله أو يأخذهم على تخوف أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم فانه يكون أبلغ وأشد فان حصول مايتوقع مع الخوف شديد ولهذا قال العوفي عن ابن عباس أو يأخذهم على تخوف يقول ان شئت آخذ على أثر موت صاحبه ويخوف بذلك وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم ثم قال تعالى فان ربكم لرؤف رحيم أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت في الصحيحين لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وفيهما ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد وقال تعالى وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والى المصير (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين

حقه صلى الله عليه وآله وسلم ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة وقيل كانت صلاة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وآله وسلم ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا وعلى هذا يحمل ماورد في الحديث انها عليه فريضة ولأمته تطوع قال الواحدي ان صلاة الليل كانت زيادة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات لانه قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا انما نعمل لكفارتها قال وهو قول جميع المفسرين والحاصل ان الخطاب في هذه الآية وان كان خاصا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله أقم الصلاة فالامر له أمر لأمته فهو شرع عام ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل فانه يعم جميع الامة والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب فالتهجد من الليل مندوب اليه ومشروع لكل مكلف وأخرج البيهقي في سننه والطبراني في الاوسط عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ثلاث هن على فرائض وهن لكم سنة الوتر والسواك وقيام الليل ثم وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على اقامة الفرائض والنوافل فقال (عسى ان يبعثك ربك) قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع (مقاما محمودا) نصب على الظرفية اي يبعثك فيقيمك في الآخرة مقاما محمودا ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف اي ذا مقام محمود ومعنى كون المقام محمودا انه يحمده كل من علم به وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال الاول انه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه وهذا القول هو الذي دلت عليه الادلة الصحيحة في تفسير الآية وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل قال الواحدي واجماع المفسرين على ان المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء القول الثاني ان المقام المحمود اعطاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لواء الحمد يوم القيامة ويمكن ان يقال ان هذا لا ينافي القول الاول اذ لا منافاة بين كونه قائما مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد الثالث ان المقام المحمود هو ان الله سبحانه يجلس محمدا صلى الله عليه وآله وسلم معه على كرسيه حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد وقد ورد في ذلك حديث وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني انه قال من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم مازال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث قال ابن عبد البر مجاهد وان كان أحد الأئمة بالتأويل فان له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا والثاني في تأويل وجوه

والشمائل سجدا لله وهم داخرون ۝ ولله يسجد ما في السموت وما في الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون ۝ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ودانت له الاشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الانس والجن والملائكة فاخبر أن كل ماله ظل يتفيؤ ذات اليمين وذات الشمال أي بكرة وعشيا فانه ساجد بظله لله تعالى قال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عزوجل وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم وقوله وهم داخرون أي صاغرون وقال مجاهد أيضا سجود كل شيء فيؤه (٣٥٦) وذكر الجبال قال سجودها فيؤها وقال أبو غالب الشيباني أمواج البحر صلاته ونزلهم منزلة من يعقل اذ اسند السجود اليهم فقال ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة كما قال ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال وقوله والملائكة أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته يخافون ربهم من فوقهم أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ويفعلون ما يؤمرون أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره وترك زواجره

(وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياي فارهبون ۝ وله ما في السموات والارض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون ۝ وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ۝ ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ۝ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) يخبر تعالى انه لا اله الا هو وانه لا تنبغي العبادة الا له وحده لا شريك له فانه مالك كل شيء وخالقه وربه وله الدين واصبا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد اى دائما وعن ابن عباس أيضا اى واجبا وقال مجاهد اى خالصا له اى له العبادة وحده ممن في السموات والارض كقوله أفغير دين الله يبغون وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون هذا على قول ابن عباس وعكرمة فيكون من باب الخبر واما على قول مجاهد فانه يكون من باب الطلب اى ارهبوا ان تشركوا بي شيأ واخلصوا لي الطاعة كقوله تعالى ألا لله الدين الخالص ثم أخبر انه مالك النفع والضر وان ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم واحسانه اليهم ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون اى لعلمكم انه لا يقدر على ازالته الا هو فانكم عند الضرورات تلجؤن اليه وتسألونه وتلحون

يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة قال معناه ينتظر الثواب وليس من النظر انتهى وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الاول لامكان ان يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجلسني معه على السرير وينبغي الكشف عن اسناد هذا الحديث وقال ابن مسعود يقعده على العرش رواه أبو وائل وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسي والاحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة الرابع انه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ذكره صاحب الكشاف والمقتدون به في التفسير ويجاب عنه بان الاحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة فالمصير اليها متعين وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومعنى قوله مطلق في كل ما يجلب الحمد انه عام في كل ما هو كذلك ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق كما ذكره في ذبح البقرة ولهذا قال هنا وقيل المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله يعني لفظ المقام والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف فلا نطيل بذكره واخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسئل عنه يعني المقام فقال هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لامتي وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله ان أقول فذلك المقام المحمود والاحاديث في هذا الباب كثيرة جدا ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الامهات وغيرها

(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) قرئ بضم الميمين وبفتحهما وهما مصدران بمعنى الادخال والاخراج فهما كالمجرى والمرسى والاضافة الى الصدق لاجل المبالغة نحو حاتم الجواد أي ادخالا يستأهل أن يسمى ادخالا ولا يرى فيه ما يكره وقال الواحدي اضافتهما الى الصدق مدح لهما وكل شيء أضفته الى الصدق فهو مدح وقد اختلف المفسرون في معنى الآية فقيل نزلت حين أمر صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة واختاره ابن جرير وهذا يقتضي ان الآية مكية

في الرغبة مشتغلين به كقوله تعالى واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا
وقال ههنا ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم قيل اللام ههنا لام العاقبة وقيل لام
التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وانه المسدي اليهم النعم الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلا
فتمتعوا أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا فسوف تعلمون أي عاقبة ذلك (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسئلن
عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر (٣٥٧) أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى
من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه
على هون أم يدسه في التراب الا ساء
ما يحكمون للذين لا يؤمنون
بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى
وهو العزيز الحكيم) يخبر تعالى عن
قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله
غيره من الاصنام والاوثان والانداد
بغير علم وجعلوا للاوثان نصيبا مما
رزقهم الله فقالوا هذا لله بزعمهم
وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم
فلا يصل الى الله وما كان لله فهو
يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون
أي جعلوا لآلهتهم نصيبا مع الله
وفضلوها على جانبه فاقسم الله تعالى
بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك
الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم
عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار
جهنم فقال تالله لتسئلن عما كنتم
تفترون ثم أخبر تعالى عنهم انهم
جعلوا الملائكة الذين هم عباد
الرحمن اناثا وجعلوها بنات الله
فعبدوها معه فأخطؤا خطأ كبيرا
في كل مقام من هذه المقامات الثلاث
فنسبوا اليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له
ثم أعطوه أخس القسمين من الاولاد
وهو البنات وهم لا يرضونها
لانفسهم كما قال ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى وقوله ههنا ويجعلون لله البنات سبحانه أي عن قولهم وافكهم ألا انهم
من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون وقوله ولهم ما يشتهون أي يختارون
لانفسهم الذكور ويأنفون لانفسهم من البنات التي نسبوها الى الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا فانه اذا بشر أحدهم بالانثى ظل
وجهه مسودا اى كئيبا من الهم وهو كظيم ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن يتوارى من القوم أي يكره ان يراه الناس من سوء
ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب اى ان أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها أم يدسه

مع انها آخر الثمان المدنيات لكن البيضاوي مشى على ان السورة كلها مكية وحكى (١)
الاستثناء الذي ذكره الجلال بقيل وعليه فلا اشكال ومن المعلوم ان ادخاله المدينة بعد
اخراجه من مكة وانما قدمه عليه اهتماما بشأنه ولانه هو المقصود وقيل المعنى أمتني اماتة
صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق وقيل المعنى أدخلني فيما أمرتني به وأخرجني
مما نهيتني عنه وقيل ادخاله موضع الامن واخراجه من بين المشركين وهو كالقول الاول
وقيل المراد ادخال عز واخراج نصر وقيل أدخلني في الامر الذي كرمتني به من النبوة
مدخل صدق وأخرجني منه اذا أمتني مخرج صدق وقيل أدخلني القبر عند الموت مدخل
صدق وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق وقيل أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق
وأخرجني بالصدق وقيل الآية عامة في كل ما يتناوله من الامور فهي دعاء ومعناها رب
أصلح لي وردي في كل الامور وصدري عنها (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة
ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقيل اجعل لي من لدنك ملكا وعزا قويا أقيم
به دينك وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم علم انه لا طاقة له بهذا الامر الا بسلطان فسأل سلطانا
نصيرا وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير وقال ابن كثير هو الارجح لانه لابد مع
الحق من قهر لمن عاداه وناواه ولهذا يقول تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم
الله من ينصره ورسله بالغيب وفي الاثر ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أي ليمنع
بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيرا من الناس بالقرآن وما فيه من
الوعيد الشديد والتهديد الاكيد وهذا هو الواقع انتهى وقيل وعده الله لينزعن ملك فارس
والروم وغيرهما فيجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على
الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض الآية
وقد كان كما وعد ولله الحمد (وقل) عند دخولك مكة يوم الفتح (جاء الحق وزهق الباطل)
المراد بالحق الاسلام وقيل القرآن وقيل الجهاد ولا مانع من حمل الآية على جميع
ذلك وعلى ما هو حق كائنا ما كان والمراد بالباطل الشرك وقيل الشيطان ولا يبعد أن
يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل ومعنى زهق بطل واضمحل ومنه
زهوق النفس وهو بطلانها وخروجها ومنه قوله تعالى وتزهق أنفسهم وهم كافرون

(١) حيث قال سورة بني اسرائيل مكية وقيل الا قوله وان كادوا ليفتنونك الى آخر ثمان آيات اه منه

فى التراب أى يئدها وهو ان يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية أفمن يكرهونه هذه الكراهة و يأنفون لانفسهم عنه يجعلونه لله ألا ساء ما يحكمون أى بئس ما قالوا و بئس ما قسموا و بئس ما نسبوه اليه كقوله تعالى واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم وقوله ههنا للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء أى النقص انما ينسب اليهم ولله المثل الاعلى أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب اليه وهو العزيز الحكيم (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون (٣٥٨) ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون) يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وانه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الارض من دابة اى لأهلك جميع دواب الارض تبعا لاهلاك بنى آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر وينظر الى أجل مسمى أى لا يعاجلهم بالعقوبة اذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا قال سفيان الثورى عن أبى اسحق عن أبى الاحوص انه قال كاد الجعل ان يعذب بذنب بنى آدم وقرأ الآية ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة وكذا روى الاعمش عن أبى اسحق عن أبى عبيدة قال قال عبد الله كاد الجعل ان يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم وقال ابن جرير حدثنى محمد بن المثنى حدثنا اسمعيل ابن حكيم الخزاعى حدثنا محمد بن جابر الحنفى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه قال فالتفت اليه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين أنبأنا الوليد بن عبد الملك حدثنا عبيد الله بن شرحبيل حدثنا سليمان بن عطاء عن سلمة بن عبد الله عن عمه أبى مشجعة ابن ربعى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله لا يؤخر شيأ اذا جاء أجله وانما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر وقوله ويجعلون لله ما يكرهون اى من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون ان يكون عند أحدهم شريك له فى ماله وقوله وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى انكار عليهم فى دعواهم مع ذلك ان لهم الحسنى فى الدنيا وان كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى واخبار عن قيل من

قال الشاعر

المت فحيت ثم قامت فودعت * فلما تولت كادت النفس تزهق

(ان الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا زائلا يعنى ان هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت والحق ثابت دائما وذلك ان الباطل وان كان له دولة وصولة فى وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب والزوال وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود فى يده و يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وجاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد حتى سقطت وفى الباب أحاديث (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من لابتداء الغاية قاله أبو حيان ويصح أن تكون لبيان الجنس قاله الزمخشرى وابن عطية وأبو البقاء فان جميع القرآن شفاء وقدم على المبين للاهتمام وأبو حيان ينكر جوازه لان التى للبيان لابد أن يتقدمها ما تبينه لا ان تتقدم هى عليه فالمختار هو الاول وقيل للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه ان بعضه لا شفاء فيه ورده ابن عطية بان المبعض هو انزاله واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على قولين الاول أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الامور الدالة على الله سبحانه الثانى انه شفاء عن الامراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيرا من الادواء والاسقام يدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه (ورحمة للمؤمنين) لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ولما فى تلاوته وتدبره من الاجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ومثل هذه الآية قوله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى والحاصل ان القرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق وابطال المذاهب الفاسدة فهو شفاء لامراض القلوب وتكفير للذنوب وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وفى الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله ثم لما ذكر سبحانه ما فى القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن عاداهم من المضرة عليهم فقال (ولا يزيد) القرآن كله أو كل بعض منه (الظالمين) الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب

قال منهم كقوله ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ وقوله أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا وقال اخبارا عن أحد الرجلين انه دخل جنته وهو ظالم لنفسه فقال ما أظن أن تبيد هذه ابدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بان يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل كما ذكر ابن اسحق انه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها (٣٥٩) مكتوب عليه حكم ومواعظ فمن ذلك تعملون السيئات وتجزون الحسنات أجل كما يجتنى من الشوك العنب وقال مجاهد وقتادة وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى اى الغلمان وقال ابن جرير ان لهم الحسنى اى يوم القيامة كما قدمنا بيانه وهو الصواب ولله الحمد ولهذا قال تعالى رادا عليهم في تمنيهم لا جرم أى حقا لابد منه ان لهم النار اى يوم القيامة وانهم مفرطون قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وعن قتادة ايضا مفرطون أى معجلون الى النار من الفرط وهو السابق الى الورد ولا منافاة لانهم يعجل بهم يوم القيامة الى النار وينسون فيها أى يخلدون

(تالله لقد أرسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) يذكر تعالى انه ارسل الى الامم الخالية رسلا فكذبت الرسل فلك يا محمد في اخوانك من المرسلين اسوة فلا يهمدنك تكذيب قومك لك واما المشركون الذين كذبوا الرسل فانما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم فهو وليهم اليوم أى هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصا ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم ثم قال تعالى لرسوله انه انما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه وهدى اى للقلوب ورحمة اى لمن تمسك به لقوم يؤمنون وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الارض بعد موتها بما أنزل عليها من السماء من ماء ان في ذلك لآية لقوم يسمعون اى يفهمون الكلام

والارتياب موضع اليقين والاطمئنان (الا خسارا) اى هلاكا لان سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة ارتكاب القبائح تمردا وعنادا فعند ذلك يهلكون وقيل الخسار النقص كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد الا قام عنه بزيادة أو نقصان ثم نبه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة فقال (واذا أنعمنا على) جنس (الانسان) بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والسعة والغنى والفراغ (أعرض) عن الشكر لله والذكر له (ونأى بجانبه) أى ثنى عطفه متبخترا والنأي البعد والباء للتعدية أو للمصاحبة وهو تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشئ أهوان يوليه عرض وجهه اى ناحيته والنأي بالجانب ان يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره ولا يبعد ان يراد بالاعراض هنا الاعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم وقرئ ناء مثل باع على القلب قال مجاهد نأى تباعد (واذا مسه الشر) من شدة أو مرض أو فقر أو نازلة من النوازل (كان يؤسا) شديد اليأس قنوطا من رحمة الله هذا وصف للجنس باعتبار بعض افراده ممن هو على هذه الصفة والمعنى انه ان فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود وان فاته شئ من ذلك وتأخرت الاجابة استولى عليه الاسف وغلب عليه القنوط ويئس وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية ولا يبعد أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه (قل كل) أى كل أحد (يعمل على شاكلته) التي جبل عليها قال الفراء الشاكلة الطريقة وقيل الناحية قاله ابن عباس وقيل الطبيعة وقيل الدين وقيل النية قاله الحسن وبه فسرها البخاري في كتاب التفسير وقيل الجبلة وأحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري انها مذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطرق التي تشعبت منه وهي مأخوذة من الشكل وهو المثل والنظير يقال لست على شكلي ولا على شاكلتي وأما الشكل بالكسر فهو الهيئة يقال جارية حسنة الشكل أو الشاكلة الروح والمعنى ان كل انسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها أو على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت

ومعناه (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ان في ذلك لآية لقوم يعقلون) يقول تعالى وان لكم أيها الناس في الانعام وهي الابل والبقر والغنم لعبرة أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه نسقيكم مما في بطونه أفرده ههنا عوداً على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان فان الانعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان وفي الآية الاخرى مما في بطونها ويجوز هذا وهذا كما في قوله تعالى كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره وفي قوله تعالى واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان أي المال وقوله من بين فرث ودم لبناً خالصاً أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كل الى موطنه اذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منها دم الى العروق ولبن الى الضرع وبول الى المثانة وروث الى المخرج وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به وقوله لبناً خالصاً سائغاً للشاربين أي لا يغص به أحد ولما ذكر اللبن وانه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الاشربة من ثمرات النخيل والاعناب وما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر قبل تحريمه ولهذا امتن به عليهم فقال ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً دل على اباحته شرعاً قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء وكذا حكم سائر الاشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك كما قال ابن عباس في قوله سكراً ورزقاً حسناً قال السكر ما حرم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس والخل ونبيذ الذي حلال يشرب قبل ان يشتد كما وردت السنة بذلك ان في ذلك لآية لقوم يعقلون ناسب ذكر العقل ههنا فانه أشرف ما في الانسان ولهذا حرم الله على هذه الامة الاشربة المسكرة صيانة لعقولها قال الله تعالى وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل

عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن (فربكم أعلم بمن هو أهدى) لانه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم وأهدى من اهتدى على حذف الزوائد أو من هدى المتعدي أو من هدى القاصر بمعنى اهتدى و(سبيلا) تمييز أي أوضح طريقاً وأحسن مذهباً وأشد اتباعاً للحق ثم لما انجر الكلام الى ذكر الانسان وما جبل عليه ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال (ويسئلونك عن الروح) قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته وبهذا قال أكثر المفسرين قال الفراء الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله به سبحانه أحداً من خلقه ولم يعط علمه أحداً من عباده وقيل الروح المسؤول عنه جبريل وقيل عيسى وقيل القرآن وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق وقيل خلق كخلق بني آدم وقال بعضهم هو الدم ألا ترى الانسان اذا مات لا يفوت منه شيء الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء والظاهر هو القول الاول وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية وبيان السائلين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح ثم الظاهر ان السؤال عن حقيقة الروح لان معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله ثم أمره سبحانه ان يجيب عن السائلين له عن الروح فقال (قل الروح) أظهر في مقام الاضمار اظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربي) من بيانية والامر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمي لا الايجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاشياء التي لم يعلم بها عباده وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة أيضاً وقيل المعنى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وايضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتسع له المقام وغالبه بل كله من الفضول

ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) المراد بالوحي هنا الالهام والهداية والارشاد للنحل ان تتخذ من الجبال بيوتا تأوي اليها ومن الشجر ومما يعرشون ثم هي محكمة في غاية الاتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ثم أذن لها تعالى اذنا قدريا تسخيريا ان تأكل من كل الثمرات وان تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والاودية والجبال الشاهقة ثم يعود كل واحدة منها الى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل الى بيتها وما لها فيه من فرخ وعسل (٣٦١) فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها ثم تصبح الى مراعيها وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فاسلكي سبل ربك ذللا أي مطيعة فجعلاه حالا من السالكة قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون قال ألا ترى انهم ينقلون النحل ببيوته من بلد الى بلد وهو يصحبهم والقول الاول هو الاظهر وهو انه حال من الطريق أي فاسلكيها مذللة لك نص عليه مجاهد وقال ابن جرير كلا القولين صحيح وقد قال أبو يعلى الموصلي حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا مسكين بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر الذباب أربعون يوما والذباب كله في النار الا النحل وقوله تعالى يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الالوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها وقوله فيه شفاء للناس أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم قال بعض من تكلم على الطب النبوي لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ولكن قال فيه شفاء للناس أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشيء يداوى بضده قال مجاهد وابن جرير في قوله فيه شفاء للناس يعني القرآن وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية فان الآية انما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا وانما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وقوله تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين والدليل على ان المراد بقوله تعالى فيه شفاء للناس هو العسل

الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا وقد حكى بعض المحققين ان أقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية عشر مائة قول فانظر الى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد ان علموا ان الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا اذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث على حقيقته فضلا عن اممهم المقتدين بهم فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول الى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسئلة مما أذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه وقد عجزت الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه أعجز ولذا ارد ما قيل في حده قديما وحديثا ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو خطاب لليهود خاصة والاول أولى ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا والمعنى ان علمكم الذي علمكم الله ليس الا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سبحانه وان أوتيتم حظا من العلم وافرا بل علم الانبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه الا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام وعبارة الخازن ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فوصف الشيء بالقلة بالنسبة الى ما فوقه وبالكثرة الى ما تحته انتهى أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح فقال بعضهم لا تسألوه فقالوا يا محمد ما الروح فما زال متكئا على العسيب فظننت انه يوحى اليه فقال ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الآية وأخرج أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن المنذر وابن حبان في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود اعطونا شيأ نسأل هذا الرجل قالوا سلوه عن الروح فنزلت هذه الآية قالوا أوتينا علما كثيرا أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا فأنزل الله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي الآية وفي الباب أحاديث وآثار ولما بين سبحانه انه ما آتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال (ولئن) اللام هي الموطئة الدالة على القسم

الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلا فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله سقيته عسلا مازاده الا استطلاقا قال اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله مازاده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا فذهب فسقاه فبرأ قال بعض العلماء بالطب كان هذا الرجل عنده فضلات فلما (٣٦٢) سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده اسهالا فاعتقد الاعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لاخيه ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الاسقام والآلام ببركة اشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الحلواء والعسل هذا لفظ البخاري وفي صحيح البخاري من حديث سالم الافطس عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أوشربة عسل أوكية بنار وانهى أمتي عن الكي وقال البخاري حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة سمعت جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان كان في شئ من أدويتكم أو يكون في شئ من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أوشربة عسل أولذعة بنار توافق الداء وما أحب ان اكتوي ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر وقال الامام أحمد بعضهم حدثنا علي بن اسحق أنبأنا عبد الله أنبأنا سعيد بن أبي أيوب حدثنا عبد الوليد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر الجهني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ان كان في شئ شفاء فشرطة محجم أوشربة عسل أوكية تصيب المأ وأنا أكره الكي ولا أحبه رواه الطبراني عن هرون بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقري عن عبد الرحمن بن الوليد به ولفظه ان كان في شئ شفاء فشرطة محجم ذكره وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه وقال الامام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه

المقدر أي والله لئن (شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) وبقيت كما كنت ماتدري ما الكتاب وهذا جواب القسم وجواب الشرط محذوف أي ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم قال الزجاج أي لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثرا انتهى وعبر عن القرآن بالموصول تفخيما لشأنه (ثم لا تجد لك به) بالقرآن (علينا وكيلا) أي من يتوكل علينا في رد شئ منه بعد ان ذهبنا به ويتعهد ويلتزم استرداده بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه (الا رحمة من ربك) الاستثناء فيه قولان أحدهما انه متصل لان الرحمة تندرج في قوله وكيلا بمعنى الا رحمة فانها ان نالتك فلعلها تسترده عليك والثاني انه منقطع فمعناه لكن لانشاء ذلك رحمة من ربك أولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به ولكن أبقيناه الى قرب قيام الساعة فعند ذلك يرفع ويقدر الا بلكن عند البصريين وببل عند الكوفيين وقد أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود قال ان هذا القرآن سيرفع قيل كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف قال يسرى عليه في ليلة واحدة فلا تترك منه آية في قلب ولا مصحف الا رفعت فتصبحون وليس فيكم منه شئ ثم قرأ هذه الآية وقد روي هذا عنه وعن جمع من الصحابة موقوفا ومرفوعا (ان فضله كان عليك كبيرا) حيث جعلك رسولا وانزل عليك الكتاب وألقى عليك القرآن والعلم وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم الله به عليك ثم احتج سبحانه على المشركين باعجاز القرآن فقال (قل لئن) اللام لام قسم وفيه ماتقدم (اجتمعت الانس والجن) وكذا الملائكة وانما لم يذكروا لان التحدي ليس معهم والتصدي لمعارضته لا يليق بشأنهم (على ان يأتوا بمثل هذا القرآن) المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال الفصاحة ونهاية البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ (لا يأتون بمثله) أظهر في مقام الاضمار ولم يكتف بأن يقول لا يأتون به على ان الضمير راجع الى المثل المذكور لدفع توهم ان يكون له مثل معين وللاشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان وهو جواب قسم محذوف أو جواب للشرط واعتذر واعن رفعه بأن الشرط ماض والاول أظهر ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها أحدهم على الانفراد أو كان المتصدي لها المجموع بالمظاهرة فقال (ولو كان

حدثنا علي بن سلمة هو التغلبي حدثنا زيد بن حباب حدثنا سفيان عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله هو ابن مسعود
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالشفاءين العسل والقرآن وهذا اسناد جيد تفرد باخراجه ابن ماجه مرفوعا وقد
رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفا وله شبه وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
رضي الله عنه انه قال اذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته
درهما عن طيب نفس منها فليشتر به عسلا فليشربه كذلك فانه (٣٦٣) شفاء من وجوه قال الله تعالى وننزل من القرآن
ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا وقال فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا وقال في العسل فيه شفاء للناس وقال ابن ماجه أيضا حدثنا محمود بن خداش حدثنا سعيد بن زكريا القرشي حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء الزبير بن سعيد متروك وقال ابن ماجه أيضا حدثنا ابراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي حدثنا عمرو ابن بكر السكسكي حدثنا ابراهيم ابن أبي عبلة سمعت أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليكم بالسنا والسنوت فان فيهما شفاء من كل داء الا السام قيل يا رسول الله وما السام قال الموت قال عمرو قال ابن أبي عبلة السنوت الشبت وقال آخرون بل هو العسل الذي في زقاق السمن وهو قول الشاعر

هم السمن بالسنوت لا ألس فيهم * وهم يمنعون جارهم ان يقردا كذا رواه ابن ماجه

وقوله لا ألس فيهم أي لا خلط وقوله يمنعون جارهم ان يقردا أي يذل وقوله ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون أي ان في الهام الله
لهذه الدواب الضعيفة الخلقة الى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الاشياء
لآية لقوم يتفكرون في عظم خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على انه القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم
(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير) يخبر تعالى عن تصرفه

بعضهم لبعض ظهيرا) أي عونا ونصيرا في تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله فثبت انهم
لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن
غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض وقد تقدم وجه
الاعجاز في أوائل سورة البقرة وفي هذه الآية رد لما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا
واكذاب لهم عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمود بن سيحان
ونعمان بن آصى وبحري بن عمرو وسلام بن مشكم فقالوا أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئت به
أحق من عند الله فانا لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة فقال لهم والله انكم لتعرفونه انه
من عند الله قالوا انا نجيئك بمثل ما تأتي به فأنزل الله تعالى هذه الآية فالقرآن كلام الله في
اعلى طبقات البلاغة والفصاحة لا يشبه كلام الخلق لانه كلام الخالق وهو غير مخلوق
ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله وهو معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب ثم بين سبحانه
ان الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم ايمانهم فقال (ولقد صرفنا
للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي رددنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير
والبيان وكررنا بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب
والاوامر والنواهي وأقاصيص الاولين والجنة والنار والقيامة وقيل من كل معنى هو
كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعا في الانفس والاول أولى (فأبى أكثر الناس)
يعني من أهل مكة (الا كفورا) فانهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد
قيام الحجة عليهم واقترحوا من الآيات ما ليس لهم وأظهر في مقام الاضمار حيث قال فأبى
أكثر الناس تأكيدا وتوضيحا ولما كان أبى مؤولا بالنفي أي ما قبل أو لم يرض صح
الاستثناء منه (وقالوا) أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان
والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت
اليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات وقالوا
(لن نؤمن لك) ثم علقوا نفي ايمانهم بغاية طلبوها فقالوا (حتى تفجر لنا من الارض)
أي مكة (ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء قرئ تفجر مخففا ومشددا وهما
سبعيتان ولم يختلفوا في فتفجر الانهار أنها مشددة باتفاق السبعة ووجه ذلك أبو حاتم بان
الاولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الانهار وهي جمع وأجيب عنه بأن

فى عباده وانه الذى أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلقة كما قال الله تعالى الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة الآية وقد روى عن على رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوة والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال لكيلا يعلم بعد علم شيأ أى بعدما كان عالما أصبح لايدرى شيأ من الخرف ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا هرون بن موسى أبو عبد الله الاعور عن شعيب عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات وقال زهير بن أبى سلمة فى معلقته المشهورة

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين عاما لاأبالك يسأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون) يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء وهم يعترفون انها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم لبيك لاشريك لك الاشريكا هو لك تملكه وماملك فقال تعالى منكرا عليهم أنتم لاترضون ان تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الالهية والتعظيم كما قال فى الآية الاخرى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم الآية قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى فذلك قوله أفبنعمة الله يجحدون وقال فى الرواية الاخرى عنه فكيف ترضون لى مالاترضون لانفسكم وقال مجاهد فى هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة وقال قتادة هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد شاركه مملوكه فى زوجته وفى فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده فان لم ترض لنفسك هذا فالله أحق ان ينزه منك وقوله أفبنعمة الله يجحدون أى انهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فجحدوا انعمته وأشركوا معه غيره وعن الحسن البصرى قال كتب عمر

الينبوع وان كان واحدا فى اللفظ فالمراد به الجمع فان الينبوع العيون التى لا ينضب ماؤها ويرد بأن الينبوع عين الماء والجمع ينابيع وانما يقال للعين ينبوع اذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع وهو يفعول من نبع الماء والياء زائدة كيعبوب من عب الماء قال مجاهد ينبوعا عيونا وعن السدى الينبوع هو النهر الذى يجرى من العين (أو تكون لك جنة) أى بستان تستر أشجاره أرضه وقال ابن عباس جنة ضيعة والمعنى هب انك لاتفجر الانهار لاجلنا فتفجرها من أجلك بأن تكون لك جنة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) أى تجريها بقوة (خلالها) أى وسط الجنة (تفجيرا) كثيرا وتشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) أى قطعا قاله ابن عباس قرأ مجاهد أو تسقط مسندا الى السماء وقرأ من عداه أو تسقط على الخطاب أى أو تسقط أنت يا محمد السماء والكسف بفتح السين جمع كسفة والكسفة القطعة من الشئ قاله الجوهرى يقال اعطنى كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف أى اسقاطا مماثلة كما زعمت يعنون بذلك قول الله سبحانه ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء قال أبو على الكسف بالسكون الشئ المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ماقال من كسفت الثوب كسفا اذا قطعته وقال الزجاج من كسفت الشئ اذا غطيته كأنه قيل أو تسقطها طبقا طبقا علينا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى حال كونهم مقابلين بفتح الباء ومرئيين لنا فالقبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر اختلف المفسرون فى معنى قبيلا فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج واختاره أبو على الفارسى فقال اذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدرا كالنكير والنذير وقيل معناه كفيلا بما تدعيه قاله الضحاك وقيل شهيدا قاله مقاتل وقيل هو جمع القبيلة أى تأتى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء (أو يكون لك بيت من زخرف) أى من ذهب قاله ابن عباس وبه قرأ ابن مسعود وأصله الزينة والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه وقال الزجاج هو الزينة فرجع الى أصل معنى الزخرف وهو بعيد لانه يصير المعنى أو يكون لك بيت من زينة (أو ترقى فى السماء) أى حتى تصعد فى معارجها والرقى الصعود يقال رقيت فى السلم اذا صعدت من باب تعب وارتقيت مثله ويقال رقى بكسر القاف يرقى بالفتح رقيا على فعول والاصل رقوى وبالكسر فى المحسوسات كالشئ وأما فى المعانى فهو من باب سعى يقال رقى فى الخير والشر يرقى فى الماضى والمضارع وأما رقى

المريض

طاب رضي الله عنه هذه الرسالة الى أبي موسى الاشعري واقنع برزقك من الدنيا فان الرحمن فضل بعض عباده على بعض في رزق بلاء يبتلي به كلا فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله ورواه ابن ابي حاتم (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) يذكر تعالى نعمه على عبيده بان جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم ولو جعل الازواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ولكن من رحمته خلق من بني آدم (٣٦٥) ذكورا واناثا وجعل الاناث أزواجا للذكور ثم ذكر تعالى انه جعل من الازواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بنين وحفدة هم الولد وولد الولد وقال سنيد حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال قال بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك قال جميل

حفد الولائد حولهن وأسلمت ... بأكفهن أزمة الاجمال

وقال مجاهد بنين وحفدة ابنه وخادمه وقال في رواية الحفدة الانصار والاعوان والخدام وقال طاوس وغير واحد الحفدة الخدم وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة انه قال الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك قال الضحاك انما كانت العرب يخدمها بنوها وقال العوفي عن ابن عباس قوله وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ويقال الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل يقال فلان يحفد لنا قال وزعم رجال ان الحفدة أختان الرجل وهذا الاخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي ورواه عكرمة عن ابن عباس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هم الاصهار قال ابن جرير وهذه الاقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت واليك نسعى ونحفد ولما كانت الخدمة قد تكون من الاولاد والخدم والاصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة قلت فمن جعل وحفدة متعلقا بأزواجكم فلابد ان يكون المراد الاولاد

المريض بمعنى عوذه فهو من باب رمى يقال رقاه يرقيه اذا عوذه وتلا عليه شيئا من القرآن (ولن نؤمن لرقيك) أي لاجل رقيك أو به فاللام للتعليل أو بمعنى الباء وهو مصدر نحو مضى يمضي مضيا وهوى يهوي هويا (حتى تنزل علينا كتابا) يصدقك ويدل على نبوتك (نقرؤه) جميعا أو يقرؤه كل واحد منا وقيل معناه كتابا من الله الى كل واحد منا كما في قوله بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة قال مجاهد يعنون كتابا من رب العالمين الى فلان بن فلان تصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها فأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأتي بما يفيد التعجب من قولهم والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال (قل) وفي قراءة سبعية قال (سبحان ربي) تعجب عما تقدم أو عن ان يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة (هل كنت الا بشرا) من البشر لا ملكا حتى أصعد السماء (رسولا) كسائر الرسل مأمورا من الله سبحانه بابلاغكم فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الامور ان بشرا اقدر على شيء منها وان أردتم اني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي فالرسول اذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك لان بها يتبين صدقه ولا ضرورة الى طلب الزيادة وأنا عبد مأمور ليس لي ان أتحكم على ربي بما ليس بضروري ولا دعت اليه حاجة ولو لزمتني الاجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات وطلب لنفسه اظهار آيات فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا وتنزه عن تعنتاتهم وتقدس عن اقتراحاتهم وقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها وليست بدون ما اقترحوه بل أعظم منه ولكن لم يكن قصدهم طلب الدليل بل كانوا متعنتين ثم حكى سبحانه شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لايرادها وردها في غير موضع فقال (وما منع الناس ان يؤمنوا) المراد الناس على العموم وقيل أهل مكة على الخصوص أي ما منعهم الايمان بالقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (اذ جاءهم الهدى) أي الوحي من الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبين ذلك لهم وأرشدهم اليه أي ما منعهم وقت مجيء الهدى ان يؤمنوا بالقرآن والنبوة (الا ان قالوا) أي ما منعهم الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) الهمزة للانكار منهم ان يكون الرسول من جنس البشر والمعنى ان هذا الاعتقاد الشامل لهم هو الذي منعهم

وأولاد الاولاد والاصهار لانهم أزواج البنات وأولاد الزوجة وكذا قال الشعبي والضحاك فانهم يكونون غالبا تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكثم والولد عبد لك رواه أبو داود وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده انه معطوف على قوله والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا أي جعل لكم الازواج والاولاد خدما وقوله ورزقكم من الطيبات أي من المطاعم والمشارب ثم قال تعالى منكرا على من أشرك في عبادة المنعم غيره أفبالباطل يؤمنون وهم الانداد والاصنام وبنعمة الله هم يكفرون (٣٦٦) أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها الى غيره وفي الحديث الصحيح ان الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون) يقول تعالى اخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع انه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لاشريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الاصنام والانداد والاوثان مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ أي لا يقدر على انزال مطر ولا انبات زرع ولا شجر ولا يملكون ذلك أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال تعالى فلا تضربوا لله الامثال أي تجعلون له أندادا وأشباها وأمثالا ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون أي انه يعلم ويشهد انه لا اله الا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) قال العوفي عن ابن عباس هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله الا كل غبي قال الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) قال مجاهد وهذا أيضا المراد به الوثن والحق تعالى يعني ان الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء

عن الايمان بالكتاب وبالرسول وعبر عنه بالقول للاشعار بانه ليس الا مجرد قول قالوه بأفواههم ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال (قل لو كان) أي لو وجد وثبت (في الارض) بدل من فيها من البشر (ملائكة يمشون) على الاقدام كمشي الانس (مطمئنين) مستقرين فيها ساكنين بها قال الزجاج مستوطنين في الارض أي لا يظعنون عنها الى السماء ومعنى الطمأنينة السكون فالمراد ههنا المقام والاستيطان فانه يقال سكن البلد فلان اذا أقام فيها وان كان ماشيا متقلبا في حاجاته (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) حتى يكون من جنسهم ويمكنهم مخاطبته والفهم عنه وفيه اعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي ان يكونوا من جنس المرسل اليهم فكأنه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين الاول كون سكان الارض ملائكة والثاني كونهم ماشين على الاقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم الى السماء اذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا تكون في بعثة الملائكة اليهم فائدة ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد فقال (قل) لهم يا محمد من جهتك (كفى بالله) وحده (شهيدا) على ابلاغي اليكم ما أمرني به من أمور الرسالة وقال (بيني وبينكم) ولم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة الكلية وقيل ان اظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصدق ثم علل كونه سبحانه شهيدا كافيا بقوله (انه كان بعباده خبيرا) أي عالما بجميع أحوالهم محيطا بظواهرها وبواطنها (بصيرا) بما كان منها وما يكون وفيه تهديد لهم وتسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ثم بين سبحانه ان الاقرار والانكار مستندان الى مشيئته فقال (ومن يهد الله) أي من يرد الله هدايته (فهو المهتد) الى الحق أو الى كل مطلوب وافرد الضمير حملا على لفظ من (ومن يضلل) أي يرد اضلاله (فلن تجد) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له (لهم) جمع الضمير حملا على معنى من (أولياء) ينصرونهم ويهدونهم الى الحق الذي أضلهم الله عنه والى طريق النجاة (من دونه) أي من دون الله سبحانه (ونحشرهم يوم القيامة) ماشين (على وجوههم) هذا الحشر فيه وجهان للمفسرين الاول انه عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم من قول العرب قد مر القوم على وجوههم اذا أسرعوا الثاني انهم يسحبون يوم القيامة

ولا يقدر على شئ بالكلية فلا مقال ولا فعال وهو مع هذا كل أى عيال وكلفة على مولاه اينما يوجهه اى يبعثه لا يأت بخير ولا ينجح
مسعاه هل يستوى من هذه صفاته ومن يأمر بالعدل اى بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة وهو على صراط مستقيم وقيل الابكم
مولى لعثمان وبهذا قال السدى وقتادة وعطاء الخراسانى واختار هذا القول ابن جرير وقال العوفى عن ابن عباس هو مثل للكافر
والمؤمن ايضا كما تقدم وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا يحيى بن اسحق السكحينى (٣) حدثنا حماد حدثنا عبد الله
ابن عثمان بن خثيم عن ابراهيم عن عكرمة عن يعلى بن امية عن ابن عباس (٣٦٧) فى قوله ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على
شئ قال نزلت فى رجل من قريش وعبده يعنى قوله عبدا مملوكا الآية وفى قوله وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم الى قوله وهو على صراط مستقيم قال هو عثمان بن عفان قال والابكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤنة وكان الآخر يكره الاسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما (ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شئ قدير والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الاشياء فى علمه غيب السموات والارض واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لاحد على ذلك الا ان يطلعه تعالى على ما يشاء وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمانع وانه اذا أراد
شيأ فانما يقول له كن فيكون كما قال وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر أى فيكون ما يريد كطرف العين وهكذا قال ههنا وما أمر
الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شئ قدير كما قال ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ثم ذكر تعالى منته على
عباده فى اخراجه اياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيأ ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذى به يدركون الاصوات والابصار التى بها
يحسون المرئيات والافئدة وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الاشياء ضارها
ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للانسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده وانما

القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى اهانته وتعذيبه وهذا هو الصحيح لقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم ولما صح فى السنة فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم وأخرج أبو داود والترمذى وحسنه والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف مشاة وصنف ركبانا وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم أما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك والحدب ما ارتفع من الارض وفى الباب أحاديث (عميا وبكما وصما) النصب على الحال والابكم الذى لا ينطق والاصم الذى لا يسمع أى لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون وهذه هيئة يبعثون عليها فى أقبح صورة وأشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم وقد أثبت الله تعالى لهم الرؤية والكلام والسمع فى قوله ورأى المجرمون النار وقوله دعوا هنالك ثبورا وقوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالمعنى هنا عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يلذ مسامعهم وقيل هذا حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون وقيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد اليهم هذه الاشياء بعد ذلك ثم من وراء ذلك (مأواهم) أى المكان الذى يأوون اليه (جهنم) مستأنفة أو حال من الضمير قال ابن عباس يعنى انهم وقودها (كلما خبت) أى سكن لهبها بان أكلت جلودهم ولحومهم يقال خبت النار تخبو خبوا اذا خمدت وسكن لهبها اراد السمين فاذا ضعف جمرها خمدت فاذا طفئت بالجملة قيل همدت وكلاهما من باب قعد قال ابن قتيبة معنى (زدناهم سعيرا) تسعرا وهو التلهب والتوقد اى فتعود ملتهبة ومتسعرة فانهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الاعادة والافناء وقد قيل ان فى خبو النار تخفيفا لعذاب أهلها فكيف يجمع بينه وبين قوله لا يخفف عنهم العذاب وأجيب بان المراد بعدم التخفيف انه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان فى ايلامهم لان الله تعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه ارادت ان تخبو وقيل معناه كلما نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا

(٣) قوله ابن اسحق السكحينى هكذا فى الاصل وحرره اهـ

جعل تعالى هذه في الانسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء في صحيح البخاري
عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يقول تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب وما تقرب الي عبدي بشيء
أفضل من اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي
يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن دعاني لأجيبنه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا
فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره (٣٦٨) مساءته ولا بد له منه فمعنى الحديث ان العبد اذا أخلص الطاعة

صارت أفعاله كلها لله عز وجل فلا يسمع الا لله ولا يبصر الا لله أي ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشي الا في طاعة الله عز وجل مستعينا بالله في ذلك كله ولهذا جاء في رواية بعض الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولهذا قال تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون كقوله في الآية الاخرى قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون قل هو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون ثم نبه تعالى عباده الى النظر الى الطير المسخر بين السماء والارض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والارض في جو السماء ما يمسكه هناك الا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك كما قال تعالى في سورة الملك أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير وقال ههنا

ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا علم

تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالا
وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون
فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده
بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون اليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع وجعل لهم أيضا من جلود

عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم (ذلك) العذاب المذكور (جزاؤهم) الذي أوجبه الله اليهم واستحقوه عنده (بأنهم كفروا بآياتنا) أي بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) الهمزة للانكار وقد تقدم تفسير هذه الآية في هذه السورة (أئنا لمبعوثون) أي مخلوقون (خلقا جديدا) مصدر من غير لفظه أو حال أي مخلوقين مستأنفين فجاءهم سبحانه بحجة تدفعهم عن الانكار وتردهم عن الجحود فقال (أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم) اي من هو قادر على خلقها في عظمها وشدتها فهو على اعادة ما هو أدون منه في الصغر والضعف أقدر وقيل المراد انه قادر على افنائهم وايجاد غيرهم من الانس قال الكرخي أراد بمثلهم اياهم فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين الاعادة مثل الابتداء وذلك ان مثل الشيء مساو له في حاله فجاز ان يعبر عن الشيء نفسه يقال مثلك لا يفعل كذا اي أنت لا تفعله أو انه تعالى قادر على ان يخلق عبيدا يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله يأت بخلق جديد ويستبدل قوما غيركم وعلى القول الاول يكون الخلق بمعنى الاعادة وعلى هذا القول هو على حقيقته والمعنى قد علموا بدليل العقل ان من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم لانهم ليسوا بأشد خلقا منها كما قال أأنتم أشد خلقا أم السماء قال الواحدي والاول أشبه (وجعل لهم) اي لبعثهم (أجلا) اي وقتا محققا لعذابهم (لا ريب) اي غير مرتاب (فيه) وهو الموت او القيامة ويحتمل ان يكون الواو للاستئناف وقيل في الكلام تقديم وتأخير اي أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على ان يخلق مثلهم (فأبى الظالمون الا كفورا) اي ابى المشركون الا جحودا للاجل وعنادا مع وضوح الدليل وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب اجراء العيون والانهار في أراضيهم لتتسع معايشهم بين الله سبحانه انهم لا يقنعون بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال (قل) لهم شرحا لحالهم التي يدعون خلافها (لو أنتم تملكون) تقديره لو تملكون أنتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلا بد من فعل بعدها وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الاعراب وأما ما يقتضيه

الانعام بيوتا أى من الأدم يستخفون حملها فى أسفارهم ليضربوها لهم فى اقامتهم فى السفر ولهذا قال تستخفونها يوم ظعنكم و يوم اقامتكم ومن أصوافها أى الغنم وأوبارها أى الابل وأشعارها أى المعز والضمير عائد على الانعام أثاثا أى تتخذون منه أثاثا وهو المال وقيل المتاع وقيل الثياب والصحيح أعم من هذا كله فانه يتخذ من الاثاث البسط والثياب وغير ذلك و يتخذ مالا وتجارة وقال ابن عباس الاثاث المتاع وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والضحاك وقتادة وقوله الى حين أى الى أجل مسمى وقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا قال قتادة يعنى الشجر وجعل لكم من الجبال أكنانا أى حصونا ومعاقل كما جعل لكم سرابيل تقيكم الحر وهى الثياب من القطن والكتان والصوف وسرابيل تقيكم بأسكم كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك كذلك يتم نعمته عليكم أى هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون اليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته لعلكم تسلمون هكذا فسره الجمهور وقرؤه بكسر اللام من تسلمون أى من الاسلام وقال قتادة فى قوله كذلك يتم نعمته عليكم هذه السورة تسمى سورة النعم وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس انه كان يقرؤها تسلمون بفتح اللام يعنى من الجراح رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من وجهين بوروده هذه القراءة وقال عطاء الخراسانى انما نزل القرآن على قدر معرفة العرب الاترى الى قوله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال ألاترى الى قوله ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ألاترى الى قوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه الاترى الى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وما يقى من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر وقوله فان تولوا أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم فانما عليك البلاغ المبين وقد أديته اليهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها أى

علم البيان فهو ان فى حذف الفعل الذى ارتفع به أنتم وابراز الكلام فى صورة المبتدا والخبر دلالة على انهم هم المختصون بالشح المتبالغ فلا ينافى قوله تعالى لو ان لهم ما فى الارض جميعا الآية لان ذلك فى الآخرة (خزائن رحمة ربى) هى خزائن الارزاق (اذا لامسكتم) أى لبخلتم وحبستم فى دار الدنيا قال الزجاج أعلمهم الله انهم لو ملكوا خزائن الارزاق والنعم لامسكوا شحا وبخلا (خشية الانفاق) أى خشية ان ينفقوا فيفتقروا قال أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى قل ماله فيكون المعنى لأمسكتم خشية قلة المال وخوف نفاده وذهابه بالانفاق (وكان الانسان قتورا) اى بخيلا ممسكا مضيقا عليه يقال قتر على عياله يقتر قترا وقتورا ضيق عليهم من النفقة وقيل معنى قتورا قليل المال والظاهر ان المراد المبالغة فى وصفه بالشح لان الانسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال الا ان يراد ان جميع النوع الانسانى قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده وقد اختلف فى هذه الآية على قولين أحدهما انها نزلت فى المشركين خاصة وبه قال الحسن والثانى انها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى علامات واضحات دالة على نبوته قيل و وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ان المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الامور التى اقترحها كفار قريش بل أقوى منها فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات الا لعدم المصلحة فى استئصالهم ان لم يؤمنوا بها قال أكثر المفسرين الآيات التسع هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل وقال محمد بن كعب القرظى هى الخمس التى فى الاعراف والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى وعن ابن عباس فى تسع آيات مثل ما ذكرناه عن أكثر المفسرين وعنه قال يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وعن صفوان بن عسال ان يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبى نسأله فأتياه فسألاه عن هذه الآية فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسرفوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء الى السلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة أو قال لا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة ان لا تعتدوا فى السبت فقبلا يديه

يعرفون ان الله تعالى هو المسدي اليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق الى غيره وأكثرهم الكافرون كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن مجاهد ان اعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والله جعل لكم من بيوتكم سكنا فقال الاعرابي نعم قال وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا الآية قال الاعرابي نعم ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الاعرابي نعم حتى بلغ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (٢٧٠) فولى الاعرابي فأنزل الله يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها الآية (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة انه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ثم لا يؤذن للذين كفروا أي في الاعتذار لانهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فلهذا قال ولا هم يستعتبون واذا رأى الذين ظلموا أي الذين أشركوا العذاب فلا يخفف عنهم أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا هم ينظرون أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فانه اذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرق عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد الا جثا لركبتيه فتقول اني وكلت بكل جبار عنيد الذي وأخرجه جعل مع الله الها آخر وكذا وكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء في الحديث ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا وقال تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا وقال تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم

ورجليه وقالا نشهد انك نبي الله قال فما يمنعكما ان تسلما قالا ان داود دعا الله ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف ان أسلمنا تقتلنا اليهود أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والطبراني وابن قانع والبيهقي وغيرهم وعلى هذا المراد بالآيات الاحكام العامة الثابتة في كل الشرائع سميت بذلك لانها تدل على حال من يتعاطى متعلقاتها في الآخرة من السعادة والشقاوة وقوله عليكم يا يهود الخ كلام مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام (فاسأل) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بني اسرائيل اذ جاءهم) أي حين جاءهم موسى وقرئ فسأل أي سأل موسى فرعون ان يخلي بني اسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه وعلى الاول السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والايقان لان الادلة اذا تظافرت كان ذلك أقوى والمسؤلون مؤمنو بني اسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه (فقال له فرعون) الفاء هي الفصيحة أي فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون (اني لأظنك يا موسى مسحورا) المسحور هو الذي سحر فخولط عقله وقيل هو المخدوع وقيل هو المطبوب وقال أبو عبيدة والفراء هو بمعنى الساحر فوضع المفعول موضع الفاعل (قال) موسى (لقد علمت) يا فرعون (ما أنزل) أي أوجد (هؤلاء) يعني الآيات التسع التي أظهرها وقرئ علمت بضم التاء أيضا على انه لموسى ووجه الاولى ان فرعون كان عالما بذلك كما قال سبحانه وتعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا قال أبو عبيدة المأخوذ به عندنا فتح التاء وهو الاصح للمعنى لان موسى لا يقول علمت انا وهو الداعي وروى نحو هذا عن الزجاج ووجه الثانية ان فرعون لم يعلم ذلك وانما علمه موسى (الا رب السموات والارض بصائر) أي بينات يبصر بها ودلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته (واني لأظنك يا فرعون مثبورا) الظن هنا بمعنى اليقين والثبور الهلاك والخسران أي مخسورا وقيل مسحورا وقيل مطبوعا على الشر وقيل المثبور الملعون وقيل ناقص العقل وقيل هو الممنوع المصروف من الخير يقال ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه حكاه أهل اللغة (فأراد) فرعون (ان يستفزهم من الارض) أي يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من أرض مصر بابعادهم عنها وقيل أراد ان يقتلهم ويستأصلهم وعلى هذا يراد بالارض مطلق الارض وفي القاموس فزعني عدل وفز فلانا عن موضعه أزعجه واستفزه استخفه

ينظرون ثم أخبر تعالى عن تبرى آلهتهم منهم أحوج ما يكونون اليها فقال واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم أى الذين كانوا يعبدونهم
فى الدنيا قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون أى قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن
أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا
حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم
ويكونون عليهم ضدا وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض الآية وقال تعالى

وقيل ادعوا شركاءكم الآية والآيات فى هذا كثيرة وقوله وألقوا الى الله يومئذ السلم قال قتادة وعكرمة ذلوا واستسلموا يومئذ أى استسلموا لله جميعهم فلا أحد الا سامع مطيع كقوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا أى ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا الآية وقال وعنت الوجوه للحى القيوم أى خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت وقوله وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ثم قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا الآية أى عذابا على كفرهم وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى وهم ينهون عنه وينأون عنه أى ينهون عن اتباعه ويتبعدون هم منه أيضا وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة

ودرجاتهم كما قال تعالى لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا شريح بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش
عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله فى قول الله زدناهم عذابا فوق العذاب قال زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال
وحدثنا شريح بن يونس حدثنا ابراهيم بن سليمان حدثنا الاعمش عن الحسن عن ابن عباس فى الآية انه قال زدناهم عذابا فوق
العذاب قال هى خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها فى الليل وببعضها فى النهار (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من
أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) يقول تعالى مخاطبا عبده

وأخرجه من داره وافزته أفزعته (فأغرقناه ومن معه جميعا) اى فعكسنا عليه فكره
فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ولم يبق منهم أحد ونجى موسى وقومه (وقلنا من بعده)
أى من بعد اغراقه ومن معه جميعا (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) أى أرض الشام
ومصر التى أراد ان يستفزهم منها (فاذا جاء وعد) الدار (الآخرة) هى القيامة أو الكرة
الآخرة أو الساعة الآخرة وهى النفخة الثانية الموعود بها أو قيل أراد بوعد الآخرة نزول
عيسى من السماء (جئنا بكم لفيفا) أى جميعا الى موقف القيامة قال الجوهرى اللفيف
ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال جاء القوم بلفهم ولفيفهم أى باختلاطهم فالمراد
هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط المؤمن بالكافر والسعيد بالشقى
قال الاصمعى اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجمع (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)
الضمير يرجع الى القرآن والمعنى وأوحينا متلبسا بالحق وانه نزل وفيه الحق وقيل المعنى
ومع الحق أنزلناه كقولهم ركب الامير بسيفه أى مع سيفه وبالحق نزل أى بمحمد صلى الله
عليه وآله وسلم كما تقول نزلت بزيد وقال أبو على الفارسى الباء فى الموضعين بمعنى مع وقيل
المعنى وبالحق قدرنا ان ينزل وكذلك نزل أو وما أنزلناه من السماء الا محفوظا بالرصد من
الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الا محفوظا من تخليط الشياطين
والتقديم فى الموضعين للتخصيص وفى الشهاب الحق فيهما ضد الباطل لكن المراد بالاول
الحكمة الالهية المقتضية لانزاله وبالثانى ما يشتمل عليه من العقائد والاحكام ونحوها
(وما أرسلناك الا مبشرا) لمن أطاع بالجنة (ونذيرا) مخوفا لمن عصى بالنار والقصر اضافى
أى لا هاديا فان الهدى هدى الله (وقرآنا) منصوب بفعل مقدر أى وآتيناك قرآنا وقيل
نصب بفعل مضمر يفسره قوله (فرقناه) بالتخفيف على قراءة الجمهور أى بيناه وأوضحناه
أو فرقنا فيه بين الحق والباطل وقال الزجاج فرقه الله فى التنزيل ليفهمه الناس قال أبو
عبيد التخفيف أعجب الى لان تفسيره بيناه وليس للتشديد معنى الا انه نزل متفرقا ويؤيده
ما رواه ثعلب عن ابن الاعرابى أنه قال فرقت مخففا بين الكلام وفرقت مشددا بين
الاجسام وعن ابن عباس فرقناه مثقلا وقال نزل القرآن الى السماء فى ليلة القدر من
رمضان جملة واحدة فكان المشركون اذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ففرقه الله
فى ثلاث وعشرين سنة وقد روى نحو هذا عنه بطرق وعنه فرقناه فصلناه على مكث بأمد

ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء يعني أمتك أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى اليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر النساء فلما وصل الى قوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبك فقال ابن مسعود رضي الله عنه فالتفت فاذا عيناه تذرفان وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء قال ابن مسعود (٣٧٢) قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء وقال مجاهد كل حلال وكل حرام وقول ابن مسعود أعم وأشمل فان القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام وما الناس اليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم وهدى أي للقلوب ورحمة وبشرى للمسلمين وقال الاوزاعي ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء أي بالسنة ووجه اقتران قوله ونزلنا عليك الكتاب مع قوله وجئنا بك شهيدا على هؤلاء أن المراد والله أعلم ان الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي انزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب وقال تعالى ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد أي ان الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك اليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن اداء ما فرض عليك هذا أحد الاقوال وهو متجه حسن (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) يخبر تعالى انه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب الى الاحسان كقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقال والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له الى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب الى الفضل وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان الله يأمر بالعدل قال شهادة ان لا اله الا الله وقال سفيان بن عيينة العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته أحسن من سريرته وقوله وايتاء ذي القربى

قال في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم وفيه وجهان أحدهما ان التضعيف للتكثير أي فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار ماضية ومستقبلة والثاني انه دال على التفريق والتنجيم انتهى ثم ذكر سبحانه العلة لقوله فرقناه فقال (لتقرأه على الناس على مكث) أي على تطاول في المدة شيأ بعد شيء على القراءة الثانية أو أنزلناه آية آية وسورة سورة ومعناه على القراءة الاولى على ترسل وتمهل وتؤدة في التلاوة فان ذلك أقرب الى الفهم وأسهل للحفظ وقد اتفق القراء على ضم الميم في مكث الا ابن محيصن فانه قرأ بفتح الميم (ونزلناه تنزيلا) التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى أنزلناه منجما مفرقا في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا (قل) يا محمد للكافرين المقترحين للآيات (آمنوا به) أي بالقرآن (أو لا تؤمنوا) فسواء ايمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك كمالا ولا ينقصه نقصانا وفي هذا وعيد شديد لامره صلى الله عليه وآله وسلم بالاعراض عنهم واحتقارهم ثم علل ذلك بقوله (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أي ان العلماء الذين قرؤا الكتب السابقة قبل انزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين المحق والمبطل ورأوا نعتك وصفة ما أنزل اليك في تلك الكتب كزيد بن عمرو ابن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأبي ذر وقيل الضمير في قوله من قبله راجع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاولى ما ذكرناه من رجوعه الى القرآن لدلالة السياق على ذلك (اذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون للاذقان سجدا) أي يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه وانما قيد الخرور وهو السقوط بكونه للاذقان أي عليها لان الذقن وهو مجتمع اللحيين أول ما يحاذي الارض قال الزجاج لان الذقن مجتمع اللحيين وكما يبتدئ الانسان بالخرور للسجود فأول ما يحاذي الارض به من وجهه الذقن وقيل المراد تعفير اللحية بالتراب فان ذلك غاية الخضوع وايثار اللام في للاذقان على على للدلالة على الاختصاص فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحاصلها انه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه فلا تبال بذلك فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على أذقانهم

أى يأمر بصلة الارحام كما قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا وقوله وينهى عن الفحشاء والمنكر فالفواحش المحرمات والمنكرات ماظهر منها من فاعلها ولهذا قال فى الموضع الآخر قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن وأما البغى فهو العدوان على الناس وقد جاء فى الحديث مامن ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع مايدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم وقوله يعظكم أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر لعلكم تذكرون وقال الشعبى عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول ان أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية رواه ابن جرير وقال سعيد عن قتادة قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه الا أمر الله به وليس من خلق سيئ كانوا يتعامرونه (٣) بينهم الا نهى الله عنه وقدم فيه وانما نهى عن سفاسف الاخلاق ومذامها قلت ولهذا جاء فى الحديث ان الله يحب معالى الاخلاق ويكره سفسافها وقال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم حدثنا الحسين بن داود المنكدرى حدثنا عمر بن على المقدمى عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال بلغ اكثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا أنت كبيرنا لم تكن لتخف اليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت فقال النبى صلى الله عليه وسلم أما من أنا فانا محمد بن عبد الله واما ما أنا فانا عبد الله ورسوله قال ثم تلا عليهم هذه الآية ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية قالوا اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا أبى ان يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر أى شريفا وقد رمى الينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال فانى أراه يأمر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الامر رؤساء ولا تكونوا فيه أذنابا وقد ورد فى نزولها حديث حسن رواه الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنى عبد الله بن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته جالس اذ مر

اذقانهم سجدا لله (ويقولون) فى سجودهم (سبحان ربنا) أى تنزيها لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيها له عن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان هذه هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة (ويخرون للاذقان يبكون) كرر ذلك الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه وللسجود والثانى للبكاء بتأثير مواعظ القرآن فى قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال (ويزيدهم) أى سماع القرآن أو القرآن بسماعهم له أو البكاء أو السجود أو المتلو لدلالة قوله اذا يتلى (خشوعا) أى لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم أخرجه الترمذى والنسائى وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله أخرجه الترمذى ثم أراد سبحانه ان يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن) ومعناه انهما مستويان فى جواز الاطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال (أيا ما تدعوا) أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله (فله الاسماء الحسنى) للمبالغة وللدلالة على انه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ومعنى حسن الاسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام ذكر معنى هذا النيسابورى وتبعه أبو السعود قال الزجاج أعلمهم الله ان دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد وسيأتى ذكر سبب نزول الآية وبه يتضح المراد منها والحسنى مؤنث الاحسن الذى هو أفعل تفضيل لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء كما فى القاموس عن ابن عباس قال صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ذات يوم فقال فى دعائه يا الله يا رحمن فقال المشركون انظروا الى هذا الصابئ ينهانا ان ندعو الهين وهو يدعو الهين فأنزل الله هذه الآية وعن ابراهيم النخعى قال ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن فنزلت الآية وهو مرسل وعن مكحول ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول فى سجوده يا رحمن يا رحيم فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لاصحابه ان ابن أبى كبشة يدعو الرحمن الذى باليمن وكان رجل

---

(٣) قوله يتعامرونه بينهم الخ هكذا هو فى الاصل وحرره اه

به عثمان بن مظعون فكشر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تجلس فقال بلى قال فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله فبينما هو يحدثه اذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره الى السماء فنظر ساعة الى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه فى الارض فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان الى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء فأقبل الى عثمان بجلسته الاولى فقال يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة فقال وما رأيتنى فعلت قال رأيتك شخص بصرك الى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت اليه وتركتنى فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيأ يقال لك قال وفطنت لذلك فقال عثمان نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى رسول الله آنفا وأنت جالس قال رسول الله قال نعم قال فما قال لك قال ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية قال عثمان فذلك حين استقر الايمان فى قلبى وأحببت محمدا صلى الله عليه وسلم اسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ورواه ابن أبى حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصرا حديث آخر عن عثمان بن أبى العاص الثقفى فى ذلك قال الامام أحمد حدثنا أسود ابن عامر حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب عن عثمان بن أبى العاص قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا اذ شخص بصره فقال أتانى جبريل فأمرنى ان أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية وهذا اسناد لا بأس به ولعله عنده شهر بن حوشب من الوجهين والله أعلم (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هى أربى من أمة انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الايمان المؤكدة ولهذا قال ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ولا تعارض بين هذه وبين قوله ولا تجعلوا

باليمين فقال له رحمن فنزلت ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أى بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بان الجهر والمخافتة من نعوت الصوت لا من نعوت أفعال الصلاة فهو من اطلاق الكل وارادة الجزء يقال خفت صوته خفوتا اذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع اذا ذبل وخافت الرجل بقراءته اذا لم يرفع بها صوته وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والاول أولى أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال نزلت يعنى هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوار بمكة وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك الحديث وعن محمد بن سيرين قال نبئت ان أبا بكر كان اذا قرأ خفض وكان عمر اذا قرأ جهر فقيل لابى بكر لم تصنع هذا فقال أنا أناجى ربى وقد عرف حاجتى وقيل لعمر لم تصنع هذا قال اطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزل ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قيل لابى بكر ارفع شيأ وقيل لعمر اخفض شيأ وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة قالت انما نزلت هذه الآية فى الدعاء وعنها انها نزلت فى التشهد (وابتغ بين ذلك) أى الجهر والمخافتة المدلول عليهما بالفعلين (سبيلا) أى طريقا متوسطا بين الامرين فلا تكن مجاهرا ولا مخافتا بها وعلى التفسير الثانى يكون معنى ذلك النهى عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهى عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها والامر بجعل بعض منها مجهورا به وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار وذهب قوم الى ان هذه الآية منسوخة بقوله ادعوا ربكم تضرعا وخفية ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى الا بالأسماء الحسنى نبه على كيفية الحمد فقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين ان الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك فى الملك) أى مشارك له فى ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولى من الذل) أى لم يحتج الى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولى والنصير قال الزجاج أى لم يحتج ان ينتصر بغيره وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بان المستحق للحمد من له هذه الصفات

الله عرضة لايمانكم الآية وبين قوله تعالى ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم أي لاتتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين انه عليه الصلاة والسلام قال اني والله ان شاء الله لا احلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا اتيت الذي هو خير وتحللتها وفي رواية وكفرت عن يميني لاتعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها لان هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الايمان التي هي واردة على حث أو منع ولهذا قال مجاهد في قوله ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها يعني الحلف أي حلف الجاهلية (٣٧٥) ويؤيده مارواه الامام أحمد حدثنا عبد الله ابن محمد هو ابن أبي شيبة حدثنا ابن نمير وابو أسامة عن زكريا هو ابن أبي زائدة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حلف في الاسلام وايما حلف كان في الجاهلية فانه لايزيده الاسلام الاشدة وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به ومعناه ان الاسلام لايحتاج معه الى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه فان في التمسك بالاسلام كفاية عما كانوا فيه وأما ماورد في الصحيحين عن عاصم الاحول عن أنس رضي الله عنه انه قال حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار في دارنا فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم وقال ابن جرير حدثني محمد بن عمارة الاسدي حدثنا عبد الله بن موسى أخبرنا أبو ليلى عن بريدة في قوله وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم قال نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم بايع النبي صلى الله عليه وسلم على الاسلام فقال واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم هذه البيعة التي بايعتم على الاسلام ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها البيعة لايحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الاسلام وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال أما بعد فانا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان وان من أعظم الغدر الا ان يكون الاشراك بالله ان يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يدا ولا يسرفن أحد منكم في هذا الامر فيكون فصل بيني وبينه المرفوع منه في الصحيحين

لانه القادر على الايجاد وافاضة النعم لكون الولد مجبنة مبخلة ولانه أيضا يستلزم حدوث الاب لانه متولد من جزء من أجزائه والمحدث غير قادر على كمال الانعام والشركة في الملك انما تتصور ان لا يقدر على الاستقلال به ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ماهو له فضلا عن نظام ماهو عليه وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى أوليائه ويؤديه الى الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا والمحتاج الى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد اذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه (وكبره تكبيرا) أي عظمه تعظيما تاما وصفه بأنه أعظم من كل شئ وعن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم أهله هذه الآية الحمد لله الخ الصغير من أهله والكبير أخرجه ابن جرير وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلم الغلام من بني هاشم اذا أفصح سبع مرات الحمد لله الذي الى آخر السورة وروى الامام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذي الخ

(سورة الكهف مائة وإحدى عشرة آية)

قال القرطبي وهي مكية في قول جميع المفسرين وبه قال ابن عباس وابن الزبير وروى عن فرقة ان أول السورة نزل بالمدينة الى قوله جرزا والاول أصح وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وأخرج مسلم والبخاري وغيرهما عن البراء قال قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال اقرأ فلان فان السكينة نزلت للقرآن وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبراني وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث وأخرج الطبراني في الاوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله

وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من شرط لأخيه شرطا لا يريد ان يفي له به فهو كالمدلي جاره الى غير منعة وقوله ان الله يعلم ما تفعلون تهديد ووعيد لمن نقض الايمان بعد توكيدها وقوله ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا قال عبد الله بن كثير والسدي هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيأ نقضته بعد ابرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها (٣٧٦) أم لا وقوله أنكاثا يحتمل ان يكون اسم مصدر نقضت غزلها أنكاثا أي انقاضا ويحتمل ان يكون بدلا عن خبر كان أي لا تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أي خديعة ومكرا ان تكون أمة هي أربى من أمة أي تحلفون للناس اذا كانوا أكثر منكم أي ليطمئنوا اليكم فاذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالادنى على الاعلى اذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الاولى وقد قدمنا ولله الحمد في سورة الانفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد فسار معاوية اليهم في آخر الاجل حتى اذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون فقال له عمرو بن عتبة الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش قال ابن عباس ان تكون أمة هي أربى من أمة أي أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك في وقتادة وابن زيد نحوه وقوله انما يبلوكم الله به قال سعيد بن جبير يعني بالكثرة رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير أي بأمره اياكم بالوفاء بالعهد وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم

صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والارض ولكاتبها من الاجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الاخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ الخمس الاواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء قالوا بلى يا رسول الله قال سورة أصحاب الكهف أخرجه ابن مردويه وأخرج أيضا عن عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردناه كفاية مغنية

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) هل المراد الاعلام بذلك للايمان به وتكون الجملة خبرية لفظا ومعنى أو الثناء به أي انشاء الثناء بثبوت الحمد لله وتكون الجملة انشائية لفظا ومعنى بمعنى انها نقلت في العرف للانشاء أو الاعلام والثناء كلاهما والجملة مستعملة في الخبر والانشاء على طريق الجمع بين الحقيقة والمجاز احتمالات أفيدها الثالث وقال الشوكاني رحمه الله علم عباده كيف يحمدونه على افاضة نعمه عليهم ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما هو في حيز الصلة لما قبله ووجه كون انزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والانبياء وعلى كيفية الاحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها وكذلك العباد كان انزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولم يجعل له) أي فيه (عوجا) أي شيأ من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى والعوج بالكسر في المعاني أي فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة وبالفتح في الاعيان أي فيما يدرك به كذا قيل ويرد عليه قوله سبحانه لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يعني الجبال وهي من الاعيان قال الزجاج المعنى لم يجعل فيه اختلافا كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل لم يجعله مخلوقا والجملة معطوفة على الصلة قبلها أو اعتراضية أو حالية (قيما) القيم المستقيم الذي لا ميل ولا افراط فيه ولا تفريط أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها يشهد بصحتها وعلى الاول يكون تأكيدا لما دل عليه نفي العوج فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة أي جعله قيما عدلا قيل

ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) يقول الله تعالى ولو شاء الله لجعلكم أيها الناس امة واحدة كقوله تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أي لوافق بينكم ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وهكذا قال ههنا ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الايمان دخلا أي خديعة ومكرا لئلا تزل قدم بعد ثبوتها امثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الايمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله لان الكافر اذا رأى ان المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الاسلام ولهذا قال وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ثم قال تعالى ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا أي لا تعتاضوا عن الايمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فانها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ولهذا قال ان كنتم تعلمون ما عندكم ينفد أي يفرغ وينقضي فانه الى أجل معدود محصور مقدر متناه وما عند الله باق أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فانه دائم لا يحول ولا يزول ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون قسم من الرب تعالى مؤكد باللام انه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وان هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بان يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وان يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت وقد روي عن ابن عباس وجماعة انهم فسروها بالرزق الحلال الطيب وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه فسرها بالقناعة وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن

في الكلام تقديم وتأخير والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ثم فصل سبحانه ما أجمل في قوله قيما فقال (لينذر) وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم والمعنى لينذر الكافرين (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده نازلا من لدنه (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) قرئ يبشر مشددا ومخففا وأجرى الموصول على موصوفه المذكور لان مدار قبول الاعمال هو الايمان (أن لهم أجرا حسنا) هو الجنة قاله السدي حال كونهم (ماكثين فيه) أي في ذلك الاجر (أبدا) أي مكثا دائما لا انقطاع له وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار ثم كرر الانذار وذكر المنذر بخصوصه وحذف المنذر به وهو البأس الشديد لتقدم ذكره فقال (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) وهم اليهود والنصارى قاله السدي وبعض كفار قريش القائلين بان الملائكة بنات الله فذكر سبحانه أولا قضية كلية وهي انذار عموم الكفار ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية تنبيها على كونها أعظم جزئياتها فأفاد ذلك ان نسبة الولد الى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر (ما لهم به) أي بالولد واتخاذ الله اياه (من علم) ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة مستأنفة والمعنى ما لهم بذلك علم أصلا وانتفاء العلم بالشيء اما للجهل بالطريق الموصل اليه واما لانه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) أي ولا لاحد من أسلافهم علم بذلك بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا وهذا مبالغة في كون تلك المقالة فاسدة باطلة (كبرت كلمة) قال الفراء كبرت تلك الكلمة كلمة وقال الزجاج كبرت مقالتهم كلمة والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولدا ومعنى الكلام على التعجب أي ما أكبرها كلمة ثم وصف الكلمة بقوله (تخرج من أفواههم) وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها وكثيرا ما يوسوس الشيطان في قلوب الناس من المنكرات ما لا يتمالكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر والخارج من الفم وان كان مجرد الهواء لكن لما كانت الحروف والاصوات كيفيات قائمة بالهواء أسند الى الحال ما هو من شأن المحل أو المعنى هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال (ان) أي ما (يقولون الا) قولا (كذبا) لا مجال للصدق فيه بحال ثم سلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (فلعلك

عباس انها هي السعادة وقال الحسن ومجاهد وقتادة لا يطيب لاحد حياة الا في الجنة وقال الضحاك هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا وقال الضحاك أيضا هي العمل بالطاعة والانشراح بها والصحيح ان الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن أبي شريك عن عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه ورواه مسلم من حديث عبد الله ابن يزيد المقرى به وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجنبي عن فضالة بن عبيد انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قد أفلح من هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال الترمذي حديث صحيح وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا انفرد باخراجه مسلم (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم اذا أرادوا قراءة القرآن ان يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم وهذا أمر ندب ليس بواجب حكى الاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الائمة وقد قدمنا الاحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير ولله الحمد والمنة والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط ما عليه ويمنعه من التدبر والتفكر ولهذا ذهب الجمهور الى أن الاستعاذة انما تكون قبل التلاوة وحكى عن حمزة وأبي حاتم السجستاني انها تكون بعد التلاوة واحتجا بهذه الآية ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضا ومحمد بن سيرين وابراهيم النخعي والصحيح الاول لما تقدم من الاحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم وقوله انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال الثوري ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه وقال آخرون

باخع نفسك) قال الاخفش والفراء البخع الجهد وقال الكسائي بخعت الارض بالزراعة اذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه اذا نهكها وقال أبو عبيدة معناه مهلك نفسك فيكون المعنى على هذه الاقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها والمقصود من هذا الترجي النهي أي لا تبخع نفسك من أجل غمك على عدم ايمانهم أي لا تغتم لئلا تهلك نفسك وفي السمين ولعل قيل للاشفاق على بابها وقيل للاستفهام وهو رأي الكوفيين وقيل للنهي (على آثارهم) أي على فراقهم من بعد توليهم عنك واعراضهم أو هلاكهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي القرآن (أسفا) أي غيظا وحزنا قاله قتادة وقال مجاهد جزعا ونصبه على المفعول له وجواب ان محذوف دل عليه الترجي تقديره فلا تحزن وهذا عند الجمهور وعند غيرهم هو جواب متقدم عن ابن عباس قال اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحرث وامية بن خلف والعاص بن وائل والاسود بن عبد المطلب وأبو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه اياه وانكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزنا شديدا فأنزل الله سبحانه فلعلك باخع نفسك الآية (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) هذه الجملة تعليل للنهي المقصود من الترجي والقصد منه تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم وتسكين أسفه وغيظه على عدم ايمانهم لانه مختبر لاعمال العباد مجازيهم فكأنه يقول له صلى الله عليه وآله وسلم لا تحزن فاني منتقم منهم لك وقيل استئناف والمعنى انا جعلنا ما عليها مما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من الحيوانات والنبات والشجر والانهار والجماد وغير ذلك من النعم كالذهب والفضة والمعادن كقوله سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا قال ابن عباس يعني الرجال والعلماء زينة الارض وعن سعيد بن جبير مثله وقال الحسن هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) اللام للغرض أو العاقبة والمراد بالابتلاء انه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان قال الزجاج أيهم رفع بالابتداء الا أن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذلك قال الحسن أيهم أزهد وأشد للدنيا تركا ومثله عن الثوري وقال مقاتل أيهم أصلح فيما أوتي من المال وقال قتادة أيهم أتم عقلا وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فقلت

معناه لاحجة له عليهم وقال آخرون كقوله الاعبادك منهم المخلصين انما سلطانه على الذين يتولونه قال مجاهد يطيعونه وقال آخرون اتخذوه وليا من دون الله وهم به مشركون أى أشركوه فى عبادة الله تعالى ويحتمل أن تكون الباء سببية أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى وقال آخرون معناه انه شركهم فى الاموال والاولاد (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وايقانهم وانه لايتصور

منهم الايمان وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك انهم اذا رأوا تغيير الاحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنت مفتر أى كذاب وانما هو الرب تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد وقال مجاهد بدلنا آية مكان آية أى رفعناها وأثبتنا غيرها وقال قتادة هو كقوله تعالى ماننسخ من آية أو ننسها الآية فقال تعالى مجيبا لهم قل نزله روح القدس أى جبريل من ربك بالحق أى بالصدق والعدل ليثبت الذين آمنوا فيصدقوا بما أنزل أولا وثانيا وتخبت له قلوبهم وهدى وبشرى للمسلمين أى وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) يقول تعالى مخبرا عن المشركين ماكانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت ان محمدا انما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ويشيرون الى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش وكان بياعا يبيع عند الصفا فربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس اليه ويكلمه بعض الشئ وذلك كان أعجمى اللسان لايعرف بالعربية أو انه كان يعرف الشئ اليسير بقدر مايرد جواب الخطاب فيما لابد منه فلهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى افترائهم ذلك لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين أى بالقرآن أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى اسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمى لايقول هذا من له أدنى مسكة من العقل قال محمد بن اسحق بن يسار فى السيرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى

ما معنى ذلك يا رسول الله قال ليبلوكم أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرعكم فى طاعة الله ثم أعلم سبحانه انه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال (وانا لجاعلون) أى مصيرون (ما عليها) من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا (صعيدا) ترابا قال أبو عبيدة الصعيد المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لانبات فيه بعد أن كانت خضراء معشبة أى أرضا ملساء وقيل فتاتا وهو الذى يضمحل بالريح لا اليابس الذى يرسب ونظيره كل من عليها فان وقوله فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا والمعنى انه لابد من المجازاة بعد افناء ماعلى الارض وتخصيص الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات دلت أيضا على ان الارض لاتبقى وهو قوله يوم تبدل الارض غير الارض قال قتادة الصعيد الجبال التى ليس فيها زرع (جرزا) يابسا قال الفراء الجرز الارض التى لانبات فيها من قولهم امرأة جروز اذا كانت أكولا وسيف جراز اذا كان مستأصلا وجرز الجراد والشاة والابل الارض اذا أكلت ماعليها ويقال سنة جرز وسنون اجراز لامطر فيها وأرض جرز وأرضون اجراز لانبات بها وجرز انعت لصعيدا فكانه مجاز علاقته المجاورة وعن الحسن الجرز الخراب أى نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك ومعنى النظم القرآنى لاتحزن يا محمد بما وقع من هؤلاء من التكذيب فانا قد جعلنا ماعلى الارض زينة لاختبار أعمالهم وانا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازونهم ان خيرا فخير وان شرا فشر (أم حسبت) أى بل أحسبت أو بل حسبت ومعناها الانتقال من حديث الى حديث آخر لا لابطال الاول والاضراب عنه كما هو معنى بل فى الاصل (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) المعنى ان القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل الامتحان قال سبحانه بل أظننت يا محمد انهم كانوا عجبا من آياتنا فقط لاتحسب ذلك فان آياتنا كلها عجب فان من كان قادرا على جعل ماعلى الارض زينة لها للابتلاء ثم جعل ماعليها صعيدا جرزا كان لم تغن بالامس لاتستبعد قدرته ولا حفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة وان كانت قصتهم خارقة للعادة فان آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك ومعنى عجبا ذات عجب والكهف هو الغار الواسع فى الجبل فان كان صغيرا سمى غارا والجمع كهوف فى الكثرة وأكهف فى القلة والرقيم قال كعب والسدى

كثيرا ما يجلس عند المروة الى سبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي فانزل الله ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين وكذا قال عبد الله بن كثير وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش وقال ابن جرير حدثني أحمد بن محمد الطوسي حدثنا أبو عامر حدثنا ابراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي عن مجاهد عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده (٢٨٠) فقالوا انما يعلمه بلعام فانزل الله هذه الآية ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين وقال الضحاك بن مزاحم هو سلمان الفارسي وهذا القول ضعيف لان هذه الآية مكية وسلمان انما أسلم بالمدينة وقال عبيد الله بن مسلم كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابهما بلسانهما فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما فانزل الله هذه الآية وقال الزهري عن سعيد بن المسيب الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارتد بعد ذلك عن الاسلام وافترى هذه المقالة قبحه الله (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) يخبر تعالى انه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له قصد الى الايمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله الى الايمان بآياته وما ارسل به رسله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة ثم أخبر تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم ليس بمفتر ولا كذاب لانه انما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم شرار الخلق الذين لا يؤمنون بآيات الله من الكفرة الملحدين المعروفين بالكذب عند الناس والرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وايمانا وايقانا معروفا بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم الا بالامين محمد ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما قال له هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول

انه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقال سعيد بن جبير ومجاهد انه لوح من حجارة أو رصاص رقت فيه اسماؤهم جعل على باب الكهف ففيه فلان بن فلان من مدينة كذا خرج في وقت كذا من سنة كذا قال الفراء ويروى انه انما سمي رقيما لان أسماءهم كانت مرقومة والرقم الكتابة وعن قتادة ان الرقيم دراهمهم التي كانت معهم وقال ابن عباس الرقيم كتاب مرقوم عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام وقيل ان الرقيم اسم كلبهم قاله أنس وقيل هو اسم الوادي الذي كانوا فيه وقيل اسم الجبل الذي فيه الغار قال الزجاج أعلم الله سبحانه ان قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله لان خلق السموات والارض وما بينهما أعجب من قصتهم وقال ابن عباس يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم (اذ أوى الفتية الى الكهف) أي صاروا اليه ونزلوه وسكنوه والتجؤا اليه وجعلوه مأواهم يقال أوى الى منزله من باب ضرب اذا نزله بنفسه وسكنه والمأوى لكل حيوان مسكنه والفتية هم أصحاب الكهف جمع فتى وهو الطري من الشباب اظهار في مقام الاضمار للتنصيص على وصفهم وسنهم فكانوا في سن الشباب مردا وكانوا سبعة خرجوا من مدينتهم خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار حيث أمروهم بعبادة غير الله وكذلك ملك المدينة أمرهم كما ذكروا واسمه دقيانوس ومدينتهم اسمها أفسوس عند أهل الروم لانها من مدائنهم واسمها عند العرب طرسوس فلما أمروهم بعبادة غير الله ذهب كل واحد منهم الى بيت أبيه وأخذ منه زادا ونفقة وخرجوا فارين هاربين حتى أووا الى كهف في جبل قريب من المدينة فاختفوا فيه وصاروا يعبدون الله ويأكلون ويشربون ويبعثون أحدا منهم خفية ليشتري لهم الطعام من المدينة وهم خائفون من اطلاع أهل المدينة عليهم فيقتلوهم لعدم دخولهم في دينهم فجلسوا يوما بعد الغروب يتحدثون فألقى الله عليهم النوم وذلك قوله تعالى فضربنا على آذانهم الخ كما سيأتي تفصيله (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) أي من عندك (رحمة) التنوين اما للتعظيم أو للتنويع وتقديم من لدنك للاختصاص أي رحمة مختصة بانها من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وهي المغفرة في الآخرة والامن من الاعداء والرزق في الدنيا (وهيئ لنا من أمرنا رشدا) أي أصلح لنا من قولك هيأت الامر فتهيأ والمراد بأمرهم الامر الذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار والرشد نقيض الضلال

ومن

ما قال قال لا فقال هرقل فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عزوجل (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من
أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا
على الآخرة وان الله لا يهدى القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم
انهم فى الآخرة هم الخاسرون) أخبر تعالى عمن كفر به بعد الايمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به انه قد غضب عليه
لعلمهم بالايمان ثم عدولهم عنه وان لهم عذابا عظيما فى الدار الآخرة لانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة
فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لاجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم و يثبتهم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيأ ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيأ فهم غافلون عما اريد بهم لا جرم أى لابد ولا عجب ان من هذه صفته انهم فى الآخرة هم الخاسرون أى الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة وأما قوله الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه ما يقول وهو مطمئن بالايمان بالله ورسوله وقد روى العوفى عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذرا الى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وهكذا قال الشعبى وقتادة وأبو مالك وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الاعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عبيدة محمد بن
عمار بن ياسر قال أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا فشكا ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال
النبى صلى الله عليه وسلم كيف تجد قلبك قال مطمئنا بالايمان قال النبى صلى الله عليه وسلم ان عادوا فعد ورواه البيهقى بأبسط من ذلك
وفيه انه سب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما تركت حتى سببتك
وذكرت آلهتهم بخير قال كيف تجد قلبك قال مطمئنا بالايمان فقال ان عادوا فعد وفى ذلك أنزل الله الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان
ولهذا اتفق العلماء على ان المكره على الكفر يجوز له أن يوالى ابقاء لمهجته ويجوز له ان يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك
وهم يفعلون به الافاعيل حتى انهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول أحد

ومن للابتداء ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك رأيت منك أسدا وتقديم المجرورين
للاهتمام بهما أى اجعل أمرنا رشدا أو يسر لنا طريق رضاك (فضربنا على آذانهم) قال
المفسرون أنمناهم والمعنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الاصوات أى ضربنا
على آذانهم الحجاب تشبيها للانامة الثقيلة المانعة من وصول الاصوات الى الآذان
بضرب الحجاب عليها ففى الكلام تجوز بطريق الاستعارة التبعية وهذا النوم من
جملة الرحمة التى طلبوها فكأنه قال فاستجبنا دعاءهم ومن جملة استجابته ان أنمناهم
وقلبناهم فى نومهم ذات اليمين وذات الشمال (فى الكهف سنين عددا) أى ذوات
عدد على أنه مصدر او بمعنى معدودة على انه بمعنى المفعول ويستفاد من وصف
السنين بالعدد الكثرة قال الزجاج ان الشئ اذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج الى العدد وان
كثر احتاج الى ان يعد وقيل يستفاد منه التقليل لان الكثير قليل عند الله وان يوما
عند ربك كألف سنة مما تعدون (ثم بعثناهم) اى أيقظناهم من تلك النومة (لنعلم)
اى ليظهر معلومنا واللام للعاقبة وقيل للتعليل وقرئ بالتحتية والفاعل هو الله تعالى
ففيه التفات عن التكلم الى الغيبة قيل والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث هو الاختبار
مجازا فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم والاولى ما ذكرناه من ان
المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده (أى الحزبين) من قوم الفتية أهل الهدى وأهل
الضلالة فالمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين المختلفين فى مدة لبثهم وقيل
المراد نفس اصحاب الكهف لأهل المدينة اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا وقيل المراد
بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وأصحاب الكهف وقيل ان أصحاب
الكهف حزب وأصحابهم حزب وقال الفراء ان طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب
الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم (أحصى) أى أضبط (لما لبثوا أمدا) وكأنه وقع بينهم
تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ويظهر من ضبط الحساب ممن لم
يضبطه قال ابن جريج انهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة وما مصدرية أى
أحصى للبثهم أو بمعنى الذى واللام زائدة وقيل على بابها من العلة أى لاجل قاله أبو البقاء
وما بمعنى الذى والامد الغاية وقيل ان أحصى افعل تفضيل واختاره الزجاج والتبريزى
ورد بانه خلاف ما تقرر فى علم الاعراب وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم أفلس من

أحد ويقول والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها رضي الله عنه وأرضاه وكذلك حبيب بن زيد الانصاري لما قال له مسيلمة الكذاب
أتشهد ان محمدا رسول الله فيقول نعم فيقول أتشهد اني رسول الله فيقول لا أسمع فلم يزل يقطعه اربا اربا وهو ثابت على ذلك وقال الامام
أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا أيوب عن عكرمة ان عليا رضي الله عنه حرق ناسا ارتدوا عن الاسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال لم أكن
لاحرقهم بالنار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تعذبوا بعذاب الله وكنت قاتلهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدل
دينه فاقتلوه فبلغ ذلك عليا فقال ويح (٣٨٢) ام ابن عباس رواه البخاري وقال الامام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق
أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن
هلال العدوي عن أبي بردة قال قدم
على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن
فاذا رجل عنده قال ما هذا قال
رجل كان يهوديا فأسلم ثم تهود ونحن
نريده على الاسلام منذ قال أحسبه
شهرين فقال والله لا اقعد حتى
تضربوا عنقه فقال قضاء الله ورسوله
ان من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال
من بدل دينه وهذه القصة في
الصحيحين بلفظ آخر والافضل والاولى
ان يثبت المسلم على دينه ولو أفضى
الى قتله كما قال الحافظ ابن عساكر
في ترجمة عبد الله بن حذافة
السهمي أحد الصحابة انه اسرته
الروم فجاؤا به الى ملكهم فقال له
تنصر وانا أشركك في ملكي وازوجك
ابنتي فقال له لو أعطيتني جميع
ما تملك وجميع ما تملكه العرب على
ان أرجع عن دين محمد صلى الله
عليه وسلم طرفة عين ما فعلت فقال
اذا أقتلك فقال أنت وذاك فأمر به
فصلب وأمر الرماة فرموه قريبا من
يديه ورجليه وهو يعرض عليه
دين النصرانية فيأبى ثم أمر به فانزل
ثم أمر بقدر وفي رواية ببقرة من نحاس
فاحميت وجاء بأسير من المسلمين فالقاه وهو ينظر فاذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى فأمر به ان يلقى فيها فرفع والجمع
في البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال اني انما بكيت لان نفسي انما هي نفس واحدة تلقى في هذا القدر الساعة فاحببت
أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله وفي بعض الروايات انه سجنه ومنعه الطعام والشراب
أياما ثم أرسل اليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال ما منعك ان تأكل فقال أما هو فقد حل لي ولكن لم أكن لاشمتك في
فقال له الملك فقبل رأسي وانا أطلقك واطلق جميع أسارى المسلمين قال فقبل رأسه فاطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين

ابن المذاق وأعدى من الجرب وقال أبو علي والزمخشري وابن عطية ان أحصى فعل
ماض (نحن نقص عليك نبأهم) هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله اذ أوى الفتية
والنبأ الخبر الذي له شأن وخطر أي نحن نخبرك بخبرهم (بالحق) أي نقص قصصا متلبسا
بالحق أو نقصه متلبسين به أو نقص نبأهم متلبسا به أو نبأهم المتلبس به (انهم فتية) أي
احداث وشبان كان أحدهم وزير الملك دقيانوس وكانوا من اشراف تلك المدينة ومن
عظماء أهلها والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال اقتضاه ما قبلها فكأنه قيل وما نبؤهم
والفتية جمع قلة (آمنوا بربهم) فيه التفات من التكلم الى الغيبة اذ لو جاء على نسق الكلام
لقيل آمنوا بنا (وزدناهم هدى) بالتثبيت والتوفيق وفيه التفات من الغيبة الى التكلم
قال الربيع بن أنس هدى اخلاصا وقيل ايمانا وبصيرة وقيل يقينا (وربطنا على قلوبهم)
أي قويناها بالصبر على هجر الاهل والاوطان وفراق الخلان والاخدان والفرار الى بعض
الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام حيث قالوا للملك ربنا رب
السموات الخ ولم يحصل لهم منه رعب في الله قال قتادة ربطنا قلوبهم بالايمان وشددنا عليها
بالصبر والتثبيت وفيه استعارة تصريحية تبعية لان الربط هو الشد بالحبل (اذ قاموا)
اختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل انهم اجتمعوا وراء المدينة من غير
ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم اني لاجد في نفسي شيأ ان ربي رب السموات
والارض فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات
والارض) قاله مجاهد وقال أكثر المفسرين انه كان لهم ملك جبار يقال له دقيانوس وكان
يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه
وقد أمرهم بالسجود للاصنام فقالوا ربنا رب السموات والارض أي قالوا جملا ستا ثلاثة
بين يدي ملكهم آخرها قوله شططا وثلاثة بعد انصرافهم عن مجلسه ذما لقومهم آخرها
قوله كذبا وقال عطاء ومقاتل انهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم (لن ندعو من دونه
الها) أي لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا (لقد قلنا اذا شططا) أي
قولا ذا شطط أي افراط في الكفران دعونا الها غير الله فرضا أو قولا هو نفس الشطط
لقصد المبالغة والشطط الغلو ومجاوزة الحد المقدر في كل شئ يقال شطت الدار بعدت
وشط فلان في حكمه شطوطا وشططا جار وظلم وشط في القول أغلظ وشط في السوم أفرط

عنده فلما رجع قال عمر بن الخطاب حق على كل مسلم ان يقبل راس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة ثم انهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا في سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر الله تعالى انه من بعدها أي تلك الفعلة وهي الاجابة الى الفتنة لغفور رحيم بهم يوم معادهم يوم تأتي كل نفس (٣٨٣)

تجادل أي تحاج عن نفسها ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة وتوفى كل نفس ما عملت أي من خير وشر وهم لا يظلمون أي لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيرا (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) هذا مثل اريد به أهل مكة فانها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا وهكذا قال ههنا يأتيها رزقها رغدا أي هنيئا سهلا من كل مكان فكفرت بأنعم الله أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليهم كما قال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا

والجميع من بابي ضرب وقتل وقال قتادة شططا كذبا وقال السدي جورا (هؤلاء) أي أهل بلدهم (قومنا) عطف بيان أو بدل (اتخذوا من دونه) أي من دون الله (آلهة) أصناما يعبدونها وفي هذا الاخبار معنى الانكار وفي الاشارة اليهم تحقير لهم (لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أي هلا يأتون على عبادتهم لها بحجة نيرة ظاهرة تصلح للتمسك بها وفيه تبكيت لان الاتيان بحجة على عبادة الاصنام محال وهذه جملة طلبية وليست صفة لآلهة لفساده معنى وصناعة قال الزمخشري وفي الآية دليل على فساد التقليد وانه لابد في الدين من الحجة حتى يتضح ويثبت (فمن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه فزعم ان له شريكا في العبادة ثم قال بعضهم لبعض وقت اعتزالهم (واذا اعتزلتموهم) أي فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسماني وتنحيتم عنهم جانبا أي عن العابدين للاصنام (وما يعبدون الا الله) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية اى اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء استثناء منقطع على تقدير انهم لم يعبدوا الا الاصنام أو متصل على تقدير انهم شركوهم في العبادة مع الله سبحانه وقيل هو كلام معترض اخبار من الله سبحانه عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله فيكون ما على هذا نافية (فأووا) أي الجؤا وصيروا (الى الكهف) واجعلوه مأوى لكم قال الفراء هو جواب اذ ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأوى لكم وقيل هو دليل على جوابه أي اذا اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر) أي يبسط ويوسع (لكم ربكم) مالك أمركم (من رحمته) في الدارين (ويهيئ) أي يسهل وييسر (لكم من أمركم) الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) بكسر الميم وفتحها لغتان قرئ بهما مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع وقيل فتح الميم أقيس وكسرها أغلب وأكثر العرب على كسر الميم من الامر ومن مرفق الانسان وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الامر والمرفق من الانسان وقال الكسائي الكسر في مرفق اليد وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به والمرفق بفتح الميم الامر الرافق والمراد هنا ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله والتقديم في الموضعين يفيد الاختصاص وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه

قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ولهذا بدلهم الله بحاليهم الاولين خلافهما فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد ان كان يجبى اليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك انهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا الا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه اذا نحروه وقوله والخوف وذلك انهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا الى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول

صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم في قوله لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم الآية وقوله تعالى فاتقوا الله يا أولي الالباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا رسولا الآية وقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة الى قوله ولا تكفرون وكما انه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الامن وجاعوا بعد الرغد بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ورزقهم بعد العيلة وجعلهم امراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لاهل مكة (٣٨٤) قاله العوفي عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله وقال ابن جرير حدثني ابن عبد الرحيم البرقي حدثني ابن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عبد الرحمن ابن شريح ان عبد الكريم بن الحرث الحضرمي حدثه انه سمع مشرح ابن عاهان يقول سمعت سليم بن نمير يقول صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل حتى رأت راكبين فأرسلت اليهما تسألهما فقالا قتل فقالت حفصة والذي نفسي بيده انها القرية التي قال الله تعالى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله وقال ابن شريح وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه انه كان يقول انها المدينة (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) يقول باب تعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فانه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أي ذبح على اسم غير الله ومع هذا فمن اضطر اليه أي احتاج من غير بغي ولا عدوان فان الله غفور رحيم وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن اعادته ولله الحمد ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه

أو أخبرهم به نبي عصرهم (وترى الشمس اذا طلعت) شرع سبحانه في بيان حالهم بعد ان أووا الى الكهف (تزاور) مأخوذ من الزور بفتح الواو وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه وقيل تزور بمعنى تنقبض من ازور أي انقبض والاول أولى ومعنى الآية ان الشمس اذا طلعت تميل وتعدل وتتنحى (عن كهفهم ذات اليمين) أي ناحية اليمين وهي الجهة المسماة باليمين (واذا غربت تقرضهم) القرض القطع قال الكسائي والاخفش والزجاج وأبو عبيدة تعدل عنهم وتتركهم قرضت المكان عدلت عنه تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول انما قرضته اذا مر به وتجاوز عنه وقال الفارسي معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيأ ثم تزول بسرعة كالقرض يسترد وقد ضعف بانه كان ينبغي ان يقرأ تقرضهم بضم التاء لانه من أقرض والمعنى ان الشمس اذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أي يمين الداخل للكهف واذا غربت تمر (ذات الشمال) أي جهة شمال الكهف لا تصيبه لا في ابتداء النهار ولا في آخر النهار بل تعدل عن سمته الى الجهتين (وهم في فجوة منه) الفجوة المكان المتسع ومما يدل على ان الفجوة المكان الواسع قول الشاعر

ألبست قومك مخزاة ومنقصة * حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

وقال سعيد بن جبير الفجوة الخلوة من الارض ويعني بالخلوة الناحية منها وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان الاول انهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحا واسعا في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لان الله سبحانه حجبها عنهم كرامة والثاني ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال مستقبلا لبنات النعش في أرض الروم فاذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف واذا غربت كانت عن يساره ولا تقع عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه ويؤيد القول الاول قوله (ذلك من آيات الله) فان صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ويؤيده أيضا اطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها الى جهة كذا وعلى الثاني يكون المعنى ان شأنهم وحديثهم من آيات الله والاول أولى وقد قيل انه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته وذهب الزجاج الى ان فعل الشمس كان آية من الله تعالى من دون ان يكون

باب الكهف الى جهة توجب ذلك وعلى الجملة فالآية فى ذلك ان الله تعالى آواهم الى كهف هذه صفته لا الى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم فى معظم النهار وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم باظلال غمام أو سبب آخر والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء وتغير الابدان والالوان اليهم والتأذى بحر أو برد ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله (من يهد الله) الى الحق مثل أصحاب الكهف (فهو المهتد) الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح (ومن يضلل) أى يضلله الله ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه (فلن تجدله وليا مرشدا) أى ناصرا يهديه الى الحق ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم فقال (وتحسبهم) خطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل أحد (أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها (وهم رقود) أى نيام وهو جمع راقد كقعود فى قاعد قيل وسبب هذا الحسبان ان عيونهم كانت مفتحة وهم نيام وقال الزجاج لكثرة تقلبهم (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) أى نقلبهم فى رقدتهم الى الجهتين لئلا تأكل الارض أجسادهم ولحومهم قاله سعيد بن جبير وتعجب منه الامام الرازى وقال ان الله قادر على حفظهم من غير تقليب ولقائل ان يقول لاريب فى قدرة الله تعالى ولكن جعل لكل شئ سببا فى أغلب الاحوال قاله الكرخى قيل تقلبة واحدة فى كل سنة مرة فى يوم عاشوراء وقال ابن عباس ستة أشهر على ذى الجنب اليمين وستة أشهر على ذى الجنب الشمال وعلى هذا كان لهم تقلبتان فى السنة وقيل كل تسع سنين وقالت فرقة انما قلبوا فى التسع الأواخر وأما فى الثلثمائة فلا وظاهر كلام المفسرين ان التقليب من فعل الله ويجوز ان يكون من ملك بامر الله فيضاف الى الله تعالى قاله القرطبى والاول أولى (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضى كما تقرر فى علم النحو أى ماديديه قال أكثر المفسرين هربوا من ملكهم ليلا فمروا براع معه كلب فتبعهم وقيل كان لواحد منهم قال مجاهد اسم كلبهم قطمورا وعن الحسن اسمه قطمير وقيل اسمه ريان وقيل صهبان قيل كان كلبا أغر وقيل فوق القلطى ودون الكرزى والقلطى كلب صينى وقيل كان أصفر وقيل كان أحمر اللون وقيل كان يضرب الى حمرة وقيل كلون السماء قيل ليس فى الجنة دواب سوى كلب اصحاب الكهف وحمار بلعم ولا أدرى أى تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز وما الذى حملهم على هذا الفضول الذى لا مستند له فى السمع ولا فى العقل (بالوصيد) قال أبو عبيد وأبو عبيدة هو فناء الباب وكذا قال المفسرون وقيل العتبة ورد بان الكهف لا يكون له عتبة ولا باب وانما أراد ان الكلب موضع العتبة من البيت وقال ابن عباس بالوصيد بالفناء وبالباب وقيل بفناء الكهف وقيل الصعيد والتراب قال بعضهم كلب أحب قوما فذكره الله معه فكيف بنا وعندنا عقد الايمان وكلمة الاسلام وحب النبى وآله وصحبه وقول الله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم الآية وفى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال المحبين للصالحين والانبياء والعلماء المخالطين للاولياء والاصفياء (لو اطلعت عليهم) أى لو نظرت اليهم وهم على تلك الحالة (لوليت منهم فرارا) أى لفررت منهم هاربا (ولملئت منهم رعبا) أى خوفا وفزعا ملأ

واصطلحوا عليه من الاسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم فقال ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب

الصدر وقرئ رعبا بسكون العين وضمها وسبب الرعب الهيبة التي ألبسهم الله اياها وقيل طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري ويدفعه قوله تعالى لبثنا يوما أو بعض يوم فان ذلك يدل على انهم لم ينكروا من حالهم شيأ ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم مايدل على طول المدة وقيل لان أعينهم كانت منفتحة كالمستيقظ وقيل ان الله منعهم بالرعب حتى لايراهم أحد قال ابن عطية والصحيح في أمرهم ان الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ماتوا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية فلم يبل لهم ثوب ولم تتغير لهم صفة ولم ينكر الناهض الى المدينة الا معالم الارض والبناء ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليهم أهم ذكره القرطبي

(وكذلك) أي وكما فعلنا بهم مافعلنا من الكرامات وأنمناهم في الكهف تلك النومة وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان (بعثناهم) من نومهم وجعلنا بعثهم آية قاله الزجاج والزمخشري وفيه تذكير بقدرته على الاماتة والبعث جميعا ثم ذكر الامر الذي لاجله بعثهم فقال (ليتساءلوا بينهم) أي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة وقيل اللام للصيرورة لان البعث لم يكن للتساؤل قاله ابن عطية والصحيح انها على بابها من السببية والاقتصار على علة التساؤل لاينفي غيرها وانما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار (قال قائل) أي واحد (منهم) وهو كبيرهم ورئيسهم مكسلمينا (كم لبثتم) في النوم قالوا ذلك لانهم رأوا في أنفسهم غير مايعهدونه في العادة والجملة مبينة لما قبلها من التساؤل (قالوا) أي قال بعضهم وقيل قال الستة الباقون جوابا عن سؤال من سأل منهم قال المفسرون انهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله سبحانه آخر النهار فلذلك قالوا (لبثنا يوما) أي لظنهم ان الشمس قد غربت فلما رأوا الشمس لم تغرب قالوا (أو بعض يوم) وكان قد بقيت بقية من النهار وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة وأو للشك وقيل للتفصيل أي قال بعضهم كذا وبعضهم كذا وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قالوا) متوقفين في قدر مدة لبثهم (ربكم أعلم بما لبثتم) إما على طريق الاستدلال أو كان ذلك الهاما لهم من الله سبحانه أي انكم لاتعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل مايكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين في قوله سابقا لنعلم أي الحزبين وقد استدل ابن عباس على ان عددهم سبعة بهذه الآية لانه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد وقالوا في جوابه لبثنا وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) كأنه قال القائل منهم يعني عليخا اتركوا ما أنتم عليه من المحاورة وخذوا في شيء آخر مما يهمكم وفيما تنتفعون به والفاء للسببية أي فارسلوا واحدا منكم الى البلد والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ويقال لها الرقة وفي الحديث وفي الرقة ربع العشر وجمعت شذوذا جمع المذكر السالم يقال عندي رقون والباء للمصاحبة والملابسة وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن امساك بعض

هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي أو حلل شيأ مما حرم الله أو حرم شيأ مما أباح الله بمجرد رأيه

ما يحتاج اليه الانسان لا ينافى التوكل على الله والمدينة أفسوس بضم الهمزة كما قاله النيسابورى وهى مدينتهم التى كانوا فيها من مدائن الروم ويقال لها اليوم فى الاسلام طرطوس كذا قال الواحدى وفى الكشف ان المدينة التى خرجوا منها غير المدينة التى بعثوا اليها لشراء الطعام اذ أفسوس من اعمال طرطوس وهى ناحية (فلينظر أيها أزكى طعاما) أى لينظر أى أهلها أطيب طعاما وأحل مكسبا أو أرخص سعرا وأى استفهامية أو موصولة قال ابن عباس أحل وأطهر ذبيحة لانهم كانوا يذبحون للطواغيت أو أكثر بركة وقيل يجوز ان يكون الضمير الى الاطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال زيد طيب أبا على ان الاب هو زيد وفيه بعد (فليأتكم برزق منه) أى من الورق أى بدله أو من قوت وطعام تأكلونه واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لان عامة أهل المدينة كانوا كفارا وفيه قوم يخفون ايمانهم ووجه الاستدلال ان الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام (وليتلطف) أى يدقق النظر حتى لا يعرف أو لا يغبن والاول أولى ويؤيده (ولا يشعرن بكم أحدا) من الناس أى لا يفعلن ما يؤدى الى الشعور ويتسبب له فهذا النهى يتضمن التأكيد للامر بالتلطف ثم علل ما سبق من الامر والنهى فقال (انهم) أى أهل المدينة (ان يظهروا عليكم) أى يطلعوا ويعلموا بمكانكم (يرجموكم) يقتلوكم بالرجم وهذه القتلة هى أخبث قتلة وكان ذلك كان عادة لهم ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل وقيل يشتموكم ويؤذوكم بالقول والاول أولى (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يردوكم الى ملتهم التى كنتم عليها قبل ان يهديكم الله أو يصيروكم اليها كرها والمراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير انهم لم يكونوا على ملتهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار (ولن تفلحوا اذا أبدا) فى اذن معنى الشرط والجزاء كأنه قال ان رجعتم الى دينهم فلن تفلحوا اذن أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (وكذلك) أى وكما أنمناهم وبعثناهم (أعثرنا) أى أطلعنا الناس (عليهم) وأظهرناهم وسمى الاعلام اعثارا لان من كان غافلا عن شئ فعثر به نظر اليه وعرفه فكان الاعثار سببا لحصول العلم (ليعلموا) أى ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم (أن وعد الله) بالبعث (حق) قيل وكان ملك زمانهم ممن ينكر البعث فأراه الله هذه الآية قيل وسبب الاعثار عليهم ان ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق وكانت من ضرب دقيانوس الى السوق فلما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقال له من أين وجدت هذه الدراهم قال بعت بها أمس شيئا من التمر وخرجنا فرارا من الملك دقيانوس فعرف الملك صدقه ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا الى الكهف (و) ليعلموا (ان الساعة) أى القيامة (لاريب فيها) أى لا شك فى حصولها فان من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من بعث الارواح والاجساد جميعا وحشرها (اذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث وقيل فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم وفى عددهم وفيما يفعلونه بعد ان اطلعوا عليهم وقيل قال المسلمون

وتشبيه وما فى قوله لما تصف مصدرية أى ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ثم توعد على ذلك فقال ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون أى فى الدنيا

نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبني عليهم بيعة لأنهم من أهل ملتنا (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا) لئلا يتطرق الناس اليهم كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحظيرة وذلك ان الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية فقال بعضهم ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس وقيل يتنازعون متعلق بمحذوف هو اذكر ويؤيده ان الاعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ويمكن ان يقال ان أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن منذ دخلوا الى الكهف الى وقت الاعثار ويؤيد ذلك ان خبرهم كان مكتوبا على باب الغار كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون ايمانهم كما قاله المفسرون ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم وفي مدة لبثهم وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم (ربهم أعلم بهم) من هؤلاء المتنازعين فيهم قالوا ذلك تفويضا للعلم الى الله سبحانه وقيل هو من كلام الله سبحانه رد القول المتنازعين فيهم أي دعوا ما أنتم فيه من التنازع فاني أعلم بهم منكم والأول هو الظاهر قاله الكرخي (قال الذين غلبوا على أمرهم) يعني بيدروسيس وأصحابه قاله الخازن أي كانت الكلمة لهم وكان كلامهم هو النافذ لأن ملك الوقت كان من جملتهم وكان مؤمنا وأما الملك الذي خرجوا هاربين منه فقد مات في مدة نومهم (لنتخذن عليهم مسجدا) يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم وذكر اتخاذ المسجد يشعر بان هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون وقيل هم أهل السلطان والملك من القوم المذكورين فانهم الذين يغلبون على أمر من عداهم والأول أولى قال الزجاج هذا يدل على انه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين (سيقولون) هؤلاء القائلون بانهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة وهم المتنازعون في عددهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب والمسلمين وقيل هم أهل الكتاب خاصة قال السدي هم اليهود وعلى كل تقدير فليس المراد انهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا وبعضهم بكذا قيل انما أتى بالسين في هذا لأن في الكلام طيا وادماجا تقديره فاذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف فسلهم عن عددهم فانهم سيقولون ولم يأت بها في باقي الأفعال لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال والمعنى يقولون لك يا محمد ويخبرونك على ثلاثة أقوال الأولان للنصارى والثالث للمؤمنين (ثلاثة رابعهم كلبهم) أي هم ثلاثة أشخاص حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) الكلام فيه كالكلام فيما قبله قال السدي هم النصارى وقيل اليهود كما في البيضاوي قال أبو علي الفارسي قوله رابعهم كلبهم وسادسهم كلبهم جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله ثلاثة والتقدير هم ثلاثة هكذا حكاه الواحدي (رجما بالغيب) أي راجمين أو يرجمون رجما والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقين ودليل ولا برهان كما قاله الطيبي وغيره والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلون بانهم ثلاثة والقائلون بانهم خمسة قال قتادة رجما قذفا بالظن ولم يقل هذا في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان

الحال

ولا في الآخرة أما في الدنيا فمتاع قليل وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم كما قال نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ وقال ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون

الحال في الباقي بخلافه والرجم بمعنى الرمي وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لخفائه عنه تشبيهاً له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضاً والباء فيه للتعدية على تشبيه الظن بالحجر المرمي على طريق الكناية (ويقولون) اى المؤمنون يعني قالوه باخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام (سبعة وثامنهم كلبهم) وكان قول هذه الفرقة أقرب الى الصواب بدليل عدم ادخالهم في سلك الراجمين بالغيب قيل واظهار الواو في هذه الجملة يدل على انها مرادة في الجملتين الاوليين وعلى رأي الاخفش والكوفيين الواو زائدة لان وجودها في الكلام كالعدم في عدم افادة أصل معناها قاله الكرخي وقيل زائدة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت وهذا ما جنح اليه الزمخشري وصرح به البيضاوي واختاره ابن هشام وقيل انها واو العطف كأنه قيل هم سبعة وثامنهم كلبهم وقيل واو الحال فيؤول المعنى الى انهم يقولون ذلك مع هذا الحال وهو كون ثامنهم كلبهم واقعاً الا محالة ويلزم منه ان يكونوا سبعة قال ابن هشام وقول جماعة الادباء كالحريري ومن النحويين كابن خالويه ومن المفسرين كالثعلبي انها واو الثمانية لا يرضاه نحوي لانه لا يتعلق به حكم اعرابي ولا سر معنوي قال الكافيجي هي في التحقيق واو العطف لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص تضمنت أمراً غريباً واعتباراً لطيفاً ناسب ان تسمى باسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة وذلك لان السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الاعداد والثمانية عقد مستأنف فكان بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه وهذا هو المقتضي للعطف وهذا المعنى ليس موجوداً بين السبعة والستة انتهى ملخصاً من الكرخي ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال (قل ربي أعلم) أي أقوى علماً وأزيد في الكيفية (بعدتهم) منكم أيها المختلفون فان مراتب اليقين متفاوتة في القوة وهذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون الا لله تعالى أو من أخبره الله سبحانه ثم أثبت العلم على ذلك لقليل من الناس فقال (ما يعلمهم) أي ما يعلم ذواتهم فضلاً عن عددهم أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف (الا قليل) من الناس عن ابن مسعود قال أنا من القليل كانوا سبعة وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ثم ذكر أسماءهم وذكر بعض المفسرين لاسمائهم خواص ومنافع ليست من التفسير في شيء ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال (فلا تمار فيهم) اى لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم والمراء في اللغة الجدال يقال مارى يماري مماراة ومراء أي جادل قال ابن عباس يقول حسبك ما قصصت عليك ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال (الا مراء ظاهراً) أي غير متعمق فيه وهو ان يقص عليهم ما أوحى الله اليه فحسب من غير تجهيل لهم ومن غير رد عليهم وقال الرازي هو ان لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال (ولا تستفت

متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم

فيهم) أي في شأنهم (منهم) أي من الخائضين فيهم (أحدا) منهم لان المفتي يجب ان يكون أعلم من المستفتي وههنا الامر بالعكس ولاسيما في واقعة أهل الكهف وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له قال ابن عباس يعني اليهود وقال القرطبي النصارى وهو الاولى قال البيضاوي لا تسأل سؤال مسترشد ولا سؤال متعنت يريد فضيحة المسئول وتزييف ما عنده فانه مخل بمكارم الاخلاق وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم (ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) أي لا تقولن لاجل شيء أو في شأن شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان فعبر عنه بالغد ولم يرد الغد بعينه فيدخل فيه الغد دخولا أوليا قال الواحدي قال المفسرون لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن خبر القصة فقال أخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه فانزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول اذا قلت لشيء اني فاعل ذلك غدا فقل ان شاء الله قيل وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا تقولن ذلك في حال من الاحوال الا في حال ملابسته لمشيئة الله وهو ان تقول ان شاء الله أو في وقت من الاوقات الا وقت أن يشاء الله ان تقوله لا مطلقا بل باذن الله فحذف الوقت وهو مراد أو لا تقولن أنا فاعل غدا الا قائلا ان شاء الله فحذف القول ونقل شاء الى لفظ الاستقبال حملا على المعنى قاله الاخفش والمبرد والكسائي وقيل التقدير الا بان يشاء الله أي متلبسا بقول ان شاء الله والمعنى الا ان تذكر مشيئة الله فليس الا ان يشاء الله من القول الذي نهى عنه وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله لان عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله (واذكر ربك اذا نسيت) الاستثناء بمشيئة الله أي فقل ان شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز الحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها وقيل المعنى واذكر ربك بالاستغفار اذا نسيت مبالغة في الحث عليه أو اذكر ربك عقابه اذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي وعن ابن عباس انه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ثم قرأ هذه الآية وعنه قال هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لاحد ان يستثني الا في صلة يمين وعن ابن عمر قال كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه واذا كان غير موصول فهو حانث وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية تسعين تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله فقال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وعن عكرمة قال معنى اذا نسيت اذا غضبت وعن الحسن قال اذا نسيت اذا لم تقل ان شاء الله وقيل الآية في الصلاة ويدل له حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها أقم الصلاة لذكرى متفق عليه والاول

يظلمون ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) لما ذكر تعالى انه انما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما

أولى (وقل) يا محمد (عسى ان يهدين) أي يوفقني ويدلني (ربي لأقرب) أي لشيء أقرب (من هذا) اى من خبر أهل الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي (رشدا) هداية أوارشادا للناس ودلالة على ذلك وعلى الاول هو مفعول مطلق وعلى الثاني تمييز لاقرب قال الزجاج عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة مايكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم والحوادث النازلة في الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة ما كان أوضح في الحجة وأقرب الى الرشد من خبر أصحاب الكهف وقيل عسى ان يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي وأقرب من ذلك رشدا وادنى منه خيرا ومنفعة والاول أولى (ولبثوا) أي أقاموا (في كهفهم ثلثمائة سنين) عطف بيان لثلثمائة وهذه السنون عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت في قوله (وازدادوا تسعا) أي تسع سنين فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قرية وقرئ في السبعة بالاضافة وعليه فسنين تمييز غير انه قليل لان تمييز المائة الكثير فيه الافراد قال الفراء ومن العرب من يضع سنين موضع سنة قال أبو علي الفارسي هذه الاعداد التي تضاف في المشهور الى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى الجموع وفي مصحف عبد الله ثلثمائة سنة وقال الاخفش لا تكاد العرب تقول مائة سنين قال ابن جرير ان بني اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الاعثار عليهم فقال بعضهم انهم لبثوا ثلثمائة سنة وقال بعضهم لبثوا ثلثمائة وتسع سنين فاخبر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان هذه المدة في كونهم نياما وان مابعد ذلك مجهول للبشر فامر الله ان يرد علم ذلك اليه فقال (قل الله أعلم بما لبثوا) أي بالزمن الذي لبثوا فيه وقيل بعد موتهم الى نزول القرآن فيهم على قول مجاهد أو الى ان ماتوا على قول الضحاك أو الى وقت تغيرهم بالبلى على قول بعضهم قال ابن عطية فقوله على هذا لبثوا الاول يريد في نوم الكهف ولبثوا الثاني يريد بعد الاعثار عليهم الى مدة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو الى ان ماتوا وقال القرطبي انه لما قال وازدادوا تسعا لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام فاختلف بنو اسرائيل بحسب ذلك فامر الله برد العلم اليه في التسع فهي على هذا مبهمة والاول أولى لان الظاهر من كلام العرب المفهوم منه بحسب لغتهم ان التسع أعوام بدليل ان العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للايام ولا للساعات قال القشيري لا يفهم من التسع تسع ليال ولا تسع ساعات لوجود لفظ السنين وعن الزجاج ان المراد بثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قرية وهذا انما يكون من الزجاج على جهة التقريب وقال الشهاب وأما احتمال كون السنين شمسية أو قرية وكون التسع سنين أوشهورا أو أياما فليس بشيء قال الضحاك عن ابن عباس لما نزلت ولبثوا في كهفهم ثلثمائة قيل يارسول الله أياما أم أشهرا أم سنين فانزل الله سنين وازدادوا تسعا وحكى النقاش ما معناه انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الامم فلما كان الاخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر التسع اذ المفهوم عنده من السنين القمرية فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ونحوه ذكر

أهل لغير الله به وما أرخص فيه عند الضرورة وفي ذلك توسعة لهذه الامة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم

القونوى أى باختلاف سنى الشمس والقمر لانه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة فيكون فى ثلثمائة تسع سنين انتهى أقول هذا يبتنى على حساب الكبس والكبس عندهم مختلف وقد حققناه فى كتابنا لقطة العجلان فراجعه وعن ابن عباس قال ان الرجل ليفسر الآية يرى انها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والارض ثم تلا ولبثوا فى كهفهم الآية ثم قال كم لبث القوم قالوا ثلثمائة وتسع سنين قال لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله قل الله اعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجما بالغيب فاخبر انهم لا يعلمون ثم قال سيقولون ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قال القرطبى اختلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا أو هم نيام وأجسادهم محفوظة فروى عن ابن عباس انه قال أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ومشى الناس معه فى بعض غزوات الشام الى موضع الكهف فوجدوا عظاما وروت فرقة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ليحجن عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فانهم لم يحجوا بعد ذكره ابن عيينة ونحوه فى التوراة والانجيل وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله فى التذكرة فعلى هذا هم نيام لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة بل يموتون قبل الساعة انتهى والله أعلم ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله (له غيب السموات والارض) أى ما خفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شئ ثم زاد فى المبالغة والتأكيد جاء بما يدل على التعجب من ادراكه للمبصرات والمسموعات فقال (أبصر به وأسمع) فافاد هذا التعجب على ان شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين وانه يستوى فى علمه الغائب والحاضر والخفى والظاهر والصغير والكبير واللطيف والكثيف وكان أصله ما أبصره وما أسمعه ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء على سبيل المجاز والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الاخفش والبحث مقرر فى علم النحو والهاء لله تعالى وقيل هو أمر حقيقة لا تعجب وان الهاء تعود على الهدى المفهوم من الكلام أى أبصر بوحيه وارشاده هداك وحجتك والحق من الامور وأسمع به العالم والاول أولى وقرئ أبصر وأسمع فعلا ماضيا والفاعل الله تعالى أى أبصر عباده وأسمعهم (مالهم) أى لاهل السموات والارض وقيل لاهل الكهف وقيل لمعاصرى محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار (من دونه من ولى) أى من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم وفى هذا بيان لغاية قدرته وان الكل تحت قهره (ولا يشرك فى حكمه أحدا) قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه وقرئ بالفوقية واسكان الكاف على انه نهى للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ان يجعل لله شريكا فى حكمه والمراد بحكم الله ما يقضيه أو علم الغيب والاول أولى ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوليا فان علمه سبحانه من جملة قضائه (واتل ما أوحى اليك) أمره الله سبحانه ان يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه قيل يحتمل ان يكون معنى قوله واتل واتبع أمرا من التلو لا من التلاوة أى اتبع ما فيه واعمل به ولا تلتفت لقوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله (من كتاب ربك) بيان للذى أوحى اليه (لا مبدل لكلماته) أى لا قادر على تبديلها وتغييرها وانما يقدر على ذلك هو وحده قال الزجاج أى ما أخبر الله به

قبل ان ينسخها وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والاغلال والحرج فقال وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل اى فى سورة الانعام فى قوله وعلى

وما أمر به فلا مبدل له وعلى هذا يكون التقدير لا مبدل لحكم كلماته (ولن تجد من دونه ملتحدا) أي ملتجأ وأصل اللحد الميل وقال أبو عبيدة ألحد الحادا جادل وماري ولحد جار وظلم والحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها والملتحد اسم الموضع وهو الملجأ قال الزجاج لن تجد معدلا عن أمره ونهيه والمعنى انك ان لم تتبع القرآن وتتلوه وتعمل باحكامه لن تجد معدلا تعدل اليه ومكانا تميل اليه وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف ثم شرع سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) أي يعبدونه قد تقدم في الانعام نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن طرد فقراء المؤمنين بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم وأمره سبحانه ههنا بان يحبس نفسه معهم فصبر النفس هو حبسها عن الجزع وبابه ضرب وصبره حبسه وهذه الآية أبلغ من التي في الانعام لان في تلك نهى الرسول عن طردهم وفي هذه أمره بمجالستهم والمصابرة معهم (بالغداة والعشي) ذكرهما كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقيل المراد صلاة العصر والفجر وقرئ غدوة وأنكره النحاس وقال ولا تكاد العرب تقول الغدوة ومعنى (يريدون وجهه) انهم يرتقبون بدعائهم رضا الله سبحانه لا عرض الدنيا وعن سلمان قال جاءت المؤلفة قلوبهم عيينة بن بدر والاقرع بن حابس فقالوا يارسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأباذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فانزل الله واتل ما أوحي اليك الى قوله انا اعتدنا للظالمين نارا أخرجه البيهقي وغيره وزاد أبو الشيخ عن سلمان ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني ان أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بعض ابياته واصبر نفسك الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الخلق فلما رآهم جلس معهم وقال الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ان أصبر نفسي معهم وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا المجلس الذي أمرت ان أصبر نفسي معهم وفي الباب روايات وعن ابن عمر قال انهم الذين يشهدون الصلوات الخمس وعن ابن عباس مثله وقيل نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم أمره سبحانه بالمراقبة لاحوالهم فقال (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا تتجاوز الى غيرهم قال الفراء معناه لا تصرف عينيك عنهم وقال الزجاج لا تصرف بصرك الى غيرهم من ذوي الهيآت والزينة واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو من عدوته عن الامر أي صرفته عنه وقال معناه لا تحتقرهم عيناك عبر بهما عن صاحبهما (تريد زينة الحياة الدنيا) أي مجالسة أهل الترف والشرف والغنى وصحبة أهل الدنيا والمعنى حال كونك مريدا لذلك هذا اذا كان فاعل تريد هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وان كان الفاعل ضميرا يعود الى العينين فالتقدير مريدة زينة الحياة الدنيا

الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما الى قوله لصادقون ولهذا قال ههنا

واسناد الارادة الى العينين مجاز وتوحيد الضمير للتلازم والاول أولى وهو نهى له صلى الله عليه وآله وسلم وان لم يرده وليس هو أكبر من قوله لئن أشركت ليحبطن عملك وان كان أعاذه من الشرك وانما هو على فرض المحال (ولا تطع من أغفلنا قلبه) اى جعلناه غافلا (عن ذكرنا) بالختم عليه نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه ان ينحى الفقراء عن مجلسه فانهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله (و) مع هذا فهم ممن (اتبع هواه) وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد (وكان أمره فرطا) أى متجاوزا عن حد الاعتدال من قولهم فرس فرط اذا كان متقدما على الخيل فهو على هذا من الافراط وقيل هو من التفريط وهو التقصير والتضييع والاول أظهر قال الزجاج ومن قدم العجز في أمره اضاعه وأهلكه عن ابن عباس قال نزلت فى أمية بن خلف وذلك انه دعا النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فانزل الله هذه الآية يعنى من ختمنا على قلبه يعنى التوحيد واتبع هواه يعنى الشرك وكان أمره فرطا يعنى فرطا فى أمر الله وجهالة به وعن ابن بريدة قال دخل عيينة بن حصن على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى يوم حار وعنده سلمان عليه جبة صوف فثار منه ريح العرق فى الصوف فقال عيينة يا محمد اذا نحن أتيناك فاخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا فاذا خرجنا فانت وهم اعلم فانزل الله ولا تطع الآية وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية وهى قوله ولا تطرد الذين الآية عن سعد بن أبى وقاص قال كنا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم اطرد هؤلاء لا يجترون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماشاء الله ان يقع فحدث نفسه فانزل الله ولا تطرد الذين الآية ثم بين سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما يقوله لأولئك الغافلين فقال (وقل الحق من ربكم) أى قل لهم ان ما أوحى الى وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء قال الزجاج أى الذى أتيتكم به هو الحق من ربكم يعنى لم آتكم به من قبل نفسى انما أتيتكم به من الله وعن قتادة قال الحق هو القرآن (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) قيل هو من تمام القول الذى أمر رسوله ان يقوله والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ويجوز ان يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذى أمر به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه تهديد شديد وتخويف وردع لا تخيير واباحة ويكون المعنى قل لهم يا محمد الحق من ربكم وبعد أن تقول لهم هذا القول من شاء ان يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ومن شاء ان يكفر به ويكذبك فليكفر وقال ابن عباس يقول من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وهو قوله وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين ثم أكد الوعيد وشدده فقال (انا اعتدنا) أى أعددنا وهيأنا (للظالمين) الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والانكار لانبيائه

وما ظلمناهم اى فيما ضيقنا عليهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون اى فاستحقوا ذلك كقوله فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات

(نارا) عظيمة (أحاط بهم) أى اشتمل عليهم (سرادقها) واحد السرادقات قال الجوهرى وهى التى تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف أى قطن فهو سرادق وقيل للحائط المشتمل على شئ سرادق قاله الهروى وقال الراغب السرادق فارسى معرب وليس فى كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان الاهذا يقال بيت مسردق وقال ابن الاعرابى سرادقها سورها وقال القتيبى السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط والمعنى انه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه وعن ابن عباس قال حائط من نار وأخرج أحمد والترمذى والحاكم وصححه وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال سرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة وأخرج أحمد والبخارى والحاكم وصححه عن يعلى بن امية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان البحر هو من جهنم ثم تلا نارا أحاط بهم سرادقها (وان يستغيثوا) من حر النار أى يطلبوا الانقاذ من شدة العطش (يغاثوا) فيه مشاكلة اذ لا اغاثة لهم بالماء الآتى ذكره بل اتيانهم به والجاؤهم بشربه غاية الاضرار والاغاثة هى الانقاذ من الشدة فكأنه قال يضروا و يعذبوا (بماء كالمهل) وهو الحديد المذاب قال الزجاج انهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر وقيل هو دردى الزيت أى ما بقى فى أسفل الاناء ووجه المشابهة الثخن والرداءة فى كل وقال أبو عبيدة والاخفش العكر وهو كل ما أذيب من جواهر الارض من حديد و رصاص ونحاس وقيل هو ضرب من القطران أخرج أحمد والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه فيه عن ابن عباس قال أسود كعكر الزيت وعنه قال ماء غليظ كدردى الزيت وعن ابن مسعود انه سئل عن المهل فدعا بذهب أو فضة فاذابه فلما ذاب قال هذا أشبه شئ بالمهل الذى هو شراب أهل النار ولونه لون السماء غير أن شراب أهل النار أشد حرا من هذا وعن ابن عمر هل تدرون ما المهل المهل مهل الزيت يعنى آخره ثم وصف هذا الماء الذى يغاثوا به بانه (يشوى الوجوه) اذا قدم عليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته والشى الانضاج بالنار من غير احراق (بئس الشراب) شرابهم هذا الذى يغاثون به (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ يقال ارتفقت أى اتكأت وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد و يقال ارتفق الرجل اذا نام على مرفقه وقال القتيبى هو المجلس والمنزل وقيل المجتمع وبه قال مجاهد وانما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فاى ارتفاق لاهل النار وأى متكأ (ان الذين آمنوا) هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين والمعنى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك (وعملوا الصالحات) من الاعمال (انا لا نضيع أجر من أحسن) منهم (عملا) وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى أجرهم أى نثيبهم بما تضمنه قوله (أولئك لهم جنات عدن) أى اقامة مستأنفة لبيان الاجر والاشارة الى من تقدم ذكره وقيل أولئك خبر ان الذين آمنوا وجملة انا لا نضيع اعتراض

احلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيرا ثم اخبر تعالى تكرما وامتنانا فى حق العصاة المؤمنين ان من تاب منهم اليه تاب عليه فقال ثم

وقيل غير ذلك (تجري من تحتهم الانهار) لان أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء وقد تقدم الكلام في كيفية جري الانهار من تحتها (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال الزجاج أساور جمع اسورة وهي جمع سوار وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك وظاهر الآية انها جميعها من ذهب وجاء في آية أخرى من فضة وفي أخرى من ذهب ولؤلؤ فيلبسون الاساور الثلاثة فيكون في يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ فعلم من هذا ان كلا من هذه الآية ومن آية هل أتى على الانسان ومن آية الحج ومن آية فاطر فيه الاخبار ببعض ما يحلون به ومن في من أساور للابتداء وقيل زائدة بدليل سقوطها في سورة هل أتى وحلوا أساور من فضة ومن في من ذهب للبيان وحكى الفراء يحلون بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام يقال حليت المرأة تحلى فهي حالية اذا لبست الحلى أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق) عطف على يحلون وبنى الفعل في التحلية للمفعول ايذانا بكرامتهم وان غيرهم يفعل بهم ذلك ويزينهم به بخلاف اللبس فان الانسان يتعاطاه بنفسه وقدم التحلي على اللباس لانه أشهى للنفس وخص الاخضر لانه الموافق للبصر ولكونه أحسن الالوان قال الكسائي السندس الرقيق واحده سندسة والاستبرق ما ثخن واحده استبرقة وكذا قال المفسرون وقيل ليس اجمعين وقيل الاستبرق هو الديباج وقيل هو المنسوج بالذهب قال القتيبي وهو فارسي معرب قال الجوهري وتصغيره أبيرق قال السمين وهل استبرق عربي الاصل مشتق من البريق أو معرب أصله استبره خلاف بين اللغويين قال مرثد بن عبد الله في الجنة شجرة تنبت السندس منه تكون ثياب أهل الجنة وعن عكرمة قال الاستبرق الديباج الغليظ وعن مجاهد مثله وفي آية الرحمن بطائنها من استبرق أي الفرش فيقاس عليها اللباس الذي الكلام فيه فظهارة الكل من سندس وبطانته من استبرق قال المحلي في سورة هل أتى فالاستبرق بطانة ثيابهم والسندس ظهارتها (متكئين فيها على الارائك) أصل اتكأ اوتكأ وأصل متكئين موتكئين والاتكاء التحامل على الشئ أي يجلسون متربعين ومضطجعين أخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الرجل ليتكئ مقدار أربعين سنة لا يتحول منه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه قال الزجاج الارائك جمع أريكة وهي السرر في الحجال وقيل هي اسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت وعن ابن عباس قال الارائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ وعنه قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة وعن عكرمة الارائك هي الحجال على السرر وفي القاموس الاريكة كسفينة سرير في حجلة أو كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش أو سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فان لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع أرائك (نعم الثواب) ذلك الذي أثابهم الله به وهو الجنة (وحسنت) تلك الارائك في الجنات (مرتفقا) أي متكأ ومقرا ومجلسا ومنتفعا ومسكنا ومنزلا وقد تقدم قريبا وقد اشتمل هذا القول على خمسة أنواع من

الثواب

ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أي أقلعوا عما كانوا فيه

الثواب الاول لهم جنات عدن الثانى تجرى من تحتهم الخ الثالث يحلون فيها الرابع ويلبسون الخامس متكئين (واضرب لهم مثلا رجلين) هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يغتر بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله واصبر نفسك وقد اختلف فى الرجلين هل هما مقدران أو محققان فقال بالاول بعض المفسرين وقال بالآخر بعض آخر واختلفوا فى تعيينهما فقيل هما اخوان من بنى اسرائيل أحدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قرطوس وهما اللذان وصفهما الله فى سورة والصافات بقوله قال قائل منهم انى كان لى قرين وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد ياليل والآخر كافر وهو الاسود بن عبد الاسد وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه وانتصاب مثلا ورجلين على انهما مفعولا اضرب قيل والاول هو الثانى والثانى هو الاول (جعلنا لاحدهما) هو الكافر (جنتين) قال السدى الجنة البستان فكان له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كانا جنتين ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها وعن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال نهر أبى فرطس نهر الجنتين قال ابن أبى حاتم وهو نهر مشهور بالرملة (من أعناب) بيان لما فى الجنتين أى من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة (وحففناهما بنخل) الحف الاحاطة ومنه حافين من حول العرش ويقال حف القوم بفلان يحفون حفا أى أطافوا به فمعنى الآية وجعل النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما وهذا مما يؤثره الدهاقين فى كرومهم ان يجعلوها موزرة بالاشجار المثمرة (وجعلنا بينهما) أى بين الجنتين وهو وسطهما (زرعا) يقتات به ليكون كل واحد منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الانيق ثم أخبر الله سبحانه عن الجنتين بان كل واحدة منهما كانت تؤدى حملها وما فيها فقال (كلتا الجنتين آتت أكلها) أخبر عن كلتا بآتت لان لفظه مفرد يدل على التثنية فراعى جانب اللفظ وقد ذهب البصريون الى ان كلا وكلتا اسم مفرد غير مثنى وقال الفراء هو مثنى وهو مأخوذ من كل نخففت اللام وزيدت الالف للتثنية وروعيت التثنية المعنوية فى قوله الآتى وفجرنا خلالهما نهرا وأكلها بضم الكاف وسكونها سبعيتان (ولم تظلم منه شيأ) أى لم تنقص من أكلها شيأ فى بعض السنين بل فى كل سنة يأتى ثمرها وافيا يقال ظلمه حقه أى أنقصه ووصف الجنتين بهذه الصفة للاشعار بانهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين فانها فى الغالب تكثر فى عام وتقل فى عام قال ابن عباس لم ينقص كل شجر الجنة أطعمة (وفجرنا) أى أجرينا وشققنا (خلالهما) أى وسط الجنتين (نهرا) يجرى بينهما يسقيهما دائما من غير انقطاع (وكان له) أى لاحدهما أو لصاحب الجنتين (ثمر) بفتح الثاء والميم وكذا قرؤا فى قوله أحيط بثمره وقرئ ثمر بضم الثاء واسكان الميم فى الموضعين وبه قرأ ابن عباس وقال هى أنواع المال قال الجوهرى الثمرة واحدة الثمر وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال قال الفراء وجمع الثمار ثمر مثل كتاب وكتب وجمع الثمر أثمار مثل عنق وأعناق انتهى والثمرة مؤنث والجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات والثمر هو

من المعاصى وأقبلوا على فعل الطاعات ان ربك من بعدها أى تلك الفعلة والزلة لغفور رحيم (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله

الحمل الذى تخرجه الشجرة سواء أكل أولا فيقال ثمر الاراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل كما يقال ثمر النخل وثمر العنب قال الازهرى أثمر الشجر أطلع ثمره أول ما يخرجه فهو مثمر ومن هنا قيل لما لانفع فيه ليس له ثمرة وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك سمى ثمرا لانه يثمر ويزيد مأخوذ من ثمر ماله بالتشديد اذا كثره وقيل الثمر هو الذهب والفضة خاصة قاله مجاهد (فقال) الكافر (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) أى والكافر يحاور المؤمن والمعنى يراجعه الكلام ويجاوبه والمحاورة المراجعة والتحاور التجاوب وحاصل ما قاله من القول الشنيع ثلاث مقالات الاولى (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) النفر الرهط وهو ما دون العشرة وأراد ههنا الاتباع والخدم والاولاد والعشيرة (ودخل جنته) أى دخل الكافر جنة نفسه قال المفسرون أخذ بيد أخيه المسلم فادخله جنته يطوف به فيها ويريه آثارها وعجائبها وبهجتها وحسنها وأثمارها ويفاخر بما ملك من المال دونه وافراد الجنة هنا يحتمل ان وجهه كونه لم يدخل أخاه الا واحدة منهما أو لكونهما لما اتصلتا كانتا كواحدة أو لانه أدخله فى واحدة ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما أو اكتفاء بالواحدة وقال المحلى لم يقل جنتيه ارادة للروضة وعبارة الشهاب أفرد الجنة مع ان له جنتين لنكتة وهى ان الاضافة تأتى لما تأتى له اللام فالمراد بها العموم والاستغراق أى كل ما هو جنة له ينتفع بها فيفيد ما أفادته التثنية مع زيادة وهى الاشارة الى أنه لا جنة له غير هذا انتهى وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على انه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون (وهو) أى ذلك الكافر (ظالم لنفسه) بكفره وعجبه قال قتادة كفور لنعمة ربه مستأنف ببيان لسبب الظلم (قال) أى الكافر لفرط غفلته وطول أمله (ما أظن ان تبيد) أى تفنى وتنعدم (هذه) الجنة التى تشاهدها (أبدا) وهذه هى الثانية من مقالاته والثالثة قوله (وما أظن الساعة قائمة) أنكر البعث بعد انكاره لفناء جنته قال الزجاج أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة (ولئن رددت الى ربى) اللام هى الموطئة للقسم والمعنى انه والله ان يرد الى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه واللام فى (لأجدن) جواب القسم والشرط أى لاجدن يومئذ (خيرا منها) على الافراد على ما فى مصاحف أهل البصرة والكوفة أى من هذه الجنة وفى مصاحف مكة والمدينة والشام منهما (منقلبا) هو المرجع والعاقبة لانها فانية وتلك باقية قال هذا قياسا للغائب على الحاضر وانه كما كان غنيا فى الدنيا سيكون غنيا فى الآخرة اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو الاستدراج له من الله (قال له) أى للكافر (صاحبه) المؤمن وقد تعقبه فى الثلاثة على سبيل اللف والنشر المشوش (وهو يحاوره) أى حال محاورته له منكرا عليه ما قاله (أكفرت) بقولك ما أظن الساعة قائمة استفهام توبيخ وتقريع أى لا ينبغى ولا يليق منك الكفر (بالذى خلقك) أى جعل أصل خلقك (من تراب) حيث خلق أباك آدم منه وهو أصلك وأصل مادة البشر فلكل فرد حظ من ذلك وقيل يحتمل انه كان كافرا بالله فانكر عليه ما هو عليه من الكفر ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة (ثم من نطفة) وهى المادة القريبة (ثم سواك رجلا)

حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين ثم

أى صيرك وجعلك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال وعدل أعضاءك وكملك وهو ظاهر كلام الحوفى وقيل انه حال ومن الجائز أن يسويه غير رجل وهو كقولهم خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها والاول أولى وانما جعل كفره بالبعث كفرا بالله لان منشأه الشك فى كمال قدرة الله فلذلك رتب الانكار على خلقه اياه من التراب وفى هذا تلويح بالدليل على البعث وان القادر على الابتداء قادر على الاعادة (لكنا) أصله لكن أنا وضمير (هو) للشأن والمعنى أنا أقول (الله ربى) قال أهل العربية اثبات ألف أنا فى الوصل ضعيف وعن الكسائى الاصل لكن الله هو ربى أنا وقال الزجاج اثبات الالف فى لكنا فى الادراج جيد لانه قد حذفت الالف من أنا فجاؤا بها عوضا قال وفى قراءة أبى لكن أنا هو الله ربى ولا خلاف فى اثباتها فى الوقف وتكلم فى الجمل على هذا الالف باطول من هذا ثم نفى عن نفسه الشرك بالله تعالى فقال (ولا أشرك بربى أحدا) فيه اشارة الى ان أخاه كان مشركا ثم أقبل عليه يلومه على الثانية فقال (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) لولا للتحضيض أى هلا قلت عندما دخلتها (ماشاء الله) قال الفراء والزجاج هلا قلت حين دخلتها الامر بمشيئة الله وماشاء الله كان وقيل كائن أى أى شئ شاء الله كان فترد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه ولا تفتخر به لانه ليس من صنعك وقوله (لا قوة الا بالله) من جملة مقول القول أى هلا قلت هاتين الجملتين تحضيضا له على الاعتراف بانها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها وعلى الاعتراف بالعجز وان ما تيسر له من عمارتها وحسنها ونضارتها انما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته وهذا نصح من المؤمن للكافر وتوبيخ له على قوله ما أظن ان تبيد هذه أبدا قال الزجاج لا يقوى احد على ما فى يده من ملك ونعمة الا بالله ولا يكون الا ماشاء الله أخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت علمنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمات أقولهن عند الكرب الله الله ربى لا أشرك به شيأ وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول ماشاء الله لا قوة الا بالله الا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ هذه الآية وفى اسناده عيسى بن عون وروى عن أنس نحوه موقوفا وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش قلت نعم قال أن تقول لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة الا بالله وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة ثم لما علمه الايمان وتفويض الامور الى الله سبحانه أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال (ان ترن) الرؤية علمية أو بصرية (أنا أقل منك مالا وولدا) أى لاجل ذلك تكبرت وتعظمت على ويجوز فى أنا وجهان أحدهما أن يكون مؤكدا لياء المتكلم والثانى انه ضمير الفصل بين المفعولين وأقل مفعول ثان أو حال بحسب الوجهين فى الرؤية الا انك اذا جعلتها بصرية تعين فى أنا أن يكون توكيدا لا فصلا لان شرطه ان يقع بين مبتدا وخبر أو ما أصله المبتدا والخبر وقرأ عيسى بن عمر أقل

أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله ابراهيم امام الحنفاء ووالد الانبياء

بالرفع ويتعين ان أنا مبتدأ وأقل خبره والجملة اما في موضع المفعول الثاني واما في موضع الحال على ما تقدم في الرؤية وما لا وولدا تمييزان وجواب الشرط قوله (فعسى ربي أن يؤتين) أي ان ترني أفقر منك فانا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة (خيرا من جنتك) في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما وفي الاول يكون الكافر أشد غيظا وحسرة وهذا رجاء من المؤمن وقرع على مقالة الكافر الاولى (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالغفران أي مقدارا قدره الله عليها اووقع في حسابه سبحانه وهو الحكم بتخريبها قال الزجاج الحسبان من الحساب أي يرسل عليها عذاب الحساب وهو حساب ما كسبت يداك وهو حسن وقال الاخفش حسبانا أي مرامي وقيل نارا (من السماء) واحدها حسبانة وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي والكرخي وقال ابن الاعرابي الحسبانة السحابة والوسادة والصاعقة وقال قتادة حسبانا عذابا وقال النضر بن شميل الحسبان سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تنزع في قوس ثم يرمي بعشرين منها دفعة والمعنى يرسل عليها مرامي من عذابه اما بردا واما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب (فتصبح صعيدا زلقا) مثل الجرز قاله ابن عباس أي فتصبح جنة الكافر بعد ارسال الله سبحانه عليها حسبانا أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم وقال قتادة أي قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء وفي اللغة من جملة معاني الصعيد وجه الارض وزلقا أي تزل فيه الاقدام لملاستها يقال مكان زلق بالتحريك أي دحض وقيل رملا هائلا وهو في الاصل مصدر قولك زلقت رجله تزلق زلقا وأزلقها غيره والمزلقة الموضع الذي لا تثبت عليه قدم وكذا الزلاقة وصف الصعيد بالمصدر مبالغة أو أريد به المفعول وصيرورتها كذلك لاستئصال نباتها وأشجارها بالذهاب والاهلاك فلم يبق له أثر (أو يصبح ماؤها غورا) أي ذاهبا في الارض لا تناله الايدي ولا الدلاء ولا سبيل اليه والغور الغائر وصف الماء بالمصدر مبالغة والمعنى انها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ويجيء الغور بمعنى الغروب والعطف على يرسل دون تصبح لان غور الماء لا يتسبب عن الصواعق والمرامي قال أبو حيان الا ان عنى بالحسبان القضاء الالهي فحينئذ يتسبب عنه اصباح الجنة صعيدا زلقا أو اصباح مائها غورا (فلن تستطيع له طلبا) أي لن تستطيع لطلب الماء الغائر فضلا عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها وقيل المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من اهلاك جنة الكافر فقال (وأحيط بثمره) أي أمواله كالنقد والمواشي وهذا راجع لقوله وكان له ثمر وأصل الاحاطة من احاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله الا أن يحاط بكم وهي عبارة عن اهلاكه وافنائه وهو معطوف على مقدر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء وأحيط بثمره أي أحاط العذاب والهلاك بثمره (فأصبح) أي صار صاحبها الكافر (يقلب كفيه) أي يضرب احدى يديه على الاخرى ويصفق بكف على كف وهو كناية عن الندم والتحسر كأنه قيل فأصبح يتندم (على ما أنفق فيها) أي في عمارتها واصلاحها من الاموال وقيل

ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال أن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا فأما الأمة فهو الامام الذي يقتدى به والقانت

المعنى

المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق لان الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال وهو بعيد جدا قال قتادة يصفق على ما أنفق فيها متلهفا على ما فاته (وهي خاوية على عروشها) أي والحال ان تلك الجنة ساقطة على دعائمها التي تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض مأخوذ من خوت النجوم تخوى اذا سقطت ولم تمطر في نوئها ومنه قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا قيل وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لانه الاصل وأيضا ذكر اهلاكها مغن عن ذكر اهلاك الباقي والعرش شبه بيت من حديد يجعل فوقه الثمام والجمع عروش والعريش مثله وجمعه عرش بضمتين كبريد وبرد وعريش الكرم ما يعمل مرتفعا يمتد عليه الكرم والجمع عرائش أيضا وقال الشهاب جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه الكرم فاذا سقط سقط ما عليه (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) هذه الجملة معطوفة على جملة يقلب كفيه أو حال من ضميره أي وهو يقول يعني انه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم انه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بانه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك أو كان هذا القول منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوى بل القصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه والاول هو الاقرب اذ يؤيده قوله (ولم تكن) بالتاء والياء سبعيتان (له) خبر كان (فئة) اسمها (ينصرونه من دون الله) صفة لفئة أي فئة ناصرة بدفع الهلاك عنها أو برد الهلاك منها أو برد مثله عليه وقيل هو الخبر ورجح الاول سيبويه والثاني المبرد واحتج بقوله ولم يكن له كفوا أحد والمعنى انه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ اليها وينتصر بها ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق (وما كان) في نفسه (منتصرا) اى ممتنعا بقوته عن اهلاك الله لجنته وانتقامه منه وقادرا على واحد من هذه الامور (هنالك) اى في ذلك المقام وقيل يوم القيامة (الولاية) بفتح الواو النصرة وبكسرها الملك أي القهر والسلطنة (لله) وحده لا يقدر عليها غيره (الحق) بالجر صفة الجلالة وبالرفع صفة الولاية وكل منهما راجع لفتح الواو وكسرها فالقراآت أربعة وكلها سبعية قال الزجاج ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقا وقيل هو على التقديم والتأخير أي الولاية لله الحق هنالك (هو) سبحانه (خير ثوابا) اى اثابة لاوليائه أي اعطاء الثواب في الدنيا والآخرة من غيره لو كان يثيب (وخير عقبا) اى عاقبة قرئ عقبا بسكون القاف وضمها وهما سبعيتان بمعنى واحد أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به يقال هذا عاقبة أمر فلان وعقباه أي أخراه ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال (واضرب) اى اذكر وقرر (لهم) أي لقومك (مثل الحياة الدنيا) أي ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا اليها وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس ثم بين سبحانه هذا المثل فقال (كماء) أي كصفة وحال وهيئة ماء فالمشبه هيئة الدنيا بهيئة ماء (أنزلناه من السماء فاختلط) اى تكاثف وغلظ (به) اى بسبب نزول الماء (نبات الارض) حتى استوى والتف بعضه على بعض أو امتزج الماء بالنبات فروى وحسن وعلى هذا كان حق التركيب أن يقال فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من

هو الخاشع المطيع والحنيف المنحرف قصدا عن الشرك الى التوحيد ولهذا قال ولم يك من المشركين قال سفيان الثوري عن

سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي العبيدين انه سأل عبدالله بن مسعود عن الامة القانت فقال الامة معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله

اختلاطهن موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة فى كثرته (فأصبح) اى صار النبات عن قريب (هشيما) يابسا والهشيم الكسير واحده هشيمة وهو اليابس وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ورجل هشيم ضعيف البدن وتهشم عليه فلان اذا تعطف واهتشم ما فى ضرع الناقة اذا احتلبه وهشم الثريد كسره وثرده قال ابن قتيبة كل ما كان رطبا فيبس فهو هشيم (تذروه) تفرقه وتنثره قال أبو عبيدة وابن قتيبة تذروه تنسفه (الرياح) قال ابن كيسان أى تذهب به وتجيء والمعنى متقارب وقرئ تذريه يقال ذرته الريح تذروه وأذرته تذريه وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه أى قلبته (وكان الله على كل شيء) من الاشياء (مقتدرا) اى كامل القدرة يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) يتجمل بهما فيها وهذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والابناء فأخبرهم الله سبحانه ان ذلك مما يتزين به فى الدنيا لا مما ينتفع به فى الآخرة كما قال فى الآية الاخرى انما أموالكم وأولادكم فتنة وقال ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال لا ينفع مال ولا بنون الآية وهذا اشارة الى قياس حذفت كبراه ونتيجته ونظمه هكذا المال والبنون زينة الحياة الدنيا وكل ما هو زينتها فهو هالك غير باق ينتج المال والبنون هالكان ثم يقال وكل ما هو هالك فلا يفتخر به فالمال والبنون لا يفتخر بهما ولهذا اعقب هذه الزينة الدنيوية بقوله (والباقيات الصالحات) أى اعمال الخيرات التى تبقى له ثمرتها أبد الابد وهى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات (خير) اى أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين (عند ربك ثوابا) وأكثر عائدة ومنفعة لاهلها (وخير أملا) يعنى ان الاعمال الصالحة لاهلها من الامل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين لانهم ينالون بها فى الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الاغنياء فى الدنيا وليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قال بعض آخر ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وبهذا يعرف ان تفسير الباقيات الصالحات فى الاحاديث بما سيأتى لا ينافى اطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها عن على قال المال والبنون حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد جمعهما الله لاقوام عن ابن عباس قال الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة الا بالله وأخرج الطبرانى وغيره عن أبى الدرداء مرفوعا بلفظ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله هن الباقيات الصالحات وأخرج النسائى والطبرانى فى الصغير والبيهقى وغيرهم عن أبى هريرة مرفوعا خذوا جنتكم قيل

يارسول الله من أي عدو قد حضر قال بل جنتكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر فانهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات وهي الباقيات الصالحات وعن عائشة مرفوعا وزادت ولا حول ولا قوة الا بالله أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وكل هذه الاحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فاحاديث كثيرة لا فائدة في ذكرها ههنا وعن قتادة كل شيء من طاعة الله فهو من الباقيات الصالحات فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج والعمرة وصيام رمضان والكلام الطيب وغير ذلك اندراجا أوليا (ويوم نسير الجبال) بالنون على ان فاعله هو الله سبحانه وقرئ بالتحتية وبالفوقية على ان الجبال فاعل ويناسب الاولى قوله تعالى واذا الجبال سيرت ويناسب الثانية قوله تعالى وتسير الجبال سيرا ومعنى تسيير الجبال ازالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ومنه قوله تعالى وهي تمر مر السحاب ثم تعود الى الارض بعد ان جعلها الله كما قال وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا والمعنى نذهب بها عن وجه الارض ونجعلها هباء منثورا كما يسير السحاب والخطاب في قوله (وترى الارض بارزة) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للرؤية والرؤية بصرية ومعنى بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان وقيل المراد ببروزها بروز ما فيها من الكنوز والاموات كما قال سبحانه وألقت ما فيها وتخلت وقال وأخرجت الارض أثقالها فيكون المعنى وترى الارض بارزا ما في جوفها قال قتادة ليس عليها بناء ولا شجر ولا بحر ولا حيوان وعن مجاهد نحوه (وحشرناهم) أي الخلائق ومعنى الحشر الجمع أي جمعناهم الى الموقف من كل مكان وفيه ثلاثة أوجه أحدها انه ماض مراد به المستقبل أي ونحشرهم وكذلك وعرضوا ووضع الكتاب الآتيان والثاني ان الواو للحال اي نفعل التسيير في حال حشرهم ليشاهدوا تلك الاهوال والثالث للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال قاله الزمخشري قال الشيخ والاولى أن تكون الواو للحال (فلم نغادر) فلم نترك (منهم أحدا) والمفاعلة هنا ليس فيها مشاركة يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر لان الغادر يترك الوفاء للمغدور قالوا وانما سمي الغدير غديرا لان الماء ذهب وتركه والسيل غادره ومنه غدائر المرأة لانها تجعلها خلفها والغديرة الشعر الذي نزل حتى طال (وعرضوا على ربك صفا) أي مصفوفين كل أمة وزمرة صف وقيل عرضوا صفا واحدا كما في قوله ثم ائتوا صفا أي جميعا وهو أبلغ في القدرة وقيل قياما وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ليقضي بينهم لا ليعرفهم قاله الكرخي وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله تبارك وتعالى ينادي بصوت رفيع غير فظيع يا عبادي أنا الله لا اله الا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم فانكم مسؤلون محاسبون يا ملائكتي أقيموا عبادي على أطراف أنامل أقدامهم للحساب قال

وعن مالك قال قال ابن عمر الامة الذي يعلم الناس دينهم وقال الاعمش عن يحيى بن الجزار عن أبي العبيدين انه جاء الى عبد الله فقال

القرطبي هذا حديث غاية في البيان في تفسير الآية ولم يذكره كثير من المفسرين وقد كتبناه في كتاب التذكرة انتهى ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ أو يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم) أي مجيئاً كائناً كمجيئكم عند أن خلقناكم (أول مرة) أو كائنين كما خلقناكم أول مرة أي حفاة عراة غرلاً لا مال ولا ولد كما ورد ذلك في الحديث قال الزجاج أي بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم لأن قوله لقد جئتمونا معناه بعثناكم وبه قال الزمخشري (بل زعمتم) هذا اضراب وانتقال من كلام الى كلام للتقريع والتوبيخ وهو خطاب لمنكري البعث أي زعمتم في الدنيا (أن لن نجعل لكم موعدا) نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب (ووضع) العامة على بنائه للمفعول وزيد بن علي على بنائه للفاعل وهو الله أو الملك وقوله (الكتاب) مرفوع على الأول ومنصوب على الثاني والمراد به صحائف الأعمال وافراده لكون التعريف فيه للجنس والوضع اما حسي بأن توضع صحيفة كل واحد في يده السعيد في يمينه والشقي في شماله أو في الميزان واما عقلي أي أظهر عمل كل واحد من خير أو شر بالحساب الكائن في ذلك اليوم وقيل توضع بين يدي الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أي خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع من الأعمال السيئة لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع والمجازاة بالعذاب الأليم (ويقولون) اذا رأوها (يا ويلتنا) يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك وهو مصدر لا فعل له من لفظه ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب اقباله كأنه قيل يا ويل تعال أقبل فهذا أوانك ففيه استعارة مكنية وتخييلية وفيه تقريع لهم واشارة الى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وطلبوا اهلاكهم لئلا يروا ما هم فيه وقد تقدم تحقيقه في المائدة (ما) أي أي شيء ثبت (لهذا الكتاب) حال كونه (لا يغادر) لا يترك معصية (صغيرة ولا) معصية (كبيرة الا أحصاها) أي عدها وحواها وضبطها وأثبتها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وفي لفظ عنه الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك وقال سعيد بن جبير الصغيرة الهم والمس والقبلة والكبيرة الزنا وأول صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بالصغر وكل ذنب يتصف بالكبر فلا يبقى شيء من الذنوب الا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً فذلك انما هو بالنسبة الى العباد لا بالنسبة الى الله سبحانه وهذا لا ينافي قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه الآية اذ لا يلزم من العد عدم التكفير اذ يجوز أن تكتب الكبائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو عليه قاله الكرخي والاستفهام للتعجب منه في ذلك (ووجدوا ما عملوا) في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة أو وجدوا جزاء ما عملوا (حاضرا) مكتوباً مثبتاً في كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أي لا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب وجرم ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه وانما سمي هذا ظلماً بحسب عقولنا لو خليت ونفسها ولو فعله الله لم يكن ظلماً في حقه لأنه لا يسئل عما يفعل وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة

من نسأل اذا لم نسألك فكان ابن مسعود رفعه فقال اخبرني عن الأمة فقال الذي يعلم الناس الخير وقال الشعبي حدثني

فروة بن نوفل الاشجعي قال قال ابن مسعود ان معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا فقلت في نفسي غلط ابو عبد الرحمن وقال انما قال الله ان

فعند ذلك تطير الصحف في الايدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله أخرجه الترمذي وقال لا يصح من قبل ان الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى ثم انه سبحانه عاد الى الرد على أرباب الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار ابليس عليه فقال (واذ قلنا للملائكة) أي واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم بالخرور كما مر تحقيقه (فسجدوا) طاعة لامر الله وامتثالا لطلبه السجود (الا ابليس) فانه أبى واستكبر ولم يسجد (كان من الجن) مستأنفة لبيان سبب عصيانه وانه لم يكن من الملائكة فلهذا عصى والاستثناء منقطع وابليس هو أبو الجن وأصلهم كما ان آدم أصل الانس وله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وقيل كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وعلى هذا القول فقد نقل عن ابن عباس ان هذا النوع يتوالدون معصوماو الاستثناء متصل وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك ان قريشا قالت ان الملائكة بنات الله فهذا يدل على ان الملك يسمى جنا وتعضده اللغة لان الجن من الاجتنان وهو الستر فتدخل الملائكة فيه فكل ملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه كونه من الملائكة ان الله سبحانه استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل أو يصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال انه من الجن هذه الآية والجن جنس مخالف للملائكة واجيب عن الاستثناء بانه منقطع كما تقدم وهو مشهور في كلام العرب قال تعالى واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعته بترك السجود لآدم عليه السلام قال الفراء تقول العرب فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه قال النحاس اختلف في معناه على قولين الاول مذهب الخليل وسيبويه ان المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه كما تقول أطعمه من جوع والقول الآخر قول قطرب ان المعنى على حذف المضاف أي فسق عن ترك أمره وعن ابن عباس قال ان من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن فكان ابليس منهم وكان يوسوس ما بين السماء والارض فعصى فسخط الله عليه فسخه شيطانا رجيما وعنه قال كان خازن الجنان فسمي بالجان وعن الحسن قال قاتل الله أقواما زعموا ان ابليس كان من الملائكة والله يقول كان من الجن وعنه قال ما كان من الملائكة طرفة عين انه لأصل الجن كما ان آدم أصل الانس ثم انه سبحانه عجب من حال من اطاع ابليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال (أفتتخذونه) كأنه قال أعقيب ما وجد منه من الاباء والفسق تتخذونه (و) تتخذون (ذريته) أي أولاده وقيل اتباعه مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقال مجاهد من ذرية ابليس لاقس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة اللذان يوسوسان فيهما ومن ذريته مرة وبه يكنى وزلنبور وبتر والاعور ومطروس وداسم (أولياء من دوني) فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي (و) الحال ان (هم) أي ابليس وذريته (لكم عدو) أي أعداء وأفرده لكونه اسم جنس أو لتشبيهه

بالمصادر كما في قوله فإنهم عدو لي الا رب العالمين وقوله هم العدو أي كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم من لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت (بئس للظالمين) الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان فبئس ذلك البدل الذي استبدلوه (بدلا) عن الله سبحانه والتقدير بئس البدل ابليس وذريته (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) قال أكثر المفسرين الضمير للشركاء والمعنى انهم لو كانوا شركاء لي في خلقهما أو في خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه ولكنهم لم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم اياه أنا فليسوا لي بشركاء وهذا استدلال بانتفاء اللازم المساوي على انتفاء الملزوم وقيل الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين والمراد أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل اني ما أشهدتهم خلق ذلك وقيل المعنى ان هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الازل لانهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم فكيف يمكنهم ان يحكموا بحسن حالهم عند الله وقيل ما أشهدت الملائكة فكيف يعبدونهم وقيل لجميع الخلائق والاول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور وقرئ ما أشهدناهم ويؤيد الاول (وما كنت متخذ المضلين عضدا) أي ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق وفيه وضع الظاهر موضع المضمر اذ المراد المضلين من نفى عنهم اشهاد خلق السموات والارض والعضد يستعمل كثيرا في معنى العون وذلك ان العضد قوام اليد ومنه قوله سنشد عضدك باخيك أي سنعينك ونقويك به ويقال اعتضدت بفلان اذا استعنت به وذكر العضد على جهة المثل وأصله العضو الذي هو من المرفق الى الكتف ففي الكلام استعارة وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ والمعنى ما استعنت بهم على خلقهما ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا ووحد العضد لموافقة الفواصل وقرئ ما كنت على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي ما كنت يا محمد متخذا لهم عضدا ولا صح لك ذلك وفي عضد لغات أفصحها فتح العين وضم الضاد وبها قرأ الجمهور ثم عاد سبحانه الى ترهيبهم باحوال القيامة فقال (و) اذكر (يوم يقول) الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا (نادوا شركائي الذين زعمتم) انهم يشفعون لكم ويشفعون لكم وأضافهم سبحانه الى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (فدعوهم) أي فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء واستغاثوا بهم والمعنى على الاستقبال كما هو ظاهر (فلم يستجيبوا لهم) ذلك ولم ينصروهم أي لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم فضلا عن ان ينفعوهم أو يدفعوا عنهم (وجعلنا بينهم) أي بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء الله أو بين المؤمنين والكفار (موبقا) ذكر جماعة من المفسرين انه اسم واد عميق في جهنم فرق الله تعالى به بينهم وبه قال أنس وزاد من قيح ودم وقال ابن عمر فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة وقيل هو نهر يسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل الموبق البرزخ

ابراهيم كان امة فقال تدري ما الامة وما القانت قلت الله أعلم فقال الامة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكذلك كان

البعيد لانهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان وعلى هذا فهو اسم مكان قال ابن الاعرابي كل حاجز بين الشيئين فهو موبق وقال الفراء الموبق المهلك وبه قال مجاهد وابن عباس والمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكا لهم في الآخرة يقال وبق يوبق فهو وبق هكذا ذكره الفراء في المصادر وحكى الكسائي وبق يبق وبوقا فهو وابق والمراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه والاول أولى لان من جملة من زعموا انهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح فالموبق هو المكان الحائل بينهم وقال أبو عبيدة الموبق هنا الموعد للهلاك وقد ثبت في اللغة أوبقهم بمعنى أهلكهم ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الاول (ورأى المجرمون النار) أي عاينوها من مسيرة أربعين عاما وهو موضوع موضع الضمير للاشارة الى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به (فظنوا) أي أيقنوا (انهم مواقعوها) أي داخلوها وواقعون فيها والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها وقيل ان الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا (ولم يجدوا عنها مصرفا) أي معدلا يعدلون اليه أو انصرافا لان النار قد أحاطت بهم من كل جانب قال الواحدي المصرف الموضع الذي ينصرف اليه وقال القتيبي أي معدلا ينصرفون اليه وقيل ملجأ يلجأون اليه والمعنى متقارب في الجميع ولما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الامثال الواضحة حكى بعض أهوال الآخرة فقال (ولقد صرفنا) أي كررنا ورددنا وبينا (في هذا القرآن للناس) أي لاجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من الامثال التي من جملتها الامثال المذكورة في هذه السورة ليتذكروا ويتعظوا وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة بني اسرائيل وحين لم يترك الكفار ماهم فيه من الجدل بالباطل ختم الآية بقوله (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) أي خصومة في الباطل قال الزجاج المراد بالانسان الكافر واستدل عليه بقوله تعالى ويجادل الذين كفروا بالباطل وقيل المراد به في الآية النضر بن الحرث وقيل أراد أبي بن خلف والظاهر العموم وان هذا النوع أكثر شئ يتأتى منه الجدل جدلا ويؤيد هذا ماثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقلت يارسول الله انما أنفسنا بيد الله ان شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته يضرب فخذه ويقول كان الانسان أكثر شئ جدلا (ومامنع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) قد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة بني اسرائيل والناس هنا أهل مكة والهدى القرآن أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين) المعنى على حذف مضاف أي مامنع الناس من الايمان والاستغفار الاطلب أو انتظار اتيان سنة الاولين وانما احتيج الى حذف المضاف اذ لا يمكن جعل اتيان سنة الاولين مانعا عن ايمانهم فان المانع يقارن الممنوع واتيان العذاب متأخر عن عدم ايمانهم بمدة كثيرة وزاد الاستغفار في هذه السورة لانه قد ذكر هنا مافرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل وسنة الاولين هو أنهم اذا لم يؤمنوا اعذبوا عذاب الاستئصال قال قتادة عقوبة الاولين وقال الزجاج سنتهم هو

معاذ وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود اخرجه ابن جرير وقال مجاهد أمة اي أمة وحده والقانت المطيع وقال مجاهد ايضا كان

قولهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية (أو يأتيهم العذاب) أي عذاب الآخرة (قبلا) جمع قبيل قاله الفراء أي متفرقا يتلو بعضه بعضا وقيل عيانا وجهارا قاله الاعمش وقيل فجأة قاله مجاهد ويناسب ما قاله الفراء قراءة قبلا بضمتين فانه جمع قبيل نحو سبيل وسبل والمراد أصناف العذاب ويناسب التفسير الثاني أي عيانا قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي مقابلة ومعاينة وقرئ بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلا والحاصل معنى الآية انهم لا يؤمنون ولا يستغفرون الا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم أو عند اتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته (وما نرسل المرسلين) من رسلنا الى الأمم (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين (ومنذرين) للكافرين فالاستثناء مفرغ من أعم العام وقد تقدم تفسير هذا (ويجادل الذين كفروا بالباطل) مستأنف (ليدحضوا به) أي ليزيلوا بالجدال الباطل (الحق) ويبطلوه وأصل الدحض الزلق يقال دحضت رجله أي زلقت تدحض دحضا ودحضت الشمس عن كبد السماء أي زالت ودحضت حجته دحوضا بطلت والدحض الطين لانه يزلق فيه ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا وقولهم أبعث الله بشرا رسولا ونحو ذلك (واتخذوا آياتي) أي القرآن (و) اتخذوا (ما أنذروا) به من الوعيد والتهديد وما بمعنى الذي أو مصدرية قاله أبو حيان (هزوا) أي لعبا وباطلا وقد تقدم هذا في البقرة (ومن) أي لا أحد (أظلم) لنفسه (ممن ذكر) وعظ وقد روعي لفظ من في خمسة ضمائر هذا أولها وروعي معناها في خمسة أولها قوله على قلوبهم (بآيات ربه) التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما (فاعرض عنها) أي عن قبولها فتهاون بها ولم يتدبرها حق التدبر ولم يتفكر فيها حق التفكر وتركها ولم يؤمن بها وأتى بالفاء الدالة على التعقيب لان ما هنا في الأحياء من الكفار فانهم ذكروا فأعرضوا عقب ما ذكروا وقاله في السجدة بثم الدالة على التراخي لان ما هناك في الاموات من الكفار فانهم ذكروا مرة بعد أخرى ثم أعرضوا بالموت فلم يؤمنوا (ونسي ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصي فلم يتب عنها وقال قتادة ما سلف من الذنوب الكثيرة وقيل والنسيان هنا بمعنى الترك والتشاغل والتغافل عن كفره المتقدم وقيل هو على حقيقته (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية جمع كنان وفي القاموس انه جمع كن أيضا ونصه والكن وقاء كل شئ وستره كالكنة والكنان بكسرهما والجمع أكنان وأكنة والجملة تعليل لاعراضهم ونسيانهم قال الزجاج أخبر الله سبحانه ان هؤلاء طبع على قلوبهم (أن يفقهوه) أي لئلا يفقهوه (و) جعلنا (في آذانهم وقرا) أي ثقلا وصمما يمنع من استماعه سماع انتفاع وقد تقدم تفسير هذا في الانعام (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) لان الله تعالى قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم (وربك الغفور ذو الرحمة) أي كثير الرحمة بليغها وصاحب الرحمة التي وسعت كل شئ فلم يعاجلهم بالعقوبة ولهذا قال (لو يؤاخذهم) الله (بما كسبوا) أي بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها

الكفر

ابراهيم امة اى مؤمنا وحده والناس كلهم اذ ذاك كفار وقال قتادة كان امام هدى والقانت المطيع لله وقوله شاكرا لأنعمه

الكفر والمجادلة والاعراض وقال ابن عباس بما عملوا (لعجل لهم العذاب) أى عذاب الاستئصال فى الدنيا لاستحقاقهم لذلك (بل) جعل (لهم موعد) مصدر أو مكان أو زمان أى أجل مقدر لعذابهم قيل هو عذاب الآخرة وقيل يوم بدر وعن السدى يوم القيامة (لن يجدوا من دونه) أى من دون الله أو العذاب والثانى أولى وأبلغ لدلالته على انهم لا ملجأ لهم فان من يكون ملجأه العذاب كيف يرى وجه الخلاص (موئلا) أى ملجأ يلجؤن اليه ومرجعا وبه قال ابن عباس وقال أبو عبيدة منجا وبه قال ابن قتيبة وقيل محيصا وعن مجاهد قال محرزا (وتلك القرى) أى قرى عاد وثمود ولوط وأمثالها (أهلكناهم) هذا خبر اسم الاشارة والمعنى أهل القرى أهلكناهم فى الدنيا (لما ظلموا) أى وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصى (وجعلنا لمهلكهم) فى الآخرة المهلك هو مصدر هلك وقال الزجاج اسم للزمان والتقدير لوقت مهلكهم (موعدا) أى وقتا معينا وهو يوم القيامة فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم (و) اذكر (اذ قال موسى لفتاه) قيل ووجه ذكر هذه القصة فى هذه السورة ان اليهود لما سألوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة أصحاب الكهف وقالوا ان أخبركم فهو نبى والا فلا ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يلزمه ان يكون عالما بجميع القصص والاخبار وقد اتفق أهل العلم على ان موسى المذكور ههنا هو موسى بن عمران من سبط لاوى بن يعقوب قال الكرخى هذا هو الاصح كما قاله ابن عباس وعليه الجمهور من العلماء وأهل التاريخ وليس فى القرآن موسى غيره وقالت فرقة منهم نوف البكالى انه ليس موسى بن عمران وانما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم منهم ابن عباس كما فى صحيح البخارى وغيره كيف ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا انه موسى بن عمران والمراد بفتاه هو يوشع ابن نون بن افرائيم بن يوسف وقيل انه أخو يوشع وقيل انه عبده بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى والاول أولى وأصح وقد نبأه الله بعد موسى قال الواحدى اجمعوا على انه يوشع بن نون وقد مضى ذكره فى المائدة وفى آخر سورة يوسف ومن قال ان موسى هو ابن ميشى قال ان هذا الفتى لم يكن يوشع بن نون قال الفراء وانما سمى فتى موسى لانه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ويتبعه وهذا بيان وجه اضافته لموسى وكان ابن أخته ومعنى (لا أبرح) لا أزال سائرا ومنه قوله لن نبرح عليه عاكفين وبرح اذا كان بمعنى زال يزال فهو من الافعال الناقصة وخبره محذوف لدلالة ما بعده وهو (حتى أبلغ) أى أنتهى قاله ابن زيد (مجمع البحرين) أى ملتقاهما قال الزجاج لا أبرح بمعنى لا ازال وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ولان قوله حتى أبلغ غاية مضروبة فلا بد لها من ذى غاية فالمعنى لا أزال أسير الى ان أبلغ ويجوز أن يراد لا يبرح سيرى حتى أبلغ وقيل معناه لا افارقك حتى أبلغ وقيل يجوز أن يكون من برح التام بمعنى

أى فاعما بشكر نعم الله عليه كقوله تعالى وابراهيم الذى وفى أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به وقوله اجتباه أى اختاره واصطفاه

زال يزول فلا تستدعى خبرا بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا افارقه قيل المراد بالبحرين بحر فارس والروم وهما نحو المشرق والمغرب قاله قتادة وقيل بحر الاردن و بحر القلزم وجمع البحرين عند طنجة قاله محمد بن كعب وقيل بافريقية قاله أبي بن كعب وقيل ان ملتقاهما عند البحر المحيط وقالت طائفة المراد بالبحرين موسى والخضر وهو من الضعف بمكان وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح (أو أمضى) أى أسير (حقبا) أى زمانا طويلا قال الجوهرى الحقب بالضم ثمانون سنة وقال مجاهد سبعون خريفا وقيل سنة واحدة بلغة قريش وفى معناه الحقبة بالكسر والضم وتجمع الاولى على حقب بكسر الحاء كقربة وقرب والثانية على حقب بضم الحاء كغرفة وغرف وقال النحاس الذى يعرفه أهل اللغة ان الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود كما ان رهطا وقوما مبهمان غير محدودين وجمعه أحقاب وسبب هذه العزمة على السير من موسى عليه السلام ما روى انه سئل موسى من أعلم الناس فقال أنا فاوحى الله اليه ان عبدا الى بمجمع البحرين هو أعلم منك (فلما بلغا) أى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين البحرين وأضيف مجمع الى الظرف توسعا وقيل البين بمعنى الافتراق أى البحران المفترقان يجتمعان هناك وقيل الضمير لموسى وخضر أى وصلا الموضع الذى يكون فيه اجتماع شملهما ويكون البين على هذا بمعنى الوصل لانه من الاضداد والاول أولى (نسيا حوتهما) قال المفسرون انهما تزودا حوتا مملحا فى زنبيل وكانا يصيبان منه عند حاجتهما الى الطعام وكان قد جعل الله فقده أمارة لهما على وجدان المطلوب والمعنى انهما انسيا تفقد أمره وقيل الذى نسى انما هو فتى موسى لانه وكل أمر الحوت اليه وأمره ان يخبره اذا فقده وانما أضاف النسيان اليهما لانهما تزوداه لسفرهما والثانى أولى لقوله فانى نسيت الحوت وهو كقوله نسوا زادهم وانما نسيه متعهد الزاد فلما انتهيا الى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فاحياه الله فتحرك واضطرب فى المكتل ثم انسرب فى البحر ولهذا قال (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى اتخذ الحوت سبيلا سربا وهو النفق الذى يكون فى الارض للضب ونحوه من الحيوانات قال سعيد بن جبير أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر وذلك ان الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت فصار كالطاق فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوة المحفورة فى الارض قال الفراء لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب فلما جاوزا ذلك المكان الذى كان عند الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا فاصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر ولهذا قال سبحانه (فلما جاوزا) مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة (قال لفتاه آتنا غداءنا) هو ما يؤكل بالغداة وأراد موسى ان يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا واعياء واشارة هذا الى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة الموعد فانهما لم يجدا النصب الا فى ذلك دون ما قبله والنصب بفتح النون والصاد وبضمهما وهما لغتان من لغات أربع فى هذه اللفظة

كقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ثم قال وهداه الى صراط مستقيم وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع

قاله

قاله أبو الفضل الدارمي في لوامحه (قال) لموسى فتاه (أرأيت) معنى الاستفهام تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك مما لا يكاد ينسى لانه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة (اذ أوينا الى الصخرة) وكانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد وانما ذكرها دون ان يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان لاحتمال ان يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره (فانى نسيت الحوت) أى نسيت ان أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الامور العجيبة وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدم ذكره لبيان ان ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما وأمارة لوجدان مطلوبهما ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان فقال (وما انسانيه الا الشيطان) بما يقع منه من الوسوسة (ان أذكره) بدل اشتمال من الضمير فى انسانيه وفى مصحف عبد الله وما انسانيه ان أذكره الا الشيطان (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) يحتمل ان يكون هذا من كلام يوشع أخبر موسى ان الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس وموضع التعجب ان يحيا حوت قد مات وأكل شقه ثم يثب الى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان الماء ويحتمل ان يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت فيكون ما بين الكلامين اعتراضا وقال أبو الشجاع فى كتاب الطبرى أتيت به فرأيته فاذا هو شقة حوت بعين واحدة وشق آخر ليس فيه شئ من اللحم عليه قشرة رقيقة تحتها الشوك (قال) موسى لفتاه (ذلك) الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع (ما كنا نبغ) ونطلبه فان الرجل الذى نريده هو هنالك وياء نبغ من ياآت الزوائد فلا تثبت رسما وقفا لا وصلا وابن كثير أثبتها فى الحالين (فارتدا على آثارهما قصصا) أى رجعا على الطريق الذى جاآ منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما أى قاصين أو مقتصين والقصص فى اللغة اتباع الاثر قال قتادة عودهما على بدئهما (فوجدا عبدا من عبادنا) هو الخضر فى قول جمهور المفسرين وعلى ذلك دلت الاحاديث الصحيحة وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر وقيل كان ملك من الملائكة قيل سمى الخضر لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله قاله مجاهد قيل واسمه بليا بن ملكان وهو من نسل نوح عن ابن عباس قال الخضر بن آدم لصلبه ونسى له فى أجله حتى يكذب الدجال وفيه نظر وقيل كان من بنى اسرائيل أو من ابناء الملوك تزهد وترك الدنيا وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال انما سمى الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز من خلفه خضراء والخضر بكسر الخاء مع سكون الضاد وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ففيه لغات ثلاثة وهذا لقبه وكنيته أبو العباس ثم وصفه الله سبحانه فقال (آتيناه رحمة من عندنا) قيل الرحمة هى النبوة والهداية قاله ابن عباس وقيل النعمة التى أنعم الله بها عليه وهى الولاية وعليه الاكثر والجمهور من العلماء على انه حى الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة والاصح ما ذهب اليه أهل الحديث من عدم حياته والله أعلم قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب

مرضى وقوله وآتيناه فى الدنيا حسنة أى جعلنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن اليه فى اكمال حياته الطيبة وانه فى

الرد على المنطقيين ومن ملاحدة المتصوفة من يزعم ان ارسطو كان هو الخضر خضر موسى وقوالهم هذا من اظهر الكذب البارد والخضر على الصواب مات قبل ذلك بزمان طويل والذين يقولون انه حي كبعض العباد وبعض العامة وكثير من اليهود والنصارى غالطون في ذلك غلطا لا ريب فيه وسبب غلطهم انهم يرون في الاماكن المنقطعة وغيرها من يظن انه من الزهاد و يقول انه الخضر و يكون ذلك شيطانا قد تمثل بصورة آدمي وهذا مما علمناه في وقائع كثيرة حتى في المكان الذي كتبت فيه هذا عند الربوة بدمشق رأى شخص بين الجبلين صورة رجل قد سد ما بين الجبلين و بلغ رأسه رأس الجبل وقال أنا الخضر وأنا نقيب الاولياء وقال للرجل الرائي أنت رجل صالح وانت ولي الله ومد يده الى فاس كان الرجل نسيه في مكان وهو ذاهب اليه فناوله اياه وكان بينه وبين ذلك المكان نحو ميل ومثل هذه الحكاية كثير وكل من قال انه رأى الخضر وهو صادق فاما ان يتخيل له في نفسه انه رآه و يظن ما في نفسه كان في الخارج كما يقع لكثير من أرباب الرياضات واما ان يكون جنيا يتصور له بصورة انسان ليضله وهذا كثير جدا قد علمنا منه ما يطول وصفه واما أن يكون رأى انسيا ظن انه الخضر وهو غالط في ظنه فان قال له ذلك الجني أو الانسي انه الخضر فيكون قد كذب عليه لا يخرج الصدق في هذا الباب عن هذه الاقسام الثلاثة وأما الاحاديث فكثيرة ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة انه رأى الخضر ولا اجتمع به لانهم كانوا أكمل علما وايمانا من غيرهم فلم يكن يمكن شيطان التلبيس عليهم كما لبس على كثير من العباد ولهذا كثير من الكفار اليهود والنصارى يأتيهم من يظنون انه الخضر ويحضر في كنائسهم وربما حدثهم باشياء وانما هو شيطان جاء اليهم يضلهم ولو كان الخضر حيا لوجب عليه ان يأتي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيؤمن به و يجاهد معه كما أخذ الله الميثاق على الانبياء واتباعهم بقوله واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه والخضر قد أصلح السفينة لقوم من عرض الناس فكيف لا يكون بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وهو ان كان نبيا فنبينا أفضل منه وان لم يكن نبيا فأبو بكر وعمر أفضل منه وهذا مبسوط في موضعه انتهى وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذه القصة ان شاء الله تعالى (وعلمناه) من علم الغيب الذي استأثرنا به وفي قوله (من لدنا علما) تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له قال الزجاج وفيما فعل موسى وهو من أجلة الانبياء من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على انه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وان يتواضع لمن هو أعلم منه ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال (قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا) في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في الادب والتواضع لانه استجهل نفسه واستأذنه ان يكون تابعا له على ان يعلمه مما علمه الله من العلم والرشد بضم الراء وسكون الشين هو الوقوف على الخير واصابة الصواب أي علما ذا رشد أرشد به وقرئ رشدا بفتحتين وهما لغتان كالبخل والبخل وفي الآية دليل على ان المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب وليس في ذلك ما يدل على ان الخضر أفضل من موسى فقد يأخذ الفاضل

عن

الآخرة لمن الصالحين وقال مجاهد في قوله وآتيناه في الدنيا حسنة أي لسان صدق وقوله ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا أي

عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول اذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر فقد كان علم موسى علم الاحكام الشرعية والقضاء بظاهرها وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن وقد زل أقدام أقوام من الضلال فى هذا المقام فى تفضيل الولى على النبى حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولى وهو كفر جلى والجواب ماذكرناه (قال) الخضر لموسى (انك لن تستطيع معى صبرا) أى لا تطيق ان تصبر على ماتراه منى لان الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك ثم أكد ذلك مشيرا الى علة عدم الاستطاعة فقال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) أى كيف تصبر على علم ظاهره منكر وأنت لا تعلم ومثالك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والاقرار عليه والخبر العلم بالشئ والخبير بالامور هو العالم بخفاياها وما يحتاج الى الاختبار منها (قال) موسى للخضر (ستجدنى ان شاء الله صابرا) معك ملتزما طاعتك وانما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر ولم يستثن الخضر لانه فى مقام التعليم (ولا أعصى لك أمرا) أى لا أخالفك فيما تأمرنى به والتقييد بقوله ان شاء الله شامل للصبر ونفى المعصية وقيل ان التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لانه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ويجاب عنه بان الصبر ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوما عليه فى الحال وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل (قال) الخضر لموسى (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ) مما تشاهد من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك الله به أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره وبيان وجهه ومايؤول اليه وفيه ايذان بان كل ماصدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفات لانها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها واعلم انها قد رويت فى قصة موسى مع الخضر المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة وأتمها وأكملها ماروى عن ابن عباس ولكنها اختلفت فى بعض الالفاظ وكلها مروية عن سعيد بن جبير عنه وبعضها فى الصحيحين وغيرهما وبعضها فى أحدهما وبعضها خارج عنهما وقد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ومن طرق أخرى فلنقتصر على الرواية التى هى أتم الروايات الثابتة فى الصحيحين ففى ذلك ما يغنى عن غيره وهى قال سعيد ابن جبير قلت لابن عباس ان نوفا البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبى بن كعب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان موسى قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله اليه ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى

ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه انا أوحينا اليك يا خاتم الرسل وسيد الانبياء ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من

البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه ان يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي امره الله به فقال له فتاه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا قال سفيان يزعم الناس ان تلك الصخرة عند ها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا الا عاش قال وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال أنا موسى قال موسى بني اسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا يا موسى اني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه قال موسى ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا فقال له الخضر فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا في السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فاخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا قال وهذه أشد من الاولى قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فاقامه قال مائل فقال الخضر بيده هكذا فاقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وددنا ان موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير وكان ابن عباس يقرأ وكان امامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب فيها موافقة لهذه الرواية في المعنى وان تفاوتت الالفاظ في بعضها فلا فائدة في الاطالة بذكرها وكذلك روايات غير سعيد عنه (فانطلقا) أي موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة

المشركين كقوله في الانعام قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ثم قال تعالى

ومعهما يوشع وانما لم يذكر فى الآية لانه تابع لموسى فالمقصود ذكر موسى والخضر وقال القشيرى والاظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر وقال أبو العباس اكتفى بذكر المتبوع عن التابع فمرت بهم سفينة فكلموهم ان يحملوهم فحملوهم بغير نول (حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها) قيل قلع لوحا من الواحها وقيل لوحين مما يلى الماء بفاس لما بلغت اللجج وقيل خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق اليها (قال) موسى (أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيأ امرا) اى عظيما يقال أمر الامر اذا كبر وعظم والامر الاسم منه وقال ابو عبيدة الامر الداهية العظيمة وقال القتيبى الامر العجب وبه قال قتادة وقال الاخفش أمر أمره يأمر اذا اشتد والاسم الامر وقال ابن عباس امرا نكرا وعن مجاهد نحوه روى ان الماء لم يدخلها (قال) الخضر (ألم أقل انك ان تستطيع معى صبرا) أذكره ماتقدم من قوله له سابقا انك لا تستطيع معى صبرا (قال) موسى (لا تؤاخذنى بما نسيت) ماصدرية أى لا تؤاخذنى بنسيانى أو موصولة أى لا تؤاخذنى بالذى نسيته وهو قول الخضر فلا تسألنى عن شئ حتى احدث لك منه ذكرا فالنسيان اما على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك او بمعنى الترك على تقدير انه لم ينس ما قاله له ولكنه ترك العمل به عن ابى بن كعب قال لم ينس ولكنها من معاريض الكلام اى اورده فى صورة دلت على النسيان ولم يقصد نسيان الوصية بل نسيان شئ آخر حتى لا يلزم الكذب قاله الكازرونى قيل كانت الاولى من موسى نسيا والثانية شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقنى) اى لا تكلفنى (من امرى عسرا) مشقة فى صحبتى قال ابو زيد أرهقته عسرا اذا كلفته ذلك والمعنى عاملنى باليسر والعفو لا بالعسر وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا) بعد خروجهما من السفينة يمشيان (حتى اذا لقيا غلاما) قيل كان اسمه شمعون ذكره القرطبى ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير قيل كان الغلام يلعب مع الصبيان (فقتله) أى فاقتلع الخضر رأسه أو ذبحه بالسكين أو ضرب رأسه بالجدار أقوال وأتى هنا بالفاء العاطفة لان القتل عقب اللقى وجواب اذا (قال) موسى (أقتلت نفسا زكية) هى البريئة من الذنوب أى الطاهرة قال ابو عمرو الزاكية التى لم تذنب والزكية التى اذنبت ثم تابت وقال الكسائى الزاكية والزكية لغتان وقال الفراء الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية قال ابن عباس زاكية مسلمة وقال سعيد ابن جبير لم يبلغ الخطايا وعن الحسن نحوه (بغير) قتل (نفس) محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا (لقد جئت) اى فعلت (شيأ نكرا) اى فظيعا منكرا لا يعرف فى الشرع قرئ بسكون الكاف وضمها وهما سبعيتان قيل معناه أنكر من الامر الاول لكون القتل لا يمكن تداركه بخلاف نزع اللوح من السفينة فانه يمكن تداركه بارجاعه وقيل النكر أقل من الامر لان قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة وعن قتادة قال النكر أنكر من العجب قيل استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ولم يتأول للخضر بانه يحل القتل باسباب أخر عن أبى العالية عند ابن المنذر وابن أبى حاتم قال كان الخضر عبدا لا تراه الأعين الا من أراد الله ان يريه اياه فلم يره من القوم الا موسى ولو رآه

منكرا على اليهود (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) لاشك ان

القوم لحالوا بينه و بين خرق السفينة و بين قتل الغلام وأقول ينبغي ان ينظر من أين له هذا فان لم يكن مستنده الا قوله ولو رآه القوم الخ فليس ذلك بموجب لما ذكره أما أولا فان من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام لا لكونه لا تراه الاعين بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم وأما ثانيا فيمكن ان أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول وعرفوا انه لا يفعل ذلك الا بأمر من الله كما يفعل الانبياء فسلموا الامر لله وعن عطاء قال كتب نجدة الحروري الى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان فكتب اليه ان كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم وفي لفظ ولكنك لا تعلم وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتلهم فاعتزلهم وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو أدرك لأرهق بأبويه طغيانا وكفرا (قال) الخضر (ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) زاد هنا لفظ لك لان سبب العتاب أكثر وموجبه اقوى فقد نقض العهد مرتين وقيل زاد لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه لك اقول واياك أعني وقيل زاد لعدم العذر هنا تحاملا في الخطاب وتقريعا لموسى ولهذا (قال) موسى (ان سألتك عن شئ بعدها) اي بعد هذه المرة او بعد هذه النفس المقتولة (فلا تصاحبني) اي لا تجعلني صاحبا لك وقرئ تصحبني قال الكسائي معناه لا تتركني اصحبك وقرئ بضم التاء والباء وتشديد النون نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ولذا قال (قد بلغت من لدني عذرا) في مفارقتك لي يريد انك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات وهذا كلام نادم شديد الندامة اضطره الحال الى الاعتراف وسلوك سبيل الانصاف وقرأ الجمهور لدني مخففا وشددها الباقون وعن أبي قال ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ من لدني عذرا مثقلة اخرجه ابو داود والترمذي والطبراني وغيرهم وقرأ الجمهور عذرا بسكون الذال وقرئ بضمها وحكى الداني ان أبيا روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكسر الراء وياء بعدها باضافة العذر الى نفسه (فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية) قيل هي ايلة وهي أبعد الارض من السماء وقيل انطاكية وقيل برقة وقيل قرية من قرى أذربيجان وقيل قرية من قرى الروم وقيل هي بلدة بالاندلس (استطعما اهلها) طلبا منهم الطعام بضيافة وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد أو للتأسيس او لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة أو لزيادة التشنيع على اهل القرية باظهارهم (فأبوا أن يضيفوهما) اي ان يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية فقد أخطأ خطأ مبينا ومن ذلك قول بعض الادباء الذين يسألون الناس

فان رددت فما في الرد منقصة * على قد رد موسى قبل والخضر

وقد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الاحاديث الصحيحة الكثيرة عن ابي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ أن يضيفوهما مشددة قيل شر القرى التي تبخل

بالقرى

الله تعالى شرع في كل ملة يوما من الاسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الامة يوم الجمعة لانه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وعت

بالقرى أى لا تضيف الضيف قيل اطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد ان طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم (فوجدا فيها) أى فى القرية (جدارا) طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا وامتداده على وجه الارض خمسمائة ذراع (يريد أن ينقض) اسناد الارادة الى الجدار مجاز قال الزجاج الجدار لا يريد ارادة حقيقية الا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالارادة ومعنى الانقضاض السقوط بسرعة يقال انقض الحائط اذا وقع وانقض الطائر اذا هوى من طيرانه فسقط على شئ (فأقامه) أى فسواه الخضر بيده لانه وجده مائلا فرده كما كان وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قرأ يريد ان ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه قلت ورواية الصحيحين التى قدمناها انه مسحه بيده أولى (قال) موسى (لو شئت لاتخذت) عن أبى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قرأ لتخذت مخففا يقال تخذ فلان يتخذ تخذا مثل اتخذ (عليه اجرا) أى على اقامته واصلاحه تحريضا من موسى للخضر على اخذ الجعل والاجرة ليتعشيا به او تعريضا بانه فضول والاول أولى قال الفراء معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الاجر (قال) الخضر (هذا فراق بينى وبينك) على اضافة فراق الى الظرف اتساعا أى هذا الكلام والانكار منك على ترك الاجر هو المفرق بيننا قال الزجاج المعنى هذا فراق بيننا أى هذا فراق اتصالنا وكرر بين تأكيدا أخرج أبو داود والنسائى والترمذى والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لقص الله علينا من خبره ولكن قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الافعال التى أنكرها موسى فقال (سأنبئك) قبل فراقى لك (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) اى الامور الثلاثة المتقدمة والمراد بالتأويل اظهار ما كان باطنا ببيان وجهه قاله الشهاب وفى القرطبى المراد بالتأويل التفسير واصل التأويل رجوع الشئ الى مآله ثم شرع فى البيان له فقال (أما السفينة) يعنى التى خرقها (فكانت لمساكين) لضعفاء عشرة وكانوا اخوة لا يقدرون على دفع من اراد ظلمهم وقد ذكر النقاش اسماءهم وقرأ جماعة مساكين بتشديد السين واختلف فى معناها فقيل هم ملاحو السفينة وذلك ان المسالك هو الذى يمسك السفينة والاظهر قراءة الجمهور بالتخفيف (يعملون فى البحر) ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الاجرة وقد استدل الشافعى بهذه الآية على ان الفقير أسوأ حالا من المسكين (فأردت أن أعيبها) أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها (وكان وراءهم ملك) جملة حالية باضمار قد قال المفسرون يعنى امامهم وعن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ أمامهم وعن أبى بن كعب انه قرأها كذلك وكتب عثمان وكان وراءهم ووراء يكون امام وقدمر الكلام على هذا فى قوله ومن ورائه عذاب غليظ وقيل اراد خلفهم وكان طريقهم فى الرجوع عليه وما كان

النعمة على عباده ويقال ان الله تعالى شرع ذلك لبنى اسرائيل على لسان موسى فعدلوا به عنه واختاروا السبت لانه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيأ من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة فألزمهم تعالى به فى شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وان يحافظوا عليه مع أمره اياهم بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم اذا بعثه وأخذ مواثيقهم

عندهم خبر بانه (ياخذ كل سفينة) صالحة لا معيبة (غصبا) نصبه على المصدر المبين لنوع الاخذ وقد قرأ ابن عباس وابي بن كعب بزيادة صالحة والملك الغاصب كان اسمه الجلندى الازدي وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد وقيل كان ملك غسان واسمه جيسور ذكره القرطبي (واما الغلام) يعني الذي قتله (فكان ابواه مؤمنين) ولم يكن هو كذلك وقرأ ابن عباس واما الغلام فكان كافرا وكان ابواه مؤمنين (فخشينا) الخشية خوف يشوبه تعظيم واكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا والاول اولى وعن قتادة هي في مصحف عبد الله فخاف ربك (ان يرهقهما) اي يرهق الغلام ابويه يقال رهقه اي غشيه وارهقه اغشاه قال المفسرون معناه خشينا ان يحملهما حبه على ان يتبعاه في دينه وهو الكفر وقيل المعنى فخشينا ان يرهق الوالدين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بعقوقه وقيل ويجوز ان يكون فخشينا من كلام الله ويكون المعنى كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة امر فغيره وهذا ضعيف جدا فان الكلام كلام الخضر وقد استشكل بعض اهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة فقيل انه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ويكون معنى فخشينا الخ ان الخضر خاف على الابوين ان يتابعاه ويتعصبا له فيقعان في المعصية وقد يؤدي ذلك الى الكفر والارتداد والحاصل انه لا اشكال في قتل الخضر له اذا كان بالغا كافرا او قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويمكن ان يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك واما اذا كان الغلام صبيا غير بالغ فقيل ان الخضر علم باعلام الله له انه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره اضلال ابويه وكفرهما وهذا وان كان ظاهر الشريعة الاسلامية يأباه فان قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية ان يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية ولكنه حل في شريعة اخرى فلا اشكال (فاردنا ان يبدلهما) الابدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه قال الزجاج معنى فاردنا فاراد الله ومثله في القرآن كثير وقيل المعنى اردنا ان يرزقهما الله (ربهما) بدل هذا الولد ولدا (خيرا منه) والتفضيل ليس على بابه (زكاة) اي دينا وصلاحا وتقوى وطهارة من الذنوب (واقرب رحما) بسكون الحاء وقرئ بضمها الرحمة يقال رحمه الله رحمة ورحما والالف للتأنيث قال ابن عباس رحما مودة فابدلا جارية ولدت نبيا (واما الجدار) يعني الذي أصلحه (فكان لغلامين يتيمين) قيل اسمهما اصرم وصريم (في المدينة) هي القرية المذكورة سابقا وفيه جواز اطلاق المدينة على القرية لغة وقيل عبر عنها بالقرية تحقيرا لها لخسة اهلها وعبر عنها بالمدينة تعظيما لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى ابيهما (وكان تحته كنز لهما) قيل كان مالا جسيما كما يفيده لفظ الكنز وبه قال عكرمة وقتادة اذ هو المال المجموع قال الزجاج المعروف في اللغة ان الكنز اذا افرد فمعناه المال المدفون فاذا لم يكن مالا قيل كنز علم وكنز فهم وقيل لوح من ذهب وقيل علم في صحف مكتوبة مدفونة عن قتادة قال كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا واحلت لنا

وعيدهم على ذلك ولهذا قال تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه قال مجاهد اتبعوه وتركوا الجمعة ثم انهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال انه حولهم الى يوم الاحد ويقال انه لم يترك شريعة التوراة الا ما نسخ من بعض احكامها وانه لم يزل محافظا على السبت حتى رفع وان النصارى بعده في زمن

فلا

فلا يجبن الرجل فيقول ماشان الكنز احل لمن قبلنا وحرم علينا فان الله يحل من أمره ماشاء ويحرم ماشاء وهى السنن والفرائض تحل لامة وتحرم على أخرى وعن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال وكان تحته كنز ذهب وفضة أخرجه البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والطبرانى والحاكم وصححه وعن أبى الدرداء قال احلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم واحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز واخرج البزار وابن ابى حاتم وابن مردويه عن ابى ذر رفعه قال ان الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا اله الا الله محمد رسول الله وفى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة (وكان أبوهما صالحا) فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما فظاهر اللفظ انه ابوهما حقيقة وقيل هو الذى دفنه وقيل هو الاب السابع من عند الدافن له قاله جعفر بن محمد وقيل العاشر وكان يسمى كاشحا وكان من الاتقياء قاله مقاتل واسم امهما دنيا ذكره النقاش ففيه مايدل على ان الله يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده وان بعدوا قال ابن عباس حفظا بصلاح ابيهما واخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله عزوجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده واهل دويرته واهل دويرات حوله فمازالوا فى حفظ الله تعالى مادام فيهم وعن ابن عباس نحوه وقال موضع حفظ الله فى ستر من الله وعافية قال سعيد بن المسيب انى لاصلى فاذكر ولدى فازيد فى صلاتى وقد روى ان الله يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته وعلى هذا يدل قوله تعالى ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين قاله القرطبى (فاراد ربك) أى مالكك ومدبر أمرك واضاف الرب الى ضمير موسى تشريفا له وانما ذكر اولا فاردت لانه افساد فى الظاهر وهو فعله وثانيا فاردنا لانه افساد من حيث الفعل انعام من حيث التبديل وثالثا فاراد ربك لانه انعام محض وغير مقدور للبشر قال الشوكانى فى الفتح الربانى اعلم انه قد وجد فى الخضر عليه السلام المقتضى للمجىء بنون العظمة لما تفضل الله به عليه من العطايا العظيمة والمواهب الجسيمة التى من جملتها العلم الذى فضله الله به حين اخبر موسى عليه السلام لما سأله هل فى الارض أعلم منه فقال عبدنا خضر كما هو ثابت فى الصحيح كان هذا وجها صحيحا ومسوغا صحيحا للمجىء بنون العظمة تارة وعدم المجىء بها اخرى فقال فاردت ان اعيبها وقال فاردنا ملاحظا فى احد الموضعين لما يستحقه من التعظيم تحدثا بنعمة الله سبحانه عليه وفى الموضع الآخر قاصد التواضع وانه فرد من افراد البشر غير ناظر الى تلك المزايا التى اختصه الله بها سبحانه مع كون ذلك هو الصيغة التى هى الاصل فى تكلم الفرد ومع هذا ففى تلوين العبارة نوع من الحسن آخر وهو الافتنان فى الكلام فانه احسن تطرية لنشاط السامع واكثر ايقاظا له كما قيل فى نكتة الالتفات ويمكن ان يقال ان خرق السفينة لما كان باعتبار تحصيل مسماه امرا يسيرا فانه يحصل بنزع لوح من الواحها قال فاردت ان أعيبها ولما كان القتل مما تتعاظمه النفوس وتدخل فاعله الروعة العظيمة نزل منزلة مالا يقدر عليه الا الجماعة ويمكن ايضا وجه ثالث وهو ان يقال لما كان خرق السفينة مما

قسطنطين هم الذين تحولوا الى يوم الاحد مخالفة لليهود وتحولوا الى الصلاة شرقا عن الصخرة والله اعلم وقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا

يمكن تداركه بان يرد اللوح الذي نزعه كان ذلك وجها للافراد لانه يسير بالنسبة الى ما لا يمكن تداركه وهو القتل واما قوله فاراد ربك فوجه نسبة الارادة الى الرب سبحانه ان هذه الارادة وقعت على قوله ان يبلغا اشدهما ومعلوم ان ذلك لا يكون من فعل البشر ولا بارادته لان بقاءهما في الحياة حتى يبلغا الاشد لا يدخل تحت طاقة البشر ولا يصح نسبته الى غير الرب عز وجل ولهذا يقول الخضر رحمة من ربك وما فعلته عن امري هذا ما خطر بالبال عند الوقوف على هذه الآية ولم اقف على كلام لاحد من اهل التفسير فيما يتعلق بذلك انتهى (ان يبلغا اشدهما) أي كمالهما وتمام نموهما (ويستخرجا كنزهما) من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ولو انقض لخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية (رحمة من ربك) لهما وهو مصدر في موضع الحال أي مرحومين من الله سبحانه (وما فعلته عن أمري) أي عن اجتهادي ورأيي وهو تأكيد لما قبله فقد علم بقوله فاراد ربك انه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه لان تنقيص أموال الناس واراقة دمائهم وتغيير احوالهم لا يكون الا بالنص وليس في هذا دلالة على نبوة الخضر كما زعم الجمهور بل هو الهام من الله سبحانه اليه (ذلك) المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوهها (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ومعنى التأويل هنا هو المآل الذي آلت اليه تلك الامور وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه وحذف التاء من تسطع تخفيفا يقال سطاع واستطاع بمعنى اطاق ففي هذا وما قبله جمع بين اللغتين وقد اختلف اهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبيا وفي طول عمره وبقاء حياته وكونه باقيا الى زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته بعده على اقوال كثيرة فقيل هو ابن آدم لصلبه وهو ضعيف منقطع وقيل انه ابن قابيل بن آدم وهو معضل وقيل انه من سبط هرون اخي موسى وهو بعيد وقيل انه ارميا بن خلقيا ورده ابن جرير وقيل انه ابن بنت فرعون وقيل ابن فرعون لصلبه وقيل انه اليسع وقيل انه من ولد فارس وقيل من ولد بعض من كان آمن بابراهيم وهاجر معه من ارض بابل وقيل كان ابوه فارسيا وامه رومية وقيل بعكس ذلك ثم قيل كان اسمه عامرا وقيل بليا بن ملكان وقيل كليان بدل ملكان وقيل معمر بن مالك وكنيته أبو العباس وهذا متفق عليه قاله النووي واحتج من قال انه نبي بقوله تعالى وما فعلته عن امري لان الظاهر من هذا انه فعله بامر الله والاصل عدم الواسطة قال الثعلبي هو نبي في سائر الاقوال ثم قيل نبي غير مرسل وقيل أرسل الى قومه فاستجابوا له ونصره الرماني ثم ابن الجوزي وقيل كان وليا واليه ذهب جماعة من الصوفية وبه قال علي بن أبي موسى من الحنابلة وابن الانباري والقشيري وقيل انه ملك من الملائكة قال ابن جرير في تاريخه انه كان في ايام فريدون الملك في قول عامة اهل الكتاب الاول وقيل كان على مقدمة ذي القرنين الاكبر الذي كان في زمن ابراهيم الخليل وقصته هذه ذكرها جماعة منهم خيثمة بن سليمان وامد تعميره فقال ابن عباس نسئ للخضر في أجله حتى يكذب الدجال وقال أبو مخنف أجمع اهل العلم بالاحاديث واجمع لها أنه أطول آدمي عمرا وشرب من عين الحياة وقال الحسن وكل الخضر بالبحور والياس بالفيافي وانهما

فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد لفظ البخاري وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا

والاولون يوم القيامة والمقضى بينهم قبل الخلائق رواه مسلم (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يقول تعالى آمرا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ان يدعوا الخلق الى الله بالحكمة قال ابن جرير وهو ما انزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى وقوله وجادلهم بالتي هي

يجتمعان في موسم كل عام وروى ابان مرفوعا اليه صلى الله عليه وآله وسلم اجتماعهما عند ردم يأجوج ومأجوج كل ليلة وفي سنده متروكان وقال النووى في التهذيب قال الاكثرون من العلماء هو حى موجود بين اظهرنا وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والاخذ عنه وسؤاله ووجوده في في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من ان تحصى وأشهر من أن تذكر وقال ابن الصلاح هو حى عند جماهير العلماء والصلحاء والعامة منهم وانما شذ بانكاره بعض المحدثين وقال بعضهم ان لكل زمان خضرا وهى دعوى لادليل عليها وقال السهيلى اسمه عاميل وان أباه كان ملكا وانه الرجل الذى يقتله الدجال ثم يحييه وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث انه مات قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة ونصره أبو بكر بن العربى لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر حياته لا يبقى على وجه الارض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم وله ألفاظ عند الشيخين وغيرهما عن جابر وابن عمر وأجاب من أثبت حياته بانه كان حينئذ على وجه البحر وما أبرد هذا الجواب وأبعده عن الصواب وأما اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعزيته لاهل البيت وهم مجتمعون لغسله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم على هو الخضر فقد ذكره ابن عبد البر في التمهيد وقيل اجتمع الياس مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم واذا جاز ذلك جاز لقاء الخضر رواه ابن أبى الدنيا عن أنس وتعقبه الحافظ أبو الخطاب بن دحية وقال لم يصح من طرقه شئ ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الانبياء الا مع موسى كما قصه الله من خبره وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شئ باتفاق أهل النقل وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه كيف يجوز لعاقل ان يلقى شيخا لا يعرفه فيقول له أنا فلان فيصدقه وحديث التعزية المتقدم موضوع وفيه ابن محرز متروك قال مسلم صاحب الصحيح فلما رأيته كانت بعرة أحب الى منه وماروى عن أنس فموضوع أيضا وقد نقل تكذيبه عن أحمد ويحيى واسحق وأبى زرعة وسياق المتن ظاهر النكارة وانه من المجازفات وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة واستند الى ما وقع من ذكرها في صحيح البخارى وجامع الترمذى لكن لم يثبت ذلك مرفوعا وأخرج الطبرانى في المعجم الكبير حديثا طويلا عن أبى امامة الباهلى مرفوعا اليه صلى الله عليه وآله وسلم في قصة الخضر يدل على كونه نبيا وسنده حسن لولا عنعنة بقية وهو ضعيف وقد ذهب الى ان الخضر مات على بن موسى الرضا والبخارى وأنكر ان يكون باقيا للحديث المتقدم وهو عمدة من تمسك بانه مات قال أبو حيان في تفسيره الجمهور على ان الخضر مات وبه قال ابن أبى الفضل المرسى لانه لو كان حيا لزمه المجئ الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والايمان به واتباعه وقد روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعى وبذلك جزم ابن المناوى وابراهيم الحربى وأبو طاهر العبادى وأخرج مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بشهر أقسم بالله ما على الارض نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وله ألفاظ وطرق عند الترمذى وغيره وممن جزم انه غير موجود الآن أبو يعلى الحنبلى وأبو الفضل بن ناصر والقاضى ابو بكر بن العربى وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزى واستدل على ذلك بادلة منها ما تقدم ومنها قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك

الخلد أفائن مت فهم الخالدون قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا أخذ عليه الميثاق ان بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه أخرجه البخاري فلو كان الخضر موجودا لجاء اليه ونصره بيده ولسانه وقاتل تحت رايته ولم يأت في خبر صحيح انه جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قاتل معه قال أبو الحسين بن المناوي بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فاذا أكثر المغفلين مغترون بانه باق من أجل ما روي في ذلك والاحاديث المرفوعة في ذلك واهية والسند الى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة وخبر رياح كالريح وما عدا ذلك من الاخبار كلها واهية الصدور والاعجاز لا يخلو حالها عن أمرين اما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالا او يكون بعضهم تعمد ذلك وقد قال الله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وفي تفسير الاصفهاني عن الحسن ان الخضر مات وقد مر عنه أيضا انه حي واذا تعارضا تساقطا واحتج ابن الجوزي أيضا بما ثبت في صحيح البخاري ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض ولم يكن الخضر فيهم ولو كان يومئذ حيا لورد على هذا العموم فانه كان ممن يعبد قطعا وقد بسط الحافظ بن حجر العسقلاني القول في بيان أحوال الخضر وأخباره قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي وردت ان الخضر والياس كانا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعده الى الآن وما جاء في بقائه بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن نقل عنه انه رآه وكلمه في أبواب مستقلة من كتابه الاصابة في معرفة الصحابة وتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا وغالبها لا يخلو عن علة أو ضعف أو انقطاع أو اعضال أو وضع أو نكارة أو شذوذ ولا يصلح شئ للاستدلال على حياة الخضر وبقائه الى الآن أو الى خروج الدجال والحق ما ذكرناه عن البخاري واضرابه في ذلك ولا حجة في قول أحد كائنا من كان الا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ولا حديث مرفوع اليه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يعتمد عليه ويصار اليه وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لاحد من البشر وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضي غيرهما عليهما ومن قال انه نبي أو مرسل أو حي باق لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وقد تكلم الحافظ على هذا الباب في فتح الباري أيضا فمن شاء الاطلاع على تفصيل ذلك فليرجع اليه وبالله التوفيق ومنه الفتح والاصابة ولما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود وانتهى الكلام الى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه فالمراد بالسائلين في قوله (ويسئلونك) هم اليهود أي سؤال تعنت (عن ذي القرنين) واختلفوا فيه اختلافا كثيرا فقيل هو الاسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا كلها باسرها اليوناني باني الاسكندرية وقال ابن اسحق هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل هو ملك اسمه هرمس وقيل هردس وقيل شاب من الروم وقيل كان نبيا وقيل كان عبدا صالحا وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله من أولاد كهلان بن سبا وحكى القرطبي عن السهيلي انه قال ان الظاهر من علم الاخبار انهما اثنان أحدهما كان على عهد ابراهيم

أحسن أي من احتاج منهم الى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق وحسن خطاب كقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم الآية فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما الى فرعون في قوله فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقوله ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله الآية اي قد علم الشقي منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم الى الله ولا تذهب نفسك

عليه السلام والآخر كان قريبا من عيسى عليه السلام وقيل هو أبو كرب الحميرى وقيل هو ملك من الملائكة ورجح الرازى القول الاول قال لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل انما هو اسكندر اليونانى كما يشهد به كتب التواريخ قال فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر قال وفيه اشكال لانه كان تلميذ الارسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل اليه قال النيسابورى قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلى من انهما اثنان كما قدمنا ذلك وبين ان الاول طاف بالبيت مع ابراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر وأما الثانى فهو الاسكندر المقدونى اليونانى وكان وزيره الفيلسوف المشهور ارسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة فأما الاول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الازرقى وغيره ثم قال وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير انه قال وانما بينا هذا يعنى انهما اثنان لان كثيرا من الناس يعتقد انهما واحد وان المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كثير وفساد كبير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا ووزيره الخضر وقد قيل انه كان نبيا وأما الثانى فقد كان كافرا ووزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وكان بينهما من الزمان أكثر من الفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكره سابقا وسماه بالبداية والنهاية ولم نقف عليه والذى يستفاد من كتب التاريخ هو انهما اثنان كما ذكره السهيلى والازرقى وابن كثير وغيرهم لا كما ذكر الرازى وادعى انه الذى تشهد به كتب التواريخ وقد وقع الخلاف هل هو نبى أم لا وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب الرد على المنطقيين المشهور والمتواتر ان ارسطو وزير الاسكندر بن فيلبس كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وكثير من الجهال يحسب ان هذا هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ويعظم ارسطو بكونه كان وزيرا له كما ذكر ذلك ابن سينا وامثاله من الجهال باخبار الامم وهذا من جهلهم فان الاسكندر الذى وزر له ارسطو هو المقدونى الذى يؤرخ له تاريخ الروم المعروف عند اليهود والنصارى وهو انما ذهب الى ارض القدس لم يصل الى السد عند من يعرف اخباره وكان مشركا يعبد الاصنام وكذلك ارسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الاصنام وذو القرنين كان موحدا مؤمنا بالله وكان متقدما على هذا ومن يسميه الاسكندر ويقول هو الاسكندر بن فيلبس ولهذا كان هؤلاء المتفلسفة انما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين كالقرامطة والباطنية الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض وكجهال المتصوفة وأهل الكلام وانما ينفقون فى دولة جاهلية بعيدة عن العلم والايمان اما كفارا واما منافقين كما نفق منهم من نفق على المنافقين الملاحدة ثم نفق على المشركين الترك وكذلك انما ينفقون دائما على أعداء الله

على من ضل منهم حسرات فانه ليس عليك هداهم انما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب انك لا تهدى من أحببت ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء الآية (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) يأمر تعالى بالعدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق كما قال عبد الرزاق عن الثورى

ورسوله من الكفار والمنافقين انتهى وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والازهري انما سمي ذا القرنين لانه بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها وقيل انه كان له ضفيرتان من شعر والضفائر تسمى قرونا وقيل انه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك وقيل كان له قرنان تحت عمامته وقيل انه دعا الى الله فشجه قومه على قرنه ثم دعا الى الله فشجوه على قرنه الآخر وقيل انما سمي بذلك لانه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه وقيل لانه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي وقيل لانه كان اذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا وقيل لانه أعطي علم الظاهر والباطن وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لانه ملك فارس والروم وقيل لانه ملك الروم والترك وقيل لانه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الارض وقيل لانه كان لتاجه قرنان وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أدري أتبع كان نبيا أم لا وما أدري أذو القرنين كان نبيا أم لا وما أدري الحدود كفارات لاهلها أم لا أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم وعن علي بن أبي طالب قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ونصح لله فنصحه الله بعثه الله الى قومه فضربوه على قرنه فمات ثم أحياه الله لجهادهم ثم بعثه الله الى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات فأحياه الله لجهادهم فلذلك سمي ذا القرنين وان فيكم مثله وعن ابن عمر قال ذو القرنين نبي وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هو ملك يمسح الارض بالاسباب أخرجه ابن أبي حاتم عن الاحوص بن حكيم عن أبيه وعن عمر بن الخطاب انه سمع رجلا ينادي بمنى يا ذا القرنين فقال ها أنتم قد سميتم بأسماء الانبياء فما لكم وأسماء الملائكة وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه وقد أخرج أبو الشيخ والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني حديثا يتضمن ان نفرا من اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذي القرنين فأخبرهم بما جاؤا له ابتداء وكان فيما أخبرهم به انه كان شابا من الروم وانه بنى الاسكندرية وانه علا به ملك الى السماء وذهب به الى السد واسناده ضعيف وفي متنه نكارة وأكثر ما فيه انه من اخبار بني اسرائيل ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه الى ابن جرير والاموي في مغازيه ثم قال بعد ذلك والعجب ان أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة انتهى وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه الى ابن اسحق وابن المنذر وغيرهم وفيه أشياء منكرة جدا وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه أبو الشيخ وغيره ولعل هذه الاخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه الينا واختلفوا أيضا في وقته فقال قوم كان بعد موسى وقال قوم كان في الفترة بعد عيسى وقال قوم كان في وقت ابراهيم واسمعيل وقد حققنا ذلك في لقطة العجلان فراجعه وبالجملة فان الله مكنه وملكه ودانت له الملوك وروي ان الذين ملكوا الدنيا كلها أربعة مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان بن داود والاسكندر والكافران نمروذ وبختنصر وسيملكها من هذه الامة خامس لقوله

تعالى

عن خالد عن ابن سيرين انه قال في قوله تعالى فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ان أخذ منكم رجل شيأ فخذوا مثله وكذا قال مجاهد وابراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير وقال ابن زيد كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذو ومنعة فقالوا يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هذه الكلاب فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد وقال محمد بن اسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار

تعالى ليظهره على الدين كله وهو المهدي ذكره القرطبي وعن السدي قال قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم انك انما تذكر ابراهيم وموسى وعيسى والنبيين انك سمعت ذكرهم منا فاخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة الا في مكان واحد قال ومن هو قالوا ذو القرنين قال ما بلغني عنه شئ فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ويسئلونك عن ذي القرنين (قل سأتلو عليكم) أيها السائلون (منه) أي من ذي القرنين (ذكرا) خبرا وذلك بطريق الوحي المتلو ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله ان يقوله لهم من انه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال (انا مكنا له في الارض) أي أقدرناه بما مهدنا له من الاسباب فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها وسهل عليه المسير في مواضعها وذلل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ومن جملة تمكينه فيها ان جعل الله الليل والنهار عليه سواء في الاضاءة (وآتيناه من كل شئ) مما يتعلق بمطلوبه أو مما يحتاج اليه الخلق (سببا) أي طريقا يتوصل بها الى ما يريده كآلات السير وكثرة الجند واستقصاء بقاع الارض والوصول الى عين الحياة وقال ابن عباس سببا أي علما وقال أيضا بلاغا الى حيث أراد قال المفسرون والمعنى طريقا تؤديه الى مغرب الشمس قاله الزجاج وقيل من كل شئ يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الاعداء وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به الى الشئ (فاتبع سببا) سلك طريقا نحو المغرب قال الاخفش تبعته وأتبعته بمعنى مثل ردفته وأردفته ومنه قوله تعالى فاتبعه شهاب وحكى الاصمعي انه يقال تبعته واتبعته اذا سار ولم يلحقه واتبعه اذا لحقه قال أبو عبيدة ومثله فاتبعوهم مشرقين قال النحاس وهذا من الفرق وان كان الاصمعي قد حكاه فلا يقبل الا بعلم أو دليل وقوله عز وجل فاتبعوهم مشرقين ليس في الحديث انهم لحقوهم وانما في الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر والحق في هذا ان تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد وهو بمعنى السير (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أي نهاية الارض من جهة المغرب وآخر العمارة منها الان من وراء هذه النهاية البحر المحيط وهو لا يمكن المضي فيه فلم يبق قدامه شط بل مياه لا آخر لها (وجدها) أي رأى الشمس (تغرب في عين حمئة) أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء يقال حمأت البئر حمأ بالتسكين اذا نزعت حمأتها وحمأت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها وقرئ حامية من الحماة أي حارة وقد يجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمئة قال كعب أما انا فاني أجد في التوراة تغرب الشمس في ماء وطين وأشار بيده الى المغرب وأنشد ابن أبي حاضر

فرأى مغيب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس ما الخلب قال الطين بكلامهم قال فما الثاط قال الحمئة قال فما الحرمد قال الاسود فدعا ابن عباس غلاما فقال اكتب ما يقول هذا الرجل قيل ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك في نظره اذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب قاله البيضاوي يعني على العادة من ان الشخص اذا

قال نزلت سورة النحل كلها بمكة وهي مكية الا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم فلما سمع المسلمون ذلك

كان فى البحر يرى الشمس كأنها تغرب فيه قيل وتسمية البحر المحيط عينا لا محذور فيه خصوصا وهو بالنسبة الى ماهو أعظم منه فى علم الله وفى القرطبى قال بعض العلماء ليس المراد انه انتهى الى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل الى جرمها ومسها لانها تدور مع السماء حول الارض من غير ان تلصق بالارض وهى أعظم من ان تدخل فى عين من عيون الارض لانها أكبر من الارض أضعافا مضاعفة بل المراد انه انتهى الى آخر العمارة من جهتى المغرب والمشرق فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة كما انا نشاهدها فى الارض الملساء كأنها تدخل فى الارض ولهذا قال وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ولم يرد انها تطلع عليهم بان تماسهم وتلاصقهم بل أراد انهم أول من تطلع عليه وقال القتيبى ويجوز أن تكون هذه العين من البحر وتكون الشمس تغيب وراءها أو عندها أو معها فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله أعلم انتهى أقول ولا يبعد أن يقال لا مانع من ان يمكنه الله من عبور البحر حتى يصل الى تلك العين التى تغرب فيها الشمس وما المانع من هذا بعد ان حكى الله عنه انه بلغ مشرق الشمس ومكن له فى الارض والبحر من جملتها ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره قال الكرخى فالله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكرة الارض بحيث تسع عين الماء عين الشمس فلم لا يجوز ذلك وان كنا لا نعلم به لقصور عقولنا عن الاحاطة بذلك وأيضا الانبياء والحكماء لا يبعد أن يقع منهم مثل ذلك ألا ترى الى ظن موسى فيما أنكره على الخضر انتهى (ووجد عندها) أى عند العين أو الشمس (قوما) قيل هم قوم عراة لباسهم جلود الوحش وطعامهم مالفظ البحر وكانوا كفارا قاله البيضاوى ومن المعلوم ان الكفر انما يتحقق بعد بعثة رسول وعدم ايمانهم به ولينظر أى رسول أرسل الى هؤلاء حتى كفروا به هذا والاظهر انهم كانوا أهل فترة لم يرسل اليهم أحد ولما جاءهم ذو القرنين دعاهم الى ملة ابراهيم فنهم من آمن ومنهم من كفر فخيره الله بين ان يعذبهم وبين ان يتركهم فقال (قلنا ياذا القرنين) يستدل بها من يزعم انه كان نبيا فان الله خاطبه بالوحى ومن قال انه لم يكن نبيا أوله بالالهام ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبى غيره (اما أن تعذب) اياهم بالقتل من أول الامر (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أى أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للامر والمراد دعوتهم الى الحق وتعليمهم الشرائع قيل واما للتقسيم دون التخيير أى ليكن شأنك معهما اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن أصر على الكفر والثانى لمن تاب منه والاول أولى (قال) ذو القرنين مختار الدعوة التى هى الشق الاخير من الترديد (أما من ظلم) نفسه بالاصرار على الشرك ولم يقبل دعوتى (فسوف نعذبه) بالقتل فى الدنيا (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) اى منكرا فظيعا شديدا بالنار لانها أنكر من القتل قال الزجاج خيره الله بين الامرين قال النحاس ورد على ابن سليمان قوله لانه لم يصح ان ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا فكيف يقول لربه عز وجل ثم يرد الى ربه وكيف يقول فسوف نعذبه فيخاطبه بالنون قال والتقدير قلنا يا محمد قالوا ياذا القرنين قال النحاس وهذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على

لسان

قالوا والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب باحد قط فانزل الله وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الى آخر السورة وهذا مرسل وفيه مبهم لم يسم وقد روى هذا من وجه آخر متصل فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عمرو ابن عاصم حدثنا صالح المرى عن

لسان نبي في وقته وكان ذو القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره ويمكن أن يكون مخاطبا النبي الذي خاطبه الله على لسانه أو خاطب قومه الذي وصل بهم الى ذلك الموضع (وأما من آمن) بالله وصدق دعوتي (وعمل) عملا (صالحا) مما يقتضيه الايمان (فله جزاء الحسنى) بنصب جزاء وتنوينه قال الفراء نصبه على التمييز وقال الزجاج هو مصدر في موضع الحال أي مجزيا بها جزاء وقرئ بالاضافة أي جزاء الخصلة الحسنى عند الله أو الفعلة الحسنى وهي الجنة قاله الفراء وقيل اضافة الجزاء الى الحسنى التي هي الجنة كاضافة حق اليقين ودار الآخرة ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذي القرنين اي أعطيه وأتفضل عليه (وسنقول له) اي لمن آمن (من أمرنا يسرا) أي مما نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق وأطلق عليه المصدر مبالغة (ثم أتبع سببا) اي سلك طريقا آخر غير الطريق الاولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها الى المشرق واستمر فيه لا يعل ولا تغلبه أمة مر عليها (حتى اذا بلغ) في مسيره ذلك (مطلع الشمس) أي الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمور الارض أو مكان طلوعها لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله اليه كما أوضحناه فيما سبق قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة وقيل في أقل من ذلك بناء على انه سخر له السحاب وطويت له الاسباب (وجدها تطلع على قوم) قيل هم الزنج وقيل هم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقسا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج (لم نجعل لهم من دونها) أي الشمس (سترا) يسترهم لا من البيوت والسقوف ولا من اللباس بل هم حفاة عراة لا يأوون الى شيء من العمارة قيل لانهم بأرض لا يمكن ان يستقر عليها البناء قال كعب أرضهم لا تمسك الأبنية لرخاوتها وبها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوها فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم قال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم فقيل لي بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش احدى أذنيه ويلتحف الاخرى فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فادخلوني سربا لهم فلما طلع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وقال مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض وفي كتب الهيئة ان أكثر حال الزنج كذلك وكذا حال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) أي كذلك أمر ذي القرنين اتبع هذه الاسباب حتى بلغ وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به أو من الآلات والجند وغيرهما وقيل المعنى لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الابنية والثياب وقيل المعنى وكذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها وقيل المعنى كذلك يطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم فقضى في هؤلاء مثل ما قضى في أولئك من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين وهو الاصح ويكون تأويل الاحاطة بما لديه في هذه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الاول ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين الى ناحية أخرى

سليمان التيمي عن أبي عثمان عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى منظر أوجع للقلب منه أو قال لقلبه فنظر اليه وقد مثل به فقال رحمة الله عليك ان كنت لما علمت لوصولا للرحم فعولا للخيرات والله

وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه فقال (ثم اتبع سببا) أى سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب واستمر آخذا فيه (حتى اذا بلغ) فى مسيره ذلك (بين السدين) بفتح السين وقرئ بضمها وهما اسبعيتان وقال أبو عبيدة وابن الانبارى وأبو عمرو ابن العلاء السدان كان يخلق الله تعالى فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أى هو مما فعله الله وخلقه وان كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا وقال ابن الاعرابى كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سد وسد نحو الضعف والضعف والفقر والفقر والسدان هما جبلان من قبل ارمينية وأذربيجان قاله ابن عباس وقيل موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق وقيل هما جبلان عاليان جدا أملسان لا يستطاع الصعود عليهما كالسد الآتى ويسمى كل واحد منهما سدا لانه سد فجاج الارض وفى الشهاب اطلاق السد على الجبل لانه سد فى الجملة وفى القاموس السد الجبل والحاجز أو لكونه ملاصقا للسد فهو مجاز بعلاقة المجاورة وحكى ابن جرير فى تاريخه ان صاحب أذربيجان ايام فتحها وجه انسانا من ناحية الخزر فشاهده ووصف انه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع وحكى ان الواثق بعث بعض من يثق به اليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل وقيل جبلان فى أواخر الشمال قال الرازى والاظهر ان موضع السدين فى ناحية الشمال سد الاسكندر ما بينهما أى الفتحة وطولها مائة فرسخ وليس ليأجوج ومأجوج طريق يخرجون منها الى أرض العمارة الا هذه الفتحة ومسكنهم وراء هذين الجبلين وأرضهم متسعة جدا تنتهى الى البحر المحيط (وجد من دونهما) أى من ورائهما مجاوزا عنهما وقيل أمامهما أى خارجة عنهما لا داخلة بناحية يأجوج ومأجوج وقال الخطيب بقربهما من الجانب الذى هو أدنى منهما الى الجهة التى أتى منها ذو القرنين (قوما) اى أمة من الناس لغتهم فى غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد فلذا (لا يكادون) أى لا يقربون (يفقهون) اى يفهمون (قولا) ممن مع ذى القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ بضم الياء وكسر القاف من أفقه اذا أبان أى لا يبينون لغيرهم كلاما وقرئ بفتح الياء والقاف أى لا يفهمون كلام غيرهم والقراءتان صحيحتان ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم لانهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ولسانهم غريب مجهول لشدة عجمتهم فكلامهم مغلق قال ابن جريج هم الترك (قالوا) أى هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا (ياذا القرنين) وهو الاسكندر الاكبر قيل ان فهمه لكلامهم من جملة الاسباب التى أعطاه الله وقيل انهم قالوا ذلك لترجمانهم فقال لذى القرنين بما قالوا له وذلك لانهم من أولاد يافث بن نوح وذو القرنين من أولاد سام فلا يفهم لغتهم (ان يأجوج ومأجوج) اسمان عجميان لا اشتقاق لهما بدليل منع صرفهما للعلمية والعجمة وبه قال الاكثر وقيل عربيان مشتقان من أج الظليم فى مشيه اذا هرول وتأججت النار اذا التهبت وقرأهما الجمهور بغير همز وقرأ عاصم بالهمز قال ابن الانبارى وجه همزهما وان لم يعرف له أصل

لولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع أو كلمة نحوها أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك فنزل جبريل عليه السلام على محمد بهذه السورة وقرأ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الى آخر الآية فكفر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى عن يمينه وأمسك عن ذلك

ان

ان العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم كبأث ورثأث واستشأث الريح ويحتمل أن تكون الهمزة أصلا والواو والالف بدلا عنها أو بالعكس لان العرب تتلاعب بالاسماء العجمية قال أبو علي يجوز أن يكونا عربيين فمن همز فهو على وزن يفعول مثل يربوع ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل رأس وأما ماجوج فهو مفعول من أج والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق قال وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة وقيل اشتقاقهما من الأوجة وهي الاختلاط أو شدة الحر وقيل من الاوج وهو سرعة العدو واختلف في نسبهم فقيل هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم وقال كعب الاحبار احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء قال القرطبي وهذا فيه نظر لان الانبياء لا يحتلمون وانما هم من ولد يافث كذلك قال مقاتل وغيره وقد وقع الخلاف في صفتهم فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ومنهم من يقول لهم مخالب كمخالب السباع وان منهم صنفا يفترش احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى ولاهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم قال ابن عباس يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار وهم من ولد آدم وفيه بعد وعن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لافسدوا على الناس معايشهم ولا يموت منهم رجل الا ترك من ذريته ألفا فصاعدا وان من ورائهم ثلاث أمم تاويل وتاريس ومنسك أخرجه الطبراني وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي وغيرهم قيل هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء ومسافة الارض بتمامها خمسمائة عام ثلثمائة بحار ومائة وتسعون مسكن لهم بقي عشرة سبعة للحبشة وثلاثة لجملة الخلق غيرهم وهم كفار دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الايمان ليلة الاسراء فلم يجيبوا والله أعلم (مفسدون في الارض) بالنهب والبغي عند خروجهم وقيل سيفسدون بعد خروجهم الينا واختلف في افسادهم في الارض فقيل هو أكل بني آدم وقيل هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الافساد وقيل كانوا يخرجون الى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم الى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيأ أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا حملوه وأدخلوه أرضهم وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض يحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه غدا فيعودون اليه أشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم وأراد الله ان يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه ان شاء الله تعالى ويستثني فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في

وهذا اسناد فيه ضعف لان صالحا هو بشير المرى ضعيف عند الائمة وقال البخاري هو منكر الحديث وقال الشعبي وابن جريج نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لنمثلن بهم فانزل الله فيهم ذلك وقال عبد الله ابن الامام أحمد في مسند أبيه حدثنا هدبة بن عبد الوالي المروزي حدثنا الفضل بن

السماء قسرا وعلوا فيبعث الله عليهم نغفا فى اقفائهم فيهلكون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فو الذى نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم وقد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث وأخرجا نحوه من حديث ابى هريرة مرفوعا وقد ذكرنا تفصيل حالهم فى حجج الكرامة فراجعه (فهل نجعل لك خرجا) هذا الاستفهام من باب حسن الادب مع ذى القرنين وقرئ خراجا قال الازهرى الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفىء ويقع على الجزية وعلى الغلة والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الاموال والخرج المصدر وقال قطرب الخرج الجزية والخراج فى الارض وقيل الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله والخراج ما يجبيه السلطان وقيل هما بمعنى واحد قال ابن عباس خرجا اى أجرا عظيما وجعلا من الاموال (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) اى ردما حاجزا بيننا وبينهم فلا يصلون الينا قال الخليل وسيبويه الضم هو الاسم والفتح المصدر وقال الكسائى الضم والفتح لغتان بمعنى واحد وقد سبق قريبا ما حكيناه عن ابى عمرو بن العلاء وابى عبيدة وابن الانبارى من الفرق بينهما وقال ابن ابى اسحق ما رأته عيناك فهو سد بالضم وما لا ترى فهو سد بالفتح وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدين (قال) لهم ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى) اى ما بسطه الله لى من المال والقدرة والملك وفى قراءة سبعية بنونين من غير ادغام (خير) من خرجكم الذى تجعلونه لى فلا حاجة لى اليه وأجعل لكم السد تبرعا ثم طلب منهم المعاونة له فقال (فأعينونى بقوة) اى برجال منكم يعملون بايديهم أو أعينونى بآلات البناء أو بمجموعهما قال الزجاج بعمل تعملونه معى (أجعل بينكم وبينهم ردما) حاجزا حصينا وهذا جواب الامر والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل قال الهروى يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما اى سددتها والردم أيضا الاسم وهو السد وقيل الردم أبلغ من السد اذ السد كل ما يسد به والردم وضع الشئ على الشئ من حجارة أو ترابا ونحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ومنه ردم ثوبه اذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض قال ابن عباس الردم هو أشد الحجاب (آتونى) اى أعطونى وناولونى (زبر الحديد) جمع زبرة كغرفة وغرف وهى القطعة قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة قال الفراء معناه آتونى بها على قدر الحجارة التى يبنى بها فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم (حتى اذا ساوى بين الصدفين) بفتح الحرفين وضمهما وضم الاول وسكون الثانى والثانى أشهر اللغات وقرئ بفتح الصاد وضم الدال قال الازهرى يقال لجانبى الجبل صدفان اذا تحاذيا لتصادفهما اى تلاقيهما وكذا قال أبو عبيدة والهروى وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف قاله ابو عبيدة وفى البيضاوى الصدفين من الصدف وهو الميل لان كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل وقال ابن عباس الصدفين الجبلين وقال مجاهد رؤس

موسى حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال لما كان يوم أحد قتل من الانصار ستون رجلا ومن المهاجرين ستة فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل لا تعرف قريش بعد اليوم

الجبلين

الجبلين ومعنى الآية انهم أعطوه زبر الحديد فجعل يبنى به ابين الجبلين حتى ساواهما ثم (قال) للعملة (انفخوا) على هذه الزبر بالكيران (حتى اذا جعله) اى جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر (نارا) اى كالنار فى حرها واسناد الجعل الى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ قيل كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يحمى والحديد اذا أوقد عليه صار كالنار ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة وهو معنى قوله (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) قال أهل اللغة هو النحاس الذائب وبه قال ابن عباس والافراغ الصب وكذا قال أكثر المفسرين وقالت طائفة القطر الحديد المذاب وقالت طائفة أخرى منهم ابن الانبارى هو الرصاص المذاب فدخل القطر بين زبره فصار شيأ واحدا قيل وهذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لان الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه (فما اسطاعوا) أصله فما استطاعوا قال ابن السكيت يقال ما استطيع وما اسطيع وما استيع وبالتخفيف قرأ الجمهور وقرأ حمزة وحده فما اسطاعوا بتشديد الطاء وهى قراءة ضعيفة الوجه قال أبو على الفارسى هى غير جائزة وقرئ على الاصل (أن يظهروه) اى يعلوه قاله ابن جريج وقال قتادة ان يرتقوه اى فما استطاع يأجوج ومأجوج ان يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته فكان ارتفاعه مائتى ذراع والملاسته لا يثبت عليه قدم ولا غيره (وما استطاعوا له نقبا) يقال نقبت الحائط اذا خرقت فيه خرقا فخلص ماوراءه قال الزجاج ما استطاعوا ان ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته وسمكه وثخنه أى عرضه قيل ان عرضه خمسون ذراعا وطوله فرسخ وسعة الفتحة التى بين الجبلين مائة فرسخ (قال) ذو القرنين مشيرا الى السد (هذا) السد أى الاقدار عليه (رحمة من ربى) اى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المجاورين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد فهو نعمة لانه مانع من خروجهم (فاذا جاء وعد ربى) اى أجله ان يخرجوا منه وقيل هو مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة (جعله) الظاهر ان الجعل هنا بمعنى التصيير وعند ابن عطية بمعنى خلق وفيه بعد لانه اذ ذاك موجود (دكاء) اى مستويا بالارض ومنه كلا اذا دكت الارض دكا دكا قال الترمذى أى مستويا يقال ناقة دكاء اذا ذهب سنامها وقال القتيبى اى جعله مدكوكا ملصوقا بالارض وقيل مساويا للارض فيغور فيها أو يذوب حتى يصير ترابا وقال الحليمى قطعا متكسرة ومن قرأ دكاء بالمد أراد التشبيه بالناقة الدكاء وهى التى لا سنام لها أى مثل دكاء لان السد مذكر فلا يوصف بدكاء وقرأ الباقون دكا بالتنوين على انه مصدر ومعناه ما تقدم ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال اى مدكوكا قال قتادة لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما (وكان وعد ربى حقا) اى بخروجهم أو وعده بالثواب والعقاب أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف وهذا آخر قول ذى القرنين ثم قال الله تعالى (وتركنا بعضهم) اى بعض يأجوج ومأجوج (يومئذ يموج فى بعض) اى جعلنا وصيرنا بعضهم يوم مجىء الوعد أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يختلط ويموج فى بعض

فنادى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمن الاسود والابيض الا فلانا وفلانا ناسا سماهم فأنزل الله تبارك وتعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الى آخر السورة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نصبر ولا نعاقب وهذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن فانها اشتملت على مشروعية العدل والندب

آخر منهم يقال ماج الناس اذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء والمعنى انهم
يضطربون ويختلطون من شدة الازدحام عند خروجهم عقب موت الدجال فيحاز عيسى
بالمؤمنين الى جبل الطور فرارا منهم ثم يسلط الله عليهم دودا في أنوفهم فيموتون به
ولا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ولا يصلون الى من تحصن منهم بورد أو ذكر
وتمام قصتهم في كتابنا حجج الكرامة وقيل الضمير في بعضهم للخلق واليوم يوم القيامة أي
وجعلنا بعض الخلق من الجن والانس يموج في بعض وقيل المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج
يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض (ونفخ في الصور) اى القرن للبعث
وقد تقدم تفسيره وفيه دليل على ان خروجهم من علامات قرب الساعة قيل هي النفخة
الثانية بدليل قوله بعد (فجمعناهم جمعا) فان الفاء تشعر بذلك ولم يذكر النفخة الاولى لان
المقصود هنا ذكر أحوال القيامة والمعنى جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها ترابا
جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب في صعيد واحد (وعرضنا جهنم
يومئذ للكافرين عرضا) المراد بالعرض هنا الاظهار اى أظهرنا جهنم حتى شاهدوها يوم
جمعنا لهم وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة
ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله (الذين كانت أعينهم) في الدنيا اى أعين قلوبهم
أي بصائرهم (في غطاء) اى غشاء وستر وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب
(عن) سبب (ذكرى) وهي الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله
بالتوحيد والتمجيد فاطلق المسبب على السبب أو عن القرآن العظيم وتأمل معانيه وتدبر
فوائده فهم عمي لا يهتدون به ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية
أو التنزيلية أو مجموعهما أراد ان يصفهم بالصم عن استماع الحق فقال (وكانوا
لا يستطيعون) اى لا يعقلون (سمعا) قاله مجاهد وقيل لا يقدرون على الاستماع لما فيه
الحق من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لغلبة الشقاوة عليهم ولشدة
عداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا أبلغ مما لو قال وكانوا صما لان الاصم
قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية وفي ذكر غطاء الأعين وعدم
استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالابصار واعراضهم عن الادلة السمعية
(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) الحسبان هنا بمعنى الظن
والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كنظائره والمعنى أفظنوا انهم
ينتفعون بما عبدوه مع اعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق وعن علي انه
قرأ أفحسب بجزم السين وضم الباء وعن عكرمة انه قرأ كذلك ومعناه أكافيهم ومحسبهم
ان يتخذوا عيسى وعزيرا والملائكة أربابا من دونه تعالى بل هم لهم أعداء يتبرؤن منهم
وقيل يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله والمعنى أظنوا ان الاتخاذ المذكور لا يغضبني
ولا أعاقبهم عليه قال الزجاج المعنى أيحسبون ان ينفعهم ذلك يريد ان ذلك لا يكفيهم
ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا كلا (انا أعتدنا) هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) يتمتعون به
عند ورودهم قال الزجاج النزل المأوى والمنزل وفي القاموس ما يقتضي ان كل منزل يقال

الى الفضل كما في قوله وجزاء سيئة
سيئة مثلها ثم قال فمن عفا وأصلح
فأجره على الله الآية وقال
والجروح قصاص ثم قال فمن
تصدق به فهو كفارة له وقال في هذه
الآية وان عاقبتم فعاقبوا بمثل
ما عوقبتم به ثم قال ولئن صبرتم لهو
خير للصابرين وقوله تعالى واصبر
وما صبرك الا بالله تأكيد للامر

له نزل ففي تقييد النزل بمكان الضيف نظر كما قال بعضهم انه الذي يعد للضيف وعلى هذا فيكون تهكما بهم كقوله فبشرهم بعذاب أليم والمعنى ان جهنم معدة لهم عندنا كما يعد المنزل للضيف (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) جمع أخسر اى أشد خسرانا من غيرهم أو بمعنى خاسر وجمع العمل للدلالة على ارادة الانواع منه عن مصعب بن سعد قال سألت ابى أهم الحرورية قال لا هم اليهود والنصارى أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين وعنه قال لا ولكنهم أصحاب الصوامع والحرورية قوم زاغوا فازاغ الله قلوبهم وعن علي قال انهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري وعنه قال هم فجرة قريش وعنه قال لأظن الا ان الخوارج منهم (الذين ضل) اى بطل وضاع (سعيهم) كالعتق والوقف واغاثة الملهوف لان الكفر لا تنفع معه طاعة (في الحياة الدنيا وهم يحسبون) اى والحال انهم يظنون (انهم يحسنون صنعا) عملا يجازون عليه وانهم منتفعون بآثاره (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) مستأنفة مسوقة لبيان تكميل الخسران وسببه وهذا أولى الوجوه ومعنى كفرهم بالآيات كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية (ولقائه) أي كفروا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وما بعده من أمور الآخرة ثم رتب على ذلك قوله (فحبطت أعمالهم) التي عملوها مما يظنونه حسنا وهو خسران وضلال ثم حكم عليهم بقوله (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم بل نزدريهم ونستذلهم وقيل لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم لان ذلك انما يكون لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين وهؤلاء لا حسنات لهم قال ابن الاعرابي العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي قدر لخسته ويوصف الرجل بانه لا وزن له لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته والمعنى على هذا انهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة وقرأ مجاهد يقيم أي فلا يقيم الله وقرأ الباقون بالنون وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤل اليه أمرهم فقال (ذلك) أي الذي ذكرناه من أنواع الوعيد وحبوط أعمالهم وخسة قدرهم (جزاؤهم جهنم) عطف بيان للجزاء والسبب في ذلك انهم ضموا الى الكفر اتخاذهم آيات الله واتخاذ رسله هزؤا والباء في (بما كفروا) للسببية (واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) أي مهزوا بهم ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم (كانت لهم) فيما سبق من علم الله لاهل طاعته قاله ابن الانباري (جنات الفردوس نزلا) قال المبرد الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والاغلب عليه العنب واختار الزجاج ما قاله مجاهد ان الفردوس البستان باللغة الرومية وقيل كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس وحكى الزجاج انها الاودية التي تنبت ضروبا من

بالصبر واخبار بان ذلك لا ينال الا بمشيئة الله واعانته وحوله وقوته ثم قال تعالى ولا تحزن عليهم اى على من خالفك فان الله قدر ذلك ولا تك في ضيق أي غم مما يمكرون أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وايصال الشر اليك فان الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم وقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون أي معهم

النبت فقيل هو عربي وقيل أعجمي وقيل فارسي وقيل سرياني وقد تقدم بيان النزل والمعنى كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدا لهم مبالغة في اكرامهم أخرج الطبراني والحاكم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلوا الله الفردوس فانها سرة الجنة وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة وأخرج الترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي وعبد بن حميد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان في الجنة مائة درجة كل درجة منها ما بين السماء والارض الفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنه تفجر أنهار الجنة الاربعة فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس وعن السدي هو الكرم بالنبطية وقال كعب هي جنات الاعناب بالسريانية وعنه ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأوسعها وأفضلها وأرفعها وقيل هي الجنة الملتفة بالاشجار التي تنبت ضروبا من النبات والاحاديث بهذا المعنى كثيرة وقد أوضحنا ما جاء في الجنان كلها ونعيمها من الاحاديث والآثار في كتاب سميناه مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) قال مجاهد متحولا اي لا يطلبون تحولا عنها الى غيرها اذ هي أعز من ان يطلبوا غيرها أو تشتاق أنفسهم الى سواها قال ابن الاعرابي وابن قتيبة والازهري الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر وقال أبو عبيدة والفراء ان الحول التحويل ولما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) قال ابن الانباري سمي المداد مدادا لامداده الكاتب وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مدادا والمراد بالبحر هنا الجنس والمعنى لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وعجائبه وفرض ان جنس البحر مدادا لها (لنفد البحر) أي لفني ماؤه (قبل أن تنفد كلمات ربي) أي قبل نفود الكلمات وقيل المعنى لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب لنفد البحر قبل نفود كلمات ربي أي علمه قاله مجاهد وقال قتادة ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته وقيل المراد بها معلوماته قرئ تنفد بالتاء والياء وهما سبعيتان وذكر في الكشاف ان قبل هنا بمعنى غير أو بمعنى دون وقيل عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى وهو ان كان واحدا فيجوز ان يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع قال الاعشى

ووجه نقي اللون صاف يزينه * مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة قال الجبائي ان قوله قبل ان تنفد كلمات ربي يدل على ان كلماته قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه وأجيب بان المراد الالفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الازلية وقيل في الجواب ان نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء

بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا وقوله لموسى وهرون لا تخافا انني معكما أسمع وأرى وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار لا تحزن ان الله معنا وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير وكقوله تعالى ألم تر ان الله يعلم

الآخر ولا على عدم نفاده فلا يستفاد من الآية الاكثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر اما أنها متناهية أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى هذه الآية والحق ان كلمات الله تابعة لمعلوماته وهى غير متناهية فالكلمات غير متناهية (ولو جئنا بمثله مددا) كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله قل لو كان البحر وفيه زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها أى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات الله ولم يجئ بمثله مددا ولو جئنا بمثله أى البحر مددا لنفد أيضا والمدد الزيادة وقرئ مدادا وهى كذلك فى مصحف أبى ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يسلك مسلك التواضع فقال (قل انما أنا بشر مثلكم) اى آدمى حالى مقصور على البشرية لا يتخطاها الى الملكية ومن كان هكذا فهو لا يدعى الاحاطة بكلمات الله الا انه امتاز عنهم بالوحى اليه من الله سبحانه فقال (يوحى الى) وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر ثم بين ان الذى أوحى اليه هو قوله (انما الهكم اله واحد) لا شريك له فى الالوهية والملك وفى هذا ارشاد الى التوحيد ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال (فمن كان يرجو لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمعنى من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين و يخاف المصير اليه وقيل يؤمل رؤية ربه والبعث والجزاء (فليعمل عملا صالحا) هو ما دل الشرع على انه عمل خير يثاب عليه فاعله أى مستوفيا المعتبر انه شرعا عن ابن عباس قال أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله الها آخر غيره وليست هذه فى المؤمنين (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) من خلقه سواء كان صالحا أو طالحا حيوانا أو جمادا قال الماوردى قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية ان المعنى لا يرائى بعمله أحدا وأقول ان دخول الشرك الجلى الذى كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها انما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية عن ابن عباس قال قال رجل يا نبى الله انى أقف المواقف أبتغى وجه الله وأحب ان يرى موطنى فلم يرد عليه شيأ حتى نزلت هذه الآية وعنه قال كان جندب بن زهير اذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد فى ذلك لمقالة الناس فلا يريد به الله فنزل فى ذلك فمن كان يرجو لقاء ربه الآية وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد بن أبى فضالة الانصارى وكان من الصحابة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اذا جمع الله الاولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن أبى هريرة ان رجلا قال يا رسول الله الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا فقال لا أجر له فاعظم الناس ذلك فعاد الرجل فقال لا أجر له وعن شداد بن أوس قال كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشرك الاصغر وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من صلى يرائى فقد أشرك ومن صام يرائى فقد أشرك ومن تصدق يرائى فقد

ما فى السموات وما فى والارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا وكما قال تعالى وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا الآية ومعنى الذين اتقوا أى تركوا المحرمات والذين هم محسنون أى فعلوا الطاعات فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم

أشرك ثم قرأ فمن كان يرجو لقاء ربه الآية أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم وعن شداد أيضا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي من أشرك بي شيأ فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني أخرجه أحمد وأبو نعيم والطيالسي وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي ان يقوم الرجل يصلي لمكان رجل وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد بن أوس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول أتخوف على امتي الشرك والشهوة الخفية قلت أتشرك امتك بعدك قال نعم أما انهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراؤن الناس باعمالهم قلت يارسول الله ما الشهوة الخفية قال يصبح أحدهم صائما فيعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه انه قال أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك وفي لفظ فمن أشرك بي أحدا فهو له كله وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وانه الشرك الاصغر وان الله لا يقبله وقد استوفاها صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع اليه ولكنها لا تدل على انه المراد بالآية بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولا أوليا وعلى فرض ان سبب النزول هو الرياء كما يشير الى ذلك ما قدمنا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الاصول وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه عن حكيم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو لم ينزل على امتي الا خاتمة سورة الكهف لكفتهم وأخرج ابن راهويه والبزار والحاكم وصححه والشيرازي في الالقاب وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ في ليلة فمن كان يرجو لقاء ربه الآية كان له نور من عدن أبين الى مكة حشوه الملائكة قال ابن كثير بعد اخراجه غريب جدا وعن معاوية بن سفيان انه تلا هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه وقال انها آخر آية نزلت من القرآن قال ابن كثير وهذا أثر مشكل فان هذه الآية هي آخر سورة الكهف والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا ما يغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه والى هنا انتهى الجزء الثاني (١) من تفسير الكتاب العزيز المسمى (بفتح البيان في مقاصد القرآن) ويتلوه الجزء الثالث ان شاء الله تعالى وكان الفراغ من زبره على يد مؤلفه الفقير الى الله الغني به عمن سواه (صديق بن حسن ابن علي الحسيني القنوجي) ختم الله له بالحسنى وأذاقه حلاوة رضوانه الاسنى في صبح الاربعاء لعله تاسع جمادى الآخرة من شهور سنة تسع وثمانين ومائتين وألف الهجرية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية في بلدة (بهوبال) المحمية صانها الله وأهلها عن الفسوق والبلية وقد أفرغت فيه جهدي وبذلت فكري في نفائس أراها ان شاء الله

وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على اعدائهم ومخالفيهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا مسعر عن ابن عون عن محمد بن حاطب قال كان عثمان رضي الله عنه من الذين آمنوا والذين اتقوا والذين هم محسنون

آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

(١) قوله انتهى الجزء الثاني أي من تجزئة المؤلف

الله تعالى تجدى فهذا جهد المقل غير مخل بالمقصود ولا ممل فرحم الله امرأ نظر بعين الانصاف اليه ووقف فيه على سهو فاطلعنى عليه

حمدت الله ربى اذ هدانى * لما أبديت مع عجزى وضعفى

فمن لى بالخطا فارد عنه * ومن لى بالقبول ولو بحرف

ولم يكن قط يخطر ببالى ويمر فى خلدى أن أتصدى لذلك علماً منى بالعجز عن السلوك فى هذه المسالك وعسى الله تعالى ان ينفع به نفعاً جماً ويفتح به قلوباً غلفاً وأعيناً عمياً وآذاناً صماً ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ومن أحسن من الله قيلا رزقنا الله به هداية الى سبل الحق توفيقا وبصيرة لمبانيه وخبرة بدقائق معانيه وتحقيقا وجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وما ذلك على الله بعزيز

تم

وقال الشيخ العلامة الفقيه والجهبذ الفاضل النبيه مجتهد عصره ومفتي مصره انسان عين الاعمال والاماني الشيخ يوسف بن المبارك العريشي اليماني نفع الله بعلومه الاقاصي والاداني مقرظا هذا التفسير العظيم ذا الخطر الجسيم مانصه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمدك يامن جعل العلماء العاملين ورثة الانبياء ورفع مقامهم اعلاما فكانوا للشريعة والاهتدا أنجوما وأعلاما وشغلهم بخدمة كتابه فبينوا أحكامه وكشفوا أسراره وأوضحوا حقائقه وقسموا علومه أقساما ووفقهم بعنايته فقاموا في خدمته بتفسيره وتأويله وأجروا في كشف حقائقه أقلاما لما علموا انه أرسخ العلوم أصلا وأنورها كلاما وأسبغها فرعا وأصلا وأحسنها نظاما اذ لاشرف الا وهو السبيل اليه ولاخير الا وهو الدال عليه وله اماما فأحرزوا بذلك مزايا ورتبا صاروا بها عظاما وقذف في قلوبهم أنوارا يرون بها من المشكلات ماكان بعيدا محتجبا ويفهمونه افهاما منا منه تعالى عليهم وافضالا وعزا واكراما فذاقوا حلاوة فهم أسرار كتابه فما وجدوا في طلب سفره تعبا ولاسآما وأشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمدا عبده ورسوله أكرم به رسولا واماما صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما

(أما بعد) فان الله سبحانه وتعالى لما من علينا بالاجتماع باخينا العلامة المحقق الفهامة قاضي الجنة حسين بن محسن السبعي حفظه الله وزاده علما وأسبغ عليه بمنه وكرمه عظيم النعمى في حرمه الشريف بمكة المشرفة شرفها الله وعظمها ودار الكلام بالمذاكرة بيننا في ذلك المكان الشريف وحلا وراق لنا الوقت في تلك المآثر الشريفة وانجلى فسألناه عن تلك الديار التي ساقته اليها الاقدار وهل بقي في زوايا تلك الارض خبايا من العلماء العاملين وأئمة المسلمين وهداة لعباده المؤمنين فذكر لنا الخبر الكثير ومن جملة من ذكره السيد البدر العلامة النواب تاج العلم والبها والفهامة الذي علت مرتبته فوق السها فاوجز في وصفه فاعجز وأطال فاطاب وأجاد في كشف مناقبه حين أجاب وذكر من جملة مناقبه ان وفقه الله سبحانه لتفسير كتابه بتفسير عظيم ماأنفس فوائده وانفع فرائده وأفصح مقاله وأفسح مجاله فلما سمعت بمقالته تشوقت لرؤية ذلك الكتاب وروايته فقال لي القاضي المذكور قد طبع بحمد الله منه الجزء الاول وسأرسل لكم به والباقي ان شاء الله يصلكم على أيدينا من عند السيد العلامة النواب مجلا به فلما رجع القاضي المذكور أبو السعادات من زيارة سيد الكائنات أرسله الينا من بندر الحديدة فاستبشرت بوروده وحصلت على الفائدة من وفوده فسرحت في درر معانيه نظري ورضت في رياض حقائق كلامه جواد فكري فوجدته تفسيرا اقدرصع من جواهر معاني التحقيق ماراق وغلا وجمع من بديع التفسير مادق وعلا ولما كشفت عن مخازن جواهر سطور أنوار علومه وتأملت بيان مفاتح الغيب من منطوقه ومفهومه قام لنا بفتح القدير خطيب نيل أوطاره وكشاف حقائق علومه

وأسراره على منبر الفضل ينادى بانه من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها جامعا للصحيح من الاقاويل وأسناها عاريا عن الشبه والتصحيف والتبديل برتبة قدسماها محلى بالاحاديث النبوية الصحيحات مطرزا بالاحكام الشرعية البينات مرصعا باحسن الاشارات وأوضح العبارات مساقا بأبلغ ايجاز وأحسن ترتيب مع التسهيل والتقريب كلماته أزاهر نبتت فى كتاب وجواهر تكونت من ألفاظ عذاب ومواهب لاتدرك بيدا كتساب فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب وكيف لا ومحاسنه لاتوجد مجموعة قبله فى كتاب فهو تفسير فاضت عليه أنوار البلاغة والفصاحة من كل باب ملأ حسن صنعه الاوراق بما راق وزين الآفاق بما فاق كلامه أحلى فى الافواه من الشهد وأشهى الى النواظر من النوم بعد السهد

معان تطرب السمعا * لها حكم باحكام
والفاظ هى الارواح * للارواح أجسام

فلا بدع صدر هذا التفسير عن علم سابق وفكر ثاقب وذهن رائق ونفس صادق وروية ملأت علومها المغارب والمشارق وقريحة اذا ذقت جناها وشمت سناها تذكرت مابين العذيب وبارق فبارك ابن الحسن من الحسن فى هذا الفن نوعا فما أحقه بقول القائل فيما أجاد صنعا

قطف الرجال القول حين نباته * وقطفت أنت القول لما نورا

فلله در ألفاظك بانواب ولله در رفضلك يا أواب وأحسن بوابلك الهاطل بالبيان وطلك المغيث بالعرفان على رسل(١) فالك من مجارى * الى رتب العلاء ولا رسيل (٢)

لسانك غواص ولفظك جوهر * وصدرك بحر بالفضائل زاخر

وبالجملة فلقد وقفت على هذا التأليف وقوف من أفحمه الحصر ورمت التطاول لمدحه فلحق باعى القصر واستنطقت لسانى ليعرب عن حسن وصفه فاستعجم واستقدمت جواد قلمى للجرى فى هذا الميدان فاحجم وكيف وقد حقق لنا بما نقب عليه وقرر واستخرجه من عويصات الافكار وحرر قول القائل الماهر كم ترك الاول للآخر وعلمنا ان فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا والمنح الالهية ليست مختصة بقوم دون قوم ولا مناضة فى يوم دون يوم بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فلعمرى ان هذا لهو التأليف الذى يفتخر به العالمون ولمثل هذا فليعمل العاملون لابرحت حدائق حقائقه نزهة للاحداق وحقائق بلاغته وحسن تأليفه فى جيد الاجادة بمنزلة الاطواق والله المسؤل ان يرفع قدر مقال مؤلفه ومقام قدره ويوضح منهاج التفسير بنور بدره بمنه وكرمه ولازال قدوة لمن اقتدى وسراجا منيرا لمن استرشد واهتدى ونور الشريعة بمحامد صفاته الشريفة فلازال بها محمدا سائلا من الله تعالى ان يديم قراطالعا فى سماء السعادة ساميا مراتب المفاخر والسيادة آمين اللهم آمين والى هنا انتهى بنا الكلام على ما أردناه من التقريظ على هذا المصنف الذى لايقدر وصفه وقصدناه

(١) أى مهل اه منه
(٢) أى موافق لك فى النضال اه منه

والصلاة والسلام على من حسن به الابتداء والختام سيدنا ومولانا محمد بدر التمام وعلى آله وأصحابه هداة الأنام ما أشرق نجم في الخضراء وأورق نجم في الغبراء آمين اللهم آمين * قاله بلسانه وخطه ببنانه وحرره بقلمه وبيانه خادم العلم والعلماء العبد الاحقر المستحق اسمه ان لا يستطر الفقير الى الله تبارك يوسف بن المبارك حسين الشافعي الاشعري العريشي اليمني غفر الله له وستر عيبه وخلله آمين اللهم آمين

